THE BOOK WAS DRENCHED

شعراء الأندلس

ديوان ابن زيدون

رسائله أخباره شعر الملكين

« ابن زيدون عبقرىّ زمانه قصر المحسنون عن إحسانه
أحد الروم فى الحريرة عنه ومشوا فى حباله وافتنانه . »
« شوقى »

شرح وضبط وتصنيف

كامل كيلانى و عبد الرحمن خليفة

الطبعة الأولى
١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م - رقم ٤٧٤

طبع بمطبعة
مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر
وناشر طبعه محمد أمين عمران

فهرس

مقدمة ديوان ابن زيدون

فهرس ديوان ابن زيدون

مقدمة ابن زيدون



لحضرة صاحب السعادة أمير الشعراء

يَا ابْنَ زَيْدُونَ مَرْحَبَا قَدْ أَطَلْتَ التَّغَيُّبَا
إِنَّ دِيوَانَكَ الَّذِى ظَلَّ سِرًّا مُحَجَّبَا
يَشْتَكِى الْيُتْمَ دُرُّهُ ، وَيُقَاسِى التَّغَرُّبَا
صَارَ - فى كُلِّ بَلْدَةٍ - لِلْأَلِبَّاءِ مَطْلَبَا
جَاءَنَا « كَامِلٌ » بِهِ عَرَبِيًّا مُهَذَّبَا
تَجِدُ النَّصَّ مُعْجِبًا وَتَرَى الشَّرْحَ أَعْجَبَا

☆ ☆ ☆

أَنْتَ فى الْقَوْلِ كُلِّهِ أَجْمَلُ النَّاسِ مَذْهَبَا
بِأَبِى أَنْتَ هَيْكَلاً - مِنْ فُنُونٍ - مُرَكَّبَا
شَاعِرًا أَمْ مُصَوِّرًا كُنْتَ، أَمْ كُنْتَ مُطْرِبَا؟
تُرْسِلُ اللَّحْنَ كُلَّهُ مُبْدِعًا فِيهِ مُغْرِبَا
أَحْسَنَ النَّاسِ هَاتِفًا ، بِالْغَوَانِى مُشَبِّبَا
وَنَزِيلَ الْمُتَوَّجِيـ ـنَ النَّدِيمَ الْمُقَرَّبَا
كَمْ سَقَاهُمْ بِشِعْرِهِ مِدْحَةً أَوْ تَعَتُّبَا
وَمِنَ الْمَدْحِ مَا جَزَى وَأَذَاعَ الْمَنَاقِبَا

☆ ☆ ☆

إِذَا الْهَجْوُ هَاجَهُ - لِمُعَانَاتِهِ - أَبَى

وَرَآهُ رَذِيلَةً لاَ تُمَاشِى التَّأدُّبَا

مَا رأَى النَّاسُ شَاعِراً فَاضِلَ الْخُلْقِ طَيِّبَا

دَسَّ لِلنَّاشِقِينَ - فى زَنْبَقِ الشِّعْرِ - عَقْرَبَا

* * *

جُلْتَ - فِى الْخُلْدِ - جَوْلَهً هَلْ عَنِ الْخُلْدِ مَنْ نَبَا ؟

صِفْ لَنَا مَا وَرَاءَهُ مِنْ عُيُونٍ وَمِنْ رُبَى

وَنَعِيمٍ وَنَضْرَةٍ وَظِلاَلٍ مِنَ الصِّبَا

وَصِفِ الْحُورَ مُوجِزاً - وَإِذَا شِئْتَ - مُطْنِبَا »

* * *

لَمْ تَرَ الْأَرْضَ - مِثْلَمَا كُنْتُمُو أَمْسِ - مَلْعَبَا

وَتَرَى الْعَيْشَ لَمْ يَزَلْ - لِبَنِى الْمَوْتِ - مَأْرَبَا

وَتَرَى ذَاكَ - بِالَّذِى عِنْدَ هٰذَا - مُعَذَّبَا

* * *

« إِنَّ مَرْوَانَ عُصْبَةٌ يَصْنَعُونَ الْعَجَائِبَا

طَوَّفُوا الْأَرْضَ مَشْرِقاً - بِالْأَيَادِى - وَمَغْرِبَا

آلَهٌ أَطْلَعَتْكَ فِى ذِرْوَةِ الْمَجْدِ كَوْكَبَا

أَنْتَ لِلْفَتْحِ تَنْتَمِى وَكَفَى الْفَتْحُ مَنْصِبَا

لَسْتُ أَرْضَى بِغَيْرِهِ لَكَ جَدًّا وَلاَ أَبَا »

« شوقى »

مقدمة

١ تحريف الديوان

كان أيسر مافى هذا الديوان نسخه وضبطه وشرحه : فقد أسلفنا ما كابدناه فيه من عناء التحريف كل عناء آخر كابدناه فيه ، وقد وفق النساخ أيما توفيق فى تشويه محاسن هذا الديوان الفذ ، وتحريف أبياته ، وطمس غرره وتشويهه .

ولقد كنا نقرأ القصيدة عدة مرات ، وكأننا ـ لشدة مافيها من تحريف واضطراب ـ أمام طلسم غامض لاسبيل إلى حله ، ثم لايلبث الصبر أن يذلل من العقبات ما كنا نوقن باستحالة تذليله ، وكانت تعترينا لذة النور والانتصار ـ كلما اجترنا عقبة ـ أن نقتحم أخرى حتى انتهينا من هذا الديوان ونحن لا نكاد نصدق بأننا قد اجترنا هذه المفازة المجهلة . وعرفنا عن ذلك المعجم الرائع كثيرا من الهضاب والكثبان المتراصة فوقه .

وما نزعم أننا قد برأنا هذا الديوان من كل عيب ، ونزهناه عن كل تحريف ، ولكننا نجرؤ فنزعم أننا لم نأل جهدا فى تبرئته من كل عيب وتنزيهه عن كل تحريف ، فإذا ند عن خاطرنا معنى أولحق بذهننا كلال فى تصحيح بيت أو تجلية غامض فهو الذهن الانسانى يحلق ثم يسقط ،ويبدع ثم يسف ، ويعتوره النقص والكلال على قوى مايكون رغبة فى توخى الابداع والكمال .

٢ أمثلة من التحريف

قلنا إن نسخ هذا الديوان وضبطه وشرحه كانت أيسر ما لقيناه من العناء، وهذا الكلام ربما لمح فيه القارئ الخالى الذهن نوعا من الزهو والخيلاء ، ولكنه الحقيقة التى لا أثر للمغالاة فيها،ولو أننا أردنا أن نسرد كل ماأصلحناه من تحريف أوتشويه لاضطررنا إلى ذكر أكثر أبيات الديوان ، وقد أشرنا إليها فى مواضعها من الكتاب، فلنجتزئ بذكر القليل منها عن الكثير، ليرى القارئ المنصف مقدار ماجنى النساخ على شعر هذا الشاعر العظيم ، ونحن لانرى فى مثل هذا العمل إلا أنه زكاة يؤديها الأديب للأدب العربى الزاخر بأروع الخوالج النفسية وأسمى المعانى الرائعة

وليمثل القارئ نفسه أمام هذا البيت مثلا .

« لم يدع من شيئا من حلد   مع أنى لم أزل تحت العزر . »

أو البيت التالى :

« كأنا لم يواليبا ،زمان لين الأخدع . »

أو قوله فى نفس القصيدة : « وأب النمل لايجدع . »

أو قوله فى قصيدة أخرى :

« حياء هو الليل ادلهم ظلامه . »

أو قوله :

« رمن كما لون الرصا ع يشوق ذكراه الفطيم »

أو قوله : « لم أدع حظى منها بالحيل . »

أو قوله :

« فما ابك إلا عدل نفسك إن يسر فللجسم لا للنفس منك مقام »

فى قصيدة لم يرد فيها ذكر اسمه ثباتا :

فإذا قرأت البيت الأول قراءة صحيحة . قلت :

« لم تدع منى سقامى جلدا مع أنى لم أزل ثبت المرر »

والبيت الثانى

« كأنا لم يؤالفنا رمان لين الأخدع »

والشطر الثالث : « وأب الفحل لايجدع »

والبيت الرابع :

« جفاء هو الليل ادلهمّ ظلامه »

والبيت الخامس

« رمن كمألوف الرضا ع يشوق ذكراه الفطيم »

والبيت السادس

« لم أرع حظى منها بالحيل »

والبيت السابع

« فما إفك إلا عدل نفسك ان يعب فللجسم لا للنفس منك مقام »

فإذا أضفت إلى هذا العناء عناء آخر هو بعض تكملة الأبيات الناقصة بما يلائم معناها ظهر لك أننا لم نكن مغالين فى وصف ما كابدناه من المشقة والتعب.

ومن أمثلة ذلك قوله : « . . . فى حوارکم دليل . »

وقد أتممناه بما يلائم المعنى بقلنا : « [حاجى] فى حوارکم ذليل »

وقوله :

« . . . . . ساووا لأياديك التى بعضها فوق الشامى»

وقد أتممناه وأصلحناه كما يلى :

« [فتقبله] شافعا لأيادي . لك التى بعضها يفوق الثناء »

وانما اجترأنا بهذه الأمثلة القليلة لأن الثمرة – كما يقول شيخ المعرة – تدل على الشجرة ولأن الديوان كله ماثل بين يدى القارئ فلا حاجة بنا إلى الافاضة فى ذكر الأمثلة .

٣ أثر التحريف

وكثير مما يرويه أساتذة الأدب فى المدارس من شعر ابن زيدون محرّف أو مشوّه ، ومن ذلك ما أنشده الأستاذ علام سلامة فى مذكراته المطبوعة لطلبة دار العلوم :

« وبيت ملك كأن الله أنشأه مسكا وقد أنشأ الله الورى طينا . »

والبيت فى وصف ولادة . وصوابه . « ربيب ملك » ، وقد أكثر شعراء الأندلس – ومنهم ابن زيدون – من هذا التعبير، والرواية التى أخذ بها الاستاذ علام هى رواية نفح الطيب الذى لا يقل تحريفه وتصحيفه عن تحريف الديوان وتصحيفه . وقد أنشدنا هذا البيت كما يلى :

« ربيب ملك كأن الله أنشأه مسكا وقدر إنشاء الورى طينا »

وبهذا يظهر جمال أسلوب ابن زيدون وروعة أدائه .

وقد روى بعض الأدباء البيت التالى لابن زيدون هكذا .

« سنون من الأيام خمس قطعتها أسيرا ، وإن لم يبد شد ولا قمط . »

وصوابها « مئون من الأيام خمس قطعتها » فإن سنين من الأيام أو سنين من الليالى أو سنين من الساعات لامعنى لها – ويؤيد هذا الرأى قول ابن زيدون نفسه من قصيدة أخرى فى رسالة لابن جهور .

« أقصيرا مئين خمسا من الأيام ... »

وقد وقع فى هذا التحريف الأستاذ أحمد زكى باشا ثم تابعه فى ذلك الأستاذ أحمد السكندرى وظن الاستاذ زكى باشا أن ابن زيدون قد سجن مرتين ، الأولى خمس سنوات ، واستدل على ذلك بالبيت الأول ، والثانية خمسمائة يوم ، واستدل على ذلك بالبيت الثانى .

أما الأستاذ السكندرى فقد قرر أن ابن زيدون سجن خمس سنوات (١) ، وهو لم يسجن إلا خمسمائة يوم كما يدل على ذلك شعره .

---

(١) قال الاستاذ السكندرى :

« لبث ابن زيدون فى السجن بضع سنين ، ولكن كم كانت مدتها ؟ ومتى كان مبدؤها ؟ أما الأول فيحيبنا هو عليه بقوله من قصيدته الطائية البليغة :

« سنون من الايام – خمس قطعتها أسيرا ، وإن لم يبد شد ولا قمط »

وأما الثانى فيحيبنا هو أيضا عليه بقوله من قصيدته الرائية التى كتب بها من السجن الى أبى الحزم جهور : « ألم يأن أن يبكى الغمام على مثلى ... »

« لم يطو برد شبابى كبرة وأرى برق المشيب اعتلى فى عارض الشعر »

وقد جنى تحريف النساخ على أدباء العربية وشعرائها جناية لا تغتفر فاضطربت بسببه آيات البلاغة ودقائق البيان وعزف الكثيرون عن أدبهم بعد أن رأوا ما فيه من الخلط والتشويه والتحريف ولاموهم على ذنوب لم يجترموها وآخذوهم بعيوب لا يد لهم فيها :

« وذنب جرّه سفهاء قوم   وحل بغير جارمه العقاب »

ولا يزال رجال الأدب وأساتيذه الأفاضل مسؤلين عن إصلاح هذه الروائع وتنظيم هذه الكنوز النفيسة وردّها إلى الصواب، حتى يظهر جلال الأدب العربي وروعته وتبرأ ذمم القدماء مما لحق آثارهم الأدبية من الخلط والتشويه .

٤ — لماذا بدأت بهذا الديوان

كانت فكرة موفقة سديدة تلك الفكرة التي خطرت ببال الأستاذ الكبير الدكتور «أحمد ضيف» مدرس الأدب العربي بالجامعة المصرية القديمة حين طلب الىّ عام ١٩٢٢ أن أترجم لطلبة الجامعة الفصل الرائع الذي كتبه الأستاذ المستشرق « نيكلسون » عن الأدب الأندلسي وتاريخه ، فقد كان من آثار تلك الفكرة أني نشطت إلى إلقاء تلك المحاضرات التي أظهرتها للقراء في ذلك العام بعنوان « نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي [1] » ووعدت في مقدمة ذلك الكتاب بالعودة إلى البحث .

قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كثب   وللشبيبة غصن غير مهتصر »

ونحن نعلم أن انقطاع دعوة بني أمية عن قرطبة كان سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، ونعلم أن قد ولد ابن زيدون في سنة أربع وتسعين وثلاثمائة فإذا كان بدأ خدمته في دولة آل جهور وهو في الثانية والعشرين من عمره وإذا قدرنا أنه بعث بهذه القصيدة في مبدأ اعتقاله كما هو الظاهر إذ قد صرح فيها بأنه لم يبلغ الثلاثين ، كانت مدة خدمته لآل جهور لا تزيد على سنتين وكان بدء اعتقاله في نهاية سنة أربع وعشرين وأربعمائة أو أول خمس وعشرين وأربعمائة .

لبث ابن زيدون في السجن خمس سنين استعطف فيها أبا الحزم جهورا واستشفع عنده بابنه أبي الوليد محمد بن جهور ، وكان أليفه وصديقه من قبل وبغيره من الرؤساء ووجوه قرطبة وبث إليه وإليهم شكواه بعدة قصائد أبدعها ورسائل استنفد فيها جهده فما ألان له قلبا اهـ

(١) وقد جاء في مقدمة ذلك الكتاب ما يلي

طلب الى حضرة الدكتور أحمد ضيف ، أن أترجم الفصل التاسع من كتاب « تاريخ آداب العرب للاستاذ نيكلسون » لألقيه في الجامعة المصرية ، وهو الفصل الذي أفرده من كتابه الممتع ، بالكلام على تاريخ الأدب العربي في أسبانيا .

لم أكد أقرأ هذا الفصل حتى بدا لي خطره ونفاسته وعرضت لي عدة ملاحظات على بعض ما جاء فيه ولم أكد أشرع في مناقشة نقطه الجوهرية حتى اتسع أمامي مجال البحث وشجعني على مواصلة ما رأيته من النقص الشديد الذي يكاد يلمسه كل مطلع على الكتب العربية التي تناولت الكلام في هذا الموضوع وما علمته من الحاجة الماسة الى كتاب ييسر على طلبة الأدب الأندلسي وغيرهم من المشتغلين به ، قليلا مما يتكبدونه من عناء البحث في الأسفار العربية الضخمة المهوشة ويحفظ وقتهم الثمين من الضياع .

فالآن أعود إلى الكتابة بعد عشر سنوات مضت على تلك البحوث التمهيدية الأولى .

***

ولكن لماذا اخترت ابن زيدون وبدأت به قبل غيره من الشعراء ؟

لقد كنت أسيء الظن بشعر ابن زيدون وأدبه ، ويخيل إليّ – كما يخيل إلى كثير من أدبائنا الذين يتسرعون في الحكم على الشعراء من غير أن يعنوا أنفسهم بدرس آثارهم وعصورهم دراسة مستفيضة – أنه شاعر صنعة مولع بالبديع والمقابلات اللفظية لا يسمو إلى درجة الفحول الممتازين .

فلما وصلت إلى قول « نيكلسون » في فصله الرائع : « وكانوا يلقبون ابن هانئ بأنه متنبي العرب ، كما يلقبون ابن زيدون بأنه بحتري الغرب [1] » صارحت القارئ حينئذ بأني لا أستطيع الحكم على الجزء الثاني من هذه التسمية ، وقد عقدت فصلا موجزا في المقارنة بين ابن هانئ والمتنبي ، لأني درست ديوانيهما ، وقد عدلت الآن عن بعض آرائي في ذلك الفصل . ولم أستطع المقارنة بين ابن زيدون والبحتري ، لأني قرأت ديوان الثاني ولم أقرأ للأول إلا بضع قصائد لا تكفي للحكم على شاعر .

وذكرت أن جلال بحثنا القريبة لا يتناسب مع جهلنا عظماء أمتنا الذين تركوا أوضح الأثر في ثقافة نستمد منها الحياة والقوة ، وأن كان من الواجب ألا يجهل الإنسان عظماء الأمم ذوي الأثر الكبير في الحضارة العالمية فهو أجدر ألا يجهل عظماءه قبل كل شيء .

دفعتني هذه الاعتبارات إلى عدم الاقتصار على ترجمة هذا الفصل الممتع وتم اتخذته مرجعا من المراجع الكثيرة التي رجعت إليها بدلا من أن اتخذه موضوع محاضرة .

وقد اقتصرت في هذا الكتاب على ترجمة نصف الأول من هذا الفصل ، وقد ألقيت القسم الأكبر من هذه المحاضرات منذ أكثر من عامين في الجامعة المصرية ، ثم نشرت بعضها في إحدى الصحف الأدبية فلقيت من الاستحسان والإنصاف ما حملني على طبعها .

ولم يفتني أن أورد في حواشي الكتاب كثيرا من الملاحظات الضرورية التي أسقطت في سياق الإلقاء إذ لا اكتفاء بالإشارة إليها دون ذكرها وقت إلقاء المحاضرات .

وقد تعمدت ذكر أمثلة وشواهد كثيرة من الكتاب ما كانت لتشمله لولا حاجة الشرح إلى الاستشهاد بها أولا ولأني وثقت أن جمهور الأدباء لا يزال يجهلها .

(وبعد) فهذه نظرات سريعة أسوقها إلى تاريخ الأدب الأندلسي وأتبعها بعد قليل بالقسم الثاني منه ، فليغفر لنا القارئ على أنها مقدمة لدراسة الأدب في ذلك العصر ، وأنا نجدها نواة لكتاب نتناول فيه ذلك التاريخ بشيء من التوسع والإسهاب إذا أمكننا الفرص . وكان في الأجل بقية .

(1) قال الأستاذ نيكلسون

« إن قافلة العلماء الذين رحلوا في طلب العلم إلى أفريقيا ومصر وإلى المدن المقدسة في بلاد العرب وإلى حواضر سوريا العظيمة والعراق ، وإلى خراسان وتركستان بل وإلى بلاد الصين أحيانا – كانت تحوي كل نابهي الأدباء وحفظة اللغة العربية لذين أخذوهم أساتيذ لاحقة كما نرى ذلك من يتصفح الفصل الخامس من كتاب المقري . لهذا كانت حركة مبادلة الآراء في دؤوب ونشاط فلم يستأثر أحد من رجال الشرق والغرب بشيء خاص ، فعرف الناس قبل كل شيء أن مشاهير شعراء الأندلس كابن هانئ وابن زيدون كان يعتبرهما البغداديون قرنين يضاهيان متنبي العرب وبحتريه . »

ورأيت أن واجب الأمانة يقضي عليّ أن أدرس ابن زيدون كما درست البحتري ليتسنى لي أن أنصفه .

وما كدت أبدأ في درس ابن زيدون ، شعره ونثره، وأتقصى أخباره وأخبار عصره، حتى رأيت ما راعني وأدهشني ما رأيت، لقد كنت أستكثر عليه اسم شاعر عادي فصرت أستقل له الآن اسم شاعر كبير وكنت أكرهه لتكلفه بالصنعة التي بغضت إلينا أكثر شعراء ذلك العصر وأفسدت علينا أكثر الأدب العربي ، فإذا بي أحب هذا اللون الرائع من الصنعة المعجبة التي تمتزج بالنفس وتهيمن على القلب وتحبب فيها أشد الناس بغضا لها، وقد عرف ابن زيدون كيف يتخذ من الصناعة والبديع أدوات للافتنان في الأداء والتعبير والابداع في تصوير أروع المعاني الساحرة وأدق الخوالج النفسية ، وإذا بها نفس تطرب إلى الجمال وتفتن في التعبير عنه ، وطبيعة سمحة صناع لا التواء فيها ولا تكلف ، وقد صدق القائل : « كل طعام يتناوله الصحيح ينقلب إلى صحة ، وكل طعام يتناوله المريض ينقلب إلى مرض » وهكذا كرهها المقلدون في الصنعة والبديع ، كما حبب إلينا المبدعون كثيرا من ألوان الصنعة والبديع .

الحق أن ابن زيدون ساحر بياني خلاب يتخذ من الصنعة وسيلة للروعة والدقة وحسن الأداء ، كما يتخذ المصوّر الماهر – من مختلف الألوان والأصباغ – وسيلة للتعبير عن أدق وأخفى الأسارير واللمحات .

ولا أكتم القارئ أني من ألدّ أعداء الصنعة اللفظية ، ولكني من أشد أنصارها إذا جاءت عن هذه الطريق .

ولقد أراد بعض الكتاب أن يعيب على ابن زيدون وأناتول فرانس أنهما من رجال الأساليب، ونسوا أن الأسلوب العالي هو غاية تنحاز دونها الرقاب، وأن طول المرانة والدرس تخلق من صاحبها الكاتب الحاذق والشاعر اللبق ولكنها أعجز من أن تخلق الكاتب الموهوب والشاعر العبقري أو تلهمهما الأسلوب العالي الذي يحاول بعض الأدباء أن يزري به ويحقره .

٥ تنفيذ الفكرة

ولم أكد أبدأ في قراءة ديوانه ونسخه حتى أكبرت الرجل وفتنت بشعره وسحرت ببيانه الرائع وإن قطع عليّ إعجابي وفتني ما اعتوره من التحريف والتشويه – وهما من جنايات النساخ على الأدب العربي – ولكني اعتزمت المضي في هذه الطريق الوعرة وصممت على اجتياز هذه المفاوز التي لا أعلام فيها ولا صوى (١) نسترشد بها في السير ، ثم شغلتني أعمالي الكثيرة عن المضي فيها لما تتطلبه من عناء لا تحتمله صحتي المنهوكة ، وفراغ من الزمن يضيق عنه وقتي المزدحم بالفروض والواجبات .

---

(١) الصوى : العلامات الطريقية التي نطلق عليها اسم « Milestones »

ولم يكن من اليسير عليّ أن أظفر بأديب تدفعه الغيرة على الأدب العربي الى التضحية بصحته ووقته في عمل مضن شاق لا يفهم منه القارئ العادي إلا أنه هين سهل لا يتجاوز شرح ديوان شاعر وضبطه .

ولكن صديقي الأديب العالم الفاضل الشيخ عبد الرحمن خليفة تقدم الىّ مظهرا لى استعداده لمعاونتي في هذا العمل والسير معي في هذه المفازة .

ولصديقي الفاضل ولع شديد بدرس الأدب العربي، وغيرة نادرة على اللغة العربية، وحرص بالغ على كنوز البيان العربي ، وصبر لا يشركه فيه الا القليل من الأدباء المخلصين ، وعزيمة لا تعرف للتردد والنكوص معنى ، وهذه هي الصفات التي كنت ولا ازال أنشدها فيمن ينصدى لمثل هذه الأعمال المضنية .

وكان صديقي عند حسن ظني به ، فقد كان يقضي معي الساعات الطوال دائبا لا يكلّ ولا يني ولا يفتر عزمه الا ريثما يتجدد ، و يعود إلى أقوى مما كان عليه نشاطا وهمة ، وهكذا مضينا معتزمين في شرح الديوان وضبطه و إصلاح تحريفه حتى أظهرناه للقارئ في هذا المظهر الأنيق .

٦ – رسائل ابن زيدون وأخباره

ولما كان التحريف قد لحق نثر ابن زيدون كما لحق أشعاره وان حمت عناية الأدباء وتعاونهم وشروحهم عباء التحريف في الرسالتين الجدية والهزلية فقد رأينا أن نثبت كل ماوقع لنا من نثر ابن زيدون وشعره وأخباره كما أثبتنا ماوصل الينا من شعر « المعتمد » و « المعتضد » و « ابن جهور » و بعض المعاصرين لابن زيدون كابن عمار وغيره ، وأتبعناهم بدراسات الأدباء المعاصرين تتمة للبحث .

وقد اتسع النطاق حتى ضاقت صفحات هذا الديوان – على كثرتها – فاضطررت إلى فصل سفرين عنه واخراجهما مستقلين ليعاونا القارئ على درس هذه الفكرة من كل وجوهها. وسأفرد – ان شاء الله – كتابا يظهر بعد انتهاء طبع هذا الديوان الحافل . بعنوان « ابن زيدون – أدبه وعصره » وكتابا آخر بعنوان « ملوك الطوائف » يتناول بأسهاب الكلام في عصر ابن زيدون الذي عاش فيه ، حتى لا ينطبق علينا قول المتنبي :

« ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام »

فاذا انتهيت من ذلك بدأت في إظهار ديوان « ابن حمديس » في الحلقة الثانية من سلسلة شعراء الأندلس ، إن ساعفت الظروف وكان في الأجل بقية .

كامل كيلاني

الملاحق

١ — ملوك الطوائف (١)

ابن جهور – بنو عباد

منذ سنين عديدة تقلص ظل السلطة العامة عن الولايات الاسلامية ، وأصبح أمرها بيدها ، ولم يكن تفكك السلطة أمرا مرغوبا فيه عند أهل تلك الولايات عامة ، فقد ذهب بهم التفكير إلى أبعد مداه جزعا من المستقبل وأسفا على الماضى . ولم يستفد من هذا الانحلال فى البلاد إلا ملوك الطوائف وحدهم . وكان من نتائج هذا الانحلال أن اقتسم قوّاد البربر جنوب الجزيرة فيما بينهم ، وحكم الصقالبة الشرق ، وصار ما تبقى بعد ذلك نهبا مقسما بين الطارئين المتوثبين على الحكم ، وآخرين من بقايا الأسر العريقة ممن سنحت لهم الفرصة وساعدتهم على الثبات أمام ضربات « عبد الرحمن الثالث والمنصور » التى كانت مصوبة إلى الأرستوقراطية ، وانتهى الأمر بأن تكوّن من المدينتين الكبيرتين : قرطبة ، واشبيلية . حكومتان شوريتان ، أما قرطبة فقد حدث بعد إلغاء الخلافة أن اجتمع كبار أهلها وعمدوا الى إسناد السلطة التنفيذية إلى « ابن جهور » الذى عرف عند الجميع بالجدارة والاستحقاق لتقلد هذا المنصب والاضطلاع بالحكم ورفض بادئ ذى بدء ، هذا المركز السامى الذى عرض عليه ، و بعد إلحاح من جماعة المتحمسين له ، رضى بقبول هذا المنصب ، ولكن على شريطة أن يكون عضوان من أسرته زميلين له فى مجلس الشورى ، وهما : محمود بن عباس ، وعبد العزيز بن حسن ، فأجابه الجماعة إلى ما طلب ، ولكن على شرط أن يكون لهذين الاثنين صوت استشارى .

وقد حكم السفير الأوّل الحكومة الشورية الجديدة بطريقة عادلة رشيدة ، و إليه يرجع الفضل فى أن أهل قرطبة لم يعودوا يشكون شيئا من المظالم التى كانت تقع عليهم من قسوة البربر . فكان أوّل ما وجه إليه نظره أن صرفهم عن الخدمة ، واحتفظ بنى

(١) ارجع إلى ما نشرناه فى آخر الديوان للأستاذ « نيكلسون » « ص ٤٢٧ » أما هذا الفصل فهو للعلامة دوزى وقد نقلناه من كتاب « ملوك الطوائف » الذى نظهره قريباً إن شاء الله .

ايفورين» « Beni - Iforen » وحدهم ، وهم الذين يستطيع أن يعتمد على ولائهم وطاعتهم، واستبدل بالآخرين الذين سرحهم من البربر حرسا وطنيا . وكان يظهر بمظهر من يريد استقرار نظام الحكم الجمهوري ، فكان إذا طلب إليه تنفيذ أمر يقول : « ليس من شأني أن أقرر أمرا هو من اختصاص مجلس الشورى ،وما أنا إلا منفذ لأوامره وقراراته . »

وكلما وردت عليه قصة أو كتاب رسمي يكون موجها إلى شخصه أبى تسلمه وأمر بتوجيهه إلى مجلس الوزراء. ولم يكن ليصدر قرارا قبل عرضه على مجلس الشورى ، أضف إلى هذا أنه لم يكن يتظاهر البتة بمظهر الحاكم ، فهو ــ بدلا من أن يقيم بقصر الخلافة ــ بقي مقيما بمسكنه المتواضع الذي اعتاد سكناه دائما. وكانت العقيدة في نزاهته ثابتة قوية لاتحوم حولها الشكوك والريب، وقد رفض ــ مع هذا ــ أن يكون بيت المال في داره وتحت إمرته ،فعهد بحراسته الى أكثر الناس مقاما وأكثرهم احتراما في المدينة . ومع حبه ــ في الحقيقة ــ للمال، فقد عليه المصلحة ألا يرتكب عملا غير شريف، ولما كان مقتصدا بل وحريصا حرصا يكاد يصل به إلى درجة البخل فقد أثرى حتى صار أغنى رجل في قرطبة ، ولكنه في الوقت نفسه بذل من الجهد المحمود ماوفر به اليسر والرخاء على الناس كافة .

وكان يبذل ما في وسعه لتحسين العلاقات الودية بينه وبين الممالك المجاورة ، وقد كتب له النجاح في ذلك . فلم يمض وقت طويل حتى توطد الأمن . وأمنت السبل، وانتشرت التجارة والصناعة وهبطت أسعار المواد الغذائية . وأم قرطبة طوائف كثيرة من السكان أعادوا بناء الأحياء التي دمرها البربر أو أحرقوها حينما أوقعوا النهب والسلب في المدينة .

وعلى الرغم من هذه الأعمال التي قام بها، فإن قرطبة ــ عاصمة الخلافة القديمة ــ لم تسترد مكانتها السياسية ، ومنذ ذلك الحين بدأت اشبيلية ــ التي سنعنى بتاريخها عناية خاصة ــ تحرز الشأن الأول في المركز السياسي .

كانت اشبيلية ــ منذ أمد بعيد لاتزال ــ مرتبطة الحظ بقرطبة متأثرة بما يجرى من الحوادث فيها ، متأسية بالعاصمة خاضعة لملوك الدولة الأموية على التعاقب ثم لدولة بني حمود ، ومن جراء ذلك كان للثورة التي وقعت في قرطبة أثرها السيء في اشبيلية ، فقد ثار القرطبيون على قاسم بن حمود وطردوه،فعوّل هذا الامير على الالتجاء الى اشبيلية حيث يقيم بها ولداه ، ومعهما حامية من البربر تحت قيادة محمد بن زيرى من قبيلة بني ايفورين .

وأرسل إلى الاشبيليين يأمرهم باخلاء مائة مسكن لجنوده القادمين معه . وقد ترك هذا الأمر أثرا سيئا في نفوس أهل إشبيلية هذا إلى ماعرف عن جنود قاسم الذين هم أحقر أبناء جنسهم من أنهم من كبار اللصوص . وقد أظهرت قرطبة للاشبيليين أن من الممكن أن يتحرروا من هذا النير الذي يضجون بالشكوى منه. فعوّلوا على أن يحذوا حذو قرطبة، إلا أن خوفهم من حامية البربر المقيمة بين ظهرانيهم حال بينهم و بين تحقيق أمانيهم ، و بعد

جهد بجح قاضى المدينة «أبو القاسم بن عباد» فى كسب قائد الحامية وضمه إلى جانبه بعد أن صرح له بأنه من الهين السهل أن يصبح ملكا على اشبيلية ، وأعلن حينئذ محمد بن زيرى استعداده لمساعدته، وسارع القاضى فعقد بينه وبين قائد بربر «قرمونة» محالفة تقلدوا السلاح ـ على أثرها ـ ضد ولدى قاسم وحاصروا قصره .

ووصل قاسم إلى أبواب اشبيلية التى كانت مغلقة ، وحاول أن يجتذب سكان المدينة إليه بالوعود الخلابة ، ولكنه أخفق فى هذه المحاولة ، ولما أوجس خيفة من نفسه على ولديه اللذين كانا معرضين للهلاك داخل المدينة ، قطع على نفسه عهدا أن يجلى ـ هو ومن معه من الجند ـ عن أراضى اشبيلية، اذا ماأسلموا اليه ولديه وأموالهما وممتلكاتهما، فضمن له الاشبيليون تنفيذ هذا الشرط ، وعلى أثر ذلك انسحب قاسم وعاد أدراجه، وتم سنحت للقاضى أول فرصة ليرضى حامية البربر.

ولما حصلت المدينة على حريتها اجتمع كبارها ليختاروا حاكما يولونه عليهم ، إلا أن الخواطر فى هذه الحال لم تكن هادئة والنفوس لم تكن مطمئنة خشية أن تتمخض الحوادث عن ثورة . أو أن يعيد بنو حمود الكرة عليهم ، وحينئذ لا يتوانون لحظة عن معاقبة المجرمين الثائرين ، ولهذا لم تبد من أحد منهم أية رغبة قط فى أن يأخذ على عاتقه تحمل عبء المسؤولية عما وقع .

واتفق عامتهم على أن يلقوا عبء المسؤولية على عاتق القاضى وحده الذى حسدوا ثروته واستشعروا سرورا خفيا فى أعماق نفوسهم بدنو الساعة التى تصادر فيها هذه الثروة الطائلة .

فعرضوا على القاضى أن يتولى حكم المملكة، وكان ـ مع ما يجيش بصدره من مطامع وآمال ـ حكيما حازما ، فرفض فى إباء أن يتولى الحكم فى وقت غير مناسب . ولم يكن القاضى متصل النسب بالسلالات العريقة، إلا أنه امتاز بجيازته أكبر ثروة ، فقد كان يملك ثلث أرض اشبيلية ، وفوق ذلك فقد كانت له منزلة سامية من الاعتبار نظرا لمواهبه العلمية ، وكان يعوزه أن يضم الى هذه المؤهلات أن تندمج أسرته ضمن السلالات العريقة القديمة . وقد تم له ذلك ـ فيما بعد ـ تدريجا ، وكان يدرك أنه فى حاجة ماسة إلى وجود عدد من الجند تحت إمرته ، وليس لهذا العدد وجود، ولم يشك فى أن الارستقراطية العظيمة المجيدة فى اشبيلية لابد أن تثور على صعلوك مثله غير معروف النسب ، يسمو مكانه إلى تسنم ذروة الخلافة ، ولم يكن ثمة شيء غير هذا فى الواقع ، وقد وقع هذا حقيقة عندما أوشك بنو عباد أن يؤسسوا الخلافة لأنفسهم .

وثمة زعم آل عباد أنهم من سلالة ملوك « لخم » الذين كانوا يحكمون الحيرة قديما قبل ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) وكان الشعراء الذين يريدون إشباع بطونهم يتحينون الفرص للاشادة بهذا النسب العريق المزعوم ، على أنه لم يوجد مايبرر هذا الزعم، لأن بنى عباد والمنتمين إليهم ومن يتملقونهم لم يستطيعوا أن يقيموا الدليل على ذلك، وكل مايربط هذه الأسرة بملوك الحيرة أنها تنتسب الى قبيلة لخم اليمنية التى ينتسب إليها ملوك الحيرة . ولكن فرع أسرة آل عباد الذى

تسلسل منه آباؤهم لم يقطن ـ على ما يظهر ـ الحيرة بتاتا ، ولكنهم كانوا يقيمون أخيرا بالعريش الواقعة على حدود مصر وسوريا فى قسم إيمير « Emese ».

وعلى الرغم من أن آل عباد بذلوا مافى استطاعتهم كى يصلوا نسبهم بملوك الحيرة فانهم لم يستطيعوا أن يصعدوا به إلى أبعد من نعيم والد عطاف ، وكان عطاف هذا على رأس كتيبة من جنود إيميز وقد رحل الى أسبانيا مع بلج حيث أعطيت لجنود إيميز أراض على مقربة من اشبيلية وأقام على ضفاف الوادى الكبير ، وقد انحدر عن أصل هذه الأسرة فروع فيما يقرب من سبعة أجيال أخرجت ببطء من ظلمة الماضى أناسا صالحين عاملين مقتصدين ، واسماعيل والد القاضى هو عنوان مجدها وهو الذى خط اسمه فى الصحيفة الذهبية لنبلاء اشبيلية اسم عباد (1) . ولا غرو فقد كان اسماعيل من حملة الأقلام والسيوف ، وكان رجل فقه ودين كما كان رجل حرب وطعان ، فقد تولى قيادة فرقة فى حرس هشام الثانى ، ثم صار ـ فيما بعد ـ إماما لمجلس قرطبة الكبير ، ثم قاضيا لاشبيلية ، واشتهر بالفقه والذكاء والورع و إرشاد العامة ، و إسداء النصح للكافة ، وكانت شهرته فى النزاهة تربو على شهرته فى غير ذلك من الأمور ، فهو على الرغم من انتشار الفساد والرشوة كان يتورع عن أن يقبل هبة من سلطان أو وزير ، وكان كريما الى أبعد غايات الكرم ، وقد لقى القرطبيون منه كرم الضيافة ، وحسن العشرة ، فجعلته كل هذه المزايا والصفات حريا أن يحرز أكبر ألقاب النبل والسؤدد فى العرب .

وقبيل العهد الذى نحن بصدده توفى الى رحمة الله فى غصون سنة ١٠١٩ .

ور بما كان ابنه أبو القاسم محمد يماثله علما وأدبا و إن كان لايدانيه خلقا وفضلا ، فقد كان أنانيا ذا أثرة وطمع وصلف وتنكر و إنكار للجميل ، وقد حدث على أثر وفاة أبيه أن طمع فى أن يخلفه فى منصب القضاء ، ولكن القوم آثروا عليه غيره ، فتقدم بالرجاء الى قاسم بن حمود فنال ـ بفضل قاسم ـ منصب القضاء الذى كان يؤمله . وقد يرى المتتبع للحوادث فيما بعد كيف كان نكرانه لهذا الجميل .

وفى مفتتح هذا العهد ـ الذى نحن بصدده ـ أشار نبلاء أشبيلية وأصحاب الرأى فيها على أبى القاسم قاضى اشبيلية أن يتبوأ عرش المملكة ، ولما أدرك الغاية التى يرمون اليها أظهر لهم أنه لايستطيع أن يقبل هذا الشرف الذى يولونه إياه إلا اشترط أن يشرك معه فى الحكم أفرادا يعينهم هو بنفسه على أن يكونوا وزراءه وأعوانه فى الاضطلاع بأعباء الحكم بحجة أن هؤلاء الاشخاص الذين يشركهم معه فى الرأى ستتألف منهم هيئة شورية تقوم على تدبير المملكة بحيث لايصدر إلا عن رأيهم ، ولا يتخذ أى قرار بدون مشاورتهم ، فقبل الاشبيليون مااشترطه القاضى من أن يكون حكمه على قواعد الشورى فلا يحكم بمفرده ، وطلبوا إليه إنفاذ ما التزمه من تعيين أولئك الزملاء والأعوان ، فعين بعض كرام الأسر العريقة مثل ابن حجاج وآخرين كانت تسمو إليهم الأنظار وترمقهم العيون من نصرائه الذين أنجبهم العصر ،

---

(1) وكان عباد الجد الثالث لاسماعيل

وأطلعهم كواكب في سماء العصر ، كأبي بكر الزبيدي العالم النحوي الشهير مؤدب هشام الثاني ، وبعد أن تم له ما أراد من ذلك انصرف همه الى تكوين جيش للمملكة ، رفع أعطيات وأرزاق الجند ، فانضوى تحت لوائه كثير من العرب والبربر ، ثم اشترى عددا كبيرا من المماليك ودربهم على القتال وجرّد منهم حملة على الشمال ، وهي في الكثير الغالب كانت موجهة الى أمراء آخرين ، وقد حاصر قصرين في شمال فيزى أنشئا متقابلين على صخور يفصلهما سور وأطلق عليهما اسم الأخوين وهما معروفان الآن باسم «ألافوين» وكان يقطنهما اسبانيون مسيحيون كان أسلافهم قد عقدوا معاهدة مع موسى بن نصير ، والظاهر أن هذين القصرين لم يكونا في العصر الذي نتحدث عنه في حيازة ملك ليون ولا في حيازة أمير مسلم ، ولذلك استولى القاضي عليهما وأرغم الذين كانوا يدافعون عنهما — وهم زهاء ثلاثمائة فارس على الانضواء تحت لوائه ، وبذلك زادت نواة جيشه فبلغت خمسمائة فارس ، وثمة اجتمع لديه من الجند ما يكفي للاغارة على الممالك المتاخمة له ، إلا أن حالته هذه لم تكن لتمكنه من صد هجمات قوية جدية ضد اشبيلية ، وهذا ما وقع له سنة ١٠٢٧ ، في هذه السنة جاء الخليفة الحمودي يحيى بن علي وأمير بربر قرمونة محمد بن عبد الله وحاصرا اشبيلية ، ولما كان في منتهى الضعف بحيث لا يستطيع المقاومة طويلا أخذ الاشبيليون يفاوضون يحيى وأعلنوا أنهم مستعدون للاعتراف بسيادته عليهم على شرط ألا يدخل البربر مدينتهم فقبل يحيى هذا الشرط ولكنه شرط عليهم — ضمانا لوفائهم وإخلاصهم — أن يرسل بعض أعيان ونبلاء اشبيلية أولادهم ليكونوا عنده رهائن يضمن بها ولاء الاشبيليين ، فلم يستطع أحد منهم أن يقدم ابنه خشية من البربر الذين يقضون على حياته لأقل شبهة ، والقاضي وحده هو الذي لم يتردد في إجابة الطلب إذ أرسل الى يحيى نجله عباد. ولعلم الخليفة بما للقاضي من الجاه والنفوذ اكتفى بقبول ابنه رهينة لديه ، وبفضل هذا العمل المجيد الدال على الاخلاص للبلاد ازدادت مكانة القاضي عند الاشبيليين عامة ، وأصبح منذ ذلك الحين — لا يخشى شيئا لا من جانب الشعب ، ولا من جانب الخليفة الذي اعترف بسيادته شكلا وخيل إليه أن الفرصة السانحة قد أمكنته من الانفراد بالحكم .

ولما كان قد أبعد من مجلس الحكم مثل ابن حجاج وغيره ولم يبق معه سوى زميلين ثم رأى أن يصرفهما عن خدمته ، وبني زبيدي ، وعين رجلا من خواص أشبيلية اسمه « حبيب » رئيسا للوزارة ، ولم يكن حبيب هذا من رجال المبادئ إلا أنه مع هذا كان ذكيا مخلصا بكل معاني كلمة الاخلاص لمولاه ، مصرفا الى مصلحته .

وعلى أثر ذلك أراد القاضي أن يزيد في رقعة المملكة بالاستيلاء على باجة ، وقد حلت أخيرا بهذه المدينة المصائب في غضون القرن التاسع عشر من جراء الحرب التي نشبت بين العرب والحانثين . إذ نهبت وخرب البربر جزءا منها ، وعاثوا فيها سلبا ، وأحرقوا ماصادفوه في طريقهم، وكان في نية القاضي إعادة تشييد ماخرب منها ، ولكن لما اتصل بعبد الله بن الأفطس أمير « باداجوز » عزم القاضي ، جرد جيوشه تحت إمرة ابنه محمد « الذي خلفه فيما بعد باسم المظفر » وتمّ استيلاء هذه الجيوش على باجه في الوقت الذي جاء فيه اسماعيل بن القاضي بجيش اشبيلية وجيش حليف أبيه أمير قرمونه ، فبدأ حصارها في الحال وأمر فرسانه بالسلب والنهب في القرى الواقعة بين ايفورا والبحر ، وعلى الرغم من المدد الذي جاء من ابن طيفور ، فان محمدا كان سيء الحظ كثيرا إذ بعد أن فقد نخبة فرسانه المحاربين وقع أسيرا بين يدي أعدائه وأرسل الى قرمونه .

زادت هذه الانتصارات في حماسة القاضي وحليفه الأمير ، فلم يكتفيا بالاغارة على باداجوز وحدها بل أغارا على قرطبة أيضا فاضطرت حكومتها أن تستخدم للدفاع كثيرا من بربر ولاية سيدونا .

و بعد فترة من الزمن أبرم القاضي وحليفه صلحا أو بمعنى — إن شئت — هدنة مع الافتازيد وحينئذ أطلق محمد من الأسر برضا القاضي (مارس سنة ١٠٣٠) ولما أبلغه أمير قرمونه نبأ اطلاق سراحه عرض عليه أن يعرج في طريقه على اشبيلية ، و يبلغ القاضي شكره ، ولكن محمدا لفرط اشمئزازه من القاضي ، قال لأمير البربر : « إني أوثر أن أظل سجينك على أن أقوم بما أشرت به عليّ ، فاذا كنت مدينا لغيرك باطلاق سراحي ، وكان علي أن أشكر قاضي اشبيلية وفاء لهذا الحق ، فاني أفضل أن أبقى حيث أنا سجين » فاحترم الأمير شعوره وأرسله الى باداجوز مشيعا بما يليق برجل عظيم مثله من واجب الاجلال والتكريم .

و بعد بضع سنين أي في سنة ١٠٣٤ انتقم عبد الله بطريقة قد تعتبر غير شريفة وثأر لنفسه من تلك الشدائد التي نالته ، وذلك بأن أتاح للقاضي أن تمرّ بأرضه جنوده بقيادة ابنه اسماعيل وهي ذاهبة في طريقها للاغارة على مملكة ليون ، ولما كان اسماعيل وجنوده في مضيق لايبعد كثيرا عن الحدود الليونية باغته جيش الافتازيد فقتل من جنود اشبيلية مقتلة عظيمة ، وقتل فرسان ليون فلول الجيش عند لياذهم بالفرار ، وأفلت اسماعيل من هذه المذبحة ومعه نفر يسير من رجاله ، وفيما كان موليا وجهه شطر مدينة لشبونه الواقعة على حدود مملكة أبيه من الجهة الشمالية العربية تحمل هو ومن معه أشدّ آلام الحرمان من حاجات المعيشة الضرورية .

ومنذ هذه [illegible] ار القاضي الخصم الألدّ لأمير « باداجوز » وليس لدينا معلومات تفصيلية عن

المعارك التي دارت بعد ذلك بين أمير «باداجوز» وخصمه، ومما لا ريب فيه أن هذه الحروب لم يكن لها نتائج ذات شأن عظيم لأسبانيا المسلمة ولم تترك فيها أثرا يضارع ما تركه فيها حادث آخر سنتناوله فيما يلي.

قلنا ان القاضي اعترف بسيادة الخليفة الحمودي يحيي بن علي ولكن هذا الاعتراف عبارة عن تعهد غير مجد وقد بقي كذلك مدة طويلة فقد قام القاضي بحكم أشبيلية بلا سلطان عليه ولا رقابة وكان يحيي من الضعف بحيث لا يستطيع أن يلزمه بالمحافظة على حقوقه وقد تبدلت هذه الحال تدريجا اذ وفق يحيي لأن يضم حوله جميع أمراء البربر تقريبا ، فأصبح من الآن بحق زعيم عامة الحزب الافريقي بعد أن كانت هذه الزعامة فيما مضى اسمية ، ولما كان معسكره العام في قرمونة التي طرد منها محمد بن عبد الله فقد أصبحت جيوشه تهدد قرطبة وأشبيلية في آن واحد ، وقد أوحى هذا الخطر المخيف المحدق الى القاضي بفكرة وطنية لها خطرها ، قيمتها لو لم يشبها الحرص والطمع والأنانية والجشع.

فقد رأى من الضروري أن يجتمع العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد حتى لا يغزو البربر الذين اتحدوا الاملاك التي سبق لهم غزوها .

وهذه هي الوسيلة التي تجعل البلاد بمنجاة من حلول مثل ما حل بها من المصائب من قبل ، وكان القاضي يشعر من أعماق نفسه بهذه الضرورة ، فقويت عنده الرغبة في أن يتألف حزب قوي كبير يندمج فيه جميع العناصر المعادية للحزب الافريقي ، وهو في الوقت ذاته يتمنى أن يكون رئيسه ، ولم تكن العقبات التي عليه أن يذللها لنيل تلك الغاية بخافية عليه . فقد كان يدرك أن ملوك الصقالبة وأمراء العرب ، وشيوخ قرطبة يجرحون في كرامتهم اذا ما حاول أن يبسط سلطانه عليهم ، على أن شيئا من ذلك لم يثبط همته ولم يجعل اليأس يتسرب الى نفسه .

ولما كانت المصادفات ستخدمه ، فهو سيتمكن الى حد ما من الوصول الى الغاية التي يرمي اليها ، والمشروع الذي يعمل على تحقيقه ، وسنرى فيما بعد على أي نحو يتم له ذلك .

أسلفنا أن الخليفة التعس «هشام الثاني» فر من القصر في عهد سليمان الثاني . وقلنا ان أكثر الظواهر تدل على أنه مات في آسيا مجهولا غير معروف . ومع هذا فقد بقي الشعب غير مصدق بوفاته لتعلقه المفرط بالدولة الأموية التي درت عليه أخلاف اليسر والرخاء، وكسته حلل الشرف والمجد ، وكان عامة أفراد الشعب يتلقون الاشاعات التي كانت ترد اليهم من الخارج مبنئة ببقائه على قيد الحياة باهتمام وشغف ، وهناك أفراد كانوا يزعمون أنهم واقفون على تفاصيل حياته ما سيا فقد أشاع بعض أولئك الزاعمين أنه رحل أولا إلى مكة ومعه خريطة مملوءة بالنقود والنفائس ، فسلبه الزنوج الذين كانوا برفقته ما معه ، وأنه استمر يومين لا يتذوق طعاما ولا شرابا ، إلى أن رآه رجل يصنع الفخار فرق له ورثى لحاله ، فعرض عليه أن يعجن له الصلصال على أن يعطيه في اليوم درهما ورغيفا ، فرجا صانع الفخار أن يعطيه الأجر سلفا إذ قد مضى عليه يومان لم

يتناول فيهما طعاما و بعد لأى استطاع هشام على كسل وفترة فى العمل أن يكسب قوت يومه ، إلا أنه أنف من هذه الحالة فهرب ، وسار مع قافلة ذاهبة الى فلسطين ، ووصل الى أورشليم ، وهو فى أشدّ حالات الاملاق ، وهناك بينما هو يتنقل فى بعض طرق المدينة إذ وقف على حانوت حصرى ، وأخذ ينظر الى عمله بانتباه شديد ، فسأله الحصرى : هل تعرف هذه الصناعة ؟ فأجابه بحزن كلا ، وأنا آسف لأنه لا سبيل الى العيش وكسب ما أسدّ به الرّمق ، فقال الحصرى : اذن فابق معى لحاجتى اليك فى احضار الخيزران ، ولك أجرك ، فقبل مسرورا و بقى عندالحصرى الى أن حذق الصناعة، وما زال على هذه الحال بضع سنين ؛ وقد أذاعوا بعد ذلك أنه عاد الى أسبانيا فى سنة ١٠٣٣ ونزل مالقه ثم تحوّل عنها الى المريه ، فوصل اليها سنة ١٠٣٥ فاضطر الأمير زهير الى إبعاده خارج حدود مملكته ، فرحل الى كالاترافا وثمة التى بها عصا التسيار .

هذه الرواية التى صادفت رواجا وقبولا من الشعب لا تستحق ـ على ما يظهر ـ أن تنال شيئا من الثقة ، والذى وقع حقيقة هو أنه فى العهد الذى كان فيه يحيى يهدّد إشبيلية وقرطبة ، كان فى كالاترافا رجل حصرى اسمه خلف يشبه تمام الشبه الخليفة هشاما الثانى ، ولكن لم يقم دليل على أنه هو بعينه ، وقد نفى الأمويون شيعة هشام ومعهم ابن حيان وابن حزم المؤرخان ما دار حول هشام المزعوم من الروايات والاراجيف وعدوه ضربا من الحيلة السياسية والخداع والقحة ، وان كان من مصلحتهم لو أمكن الوقوف لهشام على أثر ، ولم يتوقف خلف حين طرق سمعه كثيرا أنه سميه هشام عن ادّعاء أنه هو نفسه الخليفة هشام الثانى ، وقد جازت هذه الحيلة على أهالى كالاترا ، لان خلفا لم يكن معروف النسب عندهم ، والأغرب من هذا أنهم دخلوا فى طاعته ، وثاروا على أميرهم اسماعيل بن ذهمان ـ نون أمير طليطلة فجاء هذا وحاصرهم ولم تطل مدّة مقاومتهم ، وأخرج هشاما المزعوم من المدينة فهدأ ثائر الأهالى ، وعادوا الى السكينة والخضوع .

ولم ينته دور خلف عند هذا الحدّ ، بل رجع عودا على بدء حين علم قاضى اشبيلية بخبره وعلم الفائدة التى يجنيها من وراء ذلك الرجل اذا هو أحضره الى إشبيلية ، وكان الذى يهمه إنما هو استغلال الموقف بقطع النظر عن شخصية الرجل . كما كان يسره كثيرا أن يرتضى الناس أنه هشام ، ليستطيع أن يكون باسمه حربا ضدّ البربر ويكون هو بعنوان كونه رئيس الوزراء زعيم روح هذا الحرب ، ولهذا بادر الى دعوة الخليفة المزعوم الى إشبيلية ، ووعده بتعضيده اذا نجح فى اثبات شخصيته ، ولما حضر الحصرى الى اشبيلية قدمه القاضى الى نساء هشام بالقصر ، فصرحن جميعهنّ تقريبا بأنه هو بعينه الخليفة السابق ، وعوّل القاضى على قوطبى ، وبعث الى شيوخ اشبيلية وأمراء العرب والصقالبة يعلمهم بأن هشاما الثانى عنده ، ويدعوهم الى حمل السلاح معه دفاعا عن حقوقه ، ومؤازرة لقضية الخلافة وقد كان الله هذا المسعى

بالنجاح ، واعترف بسيادة هشام محمد بن عبد الله أمير قرمونة المخلوع الذى لجأ إلى اشبيلية ، وعبد العزيز أمير بلنسية ، ومجاهد أمير دانية ، وحزر بليار ، وأمير ترتوزا (طرطوشة) .
وعلم عامة الشعب فى قرطبة علما مقرونا بالسرور أنه لايزال على قيد الحياة ، إلا أن كبيرهم أبا الحزم بن جهور كان أقلهم تصديقا للخبر حرصا على الحكم ، فلم ينخدع ، ولم تجد هذه الحيلة الى نفسه مساغا ، ولكنه لم يجد سبيلا إلى مقاومة إرادة الشعب ، ومخالفة ميوله ، ورأى ضرورة اتحاد العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد ، لأنه كان يخشى فى ذلك الحين أن يهاجم البربر قرطبة ، فلهذه الأسباب لم يناقض أغراض مواطنيه ، وسمحت نفسه بأن تتجدد البيعة لهشام الثانى من جديد .
وكان من نتيجة هذه الحوادث أنه بينما كان الحزب العربى الصقلبى يتسلح ضدّ يحي ، كان هذا محاصرا إشبيلية ، مجدّا فى تخريب ما يتصل بها من العمران ، موطنا النفس على الانتقام الهائل من القاضى الخائن ، ولكن الملتفين حوله — من بربر قرمونة الذين أكرههم على الانضواء تحت رايته — كان هواهم مع هشام الثانى خليفتهم السابق ، وكانت المخابرة بينهم و بينه سائرة ، وفى اكتوبر سنة ١٠٣٥ ذهب فريق منهم خفية الى إشبيلية ، وأبلغوا القاضى ومحمد بن عبدالله أنه من السهل مباغتة يحي لأنه لا يكاد يفيق من السكر ، ولم يدع القاضى وحليفه هذه الفرصة تمر دون أن يستفيدا منها ، وهنا وجه القاضى ابنه اسماعيل ومعه محمد بن عبد الله على رأس الجيش الاشبيلى ، وبعد ما أرخى الليل سدوله كمن اسماعيل مع أكثر الجند فى كمين ، وأرسل كوكبة لمناوشة قرمونة ليغرى يحي بالخروج الى ظاهرها وقد نجح فى خطته هذه ، اذ كان يحي حين بلغه مجىء ابن عباد على رأس جيش ثملا ، فنهض وكان متكئا على سريره وصاح قائلا : « يا لها من فرصة سعيدة ، هذا ابن عباد مقبل لزيارتى ، والآن أيها الجند ، خذوا أسلحتكم وامتطوا جيادكم قبل ضياع الوقت ، وخرج فى ثلاثة آلاف فارس ، وكان النبيذ قد لعب برأسه فلم يتمهل ريثما يعبىء جنده و ينظم خططه ، يضاف الى ذلك أن ظلام الليل الحالك كان يحجب عنه كل شىء ، وفوجىء الاشبيليون منه بهذا الهجوم المباغت فقابلوه من جانبهم بجلد وعنف ، وأخذوا يتقهقرون بنظام نحو المكان الذى كمن فيه إسماعيل ، ومن هذه اللحظة سعى يحي الى حتفه بنفسه . فان إسماعيل انقض عليه بكل قوّات الجند ، واضطره الى التقهقر ، وقتل يحي نفسه فى المعركة ، وكاد يأتى القتل على أكثر رجاله لو لم يحل محمد بن عبدالله دون ذلك ، وقال له : « إن أغلب هؤلاء المساكين من بربر قرمونة الذين أكرههم هذا الطاغية على الدخول فى خدمته مع كراهتهم واحتقارهم له . » فأبقى عليهم وأمر جنده بترك تعقبهم وخف محمد ابن عبد الله إلى قرمونة على ظهر جواده ليسترد ملكه ، وأراد زنوج يحي الذين استولوا على أبواب المدينة أن يحولوا بينه و بين الدخول لو لا أن ساعده الأهالى على دخولها من ثغرة ، وسار الى قصر الامارة وسلم نساء الأمير يحي الى بنيه ، واستولى على ما فى القصر من كنوز ونفائس « نوفمبر سنة ١٠٣٥ »

وقد أحدث نبأ وفاة يحيى سرورا عظيما فى اشبيلية وقرطبة ، وعند ما وصل الخبر الى مسامع القاضى خرّ ساجدا شكرا لله ، وحذا حذوه جميع من كانوا حوله والآن أصبح القاضى لايخشى شيئا من جانب الحموديين، وقد نودى بادريس أحد أشقاء يحيى خليفة فى مالقه ، وقد كان يعوزه الوقت الكافى الذى يستطيع فيه أن يكسب بقوّة نفوذه ، وما يقدّمه من وعود ، قلوب زعماء البربر ، ليجعلهم فى صفه ، ولهذا لم يعد فى استطاعته أن يخضع الجزيرة بعد أن نادى الزنوج فيها بابن عمه محمد ، خليفة .

ولما رأى القاضى أن الظروف خدمته، همّ بأن يقيم هو وهشام الثانى المزعوم بقصر الخلافة فى قرطبة ، إلا أن يقظة ابن جهور ، وتصميمه على عدم التخلى عن الحكم ، وقفا حجر عثرة فى طريقه ، فقد نجح فى اقناع أهل قرطبة أن الخليفة المزعوم لم يكن سوى رجل ماكر مخادع وأن اسم هشام قد ألغى من الامامة ، وعرف أن القاضى عند مجيئه بهشام الى قرطبة سيلقى أبوابها مغلقة فى وجهه ، وثمة لا يستطيع التغلب على مدينة منيعة حصينة مثلها ، فيضطر أن يعود من حيث أتى .

*

وعوّل فى بداية الأمر على أن تعسكر جيوشه عند الأمير الصقلبى ، وهو الامير الوحيد الذى أبى الاعتراف بهشام الثانى . ذلك الأمير هو زهير أمير المرية ، وعند أراد الخليفة وسم أن يهوّن على الأمير ، واقطعه عدّة أملاك بدأ زهير يناصر الحموديين ، ولما نودى بادريس خليفة بادر بالاعتراف به ، ولما صار الآن مهدّدا من القاضى عقد محالفة مع جيوش الغرناطى ، ثم زحف جيش إسبيلية ، وذهب لمقابلته بجنوده وجنود حليفه إذ اضطره إلى التقهقر .

ومن المحقق أن القاضى قد بالغ فى الاعتداد بقوّته ، ولم يحسب حساب أعدائه ، وكان عليه أن يخشى مجىء الوقت الذى تغزو فيه جيوش المرية وغرناطة بدورها إسبيلية .

وكثيرا ما خدمته محاسن الصدف التى شاءت أن يخلصه أحد أعدائه من عدوه الآخر .

٢ ـ المناهج الأدبية [1]

كل ما يكتب فى هـذا العصر إنما هو محاولات أوّلية ترمى الى المثـل الأعلى الذى ننشده جميعا ، ولا يزال الأدب العربى وتاريخ الأدب العربى فى أشد الحاجة الى جهود الأدباء المتواصلة لتنظيمه وتمحيصه و إصلاح تحريفه والـكشف عن الاغلاط الـكثيرة التى ألحقها به النساخ .
ولازال كل جهد يبذل فى ازاحة الستور عن هذه المناجم النفيسة مفتقرا الى جهد آخر يشدّ أزره و يساعده .

قد كنا الى عهد قريب لا نكاد نؤمن بأن فى العربية كلها شاعرا واحدا يجارى المشهورين من شعراء الغرب . فلما انصرف الأدباء والعلماء الى الدرس والتمحيص والبحث والتحليل ، اكتشف الشباب نخبة من قادة الفكر العربى الممتازين ، ولا زلنا نطمع فى ازاحة الستور عن بقية اعلام الفكر العربى القدماء .

وقد كان من الطبيعى أن يصحب نهضتنا وهى فى أوّلها ما يصحب كل نهضة أخرى من الغلوّ والاسراف فى بعض النواحى ، وفى نهضتنا الأدبية عيب جوهرى نخشى أن يعوق سيرها حينا من الزمن نحن فى أشدّ الحاجة الى الانتفاع به واستغلاله بأقصى ما فيها من قوّة : ذلك العيب الجوهرى هو أن أكثر من يكتب فى تاريخ الأدب العربى ينقسم قسمين : فريق من المحافظين الجامدين وفريق من المجدّدين المسرفين .

يأبى الفريق الأوّل الا أن يتقيد بالنصوص القديمة و يأخذ بآراء القدماء فى النقد والأدب بالغة ما بلغت من الاضطراب والفساد من غير أن يعنى نفسه ببحثها وتمحيصها ولا يكاد يردّد الا عبارات محفوظة و (كليشيهات) قد أبلاها الدهر ولا يكاد يجرؤ على استخلاص نتيجة واحدة من بحوثه الطويلة واطلاعه الواسع ، فامرؤ القيس أكبر مزاياه أنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل فى شطر بيت واحد وذلك فى قوله :

« قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل »

والنابغة الذبيانى قد بز الشعراء بقوله :

« فانك كالليل الذى هو مدركى   وان خلت أن المنتأى عنك واسع »

الى آخر هـذه العبارات التى حان الوقت لاراحتها بعد أن أنهكها طول الاستعمال وكثرة الاستشهاد والتكرار .

الفريق الثانى من غلاة المجددين أو ـ على الأصح ـ دعاة التجديد ، لا يبالون بالنصوص ولا يعنون أنفسهم بدرس الموضوع الذى يتصدّون لبحثه ، وربما اكتفى بعضهم بالخلاصات المدرسية التافهة فى الحكم على الشعراء والأدباء والأدب العربى كله .

فالعرب ـ فى رأى أحدهم ـ لم يطرقوا نوعا بعينه من الشعر ، لأنه لم يقرأ هذا النوع فى تلك

---

(١) ننشر فيما يلى فصولا مختارة من رسالتنا عن ابن زيدون ، تنويرا للقراء .

الخلاصات المدرسية ، وهذا الشاعر لا يسمو الى مرتبة الفحول لأن الأبيات القليلة التى قرأها فى تلك الخلاصات لا تبرر وضعه فى مصاف الممتازين والنوابغ .

وهم لا يرون اذا تصدّوا للكتابة إلا وسيلة واحدة للطرافة والابداع وهى الخيال ، فهم لا يبالون اذا أعوزتهم النصوص أن يخلقوا تاريخ الشاعر خلقا ، وأن يدمجوا حياتهم فى حياته وينحلوه نقائصهم وما يتخيلونه فى نفوسهم من مزايا ، فتراهم يخلقون من الشاعر صورة هى أصدق مرآة نستشف فيها نفوسهم .

فاذا كان أحدهم خليعا تلمس شاعرا مشهورا بالخلاعة ولم يعن نفسه بشرح أسباب خلاعته مقدار عنايته بتبرير الخلاعة والتمدح بها ، واذا كان أحدهم حاقدا تلمس شاعرا مشهورا بالحقد ، ولم يعن بالأسباب التى أحفظته على معاصريه عنايته بتبرير هذه الحلة فيه .

ولست أنكر على الباحث أن يتصدّى لتحليل أية نفس إنسانية ماجنة أو جادة ، راضية أو ساخطة ، ولكنى أنكر عليه أن يخلق التاريخ خلقا ليؤيد رأيا — صالحا كان أو فاسدا — فان أمانة المؤرخ ودقته هما أوّل واجبه نحو الحقيقة والانصاف

اما أن ينصر هوى أو يجرى وراء خيال أو ينطق لنا — بلا روية ولا أناة — نظريات مغلوطة وآراء فاسدة خاطئة تلقفها بلا روية ولا تدبر ، فذلك أصرّ على الحقيقة من أولئك الجامدين الذين لا يتقدّمون بالأدب خطوة واحدة .

وقد بلغ من تهوّس وشطط بعض دعاة التجديد أنهم أنكروا كلّ خيال عربى — لماذا ؟ لأنهم سمعوا أن أحد المستشرقين قال « إن العرب ضيقو الخيال وإن سعة الخيال وعمق الفكر وقف على الآريين »

فابن الرومى مثلا واسع الخيال لا لأنهم اقتنعوا بسعة خياله ، بل لأن جدّه رومى .

والمعرّى لا خيال له وإن كان خياله أوسع من خيال ابن الرومى — لماذا ؟ لأنه عربى قح ، ولكن المعرّى هو صاحب رسالة الغفران التى تعدّ آية من آيات الخيال العربى . فماذا يقولون فيها ؟

الأمر غاية فى اليسر ، ليس فى رسالة الغفران كلها خيال وانما هى كتاب أنشأه المعرّى فى جغرافية الجنة والنار .

ومن اليوم الى أن يظهر للمعرّى جدّ رومى نبقى رسالة الغفران كتاب جغرافية ، ومتى ظهر له جدّ آرى أصبحت « رسالة الغفران » كتابا من أروع كتب الخيال

هكذا يحكمون من غير أن يحاسبوا نفوسهم على ما يقولون .

وقد حاولنا جهدنا أن نلتمس لابن زيدون جدّا آريا نقدّم به الى هذه الفئة لنكبر من مواهبه وخياله ، فلم نظفر بذلك .

على أن فى ابن زيدون مزية قد تشفع له عند هؤلاء المفتونين بالغرب وما يمت إلى الغرب .

فقد نشأ ابن زيدون فى بلاد الأندلس : وهى فى صميم أوروبا ، فهو شاعر أوروبى البيئة وقد مدحه كثير من المستشرقين ، ولعلّ هذا يشفع له عند هؤلاء المقلدين .

أما الشباب المنصف الذى لا يعنى إلا بالحقائق ، فانا نتقدّم إليه بديوان ابن زيدون ورسائله، وسيرى فيها أمثلة من الابداع والافتنان ، ونماذج من الروعة والاحسان ، وصفحات رائعة من صفاء الديباجة وسحر البيان — وكلنا ثقة بأن درس ابن زيدون سيكون أكبر حافز على درس غيره من فحول الأدب العربى والبيان العربى .

وما أجدر الباحثين أن يتوخوا الانصاف فان آفة الرأى الهوى، وأكثر الناقدين لايفسد عليهم بحوثهم إلا التحيز وتنكب الجادة وإرضاء النزوات الفكرية الطائشة . وفى يقينى أن الناقد كالقاضى يجب أن يتوخى النزاهة التامّة ، ويسمو بنفسه عن مزالق الأهواء ، ولا يألو جهدا فى البحث عن الحقيقة ، أما أن ينقلب الناقد محاميا للدفاع أونائب اتهام — كما يفعل أكثر الكتاب — فذلك ما لانرضاه له ، ولعلّ أكبر عقاب يناله هو فقدانه الثقة بما يكتب .

٣ — نشأة ابن زيدون

ولد ابن زيدون فى قرطبة سنة ٣٩٤ هـ فى زمن الدولة العامرية، فى أول عهد المظفر ابن المنصور بعد سنة واحدة من موت المنصور بن أبى عامر. وهو من أسرة مجيدة من بنى مخزوم [1]؛ وهو أحد ثلاثة تسموا بابن زيدون وهم:

١ — أبوه: عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون وكنيته أبو بكر، وكان فقيها بقرطبة وكان قاضيا وعالما مشهورا وأديبا واسع الثقافة.

وقد مات [2] سنة ٤٠٥ هـ، وترك ابنه وسنه حينئذ إحدى عشرة سنة وهكذا أصاب ابن زيدون اليتم وهو صغير.

٢ — أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون صاحب هذا الديوان الذى بين يدى القارئ وكنيته أبو الوليد

٣ — ابنه أبو بكر بن زيدون الذى تولى بعد وفاة أبيه وزارة المعتمد بن عباد وقتله يوسف بن تاشفين، بعد أن استولى على ملك بنى عباد سنة ٤٨٤ هـ.

***

وكان ابن زيدون صاحب هذا الديوان أشهر هؤلاء الثلاثة وقد كرّس حياته للدرس والتحصيل وساعده نبوغه ومواهبه على ذيوع صيته وشهرته وهو لم يتجاوز العشرين من سنيه. وكان عصره أزهى عصر أدبى فى الأندلس وقد تتلمذ على أساتيذ الأدب فى زمنه وألمّ من كل علم بطرف. وقرض الشعر ونبغ فيه وهو فى العشرين من عمره، واشترك فى الفتنة القرطبية، وقام بنصيب كبير فى تلك الثورة التى اندلعت نيرانها فى قرطبة.

وكان ابن زيدون من زعماء تلك الفتنة التى زلزلت دولة بنى أمية ودولة بنى حمود والعلويين، وانتهى الأمر بالقضاء عليهم جميعا وقيام ملوك الطوائف على أنقاضهم

وكانت سنه وقت الثورة ثمانيا وعشرين سنة [3]

---

(١) بطن من قريش، وهم عشيرة خالد بن الوليد.

(٢) مات أبوه بمدينة البيرة، ونقلت جثته الى قرطبة فدفن بها، ومما وصل الينا من رثاء الشعراء فيه قول بعضهم:

«أى ركن من الرياسة هيضا وجموم من المكارم غيضا

حملوه من بلدة نحو أخرى ليوافوا به ثراه الأريضا

مثل حمل السحاب ماء صبيبا ليداوى به مكانا مريضا»

(٣) بدأت الثورة سنة ٤٢٢ هـ وكانت ولادته فى سنة ٣٩٤ هـ فتكون سنه حينئذ ٢٨ عاما. وقد ظل ملك بنى أمية فى الاندلس ٢٦٨ سنة وثلاثة وأربعين يوما. وقد انقسمت ممالك الأندلس بعد

فقربه اليه ابن جهور [1] وأعلى قدره ثم لم يلبث أن منحه لقب « ذى الوزارتين » .

وكانت بين ابن زيدون وابن عبدوس منافسات كثيرة لاشتراكهما فى حب ولادة ، فأخذ يكيد له ابن عبدوس هو وأصحابه الناقمون على ابن زيدون عند أبى الحزم حتى غيروا عليه قلبه وسجنوه بتهمة التآمر على قلب الملك واعادته الى بنى أمية كما سنفصل ذلك فى رسالة خاصة .

وقد أنشأ ابن زيدون فى سجنه كثيرا من القصائد الرائعة والرسائل البليغة التى يراها القارئ فى ديوانه . وحاول أن يستعطف بها ابن جهور متوسلا اليه تارة بابنه أبى الوليد وتارة بغيره من أصدقائه ، فلم تلق شكواه أذنا صاغية . على أن السجن لم ينس ابن زيدون حب ولادة فنظم فيها نخبة من أروع قصائده ، ولما يئس من عفو أبى الحزم لجأ الى الفرار من السجن ، ولم ينس ولادة التى كان يهيم بحبها ، ولكنها أغفلته واشتغلت عنه بحب ابن عبدوس [2]

على أن ابن زيدون لم ينسها طول حياته ، وما زال ينظم الأشعار متغزلا بها ، شديد الحنين الى أيام وصالها وظل حبها المعين الثرار الذى لا ينضب ، وما زال يلهمه أروع خواطره الثائرة وعواطفه الملتهبة ، وكان من أكثر الأسباب فى وصول ابن زيدون الى مرتبة الزعامة بين شعراء الغزل الممتازين .

سقوط الدولة الأموية الى تسع عشرة مملكة منها ، قرطبة ، واشبيلية ، وجيان ، وقرمونة ، والغرب ، والجزيرة الخضراء ومرسية وبلنسية ، ودانية ، وطرطوشة ، ولاردة ، وسرقسطة ، وطليطلة ، وباجة ، واشبونه الخ

قال ابن حزم : كانت طرطوشة وسرقسطة وفراغة ولاردة وقلعة أيوب فى يد بنى هود . وبلنسية فى يد عبد الملك بن عبد العزيز . وكذا ما فوق طليطلة — من جهة الشمال — فى يد بنى رزين . وطليطلة فى يد بنى ذى النون . وقرطبة فى أيدى أبناء جهور . واشبيلية فى يد بنى عباد . ومالقة والجزيرة الخضراء فى يد بنى زيرى من البربر . والمرية فى يد زهير العامرى ثم ابن صمادح . ودانية وأعمالها بالجزائر الشرقية فى يد مجاهد العامرى . وبطليوس ويابرة وشنترين ولشبونة فى يد بنى الأفطس وأصبح كل امرئ وما اختار من الألقاب والاسماء ، حتى أن المستعين ، لما جلس على كرسى الخلافة ، قال للناس أجمعين : « ارتفعوا كما شئتم وارتسموا بما أحببتم من الخطط » فقد جمع بالوزارة فى أيامه — مفردة ومثناة — أراذل الدائرة ، وأخابث الطارة ، فضلا عن زعانف الكتاب والخدمة .

(١) هو أبو الحزم بن جهور الذى استولى على المملكة بعد خلع المعتد آخر خلفاء بنى أمية ، ولم يتحول عن داره الى قصر الخلافة ، وجعل الأمر شورى ، وساس الأمور بحزمه وحسن تدبيره ، وكانت مدته فى الحكم أربع عشرة سنة وبضعة أشهر ، ثم خلفه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور الذى مات فى شوال سنة ٤٣٥ هـ

(٢) وفى ذلك يقول ابن زيدون .

« أكرم بولادة ذخرا لمدخر ... لو فرقت بين بيطار وعطار

قالوا : أبو عامر أضحى يلم بها ... قلت : الفراشة قد تدنو من النار

عيرتمونا بأن قد صار يخلفنا ... فيمن نحب ، وما فى ذاك من عار

أكل شهى أصبنا من أطايبه ... بعضا ، وبعضا صفحنا عنه للفار »

ولما مات أبو الحزم عاد ابن زيدون الى قرطبة وانضمّ الى أبى الوليد وقام بالسفارة بينه و بين ملوك الطوائف فأعجبوا به وتمنوا استئثارهم به لبراعته وحسن سيرته و تمكن من دولة ابن جهور وابتسم له الحظ ثانية حتى أفسد الحساد ماصلح ، وخشى ابن زيدون أن يلقى من الابن مالقى من الأب من النكال والسجن ، ففرّ هاربا من قرطبة . وظلّ يتنقل فى أرجاء الأندلس من رنده إلى باداجوز إلى اشبيلية أخيرا حيث اتصل بعباد ابن محمد صاحبها الملقب بالمعتضد(١) ولم يكن يخفى أدبه وشهرته ومكانته عليه فهش له و بش وألقى اليه مقاليد وزارته ، و بعد أن مات المعتضد حاول الوشاة وعلى رأسهم ابن عمار أخلص أصدقاء المعتمد أن يغيروا قلبه عليه وأن يدسوا له عنده فلم يفلحوا ، وأقصاهم المعتمد بن عباد عنه وقرّب اليه ابن زيدون وأعلى مكانته عنده وظلّ ابن زيدون يزين له غزو قرطبة حتى ملكها عنوة بفضل تدبير ابن زيدون وسعة حيلته ، وانتقل المعتمد وابن زيدون اليها وجعلها عاصمة ملكه .

***

ولما وقعت الثورة ضد يهود أشبيلية ، انتهز ابن عمار وابن مرتين وأنصارهما هذه الفرصة لاقصاء ابن زيدون عنهم تخلصا من منافسته ، فزينوا للمعتمد أن يوفده إلى اشبيلية لشدّة تعلق أهلها به واستغلال حبهم فى تسكين الاضطراب وتهدئة الخواطر ، وكان المعتمد يعلم ما يكنه أهل اشبيلية لابن زيدون من الحب وماله عندهم من المكانة والخطر

وكان ابن زيدون مريضا فاضطره المعتمد الى السفر ، فلم يستطع إلى مخالفته سبيلا ، ولم يلبث أن اشتدّت به الحمى وألح عليه السقم فلحقت به أسرته .

ولكن الشيخوخة والمرض تكاتفا عليه فأهلكاه فى ١٥ رجب سنة ٤٦٣ هـ فحزن عليه أهل اشبيلية أشدّ الحزن ودفن فيها باحتفال مهيب .

وقد مكث فى خدمة آل عباد تسعة عشر عاما ، ولوطال عمره قليلا لأفلح حساده ومنافسوه فى تغيير قلب المعتمد عليه والتنكيل به كما أفلحوا فى مثل ذلك من قبل ، ولكن الموت أنقذه من دسائسهم وكيدهم ورحمه من شرّهم .

---

(١) استطاع المعتضد أن يتغلب على كل مناوحيه من الفتن وبذل أقصى مايبذل داهية من الدهاة حتى صفاله الجو وسلم له الملك وكان أكبر من يناوئه من المتغلبين وأشدهم عليه صنهاجة و بنو برزال الذين كانوا بقرمونة وأعمالها من نواحى اشبيلية ، فلم يزل يصرف الحيلة تارة — كما يقول المراكشى — ويجهز الجيوش أخرى الى أن استدلهم ففرق كلمتهم ، وشتت منتظم أمرهم ، ونفاهم عن جميع تلك البلاد ، وصفت له أموره .

بحترى المغرب

« ويقول بعض أدبائنا : إن ابن زيدون بحترى زماننا، وصدقوا
لأنه حذا حذو الوليد فى بعض قصائده » « ابن بسام »

قلت فى فصل سابق : إننى ترددت فى مشايعة « نيكلسون » حين وصلت إلى قوله :
« وقد أطلقوا على ابن هانىء لقب متنبى العرب ، كما أطلقوا على ابن زيدون لقب بحترى العرب . »

وقد قلت حينئذ :

« ولما كنا لم ندرس ابن زيدون دراسة تمكننا من الحكم عليه حكما صحيحا ، فاننا نترك مناقشة القسم الثانى من هذه التسمية ونكتفى الآن بالكلام على النقطة الأولى وهى تشبيه ابن هانىء بالمتنبىّ لاستطاعتنا الكلام فى هذا الموضوع . »

والآن بعد عشر سنوات أستطيع أن أقرّر مستوثقا : أن هذه التسمية صادقة فى تفصيلها و إجمالها ، وأن من يدرس ابن زيدون والبحترى يطلق على ابن زيدون لقب بحترى المغرب ، ولو لم يعرف أن القدماء قد أطلقوا عليه ذلك اللقب ؛ فكلاهما رائع النظم ساحر الأداء ، وأكثر الصور الشعرية التى أبدعاها جديرة بأن تنال أعزّ مكان فى أرقى المتاحف الشعرية .

ولقد يسر علينا ما لقيناه من الجهد والعناء فى إظهار هذا الديوان أن به من الصور الشعرية الرائعة والبيان الساحر الخلاب ما يفحر به الأدب العربى والشعر العربى فى أزهى عصورهما وأنضرها ، فقد كان ابن زيدون فى سموّه وافتنانه ــ وما أكثر سموّه وافتنانه ــ مثالا رائعا للشاعر المبدع القادر المتصرّف بفنون القول وأساليب البيان .

وأحب أن أصارح القارىء أنى كدت أتسرّع فى الحكم حين عرضت لهذه التسمية فى كتابى « نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى » ، فأقرّر أن فى هذه التسمية كثيرا من الاسراف والمبالغة ، وقد كنت حينئذ متشبعا بروح البحترى مأخوذا بسحر بيانه ، وكنت لا أكاد أصدّق أن شاعرا ــ كابن زيدون ــ جدير أن يوضع معه فى ميزان أو يشركه فى إحسان .

ولكننى رأيت أن من الظلم والعبث أن أفاضل بين شاعرين درست أحدهما دراسة مستفيضة ولم أقرأ لثانيهما إلا عشرات من الأبيات و بضع صفحات من النثر ، فأرجأت الحكم حتى أتم الدرس .

وهذه حالة نفسية تعرض لأكثر المشتغلين بالأدب فى هذا العصر ، وهى آفة من الآفات التى تفسد على الباحثين بحوثهم ، فان أكثرهم لا يتورع فى الحكم على شاعر لم يدرسه ولم يعن بقراءة آثاره وتقصى أخباره ، بأنه شاعر ممتاز أو سخيف ، و بعضهم يكتفى بالمختصرات المدرسية والمختارات الشائعة المقتضبة فيصدر الأحكام السريعة على الشعراء والأدباء وربما عكف أحدهم على درس شاعر ولم يدرس غيره ، فراح يملأ الأرض تمجيدا له و يسرف فى إظهار مزاياه وتفضيله على جميع شعراء العربية حتى ليقول أحدهم فى وصف بعض الشعراء :

« فهو الشاعر من فرعه إلى قدمه وهو الشاعر فى جيده ورديئه ، وهو الشاعر فيما يحتفل به وما يلقيه على عواهنه » الى أن يقول « فما تحرك حركة الا كان للعبقرية فيها أوفى نصيب » (١)

وقد كان المرحوم الشيخ محمد شريف سليم شارح ديوان ابن الرومى ، يرى بعد أن درسه دراسة مستفيضة أن ابن الرومى أشعر شعراء العربية . وأكثرهم تصرفا بفنون القول وكان الباعث له على ذلك أنه عكف على درسه زمنا طويلا وظهرت له مزاياه الباهرة فحسب أن أحدا من الشعراء مهما سما لن يصل الى مكانة ابن الرومى .

ولهؤلاء الباحثين عذرهم فى اصدار هذه الأحكام وان لم ينصفوا الحقيقة، فان كل شاعر من هؤلاء الفحول يترجم لنا عن حضارة هائلة و يحلق بنا فى أجواء ساحرة تنسينا – حين نحلق فيها – كل شاعر سواه ، فالبحترى والمتنبى والمعرى وابن الرومى وابن زيدون وابن حمديس وأضرابهم يكاد يغنيك واحد منهم و يملأ نفسك جمالا وروعة اذا اقتصرت على درسه وحده .

ولكنك بعد ذلك جدير ألا تحكم بتفضيل أحد هؤلاء على الآخرين والازراء بهم لأنك لم تدرسهم جميعا دراسة مستفيضة .

وأذكر بهذه المناسبة أنى كنت فى مجلس يضم صفوة من رجال الأدب الممتازين كانوا يتناقشون فى الأدب فقال أحدهم :

« إن سيد كتاب العربية و إمام البيان العربى هو ابن المقفع » ثم راح يطريه ويخلع عليه كل عبارات الثناء ، فقال له الآخر : « أما أنا فلست من رأيك ، فان أبا الفرج الاصبهانى بنثره المعجز قد بز كل كتاب العربية » فقال الثالث : « أين أنتم من عبد الحميد الكاتب فهو سيد هؤلاء جميعا » فانبرى له الرابع قائلا :

« الحق أن امام البيان العربى هو الجاحظ » ثم سألونى رأيى فقلت :

« بل سيد كتاب العربية هم هؤلاء جميعا وأضرابهم ولكن كل واحد منكم عكف على درس كاتب من هؤلاء فخيل اليه أن أحدا لا يدانيه بلاغة وسحرا »

وهذا مثال لا يزال يتكرر ولا زلنا نرى فى كل يوم باحثا يأبى الا أن ينتصر لنابغة يعنيه و يفضله على جميع الناس ، وفى هذا ما فيه من الاسراف والمغالاة وظلم الحقيقة .

وما رأيك فى قروى لم يغادر قريته الحقيرة طول عمره ، فلما سافر إلى مدينة كبيرة ورأى ما فيها من قصور فخمة وحدائق غناء ، ظن أن هذه المدينة الكبيرة – التى جمعت ألوان الحضارة والترف وجالبات السرور – هى أجمل مدن العالم ، وليس من الضرورى أن يزور الانسان كل المدن الشهيرة ، فله أن يكتفى بواحدة أو أكثر ؛ ولكن من الضرورى لمن يريد المقارنة بينها و بين سائر المدن أن يزورها و يتعرفها جميعا .

كذلك ليس من الضرورى أن تقرأ كل شعراء العالم ، ولكن من الضرورى الا تفضل أحدا من الشعراء عليهم جميعا من غير أن تقرأهم جميعا .

---

(١) ارجع إلى كتابى « صور جديدة من الأدب العربى » « ص ٢٢٣ »

ماذا ، بل أنت اذا توخيت الإنصاف والدقة والنزاهة عاجز - بعد طول الأناة والدرس - عن البتّ فى تفضيل شاعر من الفحول على آخر ، وإن المنصف النزيه ليتردّد فى أن يجزم بتفضيل قصيدة رائعة على أخرى كما يتردد فى تفضيل حسناء بارعة فى الجمال على شبيهتها ، ورحم الله الأعرابى الذى طلب اليه أن يفاضل بين نوعين من الحلوى ، فظلّ يتذوّق أحدهما تارة ، ويتذوّق الثانى تارة أخرى ثم يعود إلى الأول ويرجع الى الثانى ثم قال :

« إننى كلما أردت أن أحكم لأحدهما أدلى الآخر بحجته »

وليس فى قدرة ناقد غربىّ نزيه أن يسخف شاعرا مثل كشكسبير وإن كان فى قدرته أن ينتقده ويظهر عيوبه .

أما عندنا فعلى العكس من ذلك ، لا يتحرّج كاتب عن تسخيف شاعر فحل كالمتنبى أو إنكار شاعرية المعرى أو تحقير مواهب ابن الرومى أو ابن زيدون أو ابن حمديس أو البحترى الى آخر هؤلاء الفحول .

ثم ماذا ، عندنا من يجرؤ على انكار شاعرية عصر بأكمله كعصر ملوك الطوائف (١) الذى يعدّ أزهى عصر أدبى فى الأندلس ، بل عندنا متهوّسون يجرؤون - ويزعمون بلا حيطة أو مبالاة - أن ينكروا الأدب العصرى كله فى جميع عصوره المختلفة ، وعندنا آخرون ينكرون روعة الأدب العربى فى شتى لغاته وعصوره من غير أن يجشموا أنفسهم قراءة شىء من آثار هؤلاء أو أولئك .

وما كنا لنعرض لمناقشة أمثال هؤلاء المتسرعين فى الحكم لولا أن عدواهم كادت تسرى إلى اكثر شبابنا وبعض شيوخ الأدب واعلام الفكر عندنا .

وقد ساعدت الخلاصات المدرسية التى كتبها مدرّسو الآداب عندنا على إصدار هذه الأحكام السريعة ، فان أحدهم ليكتب كتابا يعرض فيه لتاريخ أدب اللغة فى جميع عصوره ويقتبس من أحكام القدماء ما شاء من غير أن يقرأ ديوان شاعر واحد بأكمله ، ومن غير

---

(١) ومن هذه الأحكام قول أديب من هذا الطراز العجيب فى هجاء هذا العصر الذهبى - عصر ملوك الطوائف - الذى لا يكاد يعرف منه غير اسمه :

« ذلكم عصر الاسترخاء والترف . عصر تربع فيه الأبصار والبصائر فتكل عما وراء القشور والظواهر تهجع المشاعر فى ذلك العصر وتعربد الحواس ، ويموت الحب الفطرى فتمرح فى رفاته ديدان الشهوات . وناهيك بعصر تكون فيه البهائم أصدق حبا من الناس ، لأن البهائم لا تعبث بالحب ولا تبتذله فى مثل هاتيك العصور يأخذ الناس من كل شىء بأيسره ، ويقنعون من كل مطلب بأقربه إلى الحس وأصغره . لا يكون الجمال فيها إلا صبغة فى البشرة تلحسها الألسنة حتى تزول ثم تمحها بصاقا ، ولا تكون البساتين والأمواه إلا مجالس شراب ومراوح هواء ، ولا الطبيعة كلها ورياحينها وأثمارها إلا طنفسة مطرزة بمختلف الألوان والأشكال ، ولا الشعر إلا بهرجا براقا لو صوّر بشرا سويا لنالت منه العيون ما لا تنال النفوس ، وما الأخلاق والمروءة والشرف إلا آدابا يصطلح عليها المعاقرون ليدوم لهم صفو المجلس ، ثم ما شاء المعاقر بعد ذلك من غى وشنار ، وما طاب له من عبث واستهتار لا يشينه ذلك ولا يقدح فى آدابه . »

ان يدرس عصره و يتقصى أخباره ، وهو لو فعل لما استطاع اصدار فصل واحد من كتابه .

وعندنا أن الخلاصات المدرسية ... بها الا بعد أن يستوفى الباحثون درس العصور والشعراء والأدباء و ينقطع كل منهم لشاعر بعينه أو كاتب بعينه ، فيدرسه من جميع نواحيه ، فاذا تم ذلك كله أمكن اختصار بحوثهم المستفيضة فى صفحات قليلة للناشئين .

وقد تكاتفت فئة من أعلام الباحثين فى العصر الحديث ـ كما قلنا ـ على درس المتنبى وابن الرومى والمعرى ، وظفروا بنتائج باهرة أقنعت كثيرا من الشباب المنصف بأن عندنا من الشعراء من نباهى بهم ونفخر معتطين ولا نتردد فى مقارنتهم بأ كبر شعراء العرب .

وما كان فى قدرة انسان أن يفهم جلال شعراء العرب وكتابه و يقدر مواهبهم الممتازة وعبقرياتهم الفذة لو لم يعرض النقاد والشراح والباحثون لتحلية كل غامض وتوضيح مناحى اتجاهاتهم الفكرية ، ولن يقتنع الشباب العربى بأن أدبنا زاخر بالشعراء الفحول الذين لا يتخلفون عن أ كبر شعراء العرب ، الا بعد أن يتصدى أدباؤنا و باحثونا لتحليل آثار القدماء وتنظيمها وشرح غامضها و إزاحة الستور عن مناحى العبقرية فيها وتقديم ثمار جهودهم الناضجة للشباب العربى ، وثم يرى شبابنا أن هذه العقول العربية الكبيرة التى استوعبت أرقى الحضارات فى أزهى العصور وعبرت عن أخفى الخوالج النفسية وأدق الاحساسات وأروع الأفكار وأعمق الآراء ، جديرة بالانصاف والاقبال عليها والتمتع بسحرها الفاتن .

وسيرى الشباب ـ الذى نعلق عليه أ كبر الآمال ـ فى ديوان ابن زيدون بحترى المغرب ، إذا درسه بعناية وأناة . ولم يكتف بتصفحه والمرور به ـ على عادته ـ مرورا سريعا ، أن ابن زيدون كان جديرا بما بذلنا من عناء وجهد ، وأنه جدير بمعاودة الكرة لدرسه دراسة مستفيضة فى رسالتنا التى أفردناها لتحليل أدبه وعصره والتنبيه على دقائقه ومزاياه والالمام بعصره الزاهى .

و بعض الناس يفضلون البحترى على ابن زيدون . لأن ابن زيدون كان يعجب به ، وهو رأى مردود عليهم . فان إعجاب ابن زيدون بالبحترى كاعجاب المعرى بالمتنبى ، إعجاب عظيم بعظيم ، ولو تقدم بابن زيدون زمنه على زمن البحترى لفتن البحترى بشعره ، واتخذ منه مثالا ينسج على منواله و إماما يهتدى به فى فنه الرائع .

شاعرية ابن زيدون

« ابن زيدون عبقريّ زمانه قصر المحسنون عن إحسانه
أخذ الروم ـ فى الجزيرة ـ عنه ومشوا فى خياله وافتنانه »
« شوقى »

لكل شاعر من الفحول طابع خاص يمتاز به شعره فاذا امتاز المعرّى بالفلسفة فى شعره وامتاز المتنبى بالحكمة ، وامتاز ابن الرومى بالغوص على المعانى النادرة ، وامتاز أبو العتاهية بالزهديات ، وأبو نواس بالخمريات ، والبحترى بحسن النظم ، وأبو تمام بالصناعة وابن حمديس بالوصف فاى ميزة امتاز بها شعر ابن زيدون ؟

ميزة ابن زيدون التى تكاد تفرده من شعراء العربية هى الفنّ . فهو شاعر فنى قبل أن يكون فيلسوفا أوحكيما أوغوّاصا على المعانى أو وصافا .

الفنّ وحده هو الذى أكسب ابن زيدون زعامة الشعر فى عصره ، وأغرى فحول الشعراء فى زمنه و بعد زمنه بمحاكاته والانضواء تحت رايته . فهو شاعر الفنّ الذى أبدع أمير الشعراء فى وصفه حين قال :

« بأبى أنت هيكلا من فنون مركبا »

و إنك لترى صوره الفنية قد وصلت الى الذروة ، وقلما اشترك ابن زيدون مع شاعر آخر من الفحول فى معنى من المعانى إلا بزّه ابن زيدون بفنه ، وأعجزه ببيانه الساحر المعجب . حتى البحترى الذى كان النقاد يلقبون ابن زيدون به ، كثيرا ما اشترك معه ابن زيدون فى صور شعرية وتفوّقت صور ابن زيدون على صور البحترى .

وانما خصصنا البحترى بالذكر ، لأن البحترى هو المثال الذى اختاره ابن زيدون ونحا نحوه حتى غلب عليه اسم بحترى المغرب .

ومن العجيب أن ابن زيدون قد اشترك مع البحترى فى عدّة صور شعرية ـ كما اشترك مع غيره من الشعراء ـ فكان ماذا ؟

كانت الصور الكلامية التى يبدعها الشاعران جديرة أن توضع فى أرقى المتاحف حين يشتركان فى غرض واحد ، ولكن الصور التى أبدعها ابن زيدون جديرة بالجائزة الأولى فى أغلب الأحايين .

قال البحترى :

«ولما حضرنا سدة الاذن أخرت	رجال عن الباب الذى أنا داخله
فأفضيت ـ من قرب ـ إلى ذى مهابة	أقابل بدر التم حين أقابله
كما انتصب الرمح الردينى ثقفت	أنابيبه ، واهتز للطعن عامله
وكالبدر ، وافيناه ، تم سعوده	وتم سناه واستهلت منازله
وسلمت ، فاعتاقت جنانى هيبة	تنازعنى القول الذى أنا قائله
فلما تأمّلنا الطلاقة ، وانثنى	إلىّ ببشر آنستنى مخايله

دنوت فقبلت الندى من يد امرئ ... كريم محياه سباط أنامله
صفت ـ مثل ما تصفو المدام ـ خلاله ... ورقت ـ كما رق النسيم ـ شمائله »

وقال ابن زيدون :

« فلما قضينا ماعنانا أداؤه ... وكل بما يرضيك داع فملحف
قرنا بحمد الله جدك ، إنه ... لأوكد ماتحظى إليه ويزلف
وعدنا إلى القصر الذى هو كعبة ... يعاديه منا ناظر أو مطرف
إذا نحن طالعناه والأفق لابس ... عجاجته والأرض بالخيل ترجف
رأيناك فى أعلى المصلى كأنما ... تطلع من محراب داود يوسف
ولما حضرنا الاذن والدهر خادم ... تشير فيمضى ، والقضاء مصرف
وصلنا وقبلنا الندى منك فى يد ... بها يتلف المال الجسيم ويخلف
لقد جدت حتى مايمس خصاصة ... وأمنت حتى ما بقلب تخوّف »

فأىّ الصورتين يفضل القارئ ؟

الحق ان الانسان ليحار فى تفضيل إحدى الصورتين على الأخرى ، فقد كادتا تصلان الى أقصى درجات الكمال . وتجلى إبداع الشاعرين فيهما إلى أقصى حدّ ، ولكن المنصف لايلبث بعد طول الروية والأناة أن يؤثر تلك الصورة الشعرية التى أبدعها ابن زيدون بحترى المغرب على صورة صاحبه بحترى المشرق .

وقد وقع كثير من النقاد المعاصرين فى خطأ شنيع حين تسرّعوا فى الحكم على ابن زيدون بأنه مقلد فى أكثر معانيه غير مبتدع ، وحسبوه لذلك ضحاح الفكر لايبعد شعره إلى الأعماق ، وقد عاب بعض المتسرّعين فى الحكم مثل ذلك على أناتول فرانس ، وعيروه بأنه كاتب أسلوب لا أكثر : كما عيروا ابن زيدون بذلك ، ونسوا أن الفنّ ـ كما يقول أناتول فرانس ـ ليس فى الابداع والاختراع بقدر ما هو فى حسن التأليف ودقة الانسجام . وكثيرا ما اتخذ أناتول من الحوادث التافهة وسيلة إلى خلق قصة رائعة . وإنما يمتاز الشاعر على الشاعر ـ إذا اشتركا فى معنى من المعانى ـ بما يبدعه أحدهما من الألوان وما يوفق اليه من التعبير عن ظلال المعانى ودقائقها .

فان أمّهات المعانى ـ كما قلت فى كتابى «صور جديدة من الأدب العربى» مشتركة بين الناس ـ على اختلاف لغاتهم وأزمانهم وبيئاتهم وأجناسهم ـ وانك لو حاولت أن تجد لأكثر المعانى أشباها لما أعياك ذلك . وربما قلت المعنى تحسب أنك انفردت به ثم عثرت على شبيهه ـ بعد عام أو عامين ـ فى شعر قديم أو حديث عربى أو غربى وقديما قال عنترة :

« هل غادر الشعراء من متردم ؟ . » وذلك أن النفس الانسانية ـ على اختلاف نزعاتها وشتى أجناسها وشعورها ـ تكاد لاتختلف فى الشعور بأمهات المعانى ، وثمة تتوارد الخواطر . وانما يمتاز الشاعر على الشاعر بالافتنان فى أداء هذه المعانى ، وروعة الأداء وحسن

التعبير عن دقائقها وظلالها والابداع فى صوغ الخوالج النفسية والصور الشعرية المشرقة بالحياة والقدرة على تهيئة الجو الرائع الذى تخلو فيه شاعريته وعرض معانيه فى أبهى صورها وأجل حليها .

ولنضرب للقارئ مثلا واحدا من أمثلة عدّة لايتسع لها المقام :

لعلّ كثيرا من الناس يدركون من أمثلة الحياة ونظمها أن مايضرّ واحدا قدينفع الآخر . هذا معنى شائع ميسور لكل متأمل وليس للسرقة مجال فيه . وقد افتن كثير من الشعراء فى صوغه فظهرت فى ذلك ميزاتهم ومواهبهم وتجلت قدرتهم على الخلق والابداع .

وقد صاغه المتنبى فى أبسط صوره فقال . « مصائب قوم عند قوم فوائد . »

وتناوله ابن الرومى من قبله فجلاه فى صورة أخرى وهى قوله :

« فاشقنى انما هجاؤك عندى ضحكات تزيد فى السرّاء .

ومحال أن يسعد السعداء الدهر الابشقوة الأشقياء . »

واما طرقه المعرّى جلاه فى أبدع صوره وأجلها فقال :

« وسحط الظباء بما نالها تولد منه رضى الحابل . »

فمثل لنا — من ذلك المعنى الشائع المطروق — صورة رائعة دقيقة مشرقة بالحياة وأظهر لنا — بريشة المصوّر الفطن — ظبية يوقعها القدر وسوء الحظّ ونكد الطالع فى حبالة القانص ويدرك أن حينها قد اقترب وأن هلاكها وشيك ، وصيادا يراها — فى هذه الحال من الألم والسخط — فيرى فرصة ثمينة نادرة بات يحلم بها طويلا .

ولقد أحسن الجرجانى حين قال فى ضمن فصل طويل نحب أن يرجع القارئ اليه فى كتابه :

« وقد يتفاضل مدعو هذه المعانى — بحسب مراتبهم — فتشترك الجماعة فى الشيء المتداول وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب أوترتيب يستحسن أوتأكيد يوضع موضعه أو زيادة اهتدى اليها — دون غيره — فيريك المشترك المبتذل فى صورة المبتدع والمخترع . »

وقد ضرب الجرجانى لذلك أمثلة كثيرة ثم قال :

« ولم يبق عليك الا أن تحترس من التفريط — كما احترست من الافراط — فلا تكن ممن يرى السرقة لاتتم الا باجتماع اللفظ والمعنى ونقل البيت جملة والمصراع تاما ، بل لايعرف إلا من يفعل فعل عبد الله بن الزبير بأبيات معن بن أوس . »

إلى أن قال بعد كلام طويل :

« والسرق — أيدك الله — داء قديم وعيب عتيق ، ومازال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمدّ من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه . »

ومن أجمل ماأورده فى ذلك الفصل قوله :

« ومتى انصفت علمت أن أهل عصرنا — ثم العصر الذى بعدنا — أقرب فيه الى المعذرة وأبعد من المذمة ، لأن من تقدمنا قد استغرق المعانى وسبق اليها وأتى على معظمها ، وانما يحصل

على بقايا إما أن تـكون تركت رغبة عنها واستهانة بها أولبعد مطلبها واعتياص مرامها وتعذّر الوصول اليها .

ومتى أجهد أحـدنا نفسه وأعمل فـكره وأتعب خاطره وذهنه فى تحصيل معنى - يظنـه غريبا مبتدعا ونظم بيت يحسبه فردا مخترعا ، ثم تصفح عنـه الدواوين - ثم لم يخط أن يجده بعينه أويجد له مثالا يغض من حسنه .

ولهذا السبب أحظر على نفسى ولا أرى لغيرى بت الحـكم على شاعر بالسرقة . وقد أحسن أحمد بن أبى طاهر فى محاجة البحترى لما ادّعى السرق فى قوله : -

« والشعرظهرطريق أنت راكبه   فمنـه منشعب أو غـير منشعب

وربمـا ضم بين الركب منهجه   وألصق الطنب العالى على الطنب »

فاذا شئت أن نمثل لك من شعر ابن زيدون بمـا يؤيد هذا الرأى، عرضنا لك نخبـة موجزة من أقوال رجال البيان فى بعض المعانى التى طرقها ابن زيدون . قال معاوية: « السرو التغافل »

وقال المتنبى : «ليس الغبى بسيد فى قومه   لـكن سيد قومه المتغابى»

وقال زهير

«ومن لم يصانع فى أمور كثيرة   يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم»

وقال بشار :

« اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى   ظمئت وأىّ الناس تصفو مشاربه

فعش واحدا أوصل أخاك فانه   مقارف ذنب مرة ومجانبه»

وقال أحد الشعراء .

« ومن يتتبع جاهـدا كل عـثرة   يجدها، ولا يسلم له الدهر صاحب »

وقال آخر :

« اقبل معاذير من يأتيك معتذرا   ان برّ عـــندك فيما قال أو فجرا

فقد أطاعك من أرضاك ظاهره   وقد أطاعك من يعصيك مستترا »

الى آخر ماقالوه فى هـذا المعنى وهو كثير نجتزىء منه بما ذكرنا ، فهل ترى فى كل ماقالوه أروع من قول ابن زيدون :

« إن السيادة بالاغضاء لابســة   بهاءها وجمـال الحسن فى الخفر »

ألا ترى أن فنّ ابن زيدون قد غلب فنون هؤلاء الفحول الأفذاذ وتفوّق عليهم فى هـذه الصورة الرائعة ؟

وانظر الى ذلك البيت الرائع الذى طالما تغنينا به وحسدنا قائله قد تخطى به درجات الـكمال والابداع حين قال :

« يزيدك وجهه حسنا   اذا مازدته نظـرا »

وقد أخذه ابن الرومى فقال فى «وحيد» المغنية :

« ليت شعرى ، اذا أعاد الينا ... كرة الطرف مبدئ ومعيد
أهى شىء لا تسأم العين منه ؟ ... أم لها كل ساعة تجديد ؟
بل هى العيش لا يزال متى استعـ ... رض يملى غرائبا و يفيد »

انظر كيف تلطف ابن زيدون فى نظمه وتحويره! وفى أى صورة مشرقة بالحياة رائعة الحسن صاغه ذلك الشاعر العبقرى فقال :

« حسن أفانين لم تستوف أعيننا ... غاياته بأفانين من النظر . »

ومن اليسير على كل انسان أن يقرر أن حبيبه قد هجره وأنه لايزال باقيا على عهده . ولكنه ليس من اليسير عليه أن يؤدى هذا المعنى كما أداه المجنون يقول :

« وأدنيتنى حتى اذا مافتنتنى ... بقول يحل العصم سهل الأباطح
تناءيت عنى حين لالى حيلة ... وغادرت ماغادرت بين الجوانح »

ولا أن يقول مثل قوله أيضا :

« أليس وعدتنى ياقلب أنى ... إذا ما تبت عن ليلى تتوب
فها أنا تائب عن حب ليلى ... فمالك كلما ذكرت تذوب . »

أو يقول كما قال ابن زيدون :

« كان التجارى بمحض الود مذ زمن ... ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا »
فالآن أحمد ماكنا لعهدكمو ... سلوتم و بقينا نحن عشاقا [(١)] ؟ »

تلك صور فنية تنخلع دونها الرقاب ولا يحسن أن يقولها إلا شاعر فنى موهوب ، ولا تزال أمهات المعانى كأصول لأنواع لاتكاد تختلف فى جملتها وان اختلفت فى دقائقها وتفاصيلها ، وانك لترى ألف حسناء فترى فى وجه كل منهن ملاحة من الحسن لاتوجد فى الأخرى ، ولا يزال الرسام يتفنن فى التعبير عن أسارير الوجوه و يبدع ماشاء ابداعه ، ولايزال اللحن الواحد يؤديه ألف مغن بارع فتحس نفسك لكل صوت سحرا خاصا يختلف عن الآخر .

ومانريد أن نخص ابن زيدون بالابداع فى كل معانيه دون سائر الشعراء ، فقد تخلف عنهم وقصر فى بعض قصائده كما يقصر الفحول أحيانا . الشعر كما يقول ابن الرومى كالشجر :

«ركب فيه اللحاء والخشب اليا ... بس والشوك بينه الثمر . »

ولكن الانصاف يقضى عليك ــ إذا تصديت للتفضيل بين الشعراء ــ أن تقارن بين روائعهم و بدائعهم ، أما مايقولونه عفو الخاطر، أو فى ساعات الكلال والضعف، فلست جديرا أن تحكم به على شاعريتهم، فقد تخرج الشجرة الممتازة ــ إلى ثمارها الشهية الغضة ــ ثمرة فجة فلا ينقص ذلك من قيمتها . وما نريد أن ننتصر لابن زيدون وأن نمدحه ولكننا نريد أن ننصفه ولا نظلمه .

---

(١) هاأنت ذا ترى صورتين رائعتين لمعنى واحد، فهل تستطيع أن تفصل إحداهما عن الأخرى ؟ ألا ترى أن كل واحدة من هاتين الصورتين مستقلة عن الأخرى كل الاستقلال وإن كانتا تعبران عن معنى واحد ؟ ألاترى إلى الصدق الذى يتمثل فى كل صورة بينهما ؟ أليست كل واحدة من هاتين الصورتين ملكا للشاعر لاينازع فيها الآخر ؟

لمـاذا سجن ابن زيدون ؟

لا نكاد تقرأ تاريخ ابن زيدون فى أى كتاب من كتب الأدب وتصل إلى هذا الفصل من تاريخ حياته حتى تقرأ هذه الجملة بنصها أو معناها .

« ثم سجنه ابن جهور لسبب وشاية أعداء ابن زيدون به » .

ولكن كيف وشى به أعداؤه فأحفظوا عليه قلب ابن جهور وأى وشاية هى؟ ذلك مايقف أمامه مؤرخو الأدب من غير أن يتعرضوا له حلا .

وقد حاول بعضهم أن يعلل ذلك بانغماس ابن زيدون فى حب ولادة وقالوا ان ابن عبدوس وأحزابه وشوا به عند ابن جهور فسجنه لأن أبا الحزم بن جهور - فى زعمهم - رجل ورع يؤثر التقوى والزهد ولا يقبل أن يرى إلى جانبه خليعا ماجنا كابن زيدون ؛ ونسى هذا الفريق من مؤرخى الآداب أن ابن عبدوس نفسه كان منغمسا فى حب ولادة وكان أكثر من ابن زيدون خلاعة ومجونا إن كان لابد من هذا التعبير الذى ارتضاه مؤرخو الآداب ؛ فليس من الانصاف أن يطلق اسم الماجن المستهتر على مثل ابن زيدون، فقد كان اذا قورن بغيره من شعراء عصره وشعراء العصور الأخرى أبعد عن هذه الصفة التى ألصقها به مؤرخوالآداب ، ولم يكن أبو الحزم بن جهور شيخا متبتلا ورعا متقشفا كما حاولوا أن يصفوه به،فقد كسر دنان الخمر حين ولى أمور الناس ، وهذا يدل على حزم وبعد نظر ولا يدل على تقشف وزهد وورع .

وما كان أبو الحزم ليسيء الى وزيره الذى خاض إلى جانبه نار الثورة القرطبية وكان يلهبها ببلاغته ويغذيها ببيانه والذى كان لايستغنى عنه أبو الحزم بن جهور ، نقول ليس أبو الحزم الذكى الأريب الذى شاد ملكا موطد الأساس بين الزعازع والفتن من الغفلة بحيث يأبه لأمثال هذه الصغائر ، انما كان يعنى أبا الحزم بن جهور أن يثبت ملكه ولا يعنيه بعد ذلك أن يكون ابن زيدون ملاكا طاهرا أو شيطانا فاجرا .

ولقد سجن ابن زيدون وزير ابن جهور وكان معرضا للقتل وسجن ابن عمار وزير المعتمد وقتل وسجن غيرهما من الأدباء والشعراء الذين استوزرهم ملوك الطوائف ، فاذا شئت أن تبحث عن أسباب سجنهم وقتل أكثرهم ، فلن تجد لذلك الاسببا واحدا وتهمة لايتعداها من شاء أن يدس أو يكيد وهى التهمة التى تعنى ملوك الطوائف وتقض مضاجعهم وتنسيهم كل يد أسلفت إليهم ، هذه التهمة هى التآمر على ملك الملك والطمع فيه .

ولقد كان ابن عمار أخلص صديق للمعتمد وكان المقرب الأمين عنده وكان أعز عليه من نفسه على حد تعبير المعتمد ، ولكنه طمع فى الملك فنسى المعتمد كل شيء الا سجنه وقتله والانتقام منه .

ولم تأخذ المعتضد رحمة بأحد أولاده حين عرف أنه يطمع فى ملكه ، فقتله خنقا عليه .

ولقد كان ابن زيدون شابا في مقتبل عمره وكان قريب عهد بالثورة التى دعا اليها آل جهور .
وكان أقرب شيء الى هذه النفس الشابة الفتية المتوقدة عزما وهمة ، والتى ظفرت بالوزارة فى مستهل حياتها السياسية أن تطمح الى ماهو أبعد من الوزارة .
وقد كان ابن زيدون كثير السمارات وكان موفقا محبوبا من ملوك الطوائف ذائع الشهرة فى عصره ، وكان قويا شديد النكاية والسخرية بخصومه ، ولم يكن لهم طريق يسلكونها للانتقام منه الا الكيد له – على أسلوب ذلك العصر – عند ابن جهور بأنه غير مخلص لعهده ولا أمين لأميره .
وما نبرئ ابن زيدون من تهمة التآمر فانه هو نفسه لم يتنصل منها تنصلا واضحا صريحا، بل نحن لانرى فى تصديقها حرجا فقد كانت الظواهر كلها تؤيدها ولاتنفيها .
ولقد فرّ ابن زيدون من سجن أبى الحزم ثم عاد بعد وفاته الى ابنه أبى الوليد و بذل له النصيحة كما بذل لأبيه، وظفر عنده بأعلى مكانة.ولكن تهمة ذلك العصر فرت به من جديد وكاد – لولا فراره – يسجن من جديد و يقضى بقية عمره فى السجن .
وقد اتصل بالمعتضد وحاول خصومه أن يدسوا له فلم يفلحوا ولما مات المعتضد أعادوا الكرة وأرادوا أن يغيروا عليه قلب المعتمد فأخفقوا ، وقربهم المعتمد أشدّ تقريب وما زال ابن زيدون الوفىّ الأمين المخلص للمعتمد،حتى قربت ميتته وقرب نجاح أعدائه فى تغيير قلب المعتمد عليه ، ولو طال عمره قليلا لأصابه من نكال المعتمد وانتقامه ماأصابه من أبى الحزم وما كاد يصيبه من أبى الوليد بن جهور.ولكن المنية أنقذته من شرورهم وأحقادهم كما أسلفنا .
على أن سجن ابن زيدون قد ترك فى نفسه الفتية الوثابة أثرا لايوصف . وألهمه الحكمة والأناة والصبر وعلمه مداراة الناس ومجاملة الخصوم ، وأقنعه بأن معاداة الرجال غير مأمونة العواقب وأن السهام « فلما اعتورت غرضا الا كلمته حتى يهى ماالشتد من قوته » فلم يدخر جهدا فيما بعد فى اكتساب رضى العامة والخاصة ، حتى أحبوه – الا القليل ممن دفعهم الحسد والغيرة وهؤلاء لاحيلة لأحد فى اكتساب رضاهم وسل سخائمهم واحقادهم – وقد مات فبكاه أهل أشبيلية وجزعت لفقده جمهرة معاصريه . ولا تزال أشعاره ورسائله التى نظمها فى سجنه آيات فذة من البيان العالى والشعر المعجز . ولا زال قوله :

«لايهنئ الشامت المرتاح خاطره	أنى معنى الأمانى ضائع الخطر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة	أم الكسوف لغير الشمس والقمر »

وقوله :

« ولا يغبط الأعداء كونى فى السجن	فانى رأيت الشمس تحصن بالدجن
وما كنت الا الصارم العضب فى جفن	أو الليث فى غاب أو الصقر فى وكن

أو العلق يخفى فى الصوار ويخبأ »

إلى آخر هذه القصائد الفذة التى كتب لها الخلود . مثالا عاليا للشعر الرائع والبيان الساحر

حساد ابن زيدون

كان من الطبيعى أن يلقى أديب مثقف وشاعر مجيد وسياسى مدرّب كابن زيدون ـ وصل فى مقتبل شبابه الى أرقى الدرجات ـ كثيرا من المنافسين والحساد ينقمون على أدبه وتفوقه و يغارون من تقرّبه الى الملوك الذين أكبروا فضله وأدبه فقرّبوه منهم وحاطوه برعايتهم، وقد لقى ابن زيدون فى قرطبة جماعة من المنافسين وعلى رأسهم الوزير الأديب أبو عامر بن عبدوس ، فكادوا له حتى أحفظوا عليه أبا الحزم جهور فسجنه كما أشرنا الى ذلك فى فصل سابق . ثم فرّ من السجن وعاد فاتصل بأبى الوليد بن أبى الحزم ، فلم ينقطع كيد المنافسين حتى غيروا عليه قلب الابن كما غيروا عليه قلب أبيه من قبل ، ففرّ ابن زيدون خوفا من السجن ومازال يتنقل بين ملوك الطوائف حتى استقرّ به النوى فى اشبيلية فلقى من كيد الحساد وعنتهم مثل مالقى فى قرطبة ، ولكن مدائحه الخالدة التى مدح بها المعتضد والتى تعدّ من مفاخر الشعر العربى وروائعه ، وحسن سياسة ابن زيدون و بعد نظر المعتضد تغلبت على كيد المنافسين وأرغمت أنوفهم وأحلته فى المكان الأوّل كما يقول من قصيدة رائعة :

« وأرغم فى برى أنوف عصابة   لقاؤهم جهم وأعينهم شزر »

« اذا ما انثنى فى الدست عاقد حبوة   وقام سماطا حفله فلى الصدر »

فلما مات المعتضد أعادوا الكرّة وجمعوا جموعهم للكيد له عند المعتمد ولكن المعتمد صدّهم أشنع صدّ وقرّبه اليه ، فلم ينس له ابن زيدون هذه اليد وفى ذلك يقول :

« يطيل العدا فىّ التناجى خفية   يقولون لا تستفت قد قضى الأمر »

ثم ما زالوا يكيدون له حتى أقصوه عن قرطبة الى اشبيلية منتهزين فرصة مرضه فسار اليها مرغما حيث لقى حتفه . وأفلح كيد ابن عمار وأصحابه فى التخلص من منافسة ابن زيدون .

ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده فى أبى الحزم وأبى الوليد والمعتضد والمعتمد من الشكوى الصارخة من كيد الحساد الذين تطوّعوا لايذائه وأرهقوه بدسائسهم المتوالية ، والحسد داء قديم وكم لقى الأدباء والشعراء الممتازون منه ما نغص عليهم حياتهم وأقض مضاجعهم .

وقد لقى المتنبى قبله فى مجلس سيف الدولة من حسد أبى فراس وابن خالويه ، ثم لقى عند كافور الاخشيدى من حسد ابن حنزابة ، ثم لقى فى بغداد من حسد الوزير المهلبى الذى أغرى به الشعراء والأدباء كالحاتمى وابن سكرة وغيرهما ، ما أقلق باله وقاده الى حتفه .

وقد كان يبلغ المتنبى بعد أن ترك سيف الدولة تشنيع حساده به عنده ، فيقول :

« رأيتكم لا يصون العرض جاركم   ولا يدر على مرعاكم اللبن

جزاء كل قريب منكم ملل   وحظ كلّ غريب عنكم ضغن . »

الى آخر ماقال .

وكان يبلغ ابن زيدون عن ابن جهور بعد اتصاله بالمعتضد مايسوءه فى نفسه وقرابته بقرطبة فيقول :

« بنى جهور أحرقتم بجفائكم فؤادى فما بال المدائح تعبق
تعدّوننى كالعنبر الورد إنما تطيب لكم أنفاسه حين يحرق »

وقوله :

« قل للوزير وقد قطعت بمدحه زمنا فكان السجن منه ثوابى :
لا تخش فى حقى بما أمضيته من ذاك فى ولا توق عتابى
لم تخط فى أمرى الصواب موفقا هذا جزاء الشاعر الكذاب . »

وقوله .

« من مبلغ عنى البلاد اذا نبت أن لست للنفس الألوف بباخع
أما الهوان فصنت عنه صفحة أعشى بها حدّ الزمان الشارع
فليرغم الحظ المولى أنه ولىّ فلم أتبعه خطوة تابع
ان الغنى هو القناعة لا الذى يشتف نطفة ماء وجه القانع »

الى آخر ماقال .

وقد كان لهذه المنافسات أثرها العظيم فى اجادة الشاعرين واظهار أروع ماقالاه من الشعر، وصدق القائل :

« لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود »

وما كاد المعتمد يتولى الأمر بعد أبيه المعتضد حتى نشط الدساسون والمفسدون لمحاربة ابن زيدون فرموا اليه برقعة فيها قصيدة طويلة أوّلها :

« يأيها الملك العلىّ الأعظم اقطع وريدى كل باغ يلثم
واقسم بسيفك داء كل منافق يبدى الجميل وضد ذلك يكتم »

فكان ردّ المعتمد على ذلك قوله :

« كذبت مناكم صرّحوا أوجمجموا الدين أمتن والسجية أكرم
خنتم ورمتم أن أخون ، وربما حاولتم أن يستخف يلملم (1) . »

---

(1) وفيها يقول

« وأردتم تضييق صدر لم يضق والسمر فى ثغر النحور تحطم
وزحفتم بمحالكم لمجرب مازال يثبت للمحال فيهزم
أنى رجوتم غدر من جربتم منه الوفا وظلم من لا يظلم
أنا لكم لا البغى يثمر غرسه عندى ولا مبنى الصنيعة يهدم
كفوا . والافارقوا لى بطشه يلقى السفيه بمثلها فيحلم »

وقد عرف ابن زيدون كيف يشكر له هذه اليد فى قصيدته الرائعة التى يقول فيها :

« وأرى المساعى كالسيوف تبادرت ... شأو المضاء ، فنثن ومصمم
ولكم تسامى بالرفيع نصابه ... خطر ، فناصه الوضيع الألأم»

وفيها يقول ويبدع :

« قل للعداة المنصبين قسيهم ... سترون من تصميه تلك الأسهم
أسررتم ، فرأى يحى عيونكم ... شيحان ، مدلول عليها ملهم
وعبأتم – للفسق – طمر سعاية ... لم يعدكم أن رد وهو مقلم
ونبذتم التقوى وراء ظهوركم ... وعدا نعيصكم التقى الأكرم
ما كان حلم « محمد » ليحيله – ... عن عهده – دغل الضمير مذمم »

وفيها يقول بعد أن أغراه بأعدائه :

« فرق عوب ، فزأرت زأرة زاجر ... راع الكليب بها السبنتى الضيغم
ياليت شعرى هل يعود سفيههم ... أم قد حماه السح ذاك المكعم
لى منك – فليذب الحسود تلظيا – ... لطف المكانة والمحل الاكرم
وشفوف حظ ليس ينفأ يجتلى ... غض الشباب وكل حظ يهرم . »

الى آخر هذه القصيدة الرائعة .

وقلما تخلو قصيدة من قصائده من مناسبة يخلقها خلقا . ويتطرق منها الى الشكوى والأ[illegible]
من حساده ومنافسيه وما لقيه من كيدهم وعنتهم

ومن أروع ماقاله فى ذلك ، قوله من قصيدة :

« كان الوشاة وقد منيت بإفكهم ... أسباط يعقوب وكنت الذيبا

الى أن قال :

« أنا سيفك الصدئ الذى مهما تشأ ... تعد الصقال اليه والتذريبا

وقوله :

« ايه « أبا الحزم » اهتبل عزة ... ألسنة الشكر عليها فصاح
لاطار بى حظ إلى غاية ... ان لم أكن منك مريش الجناح
عتباك – بعد العتب – أمنية ... مالى على الدهر سواها اقتراح
لم يثنى عن أمل ماجرى ... قد يرقع الخرق وتؤسى الجراح »

وقوله :

« ماجال بعدك لحظى فى سنا القمر ... إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر »

إلى أن قال :

« حسن أفانين لم تستوف أعيننا ... غاياته بأفانين من النظر . »

إلى أن قال :

«من يسأل الناس عن حالى ، فشاهدها ... محض العيان الذى يغنى عن الخبر
لم تطو برد شبابى كبرة وأرى ... برق المشيب اعتلى فى عارض الشعر
قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كثب ... وللشبيبة غصن غير مهتصر
ها انها لوعة فى الصدر قادحة ... نار الأسى ومشبى طائر الشرر
لا يهنئ الشامت المرتاح خاطره ... انى معنى الأمانى ضائع الخطر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة ؟ ... أم الكسوف لغير الشمس والقمر
إن طال فى السجن إيداعى فلا عجب ... قد يودع الجفن حدّ الصارم الذكر
وان يثبط ـ « أبا الحزم » الرضى ـ قدر ... عن كشف ضرّى فلا عتب على القدر
ما للذنوب ـ التى جانى كبائرها ... غيرى ـ يحملنى أوزارها وزرى
من لم أزل من تأنيه على ثقة ... ولم أبت من تجنيه على حذر . »

إلى أن قال :

« لاتله عنى فلم أسألك معتسفا ... ردّ الصبا بعد ايفاء على الكبر
واستوفر الحظ من نصح وصاغية ... كلاهما العلق لم يوهب ولم يعر
هبنى أسأت فكان العلق سيئة ... لاعذر منها سوى أنى من البشر
ان السيادة بالأغضاء لابسة ... بهاءها و بهاء الحسن فى الخفر . »

وقال :

« ولو أنى أسطيع كى أرضى العدا ... شريت ببعض الحلم حظا من الجهل . »

إلى أن قال :

« جواد إذا استنّ الجياد الى مدى ... تمطر فاستولى على أمد الخصل
ثوى صافنا فى مربط الهون يشتكى ... بتصهاله ماناله من أذى الشكل »

إلى أن قال :

« أعدّك للجلى وآمل أن أرى ... بنعماك موسوما وما أنا بالغفل . »

ثم قال :

« أتى زعم الواشون مالبس مزعما ... تغيّر فى نصرى وتغدر فى خذلى
وأصدى إلى إسعافك السائغ الجنى ... وأضحى إلى إنصافك السابغ الظلّ
* ولو أننى واقعت عمدا خطيئة ... لما كان بدعا من سجاياك أن تملى
فلم أستثر حرب « الفجار » ولم أطع ... «مسيلمة» إذ قال : انى من الرسل »

وانظر إلى قوله :

« فديتك كم ألقى النواغر من عدا ... قراهم ـ لنيران الفساد ـ ثقاب
عفا عنهم قدرى الرفيع فأهجروا ... وبانهم خلق الجميل فعابوا »

وقد تسمع الليث الجحاش نهيقها ... وتعلى إلى البدر الساح كلاب
إذا راق حسن الروض أو فاح طيبه ... فما ضرّه أن طنّ فيه ذباب . »

إلى أن قال :

« فأنت الحسام العضب أصدئ متنه ... وعطل مسه مضرب وذباب
وما السيف مما يستبان مضاؤه ... إذا حاز جفن حده وقراب . »

وقوله :

« لا تستجز وضع قدرى بعد رفعكه ... فالله لا يرفع القدر الذى تضع . »

الى أن قال :

« طن العدا اذ أغبت ـ أنها انقطعت ... هيهات ليس لمد البحر منقطع
لا بأس بالأمر ـ ان ساءت مبادئه ... نفس الشقيق ـ اذا ماسرت الرجع . »

الى أن قال :

« كم غرة لى تلقتها قلوبهم ... كما تلقى شهاب الموقد الشمع
اذا تأملت حتى عتب غشهم ... لم يخف من فلق الاصباح منصدع
تلك العرانين لم يصلح لها شمم ... فكان أهون مابليت به الجدع
أودعت نعماك منهم شر مفترس ... لن يكرم العرس حتى تكرم البقع
لازال جدك بالاعداء يصرعهم ... ان كان بين جدود الناس مصطرع »

وماأروع قوله معتذرا عن هجره ابن جهور : « وهو يرى و يسمع أن بالحضرة قوما لا يحصرهم العدّ ، تحتمل سقطاتهم وتغتفر هفواتهم وتقال عثراتهم وما أعلم أنهم يدلون بوسيلة الا ساركتهم فيها ولا يمتون بذريعة يتفردون دونى بها » الخ .

وقوله :

« أرى نبوة لم أدر سرّ اعتراضها ... وقد كان يجلو عارض الهم أن أدرى
جفاء هو الليل ادلهم ظلامه ... فلا كوكب للعذر فى أفقه يسرى
هب العزل أضحى للولاية غاية ... فما غاية الموفى من الطلّ أن يكرى
فيم أرى ردّ السلام إشارة ... تسوغ بى ازراء من شاء أن يزرى
أناس هم أخشى للدعة مقولى ... إذا لم يكن مما فعلت لهم مضر »

وقوله :

« ألا هل أتى الفتيان أن فتاهم ... فريسة من يعدو ونهزة من يسطو
وأن الجواد الفائت الشأو صافن ... تخونه شكل وأزرى به ربط
وأن الحسام العضب ثاو بجفنه ... وماذم من غربيه قدّ ولا قط »

وقوله :

« مثون من الأيام خمس قطعتها أسيرا ، وان لم يبد شدّ ولا قمط . »

وقال :

« وما زال يدنيني ، ويثنى قبوله هوى سرف منه وصاغية فرط . »

وقال :

« عدا سمعه عنى فأصغى الى عـدا لهـم فى أديمى كلما استمكنوا عط
بلغت المنى إذ قصروا فقلوبهـم مكامن أحقاد أساودها رقط . »

وقوله :

« ومثلى قد تهفو به نشوة الصبا ومثلك قد يعفو ، ومالك من مثل
وانى لتنهانى نهاى عن التى أشادبها الواشى ويعقلنى عقلى . »

الى أن قال :

« وما كنت بالمهدى الى السودد الحبا ولا بالمسىء القول فى الحسن الفعل . »

الى أن قال :

« هى النعل زلت بى ، فهل أنت مكذب لقيل الأعادى انها زلة الحسل . »

الى أن قال :

« ألا إن طى ـ بين فعليك ـ واقف وقوف الهوى بين القطيعة والوصل . »

الى أن قال :

« وأين جواب عنك ترضى به العلا اذا سألتنى بعد ألسنة الحفل . »

إلى آخر ماأبدعته هذه العبقرية الجبارة ، من الافتنان البارع ، فى صورها الشعرية التى لاتسامى .

٤ حب ولادة

تمرّ شتى الحوادث بالانسان فينساها ولا تكاد تترك فى نفسه أثرا يذكر ، على أن لبعض الحوادث أثرا لايمحى،حيث تمرّالأيام والشهور والسنون وهو باق فى ذهنه يؤثر فيه أعمق الأثر ، و يطبع نفسه بطابع خاص ، ومن الحوادث التى أثرت فى نفس ابن زيدون وشعره ونثره أكبر الأثر ، حادثان : حب ولادة . وحبسه زهاء عامين .

فأما حب ولادة فقد ألهب نفسه إلهابا وأكسبها شاعرية خصبة ففاضت بأعذب الشعر وأبدعت فى ضروب الغزل ماشاء لها أن تبدع ، وأخرجت لنا أروع قصائده الغزلية ، وألهمته أسمى ألوان الخيال العالى والغزل الرقيق . كقوله :

« ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ماستودعك »

وقوله :

«أما منى نفسى ، فأنت جميعها يا ليتنى أصبحت بعض مناك
يدنو بوصلك حين شط مزاره وهم أكاد به أقبل فاك »

وقوله :

« كان التجارى بمحض الودّ مذ زمن ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا
فالآن أحمد ما كنا لعهدكم سلوتم وبقينا نحن عشاقا »

وقوله فى نفس القصيدة :

« لا سكن الله قلبا عنّ ذكركم فلم يطر بجناح الشوق خفاق »

وقوله من قصيدة أخرى :

« ياليل طل ، لاأشتهى إلا بوصل قصرك »
« لو بات عندى قمرى ما بت أرعى قمرك »

وقوله :

« بينى و بينك مالو شئت لم يضع سر اذا ذاعت الأسرار لم يذع »

وقوله :

« بنتم و بنا فما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم ولا جفت مآقينا »

إلى أن يقول :

« ماحقنا أن تقرّوا عين ذى حسد بنا ولا أن تسروا كاشحا فينا »
« غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر آمينا »
« فانحلّ ما كان معقودا بأنفسنا وانبت ما كان موصولا بأيدينا »

وقوله :

« لاستجدنّه فى عشقها زمنا ينسى سوالف أيامى وأزمانى

حتى تكون لمن أحببت خاتمة   نسخت – فى حبها – كفرا بإيمان »

وقوله :

« إن ساء فعلك بى ، فما ذنبى أنا ؟   حسب المتيم انه قد أحسنا
لم أسل حتى كان عذرك – فى الذى   أبديته – أخفى وعذرى أبينا
ولقد شكوتك – بالضمير – الى الهوى   ودعوت – من حنق – عليك فأمنا
منيت نفسى – من وفائك – ضلة   ولقد تغرّ المرء بارقة المنى »

وقوله :

« أغائبة عنى وحاضرة معى   أناديك – لما عيل صبرى – فاسمعى
أفى الحق أن أشقى بحبك أو أرى   حريقا بأنفاسى ، غريقا بأدمعى
ألا عطفة تحيا بها نفس عاشق ؟   جعلت الردى منه بمرأى ومسمع
صلينى – بعض الوصل – حتى تبينى   حقيقة حالى ، ثم ما شئت فاصنعى »

وقوله :

« قدكان – فى شكوى الصبابة – راحة   لو أننى أشكو إلى من يرحم »

وقوله :

« لما اتصلت اتصال الحب بالكبد   ثم امتزجت امتزاج الروح بالجسد
ساء الوشاة مكانى منك واتقدت   – فى صدر كل عدوّ – جمرة الحسد
فليسخط الناس لا أهد الرضى لهم   ولا يضع لك عهد آخر الأبد
لواستطعت – اذا ماكنت غائبة –   غضضت طرفى فلم أنظر الى أحد »

وقوله :

« ياليل خبر . انى   التذ عنه خبرك
بالله قل لى : هل وفى ؟   فقال : « لا . بل عدرك »

وقوله :

« لئن فاتنى منك حظ النظر   لأكتفين بسماع الخبر
وان عرضت غفلة للرقيـ   ـب فحسبى تسليمة تختصر
أحاذر أن تتظنى الوشا   ة ، وقد يستدام الهوى بالحذر
واصبر مستيقنا انه   سيحظى – بنيل المنى – من صبر »

وقوله :

« أشمت بى فيك العدا   وبلغت – من ظلمى – المدى
لو كان يملك فدية   – من حبك القلب افتدى
كنت الحياة لعاشق   – مذ حلت – أيقن بالردى

لم يسـل عنـك ولو سـلا لعذرته ، فبت اوـدى »

وقوله :

« أبديت لى ــ من أفانين القلى ــ عبرا أرسلتنى ــ فى أحاديث الهوى ــ مثلا
لم تبق جارحة بالهجر من جسـدى الا خلعت عليها ــ بالضنى ــ حللا
فليغن كفك انى بعض من ملكت وليكف طرفك انى بعض من قتلا
ولقض ماشئت ــ من هجر ومن صلة ــ لاأقض ماعشت سلوانا ولا مللا
سـقيا لعهـدك والأيام تقبلى وجه السرور به جذلان مقتبلا
إذ الزمان مليغ فى مساعـــدتى يهدى الى ــ تعاريق المنى ــ جملا
ان كان لى أمـل الا رضاك فلا بلغت يا أملى ــ من دهرى الأملا »

وقوله :

« انى لأعجب من شوق يطاولنى فكلما قيل فيه : « قد قضى » ثابا
كم نظرة لك فى عينى علمت بها ــ يوم الزيارة ــ أن القلب قد ذابا
قلب يطيل مقاماتى لطاعتـكم ــ فان أكلفه عنـكم سـلوة يابى
ماتو بتى بنصوح ــ من محبتـكم لا عـــذب الله الا عاشـقا تابا »

وقوله :

« معاهـد لهو لم تزل فى ظلالها تدار علينا ــ للمجون ــ مـدام
زمان رياض العيش خضر نواضر ترف وامواه السرور جمام
فان بان منى عهـدها ، فلوعـة يشب لها ــ بين الضلوع ــ غرام
تذكـرت أيامى بها فتبادرت دموع كما خان الفـريد نظام
وصحبـة قوم كالمصابيح كلهـم اذا هز للخطب الملم ــ حسام . »

الى أن قال :

« محل عفينا بالتصابى حلاله فأسـعدنا ، والحادثات نيام
فما لحقت تلك الليالى ملامة ولا دم ــ من ذاك الحبيب ــ دمام »

وقوله : وهو مطليوس من قصيدة رائعة :

« إن قرت العين بأن أهوى بها لم آل أن أسترضى العضو با
حسبى ان أحرم المعيبا قد يمنع المذنب أن يتوبا »

وقوله :

لم ينجنى منك ماأستشعرت من حذر هيهات كيـد الهوى يستهلك الحـذرا
ماكان حبك الا فتنة قـــدرت هل يستطيع فتى أن يدفع القـدرا »

وقوله :

« ماالذى ضرك لو سـر بمرآك الحـزين

وتلطفت لصب حينه فيك يحين »

وقوله :

« ماضر لو أنك لى راحم وعلتى أنت بها عالم
يهنيك ياسؤلى ويابغيتى انك مما أشتكى سالم
تضحك فى الحب وأبكى أنا الله ـ فيما بيننا ـ حاكم
أقول لما طار عنى الكرى قول معنى قلبه هائم
يا نائما أيقظنى حبه هب لى رقادا أيها النائم »

وقوله :

« هلا جعلت ـ فدتك نفسى غاية للعتب أبلغها بجهد الجاهد
لا تفسدن ما قد تأكد بيننا ـ من صالح ـ خطرات ظن فاسد
حاشاك من تضييع ألف وسيلة شجى العدو لها بذنب واحد
ان أجنه خطأ فقد عاقبتنى ظلما بأبلغ من عقاب العامد »

وقوله :

« علام اطبتك دواعى القلى ؟ وفيم ثنتك نواهى العذل ؟
ألم الزم الصبر كيما أخف ؟ ألم أكثر الهجر كى لا أمل ؟
ألم أرض منك بغير الرضى وأبدى السرور بما لم أنل ؟
ألم اغتفر موبقات الذنو ب عمدا أتيت بها أم زلل ؟
وما ساء ظنى فى أن يسىء بى الفعل حسك حتى فعل
على حين أصبحت حسب الضمير ولم تبغ منك الأمانى بدل
وصانك منى وفى أبى لعلق العلاقة أن يبتذل »

وقوله :

« عليك السلام سلام الوداع وداع هوى مات قبل الأجل
وما باختيار تسليت عنك ولكننى مكره لا بطل
ولم يدر قلبى كيف النزوع إلى أن رأى سيرة فامتثل »

إلى آخر هذه القصيدة التى تحلق بك فى جو العباس بن الأحنف ، حتى ليخيل إليك أنها من شعره قد ألحقها بديوانه الحافل بهذه الروح الحائرة القلقة .

« يامن غدوت به فى الناس مشتهرا قلبى عليك يقاسى الهمّ والفكرا
إن غبت لم ألق إنسانا يؤنسنى وان حضرت فكل الناس قد حضرا »

وانظر إلى قوله وقد هاجته الذكرى الى قرطبة :

« سقى الله أطلال الأحبة بالحمى وحاك عليها ثوب وشى منمنما
وأطلع فيها للأزاهير أنجما فكم رفلت فيها الخرائد كالدمى
إذ العيش غض والزمان غلام »

وما أروع قوله فى تلك الموشحة الساحرة :

« أهيم بجبار يعز وأخضع شذا المسك من أردانه يتضوع
اذا جئت أشكوه الهوى ليس يسمع فما أنا فى شىء من الوصل أطمع
ولا أن يزور المقلتين منام »

الى أن يقول :

« فقل لزمان قد تولى نعيمه ورثت – على مر الليالى – رسومه
وكم رق فيه – بالعشى – نسيمه ، ولاحت – لسارى الليل فيه نجومه
عليك من الصب المشوق سلام »

وقوله فى ذكرى قرطبة وولادة ومجالس أنسه :

« أقرطبة الغراء ، هل فيك مطمع وهل كبد حرى لبينك تنقع
وهل للياليك الحميدة مرجع اذ الحسن مرأى فيك واللهو مسمع
واذ كنف الدنيا لديك موطأ »
« أليس عجيبا أن تشط النوى بك فأحيا كأن لم أنس نفح جنابك
ولم يلتئم شعبى حلال شعابك ولم يك خلقى بدؤه من ترابك
ولم يكتنفنى – من نواحيك – منشأ »

الى أن يقول :

« معاهد أبكيها لعهد تصرما أغض من الورد الجنى وأنعما
لبسنا الصبا فيها حبيرا منمنما وقدنا إلى اللذات جيشا عرمرما
له الأمن ردء والغداوة مربأ »

وقوله :

« أإخواننا للواردين مصادر ولا أول إلا سيتلوه آخر
وإنى لاعتاب الزمان لناظر فقد يستقيل الجد ، والجد عاثر
وتحمد عقبى الأمر ما زال يشنأ »

وما أبدع قوله :

« وان بلادا هنت فيها لأهون ومن رام مثلى بالدنية أدنأ . »

الى آخر هذه القصائد الفذة التى يفخر بها الأدب العربى والبيان العربى . والتى كان الباعث الأول على نظمها الخصب وصوغها المعجز هو حب ولادة .

٥ — أدب ابن زيدون

قلما يظفر الانسان بأديب عربي يحمل لواء الزعامتين في النظم والنثر ، فان أغلب مانشاهده أن يبدع الأديب في أحد النوعين إبداعا يعطي على إبداعه في الآخر ، أما ابن زيدون فانك تقرأ نثره فلا تكاد تصدّق أن شعره يتسامى إلى مثل هذه المرتبة العالية ، فاذا عدت الى شعره أنساك إبداعه روعة ما قرأت من نثره ، وهكذا لاتكاد تقرأ قطعة مختارة من شعره أو نثره حتى تملأ نفسك بهجة وسرورا ويسيك سحرها كل شيء آخر . وليس من الانصاف أن نقول إنه شاعر ممتاز حسب أوناثر ممتاز فقط ، وما أجدرنا أن ننصفه فنقول إنه زعيم من زعماء البيان العربي .

لقد قضى ابن زيدون حياته بين الدرس والتحصيل والتجارب والاختبار والاتصال بكبار ساسة عصره ودهاتهم ، وصهر قلبه حبّ ولادة كما أسلفنا ، وحنينه الى وطنه ، وأثر في نفسه الشاعرة الحساسة ماأثارت به الأندلس من جمال التربة وصفاء الجوّ ، ولقي من السعادة والتمتع بالحسن أشهى وأعذب مالقي محبّ ، ثم لقي من لوعة الصدّ والهجران أشقى وأمرّ مالقي إنسان :

« حسن أفانين لم تستوف أعينها غاياته بأفانين من النظر »

ولقد نعم بصولجان السلطة والقوّة حينا من الدهر ثم شقي بالسجن بين الأشرار والمجرمين زمنا غير قليل ، ولقي من كيد المنافسين والحساد كما أسلفنا مالم يلقه أحد . فلا غرو أن تتضافر كل هذه العوامل القوية على خلق الشاعر العظيم . وأنت إذا درست أدب ابن زيدون دراسة مستفيضة رأيته حليقا بأن يقول كما قال فيلسوف المعرة :

« مامر في هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندي من أخبارهم طرف »

ولقد ترى في أدبه أمثلة من ثقافة المعري وسعة اطلاعه وتمكنه من اللغة ، ومحافظته على أساليبها ، كما ترى فيه أمثلة من صناعة أبي تمام ونظم البحتري واسترسال ابن الرومي وقوّة أداء المتنبي .

وإنك لتقرأ أكثر غزله فيخيل اليك لسهولته أنك تحلق في أجواء العباس بن الأحنف والشريف الرضي والمجنون ، ثم تقرأ اخوانياته فيخيل اليك لاسترساله وافتنانه في ضروب القول ، انك تقرأ ابن الرومي وهو يخاطب أبا القاسم التوزي بهمزيته المشهورة ، ثم تقرأ رسائله فيخيل إليك أنك تقرأ رسائل الجاحظ في براعة الاستخفاف والتهكم أو رسائل المعري في سعة الاحاطة وكثرة الاستشهاد ، والولوع بالأمثال .

وقد كان ابن زيدون زعيم شعراء عصره في الأندلس فلا غرو أن يكون أدبه أصدق مرآة يتجلى فيها أدب هذا العصر الزاهي وثقافته

وقد كان يجمع ـ إلى حسن رويته ـ قوّة الذلاقة وسرعة البديهة ، وقلما يتفق لأديب عمق التفكير مع ذلاقة اللسان ، فقد روى صاحب نفح الطيب محدثا عن ذلاقة ابن زيدون : أن ابنته توفيت ، و بعد الفراغ من دفنها ، وقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليشكر لهم ، فقيل ، إنه ماأعاد فى ذلك الوقت عبارة قالها لأحد ، قال الصفدى : « وهذا من التوسع فى العبارة والقدرة على التفنن فى أساليب الكلام ، وهو أمر صعب إلى الغاية » الى أن قال ـ بعد أن قارن بينه و بين واصل بن عطاء فى تجنبه الراء ، وأما ابن زيدون فأقول فى حقه : «أقلّ ما كان فى تلك الجنازة ـ وهو وزير ـ ألف رئيس ممن يتعين له أن يتشكر له و يضطرّ الى ذلك فيحتاج فى ذلك إلى ألف عبارة مضمونها الشكر وهذا كثير الغاية لاسيما من محزون فقد قطعة من كبده :

« ولكنه صوب العقول اذا انبرت سحائب منه أعقبت بسحائب . »

ومهما كان فى هذا الخبر من الاسراف ، فان بعضه كاف فى الدلالة على فضله .

وكان ابن زيدون إلى ذلك إماما من أئمة عصره حتى قال بعض الأدباء فيه :

« من لبس البياض وتختم بالعقيق وقرأ لأبى عمرو وتفقه للشافعى وروى شعر ابن زيدون ، فقد استكمل الطرف » .

كامل كيلانى

فى السجن (١)

« نظم ابن زيدون هذه القصيدة الفياضة بالألم واللوعة والحزن ، وهو فى السجن ، وبعث بها إلى صديقه الوزير الكاتب أبى حفص بن برد »

مَا عَلَى ظَنِّيَ بَاسُ (٢)   يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَاسُو (٣)

رُبَّمَا أَشْرَفَ بِالْمَرْ   ءِ عَلَى الآمَالِ يَاسُ

وَلَقَدْ يُنْجِيكَ إِغْفَا   لٌ وَيُرْدِيكَ (٤) احْتِرَاسُ

وَالمَحَاذِيرُ سِهَامٌ   وَالمَقَادِيرُ قِيَاسُ (٥)

وَلَكَمْ أَجْدَى (٦) قُعُودٌ   وَلَكَمْ أَكْدَى (٧) الْتِمَاسُ

وَكَذَا الدَّهْرُ (٨) — إِذَا مَا   عَزَّ نَاسٌ — ذَلَّ نَاسُ

وَبَنُو الأَيَّامِ أَخْيَا   فٌ سَرَاةٌ وَخِسَاسُ (٩)

---

(١) جاء فى قلائد العقيان :

« وله عند فقد الوفاء من ألافه ، يخاطب أبا حفص بن برد ، وقد حار ولم يجد هاديا ، وصار رهينا لايرجو فاديا ، وعلم أن الناس متقلبون ، وعلى من انقلب الدهر منقلبون ، لا يديهم فى الشدة إخاء ، ولا يثنيهم عن ذوى الحظوة زهو ولا انتحاء .

ما على ظنى باس   يجرح الدهر ويأسو »

وقد ذكرت بترتيب يخالف هذا الترتيب الذى نقله عن نسخة الديوان .

(٢) ويروى : « ما على ظنى باس » .   (٣) يداوى .   (٤) وفى رواية : « ويؤذيك احتراس »

(٥) جمع قوس : عن يعقوب وأبى عبيد فهو على فعال ، وأصله قواس قلبت الواو ياء لمناسبة الكسرة ، وشاهده قول القائل :

« ووتر الأساور القياسا   صغدية تنتزع الأنفاسا »

(٦) أغنى : أو أفاد .   (٧) أخفق ولم يفز — يقول : كثيراً ما يكون القعود عن المطلب سببا فى الظفر والفوز والسعى سبباً فى الإخفاق والحرمان ، وقد تهافت الشعراء على هذا المعنى كثيراً ، ومن أحسن ما جاء فيه قول ابن رزيق :

والسعى فى الرزق والأرزاق قد قسمت   بغى ألا إن بغى المرء يصرعه

(٨) فى رواية : « وكذا الحكم » .

(٩) الناس أخياف : أي مختلفون ، شريف وخسيس . قال أحد الأعراب : « الناس أخياف وشتى فى الشيم »

نَلْبَسُ الدُّنْيَا ، وَلٰكِنْ مُتْعَةٌ ذَاكَ اللِّبَاسُ [1]

يَا أَبَا حَفْصٍ وَمَا سَا وَاكَ فِي فَهْمِ إِيَاسُ [2]

مِنْ سَنَا [3] رَأْيِكَ لِي فِي غَسَقِ [4] الخَطْبِ اقْتِبَاسُ

وَوِدَادِي لَكَ نَصٌّ [5] لَمْ يُخَالِفْهُ قِيَاسُ [6]

أَنَا حَيْرَانُ وَلِلْأَمْرِ وُضُوحٌ وَالْتِبَاسُ

مَا تَرَى فِي مَعْشَرٍ حَا لُوا عَنِ الْعَهْدِ وَخَاسُوا [7]

وَرَأَوْنِي سَامِرِيًّا [8] يُتَّقَى مِنْهُ الْمِسَاسُ

أَذْؤُبٌ هَامَتْ بِلَحْمِي فَانْتِهَاشٌ [9] وَانْتِهَاسُ

كُلُّهُمْ يَسْأَلُ عَنْ حَا لِي وَلِلذِّئْبِ اعْتِسَاسُ [10]

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »

(٢) هو القاضي إياس بن معاوية بن إياس المزني ولي القضاء في زمن عمر بن عبد العزيز ، وكان يضرب به المثل في الألمعية :

والألمعي الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

وإياس هذا هو من عناه الحريري بقوله في المقامة السابعة « فإذا ألمعيّتي ألمعية ابن عباس ، وفراستي فراسة إياس » وعناه أبو تمام في قصيدته السينية بقوله :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

(٣) من ضوء رأيك (٤) ظلمة (٥) النصّ : السند المقطوع بصحته والتعيين على شيء ، وهو في عرف الفقهاء ، مقطوع بصحته فلا يخالفه قياس ، فكأنه يقول : إنّ ودادي مسند إليك ، أو هو موقوف عليك ، أو معين لك ، وقد استعمل الشاعر لفظي النصّ والقياس في الشعر ، وهما من مصطلحات الفقهاء على عادته في ذلك ، وهو يشير بذلك إلى اصطلاح الفقهاء إذ يعتبرون النص والقياس من مآخذ الأحكام الشرعية ، والأول صريح لفظ القرآن أو الحديث ، والثاني إلحاق قضية — لا نص فيها — بقضية أخرى منصوصة لاشتراكهما في علة حكم الأولى (٦) وفي رواية : القياس

(٧) خانوا (٨) السامريّ : عظيم من بني إسرائيل عبد العجل . قال الكشاف : عوقب في الدنيا بعقوبة لاشيء أطمّ منها وأوحش ، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً ، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكلّ ما يعايش الناس به بعضهم ، وإذا مسّ أحداً رجلا أو امرأة حمّ الماس والممسوس ، فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح في الناس « لا مساس » .

(٩) الانتهاش بالشيء : الأخذ بالأضراس ، وبالسين : الأخذ بمقدم الأسنان ، وفي رواية : فانتهاب وانتهاس

(١٠) طلب الصيد بالليل ، ومعنى الأبيات أن أعداءه كالذئاب لاينون عن نهش لحمه ، متظاهرين بالتودد له والاشفاق عليه ، فهم يسألون عن حاله متجسسين ، كما يتجسس الذئب ليتعرف مواطن فريسته .

***

إنْ قَسَا ٱلدَّهْرُ فَلِلْمَا ءِ مِنَ الصَّخْرِ ٱنْبِجَاسُ [1]

وَلَئِنْ أَمْسَيْتُ مَحْبُو سًا فَلِلْغَيْثِ ٱحْتِبَاسُ

يَلْبُدُ [2] الْوَرْدُ السَّبَنْتَى وَلَهُ بَعْدُ ٱفْتِرَاسُ

***

فَتَأَمَّلْ كَيْفَ يَغْشَى مُقْلَةَ الْمَجْدِ النُّعَاسُ

وَيُفَتُّ الْمِسْكُ فِي التُّرْ بِ فَيُوطَا وَيُدَاسُ

***

لَا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرْدًا إِنَّ عَهْدِي لَكَ آسُ [3]

وَأَدِرْ ذِكْرِيَ كَأْسًا مَا ٱمْتَطَتْ كَفَّكَ كَاسُ

وَٱغْتَنِمْ صَفْوَ اللَّيَالِي إِنَّمَا الْعَيْشُ ٱخْتِلَاسُ

وَعَسَى أَنْ يَسْمَحَ ٱلدَّهْـ ـرُ فَقَدْ طَالَ الشِّمَاسُ [4]

---

(١) أى تشقق ينبع منه الماء ، وفى القرآن الكريم : « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء » (٢) يلصق بالأرض ملازماً عرينه لايبرحه والورد من أسماء الأسد ، والسبنتى الجرىء ، ومنه فى صفة أبى لؤلؤة قاتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه . قول الشماخ :

جزى الله خيراً من إمام وباركت يد الله فى ذاك الأديم الممزّق

وما كنت أخشى أن تكون وفاته بكفى سبنتى أزرق العين مطرق

والسبنتى النمر أيضاً ، وفى الذخيرة لابن بسام قوله : يلبد الورد السبنتى البيت ، كقول النابغة :

وقلت يا قوم ان الليث منقبض على براثنه للوثبة الضارى

وأخذه ابن الرومى فقال :

سكنت سكوناً كان رهناً لوثبة عماس كذاك الليث للوثب يلبد

(٣) يقول : لا يكن عهدك كالورد فى سرعة الذبول ، فإن عهدى دائم كالآس ، ويفسر هذا المعنى قول العباس بن الأحنف :

ولكننى شبهت بالورد عهدها ، وليس يدوم الورد والآس دائم

(٤) وفى رواية ثانية : « وقد طال التماس » ومعنى الرواية الأولى أن عصيان الدهر وتمرّده قد طالا .

ذكرى أيام الوصال [1]

« كتب ابن زيدون هذه القصيدة الفذّة ، يتحسر فيها على انقضاء أيام الوصال ويشكو فيها ما يحسه من الوجد المبرح والألم القاسي ، وقد بعث بها إلى حبيبته «ولادة بنت المستكفي» أديبة الاندلس الفذّة ، يستعطفها ويتلهف على أيام الوصال السابقة »

أَضْحَى التَّنَائِى بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينَا ... وَنَابَ [2] عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا

أَلاَّ [3] وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبَّحَنَا ... حَيْنٌ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا

مَنْ مُبْلِغُ الْمُلْبِسِينَا بِانْتِزَاحِهِمِ ... حُزْناً مَعَ الدَّهْرِ لاَ يَبْلَى وَيُبْلِينَا

أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِى مَا زَالَ يُضْحِكُنَا ... أُنْساً بِقُرْبِهِمُ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا

غِيظَ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فَدَعَوْا ... بِأَنْ نَغَصَّ [4] فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا

فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُوداً بِأَنْفُسِنَا ... وَانْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُولاً بِأَيْدِينَا

وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا ... فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلاَقِينَا

---

(١) جاء فى قلائد العقيان :

« ولم يزل يروم دنو ولادة فيتعذر ، ويباح دمه دونها ويهدر ، لسوء أثره فى ملك قرطبة وواليها ، ووقائع كان ينسبها اليه ويواليها ، أحقدت بنى جهور عليه ، وسددت أسنتهم اليه ، فلما يئس من لقياها ، وحجب عنه محياها ، كتب اليها يستديم عهدها ، ويؤكد ودها ، ويعتذر من فراقها بالخطب الذى غشيه ، والامتحان الذى خشيه ، ويعلمها أنه ماسلا عنها بخمر ، ولا خبا مابين ضلوعه لها من ملتهب جمر ، وهى قصيدة ضربت فى الابداع بسهم ، وطلعت فى كل خاطر ووهم ، ونزعت منزعاً قصر عنه حبيب وابن الجهم »

وقد عارض هذه القصيدة كثير من الشعراء — من قدماء ومحدثين — وقد أثبتنا شيئاً من ذلك فى غير هذا المكان من الكتاب فليرجع اليه من شاء (٢) رواية الديوان « بان » .

(٣) لغة فى هلاّ ، والحين الهلاك ، والمعنى هلا صبحنا الهلاك صبيحة يوم الفراق — كأن الهجر والموت فى نظر الشاعر سيان ما دام كلاهما يبعده عمن يحبه ويهواه بل الموت أروح لأنه فراق اضطرار ، أما الهجر فانه عن اختيار (٤) غصّ بالماء شرق به أو وقف فى حلقه .

***

يا ليت شعري ولم نُعتِب[1] أعاديَكم ... هل نال حظّاً من العُتبى أعادينا

لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم ... رأياً ولم نتقلّد غيرَه دينا

ما حقّنا أن تقرّوا عينَ ذي حسدٍ ... بنا ولا أن تسرّوا كاشحاً فينا

***

كنّا نرى اليأسَ تُسلينا عوارضُه ... وقد يئسنا فما لليأس يُغرينا[2]

بِنتم[3] وبِنّا فما ابتلّت جوانحُنا ... شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا

نكاد حين تناجيكم ضمائرُنا ... يقضي علينا الأسى[4] لولا تأسّينا[5]

حالت لفقدكم أيامُنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

إذ جانبُ العيشِ طلقٌ من تألّفنا ... ومربعُ اللهوِ صافٍ من تصافينا

وإذ هصرنا[6] فنونَ[7] الوصلِ دانيةً ... قطافُها فجنينا منه ما شينا

ليُسقَ[8] عهدُكمُ عهدُ السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

لا تحسبوا نأيَكم عنّا يغيّرنا ... إن طالما غيّر النأيُ المحبّينا

---

(١) أعتبه أعطاه العتبى أى أرضاه ، يقول : إنا لم نرض أعداءكم ، فهل أنتم كذلك لم ترضوا أعداءنا

(٢) كنا نظن أن اليأس يسلى ، فما بال يأسنا منكم يزيدنا ولوعا بكم ، وفى هذا المعنى يقول المجنون :

أليس وعدتنى يا قلب أنى ... إذا ما تبت عن ليلى تتوب

فها أنا تائب عن حب ليلى ... فمالك كلما ذكرت تذوب

(٣) بعدتم وبعدنا (٤) الحزن (٥) التعزى

(٦) هصر الغصن : إمالته (٧) ضروبه وأنواعه أو الفنون جمع فنن ، وهو الغصن وما تشعب منه ، وفى اللسان (قال أبو الهيثم : الفنون تكون فى الأغصان ، والأغصان تكون فى الشعب ، والشعب تكون فى السوق) فكان الشاعر استعار للوصل أفنانا يهصرها أى يميلها إليه كلما أراد اقتطاف زهرها ، واجتناء ثمرها (٨) أى سقياً لعهدكم عهد السرور

وَٱللهِ مَا طَلَبَتْ[١] أَهْوَاؤُنَا بَدَلاً ... مِنْكُمْ وَلاَ ٱنْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا

* * *

يَا سَارِيَ ٱلْبَرْقِ غَادِ[٢] ٱلْقَصْرَ وَٱسْقِ بِهِ ... مَنْ كَانَ صِرْفَ ٱلْهَوَى وَٱلْوُدِّ يَسْقِينَا

وَٱسْأَلْ هُنَالِكَ هَلْ عَنَّى[٣] تَذَكُّرُنَا ... إِلْفًا تَذَكُّرُهُ أَمْسَى يُعَنِّينَا

وَيَا نَسِيمَ ٱلصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا ... مَنْ لَوْ عَلَى ٱلْقُرْبِ حَيًّا كَانَ يُحْيِينَا

فَهَلْ أَرَى ٱلدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعَفَةً ... مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غِبًّا تَقَاضِينَا[٤]

* * *

رَبِيبُ مُلْكٍ كَأَنَّ ٱللهَ أَنْشَأَهُ ... مِسْكًا[٥] وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ ٱلْوَرَى طِينَا

أَوْ صَاغَهُ وَرِقًا[٦] مَحْضًا وَتَوَّجَهُ ... مِنْ نَاصِعِ ٱلتِّبْرِ إِبْدَاعًا وَتَحْسِينَا

إِذَا تَأَوَّدَ آدَتْهُ رَفَاهِيَةً ... تُومُ ٱلْعُقُودِ وَأَدْمَتْهُ ٱلْبُرَى لِينَا[٧]

كَانَتْ لَهُ ٱلشَّمْسُ ظِئْرًا[٨] فِي أَكِلَّتِهِ[٩] ... بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلاَّ أَحَايِينَا

كَأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِي صَحْنِ وَجْنَتِهِ ... زُهْرُ ٱلْكَوَاكِبِ تَعْوِيذًا وَتَزْيِينَا[١٠]

---

(١) وفي رواية . « ما اطرفت » استحدثت ، بدلا طريفا ، يقسم أنه ما استحدث هوى جديداً بعد هوى أحبابه ، (٢) باكره بالغمام أول النهار

(٣) هل شغل من بأمره تذكرنا كما شغلنا تذكره .

(٤) الغبّ في الزيارة أن تكون كل أسبوع ، والمقصود هنا القلة . يقول الشاعر :

إننا لم نتقاض الوصال من الدهر غبا ، ولكننا نتقاضيناه بالحاح فهل ترى الدهر — بعد هذا — يسعفنا باللقاء ؟

(٥) ليس هذا المحبوب مخلوقا من طين أو تراب كسائر البشر كلا ، وإنما هو طينة من المسك ولا زال الشعراء المحبون يتغالون فيمن يحبون إلى الآن ، حتى قال بعضهم أخيراً لمحبوبته :

أنت روحانية لا تدعي ... أن هذا الجسم من طين وماء

(٦) فضة ، يريد أن الله أبدعه ناصع البياض وتوجه بشعر ذهبي (٧) يقول إذا تثنى آدته أي أثقلته وشق حملها عليه (تؤم) أي لآلئ العقود وجرحته (البرى) أي الخلاخيل ، وذلك لرفاهته

(٨) مرضعة ، (٩) جمع كلة : وهي ستر رقيق يتقى من البعوض

(١٠) يعني أن جماله استعار زهر الكواكب لتكون زينة له ، وتعويذه من عيون حاسديه

مَاضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرَفًا وَفِى الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا

* * *

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أَجْنَتْ لَوَاحِظَنَا وَرْداً جَلَاهُ الصِّبَا غَضًّا وَنَسْرِينَا

وَيَا حَيَاةً تَمَلَّيْنَا (١) بِزَهْرَتِهَا مُنًى ضُرُوبًا وَلَذَّاتٍ أَفَانِينَا

وَيَا نَعِيماً خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ (٢) فِى وَشْىِ (٣) نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا

لَسْنَا نُسَمِّيكَ إِجْلَالاً وَتَكْرِمَةً وَقَدْرُكَ الْمُعْتَلِى عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا

إِذَا انْفَرَدْتَ وَمَا شُورِكْتَ فِى صِفَةٍ فَحَسْبُنَا الْوَصْفُ إِيضَاحًا وَتَبْيِينَا

* * *

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أُبْدِلْنَا بِسِدْرَتِهَا وَالْكَوْثَرِ الْعَذْبِ زَقُّومًا وَغِسْلِينَا

كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ (٤) مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا

سِرَّانِ فِى خَاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا (٥)

لَا غَرْوَ فِى أَنْ ذَكَرْنَا الْحُزْنَ حِينَ نَهَتْ عَنْهُ النُّهَى وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا

إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُوَراً مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا

---

(١) تمتعنا ونعمنا

(٢) نضرته وخفضه (٣) فى نعمى كالثوب الصافى ذى الوشى أى النقش .

(٤) أنامه عنا فلم يش بنا

(٥) قال ابن بسام : وهو معنى مشهور وهو فى الشعر كثير ، قال أبو الطيب :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

على أن أبا الطيب أعاد وكرره فى مواضع من شعره كقوله :

لاتلق إلا بليل من تواصله فالشمس نمامة والليل قوّاد

وكل من إلى هذا المعنى أشار ، فحوالى المثل دار ، وهو قولهم : « الليل أخفى للويل »

أقول : ولم نر فى هذه المعانى التى ذكرها ابن بسام أدق وأطرف من قول ابن زيدون :

« سران فى خاطر الظلماء » الخ

أَمَّا هَوَاكِ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ ... شُرْباً وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِينَا (١)

لَمْ نَجْفُ أُفْقَ جَمَالٍ أَنْتِ كَوْكَبُهُ ... سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا

وَلَا اخْتِيَاراً تَجَنَّبْنَاهُ عَنْ كَثَبٍ ... لَكِنْ عَدَتْنَا عَلَى كُرْهٍ عَوَادِينَا (٢)

نَأْسَى عَلَيْكِ إِذَا حُثَّتْ مُشَعْشَعَةً (٣) ... فِينَا الشَّمُولُ وَغَنَّانَا مُغَنِّينَا

لَا أَكْؤُسُ الرَّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا ... سِيمَا ارْتِيَاحٍ وَلَا الْأَوْتَارُ تُلْهِينَا

دُومِي عَلَى الْعَهْدِ مَا دُمْنَا مُحَافِظَةً ... فَالْحُرُّ مَنْ دَانَ إِنْصَافاً كَمَا دِينَا (٤)

فَمَا اسْتَعَضْنَا خَلِيلاً مِنْكِ يَحْبِسُنَا ... وَلَا اسْتَفَدْنَا حَبِيباً عَنْكِ يَثْنِينَا

وَلَوْ صَبَا (٥) نَحْوَنَا مِنْ عُلْوِ مَطْلَعِهِ ... بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكِ يُصْبِينَا

أَبْكِي وَفَاءً وَإِنْ لَمْ تَبْذُلِي صِلَةً ... فَالطَّيْفُ يُقْنِعُنَا وَالذِّكْرُ يَكْفِينَا

وَفِي الْجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتِ بِهِ ... بِيضَ الْأَيَادِي الَّتِي مَا زِلْتِ تُولِينَا

عَلَيْكِ مِنَّا سَلَامُ اللهِ مَا بَقِيَتْ ... صَبَابَةٌ بِكِ نُخْفِيهَا (٦) فَتَخْفِينَا

---

(١) قال ابن بسام: «وهذا معنى متداول من أشهره قول القائل:

ريق إذا ما ازددت من شربه ... ريًّا ثناك الريّ ظمآنا

كالخمر – أروى ما يكون الفتى ... من شربها – أعطش ما كانا

ولابن الرومي فيما يناسبه من بعض الوجوه:

«يا ربّ ريق بات بدر الدجى ... يمجّه بين ثناياكا

يروي ولا ينهاك عن شربه ... والماء يرويك وينهاكا»

(٢) لم نتجنبه عن كثب أي قرب اختياراً، ولكن صرفتنا على كره منا شواغلنا.

(٣) ممزوجة: أي نحزن لغيابك عن مجلسنا إذا حثت الشمول الممزوجة (٤) دومي محافظة على العهد مادمنا محافظين فالحرّ المنصف يجزي كما جوزي

(٥) مال (٦) أخفيت الشيء أخفيه سترته، وخفيته أخفيه تأتي بمعنى سترته، وبمعنى أظهرته، وعلى ذلك فقوله «نخفيها» أي نسترها «فتخفينا» بفتح أوله أي تظهرنا، وشاهد خفاه يخفيه بمعنى أظهره. قوله:

فإن تكتموا السرّ لا نخفه ... وإن تبعثوا الحرب لا نقعد

وقوله تعالى في قراءة «أكاد أخفيها» بالفتح أي أظهرها.

فى مدح ابن جهور[١]

مَا لِلْمُدَامِ تُدِيرُهَا عَيْنَاكِ   فَيَمِيلُ فى سُكْرِ الصِّبَا عِطْفَاكِ
هَلاَّ مَزَجْتِ لِعَاشِقِيكِ سُلاَفَهَا   بِبُرُودِ ظَلْمِكِ أَوْ بِعَذْبِ لَمَاكِ[٢]
بَلْ مَا عَلَيْكِ وَقَدْ مَحَضْتُ[٣] لَكِ الْهَوَى   فى أَنْ أَفُوزَ بِحُظْوَةِ الْمِسْوَاكِ[٤]
نَاهِيكِ ظُلْماً أَنْ أَضَرَّ بِيَ الصَّدَى[٥]   بَرْحاً[٦] وَنَالَ الْبُرْءَ عُودُ أَرَاكِ

* * *

وَاهاً لِعِطْفِكِ وَالزَّمَانُ كَأَنَّمَا   صُبِغَتْ غَضَارَتُهُ[٧] بِبُرْدِ صِبَاكِ
وَاللَّيْلُ مَهْمَا طَالَ قَصَّرَ طُولَهُ   هَاتِي وَقَدْ غَفَلَ الرَّقِيبُ وَهَاكِ
وَلَطَالَمَا اعْتَلَّ النَّسِيمُ فَخِلْتُهُ   شَكْوَايَ رَقَّتْ فَاقْتَضَتْ شَكْوَاكِ
إِنْ تَأْلَفِي سِنَةَ النَّؤُومِ خَلِيَّةً   فَلَطَالَمَا نَافَرْتِ فِيَّ كَرَاكِ[٨]
أَوْ تَحْتَبِي بِالْهَجْرِ فى نَادِي الْقِلَى   فَلَكَمْ حَلَلْتُ إِلَى الْوِصَالِ حُبَاكِ[٩]

* * *

أَمَّا مُنَى نَفْسِي فَأَنْتِ جَمِيعُهَا   يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ بَعْضَ مُنَاكِ
يَدْنُو بِوَصْلِكِ حِينَ شَطَّ مَزَارُهُ   وَهْمٌ أَكَادُ بِهِ أُقَبِّلُ فَاكِ

---

(١) تصدّى كثير من الشعراء المعاصرين لمعارضة هذه القصيدة وقد ذكرنا طرفا من ذلك فى غير هذا المكان من الكتاب فليرجع اليه من شاء .

(٢) الظلم : ماء الأسنان أو بريقها ، واللمى : سمرة فى الشفة   (٣) أخلصت

(٤) يقول : ماضرك بعد أن أخلصت لك الهوى ، ومحضتك الحب أن أفوز منك بحظ المسواك .

(٥) العطش الشديد   (٦) مشقة وشدّة   (٧) بهجته . يقول الشاعر : ما أحسن عطفك فيما مضى والزمان كأنما صبغت بهجته بما كسيت أنت به من برد الشباب   (٨) يقول أن تمادى النوم الآن خالية غير مبالية بى ، فكثيراً ما أسهدك الهوى ، وعاديت فى نومك   (٩) احتبى بالثوب اشتمل والحبى كهدى جمع حبوة مثلثة الحاء ، فكأن الشاعر يقول : إن تحلى فى نادى البغض (القلى) محتبية أو مشتملة بحبوة الهجر ، فكثيراً ما نزعت إلى الوصال ، وحللت لأجله حباك .

وَلَئِنْ تَجَنَّبْتِ الرَّشَادَ بِغَدْرَةٍ ... لَمْ يَهْوِ بِي فِى الْغَىِّ غَيْرُ هَوَاكِ (١)

* * *

لِلْجَهْوَرِىِّ أَبِى الْوَلِيـدِ خَلَائِقٌ ... كَالرَّوْضِ أَضْحَكَهُ الْغَمَامُ الْبَاكِى

مَلِكٌ يَسُوسُ الدَّهْرَ مِنْهُ مُهَذَّبٌ ... تَدْبِيرُهُ لِلْمُلْكِ خَـيْرُ مِلَاكِ (٢)

جَارَى أَبَاهُ بَعْدَ مَا فَاتَ الْمَدَى ... فَتَلَاهُ بَيْنَ الْفَوْتِ وَالْإِدْرَاكِ

شَمْسُ النَّهَارِ وَبَدْرُهُ وَنُجُومُـــهُ ... أَبْنَاؤُهُ مِنْ فَرْقَدٍ وَسِمَاكِ (٣)

يَسْتَوْضِحُ السَّارُونَ زُهْرَ كَوَاكِبٍ ... مِنْهُمْ تُنِيرُ غَيَاهِبَ الْأَحْلَاكِ (٤)

بُشْرَاكِ يَا دُنْيَا وَبُشْرَانَا مَعًا ... هٰذَا الْوَزِيرُ أَبُو الْوَلِيدِ فَدَاكِ (٥)

* * *

تُلْفَى السِّيَادَةُ ثَمَّ إِنْ أَضْلَلْتِهَا (٦) ... وَمَتَى فَقَدْتِ السَّرْوَ (٧) فَهْوَ هُنَاكِ

وَإِذَا سَمِعْتِ بِوَاحِدٍ جُمِعَتْ لَهُ ... فِرَقُ الْمَحَاسِنِ فِى الْأَنَامِ فَذَاكِ

صَمْصَامُ بَادِرَةٍ وَطَوْدُ سَكِينَةٍ ... وَجَوَادُ غَايَاتٍ وَجِذْلُ حِكَاكِ (٨)

---

(١) المعنى لئن وقعت فى الغى بسبب غدرك بى فإنى أنا لم يوقعنى فى الغى غير هواك .

(٢) ملاك الأمر : بكسر الميم ، أى قوامه الذى يملك به .

(٣) الفرقد والسماك من النجوم النيرة (٤) هم المسترشدين برأيهم إذا دجت الحوادث أمثال النجوم الزهر للسارين فى ظلمات الليل البهيم (٥) وجاء بعد هذا البيت عجز بيت ناقص هكذا : — (وصفت حمامك واستلذ جناك)

(٦) دهبت عنك وندت ، والخطاب للدنيا فى قوله « بشراك يا دنيا » .

(٧) المروءة والشرف والوصف على فعيل يقال سرو يسرو فهو سرى (٨) البادرة الحدة ، والجذل أصل شجرة قطع رأسها أو عود ينصب فى المعطن لتحتك به الابل الجربى يقال هو جذل حكاك ، وهم جذال حكاك ، ومنه قول الحباب بن المنذر الأنصارى يوم سقيفة بنى ساعدة « أنا جذيلها المحكك ، وعذيقها المرجب » أى إنه يشتفى برأيه وعلمه وتجاربه فى الأمور كما تشتفى الابل الجربى بهذا الجذل ، ومعنى البيت أنه مصمم كالسيف فى الغضب ثابت كالطود فى الحلم سباق إلى الغايات مجرب يشتفى برأيه صلب لا يلين مكسره .

طَلْقٌ يُفَنِّدُ فى السَّماحِ ، وَجَاهِلٌ   مَنْ يَسْتَشِفُّ النَّارَ بِالْمِحْرَاكِ (١)

* * *

صَنَعٌ (٢) الضَّمِيرِ إِذَا أَجَالَ بِمُهْرَقٍ (٣)   يُمْنَاهُ فى مَهَلٍ وَفى إِيشَاكِ (٤)

نَظَمَ الْبَلَاغَةَ فى خِلَالِ سُطُورِهِ   نَظْمَ اللَّآلِى التُّومِ فى الْأَسْلَاكِ

نَادَى مَسَاعِيَهُ الزَّمَانُ مُنَافِساً   أَحْرَزْتِ كُلَّ فَضِيلَةٍ فَكَفَاكِ

مَا الْوَرْدُ فِي مَجْنَاهُ سَامَرَهُ النَّدَى   مُتَحَلِّياً إِلاَّ بِبَعْضِ حُلاَكِ

كَلاَّ وَلاَ الْمِسْكُ النَّمُومُ (٥) أَرِيجُهُ   مُتَعَطِّراً إِلاَّ بِوَسْمِ (٦) ثَنَاكِ

اللَّهْوُ ذِكْرُكِ لاَ غِنَاءٌ مُرَجَّعٌ   يَفْتَنُّ فِي الْإِطْلَاقِ وَالْإِمْسَاكِ (٧)

طَارَتْ إِلَيْكِ بِأَوْلِيَائِكِ هِزَّةٌ   تَهْفُو لَهَا أَسَفاً قُلُوبُ عِدَاكِ (٨)

* * *

يَأَيُّهَا الْقَمَرُ الَّذِى لِسَنَائِهِ (٩)   وَسَنَاهُ تَعْنُو السَّبْعُ فِي الْأَفْلَاكِ

فَرَحُ الرِّيَاسَةِ إِذْ مَلَكْتَ عِنَانَهَا   فَرَحُ الْعَرُوسِ بِصِحَّةِ الْإِمْلَاكِ (١٠)

---

(١) الخشبة التى تحرك بها النار ، والمعنى أنه باش الوجه سمح وأن الكرم طبيعة فيه وليس يزيده تفنيد الجاهلين إلا تماديا فى كرمه كالنار يزيدها المحراك اشتعالا

(٢) يقال لسان صنع ، وشاعر صنع ، وبليغ صنع ، إذا كان حاذقا ماهراً ، والمعنى أنه كاتب رائع البيان سيال رويته وإسراعه   (٣) صحيفة   (٤) إسراع

(٥) صيغة مبالغة من نم المسك سطع ، والأريج توهج ريح المسك

(٦) الوسم : العلامة والثناء والمدح — يخاطب على لسان الزمان فى هذا البيت والذى قبله مساعى الممدوح مثبتاً أن الورد فى مجناه ليس متحلياً إلا ببعض حلاها ، وأن المسك فى سطوع أريجه لم يكن متعطراً إلا من اتسامها بالثناء   (٧) ما اللهو إلا ذكر تلك المساعى لاغناء مرجع يطلق فى الغناء صوته ويمسكه .

(٨) طارت : أسرعت ، والخطاب للمساعى ، والهزة تحرك فى نشاط وارتياح ، والمعنى أسرعت إليك أيتها المساعى مواكب بالأولياء ، وقد خفقت لها حزناً قلوب الأعداء

(٩) السناء بالمد الرفعة وبالقصر الضوء   (١٠) عقد النكاح

مَنْ قالَ إِنَّكَ لَسْتَ أَوْحَدَ فِي النُّهَى وَالصَّالِحَاتِ فَدَانَ (١) بِالْإِشْرَاكِ

قَلَّدْنِيَ الرَّأْيَ الْجَمِيـــلَ فَإِنَّهُ حَسْـــبِي لِيَوْمَيْ زِينَةٍ وَعِرَاكِ

وَإِذَا تَحَدَّتْتِ الْحَوَادِثُ بِالرَّنَا شَزْراً إِلَيَّ فَقُلْ لَهَا إِيَّاكِ (٢)

هُوَ فِي ضَمَانِ الْعَزْمِ يَعْبِسُ وَجْهُهُ لِلْخَطْبِ وَالْخُلُقِ النَّدِي الضَّحَّاكِ (٣)

* * *

وَأَحَـــمَّ دارِيٍّ تَضَاعَفَ عِزُّهُ لَمَّا أُهِينَ بِمَسْحَقٍ وَمَدَاكِ

وَالدَّجْنُ لِلشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ حَاجِبٌ وَالْجَفْنُ مَثْوَى الصَّارِمِ الْفَتَّاكِ

هَنَأَتْكَ صِحَّتُـــكَ الَّتِي لَوْ أَنَّهَا شَخْصٌ أُحَاوِرُهُ لَقُلْتُ هَنَاكِ

دَامَتْ حَيَاتُكَ مَا اسْتُدِمْتَ فَلَمْ تَزَلْ تَحْيَا بِكَ الْأَخْطَارُ بَعْدَ هَلَاكِ

ذكرى ولادة (٤)

وَدَّعَ الصَّـــبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكْ ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكْ

يَقْرَعُ السِّنَّ على أَنْ لَمْ يَكُنْ زَادَ فِي تِلْكَ الْخُطَا إِذْ شَيَّعَكْ

يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءً وَسَـــنَا حَفِظَ اللّٰهُ زَمَاناً أَطْلَعَكْ

إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكَمْ بِتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكْ

---

(١) أي فدلك الذى قال إنك لست أوحد فيهما قد دان بالشرك

(٢) إذا الحوادث تحدّثت بالنظر إلى بمؤخر عينها ، فقل لها حذار (٣) هو أى ذلك الذى تهمّ الحوادث أن تنظر إليـــه شزراً فى ضمان عزم الممدوح العابس فى وجه الحوادث وفى ضمان خلقه الندى أى السخى الضاحك عن ثغور الأمانى .

(٤) جاء فى قلائد العقيان :

ولما رحل عنـــه من كان يهواه ، وفاجأه بينه ونواه ، فسايره قليلا وماشاه . وهو يتوهم ألم الفراق حتى غشاه ، فاستعجل الوداع ، وفى كبده ما فيها من الانصـــداع ، فأقام يومه بحالة المفجوع ، وبات ليلته نافر الهجوع ، يردد الفكر ، ويجدد الذكر . فقال :

وقد عزا صاحب نفح الطيب هذه الأبيات الأربعة إلى ولادة .

بعد الفرار من السجن [1]

« بعد أن فرّ ابن زيدون من السجن أرسل يخاطب ولادة ويستنهض الأديب أبا بكر للشفاعة ويستنزل أبا الحزم ابن جهور وكان ابن زيدون مختفيا بقرطبة . فقال : « . . . . . . و بلغنى أنك أحد اللائمين لى ، ومن أمثالهم : « ويل للشجى من الخلىّ ، وهان على الأملس [2] ما لاقى الدبر [3] وعلمت أن العاجز من لا يستبدّ [4] ، فالمرء يعجز لا محالة ، ولم أستجز أن أكون ثالث الأذلين — العير والوتد [5] .

وتذكرت أن الفرار من الظلم ، والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين ، وقد قال تعالى على لسان موسى : « ففررت منكم لما خفتكم »

فطرت فى مفارقة الوطن ، فقديما ضاع الفاضل فى وطنه ، وكسد العلق فى معدنه ، كما قال :

أضيع فى معشرى وكم بلد يكون عود الكباء [6] من حطبه

فاستخرت الله فى إنفاذ العزم ، وأنا الآن حيث أمنت بعض الأمن إلا أن الغى لم يرتفع ، ومادّة البغى لم تنقطع :

شَحَطْنَا وَمَا بِالدَّارِ نَأْىٌ وَلَا شَحْطُ وَشَطَّ بِمَنْ نَهْوَى المَزَارُ وَمَا شَطُّوا [7]

---

(١) جاء فى قلائد العقيان :

وله عند فراره ، وخروجه من مراره ، وقد أقام بقرطبة متواريا يخاطب ولادة ويستنهض الأديب أبا بكر للشفاعة ويستنزل أبا الحزم بن جهور

(٢) الصحيح الظهر . (٣) الذى ظهره قرحة ، أى أن السليم الظهر لا يحسّ ألم أخيه المقروح الظهر . (٤) يشير إلى البيتين المشهورين :

« ليت هنداً أنجزتنا ماتعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرّة واحدة إنما العاجز من لا يستبدّ »

(٥) يشير إلى قول القائل :

ولا يقوم على ضيم يراد به إلا الأذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد

وابن زيدون يعنى أنه جدير ألا يقيم على الذل ، وأن يتخلص من الضيم بكلّ ما فى وسعه ، ولله درّ الشنفرى إذ يقول : « ولكن نفسا حرة لا تقيم بى على الضيم إلا ريثما أتحوّل »

(٦) عود البخور أوضرب منه (٧) شحطت الدار : تشحط بفتح العين شحطاً وشحوطاً وشطت تشط بالضم بعدت . يقول : قربت دار من أهوى ، ودنا مزارها . إلا أنه قرب فى غاية البعد لاستحالة اللقاء .

أَأَحْبَابَنَا أَلْوَتْ بِحَادِثِ عَهْدِنَا ... حَوَادِثُ لَا عَقْدٌ عَلَيْهَا وَلَا شَرْطُ (١)

لَعَمْرُكُمُ إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِى قَضَى ... بِشَتِّ جَمِيعِ الشَّمْلِ مِنَّا لَمُشْتَطُّ (٢)

وَأَمَّا الْكَرَى مُذْ لَمْ أَزُرْكُمْ فَهَاجِرٌ ... زِيَارَتُهُ غِبٌّ وَإِلْمَامُهُ فَرْطُ (٣)

وَمَا شَوْقُ مَقْتُولِ الْجَوَانِحِ بِالصَّدَى ... إِلَى نُطْفَةٍ زَرْقَاءَ أَضْمَرَهَا وَقْطُ (٤)

بِأَبْرَحَ مِنْ شَوْقِى إِلَيْكُمْ وَدُونَمَا ... أُدِيرُ الْمُنَى عَنْهُ الْقَتَادَةُ وَالْخَرْطُ (٥)

وَفِى الرَّبْرَبِ الْإِنْسِىِّ أَحْوَى كِنَاسُهُ ... نَوَاحِى ضَمِيرِى لَا الْكَثِيبُ وَلَا السِّقْطُ (٦)

قال هذه القصيدة عند فراره من السجن واختفائه بقرطبة ، يخاطب بها ولادة عن كثب وهو لا يمكنه أن يدنو من دارها ، أو يخف لمزارها ، مشفقاً أن يقع فريسة فى يد من يعدو عليه أو يسطو ، ملازماً مخبأه لا يتحرك ولا يخطو ، جاعلا الأديب « أبا بكر » عوضاً من أبيه والقربى ، مستعطفاً من أبى الحزم ابن جهور العتبى ، شاكياً إليه فرط إصغائه ، إلى عصبة السوء من أعدائه ، راجياً أن يجريه من شيمته ، على سابق عادته ، وأن يختصه بالشفاعة ، بعد طول البث والضراعة ، وأن يسعفه بطلبته ، وتنفيس كربته قبل أن ينفس عن نفسه ذلك الضغط ، فأمره إلى من بيده القبض والبسط .

(١) ألوت : ذهبت به ، والعقد أوكد العهود ، والمعنى ذهبت بتجديد عهدنا حوادث تجرى صروفها على غير ما نهوى ونريد ليس بيننا وبينها عهد نؤكده ، ولا شرط نحدده (٢) الشت : التفرق ، والجميع : المجتمع ، والشمل : الاجتماع . يقال جمع الله شملك أى ما تشتت من أمرك ، وفرق الله شمله أى ما اجتمع من أمره ، ومشتط : أى جائر فيما حكم به وقضى (٣) الكرى : النوم ، وزيارته غب أى يزور يوماً بعد انقطاعه أياماً ، ومنه « زر غباً ، تزدد حباً » والإلمام مصدر ألم به زاره غبا ، والفرط : بفتح فسكون الحين . يقال آتيه فى الفرط ، أى فى الحين بعد الحين .

(٤) الجوانح : حنايا الضلوع المطبقة على القلب ، والنطفة : الماء الصافى وتجمع على نطف ، والوقط : حفر فى الصخر يجتمع فيها ماء السماء .

(٥) بأبرح بأشد برحا ومشقة وعذابا من شوقى ، أدير المنى عنه : أى ما أطالب المنى بتركه والانصراف عنه من قولهم ، أدار فلانا عن الأمر إذا طلب منه تركه . قال الشاعر :

يديروننى عن سالم وأديرهم ... وجلدة بين العين والأنف سالم

والقتادة شجرة قصيرة ذات قضبان مجتمعة كل قضيب منها ملآن ما بين أعلاه وأسفله شوكا كالإبر ، وخرط القتادة اجتذاب شوكها من أعلى إلى أسفل بإمرار اليد مقبوضة على أغصانها ، وفى المثل « من دون ذلك خرط القتاد » (٦) الربرب : السرب من الظباء أو القطيع من بقر الوحش ، والإنسى : مقابل الوحشى أحوى فى شفتيه حمرة ضاربة إلى السواد ، والكناس : مستتر من الشجر للظباء كالبيت للإنسان والبقر تستكن فيه من الحر ، والكثيب الرمل المحدودب ، والسقط : مثلث الفاء الرقيق من الرمل حيث انقطع معظمه

غَرِيبُ فُنُونِ الحُسْنِ يَرْتَاحُ دِرْعُهُ ... مَتَى ضَاقَ ذَرْعًا بِالَّذِى حَازَهُ الْمِرْطُ (١)

كَأَنَّ فُؤَادِى يَوْمَ أَهْوَى مُوَدِّعًا ... هَوَى خَافِقًا مِنْهُ بِحَيْثُ هَوَى الْقُرْطُ (٢)

إِذَا مَا كِتَابُ الْوَجْدِ أَشْكَلَ سَطْرُهُ ... فَمِنْ زَفْرَتِى شَكْلٌ وَمِنْ عَبْرَتِى نَقْطُ (٣)

أَلاَ هَلْ أَتَى الْفِتْيَانَ أَنَّ فَتَاهُمُ ... فَرِيسَةُ مَنْ يَعْدُو وَنُهْزَةُ مَنْ يَسْطُو (٤)

وَأَنَّ الجَوَادَ الْفَائِتَ الشَّأْوِ صَافِنٌ ... تَخَوَّنَهُ شَكْلٌ وَأَزْرَى بِهِ رَبْطُ (٥)

وَأَنَّ الحُسَامَ الْعَضْبَ ثَاوٍ بِجَفْنِهِ ... وَمَا ذُمَّ مِنْ غَرْبَيْهِ قَدٌّ وَلاَ قَطُّ (٦)

***

عَلَيْكَ (أَبَا بَكْرٍ) بَكَرْتُ بِهِمَّةٍ ... لَهَا الخَطَرُ الْعَالِى وَإِنْ نَالَهَا حَطُّ (٧)

أَبِى بَعْدَ مَا هِيلَ التُّرَابُ عَلَى أَبِى ... وَرَهْطِى فَذَّا حِينَ لَمْ يَبْقَ لِى رَهْطُ (٨)

لَكَ النِّعْمَةُ الخَضْرَاءُ تَنْدَى ظِلاَلُهَا ... عَلَىَّ وَلاَ جَحْدٌ لَدَىَّ وَلاَ غَمْطُ (٩)

---

(١) الدرع : القميص ، والمرط : كساء من خزّ ونحوه يؤتزر به ، والقميص يحور النهدين والخصر ، والمرط : يحور الردف ، والردف ثقيل ، والخصر نحيل (٢) أهوى مال إليه حانيا ظهره فى حال توديعه ، وهوى القرط ، وهو ما تعلق فى شحمة الأذن ، سقط متدليا فهوى فؤاده معه خافقا

(٣) أشكل سطره من أشكل عليه الأمر اختلط ولم يبن ، والشكل والنقط تقييد الكتاب بحركات الأعراب ، وإعجامه ليظهر معناه . يقول إذا أشكل على من أهوى كتاب الوجد أوضحته له بما أصعده من زفرات ، وأسفحه من عبرات (٤) الفتيان يريد بهم فتيان قرطبة ، والنهزة : الصيد المعرض لمن يسطو عليه ويقتنصه (٥) الشأو : الغاية ، والصافن : الذى يقوم على ثلاث ويثنى سنبك يده الرابع تخونه وتخوفه : تنقصه ، ومنه قوله تعالى : « أو يأخذهم على تخوّف » ، وشاهد تخونه بمعنى تنقصه قول لبيد :

عذافرة تقمص بالرداف ... تخونها نزولى وارتحالى

أى تنقص لحمها وشحمها

وشكل الدابة : شدّ قوائمها بحبل ، وأزرى به : أهانه وحقره (٦) الحسام العضب : السيف القاطع ، وثاو مقيم : يريد أنه كالسيف المغمد فى جفنه ، وما عيب من غربيه : أى حديه قد ، وهو القطع طولا ولا قط ، وهو القطع عرضا .

(٧) بدأ يخاطب الأديب (أبا بكر) ويستنهض همته ، ويذكر يده عنده . يقول : إنّ لى همة عالية لها خطرها بكرت بها عليك وتقوت بك قديما ، وإن نالها الآن انحطاط بعد علوّ .

(٨) أنت أبى بعد فقد أبى وأنت وحدك رهطى حين لم يبق لى رهط . (٩) غمط النعمة غمطاً لم يشكرها أى لك عندى النعمة الخضراء التى تظلنى ، والتى ما زلت أشكرها ولا أنكرها وأكبرها ولا أحقرها

وَلوْلاكَ لَمْ تَثْقُبْ زِنَادُ قَرِيحَتِي ... فَيَنْتَهِبَ الظُّلْمَاءَ مِنْ نَارِهَا سِقْطُ (١)

وَلاَ أَلِفَتْ أَيْدِي الرَّبِيعِ بَدَائِعِي ... فَمِنْ خَاطِرِي نَظْمٌ وَمِنْ زَهْرِهِ لَقْطُ (٢)

هَرِمْتُ وَمَا لِلشَّيْبِ وَخْطٌ بِمَفْرِقِي ... وَكَانَ لِشَيْبِ الْهَمِّ فِي كَبِدِي وَخْطُ (٣)

وَطَاوَلَ سُوءُ الحَالِ نَفْسِي فَأَذْكَرَتْ ... مِنَ الرَّوْضَةِ الْغَنَّاءِ طَاوَلَهَا الْقَحْطُ (٤)

مِئُونَ مِنَ الأَيَّامِ خَمْسٌ قَطَعْتُهَا ... أَسِيراً وَإِنْ لَمْ يَبْدُ شَدٌّ وَلاَ قَمْطُ (٥)

أَتَتْ بِي كَمَا مِيصَ الإِنَاءِ مِنَ الأَذَى ... وَأَذْهَبَ مَا بِالثَّوْبِ مِنْ دَرَنٍ مَسْطُ (٦)

أَتَدْنُو قُطُوفُ الجَنَّتَيْنِ لِمَعْشَرٍ ... وَغَايَتِيَ السِّدْرُ الْقَلِيلُ أَوِ الخَمْطُ (٧)

---

(١) لم تثقب : أى لولاك لم تظهر نار ، قريحتى الشبيهة بالزناد فى الايراء ، وينتهب الظلماء يأتى عليها ويلاشيها ، والسقط : مثلث الفاء ساكن العين ما سقط من النار بين الزندين . يقول : لولاك لم تدك قريحتى فيظهر عند اقتداحها نار تنتهب الظلماء . (٢) النظم : نظم الحب فى السلك ، واللقط : التقاطه — أى ولولاك (أبا بكر) ما ألفت بدائعى يد الربيع ، فهو يلتقط من محاسن الزهر ما أنظمه فى سلك الخاطر . (٣) الوخط : فشو الشيب ، واختلاط بياضه بسواد الرأس ، والمفرق : وسط الرأس ، وهو موضع فرق الشعر من الجبين إلى الدائرة ، والمعنى لم أشب شيب الكبرة ، ولكن شبت شيب الهم . (٤) يقول أن مطاولة سوء الحال نفسه ذكرته بحال الروضة الغناء طال عليها أمد القحط . (٥) القمط : هنا قمط الأسير ، وهو أن يجمع بين يديه ورجليه بحبل أو نحوه ، والمعنى أنه قطع خمسمائة يوم بقرطبة أسيراً ، ولكن بلا قيد ولا غل لأنه كان مختفيا متواريا عن الأنظار .

(٦) الموص : الغسل ، وميص الثوب : غسل بالأصابع ، ومسط الثوب : بله ثم تحريكه لاستخراج مائه والدرن : الوسخ ، والمعنى خانت فى أيام الخوف والاعتقال عند نهايتها مغسول الذنب كما غسل الاناء من الأذى ، والثوب من الدرن . (٧) السدر : النبق ، والخمط : كل نبت أخذ من المرارة طعما فلم يمكن أكله — يشير بهذا إلى قصة الجنتين فى قوله تعالى — فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل — ووصف السدر بالقلة لكونه أحسن شىء فيما بدلوا ، والعرم بفتح فكسر ، والسكر : بكسر فسكون ، والمسناة : بضم ففتح فتشديد النون كلها — كما تؤخذ من اللسان والكشاف — أسماء للسد يبنى لحبس ماء العيون والأمطار ويترك فيه فتحات توضع عليها أبواب لاطلاق الماء على حسب مايحتاجون إليه فى سقيهم ، وقد ورد ذكر المسناة فى بعض قصائد الديوان . يمثل فى هذا البيت حاله بحال سبأ إذ أعرضوا عن الشكر ، فخرب الله جنتيهم بسيل العرم وأبدلهما عنهما الخمط ، والأثل والقليل من السدر ، ومعنى البيت : أيفوز غيرى بالنعيم ولا أكاد أظفر بالتافه الحقير .

وَمَا كَانَ ظَنِّى أَنْ تَغُرَّنِىَ الْمُنَى ... وَلِلْغِرِّ فِى الْعَشْوَاءِ مِنْ ظَنِّهِ خَبْطُ (١)

أَمَا وَأَرَتْنِى النَّجْمَ مَوْطِئَ أَخْمَصِى ... لَقَدْ أَوْطَأَتْ خَدِّى لِأَخْمَصِ مَنْ يَخْطُو (٢)

وَمُسْتَبْطِإِ الْعُتْبَى إِذَا قُلْتَ قَدْ أَنَى ... رِضَاهُ تَمَادَى الْعَتْبُ وَاتَّصَلَ السُّخْطُ (٣)

وَمَا زَالَ يُدْنِينِى وَيُنْئِى قَبُولَهُ ... هَوًى سَرَفٌ مِنْهُ وَصَاغِيَةٌ فُرْطُ (٤)

وَنَظْمُ ثَنَاءٍ فِى نِظَامِ وِلَايَةٍ ... تَحَلَّتْ بِهِ الدُّنْيَا لَآلِئُهُ وَسْطُ (٥)

عَلَى خَصْرِهَا مِنْهُ وِشَاحٌ مُفَصَّلٌ ... وَفِى رَأْسِهَا تَاجٌ وَفِى جِيدِهَا سِمْطُ (٦)

عَدَا سَمْعَهُ عَنِّى وَأَصْغَى إِلَى عِدًى ... لَهُمْ فِى أَدِيمِى كُلَّمَا اسْتَمْكَنُوا عَطُّ (٧)

بَلَغْتُ الْمَدَى إِذْ قَصَّرُوا وَقُلُوبُهُمْ ... مَكَامِنُ أَضْغَانٍ أَسَاوِدُهَا رُقْطُ (٨)

---

(١) الغِرّ: الذي لم يجرب الأمور، وفي المثل: «هو يخبط خبط عشواء» يضرب للذي يركب رأسه، ولا يهتم لعاقبة أمره، كالناقة العشواء التي تخبط بيديها كل ما مرّت به لسوء بصرها، والعشواء: هنا ظلمة الليل لا الناقة، يريد أن ظنه حمله على الاغترار بالمنى، فخبط لغراره في عشواء من ظنه أي في ظلمة ولبس. (٢) أما حرف للاستفتاح بمعنى ألا، ولتحقيق الكلام الذي يتلوه بمعنى حقا، والأخمص باطن القدم الذي لا يلصق بالأرض عند الوطء. يقول: حقا لقد أوطأت خدى لكلّ واطئ في حال أنها أرتني مما مضى النجم موطئ أخمصي (٣) العتبى: الرضا، والعتب: السخط، وفي رواية: «قد أنى»

(٤) صاغية الرجل من يلمّ به ويغشى مجلسه من أهله وحاشيته، وفرط يريد بهذا أنهم يفرطون عليه في القول أي يسرفون، والمعنى ومازال يقربني منه هوى متجاوز حد الاعتدال ويبعدني قوله حاشية مسرفة في القول. وقد جرى في هذا البيت على أسلوب اللف والنشر المرتب، فهو يرى أن ممدوحه مسرف في هواه فهو يدنيه لذلك وأن حاسديه مسرفون في الوشاية به فهو يقصيه عنه لما يسمعه من وشاياتهم المتكررة

(٥) أي ومازال يقربني منه نظم ثناء أحبره في نظام ولاية كأنه العقد النفيس تحلت به الدنيا كل لؤلؤة منه جديرة أن تكون واسطة العقد لنفاستها .

(٦) أي على خصر الولاية من نظمه وشاح مفصل، وفي رأسها تاج مرصع، وفي جيدها سمط من لؤلؤ

(٧) الأديم: الجلد، والعطّ: شقّ الثوب طولا أو عرضا من غير إبانة، والمعنى صرف ابن جهور سمعه عني وأصغى إلى أعداء كلما تمكنوا من عرضي قدوه كما يقد الأديم وشقوه كما يشقّ الثوب .

(٨) المدى: الغاية، والأضغان: الأحقاد، والأساود: الحيات، والرقط: جمع رقطاء، وهي التي في لونها سواد وبياض، والمعنى بلغت الغاية التي قصروا عنها فكمن في قلوبهم من الأحقاد ما يشبه الحيات الرقط التي تنفث السموم القاتلة

يُوَلُّونَنِي عُرْضَ الْكَرَاهَةِ وَالْقِلَى ... وَمَا دَهْرُهُمْ إِلاَّ النَّفَاسَةُ وَالْغَمْطُ (١)

وَقَدْ وَسَمُونِي بِالَّتِي لَسْتُ أَهْلَهَا ... وَلَمْ يُمْنَ أَمْثَالِي بِأَمْثَالِهَا قَطْ (٢)

فَرَرْتُ فَإِنْ قَالُوا الْفِرَارُ إِرَابَةٌ ... فَقَدْ فَرَّ مُوسَى حِينَ هَمَّ بِهِ الْقِبْطُ (٣)

وَإِنِّي لَرَاجٍ أَنْ تَعُودَ كَبَدْئِهَا ... لِيَ الشِّيمَةُ الزَّهْرَاءُ وَالْخُلُقُ السَّبْطُ (٤)

وَحِلْمُ امْرِئٍ تَعْفُو الذُّنُوبُ لِعَفْوِهِ ... وَتُمْحَى الْخَطَايَا مِثْلَ مَا يُمْحَى الْخَطْ

فَمَا لَكَ لاَ تَخْتَصُّنِي بِشَفَاعَةٍ ... يَلُوحُ عَلَى دَهْرِي لِمِيسَمِهَا عَلْطُ (٥)

يَفِي بِنَسِيمِ الْعَنْبَرِ الْوَرْدِ نَفْحُهَا ... إِذَا شَعْشَعَ الْمِسْكَ الْأَحَمَّ بِهِ خَلْطُ (٦)

فَإِنْ يُسْعِفِ الْمَوْلَى فَنُعْمَى هَنِيئَةٌ ... تُنَفِّسُ عَنْ نَفْسٍ أَلَظَّ بِهَا ضَغْطْ (٧)

وَإِنْ يَأْبَ إِلاَّ قَبْضَ مَبْسُوطِ فَضْلِهِ ... فَفِي يَدِ مَوْلًى فَوْقَهُ الْقَبْضُ وَالْبَسْطْ

---

(١) وفى رواية: الغمط والمعنى يحملوننى استثقال منهم ناحية الكراهة والمقت، وليس منهم أحد الدهر (إلا النفاسة) من نفس عليه بالشىء ضنّ به وكره أن يصل إليه، و (الغمط). من غمط الرجل يغمطه غمطا من باب ضرب حسده، ومن معانيه أيضاً تمنى الوصول الى نعمة غيرك من غير أن تزول عنه.

(٢) أى حملونى معروفا بالسمة والصفة المعيبة التى لست متأهلا لها. والتى ما منى أى ابتلى بها أمثالى فيما مضى.

(٣) إرابة: سبب فى الريبة والشكّ والاتهام، والمعنى فررت من السجن، فإن قالوا إن فى الفرار ما يجعلنى متهما، فقد فرّ موسى من القبط حين ائتمروا به وهموا بقتله يشير إلى قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: «ففررت منكم لما خفتكم»

(٤) السبط: السهل.

(٥) الميسم: المكواة يوسم بها البعير، والعلط: الوسم عرضا فى العنق يقول: لماذا لاترضى عنى وتمحى شفاعتك لأتغلب بها على دهرى وأذله وأدمغه فى قفاه دمغة بينة الأثر بخط أو خطين أو خطوط.

(٦) العنبر: الطيب المعروف ولونه أسود، ويطلق العنبر أيضا على الزعفران، وهو المراد هنا، والورد حمرة تضرب إلى صفرة حسنة، وشعشع: مزج، والأحم: الأسود من كلّ شىء، أى يفى نفح هذه الشفاعة برائحة الزعفران الورد إذا مزج بالمسك الأسود.

(٧) تنفس: تفرّج، وألظّ بها — وفى رواية: ألظ بها — لازمها. قال أبو العلاء:

ألظوا بالقبيح وتابعوه ... ولو أمروا به لجتنبوه

أى لازم الناس القبيح عناداً منهم حين نهاهم الله عنه ولو أمرهم به لدفعهم عنادهم إلى تنكبه، ضغط: أى ضيق

فى مدينة بطليوس (١)

يَا دَمْعُ صُبْ مَاشِئْتَ أَنْ تَصُوبَا (٢)

وَيَا فُـــؤَادِى آنَ أَنْ تَذُوبَا

إِذِ الرَّزَايَا أَصْـــبَحَتْ ضُرُوبَا (٣)

لَمْ أَرَ لِى ـ فى أَهْلِهَا ـ ضَرِيبَاً (٤)

قَدْ مَلَأَ الشَّوْقُ الحَشَا نُدُوبَا (٥)

فى الْغَـــرْبِ إِذْ رُحْتُ بِهِ غَرِيبَاً

عَلِيــلَ دَهْرٍ سَاءَنِى تَعْـذِيبَاً (٦)

أَدْنَى (٧) الضَّـــنَى إِذْ أَبْعَدَ الطَّبِيبَاً (٨)

* *

لَيْتَ الْقَبُولَ (٩) أَحْدَثَتْ هُبُوبَا

رِيحٌ يَرُوحُ عَهْـــدُهَا قَرِيبَاً (١٠)

بِالْأُفْقِ الْمُهْـــدِى إِلَيْنَا طِيبَاً (١١)

---

(١) مدينة كبيرة من مدن الأندلس تقع غربى قرطبة. وهذه الأرجوزة تذكرنا بالأرجوزة المشهورة : « دع المطايا تنسم الجنوبا » الخ (٢) اسكب يا دمعى ما شئت أن تسكب ، والأصل فى الصوب نزول المطر ، والفعل صاب يصوب والأمر صب . قالوا : وكلّ نازل من علوّ إلى أسفل فقد صاب ، ومنه قوله « كأنهمو صابت عليهم سحابه » . (٣) أصنافا . وفى رواية : إن الرزايا

(٤) نظيراً أو مثيلا . يقول : اسكب يادمع فقد صبت عليك ألوان من المصائب والآلام لم تصب على أحد من المرزئين . (٥) آثار الجروح إذا لم ترتفع عن الجلد ، ومنه قول الفرزدق :

ومكبل ترك الحديد بساقه ندبا من الرسفان فى الأحجال

(٦) أمرضنى دهر قد جشمنى ذلّ الاغتراب وسامنى سوء العذاب . (٧) وفى رواية: أعيي الضنى (٨) قرب الدهر منى السقام فى وقت أبعد فيه عنى الطبيب . (٩) مايستقبلك بين يديك من الرّيح إذا وقفت فى القبلة . (١٠) أى يكون رواح بما تحمله الريح من المطر قريبا ، والعهد هنا معناه المطر الأوّل الذى يليه الوسمىّ. (١١) . أى متصلا بالأفق الذى طالما أهدى إلينا من ناحية الحبيب طيبا ه

تَعَطَّرَتْ مِنْهُ الصَّبَا جُيُوبَا

يُبْرِدُ حَرَّ الْكَبِدِ الْمَشْبُوبَا [١]

* * *

يَا مُتْبِعًا إِسْآدَهُ [٢] التَّأْوِيبَا

مُشَرِّقًا قَدْ سَئِمَ التَّغْرِيبَا

أَمَا سَمِعْتَ الْمَثَلَ الْمَضْرُوبَا

أَرْسِلْ حَكِيمًا [٣] وَاسْتَشِرْ لَبِيبَا

* * *

إِذَا أَتَيْتَ الْوَطَنَ الْحَبِيبَا

وَالْجَانِبَ الْمُسْتَوْضَحَ [٤] الْعَجِيبَا

وَالْحَاضِرَ [٥] الْمُنْفَسِحَ الرَّحِيبَا

فَحَيِّ [٦] مِنْهُ مَا أَرَى الْجَنُوبَا

---

(١) يطفئ ذلك الطيب الذى تعطرت منه جيوب الصبا كبدا مشبوبة فيها نيران الشوق. وفى الأصل «المشوبا»

(٢) الإسآد سير الليل كله لا تعريس فيه ، والتأويب : سير النهار كله لا عرج فيه .

(٣) وفى رواية : أرسل حليما .

(٤) المبحوث عنه أو الذى يستوضحه الراكب أى يستشرفه ويستكشفه بأن يضع كفه على عينيه فى الشمس لينظر هل يراه . (٥) الحاضر : ضد البادى . (٦) مرتبط بالأبيات قبله . يقول : أيها المواصل سير الليل كله بسير النهار كله مشرقا قد مل السير إلى الجانب الغربى أنى مرسلك فى حاجة ، ومتبع المثل المشهور :

إذا كنت فى حاجة مرسلا فأرسل حكيما ولا توصه

وإن باب أمر عليك التوى فشاور لبيبا ولا تعصه .

ذلك أنك إذا أتيت ذلك الوطن المحبوب ، والجانب الأهول والحاضرة الفسيحة فحى مما قد ترى الجنوب حيث يقيم الحبيب ، وقوله : ما أرى جملة معترضة وحدث هكذا وحرر .

مَصَانِعٌ (١) تَجْتَذِبُ (٢) الْقُــلُوبَا

حَيْثُ أَلِفْتُ الرَّشَـــأَ الرَّبِيبَا (٣)

مُخَالِفاً (٤) فى وَصْـــلِهِ الرَّقِيبَا

كَمْ بَاتَ يَدْرِى (٥) لَيْلَهُ الْغِرْبِيبَا

لَمَّا انْثَنَىٰ فى سُـــكْرِهِ قَضِيبَا

تَشْـــدُو (٦) حَمَامُ حَلْيِهِ تَطْرِيبَا

أَرْشُفُ مِنْـــهُ الْمَبْسِمَ الشَّنِيبَا (٧)

حَـــتَّى إِذَا مَا اعْتَنَّ لِى مُرِيبَا (٨)

شَـــبَابُ أُفْقٍ هَمَّ أَنْ يَشِيبَا

بَادَرْتُ سَعْياً ، هَلْ رَأَيْتَ الذِّيبَا ؟ (٩)

---

(١) ديار وأبنية وقصور . قال لبيد .

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الديار بعدنا والمصانع

(٢) تجذب . (٣) الرّشأ : الظبى إذا قوى وتحرك ومشى مع أمه ، والربيب : المربى من قولهم صبىّ مربب وربيب وفى رواية : اللدنا

(٤) من المخالفة بمعنى عدم الموافقة أو من قولهم جاء فلان خلاف صاحبه ومخالفته إذا أتى بعده مخالفاً له .

(٥) يدرى يختال من قولهم دريت الظبى أى احتلت له وختلت حتى أصيده ، والغربيب : الشديد السواد ومعنى الأبيات تلك دور ومصانع تجذب القلوب إليها ألف فيها الرشأ المتربى فى حجر النعمة مخالفا أى آتيا فى غفلة الرقيب ، وكثيراً مابات يختال ليله الشديد السواد ليصيب منه غرّة ويختلس منه غفله .

(٦) تغنى ، استعار شدو الحمام لوسوسة الحلى (٧) أرشف : كأنصر وأضرب مصارع رشف الماء والريق ونحوهما رشفا ، وهو المصّ والتقبيل وشرب الماء قليلا قليلا ، والمبسم ، المقبل ، والشنيب : صفته مأخوذ من الشنب وهو برد وعذوبة فى الأسنان . قال ذو الرمة :

لمياء فى شفتيها حوة لعس وفى اللثات وفى أنيابها شنب

(٨) اعتن : اعترض ، ومريبا : ذا ريب . (٩) يقول فى هذا البيت والأبيات قبله : بتّ ناعما ليلتى بالعناق والتقبيل حتى إذا اعترضنى ماراببى من سواد أفق وشك أن يفضحه ضوء الصبح بادرت الطريق أسعى ، هل رأيت الذئب ، يريد : هل رأيت الذئب فى خفته وسرعة عدوه وفراره ويعنى : أنه فرّ فرار الذئب.

هَصَرْتُهُ (١) حُلْوَ الْجَنَى رَطِيبَا

***

أَهَاجِرِى أَمْ مُوسِعِى تَأْنِيبَا

مَنْ لَمْ أُسِغْ مِنْ بَعْدِهِ مَشْرُوبَا (٢)

مَا ضَرَّهُ لَوْ قَالَ لاَ تَثْرِيبَا (٣)

وَلاَ مَلاَمَ يَلْحَقُ الْقُلُوبَا

قَدْ طَالَ مَا تَجَرَّمَ الذُّنُوبَا (٤)

وَلَمْ يَدَعْ فِى الْعُذْرِ لِى نَصِيبَا

***

إِنْ قَرَّتِ الْعَيْنُ بِأَنْ أَءُوبَا (٥)

لَمْ آلُ أَنْ أَسْتَرْضِيَ الْغَضُوبَا

حَسْبِيَ أَنْ أُحَرِّمَ الْمَغِيبَا

قَدْ يَنْفَعُ الْمُذْنِبَ أَنْ يَتُوبَا

يوم بوصل ساعة

بِاللهِ خُذْ مِنْ حَيَاتِى ... يَوْمًا وَصِلْنِى سَاعَهْ

كَيْمَا أَنَالَ بِقَرْضٍ ... مَا لَمْ أَنَلْ بِشَفَاعَهْ

---

(١) أملته إلىّ وعطفته علىّ وهو جواب لما .

(٢) هل هذا الحبيب الذى غصصت بفراقه ولم أجد بعده مساغا للشراب إلى حلق هاجرى أو موسعى لوما وتثريبا .

(٣) أى ضرر عليه إذا هو قبل العذر وفى الملام والعتاب .

(٤) كثيراً ما ادعى على ذنوبا لم أعملها

(٥) يقول فى هذا البيت والذى بعده : إن قرّت العين بالرجوع إلى الوطن بذلت جهدى فى استرضائه ، وكفانى أن أحرّم على نفسي ترك هذا الوطن وأتوب فقد تنفع توبة المذنب .

في عيـــد الأضحى (١)

« لما حلّ ابن زيدون من المعتصد بالمكان الذى حلّ ، وانتكث عقد شدائده واحلّ ، تسلت نفسه من شجوها ، وحنت إلى صفا « ولادة » وجوها ، وتذكرها وما تناساها ، وعاودته لوعتها وأساها ، وحنّ إليها حنين من حيل بينه و بين مايشتهى ، وقنع باهداء تحية تبلغ إليها وتنتهى. فقال يتغزل فيها و يمدح المعتصد(٢) » :

أَمَا فِي نَسِيمِ الرِّيحِ عَرْفٌ مُعَرِّفُ ... لَنَا هَلْ لِلَذَّاتِ الْوَقْفِ بِالْجِزْعِ مَوْقِفُ (٣)

فَنَقْضِيَ أَوْطَارَ الْمُنَى مِنْ زِيَارَةٍ ... لَنَا كَلَفٌ مِنْهَا بِمَا نَتَكَلَّفُ (٤)

ضَمَانٌ عَلَيْنَا أَنْ تُزَارَ وَدُونَهَا ... رِقَاقُ الظُّبَا وَالسَّمْهَرِيُّ الْمُثَقَّفُ (٥)

وَقَوْمٌ عِدًى يُبْدُونَ عَنْ صَفَحَاتِهِمْ ... وَأَزْهَرُهَا مِنْ ظُلْمَةِ الْحِقْدِ أَكْلَفُ (٦)

غَيَارَى يَعُـــدُّون الْغَرَامَ جَرِيرَةً ... بِهَا وَالْهَوَى ظُلْماً يَغِيظُ وَيُؤْسِفُ (٧)

---

(١) هو أضحى سنة ٤٤٥ هـ . وهذه القصيدة من عيون قصائده التى يمدح بها المعتصد ، وقد ذكر طرفاً منها ابن بسام فى الذخيرة ، ونقد بعض أبياتها ، وذكر طائفة منها كذلك صاحب قلائد العقيان فى ضمن ما ذكره من ظرف ابن زيدون وأخباره، وفقره وأشعاره . (٢) قلائد العقيان .

(٣) أما استفهام فيه معنى التمنى ، والعرف : الريح الطيبة ، والجزع : منعطف الوادى ، والوقف: السوار — من العاج وغيره — قال حران العود النميرى :

كوقف العاج من ذكى مسك ... تحيء به من اليمن التجار

أو هو الخلخال من الفضـة وغيرها . والمعنى : ليت لنا فى هبوب النسيم طيب رائحـة يعرفنا هل المحبوبة واقفة بمكان وقوفها من منعطف الوادى فنقضى الخ . وفى رواية : يعرف .

(٤) المعنى : هل لها وقفة بالمنحنى فنقضى حاجات النفس من زيارة لنا ولع بما نتجشمه من مشقة التعرض لها.

(٥) الظبا . جمع ظبـة ، وهي حد السيف ، والسمهرى : الرمح ، والمثقف : المسوى بالثقاف ، وهي خشبة فيها حرق توضع فيه الرماح لتسوية ما اعوج منها ، أى نحن ضامنون على أنفسنا أن تزار ، ودون زيارتها ظبا السيوف الرقيقة ، وأسنة الرماح الصلبة ، وفى بعض النسخ عزيز علينا أن تزار .

(٦) أى ودون الوصول إليها أيضاً قوم معادون يظهر ما يحمونه من العـداوة والشر على وجوههـم ، والمشرق المضىء من تلك الوجوه أكلف أى به كلف وسواد من ظلمة الحقد .

(٧) غيارى وغيارى — بفتح العين وضمها — كسكارى وسكارى جمع غيران من غار الرجل على امرأته يغار غيرة ، والجريرة : الذنب والجناية يجنيها الرجل على نفسه أو يجرها على غيره ، ويؤسف : كيغضب وزناً ومعنى ، ومنه قوله تعالى « فلما آسفونا انتقمنا منهم

يَوَدُّونَ لَوْ يَثْنِى الْوَعِيـــدُ زَمَاعَنَا   وَهَيْهَاتَ رِيحُ الشَّوْقِ مِنْ ذَاكَ أَعْصَفُ (١)

يَسِيرٌ لَدَى الْمُشْتَاقِ فِى جَانِبِ الْهَوَى   نَوَى غُرْبَةٍ أَوْ مَجْهَلٌ مُتَعَسَّفُ (٢)

هَلِ الرَّوْعُ إِلاَّ غَمْرَةٌ ثُمَّ تَنْجَلِى   أَمِ الْهَوْلُ إِلاَّ غُمَّةٌ ثُمَّ تُكْشَفُ (٣)

وَفِى السِّيَرَاءِ الرَّقْمِ وَسْطَ قِبَابِهِمْ   بَعِيدُ مَنَاطِ الْقُرْطِ أَحْوَرُ أَوْطَفُ (٤)

تَبَايَنَ خَلْقَاهُ ، فَعَبْــلٌ مُنَعَّمٌ   تَأَوَّدَ فِى أَعْلاَهُ لَدْنٌ مُهَفْهَفُ (٥)

فَلِلْعَانِكِ الْمُرْتَجِّ مَا حَازَ مِئْزَرُ   وَلِلْغُصُنِ الْمُهْتَزِّ مَا ضَمَّ مِطْرَفُ (٦)

حَبِيبٌ إِلَيْهِ أَنْ نُسَرَّ بِوَصْلِهِ   إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ وَنَهْنَا وَنُسْعَفُ

وَلَيْلَةَ وَافَيْنَا الْكَثِيبَ لِمَوْعِدٍ   سُرَى الأَيْنِ لَمْ يُعْلَمْ لِمَسْرَاهُ مَزْحَفُ (٧)

---

(١) الوعيد : التهديد والتخويف ، والزماع : بالفتح المضى فى أمر الزيارة والعزم عليه ، وأعصف اسم تفضيل من عصفت الريح تعصف بالكسر فهى عاصف أى شديدة تمضى بما مرت عليه من تراب ونحوه ، أى يودون لو يصرفنا تهديدهم عما أزمعناه من أمر زيارة تلك الحسناء التى هام ون بها ، وهيهات أن يصرفنا عن ذلك صارف ، فإن ريح الشوق أشد مضيا بنا إلى ناحيتهم من تهديدهم ووعيدهم .

(٢) يقول يسير علينا فى حب الهوى الاغتراب واعتساف المجاهل

(٣) الروع : الخوف ، والغمرة : الشدة .

(٤) السيراء : بكسر ففتح نوع من البرود يخالطه حرير كالسيور ، ويقال ثوب رقم إذا رقم أى كتب عليه ثمنه ، أو اسم التاجر ، ومناط القرط معلقه ، وأحور وصف من حور العين . وهو شدة سواد المقلة فى شدة بياضها ، وأوطف . طويل شعر أهداب العين ، وفى الأصل أوطف ، والمعنى أن حبيبه التى تلبس تلك الحلة السيراء الثمينة تقيم وسط قباب الأعداء وهى بعيدة مهوى القرط أى طويلة العنق ، فى عينيها حور ، وفى أهدابها وطف .   (٥) عبل : أى ردف ضخم تام ، ومنعم . من النعمة والراحة ، وعدم الامتهان فى عمل البيت لوفر الخدم ، ويلزم ذلك السمالة والامتلاء ، وتأود : تثنى ، ولدن أى غصن لين ، ومهفهف أى خصر دقيق ناحل ، يقول : تباينت خلقة أسفله وأعلاه ، فردف ثقيل وخصر نحيل .

(٦) العانك : من الرمال ما تعقد وارتفع ، وفى الأصل : العانك . والمئزر : معروف وهو ما يشد على الوسط ، والمطرف — وهى مثلثة الميم — من ثياب الخز ما جعل فى طرفيه علمان ، ويجمع على مطارف ، أى فللكثيب المرتج ماحواه المئزر ، وللغصن المهتز ما ضمه المطرف .   (٧) وافينا الكثيب : أى توافينا على موعد فى الكثيب ، والسرى : السير بالليل ، والأين : الأعياء والتعب ، والمزحف العانة وهو من الزحف وهو المشى قليلا قليلا ، أو المراد به هنا أثر المشى ومنه مزحف الحية ، وهو أثر انسيابها فى الرمل قال الشاعر :

كأن مزاحف الحيات فيه   قبيل الصبح آثار السياط

تَهَادَى أَنَاةَ الْخَطْوِ مُرْتَاعَةَ الْحَشَا ... كَمَا رِيعَ يَعْفُورُ الْفَلَا الْمُتَشَوِّفُ (١)

فَمَا الشَّمْسُ رَقَّ الْغَيْمُ دُونَ إِيَاتِهَا ... سِوَى مَا أَرَى ذَاكَ الْجَبِينُ الْمُنَصَّفُ (٢)

فَدَيْتُكِ أَنِّي زُرْتِ نُورُكِ وَاضِحٌ ... وَعِطْرُكِ نَمَّامٌ وَحَلْيُكِ مُرْجِفُ (٣)

هَبِيكِ اعْتَرَرْتِ الْحَيَّ وَاشِيكِ هَاجِعٌ ... وَفَرْعُكِ غِرْبِيبٌ وَلَيْلُكِ أَغْضَفُ (٤)

فَأَنَّى اعْتَسَفْتِ الْهَوْلَ خَطْوُكِ مُدْمَجٌ ... وَرِدْفُكِ رَجْرَاجٌ وَخَصْرُكِ مُخْطَفُ (٥)

لَجَاجٌ، تَمَادِي الْحُبِّ فِي الْمَعْشَرِ الْعِدَا ... وَأَمُّ الْهَوَى الْأُفْقَ الَّذِي فِيهِ نُشْنَفُ (٦)

وَأَنْ نَتَلَقَّى السُّخْطَ ـ عَانِينَ ـ بِالرِّضَى ... لِغَيْرَانَ أَجْفَى مَا يُرَى حِينَ يَلْطُفُ (٧)

كَفَافًا مِنَ الْوَصْلِ النَّجِيَّةُ خُلْسَةً ... فَيُومِئُ طَرْفٌ أَوْ بَنَانٌ مُطَرَّفُ (٨)

---

(١) تهادى أصله تتهادى أى تمشي فى تمايل وسكون ، وأناة الخطو . متئدة الخطو وصفها بالمصدر ، وهو الأناة تعنى التؤدة للمبالغة ، ومرتاعة الحشا : مفزعة القلب ، وريع : فزع وأخيف ، واليعفور : الظبي والمتشوف المتطلع . وفى بعض النسخ المتشرف ، وهو الذى يرفع رأسه ويمد بصره لينظر إلى الشيء .

(٢) إياة الشمس ـ بالكسر والفتح ـ حسنها وضوءها ، وإياة هى الشمس أيضا ، قال أبو العلاء :

وبعض العالم من بعضه ... لولا إياة لم يكن سحت

أى لولا الشمس لما كان القمر ، والمنصف . الذى عليه النصيف وهو الخمار ، أى ليست الشمس يستر الغيم الرقيق حسنها وضوءها إلا ما أراه ذلك الجبين من حسن يبدو من خلال النصيف .

(٣) وفى بعض الروايات : قعيدك وهو مصدر منصوب لنيابته عن الفعل والتقدير سألت الله حفظك من قوله تعالى « عن اليمين وعن الشمال قعيد » أى حفيظ ، والمستعمل قعيدك الله مثل عمرك الله ، وهو مصدر منصوب أيضاً ناب عن الفعل تقديره عمرك الله بالتشديد ، ومعناه هنا : ملازمك ، ومرجف : من أرجف إذا تحرك واضطرب ، ويصح أن يكون من أرجف بالبناء للمجهول فهو مرجف ، وفى بعض النسخ بدل قعيدك فديتك . (٤) هبيك : قال هبك فعلت ، وهبيك فعلت كذا ، ولا يقال هب أنك فعلت ، ولا هب أنك فعلت ، والمعنى احسبي واعددى ، واعتررت الحى : جئته وجزت به على غير علم ، وفرعك غربيب : شعرك شديد السواد ، وأغضف حالك السواد ، يقال ليل أغضف إذا ألبس ظلامه .

(٥) مدمج : داخل بعضه فى بعض ، ومخطف : ضامر يقال فرس مخطف الحشا : أى ضامره .

(٦) نشنف : نبغض ، والمعنى أمرى لجاج فقد تمادى بى حب من أهواه بين المعشر العداء ، وقصد الهوى: المكان الذى فيه أمقت وأبغض . (٧) المعنى ولجاج أيضا أن نتحمل السخط، وقد عانانا رضا صاحب غيرة يشتد جفاؤه وغلظته، حين يظن لطفه ورقته (٨) البنان : المطرف الذى طرف بالحناء .

خليلىَّ مهلاً لا تلوما فإننى — فؤادى أليفُ البثِّ والجسمُ مُدْنَفُ

فأعنفُ ما يلقى المحبُّ لجاجةً — على نفسِهِ فى الحبِّ حين يُعنَّفُ

وإنى ليستهوينىَ البرقُ صبوةً — إلى برقِ ثغرٍ إن بدا كاد يخطفُ

وما ولعى بالرَّاحِ إلاّ توهمٌ — لظَلْمٍ بهِ كالرَّاحِ لو يترشَّفُ (١)

وتُذكرُنى العِقدَ المرنَّ جُمانُهُ — مُرِنَّاتُ وُرْقٍ فى ذُرا الأيكِ تهتِفُ (٢)

فما قبلَ من أهوى طوى البدرَ هودجٌ — ولا صانَ ريمَ القفرِ خدرٌ مسجَّفُ (٣)

ولا قبلَ «عبَّادٍ» حوى البحرَ مجلسٌ — ولا حمل الطَّوْدَ المعظَّمَ رفرفُ (٤)

---

(١) لظلم به : أى بالثغر فى البيت قبله . قال فى اللسان ، والظلم . الماء الذى يجرى ويظهر على الأسنان من صفاء اللون لا من الريق كالفرند حتى تتخيل لك فيه سوادا من شدة البريق والصفاء ، قال كعب بن زهير :

تجلو غوارب ذى ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

لو يترشف : لو هنا للتمنى ، وفى بعض النسخ إذ يترشف ، والترشف : مص الماء قليلا قليلا . قال ابن بسام : « أراه بنت أبى الطيب

وما شرق بالماء إلا تذكرا لماء به أهل الحبيب نزول

(٢) المرن : اسم فاعل من الإرنان ، وهو الصوت الحزين ، والجمان : حب يتخذ من صغار اللؤلؤ ، أو من الفضة أمثال اللؤلؤ ، والورق جمع ورقاء وهى الحمامة التى لونها بين السواد والغبرة وهى ما تسمى فى عرف أهل مصر باليمامة ، وفى مثل هذا يقول الشاعر المحسن جران العود النميرى .

ثم هاجنى حمائم ورق بالمدينة هتف

والأيك : جمع أيكة ، وهى الشجر الكثير الملتف ، وتهتف : تنوح . (٣) الهودج : مايركب فيه المرأة يكون مقببا وغير مقبب ، وفى بعض النسخ بدل صان ضم ، والريم : الظبى الخالص البياض ، والخدر المسجف : ما على كل مدخل أو نافذة من نوافذه سجفان أى ستران بينهما مشقوق كالمصراعين .

(٤) (ولا قبل عباد) هو المعتضد بالله أبو عمرو عباد بن الظافر المؤيد بالله أبى القاسم محمد بن إسماعيل قاضى اشبيلية ينتهى نسبه إلى النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة ، وهو صاحب قرطبة وأشبيلية وما والاهما من جزيرة الأندلس ، ولى الملك بعد وفاة أبيه الظافر محمد بن إسماعيل القاضى سنة ٤٣٣ هـ وكان هو وابنه المعتمد أوسع ملوك الطوائف ملكا ، وأشدهم بأسا ، وأكثرهم عديدا وعددا ، وكان المعتضد فيما ذكره ابن بسام صاحب الذخيرة قطب رحى الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة فى بلاد الأندلس ، وإلى سياسته يعزى السبب فى تلك الحروب الطاحنة التى نشبت بين ملوك الطوائف واستعان بعضهم على بعض فيها بالعدو الذى انتهز فرصة ضعفهم ، وتفرق كلمتهم فعمل على إزالة ملكهم ، وإخراج المسلمين من بلادهم — والرفرف — الفرش والبسط ، وكل ما أعد للجلوس ، وفى التنزيل العزيز « متكئين على رفرف خضر » وهو جمع رفرفة ورفارف جمع الجمع . قال ابن بسام : وهذا البيت للقسطلى بجملته حيث يقول فى ابن أبى عامر :

وكيف استوى بالبر والبحر مجلس وقام ببعض الراسيات سرير

هُوَ الْمَلِكُ الْجَعْدُ الَّذِي فِي ظِلَالِهِ ... تُكَفُّ صُرُوفُ الْحَادِثَاتِ وَتُصْرَفُ (١)

هُمَامٌ يَزِينُ الدَّهْرَ مِنْهُ وَأَهْلَهُ ... مَلِيكٌ فَقِيهٌ كَاتِبٌ مُتَفَلْسِفُ

يَتِيهُ بِمَرْقَاهُ سَرِيرٌ وَمِنْبَرٌ ... وَيَحْمَدُ مَسْعَاهُ حُسَامٌ وَمُصْحَفُ

رَوِيَّتُهُ فِي الْحَادِثِ الْإِدِّ لَحْظَةٌ ... وَتَوْقِيعُهُ الْجَالِي دُجَى الْخَطْبِ أَحْرُفُ (٢)

يَذِلُّ لَهُ الْجَبَّارُ خِيفَةَ بَأْسِهِ ... وَيَعْنُو إِلَيْهِ الْأَبْلَجُ الْمُتَغَطْرِفُ (٣)

حِذَارَكَ - إِذْ تَبْغِي عَلَيْهِ - مِنَ الرَّدَى ... وَدُونَكَ فَاسْتَوْفِ الْمُنَى حِينَ تُنْصِفُ

سَتَعْتَامُهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِالتَّوَى ... كَتَائِبُ تُزْجَى أَوْ سَفَائِنُ تُجْدَفُ (٤)

أَغَرُّ مَتَى نَدْرُسْ دَوَاوِينَ مَجْدِهِ ... يَرُقْنَا غَرِيبٌ مُجْمَلٌ أَوْ مُصَنَّفُ (٥)

إِذَا نَحْنُ قَرَّظْنَاهُ قَصَّرَ مُطْنِبٌ ... وَلَمْ يَتَجَاوَزْ غَايَةَ الْقَصْدِ مُسْرِفُ (٦)

---

(١) الجعد. قال في اللسان « والجعد إذا ذهب به مذهب المدح فله معنيان مستحبان، أحدهما: أن يكون معصوب الجوارح، شديد الأسر والخلق غير مسترخ ولا مضطرب، والثاني: أن يكون شعره جعدا غير سبط، لأن سبوطة الشعر هي الغالبة على شعور العجم من الروم والفرس، وجعودة الشعر هي الغالبة على شعور العرب، فإذا مدح الرجل بالجعد لم يخرج عن هذين المعنيين » الخ ما قال في الجعد على كلا الاعتبارين المدح أو الذم فانظره، والمعنى هو الملك المجتمع الخلق الذي ليس رهلا مسترخي الأعضاء، أو الجعد الشعر، أو الكريم الذي في ظله وكنفه تكف غير الحوادث وصروف الدهر وتردها عن أن تقصد المستظلين بظله بالسوء.

(٢) الإد العظيم، والتوقيع: ما يكتبه الملك في الكتاب من جمل قصيرة، وأحرف يسيرة، لإنفاذ أوامره، وإمضاء شؤون دولته، والمعنى تفكيره في الحادث العظيم الفظيع الداهي سريع لا يحتاج إلى تريث، وعدم تعجل، وتوقيعه الكاشف ظلمة الخطوب كلمات قليلة جامعة لمضمون ما يريد إنفاذه.

(٣) الأبلج: الأبيض، والمتغطرف: السيد السري المختال في مشيته.

(٤) ستعتامهم: ستختارهم، والتوى: الهلاك، وتزجى: تساق وتسير، وتجدف تدفع بالمجاديف.

(٥) أغر: كريم الأفعال واضحها، وندرس: أي متى نرض أنفسنا على قراءة ما سطر في دفاتر مجده، يرقنا: أي يعجبنا الخ، وفي الأصل: « متى تدرس »، والغريب: الغامض البعيد عن الفهم، والمجمل: المحتاج إلى التفسير والبيان، والمصنف: المميز بعضه من بعض، والمبين خفاؤه وإجماله.

(٦) قرظناه: من التقريظ وهو المدح والثناء، وأصله من تقريظ الجلد أي دبغه بالقرظ، والمطنب: المسهب المتوسع في القول، والقصد: التوسط والاعتدال.

وَأَرْوَعُ لاَ الْبَاغِي أَخَاهُ مُبَلَّغٌ   مُنَاهُ وَلاَ الرَّاجِي نَدَاهُ مُسَوَّفُ (١)

مُمِرُّ الْقُوَى لاَ يَمْلَأُ الخَطْبُ صَدْرَهُ   وَلَيْسَ لِأَمْرٍ فَائِتٍ يَتَلَهَّفُ (٢)

لَهُ ظِلُّ نُعْمَى يَذْكُرُ الْهِمُّ عِنْدَهُ   ظِلَالَ الصِّبَا بَلْ ذَاكَ أَنْدَى وَأَوْرَفُ (٣)

جَحِيمٌ لِعَاصِيهِ يُشَبُّ وَقُودُهُ   وَجَنَّةُ عَدْنٍ لِلْمُطِيعِينَ تُزْلَفُ (٤)

مَحَاسِنُ ، غَرْبُ الذَّمِّ عَنْهَا مُفَلَّلٌ   كَهَامٌ ، وَشَمْلُ المَجْدِ فِيهَا مُؤَلَّفُ (٥)

تَنَاهَتْ فَعِقْدُ المَجْدِ مِنْهَا مُفَصَّلٌ   سَنَاءً وَبُرْدُ الْفَخْرِ مِنْهَا مُفَوَّفُ (٦)

طَلَاوَةُ وَجْهٍ فِي مَضَاءٍ كَمِثْلِ مَا   يَرُوقُ فِرِنْدُ السَّيْفِ وَالحَدُّ مُرْهَفُ (٧)

عَلَى السَّيْفِ مِنْ تِلْكَ الشَّهَامَةِ مِيسَمٌ   وَفِي الرَّوْضِ مِنْ تِلْكَ الطَّلَاقَةِ زُخْرُفُ (٨)

سَجَايَا لِمَنْ وَالَاهُ كَالأَرْيِ تُجْتَنَى   تَعُودُ لِمَنْ عَادَاهُ كَالشَّرْيِ يُنْقَفُ (٩)

يُرَاقِبُ مِنْهُ اللهَ «مُعْتَضِدٌ» بِهِ   يَدَ الدَّهْرِ يَقْسُو فِي رِضَاهُ وَيَرْأَفُ (١٠)

---

(١) الأروع: الذي يروعك حسنه، ويعجبك مرآه، ويعني سائر الناس الذي يبغي له مثلاً بالغ مناه، وليس الذي يرجو نداه مؤخراً عطاؤه. (٢) الممر: الحبل الذي أجيد فتله، والقوى: طاقاته، يريد أنه مستحكم القوى وليس رخواً ضعيفاً يملأ الهول صدره فزعاً، ويأسى على ما فاته تلهفاً وتحسراً.

(٣) الهم: الشيخ الكبير الفاني، يعني أن الشيخ الهم يذكر عند استظلاله ظل نعماه الوارف أنه في ظل الشباب الندي الممتد، بل إن ظل نعماه أكثر ندوة وورفاً وامتداداً.

(٤) تزلف: تقرب، وفي التنزيل العزيز «وأزلفت الجنة للمتقين» أي قربت.

(٥) الغرب: الحد، ومفلل: فيه كسور، وكهام: كليل ناب عن الضريبة لا يقطع.

(٦) السناء: الرفعة، وبرد مفوف: رقيق من نسج اليمن.

(٧) فرند السيف: جوهره وماؤه الذي يجري فيه وطرائقه، والمعنى: يعلو وجهه ماء كفرند السيف المترقرق، مع مضاء عزم كحده المرهف في المضي والقطع، وفي رواية «طلاقة مجد»

(٨) ميسم: أثر وعلامة. وفي الأصل «من تلك الطلاقة مطرف»

(٩) الأري: العسل، والشري: الحنظل، وينقف: أي يشق لأخذ ما في داخله قال امرؤ القيس:

كأني غداة البين يوم تحملوا   لدى سمرات الحي ناقف حنظل

(١٠) يد الدهر: مدى الدهر، قال أبو العلاء:

فياليتنا عشنا حياة بلا ردى   يد الدهر أو متنا مماتاً بلا نشر

ومعنى البيت أنه يرأف ويعنف دائماً في سبيل مرضاة الله وحده، ويقال أيضاً يد الحياة، قال أبو العلاء:

لو كان لي أمر يطاع لم يشن   ظهر الطريق يد الحياة منجم

فَقُلْ لِلْمُلُوكِ الْحَاسِدِيهِ مَتَى ادَّعَى ... سِبَاقَ الْعَتِيقِ الْفَائِتِ الشَّأْوِ مُقْرِفُ (١)

أَلَيْسَ « بَنُو عَبَّادٍ » الْقِبْلَةَ الَّتِي ... عَلَيْهَا لِآمَالِ الْبَرِيَّةِ مَعْكَفُ (٢)

مُلُوكٌ يَرَى أَحْيَاؤُهُمْ فَخْرَ دَهْرِهِمْ ... وَيَخْلُفُ مَوْتَاهُمْ ثَنَاءٌ مُخَلَّفُ (٣)

بِهِمْ بَاهَتِ الْأَرْضُ السَّمَاءَ فَأَوْجُهٌ ... شُمُوسٌ وَأَيْدٍ مِنْ حَيَا الْمُزْنِ أَوْكَفُ (٤)

٭ ٭ ٭

أَسَارِحَ مَعْنَى الْمَجْدِ وَهْوَ مُعَمَّسٌ ... وَمُجْزِلَ حَظِّ الْحَمْدِ وَهْوَ مُسَفْسِفُ (٥)

لَعَمْرُ الْعِدَا الْمُسْتَدْرِجِيكَ بِزَعْمِهِمْ ... إِلَى غِرَّةٍ كَادَتْ لَهَا الشَّمْسُ تُكْسَفُ (٦)

لَكَالُوكَ صَاعَ الْغَدْرِ لُؤْمَ سَجِيَّةٍ ... وَكِيلَ لَهُمْ صَاعُ الْجَزَاءِ الْمُطَفَّفُ (٧)

لَقَدْ حَاوَلُوا الْعُظْمَى الَّتِي لَا شَوَى لَهَا ... فَأَعْجَاهُمُ عَقْدٌ مِنَ الْهَمِّ مُحْصَفُ (٨)

---

(١) العتيق : النجيب الكريم من الخيل ، والشأو : الغاية ، والمقرف : الهجين وهو الذى أمه برذونة وأبوه عربى أو العكس . (٢) معكف مصدر ميمى بمعنى العكوف أى إقامة وملازمة .

(٣) أى بنو عباد ملوك يرى الناس أحياءهم مفخرة الزمان ، ويخلف من بعد موتاهم ذكر حسن وثناء موروث يتحدث به الناس ، ويتناقله الخلف عن السلف .

(٤) الحيا : المطر ، والمزن : السحاب ، وأوكف : أهطل وأغزر والمعنى : فاخرت بهم الأرض السماء فوجوههم أبهى طلعة من النيرات ، وآثار نعمهم ، ومنن أيديهم أغزر وأهطل من السحب الهاطلات .

(٥) معمس . ملبس ملتوٍ عن جهته مظلم لا يدرى من أين يؤتى له ، ومسفسف : نازل من أسف الطائر إذا دنا من الأرض ، والمعنى : يا من بفعالك المجيدة أبنت معنى المجد فى حال كونه غامضا ملتبسا ، وأجزلت بآثارك الحميدة حظ الحمد على حين حظ غيرك منه حقير ، وجواب النداء فى الأبيات بعده .

(٦) لعمر العدى : يقسم بحياتهم متهكماً للاشارة إلى إخفاقهم فيما حاولوا ، المستدرجيك : أى الذين حاولوا فى زعمهم أن يتدرجوا بك قليلا قليلا على غرة ، ويأخذوك على غفلة إلى ما تكاد له الشمس تكسف لجرأتهم ، وهول ما أقدموا عليه . (٧) لكالوك : أى لقد كالوك من لؤم سجيتهم صاع الغدر ، وكلتهم صاع الجزاء والعقوبة على غدرهم ، والمطفف : فى الأصل المنقوص المبخوس من طفف الكيل نقصه وبخسه ، وقد يستعمل بمعنى الوافى وهو المراد هنا .

(٨) لقد حاولوا العظمى : أى الفتكة العظمى ، التى لا شوى لها : أى التى لا تصيب الأطراف ولكن تصيب المقاتل ، وأعجاهم عقد : أى رأى وتدبير من همك وعزمك ، محصف : محكم سديد لاخلل فيه .

***

وَلَمَّا رَأَيْتَ الْغَدْرَ هَبَّ نَسِيمُهُ ... تَلَقَّاهُ إِعْصَارٌ لِبَطْشِكَ حَرْجَفُ (١)

أَظَنَّ الْأَعَادِي أَنَّ حَزْمَكَ نَائِمٌ ... لَقَدْ تَعِدُ الْفَسْلَ الظُّنُونُ فَتُخْلِفُ (٢)

دَوَاعِي نِفَاقٍ أَنْذَرَتْكَ بِأَنَّهُ ... سَيَشْرَى وَيَذْوَى الْعُضْوُ مِنْ حَيْثُ يُشْأَفُ (٣)

تَحَمَّلْتَ عِبْءَ الدَّهْرِ عَنْهُمْ وَكُلُّهُمْ ... بِنُعْمَاكَ مَوْصُولُ التَّنَعُّمِ مُتْرَفُ (٤)

فَإِنْ يَكْفُرُوا النُّعْمَى فَتِلْكَ دِيَارُهُمْ ... بِسَيْفِكَ قَاعٌ صَفْصَفُ الرَّسْمِ تُنْسَفُ

وَطَيَّ الثَّرَى مَثْوًى يَكُونُ قُصَارَهُمْ ... وَإِنْ طَالَ مِنْهُمْ فِي الْأَدَاهِمِ مَرْسَفُ (٥)

وَبُشْرَاكَ عِيدٌ بِالسُّرُورِ مُظَلَّلٌ ... وَبِالْحَظِّ فِي نَيْلِ الْمُنَى مُتَكَنَّفُ (٦)

---

(١) النسيم : الريح تهب هوناً هيناً ، والإعصار : الريح الشديدة التي تهب من الأرض ، وتثير الغبار فيرتفع كالعمود إلى نحو السماء ، وهي التي تسمى بالزوبعة . وفي المثل « إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً » يضرب للرجل يلقى نده في البسالة والقوة ، والحرجف : البارد وصف بها الإعصار . وفي الأصل «حرجف»

(٢) الفسل : الرذل الدنيء الأحمق ، والمعنى لم يتحقق ظن الأعادي أن تدبيرك نائم عن كيدهم وغدرهم وكثيراً ما تعد الظنون الحمقى الأرذال فتخلفهم .

(٣) يشرى العضو : أي يظهر عليه ورم وقروح يحتاج إلى الكي ، ويذوى : يذبل ويضمر ، ويشأف أي تكوى شأفته أي قرحته لتذهب بالكي ، والبيت تمثيل لحال طائفة عم فيها النفاق والشر فكانت كالعضو المريض تمكن منه الداء فلم يكن بد من معالجته بالكي لاستئصال شأفته ، وفي رواية « يذوى العضو »

(٤) أي كفيتهم مؤونة السعي ، وحملت عنهم العبء ، فكلهم في ظل نعماك دائم التنعم والترف .

(٥) قصارهم : يقال قصرك وقصاراك أن تفعل كذا أي غايتك ، والأداهم : القيود السوداء جمع أدهم وتسمى بالأساود أيضاً ، والمرسف : مصدر ميمي من الرسفان وهو مشي المقيد ، أي أن هؤلاء الأعداء سيكون مآلهم أن يموتوا في الحبس ، بعد إن تطول عليهم مدته .

(٦) انتقل إلى ذكر مظهر من مظاهر الدولة عند خروج الملك لصلاة العيد ، وترتيب المملكة في ذلك على ما يؤخذ من صبح الأعشى أن ينادى في عامة البلد ، وأهل الأسواق ليلة العيد فيخرج أهل كل صناعة بظاهر البلد ، ويتحيز أهل كل سوق ناحية ، متجملين بأحسن الثياب ، وكل منهم متنكب قوساً أو متقلد سيفاً ، ومع أهل كل سوق علم يختص بهم ، عليه رنك أهل تلك الصناعة عما يناسبهم ، ويبكر الملك بالركوب فيركب وعن يمينه ويساره فارسان ، ويمسك بركابيه رجلان متقلدان سيفين ، ويركب العسكر معه ميمنة وميسرة ، ويصطف الناس صفوفاً يمشون قدامه ، والملوك خلفه ملتفون به ، والأعلام منشورة وراءه ، والطبول خلفه حتى يصلي العيد ، ثم يعود فينصرف عامة الشعب ويمد السماط فيحضر طعامه خواصه وأعيان مملكته ، ومعنى البيت أنه يبشره بالعيد : يظلله السرور ، ويكتنفه الحظ ببلوغ المنى ..

بَشِـــيرٌ بِأَعْيَادٍ تُوَافِيكَ بَعْدَهُ ... كَمَا يَنْسُقُ النَّظْمَ الْمُوَالِي وَيَرْصُفُ (١)

تَجَرَّدَ فِيـــهِ سَيْفُ دَوْلَتِكَ الَّذِي ... دِمَاءُ الْعِدَى دَأْبًا بِغَرْبَيْهِ تُطْلَفُ (٢)

هُوَ الصَّارِمُ الْعَضْبُ الَّذِي الْعَزْمُ حَدُّهُ ... وَحِلْيَتُهُ بَذْلُ النَّـــدَى وَالتَّعَفُّفُ

هُمَامٌ سَمَا لِلْمُلْكِ إِذْ هُوَ يَافِعٌ ... وَتَمَّتْ لَهُ آيَاتُهُ وَهُوَ مُخْلِفُ (٣)

كَرِيمٌ يَعُدُّ الْحَمْدَ أَنْفَسَ قِنْيَةٍ ... فَيُولَعُ بِالْفِعْلِ الْجَمِيـــلِ وَيُشْغَفُ

غَدَا بِخَمِيسٍ يُقْسِمُ الْغَـــيْمُ إِنَّهُ ... لَأَحْفَلُ مِنْهَا مُكْفَهِرًّا وَأَكْثَفُ (٤)

هُوَ الْغَيْمُ مِنْ زُرْقِ الْأَسِنَّةِ بَرْقُهُ ... وَلِلطَّبْلِ رَعْدٌ فِي نَوَاحِيهِ يَقْصِفُ

* * *

فَلَمَّا قَضَـــيْنَا مَا عَنَانَا أَدَاؤُهُ ... وَكُلٌّ بِمَا يُرْضِيكَ دَاعٍ فَمُلْحِفُ (٥)

قَرَنَّا بِحَمْدِ اللهِ حَمْـــدَكَ إِنَّهُ ... لَأَوْكَدُ مَا يُحْظِي لَدَيْهِ وَيُزْلِفُ (٦)

---

(١) نسق النظم : أي يتابع بينه ويجعله على طريقة نظام واحد ، ويرصف : أي ينظم ويتصد ، والمعنى هذا العيد بشير بأعياد تأتي بعده على نسقه وترتيبه .

(٢) بغربيه : بحديه ، وتطلف : تهدر من قولهم ذهب دمه طلفاً أي هدراً .

(٣) الغلام اليافع الذي شارف الاحتلام ، والمخلف : الذي اختلف نظر الناس فيه فبعضهم يقول قد احتلم وأدرك ، وبعض يقول غير مدرك ، والمعنى سما بهمته إلى الملك وهو دون الاحتلام ، وتمت له علاماته ورسومه ومميزاته ، وهو مشكوك في احتلامه .

(٤) الخميس : الجيش الجرار التام الفرق من المقدمة والميمنة والميسرة والقلب والساق وأراد به العسكر السائرين في موكب الملك عند خروجه لصلاة العيد ، والغيم : السحاب ، وأحفل : أي أكثر منها احتشاداً واجتماعاً في حال كونه (مكفهراً) أي مظلماً أسود لما على الجند من الدروع والسلاح ، وأكثف : أي أكثر كثافة وتراكماً من السحاب لشدة الزحام وكثرة العدد وأعاد الضمير في قوله (منها) على الغيم مؤنثاً مراعاة للمعنى . (٥) أي فلما أدينا ما أهمنا أداؤه من صلاة العيد : وكل الناس داع فملح في الدعاء بما يرضيك ، وجواب لما يأتي بعد .

(٦) يحظي : أي يوجب الحظوة والتفضيل ، ويزلف : يقرب ، والمعنى : ولما انتهينا من صلاة العيد جمعنا بين حمد الله والثناء عليك لأنه أبلغ في بلوغ الحظوة لديه ، والزلفى إليه

وَعُدْنَا إِلَى الْقَصْرِ الَّذِي هُوَ كَعْبَةٌ ... نُغَادِيهِ مِنَّا نَاظِرٌ أَوْ مُطَرِّفُ [1]

فَإِذْ نَحْنُ طَالَعْنَاهُ وَالْأُفْقُ لَابِسٌ ... عَجَاجَتَهُ وَالْأَرْضُ بِالْخَيْلِ تَرْجُفُ [2]

رَأَيْنَاكَ فِي أَعْلَى الْمُصَلَّى كَأَنَّمَا ... تَطَلَّعَ مِنْ مِحْرَابِ دَاوُدَ يُوسُفُ [3]

وَلَمَّا حَضَرْنَا الْإِذْنَ وَالدَّهْرُ خَادِمٌ ... تُشِيرُ فَيَمْضِي وَالْقَضَاءُ مُصَرِّفُ [4]

وَصَلْنَا فَقَبَّلْنَا النَّدَى مِنْكَ فِي يَدٍ ... بِهَا يُتْلَفُ الْمَالُ الْجَسِيمُ وَيُخْلَفُ

* *

لَقَدْ جُدْتَ حَتَّى مَا بِنَفْسٍ خَصَاصَةٌ ... وَأَمَّنْتَ حَتَّى مَا بِقَلْبٍ تَخَوُّفُ

---

(١) يغاديه: أي نباكره ونغدو عليه في أول النهار، والمطرف: الذي يديم النظر في القصر من حب وإعجاب، وهو في الأصل الذي أصاب طرفه أي عينه عود فهو دائماً يمد طرفه في الشيء، ولا يغمض جفونه أو هو اسم فاعل من طرّف الشيء احرزه، قال الشاعر:

أطرف أبكارا كأن وجوهها ... وجوه عذارى حسرت أن تقنعا

(٢) طالعناه: أي القصر، والعجاجة: ما تثيره سنابك الخيل من الغبار، وترجف: تضطرب.

(٣) المصلى: المكان المعد لصلاة العيد، وتطلع: طلع وأشرف عليهم من محراب، وروى عن الزجاج في قوله تعالى «وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود» قال المحراب أرفع بيت في الدار، وأرفع مكان في المسجد، والمعنى: رأيناك حين عودتنا إلى القصر ومطالعتنا إياه مشرفاً بأعلى المصلى من غرفة قصرك كأنما أشرق من محراب داود في يوم نسكه وعبادته وجه يوسف رائعاً في حسنه وجماله.

(٤) قال ابن بسام:

وقوله ولما حضرنا الإذن البيت مع الذي بعده أرى أبا الوليد احتذى فيه حذو الوليد في أبيات أنشدها لحسنها وهي من أحسن ما قيل في الحجبة

ولما حضرنا سدة الإذن أخرت ... رجال عن الباب الذي أنا داخله

فأفضيت من قرب إلى ذي مهابة ... أقابل بدر التم حين أقابله

كما انتصب الرمح الردينى ثقفت ... أنابيبه وأجري للطعن عامله

وكالبدر وافته لتم سعوده ... وتم سناه واستهلت منازله

وسلمت فاعتاقت جناني هيبة ... تنازعني القول الذي أنا قائله

فلما تأملت الطلاقة وانثنى ... إليّ ببشر آنستني مخايله

دنوت فقبلت الندى من يد امرئ ... كريم محياه سباط أنامله

صفت مثل ما يصفو المدام خلاله ... ورقت كما رق النسيم شمائله

وقول ابن زيدون وصلنا فقبلنا الندى من يد امرئ معنى مليح ولفظ صحيح، إلا أنه كما تراه لفظ بيت البحتري ويقول بعض أدبائنا إن ابن زيدون بحتري زماننا وصدقوا لأنه حذا حذو الوليد في بعض قصائده.

وَلَوْلَاكَ لَمْ يَسْهُلْ مِنَ الدَّهْرِ جَانِبٌ … وَلَا ذَلَّ مُقْتَادٌ وَلَا لَانَ مَعْطِفُ

لَكَ الْخَيْرُ، أَنَّى لِي بِشُكْرِكَ نَهْضَةٌ ؟ … وَكَيْفَ أُؤَدِّي فَرْضَ مَا أَنْتَ مُسْلِفُ ؟ (١)

أَفَدْنَ بَهِيمَ الحَالِ مِنِّيَ غُرَّةً … يُقَابِلُهَا طَرْفُ الجَمُوحِ فَيُطْرَفُ (٢)

وَبَوَّأْتَهُ دُنْيَاكَ دَارَ مُقَامَةٍ … بِحَيْثُ دَنَا ظِلٌّ وَذُلِّلَ مَقْطِفُ (٣)

* * *

وَكَمْ نِعْمَةٍ أُلْبِسْتُهَا سُنْدُسِيَّةٍ … أُسَرْبَلُهَا فِي كُلِّ حِينٍ وَأُلْحَفُ

مَوَاهِبُ فَيَّاضِ اليَدَيْنِ كَأَنَّمَا … مِنَ الْمُزْنِ تُمْرَى أَوْ مِنَ الْبَحْرِ تُغْرَفُ

فَإِنْ أَكُ عَبْداً قَدْ تَمَلَّكْتَ رِقَّهُ … فَأَرْفَعُ أَحْوَالِي وَأَسْنَى وَأَشْرَفُ (٤)

---

(١) نهضة : أي طاقة وقدرة أي كيف يكون لي قدرة على القيام بشكرك ، ومسلف : اسم فاعل من أسلفه أي أقرضه ، وفي رواية : « قرض ما أنت مسلف »

(٢) المنى اكتسبت سواد الحال مني غرة بيضاء يواجهها طرف الطموح الذي يمد بصره إلى الشيء فيطرف أي يثبت فيها نظره من قولهم فلان مطروف العين بفلان إذا كان لا ينظر إلا إليه .

(٣) أي أنزلني وأحلني من دنياك الشبيهة بدار المقامة جنة دنا ظلها وذللت قطوفها .

(٤) فإن أك بما أوليتني من نعم عبداً مربوباً لك فلي أعد انتمائي إليك بالعبودية والرق أسنى أحوالي وأرفعها وأشرفها ، قال أبو الطيب المتنبي « ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا » .

ولنذكر ـ بمناسبة هذه القصيدة الفذة التي قالها ابن زيدون بحتري الغرب في المعتضد بالله بمناسبة عيد الأضحى ـ قصيدة بحتري الشرق التي قالها في المتوكل بمناسبة عيد الفطر ـ ليرى القارئ صورتين قارب بينهما اتحاد الغرض والشاعرية وإن اختلفت القافية والبحر :

الله مكن للخليفة جعفر … ملكاً يحسنه الخليفة جعفر

نعمى من الله اصطفاه بفضلها … والله يرزق من يشاء ويقدر

فاسلم أمير المؤمنين ، ولا تزل … تعطى الزيادة ـ في البقاء ـ وتشكر

عمت فواضلك البرية ، فالتقى … فيها المقل على الغنى والمكثر

* * *

بالبر صمت ـ وأنت أفضل صائم ـ … وبسنة الله الرضية تفطر

فانعم بيوم الفطر عينا ، إنه … يوم أغر ـ من الزمان ـ مشهر

أظهرت عز الملك فيه بجحفل … لجب ، يحاط الدين فيه وينصر

فى طرطوشــــة (١)

غَرِيبٌ بِأَقْصَى الشَّرْقِ يَشْكُرُ لِلصَّبَا (٢) ... تَحَمُّلَهَا مِنْهُ السَّـــلَامَ إِلَى الْغَرْبِ

وَمَا ضَرَّ أَنْفَاسَ الصَّبَا فى احْتِمَالِهَا ... سَلَامَ هَوًى يُهْدِيهِ جِسْمٌ إِلَى قَلْبِ (٣)

فلما الجمال تسير فيه ، وقد غدت ... عدداً يسير بها العديد الأكثر

فالخيل تصهل ، والفوارس تدعى ، ... والبيض تلمع ، والأسنة تزهر

والأرض خاشعة تميد بثقلها ، ... والجوّ معتكر الجوانب أغبر

والشمس طالعة توقد بالضحى ... نورا ، وتطفئها العجاج الأكدر

حتى طلعت بضوء وجهك ، فانجلت ... تلك الدجى ، وانجاب ذاك العثير

وافتك فيك الطارفون ، فأصبحوا ... يومى إليك بها ، وعين تنظر

يجدون رؤياك التى فروا بها ... من أنعم الله التى لا تكفر

ذكروا بطلعتك النبى فهللوا ... لما طلعت من الصفوف وكبروا

حتى انتهيت إلى المصلى لابساً ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر

ومشيت مشية خاشع متواضع ... لله لا يزهى ، ولا يتكبر

فلو ان مشتاقا تكلف فوق ما ... فى وسعه لسعى إليك المنبر

أبديت من فصل الخطاب بحكمة ... تنبي عن الحق المبين وتخبر

ووقفت فى برد النبى مذكرا ... بالله تنذر تارة وتبشر

ومواعظ شفت الصدور من الذى ... يعتادها وشفاؤها متعذر

حتى لقد علم الجهول وأخلصت ... نفس المروى واهتدى المتحير

ضلوا وراءك آخذين بعصمة ... من ربهم وبذمة لا تخفر

فاسلم بنعمة الإله فلم يزل ... يهب الذنوب لمن يشاء ويغفر

الله أعطاك المحبة فى الورى ... وحباك بالفضل الذى لا ينكر

ولأنت أملأ للعيون لديهم ... وأجل قدراً فى الصدور وأكبر

(١) هى مدينة بأقصى الشرق من الأندلس على البحر الأبيض المتوسط ، وهى من أعمال بلنسية . قالوا : وكانت متقنة العمارة ، وهى من الفرض البحرية التى يقصدها التجار ويسافرون منها إلى سائر الأمصار ، وقد استولى عليها الإفرنج وعلى جميع حصونها فى سنة ٥٤٣ ﻫ (٢) ريح الصبا ، وهى التى تهب من الشرق ، وتقابلها الدبور (٣) ليت الصبا تحتمل أنفاسها سلاما من جسم فى الشرق إلى فؤاده النائى عنه فى الغرب ، وقريب من هذا المعنى قول عبد الرحمن الداخل « صقر قريش » :

إن جسمى كما علمت بأرض ... وفؤادى وساكنيه بأرض

قدر الله بالفراق عليه ... فعسى باجتماعنا سوف يقضى

إلى الوزير أبي عبد الله [1]

« لم تزل الأيام تدني « ابن زيدون » وتبعده ، وتسوءه وتسعده ، وتقذف به إلى كل نازح ، وتطرف أمله بعين اللاعب المازح ، حتى أحلته « بلنسية » وهلال ذكائه كما أهر ، وغصن ساحته يانع قد أثمر ، و بنو عبد العزيز غرر ملكها ، ودرر سلكها ، يفيضون بحور الندى ، و يومضون في كل منتدى ، فحل منهم محلّ الحيا في الكؤوس ، ووقع منهم موقع البشائر في النفوس ، وأقام بين مبرة تواصله ، ومسرة تعارله ، ومكارمة تهاديه ، ومحاملة كرائح القطر وغاديه ، فلما انفصل ، وحصل ما حصل ، تذكر بعد برهة ذلك العيش ونور عمره قد صوح ، وغصن سنه قد دوح ، فلم يجد إلا له طيبا ، ولم يهصر غير فننه غصنا رطيبا ، فكتب إلى ابن عبد العزيز [2] » :

رَاحَتْ فَصَحَّ [3] بِهَا السَّقِيمْ ... رِيحٌ مُعَطَّرَةُ النَّسِـــيمْ

مَقْبُولَةٌ هَبَّتْ قَبُو ... لاً [4] فَهِيَ تَعْبَقُ فِي الشَّمِيمْ [5]

أَفَضِيضُ مِسْكٍ أَمْ بَلَنْـ ... ـسِيَةٌ لِرَيَّاهَا [6] نَمِيمْ [7]

بَلَدٌ حَبِيبٌ أُفْقُــهُ ... لِفَـتًى يَحُلُّ بِهِ كَرِيمْ

---

(١) هو الوزير أبو عبد الله بن عبد العزيز .   (٢) قلائد العقيان .

(٣) وفي رواية « وراح لها السقيم » راحت أي بردت وطابت ، وراح لها السقيم من قولهم : « راح للأمر يراح » إذا أحدثه أريحيه وخفة ونشاط ، أي فارتاح لطيبها السقيم .

(٤) القبول : ريح الصبا لأنها تقابل الدبور أو لأن النفس تقبلها .

(٥) أي أن ريح الصبا تحمل معها عطرا تتنسم منه طيب الشذى .

(٦) لريحها الطيبة .   (٧) يقول لعل نسيم بلنسية الشذى الذي تستروح النفس إليه قد هبّ علينا .

*
* *

أَيْهَا أَبَا عَبْـدِ الْإِلَـ ـهِ،دُعَاءُ مَغْلُوبِ الْعَرِيمْ[١]

إِنْ عِيلَ صَبْرِى مِنْ فِرَا قِكَ فَالْعَذَابُ بِهِ أَلِيمْ[٢]

أَوْ أَتْبَعَتْكَ حَنِينَهَا نَفْسِى فَأَنْتَ لَهَا قَسِيمْ[٣]

ذِكْرَى لِعَهْدِكَ كَالسُّهَا دِ[٤] سَرَى فَبَرَّحَ بِالسَّلِيمْ

مَهْمَا ذَمَمْتُ فَمَا زَمَا نِى فِى ذِمَامِكَ بِالذَّمِيمْ[٥]

زَمَنٌ كَمَأْلُوفِ الرَّضَا عِ يَشُوقُ ذِكْرَاهُ الْفَطِيمْ[٦]

أَيَّامَ أَعْتَقِـدُ نَاظِرَ ىَّ بِذَلِكَ الْمَرْأَى الْوَسِيمْ[٧]

فَأَرَى الْفُتُوَّةَ غَضَّـةً فِى ثَوْبِ أَوَّاهٍ حَلِيمْ[٨]

أَللهُ يَعْلَمُ أَنَّ حُبَّـكَ مِنْ فُؤَادِى بِالصَّمِيمْ[٩]

وَلَئِنْ تَحَمَّلَ عَنْكَ لِى جِسْمٌ فَعَنْ قَلْبٍ مُقِيمْ[١٠]

---

(١) أيها : بكسر الهمزة بمعنى زدنى من الحديث ، وبفتحها بمعنى اكفف واسكت ، أو للتبعيد بمعنى هيهات ، أى بعد دعاء مغلوب الغريم ، والغريم : الأمر الداهى العظيم ، والمعنى هيهات يجدى دعائى وأنا من غلبته الحادثات على أمره . وفى الأصل : « مغلوب الغريم »

(٢) فى الغدر إذا صبرت بفراقك وعيل صبرى فقد اشتدّ بى الألم لبعادك .

(٣) القسيم : شطر الشىء المقسوم ، أى أنت شطر نفسى الثانى فلا غنى لى عنك .

(٤) وفى الأصل : « كالعداد »

(٥) الذمام : الحق والحرمة ، والمعنى مهما ذممت : من عهود الزمان الغادر فلن أذم ذلك العهد الحميد الذى قضيته معك ونعمت فيه بقربك ورعايتك .

(٦) فقد كان فى ذلك العهد المحبوب متعت ذكريات سارّة أحن إليها كما يحن الطفل المفطوم إلى عهد الرضاع القريب . وفى الأصل « زمن كمألوف الرضاع »

(٧) أيام ينعم ناظرى برؤية محياك البهى .

(٨) الأوّاه : الكثير التأوّه إشفاقاً ورفقاً ، قالوا : « وهو الكثير التضرع والدعاء أو الحزن والبكاء أو هو الرحيم الرقيق » والمعنى : فأرى الفتوة — فى عنفوانها — مقترنة بالخشية والتضرع والحلم ، وفى الكتاب الكريم : « إن إبراهيم لحليم أواه منيب »

(٩) الصميم : المحض أو الخالص .

(١٠) وإذا رحل عنك جسمى فإن قلبى لم يرحل عنك ولم يحل عن حبك فهو ثابت مقيم عندك .

قُلْ لِي بِأَىِّ خِلَالِ سَرْ ... وِكَ[1] قَبْلُ أُفْتَنُ أَوْ أَهِيمُ[2]

أَ بِمَجْدِكَ الْعَمَمِ[3] الَّذِى ... نَسَقَ الْحَدِيثَ مَعَ الْقَدِيمْ[4]

أَمْ ظَرْفِكَ الْحُلْوِ الْجَنَى ... أَمْ عِرْضِكَ الصَّافِى الْأَدِيمْ

أَمْ بِرِّكَ الْعَذْبِ الْجِمَا ... مِ، وَبِشْرِكَ الْغَضِّ الْجَمِيمْ[5]

أَمْ بِالْبَدَائِعِ كَاللَّآ ... لِئُ مِنْ نَثِيرٍ أَوْ نَظِيمْ

وَبَلَاغَةٍ إِنْ عُدَّ أَهْلُوهَا فَأَنْتَ لَهُمْ زَعِيمْ

فِقَرٌ تَسُوغُ بِهَا الْمُدَا ... مُ إِذَا تَكَرَّرَهَا النَّدِيمْ[6]

إِنْ أَشْمَسَتْ تِلْكَ الطَّلَا ... قَةُ فَالنَّدَى مِنْهَا مُقِيمْ

***

إِنَّ الَّذِى قَسَمَ الْحُظُو ... ظَ حَبَاكَ بِالْخُلُقِ الْعَظِيمْ

لَا أَسْتَزِيدُ اللهَ نُعْـ ... ـمَى فِيكَ، لَا بَلْ أَسْتَدِيمْ

فَلَقَدْ أَقَرَّ الْعَيْنَ أَنَّكَ غُرَّةُ الزَّمَنِ الْبَهِيمْ

حَسْبِى الثَّنَاءُ لِحُسْنِ بِرِّ ... كَ مَا بَدَا بَرْقٌ فَشِيمْ[7]

ثُمَّ الدُّعَاءُ بِأَنْ تَهَنَّـ ... ـأَ طُولَ عَيْشِكَ فِى نَعِيمْ

ثُمَّ السَّلَامُ تُبَلِّغَنْـ ... ـهُ فَغَيْبُ، مُهْدِيهِ سَلِيمْ[8]

---

(١) السرو : الفضل والسخاء فى المروءة . (٢) إنى لا أدرى أى خلال فضلك جدير بالاشارة والتنويه ، وأى مزاياك جدير بأن يهيم به عارفك ويفتتن . (٣) الشامل .
(٤) انتظم المجد الحديث ، والمجد القديم . (٥) الجمام – جمع جمة بتشديد الميم – الماء الكثير المجتمع ، يقال : جمت البئر جموما ، إذا اجتمع ماؤها وارتفع بعد نزح ما فيها ، قال زهير :

« ولما وردن الماء زرقا جمامه ... وضعن عصى الحاضر المتخيم »

والجميم : النبت الكثير . (٦) كلمات تعذب بها الخمر إذا رددها النديم .
(٧) شام البرق : نظر إليه أين يقصد وأين يمطر ، وفى الأصل : « لحسن برقك » .
(٨) وفى رواية : « ثم السلام تبلغنه بقلب مهديه السليم »

جَوَابُ كِتَابٍ

« كتب إليه الوزير أبو بكر بن الطيبى :

أبا الوليد وما شطت بنا الدار
وقلّ منا ومنك اليوم زوّار
وبيننا كل ما تدريه من ذمم
وللصبا ورق خضر ونوّار
وكل عتب وإعتاب جرى فله
مواقع حلوة عندى وآثار
فاذكر أخاك بخير – كلما لعبت
به الليالى – فانّ الدهر دوّار »

فجاوبه بديها فى ظهر رقعته : »

لَوْ أَنَّنِي لَكَ فِى الْأَهْوَاءِ مُخْتَارُ ... لَمَا جَرَتْ بِالَّذِى تَشْكُوهُ أَقْدَارُ
لٰكِنَّهَا فِتَنٌ فِى مِثْلِ غَيْهَبِهَا ... تَعْمَى الْبَصَائِرُ إِنْ لَمْ تَعْمَ أَبْصَارُ [١]
فَأَحْسِنِ الظَّنَّ لَا تَرْتَبْ بِعَهْدِ فَتًى ... تَعْفُو الْعُهُودُ وَتَبْقَى مِنْهُ آثَارُ
لَوْ كَانَ يُعْطَى الْمُنَى فِى الْأَمْرِ يُمْكِنُهُ ... لَمَا أَغَبَّكَ – يَوْمًا – مِنْهُ زَوَّارُ [٢]
فَلَا يَرِيبَنْكَ فِى ذِكْرِ الصَّدِيقِ بِهِ ... مَنْ لَيْسَ يَجْهَلُ أَنَّ الدَّهْرَ دَوَّارُ

---

(١) لو كان لى الخيار فيما تهواه وتحبه لما جرى القدر بما يسوءك ويبعثك على الشكوى ، ولكنه قدر لا سبيل إلى ردّه ، وفتنة تضل فى غياهبها العقول وتعمى الأبصار

(٢) لو كان الأمر بيدى لما تخلفت عن زيارتك يوماً واحداً

في الغــــزل

وَضــحَ الحَقُّ المُبِينُ وَنَفَىٰ الشَّكَّ اليَقِينُ

وَرَأَى الأَعْدَاءُ مَا غَرَّ تَهُـــمُ مِنْهُ الظُّنُونُ

أَمَّلُوا مَا لَيْسَ يُغْـنِي وَرَجَوْا مَا لاَ يَكُونُ

وَتَمَنَّوْا أَنْ يَخُونَ الْــ ـــعَهْدَ مَوْلًى لاَ يَخُونُ (١)

فَإِذَا الْغَيْبُ سَلِيمٌ وَإِذَا الْوُدُّ مَصُونُ (٢)

***

قُلْ لِمَنْ دَانَ بِهَجْرِي وَهَوَاهُ لِيَ دِينُ

يَا جَوَاداً بِيَ إِنِّي بِكَ وَاللهِ ضَنِينُ

أَرْخَصَ الحُبُّ فُؤَادِي لَكَ وَالْعِلْقُ (٣) ثَمِينُ

***

يَا هِــلاَلاً تَتَرَا ءَاهُ نُفُوسٌ لاَ عُيُونُ

عَجَباً لِلقَلْبِ يَقْسُو مِنْكَ وَالْقَدُّ يَلِينُ (٤)

مَا الَّذِي ضَرَّكَ لَوْ سُـــرَّ بِمَرْآكَ الحَزِينُ

وَتَلَطَّفْتَ لِصَــبٍّ حَيْنُهُ (٥) فِيكَ يَحِينُ

فَوُجُوهُ اللَّفْظِ شَتَّى وَالمَعَاذِيرُ فُنُونُ (٦)

---

(١) وفى رواية : وتمنوا أن يخون الــ ــعبد مولى لا يخون

(٢) فخاب ظن الأعداء وظهر أنى لم أخن لمولاى عهداً ، وأن إخلاصى ووفائى لها سليمان وودى له لا يتغير

(٣) النفيس، وفى رواية : « والعلق الثمين » .

(٤) وفى رواية « والعطف يلين ». (٥) هلاكه . (٦) شتى .

فى مدح ابن جهور

قال يمدح الوزير الأجل محمد بن جهور بن محمد بن جهور :

أَمَا عَلِمَتْ أَنَّ الشَّفِيعَ شَبَابُ ... فَيَقْصُرَ عَنْ لَوْمِ الْمُحِبِّ عِتَابُ (١)

عَلَامَ الصِّبَا غَضٌّ يَرِفُّ رُوَاؤُهُ ... إِذَا عَنَّ مِنْ وَصْلِ الْحِسَانِ ذَهَابُ (٢)

وَفِيمَ الْهَوَى مَحْضٌ يَشِفُّ صَفَاؤُهُ ... إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُنَّ عَنْهُ ثَوَابُ (٣)

وَمُسْعِفَةٍ بِالْوَصْلِ إِذْ مَرْبَعُ الْحِمَى ... لَهَا كُلَّمَا قِظْنَا الْجَنَابَ جَنَابُ (٤)

تَظُنُّ النَّوَى تَعْدُو الْهَوَى عَنْ مَزَارِهَا ... وَدَاعِي الْهَوَى نَحْوَ الْبَعِيدِ مُجَابُ (٥)

---

(١) ألم تعلم أن خير شافع المحب إذا حى دنا هو غضارة شبابه ، وأن الشباب لحسنه فى الأعين ولما فيه من الترفه والخفة يعتبر شفيعا فى تخفيف العقوبة وتنزيلها من لوم عنيف إلى عتاب خفيف يلطف مدخله على القلب ، وإذ كان الشباب خير شافع للحسان فما أجدرهن بالاقصار عن اللوم ، وما أبدع قول علقمة :

فإن تسألونى بالنساء ، فإننى ... خبير بأدواء النساء طبيب

إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله ... فليس له فى ودهن نصيب

يردن ثراء المال حيث وجدنه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب

(٢) غض : طرى ناعم ، يرفّ رواؤه : يترقرق فيه ماء الحسن ، والرواء الحسن ، ومعنى البيت : وما قيمة الشباب وغضارة الصبا إذا اخفقا فى ترغيب الحسان وعجزا عن اكتساب ودهن .

(٣) محض : خالص لا شائبة فيه ، ويشف من شفوف الماء أى يبدى ما وراءه أى وفيم حبا خالص لا يشوب صفاءه كدر إذا لم يكن من الحسان مثوبة عنه وجزاء عليه .

(٤) المربع : الموضع الذى ينزلون فيه زمن الربيع ، والحمى : موضع فيه كلأ يحميه أهله من أن يرعاه غيرهم ، وقظنا : من القيظ وهو صميم الصيف يقال قظنا بمكان كذا أى أقمنا فيه زمن الصيف والمقيظ والمصيف بمعنى واحد ، والجناب الأول ما قرب من محلة القوم أى قظنا فى المكان القريب من الحمى واتخذناه مصيفاً لنا ، والجناب الثانى الناحية ، أى رب حسناء تسعفنى بوصلها كلما اتخذنا جانب الحمى مصيفاً لنا وكانت لها ناحية الحمى سكناً فى زمن الربيع ، وفى هذا البيت جناس متكلف كما ترى .

(٥) تظن مسافة البعد بينى وبينها تصرف نفسى عن زيارتها والحال إن داعى الهوى الذى ينادينى من ناحيتها مجاب الدعوة .

وَقلٍّ لَهَا نِضْوٌ بَرَى مَحْضَهُ السُّرَى ... وَبَهْمَاءَ غُفْلٌ الصَّحْصَحَانِ تجَابُ (١)

إِذَا مَا أَحَبَّ الرَّكْبُ وَجْهًا مَضَوْا لَهُ ... فَهَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَخُبَّ رِكَابُ (٢)

عَرُوبٌ أَلَاحَتْ مِنْ أَعَارِيبِ حِلَّةٍ ... تجَاوَبُ فِيهَا بِالصَّهِيلِ عِرَابُ (٣)

غَيَارَى مِنَ الطَّيْفِ الْمُعَاوِدِ فِي الْكَرَى ... مُشِيحُونَ مِنْ رَجْمِ الظُّنُونِ غِضَابُ (٤)

وَمَاذَا عَلَيْهَا أَنْ يُسَنَّى وَصْلُهَا ... طِعَانٌ - فَإِنْ لَمْ يُغْنِنَا - فَضِرَابُ (٥)

أَلَمْ تَدْرِ أَنَّا لَا نُرَاحُ لِرِيبَةٍ ... إِذَا لَمْ يُلَمَّعْ بِالنَّجِيعِ خِضَابُ (٦)

وَلَا نَنْشَقُ الْعِطْرَ النَّمُومَ أَرِيجُهُ ... إِذَا لَمْ يُشَعْشَعْ بِالْعَجَاجِ مَلَابُ (٧)

---

(١) النضو : المهزول والمراد به البعير الذى أنضاه السفر أى أهزله ، وبرى محضه السرى : أى أذهب لحمه السير بالليل ، والبهماء : الفلاة لايهتدى فيها ، وغفل : أى لا علامة بها ولا أثر يعرف ، والصحصحان : المستوية الجرداء ، أى وقل لهذه المحبوبة النائية بعير أنضاه السفر وفلاة مجهولة لا أثر فيها للعمارة والطرق تجاب وتقطع سيراً لأجلها . (٢) فى معنى هذا البيت قول الشاعر :

وكنت إذا ما جئت ليلى أزورها ... أرى البيد تطوى لى ويدنو بعيدها

(٣) العروب : المطيعة لزوجها المتحببة إليه ، وألاحت : ظهرت أولوحت بطرف شىء من مكان بعيد والأعاريب : الأعراب ، والحلة : مجتمع البيوت ، والعراب : الخيل العربية ، والمعنى : زوجة من طاعة زوجها والتحبب إليه بحيث لا تلتفت إلى غيره . قد لوحت بطرف منديل أو نحوه من ناحية الحلة التى ينزل بها أولئك الأعراب الغيورون حيث ارتبطوا خيولهم وركزوا رماحهم .

(٤) غيارى : جمع غيران من الغيرة وهى الحمية والأنفة . يقال رجل غيور على أهله وكذلك غيران والأنثى غيرى ، والمشيح : الحذر الجد المسرع إليك لمدافعة الموت أو الدفاع عن الحرم ، ومنه قوله .

أبت لى همتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح

وإقدامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح

(٥) يسنى : أى يسهل وييسر ، ومنه تسنى له كذا أى تسهل وتيسر ، وقال الشاعر :

وأعلم علما ليس بالظن انه ... إذا الله سنى عقد شىء تيسرا

والمعنى : وأى تبعة ولوم عليها فى أن يسهل الطريق إلى وصلها مطاعنة بالرماح فإن لم تغن فمضاربة بالسيوف

(٦) نراح : كسحاب من قولهم فلان يراح للمعروف إذا أخذته له أريحية وخفة ، ويلمع أى يلون بلون النجيع أى الدم ، يقول نحن لا نستريح لوصل الغانيات إذا لم ندفع ثمنه من دم الأعداء .

(٧) النموم : مبالغة فى النم كنى به عن سطوع الرائحة ، والأريج : ما يفوح من العطر ، ويشعشع : يختلط ، والعجاج : الغبار ، والملاب : كسحاب العطر ، أى لا نستريح إلى انتشاق عطرهن الساطع الأريج إلا بعد امتشاق الحسام، واختلاط ما تثيره سنابك الخيل من التراب ، بما يفوح من رائحة الملاب ، والمعنى أنه لا يحب أن يظفر بتلك اللذائذ إلا إذا اغتصبها اغتصابا بحد السيف . فهو لا يصل الريبة إلا بالدم ولا ينشق العطر إلا مشوبا بغبار الهيجاء .

وَكَمْ رَاسَلَ الْغَيْرَانُ يُهْدِي وَعِيدَهُ ... فَمَا رَاعَهُ إِلاَّ الطُّرُوقَ جَوَابُ (١)
وَلَمْ يَثْنِنَا أَنَّ الرِّبَابَ عَقِيلَةٌ ... تَسَانَدُ سَعْدٌ دُونَهَا وَرِبَابُ
وَأَنْ رُكِزَتْ حَوْلَ الْخُدُورِ أَسِنَّةٌ ... وَحَفَّتْ بِقُبٍّ السَّابِحَاتِ قِبَابُ (٢)
وَلَوْ نَدْرَ الْحَيَّانِ غِبَّ السُّرَى بِنَا ... لَكَرَّتْ عُطَالَى أَوْ لَعَادَ كُلاَبُ (٣)
وَلَيْلَةَ وَافَتْنَا تَهَادَى فَنَمْتَرِي ... أَيَسْمُو حَبَابٌ أَوْ يَسِيبُ حُبَابُ (٤)
يُعَذِّبُهَا عَضُّ السِّوَارِ بِمِعْصَمٍ ... أَبَانَ لَهَا أَنَّ النَّعِيمَ عَذَابُ
لَأَبْرَحْتُ مِنْ شَيْحَانَ حُطَّ لِثَامُهُ ... إِلَى خَفِرٍ مَا حُطَّ عَنْهُ نِقَابُ (٥)
ثَوَى مِنْهُمَا ثِنْيَ النِّجَادِ مُشَيَّعٌ ... نَجِيدٌ وَمَيْلاءُ الْوِشَاحِ كَعَابُ (٦)

---

(١) الغيران : وصف من الغيرة ، والطروق : طروق الحي بالليل ، وفي التمتع بالوصل رغم الغيور يقول ابن الرومي .

ألا ربما سؤت الغيور وساءني ... وبات كلانا من أخيه على وحر
وقبلت أفواهاً عذاباً كأنها ... ينابيع خمر حصبت لؤلؤ البحر

(٢) القب : جمع قباء وأقب والأقب الضامر من الخيل ، ومعنى هذا البيت والذي قبله لم يصرفنا عن زيارة هذه المحبوبة التي كني عنها بالرباب أن تساند هاتان القبيلتان وتعاونتا دون الوصول إليها .

(٣) نذر به كفرح علمه فحذره وعطالى وكلاب بضم أولهما يومان من أيام العرب ، أي لو علم بسرانا إليها هذان الحيان لكان لنا معهما يومان كيومي عطالى وكلاب في الشهرة والهول .

(٤) يسمو : أي يرتفع للناظر اليه من بعيد فيستبينه وحباب — بالفتح — تموج الماء وطرائقه التي كأنها الوشي أو النسيج وبالضم الحية ، ويسمو الينا حباب بالفتح وهو الماء في تدافعه وتموجه وإحداثه طرائق كطرائق النسيج وهو تمثيل لاختلاس الخطا في المشي ،والمعنى : واذكر ليلة وافتنا مختفية فشك أيقبل نحونا حبيب أو تنساب الينا حية . يقول : لقد كنا لا ندري أتكون ليلتنا ليلة أنس واغتباط بقرب الحبيبة ، أم ليلة حرب وضراب بغزو أعدائنا إيانا ، وسمو الحباب : فيه إشارة إلى قول امرئ القيس :

سموت إليها — بعد ما نام أهلها — ... سمو حباب الماء ، حالا على حال

(٥) لأبرحت : لقد أفرطت في الحذر وتوقع مواثبة العدو ومشاجنه ، والشيحان : الغيور الحذر على الحريم ، والخفر : الحياء ، واللثام : للرجل ، والنقاب : للمرأة ، يقول:لقد وضعت اللثام عن وجهي وتمتعت بحبيب لم يرفع عنه وجهه نقاب لفرط حيائه . ولقد كنت — إلى ذلك — دائم الحذر والتوقع لمواثبة العدو .

(٦) ثوى : أقام ، وثني النجاد : بكسر أولهما أي طي الفرش والوسائد ، والمشيع : كمعظم الشجاع ، والنجيد : الأسد — وهو يعني بذلك نفسه — وميلاء الوشاح : يريد أن وشاحها به ميل وانحدار لنهود ثدييها وضمور كشحيها ، والكعاب : كسحاب التي كعب ثدياها — وهو يعني بها حبيبته — وفي معنى هذا البيت يقول الطغرائي :

وبتنا على رغم الغيور يضمنا ... جميعاً حواشي بردها وردائيا
وكانت إساءات الليالي كثيرة ... فما برحت حتى شكرنا الليالي

يُعَلَّلُ مِنْ إِغْرِيضِ ثَغْرٍ يَعُلُّهُ ... غَرِيضٌ كَمَاءِ الْمُزْنِ وَهْوَ رُضَابُ (١)

إِلَى أَنْ بَدَتْ فِى دُهْمَةِ الْأُفْقِ غُرَّةٌ ... وَنَفَّرَ مِنْ جُنْحِ الظَّلَامِ غُرَابُ (٢)

وَقَدْ كَادَتِ الْجَوْزَاءُ تَهْوِى فَخِلْتُهَا ... ثَنَاهَا مِنَ الشِّعْرَى الْعَبُورِ جَنَابُ (٣)

كَأَنَّ الثُّرَيَّا رَايَةٌ مُشْرِعٌ لَهَا ... جَبَانٌ يُرِيدُ الطَّعْنَ ثُمَّ يَهَابُ

كَأَنَّ سُهَيْلاً فِى رَبَاوَةِ أُفْقِهِ ... مُسِيمُ نُجُومٍ حَانَ مِنْهُ إِيَابُ (٤)

كَأَنَّ السُّهَا فَانِى الْحُشَاشَةِ شَفَّهُ ... ضَـنًى فَخُفَاتٌ مَرَّةً وَمَثَابُ

كَأَنَّ الصَّبَاحَ اسْتَقْبَسَ الشَّمْسَ نَارَهَا ... فَجَاءَ لَهُ مِنْ مُشْتَرِيهِ شِهَابُ

كَأَنَّ إِيَاةَ الشَّمْسِ بِشْرُ ابْنِ «جَهْوَرٍ» ... إِذَا بَذَلَ الْأَمْوَالَ وَهْىَ رِغَابُ (٥)

هُوَ الْبِشْرُ شِمْنَا مِنْهُ بَرْقَ غَمَامَةٍ ... لَهَا بِاللُّهَا فِى الْمُعْتَفِينَ مَصَابُ (٦)

---

(١) يعلل : أى يكرر من التمليل وهو جنى الثمرة مرة بعد مرة ، ومنه قول امرئ القيس :

فقلت لها سيري وأرخى زمامه ... ولا تبعديني من جناك المعلل

والأغريض : الطلع حمل ما ناله مكررا من تقبيلها بمنزلة إغريض أبيض حلو تكرر جناه ، ويعله أى يسقيه مكررا ، والغريض : ماء الأسنان ، والرضاب : الريق المرشوف ، قالوا : وهو الريق ما دام فى الفم .

(٢) الدهمة : سواد الليل ، والغرة : بياض الصبح ، شبه الصبح فى استعجاله الدجى بمن يطير غرابا ، ونظير هذا قول ابن المعتز :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى ... نطير غرابا ذا قوادم جون

(٣) الجوزاء : نجم يعترض فى جوز السماء أى وسطه ، والشعرى : شعريان « إحداهما » الشعرى العبور وهى كوكب يطلع بعد الجوزاء وسميت العبور لأنها — كما يقال — عبرت السماء عرضاً ولم يعبر السماء عرضا غيرها وهى التى عبدها طائفة من العرب فى الجاهلية ، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى « وأنه هو رب الشعرى » أى التى تعبدونها « والثانية » الغميصاء تقول العرب فى أحاديثها لأنها غمصت من بكائها على العبور ، وثناها : عطفها ، والجناب : الناحية والفناء .

(٤) سهيل نجم ، ورباوة أفقه ما ارتفع منه ، ومسيم : اسم فاعل من أسام الابل أى أرعاها ، شبه سهيلا فى انحداره آخر الليل وراء النجوم براع حان منه رجوع ورواح .

(٥) إياة الشمس : بكسر الهمزة وفتحها ضوءها وحسنها .

(٦) اللها : بالضم العطايا ، والمعتفى : كالعافى طالب الفضل والجود ، والمصاب : بالفتح نزول المطر مصدر ميمى من صاب المطر يصوب إذا نز

جَوَادٌ مَتَى اُسْتَعْجَلْتَ أُولَى هِبَاتِهِ ... كَفَاكَ مِنَ الْبَحْرِ الْخِضَمِّ عُبَابُ

غَنِيٌّ عَنِ الإِبْسَاسِ دَرُّ نَوَالِهِ ... إِذَا اُسْتَنْزَلَ الدَّرَّ الْبَكِيءِ عِصَابُ [(1)]

إِذَا حَسَبَ النَّيْلَ الزَّهِيدَ مُنِيلُهُ ... فَمَا لِعَطَايَاهُ الْحِسَابِ حِسَابُ [(2)]

عَطَايَا يُصِيبُ الحَاسِدُونَ بِحَمْدِهِ ... عَلَيْهَا ، وَلَمْ يُحْبَوْا بِهَا فَيُحَابُوا

مُوَطَّأُ أَكْنَافِ السَّمَاحِ دَنَتْ بِهِ ... خَلَائِقُ زُهْرٌ إِذْ أَنَافَ نِصَابُ [(3)]

فَزُرْهُ تَزُرْ أَكْنَافَ غَنَّاءَ طَلَّةٍ ... أَرَبَّتْ بِهَا لِلْمَكْرُمَاتِ رَبَابُ [(4)]

زَعِيمُ المَسَاعِي أَنْ تَلِينَ شَدَائِدٌ ... يُمَارِسُهَا أَوْ أَنْ تَلِينَ صِعَابُ

مَهِيبٌ يُغَضُّ الطَّرْفُ مِنْهُ لِآذِنٍ ... مَهَابَتُهُ دُونَ الْحِجَابِ حِجَابُ [(5)]

لِأَبْلَجَ مَوْفُورِ الجَلَالِ إِذَا اُحْتَبَى ... عَلَا نَظَرٌ مِنْهُ وَعَزَّ خِطَابُ

وَذِي تُدْرَإٍ يَعْدُو الْعِدَا عَنْ قِرَاعِهِ ... غِلَابٌ فَهُمَا عَزَّهُ فَخِلَابُ [(6)]

إِذَا هُوَ أَمْضَى الْعَزْمَ لَمْ يَكُ هَفْوَةً ... يُؤَثِّرُ عَنْهَا فِي الْأَنَامِلِ نَابُ [(7)]

---

(١) الناقة البسوس : هى التى لا تدر إلا على الابساس بأن يقال لها « بس بس » تسكيناً لها ، والدر اللبن ، والبكئ الناقة التى قل لبنها ، والعصاب : بالكسر شد فخذى الناقة لتدر . يقول : إن نواله قريب ميسور لا يكلفك مشقة ولا يحوجك إلى إلحاف . (٢) حسب : عد ، والحساب : بالكسر بمعنى الكثيرة الكافية صفة لعطاياه ، ومنه قوله تعالى « عطاء حسابا » أى كافياً ، والمعنى : إذا عد العطاء القليل منيله ومعطيه ليحصيه فما لعطاياه الكثيرة الكافية عد ولا إحصاء .

(٣) يقال رجل موطأ الأكناف : كمعظم أى سهل دمث الأخلاق سمح كريم ، والنصاب : كالمنصب الأصل ، والمعنى : أنه سهل جوانب السماح يقربه منك ويدنو به إليك دماثة أخلاقه وإن علا منصبه وسما أصله

(٤) الغناء : الكثيرة الشجر ، والطلة : الروضة بللها الطل ، وأربت : من أرب بالمكان إذا لزمه والرباب السحاب . (٥) يقول إن ابن جهور مهيب يغضى من مهابته ومع هذا فهو يغض طرفه حياء ، وهذا قريب من قول الفرزدق :

« يغضى حياء ، ويغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم »

(٦) ذو تدرأ : بضم أوله أى صاحب عدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه ، وغلاب : أى مغالبة ، وعزه : غلبه ، وخلاب : من خلبه إذا خدعه ، وفى المثل « إذا لم تغلب فاخلب »

(٧) يقول إذا أمضى العزم لم يك إمضاؤه هفوة يعض عليها أنامله ندماً وغيظاً

عَزَائِمُ يَنْصَاعُ الْعِدَا عَنْ مُمِرِّهَا كَمَا رُهِبَتْ يَوْمَ النِّضَالِ رِهَابُ (١)

صَوَائِبُ ، رِيشُ النَّصْرِ فِي جَنَبَاتِهَا لُؤَامٌ ، وَرِيشُ الطَّائِشَاتِ لُغَابُ (٢)

حَلِيمٌ تَلاَفَى الْجَاهِلِينَ أَنَاتُهُ إِذَا الْحِلْمُ عَنْ بَعْضِ الذُّنُوبِ عِقَابُ (٣)

إِذَا عَثَرَ الْجَانِي عَفَا عَفْوَ حَافِظٍ بِنُعْمَى لَهَا فِي الْمُذْنِبِينَ ذِنَابُ (٤)

شَهَامَةُ نَفْسٍ فِي سَلاَمَةِ مَذْهَبٍ كَمَا الْمَاءُ لِلرَّاحِ الشَّمُولِ قِطَابُ (٥)

« بَنِي جَهْوَرٍ » مَهْمَا فَخَرْتُمْ بِأَوَّلٍ فَسِرٌّ مِنَ الْمَجْدِ التَّلِيدِ لُبَابُ

حَطَطْتُمْ بِحَيْثُ اسْلَنْطَحَتْ سَاحَةُ الْعُلاَ وَأَوْفَتْ لِأَخْطَارِ السَّنَاءِ هِضَابُ

بِكُمْ بَاهَتِ الْأَرْضُ السَّمَاءَ فَأَوْجُهٌ شُمُوسٌ وَأَيْدٍ فِي الْمُحُولِ سَحَابُ

* * *

أَشَارِحَ مَغْنَى الْمَجْدِ وَهْوَ مُعَمَّسٌ وَعَامِرَ مَغْنَى الْحَمْدِ وَهْوَ خَرَابُ (٦)

مُحَيَّاكَ بَدْرٌ وَالْبُدُورُ أَهِلَّةٌ وَيُمْنَاكَ بَحْرٌ وَالْبُحُورُ ثِعَابُ (٧)

رَأَيْتُكَ جَارَاكَ الْوَرَى فَغَلَبْتَهُمْ لِذَلِكَ « جَرْيُ الْمُذْكِيَاتِ غِلاَبُ » (٨)

---

(١) الانصياع الرجوع أي يرجع الأعداء عما أمره من العزائم خوفا ورهبة كما رهبت يوم النضال رهاب أي نصال رقيقة جمع رهب كجبل . (٢) صوائب : صفة العزائم في البيت قبله يريد أنها عزائم صائبة كالسهام ، واللغاب : ريش السهم إذا لم يعتدل فاذا اعتدل فهو لؤام . (٣) وهذا قريب من قول المتنبي :

« ترفق أيها المولى عليهم فان الرفق بالجاني عتاب »

(٤) الذناب : بالكسر خيط يشد به ذنب البعير لئلا يخطر به أي يحركه يميناً وشمالا فيملأ راكبه ، أي أنه بما يسديه إلى الجناة من نعمى يمنعهم من الوقوع في الذنب كما يمنع الذناب ذنب البعير عن تلويث راكبه بخطرانه

(٥) قطاب : بالكسر مزاج . (٦) معمس : خفي مشتبه ، والمغنى : المنزل .

(٧) ثعاب : بالكسر جمع ثعب وهو الغدير . أو هو مسيل الوادي ، وجمعه ثعاب ، قال ابن دريد :

« والناس ضحضاح ثعاب وأضى » ويجمع أيضاً على ثعبان ، قال الحريري في أحاجيه التي ذكرها في مقاماته : « أيجوز الوضوء من ماء الثعبان » فقيل : « وهل أحسن منه للعريان »

(٨) والمذكيات — والمذكيات بالتضعيف — الخيل التي بلغت تمام السن ونهاية الشباب وفي المثل : « جري المذكيات غلاب » أي أن تغالب الجري غلابها

فَقَرَّتْ بِهَا مِنْ أَوْلِيَائِكَ أَعْيُنٌ   وَذَلَّتْ لَهَا مِنْ حَاسِدِيكَ رِقَابُ

***

فَتَحْتَ الْمُنَى مِنْ بَعْدِ إِلْهَامِنَا بِهَا   وَقَدْ ضَاعَ إِقْلِيدٌ وَأُبْهِمَ بَابُ (١)

مَدَدْتَ ظِلَالَ الْأَمْنِ تَخْضَرُّ تَحْتَهَا   مِنَ الْعَيْشِ فِي أَعْدَى الْبِقَاعِ شِعَابُ (٢)

حِمًى سَالَمَتْ فِيهِ الْبُغَاثَ جَوَارِحٌ   وَكَفَّتْ عَنِ الْبَهْمِ الرِّتَاعِ ذِئَابُ (٣)

فَلَا زِلْتَ تَسْعَى سَعْيَ مَنْ حَظُّ سَعْيِهِ   نَجَاحٌ وَحَظُّ الشَّانِئِيهِ تَبَابُ

فَإِنَّكَ لِلدِّينِ الشَّعِيبِ لَمَلْأَمٌ   وَإِنَّكَ لِلْمُلْكِ الثَّأَى لَرِئَابُ (٤)

إِذَا مَعْشَرٌ أَلْهَاهُمُ جُلَسَاؤُهُمْ   فَلَهْوُكَ ذِكْرٌ وَالْجَلِيسُ كِتَابُ (٥)

نُعَزِّيكَ عَنْ شَهْرِ الصِّيَامِ الَّذِي انْقَضَى   فَإِنَّكَ مَفْجُوعٌ بِهِ فَمُصَابُ

هُوَ الزَّوْرُ لَوْ تُعْطَى الْمُنَى وَضَعَ الْعَصَا   لِيَزْدَادَ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ مُثَابُ

شَهِدْتَ لِأَدَّى مِنْكَ وَاجِبَ فَرْضِهِ   عَلِيمٌ بِمَا يُرْضِي الْإِلٰهَ نِقَابُ (٦)

وَجَاوَرْتَ بَيْتَ اللّٰهِ أُنْسًا بِمَعْشَرٍ   خَشُوهُ فَخَرُّوا رُكَّعًا وَأَنَابُوا

لَقَدْ جَدَّ إِخْبَاتٌ وَحَقَّ تَبَتُّلٌ   وَبَالَغَ إِخْلَاصٌ وَصَحَّ مَتَابُ (٧)

---

(١) إبهام : الباب إغلاقه ، وباب : مبهم أي مغلق ، والإقليد : المفتاح .

(٢) أعدى : أفعل تفضيل من عديت الأرض يقال أرض عداة وهي الطيبة التربة الخامة من الزرع البعيدة من ماء الأنهار والجداول ، والشعاب : جمع شعب بالكسر وهو الطريق في الجبل ومسيل الماء ، يقول أنه مد ظلال الأمن على البلاد النائية ، وجعل الخصب يمتد إلى الجهات البعيدة من مياه الأنهار .

(٣) البغاث : ضعاف الطير ، البهم : واحدتها بهمة بالفتح وهي أولاد الضأن والمعز والبقر . وهذا البيت من أبدع ما قرأناه في وصف استتباب الأمن . (٤) الشعيب : المتفرق ، والثأى : الفاسد من ثأى يثأى فهو ثأ كجدر إذا فسد ، ورئاب : جمع رؤبة وهي القطعة من الخشب يشعب بها الاناء ويسد بها ثلمة الجفنة

(٥) يشير إلى قول المتنبي: « وخير جليس في الزمان كتاب »

(٦) النقاب : بالكسر العالم بالأمور .

(٧) الاخبات : مصدر اخبت إلى ربه اطمأن إليه وتخشع وتواضع ، والتبتل : الانقطاع إلى الله تعالى

سَيَخْلُدُ فى الدُّنْيَا بِهِ لَكَ مَفْخَرٌ ... وَيَحْسُنُ فِي دَارِ الْخُلُودِ مَآبُ

وَبُشْرَاكَ أَعْيَادٌ سَيَنْمِي اطِّرَادُهَا ... كَمَا اطَّرَدَتْ فى السَّمْهَرِيِّ كِعَابُ

تَرَى مِنْكَ سَرْوَ الْمُلْكِ فى قَشَفِ التُّقَى ... فَيَبْرُقُهَا مَرْأَى هُنَاكَ عُجَابُ

فَأَبْلِ وَأَخْلِفْ إِنَّمَا أَنْتَ لَابِسٌ ... لِهَذِى اللَّيَالِى الْغُرِّ وَهْيَ ثِيَابُ

فَدَيْتُكَ كَمْ أَلْقَى الْفَوَاغِرَ مِنْ عِدًا ... قِرَاهُمْ لِنِيرَانِ الْفَسَادِ ثِقَابُ (١)

عَفَا عَنْهُمُ قَدْرِى الرَّفِيعُ فَأَهْجَرُوا ... وَبَايَنَهُمْ خُلْقِى الْجَمِيلُ فَعَابُوا

وَقَدْ تُسْمِعُ اللَّيْثَ الْجِحَاشُ نَهِيقَهَا ... وَتُعْلِي إِلَى الْبَدْرِ النُّبَاحَ كِلَابُ

إِذَا رَاقَ حُسْنُ الرَّوْضِ أَوْ فَاحَ طِيبُهُ ... فَمَا ضَرَّهُ أَنْ طَنَّ فِيهِ ذُبَابُ

فَلَا بَرِحَتْ تِلْكَ الضَّغَائِنُ إِنَّهَا ... أَفَاعٍ لَهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ لِصَابُ (٢)

يَقُولُونَ شَرِّقْ أَوْ فَغَرِّبْ صَرِيمَةً ... إِلَى حَيْثُ آمَالُ النُّفُوسِ نِهَابُ (٣)

فَأَنْتَ الْحُسَامُ الْعَضْبُ أُصْدِئَ مَتْنُهُ ... وَعُطِّلَ مِنْهُ مَضْرَبٌ وَذُبَابُ (٤)

وَمَا السَّيْفُ مِمَّا يُسْتَبَانُ مَضَاؤُهُ ... إِذَا حَازَ جَفْنٌ حَدَّهُ وَقِرَابُ

وَإِنَّ الَّذِى أَمَّلْتُ كُدِّرَ صَفْوُهُ ... فَأَضْحَى الرِّضَا بِالسُّخْطِ مِنْهُ يُشَابُ

وَقَدْ أَخْلَفَتْ مِمَّا ظَنَنْتُ مَخَايِلٌ ... وَقَدْ صَفِرَتْ مِمَّا رَجَوْتُ وِطَابُ

فَمَنْ لِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ عَلَيْهِمُ ... إِذَا لَجَّ بِالْخَصْمِ الْأَلَدِّ شِغَابُ

لِيُخْزِهِمْ إِنْ لَمْ تَرِدْنِي نَبْوَةٌ ... يُسَاءُ الْفَتَى مِنْ مِثْلِهَا وَيُرَابُ

---

(١) الفواغر : جمع فاغرة من فغرفاه إذا فتحه أراد بها المخاوف ، والثقاب : ما أثقبت به النار[واشعلتها به من صعار الميدان . يقول : نفسى فداؤك ، كم ألقى الكوارث من أعداء خبثاء دوى مكر خفى فى تدبير الفتن ، ودهاء فى نصب الشراك . (٢) لصاب : بالكسر من لصب الجلد باللحم لزق به من شدة الهزال يريد ان ما يحملونه من ضغن له لذع فى صدورهم كلذع الأفاعى سبب لهم الهزال .

(٣) الصريمة : العزيمة وقطع الأمر ، والنهاب : بالكسر الغنائم جمع نهب .

(٤) مضرب السيف : بالفتح والكسر ، وذبابه : بالضم حده .

فَقَدْ تَتَغَشَّى صَفْحَةَ المَاءِ كُدْرَةٌ ... وَيَغْطُو عَلَى ضَوْءِ النَّهَارِ ضَبَابُ (١)

سُرُورُ الْغِنَى مَا لَمْ يَكُنْ مِنْكَ حَسْرَةٌ ... وَأَرْىُ الْمُنَى مَا لَمْ تُنَلْ بِكَ صَابُ (٢)

وَإِنْ يَكُ فِى أَهْلِ الزَّمَانِ مُؤَمَّلٌ ... فَأَنْتَ الشَّرَابُ الْعَذْبُ وَهْوَ سَرَابُ

أَيَعْوَرُ مِنْ جَارِ السَّمَا كَيْنِ جَانِبٌ ... وَيُعْزَزُ فِى ظِلِّ الرَّبِيعِ جَنَابُ (٣)

فَأَيْنَ ثَنَائِى يَهْرَمُ الدَّهْرُ كَبْرَةً ... وَحِلْيَتُهُ فِى الْغَابِرِينَ شَبَابُ

سَأَبْكِى عَلَى حَظِّى لَدَيْكَ كَمَا بَكَى ... رَبِيعَةُ لَمَّا ضَلَّ عَنْهُ ذُؤَابُ

وَأَشْكُو نُبُوَّ الْجَنْبِ عَنْ كُلِّ مَضْجَعٍ ... كَمَا يَتَجَافَى بِالْأَسِيرِ ظِرَابُ (٤)

فَثِقْ بِهِزَبْرِ الشِّعْرِ وَاصْفَحْ عَنِ الْوَرَى ... فَإِنَّهُمُ ـ إِلَّا الْأَقَلَّ ـ ذُبَابُ

وَلَا تَعْدِلِ الْمُثْنِينَ بِى فَأَنَا الَّذِى ... إِذَا حَضَرَ الْعُقْمُ الشَّوَارِدُ غَابُوا

يَنُوبُ عَنِ الْمُدَّاحِ مِنِّىَ وَاحِدٌ ... جَمِيعُ الْخِصَالِ لَيْسَ عَنْهُ مَنَابُ

وَرَدْتُ مَعِينَ الطَّبْعِ إِذْ زِيدَ دُونَهُ ... أُنَاسٌ لَهُمْ فِى حَجْرَتَيْهِ لُوَابُ (٥)

وَنَجَّذَنِى عِلْمٌ تَوَالَتْ فُنُونُهُ ... كَمَا يَتَوَالَى فِى النِّظَامِ سِخَابُ (٦)

فَمُدَّ بِيَدٍ بَيْضَاءَ يَصْدَعُ صِدْقُهَا ... وَإِنَّ أَرَاجِيفَ الْعُدَاةِ كِذَابُ

وَحَاشَاكَ مِنْ أَنْ تُسْتَمَرَّ مَرِيرَةٌ ... لِعَهْدِكَ أَوْ يَخْفَى عَلَيْكَ صَوَابُ (٧)

---

(١) غطا يغطو : ستر والضباب سحاب رقيق يشبه الدخان .

(٢) الأرى : العسل ، والصاب : شجر مر واحدته صابة .

(٣) يعور : من أعور المكان إذا بدت منه عورة ، ويعز : أى صلب ومنه المعزاء للأرض الصلبة .

(٤) الظرب : ككتف ما نتأ من الحجارة وحد طرفه والجمع ظراب بالكسر .

(٥) زيد : بالبناء للمجهول منع ، والحجرة : بفتح فسكون الناحية ، ولواب : بالضم عطش ، والمعنى : أنه طبع على الشعر وورد معين الطبع فى حين أن غيره من الشعراء حبس عن وروده وله فى حاجبيه لواب أى عطش

(٦) المنجذ : كمعظم الذى جرب الأمور وقاسها بعقله وعلمته التجارب ومثله المنجد بالدال المعجمة ، والسخاب : بالكسر العقد . (٧) المرير : والمريرة الحبل ، والاستمرار إحكام فتله ، يقول حاشاك أن أدعوك إلى إصلاح حادث من عهدك ، أو يخفى عليك وجه الصواب

بعـــد خمسمائة يوم فى السجن

« نظم ابن زيدون هذه القصيدة فى مدح ابن جهور واستعطافه ، وقد وردت فى آخر رسالته الجدية التى بعث بها إلى ابن جهور [١] بعد أن مهد لتلك القصيدة بقوله مخاطبا ابن جهور :

وإنك إن سنيت عقد أمرى تيسر [٢] ، ومتى أعذرت [٣] فى فك أسرى لم يتعذر ، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة ، والشفاعة زكاة المروءة ، وفضل الجاه تعود به صدقة [٤]

وإذا امرؤ أهدى إليك صنيعة من جاهه ، فكأنها من ماله

لعلى ألقى العصا بذراك [٥] ، وتستقر بى النوى فى ظلك ، وأستأنف التأدب بأدبك ، والاحتمال على مذهبك ، فلا أوجد للحاسد مجال لحظه [٦] ، ولا أدع لقادح مساغ لفظه ، والله ميسرك من إطلاقى [٧] بهذه الطلبة ، واشكائى من هذه الشكوى لصنيعة تصيب منها مكان المصنع ، وتستودعها أحفظ مستودع ، حسبما أنت خليق له ، وأنا منك حرى به ، وذلك بيده ، وهين عليه .

ولما توالت غرر هذا النثر واتسقت [٨] درره ، فهز عطف غلوائه ، وجر ذيل خيلائه [٩] ، عارضه النظم مباهيا ، بل كايده مداهيا ، حين أشفق من أن يعطفك استعطافه ، وتميل بنفسك الطافه ، فاستحسن العائدة منه ، واعتد بالفائدة له ، وما زال

---

(١) وقد أثبتنا هذه الرسالة فى مكان آخر من الكتاب فليرجع إليها القارئ إذا شاء .

(٢) ان يسرت ما تعقد من أمرى تيسر وسهل . (٣) قبلت العذر .

(٤) قال الشاعر :

قد قضت العقول أن الشفقه على الصديق والعدو صدقه
وأفضل العالم عند الله من ساعد الناس بفضل الجاه
ومن أغاث البائس الملهوفا أغاثه الله إذا أخيفا

(٥) فى كنفك . (٦) فلا يجد الحاسد سبيلا إلى الشماتة بى وتمتعه بالنظر إلىّ وأنا منكوب

(٧) أسعافى وانالتى ما أبتغيه . (٨) انتظمت . (٩) كبره وزهوه .

يستكد الذهن العليل ، والخاطر الكليل حتى زف إليك عروسا مجلوة في أثوابها ، منصوصة (١) بحليها وملابها (٢) وهاهي القصيدة »

الْهَوَى فِى طلوعِ تِلْكَ النُّجُومِ ... وَالْمُنَى فِى هُبُوبِ ذَاكَ النَّسِيمِ
مَرَّنَا عَيْشُنَا الرَّقِيقُ الْحَوَاشِى ... لَوْ يَدُومُ السُّرُورُ لِلْمُسْتَدِيمِ
وَطَرٌ مَا انْقَضَى إِلَى أَنْ تَقَضَّى ... زَمَنٌ مَا ذِمَامُهُ (٣) بِالذَّمِيمِ (٤)
إِذْ خِتَامُ الرِّضَا الْمُسَوَّغِ مِسْـ ... ـكٌ زَاجُ الْوِصَالِ مِنْ تَسْنِيمِ
وَغَرِيضُ الدَّلَالِ (٥) غَضٌّ (٦) جَنَى الصَّبْـ ... ـوَةِ (٧) نَشْوَانُ مِنْ سُلَافِ (٨) النَّعِيمِ
طَالَمَا نَافِرَ الْهَوَى (٩) مِنْهُ غِرٌّ (١٠) ... لَمْ يَطُلْ عَهْدُ جِيدِهِ بِالتَّمِيمِ (١١)

* * *

أَيُّهَا الْمُؤْذِنِى بِظُلْمِ اللَّيَالِى ... لَيْسَ يَوْمِى بِوَاحِدٍ مِنْ ظَلُومِ (١٢)
قَمَرُ الْأُفْقِ ـ إِنْ تَأَمَّلْتَ ـ وَالشَّمْـ ... ـسُ هُمَا يُكْسَفَانِ دُونَ النُّجُومِ

---

(١) مرصوعة .

(٢) الملاب : الزعفران . قال الشاعر : « كالحقة الصفراء صاك عبيرها بملابها »

(٣) ذمامه : عهده . (٤) لم يقض لنا وطر من السرور بتلك الحياة الناعمة والعيش الرغد حتى تولى ذلك الزمن غير مذموم العهد . (٥) وذلك الدلال اللطيف الحسن .

(٦) الغض : الطرى ، الناعم : الناضر . (٧) الهوى . (٨) خمر .

(٩) نافر الهوى : عاصيه . (١٠) لم يجرب الأمور .

(١١) التميم : جمع تميمة ، وهى العوذ : جمع عوذة . أى الخرزات ونحوها مما يعلق على الصبي ليقى به العين ، وقد أنكر الاسلام ذلك ، وفى هذا يقول القائل :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

ومعنى ذلك البيت : أن حبيبه قد عاصى الهوى وجافاه لأنه غر حدث لا يزال قريب العهد بالتمائم ، فهو لا ينفك كالغزال النافر لغرارته وحداثة عهده .

(١٢) أيها المخيفي بما تدخره لى الليالى من كيد ، رويدك لا تخفنى بذلك فلست بحانق يوما على دهرى لأنى ألفت منه الظلم دائماً

وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُّ يَنْحُو ... بِالْمُصَابِ الْعَظِيمِ نَحْوَ الْعَظِيمِ (١)

***

بَوَّأَ اللهُ «جَهْوَراً» شَرَفَ السُّو ... دَدِ فِى السَّرْوِ (٢) وَاللُّبَابِ الصَّمِيمِ (٣)

وَاحِدٌ سَلَّمَ الْجَمِيعُ لَهُ الْأَمْـ ... ـرَ، فَكَانَ الْخُصُوصُ (٤) وَفْقَ الْعُمُومِ (٥)

قَلَّدَ الْغُمْرُ (٦) ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ ... وَاكْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ الْعَلِيمِ (٧)

خَطَرٌ يَقْتَضِي الْكَمَالَ بِنَوْعَيْـ ... خُلُقٍ بَارِعٍ وَخَلْقٍ وَسِيمِ (٨)

***

أَيُّهَا ذَا الْوَزِيرُ هَا أَنَا أَشْكُو ... وَالْعَصَا بَدْءُ قَرْعِهَا لِلْحَلِيمِ (٩)

---

(١) أكثر الشعراء من ذكر هذا المعنى فى صور مختلفة ، وكادوا يذكرونه بعض هذه الألفاظ ، وقد ذكره أبو تمام بأسلوب آخر فقال :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالى

ومنه قول أبى العلاء :

والخطب يهتاج الجليل وكم شكا ... نبأ على ، ما شكاه قنبر

(٢) المروءة . (٣) المحض : الخالص . (٤) الخصوص : الخاصة ، قال الشاعر :

ابلغ خليلى عبد هند فلا ... زلت قريباً من سواد الخصوص

(٥) اتفق الخاصة والعامة على تسليمه مقاليد الأمور (٦) الغمر : بالضم والفتح ، الذى لم يجرب الأمور

(٧) سلم الجميع مقاليد أمورهم إليه ، واتفق عامتهم وخاصتهم على الاعتراف له بالفضل فأولو العلم عرفوا بالعلم فضله ، ثم قلدهم فى ذلك الجاهلون ، واكتفى الغمر الجاهل بعلم الخبير المجرب ، قالوا : وابن زيدون ينظر من طرف خفى إلى قول البحترى :

ودوو الفضل مجمعون على فضـ ... ـلك من بين سيد ومسود

عرف العالمون فضلك بالعلـ ... ـم وقال الجهال بالتقليد

(٨) خطر : شرف وارتفاع قدر ، وعلوّ منزلة ، يقتضى الكمال : يستلزم الكمال وبلوغ الغاية لما أحرزه من جمال السجايا ، ووسامة الخلقة .

(٩) والعصا بدء قرعها للحليم : تضمين للمثل العربى المشهور : « إنّ العصا قرعت لذى الحلم » وهم يضربون هذا المثل للذكي الذى إذا نبهته انتبه

مَا عَنَانَا أَنْ يَأْنَفَ السَّابِقُ المَرْ ... بَطَ فِى العِتْقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ (١)
وَبَقَاءُ الحُسَامِ فِى الجَفْنِ يُثْنِى ... مِنْهُ بَعْدَ المَضَاءِ وَالتَّصْمِيمِ
أَفَصَبْرٌ مِئِينَ خَمْساً مِنَ الأَيَّا ... مِ ، نَاهِيكَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمِ
وَمُعَنًّى مِنَ الضَّنَى بِهَنَاتٍ ... نَكَأَتْ بِالكُلُومِ قَرْحَ الكُلُومِ (٢)
سَقَمٌ لاَ أُعَادُ فِيهِ وَفِى العَا ... ئِدِ أُنْسٌ يَفِى بِبُرْءِ السَّقِيمِ (٣)
نَارُ بَغْيٍ سَرَى إِلَى جَنَّةِ الأَمْ ... نِ لَظَاهَا فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٤)

*
* *

بِأَبِى أَنْتَ - إِنْ تَشَأْ - تَكُ بَرْداً ... وَسَلاَمًا كَنَارِ إِبْرَاهِيمِ (٥)

---

(١) السابق : الفرس ، المربط : اسم مكان — بكسر العين وفتحها — والعتق فى الخيل : الكرم ، والتطهيم : تمام الحسن فيها بنفسه نفسه — وهو على هذه الحال من الاعتقال — بالصافن الذى سئم مكانه الذى ربط فيه — لعتقه وكرمه ، وقد وجد هذا البيت فى ديوانه على هذه الصورة :

. . . . يأنف المر ... بط فى العتق منه والتطهيم

فأكملناه مما ورد فى الروايات الأخرى .

(٢) المعنى : المحبوس من التعنية وهى الحبس الطويل ، والضنى : المرض الملازم ، والهنات : جمع هنة وهى الشدائد أو كنى بها عن الأشياء ، ونكأت : أى قشرت الجرح قبل أن يبرأ فأدمته ، والكلوم : الجراحات والمعنى : ومحبوس من المرض الملازم بسبب أشياء أدمت قرح جراحاته بجراحات أخرى ، يريد أن عناء السجن أضيف إليه عناء المرض فهو فى محبسين ، يعانى ألم شدتين .

(٣) أى مرض لا يعودنى فيه — وأنا فى السجن — عائد وفى عيادة من يزورنى ما يكفى ويفى بشفائى لو أمكن ذلك

(٤) أى نار بغى وظلم استعر لظاها فى جنة الدعة والراحة والأمن فأصبحت كالصريم : أى كالليل فى السواد بعد الاحتراق ، وفيه تلميح إلى قصة أصحاب الجنة المذكورة فى قوله تعالى فى سورة القلم « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين » الآيات ١٧ : ٣٣ وهم قوم كانت لأبيهم هذه الجنة فكان يأخذ منها قوت سنته ويتصدق بالباقى ، فلما مات رأى بنوه أن يستأثروا بما فيها لأنفسهم وعيالهم فحلفوا ليصرمنها مصبحين ، أى ليقطعن ثمارها مبكرين فى الصبح خفية عن أعين المساكين « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » أى احترقت فصارت فى السواد كفحمة الليل .

(٥) أفديك أنت أيها الممدوح بأبى ، إن تشأ تكن تلك النار التى سرت إلى جنة الأمن برداً وسلاماً فلا تحترق كنار إبراهيم إذ قذف فيها بأمر نمرود فكانت برداً وسلاماً عليه فلم يحترق ، وفيه تلميح إلى قوله تعالى « قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » .

لِلشَّفِيعِ الثَّنَاءُ ، وَالْحَمْدُ فى صَوْ ... بِ الْحَيَا لِلرِّيَاحِ ، لاَ لِلْغُيُومِ (١)

وَزَعِيمٌ بِأَنْ يُذَلِّلَ لِى الصَّعْـــبَ مَثَابِى إِلَى الْهُمَامِ الزَّعِيمِ (٢)

وَوِدَادٌ يُغَيِّرُ الدَّهْرُ مَا شَا ... ءَ وَيَبْقَى بَقَاءَ عَهْـــدِ الْكَرِيمِ

وَثَنَاءٍ أَرْسَلْتُهُ سَـــلْوَةَ الظَّا ... عِنِ عَنْ شَوْقِهِ وَلَهْوَ الْمُقِيمِ (٣)

فَهْوَ رَيْحَانَةُ الْجَلِيسِ ـ وَلاَ فَخْـــرَ ـ وَفِيهِ مِزَاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ

لَمْ يَزَلْ مُغْضِياً عَلَى هَفْوَةِ الْجَا ... نِى مُصِيخاً إِلَى اعْتِذَارِ الْكَرِيمِ

وَمَـــتَى يَبْدَإِ الصَّنِيعَةَ يُولِعْـــكَ تَمَامُ الْخِصَالِ بِالتَّتْمِيمِ (٤)

---

(١) أى للشفيع الثناء والحمد لا للمشفوع إليه ، كما ان الحمد فى نزول المطر للرياح التى تؤلف بين الغيوم فينزل المطر بسببها لا لنفس الغيوم ، وهو كقول البحترى :

حار حمدى وللرياح اللواتى ... تجلب الغيث مثل حمد الغيوم

(٢) كفيل بتذليل ما استصعب تذليله رجوعى إلى الهمام الرئيس . وقد ورد فى بعض النسخ البيت التالى بعد هذا البيت :

أمل يرغم الجفاء إليـــه ... وهو ثبت المقام ماضى العزيم

(٣) أى مدح أرسلته فسار على ألسنة الناس مســير المثل إذا تلاه الظاعن تسلى به عن شوقه إلى وطنه وحنينه إلى أهله ، وإذا تلاه المقيم كان فيه لهوه وأنسه .

(٤) أى متى يبتدئك بالجميل تغرلك خصاله التامة ، وتحملك أخلاقه الكاملة على المطالبة بتتميم ماابتدأك به من معروف ، وتكميل ماشرع فيه من صنيع يريد ــ بعبارة أوضح ــ أن ماله عليه من نعمة مبتدأة ، ويد سابقة يبعث فى نفسه أملا قويا فى إتمام تلك النعمة بانجاز ما وعده به ، وفى هذا المعنى يقول أبو تمام :

هذا سحاب أنت سقت غمامه ... فعليك ــ بعد الله ــ فيض غمامه

إنّ ابتداء العرف مجد باسق ... والمجد ــ كل المجد ــ فى استتمامه

وقريب منه قول المتنبى :

ولم أر فى عيوب الناس عيباً ... كنقص القادرين على التمام

وقول القائل :

إذا أسـديت مكرمة فأتمم ... فان البـدر يسطع بالتمام

من قصيدة صنعها ببطليوس [1]

« قال هذه القصيدة عند فراره من السجن والتجائه إلى بنى عباد باشبيلية سنة ٤٤١ هجرية ، وكان قد وافاه الفطر فالأضحى وهو على حاله من الذكرى والشوق إلى معاهد بقرطبة ، كان يخرج إليها فى العيد ، ويتفرج بمنازهها ، ويلهو بمحاسنها مع من يهوى ، وقد أذكى تذكرها فى فؤاده لاعج الشوق ، وبه كامن الوجد ، فأخذ يذكرها معهداً معهداً ، ويصف ما خلفته فى نفسه من الأثر ، ويبين ما أثارته دواعي الذكرى فى قلبه من الصبابة والأسى والشوق ، ويقول صاحب قلائد العقيان فى هذه الأماكن التى يذكرها بعد : — « هذه معاهد لبنى أمية نعمت بها ليالى وأياما ، وظلت فيها الحوادث عنهم نياما ، فهاموا (بشرق العقاب) وشاموا به برقا يبدو من نقاب ، ونعموا (بجوف الرصافه) ، وطعموا عيشا تولى الدهر حلاءه ورفافه ، وأنفدوا نصح الناصح ، وجددوا أنس (مجلس ناصح) ، وعمروا (بالزهراء) ، وصمُّوا عن نبأ صاحب (الزوراء) حتى رحلهم الموت عنها وقوضهم ، وعوضهم منها ماعوضهم» إلى آخر ماقال » .

خَلِيــلَيَّ لاَ فِطْرٌ يَسُرُّ وَلاَ أَضْحَى ۝ فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسَى مَشُوقاً كَمَا أَضْحَى

لَئِنْ شَاقَنِي (شَرْقُ الْعُقَابِ) فَلَمْ أَزَلْ ۝ أَخُصُّ بِمَمْحُوضِ الْهَوَى ذٰلِكَ السَّفْحَا [2]

وَمَا انْفَكَّ جُوفِيُّ (الرُّصَافَةِ) مُشْعِرِي ۝ دَوَاعِيَ ذِكْرَى تُعْقِبُ الْأَسَفَ الْبَرْحَا [3]

---

(١) بطليوس : بفتحتين وسكون اللام ، وياء مضمومة ، وسين مهملة مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر « آنه » غربى قرطبة كما فى معجم البلدان. (٢) العقاب : بالضم العلم الضخم والصخرة العظيمة فى عرض الجبل اسم موضع بقرطبة ، وممحوض الهوى : خالصه .

(٣) (جوفى الرصافه) : الجوفى بضم الجيم الواسع الجوف . قال فى اللسان وشيء جوفى أى واسع الجوف ، ودلاء جوف : أى واسعه ، و (الرصافة) : بضم ففتح اسم لعدة مواضع منها بالأندلس موضعان أحدهما بليدة صغيرة عند بلنسية ينسب إليها الرفاء الأندلسى الرصافى الشاعر المشهور والأخرى وهي التى ذكرها هنا عند قرطبة أنشأها عبد الرحمن الداخل أول ملوك الأندلس من بنى أمية وسماها برصافة جده هشام بن عبد الملك بن مروان التى كانت بالشام كما يؤخذ من ابن خلكان نقلا عن كتاب لياقوت الحموى اسمه « المشترك وضعا المختلف صقعا » ، والبرح : بفتح فسكون العذاب والشدّة وصف به الأسف مبالغة والمراد أنها تعقب أسفاً مبرحا شاقا شديدا

وَيَهْتَاجُ (قَصْرُ الْفَارِسِيِّ) صَبَابَةً ... لِقَلْبِيَ لاَ تَأْلُو زِنَادَ الأَسَى قَدْحَا[١]

وَلَيْسَ ذَمِيمًا عَهْدُ (مَجْلِسِ نَاصِحِ) ... فَأَقْبَلَ فِى فَرْطِ الْوُلُوعِ بِهِ نُصْحَا

كَأَنِّىَ لَمْ أَشْهَدْ لَدَى (عَيْنِ شَهْدَةٍ) ... نِزَالَ عِتَابٍ كَانَ آخِرُهُ الْفَتْحَا[٢]

وَقَائِعُ جَانِيهَا التَّجَــنِّى فَإِنْ مَشَى ... سَفِيرُ خُضُوعٍ بَيْنَنَا أَكَّدَ الصُّلْحَا[٣]

وَأَيَّامُ وَصْلٍ (بِالْعَقِيقِ) اقْتَضَيْتُهُ ... فَإِلاَّ يَكُنْ مِيعَادُهُ الْعِيدَ فَالْفِصْحَا[٤]

وَآصَالُ لَهْوٍ فِى مُسَنَّــاةِ مَالِكٍ ... مُعَاطَاةَ نَدْمَانٍ إِذَا شِئْتُ أَوْ سَبْحَا[٥]

لَدَى رَاكِدٍ يُصْبِيكَ مِنْ صَفَحَاتِهِ ... قَوَارِيرُ خُضْرٌ خِلْتَهَا مُرِّدَتْ صَرْحَا[٦]

---

(١) يقول : تثير ذكرى قصر الفارسى لقلبى صبابة لاتفتر عن قدح زناد الحزن، والزناد: مايقتدح به النار

(٢) يعنى أنه عتاب لمحبوبته فى هذا المكان حيث عتاب أحرز به نصراً عليها وفتحا .

(٣) التجنى ادعاؤها عليه ذنباً لم يفعله ، والسفير المصلح بين القوم ، والمعنى أن هناك وقائع جناها ادعاؤها الذنوب عليه كان خضوعه فيها رسول سلام لتوكيد الصلح بينهما . (٤) يقال اقتضيت الدين أى قبضته وأخذته ، والفصح بالكسر عيد النصارى ، والمعنى أن أياما معلومة من السنة كنت أحصل فيها (بالعقيق) على الوصل واقتضيه فى ميعاده كما يقتضى أى يقبض الغريم دينه ، فان لم يكن ذلك الاقتضاء موعده العيد فالفصح . (٥) الآصال : جمع أصيل وهو مابعد العصر إلى المغرب ، والمسناة : سدّ يبنى فى وسط الوادى لاحتجاز الماء ورد ما لايطلب منه ومنعه عن الجرى فى طريقه المعتاد ، له أبواب تفتح لاطلاق الماء بحسب الحاجة ، وهى العرم . قال فى الصحاح ، « والمسناة العرم لاواحد له من لفظه » ، والمعنى أنه يذكر تلك الأيام التى كان يلهو بها مع الأصيل فى تلك المسناة الملكية مرة بمعاطاة الراح إذا شاء ، وأخرى بالسبح والعوم فى الماء ، وهذا مما يثبت أنهم كانوا يبنون (الخزانات) لاخصاب الأرض وإمداد البرك بالماء بعد تغلته . (٦) قال بعض المفسرين فى قوله تعالى (قيل لها ادخلى الصرح) . الصرح : بلاط اتخذ لها من قوارير . ومن معانى الصرح الساحة أيضا ، فكأنه أراد تشبيه ماء المسناة الراكد فى خضرته واستوائه بزجاج أخضر مرد (بالتشديد) أى ملس صرحا أى ساحة مستوية من زجاج

مَعَاهِدُ لَذَّاتٍ وَأَوْطَانُ صَبْوَةٍ أَجَلْتُ الْمُعَلَّى فِى الْأَمَانِى بِهَا قِدْحَا (١)

أَلَا هَلْ إِلَى (الزَّهْرَاءِ) أَوْبَةُ نَازِحٍ تَقَضَّى تَنَائِيهَا مَدَامِعَهُ نَزْحَا (٢)

مَقَاصِيرُ مُلْكٍ أَشْرَقَتْ جَنَبَاتُهَا فَخِلْنَا الْعِشَاءَ الْجَوْنَ أَثْنَاءَهَا صُبْحَا (٣)

يُمَثِّلُ قُرْطَيْهَا لِي الْوَهْمُ جَهْرَةً فَقُبَّتَهَا فَالْكَوْكَبَ الرَّحْبَ فَالسَّطْحَا (٤)

مَحَلُّ ارْتِيَاحٍ يُذْكِرُ الْخُلْدَ طِيبُهُ إِذَا عَزَّ أَنْ يَصْدَى الْفَتَى فِيهِ أَوْ يَضْحَى (٥)

---

(١) القدح : بكسر فسكون واحد السهام التي كانوا يستقسمون بها الجزور في الميسر ، وكانت قداح الميسر عشرة ثلاثة منها غفل ، وسبعة من ذوات الانصباء ، وكان المعلى أوفرها حظا له سبعة أجزاء من الجزور ، فاذا أجال مخرج القداح يده في الخريطة ، وأخرج المعلى باسم أحد المتقامرين كان هو الفائز بأكبر الأقسام وأوفر الحظوظ . يقول : هذه معاهد لذات قضيت فيها من اللذات ، وبلغت فيها من الأماني ما جعل قدحي فيها المعلى . (٢) الزهراء من عجائب أبنية الدنيا أنشأها أبو المظفر عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي الملقب بالناصر أحد ملوك بني أمية بالأندلس بالقرب من قرطبة في سنة ٣٢٥ هـ والمسافة بينها وبين قرطبة ستة أميال تقريبا ، وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ٢٧٠٠ ذراع ، وعرضها ١٥٠٠ ذراع ، وعدد السواري التي فيها ٤٣٠٠ سارية ، وأبوابها نحو ١٥ بابا ، وكان الناصر ينفق على عمارتها ثلث جباية بلاد الأندلس التي كانت تبلغ في ذلك الوقت نحو ستة ملايين من الدنانير ، وهي من أحسن مباني الدنيا وأبدعها ، وقد أكثر أهل قرطبة في وصفها وما قاله الشعراء فيها ، ولهم في ذلك تصانيف ، والأوبة : الرجوع ، والنازح : البعيد ، وتقضى أحد وتناول حقه من غريمه ، وهي المدامع هنا ، والنزح : من نزح البئر ، وهو استنزاف مائها ، ورأيت في بعض النسخ (تقضت مبانيها مدامعه سفحا) (٣) المقصورة : ناحية من البناء على حيالها تقصر على الملك ، أو على صاحب الدار ، أو هي الدار الواسعة المحصنة ، وتجمع على مقاصر ومقاصير ، والجنبات : جمع جنبة كسجدة وسجدات ، وفي اللسان مايفيد اختلاف اللغويين في إسكان النون وفتحها في المفرد ، ونقل عن ابن جني قوله : وقد غرى الناس بقولهم ، أنا في ذراك وجنبتك بفتح النون قال والصواب إسكان النون ، واستشهد على ذلك بقول أبي صخرة الهذلي :

فما نطفة من حب مزن تقاذفت بها جنبتا الجودي والليل دامس

بأطيب من فيها وما ذقت طعمها ولكنني فيما ترى العين فارس

والجون :هنا الأسود، والمعنى أن تلك المقاصير أضيئت نواحيها بالمصابيح والسرج ، فحسبنا العشاء في داخلها صبحا

(٤) يمثل له الوهم هذه المواضع من الزهراء كأنه يراها جهرة (٥) في بعض النسخ عن بدل عز وفي بعضها يغذى بدل يصدى ، ولعلها مصحفة عن يعرى ، والأشبه بالصواب ما هنا ، ومعنى البيت أن

هُنَاكَ الْجِمَامُ الزُّرْقُ تَنْدَى حِفَافُهَا ... ظِلَالٌ عَهِدْتُ الدَّهْرَ فِيهَا فَتًى سَمْحَا (١)

تَعَوَّضْتُ مِنْ شَدْوِ الْقِيَانِ خِلَالَهَا ... صَدَى فَلَوَاتٍ قَدْ أَطَارَ الْكَرَى ضَبْحَا (٢)

وَمِنْ حَمْلِيَ الْكَأْسَ الْمُفَدَّى مُدِيرُهَا ... تَقَحُّمَ أَهْوَالٍ حَمَلْتُ لَهَا الرُّمْحَا

أَجَلْ إِنَّ لَيْلِي فَوْقَ شَاطِئِ نِيطَةٍ ... لَأَقْصَرُ مِنْ لَيْلِي بِآنَةَ فَالْبَطْحَا (٣)

فى الغـــزل

عَلَامَ صَرَمْتَ حَبْلَكَ مِنْ وَصُولٍ ... فَدَيْتُكَ وَاعْتَزَزْتَ عَلَى ذَلِيلِ (٤)

وَفِيمَ أَنِفْتَ مِنْ تَعْلِيلِ صَبٍّ ... صَحِيحِ الْوُدِّ ذِى جِسْمٍ عَلِيـــلِ

فَهَلَّا عُدْتَنِي إِذْ لَمْ تَعُوِّدْ ... بِشَخْصِكَ بِالْكِتَابِ أَوِ الرَّسُولِ (٥)

لَقَـــدْ أَعْيَا تَلَوُّنُكَ احْتِيَالِي ... وَهَلْ يُغْنِي احْتِيَالٌ فِى مَلُولِ (٦)

الزهراء محل ترتاح النفس إليه يذكر طيبه جنة الخلد حيث يمتنع أن يصـــدى الفتى أى يعطش أو يضحى أى يبرز للشمس ، وفيـــه الاشارة إلى قوله تعالى « إنّ لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » ولا شكّ أن الجوع ، والعرى ، والظمأ ، وعدم السكن أركان الشقاء فى هذه الحياة وبدونها يكون النعيم والراحة والسعادة ، وأنّ الشخص فى الحياة الدنيا معنى بطلب هذه الأشياء بخلافه فى دار النعيم والخلد ، وقد توفرت له فى الزهراء أسباب الراحة والنعيم فاذكره ذلك جنة الخلد .

(١) الجمام : جمع جمة ، وهى مكان اجتماع الماء ، والزرق : صفة للجمام بمعنى المياه المجتمعة ، وحفافها : جوانبها وما يطيف بها من حولها ، والمعنى هناك فى الزهراء البرك ذات الأمواه الزرق تظللها حفافها وحولها ظلال بليلة ندية (٢) أي أبدلت من سماع صوت المغنيات خلال تلك النوادى الآهلة بأنواع الطرب سماع صدى هذه الفلوات المخيفة يتردد فيها ضبح العاديات من الخيل فيطير النوم من العين (٣) نيطه وآنه : نهران

(٤) يقول : لماذا قطعت حبل محب دائم الوصال لك ولماذا تكبرت على عبدك الخاضع الذليل .

(٥) هلا عدتنى بالكتاب أو الرسول إذ لم يكن من عادتك أن تعودنى بشخصك .

(٦) من أجمل ما قرأناه فى هذا المعنى قول العباس بن الأحنف :

لو كنت عاتبة لسكن لوعتى ... أملى رضاك وزرت غير مراقب

لكن مللت فليس لى من حيلة ... صدّ الملول خلاف صدّ العاتب

وقريب منه قول ابن الرومى :

ولكنكم كنتم تريدون علة ... فهاجكم أدنى عتاب إلى الصد

أردت صلاح القلب باليمد فانبرى ... لنا ظلمكم فاستفسد القلب بالبعد

بين صـــديقين

«كتب اليه ذو الوزارتين أبو عامر معاتبا :

تباعدنا على قرب الجوار
كأنا صدنا شحط المزار
تطلع لى هلال الهجر بدرا
وصار هلال وصلك فى سرار
وشاع شنيع وصلك لى وهجرى
فهلا كان ذلك فى استتار
أيجمل أن ترى عنى صدورا
وأصبح مولعا دون اصطبار
ولما أن هجرت وطال غمرى
عقرت هموم نفسى بالعقار
وكنت أريد سمعك من عتابى
ولكن عاقنى قرب الجار
فراع مودتى واحفظ جوارى
فان الله أوصى بالجوار
وزرنى معلما من غير أمر
وآنس موحشا من عقر دار

فجاوبه ابن زيدون : »

هَوَايَ - وَإِنْ تَنَاءَتْ عَنْكَ دَارِي - ... كَمِثْلِ هَوَايَ فِى حَالِ الْجِوَارِ
مُقِيمٌ لَا تُغَيِّرُهُ عَوَادٍ ... تُبَاعِدُ بَيْنَ أَحْيَانِ الْمَزَارِ
رَأَيْتُكَ قُلْتَ : إِنَّ الْوَصْلَ بَدْرٌ ... مَتَى خَلَتِ الْبُدُورُ مِنَ السِّرَارِ [1]
وَرَابَكَ أَنَّنِي جَلْدٌ صَبُورٌ ... وَكَمْ صَبْرٍ يَكُونُ عَنِ اضْطِرَارِ [2]

---

(١) متى أقررت أن الوصل بدر فأنت خليق أن تعلم أن للبدر سرارا ـ لا شك فهو إذا اكتمل نموه فى وسط الشهر لحقه المحاق فى آخره .

(٢) إن صبرى ليس طبيعيا ولكننى اتكلفه اضطرارا إليه لأنى لا أجد مندوحة عنه .

وَلَمْ أَهْجُرْ لِعَتْبٍ غَيْرَ أَنِّي ... أَضَرَّتْ بِي مُعَاقَرَةُ الْعُقَارِ
وَأَنَّ الْخَمْرَ لَيْسَ لَهَا خِمَارٌ (١) ... تُبَرِّحُ بِي ، فَكَيْفَ مَعَ الْخِمَارِ (٢)

* * *

وَهَلْ أَنْسَى لَدَيْكَ نَعِيمَ عَيْشٍ ... كَوَشْيِ الْخَدِّ طُرِّزَ بِالْعِذَارِ
وَسَاعَاتٍ يَجُولُ اللَّهْوُ فِيهَا ... مَجَالَ الطَّلِّ فِي حَدَقِ الْبَهَارِ (٣)
وَإِنْ يَكُ قَرَّ عَنْكَ الْيَوْمَ جِسْمِي ... ـ فُدِيتَ ـ فَمَا لِقَلْبِي مِنْ قَرَارِ (٤)
وَكُنْتَ عَلَى الْبِعَادِ أَجَلَّ عِلْقٍ (٥) ... لَدَيَّ ، فَكَيْفَ إِذْ أَصْبَحْتَ جَارِي ؟ (٦)

دعـــوة

« كتبها إلى ذى الوزارتين أبى عامر يدعوه إلى زيارته »

طَابَتْ لَنَا لَيْلَتُنَا الْخَالِيَهْ ... فَلْتُنْسِنَاهَا هٰذِهِ التَّالِيَهْ (٧)
أَبَا الْمَعَالِي نَحْنُ فِي رَاحَةٍ ... فَانْقُلْ إِلَيْنَا الْقَدَمَ الْعَالِيَهْ
لَيْلَتُنَا عَاطِلَةٌ إِنْ تَغِبْ ... عَنَّا ، فَزُرْنَا كَيْ تُرَى حَالِيَهْ
أَنْتَ الَّذِي لَوْ تُشْتَرَى سَاعَةٌ ... مِنْهُ بِدَهْرٍ لَمْ تَكُنْ غَالِيَهْ

---

(١) سورة . (٢) إذا كانت الخمر التى لا سكر فيها تبرح بى فما بالك بها إذا أسكرت .

(٣) البهار : نبت طيب الريح . (٤) إذا كان جسمى قد قرّ قراره بعيداً عنك فانّ قلبى لايزال يهفو إليك . (٥) العلق : النفيس ، قال الشاعر :

« أبيت اللعن ان سكاب علق ... نفيس لا يعار ولا يباع »

(٦) إنك ـ مع البعاد الذى يدنى الألاف ـ كنت أجل مخلوق لدى ، فكيف أنساك وقد زادنى الجوار حبا فيك

(٧) لقد طابت ليلة أمس بقربك منا فلنكررها ، وليدنا ما يغمرنا من السرور فى ليلتنا التالية ما نعمنا فى ليلتنا الماضية

قال فى الوزير الشيخ أبى الحزم

« بَنِي جَهْوَرٍ » أَحْرَقْتُمُ بِجَفَائِكُمْ جَنَانِي وَلَـكِنَّ الْمَدَائِحَ تَعْبَقُ (١)

تَعُدُّونَنِي كَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ (٢) إِنَّمَا تَطِيبُ لَكُمْ أَنْفَاسُهُ (٣) حِينَ يُحْرَقُ

***

قُلْ لِلْوَزِيرِ وَقَدْ قَطَعْتُ بِمَدْحِهِ زَمَنًا فَكَانَ السِّجْنُ مِنْهُ ثَوَابِي

لَا تَخْشَ فِي حَقِّي بِمَا أَمْضَيْتَهُ مِنْ ذَاكَ فِيَّ وَلَا تَوَقَّ عِتَابِي (٤)

لَمْ تُخْطِ (٥) فِي أَمْرِي الصَّوَابَ مُوَفَّقًا هٰذَا جَزَاءُ الشَّاعِرِ الْكَذَّابِ

وصـــال

وَشَادِنٍ أَسْأَلُهُ قَهْوَةً (٦) فَجَادَ بِالْقَهْوَةِ وَالْوَرْدِ (٧)

فَبِتُّ أُسْقَى الرَّاحَ مِنْ رِيقِهِ وَأَجْتَنِي الْوَرْدَ مِنَ الْخَدِّ

---

(١) عبق : الطيب يعبق من باب فرح بقيت رائحته زمانا ، يقول بالرغم من أنكم أحرقتم فؤادى بنار الجفاء ، وقابلتم شكواى بعدم الاصغاء ، فان مديحى باق فيكم ملازم لكم ملازمة الطيب صاحبه .

(٢) الزعفران لحمرته . (٣) ما ينبعث عنه عند الاحراق من الروائح الطيبة ، والمعنى : تحملوننى فى عداد ما يحرق من الطيب الذى ليس لكم من إحراقه إلا طيب أنفاسه . قال ابن بسام عند إيراده هذين البيتين ، وأراه توارد مع أبى علىّ بن رشيق القيروانى حيث يقول :

أراك اتهمت أخاك الثقة وعندك مقت وعندى مقه

وأثنى عليك وقد سؤتنى كما طيب العود من أحرقه

وأخذاه معا من قول أبى تمام :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

(٤) لا تخش فى حق لوما بما أمضيته فىّ من حكم السجن ولا تتوق عتابى فانى أنا الحقيق باللوم والعتاب

(٥) أبدل الهمزة من الياء وحذفها للجازم كما يحذفها من المعتل وأصله لم تخطئ ، يقول : لم تعد فى أمرى الصواب وقد وفقت فى حكمك علىّ بالسجن بعد أن انقطعت زمانا لمدحك ، وهذا جزاء من يكذب فى شعره ويمدح من لا يستحق المدح ، وقريب من هذا الهجاء قول ابن الرومى :

إن كنت من جهل حقى غير معتذر وكنت من رد مدحى غير متئب

فأعطنى ثمن الطرس الذى كتبت فيه القصيدة أو كفارة الكذب

(٦) خمراً : يعنى خمر ريقه . (٧) أى ورد وجنته .

وقال معاتبا من قصيدة أولها

بَنَيْتَ فَلاَ تَهْدِمْ وَرِشْتَ[1] فَلاَ تَبْرِى ... وَأَمْرَضْتَ حُسَّادِى وَحَاشَاكَ أَنْ تُبْرِى[2]

أَرَى نَبْوَةً لَمْ أَدْرِ سِرَّ اعْتِرَاضِهَا ... وَقَدْ كَانَ يَجْلُو عَارِضَ الْهَمِّ أَنْ أَدْرِى[3]

جَفَاءٌ هُوَ اللَّيْلُ أَدْلَهَمَّ ظَلاَمُهُ ... فَلاَ كَوْكَبٌ لِلْعُذْرِ فِى أُفْقِهِ يَسْرِى[4]

هَبِ الْعَزْلَ أَضْحَى لِلْوِلاَيَةِ غَايَةً ... فَمَا غَايَةُ الْمُوفِى مِنَ الظِّلِّ أَنْ يُكْرِى[5]

فَفِيمَ أَرَى رَدَّ السَّلاَمِ إِشَارَةً ... تُسَوِّغُ بِى إِزْرَاءَ مَنْ شَاءَ أَنْ يَزْرِى[6]

أُنَاسٌ هُمُ أَخْشَى لِلَذْعَةِ مِقْوَلِى ... إِذَا لَمْ يَكُنْ مِمَّا فَعَلْتَ لَهُمْ مُضْرِ[7]

فَإِنْ عَاقَتِ الْأَقْدَارُ فَالنَّفْسُ حُرَّةٌ ... وَإِنْ تَكُنِ الْعُتْبَى فَأَحْرِ بِهَا أَحْرِ

موقف وداع

وَلَمَّا الْتَقَيْنَا لِلْوَدَاعِ غُدَيَّةً ... وَقَدْ خَفَقَتْ فِى سَاحَةِ الْقَصْرِ رَايَاتُ

وَقُرِّبَتِ الْجُرْدُ الْعِتَاقُ[8] وَصُفِّقَتْ[9] ... طُبُولٌ وَلاَحَتْ لِلْفِرَاقِ عَلاَمَاتُ

بَكَيْنَا دَمًا حَتَّى كَأَنَّ عُيُونَنَا ... لِجَرْىِ الدُّمُوعِ الْحُمْرِ فِيهَا جِرَاحَاتُ

وَكُنَّا نُرَجِّى الْأَوْبَ بَعْدَ ثَلاَثَةٍ ... فَكَيْفَ وَقَدْ كَانَتْ عَلَيْهَا زِيَادَاتُ

---

(١) من راش صديقه كساه وأصلح حاله . (٢) من البرء : وهو الشفاء من المرض .

(٣) أرى جفوة لم أدر سرّ اعتراضها أى منعها الود من أن يسير فى طريقه الأول ، وقد يكشف ماعرض لى من الهم والحزن بسبب ذلك أن أعرف سرّ تلك النبوّة والجفوة .

(٤) جفاء كالليل اشتدّ ظلامه فلم يسر فى أفقه كوكب عذر واضح . وفى الأصل :

« حياء هو الليل ادلهمّ ظلامه »

(٥) أكرى : الظل يكرى نقص ، والمعى : هب العزل أضحى خاتمة ماوليته من عمل فلا ينبغى أن تكون غاية ما أوفى علىّ من ظلك ورعايتك أن يكرى أى ينقص . (٦) معنى البيت : فى أى ذنب أراك تشير بالسلام إشارة تسيغ وتجوز لمن شاء أن يزرى بى الازراء بى والتحقير لشأنى .

(٧) اضراه : بالصيد ونحوه أغراه به فهو مضر أى مغر ، يقول : أولئك الزارون علىّ المحقرون لشأنى أناس هم أخوف الناس من لسانى لو لم تكن مما فعلته معى قد اضريتهم بى وأغريتهم بالزراية على

(٨) الجياد الكريمة (٩) دقت الطبول إيذاناً بالمسير

وقال أيضا يمدح أبا الوليد بن جهور

هَلْ عَهِدْنَا الشَّمْسَ تَعْتَادُ الْكِلَلْ (١) أَمْ عَهِدْنَا الْبَدْرَ يَجْتَابُ (٢) الْحُلَلْ

أَمْ قَضِيبُ الْبَانِ يَعْنِيهِ الْهَوَى أَمْ غَزَالُ الْقَفْرِ يُصْبِيهِ الْغَزَلْ (٣)

خَرَقَ الْعَادَاتِ مُبْدِى صُورَةٍ حَشَدَ (٤) الْحُسْنُ عَلَيْهَا فَاحْتَفَلْ (٥)

مُشْرَبُ الصَّفْحَةِ مِنْ مَاءِ الصِّبَا مُشْبَعُ الْوَجْنَةِ مِنْ صِبْغِ الْخَجَلْ

مَنْ عَذِيرِى (٦) مِنْهُ إِنْ أَغْبَبْتُهُ (٧) نَسِىَ الْعَهْدَ وَإِنْ عَاوَدْتُ مَلّْ

---

(١) جمع كلة بالكسر ، وهى ستر رقيق يخاط كالبيت يتوقى فيه من البعوض ونحوه ، وتقدم هذا المعنى عند قوله فى القصيدة النونية :

كانت له الشمس ظئرا فى أكلته بل ما تجلى لها إلا أحايينا

(٢) يجتاب يلبس من قولهم : اجتاب القميص إذا لبسه ، وشاهده قول لبيد :

فتلك إذ رقص اللوامع بالضحى واجتاب أردية السراب اكامها

أى لبست الاكام أردية السراب ، والحلل بالضم جمع حلة أثبت أن من يهواه شمس وأنه بدر على الحقيقة ، وتعجب من احتجاب الشمس فى الكلل ، واجتياب أى لبس البدر الحلل ، وأنكر أن يكون ذلك معهودا فى العادة . (٣) يصبيه : يهمه ، ويصبيه : يشوقه ويدعوه إلى الصبا والحنين إلى من يحب ، والغزل : مغازلة النساء ومحادثتهن ، أى ولم نعهد أيضا أن الهوى يهم قضيب البان ، وأن المغازلة تدعو غزال القفر إلى الصبا فيحن إلى من يهوى . (٤) اجتمع .

(٥) احتشد واجتمع : أى أتى بالمعجزات ذلك الذى طلع علينا بصورته الفائقة الجامعة لفنون الحسن ، الحافلة بأنواع الجمال .

(٦) يقال من عذيرى من فلان أى من نصيرى ، ويقال : عذير فلان بالنصب أى هات عذرا له ، ومنه قول ذى الاصبع العدوانى :

عذير الحى من عدوا ن كانوا حية الأرض

بغى بعض على بعض فلم يرعوا على بعض

أى هات عذرا فيما فعل بعضهم ببعض من البغى ، والقتل ، والتباعد ، والتباغض ، ولم يرع بعضهم على بعض بعد ما كانوا حية الأرض التى يحذرها كل أحد ، ويقال عذيرى من فلان أى من يعذرنى ، ومنه قول الآخر :

عذيرى من الانسان لا إن جفوته صفا لى ولا إن كنت طوع يديه

وإنى لمشتاق إلى ظل صاحب يروق ويصفو إن كدرت عليه

(٧) من الغب فى الزيارة ، أى جئته زائرا يوما وتركته يوما أو أكثر يقال : « زر غبا تزدد حبا » وفى اللسان : « الغب فى الزيارة قال الحسن فى كل أسبوع »

قَاتِلٌ لِى بِالتَّجَنِّى ، مَا لَهُ لَيْتَ شِعْرِى أَحَلَالٌ مَا اسْتَحَلّ ؟

***

أَيُّهَا الْمُخْتَالُ (١) فى زِينَتِهِ أَنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْخَالِ (٢) فَخَلْ (٣)

لَكَ إِنْ أَدْلَلْتَ (٤) عذرٌ وَاضِحٌ كُلُّ مَنْ سَاعَفَهُ (٥) الْحُسْنُ أَدَلّ

سَبَبُ السُّقْمِ الَّذِى بَرَّحَ بِى صِحَّةٌ كَالسُّقْمِ فى تِلْكَ الْمُقَلْ (٦)

إِنَّ مَنْ أَضْحَى أَبَاهُ « جَهْوَرٌ » قَالَتِ الْآمَالُ عَنْهُ فَفَعَلْ (٧)

مَلِكٌ لَذَّ جَنَى الْعَيْشِ بِهِ حَيْثُ وِرْدُ الْأَمْنِ لِلصَّادِى عَلَلْ (٨)

---

(١) ذو الخيلاء المعجب بنفسه المتباهى بزينته وجماله .

(٢) الخال له معان كثيرة منها الخيلاء ، وهو المراد هنا ، وقد أورد صاحب اللسان عن ابن برى أبياتاً فى معانى الخال ، والمناسب منها لما نحن فيه قوله :

وإذ أنا حذق للعوى أخى الصبا وللعزل المريح ذى اللهو والخال

أى الخيلاء . (٣) أى كن ذا خيلاء وزهو وتكبر ، من خال يخال بمعنى اختال ، ومنه بيت الحماسة :

فان كنت سيدنا سدتنا وإن كنت للخال فاذهب فخل

معناه : إن فعلت ما يوجب لك السيادة علينا سدتنا ، وإن حاولت أن تسودنا لمجرّد الكبر والاختيال فاذهب فاختل ما شئت أن تختال ، فإنك لن تستطيع أن تسودنا حينئذ ، ومعنى البيت الذى نحن بصدده : أيها المختال المزهو صلفا وكبرا بزينته وجماله كن ذا خيلاء وفخر وإعجاب فأنت أولى الناس بذلك لفرط جمالك .

(٤) يقال أدل عليه وتدلل : انبسط واجترأ وتجنى فى غير موضع تجن .

(٥) ساعده وواتاه وأسعفه باجتماع أسبابه لديه ، ومعنى البيت : إن أفرطت فى الدالة على ثقة بحبى لك ، واعتدادا بمساعفة الحسن ومواتاته لك فى الإدلال عذر واضح .

(٦) يقول : أن سبب الضنى والسقم الذى اشتد بى تبريحه وأذاه فتور فى لحظ تلك العيون الصحيحة المريضة ، وهذا معنى مطروق للشعراء ، ومن أحسن ماجاء في مرض العيون قول ابن المعتز :

عليم بما تحت الصدور من الهوى سريع بكر اللحظ والقلب جازع

ويجرح أحشائى بعين مريضة كما لان متن السيف والسيف قاطع

(٧) يعنى أن « ابن جهور » : إذا قالت الآمال عنه قولا صدق قولها فعله .

(٨) شرب بعد شرب .

أَحْسَنَ الْمُحْسِنُ مِنَّا فَجَـــزَى مِثْلُ مَا لَجَّ مُسِيءٌ فَاْحْتَمَلْ [١]

سَـــعْيُهُ فِى كُلِّ بِرٍّ مَثَلٌ [٢] إِذْ مَسَاعِي مَنْ يُنَاوِيهِ [٣] مُثُلْ [٤]

لاَ يَزَلْ مِنْ حَاسِدِيهِ مُكْثِرٌ أَوْ مُقِلٌّ ، سَبَقَ السَّيْفُ الْعَذَلْ [٥]

* * *

« يَا بَنِي جَهْوَرٍ » اَلدُّنْيَا بِكُمْ حَلِيَتْ أَيَّامُهَا بَعْدَ الْعَطَلْ [٦]

إِنَّمَا دَوْلَتُـــكُمْ وَاسِـــطَةٌ [٧] أَهْدَتِ الْحُسْنَ إِلَى عِقْدِ الدُّوَلْ

نَحْنُ مِنْ نَعْمَائِكُمْ فِى زَهْرَةٍ جَدَّدَتْ عَهْدَ الرَّبِيعِ الْمُقْتَبَلْ [٨]

طَابَ كَانُونٌ [٩] لَنَا أَثْنَاءَهَا فَـــكَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ بِالْحَمَلْ [١٠]

زَهَرَتْ أَخْلاَقُـــكُمْ فَاْبْتَسَمَتْ كَاْبْتِسَامِ الْوَرْدِ عَنْ لُؤْلُؤِ طَلّْ

---

(١) أحسن المحسن ما يجزاه وكافأه على إحسانه ، كما تكررت إساءة المسيء فاحتملها عفوا منه وكرما .

(٢) أي كالمثل السائر يشيع فى الناس ذكره ، ويحمد أثره .

(٣) يعاديه ويعاديه. (٤) جمع مثال ، أى أمثلة وصور يقول أن مساعي الممدوح فى صلة الناس بأنواع البر والاحسان أصبحت مضرب الأمثال ، فى حين أن مساعي أعدائه المناوئين له صور حائلة أمامك — كما ترى — لم يشع لها ذكر ولم يعرف عنها أثر . (٥) يدعو باستمرار حاسديه على الاكثار أو الاقلال من لومه على مايصيبه على رءوسهم من ويلات ، وينزله بهم من عقوبات ويقول « سبق السيف العذل » أى فلا معنى للوم أكثر الأعداء منه أم أقلوا ، وهو مثل مشهور يضرب للأمر الذى فات فلم يمكن تداركه .

(٦) مصدر عطلت المرأة كفرح لم يكن عليها حلى ، وهو ضدّ « حليت » .

(٧) هى الدرّة التى فى وسط العقد وتعد أنفس جوهرة فيه .

(٨) يقول : نحن قد حللنا من نعمائكم فى بهجة من الزمان ، ونضرة من الحياة ، جددت لنا عهد الربيع عند استقبال أيامه ، وتجدد أوانه ، والربيع عند العرب ربيعان . الربيع الذى فيه النور والكلأ ، والربيع الذى تدرك فيه الثمار . (٩) شهر ، وهو اثنان : كانون الأول ، وكانون الثانى .

(١٠) الحمل : برج من بروج السماء

* * *

أَيُّهَا الْبَحْرُ الَّذِي مَهْمَا تَفِضْ بِالنَّدَى[١] يُغْنَاهُ فَالْبَحْرُ وَشَلْ[٢]

مَنْ لَنَا فِيكَ بِعَيْبٍ وَاحِدٍ تُحْذَرُ الْعَيْنُ إِذَا الْفَضْلُ كَمُلْ[٣]

شَرَفٌ تَغْنَى عَنِ الْمَدْحِ بِهِ مِثْلَ مَا يَغْنَى عَنِ الْكُحْلِ الْكَحَلْ[٤]

* * *

أَنَا غَرْسٌ فِي ثَرَى الْعَلْيَاءِ لَوْ أَبْطَأَتْ سُقْيَاكَ عَنْهُ لَذَبَلْ

لِيَ ذِكْرٌ بِالَّذِي أَسْدَيْتَهُ نَابِهٌ وَدَّ حَسُودٌ لَوْ خَمَلْ[٥]

فَلْيَمُتْ بِالدَّاءِ مِنْ حَالِ فَتًى أَدَّبَتْهُ سِيَرُ النَّاسِ الْأُوَلْ

فَوَعَى الْحِكْمَةَ عَنْ قَائِلِهِمْ : « الْزَمِ الصِّحَّةَ يَلْزَمْكَ الْعَمَلْ »

* * *

أَقْبَلَتْ نُعْمَاكَ تُهْدِي نَفْسَهَا لَمْ أُرِغْ[٦] حَظِّيَ مِنْهَا بِالْحِيَلْ

فَقَبِلْتُ الْيَدَ[٧] مِنْ بَطْنِ يَدٍ ظَهْرُهَا ـ الدَّهْرَ ـ مَحَلٌّ لِلْقُبَلْ

كُلُّنَا يَبْلُغُ مَا أَمَّلَهُ فَابْلُغِ الْغَايَةَ مِنْ كُلِّ أَمَلْ

وَإِذَا مَا رَامَكَ الدَّهْرُ فَفُتْ وَإِذَا رُمْتَ الْأَمَانِيَّ فَنَلْ

---

(١) الكرم . (٢) ماء قليل يتحلب من جبل أو صخرة .

(٣) يقول من لنا بمن يعد فيك عيبا واحدا فانا نحن نحذر عليك وقد كملت فضائلك عيون الحاسدين ، وهو نظير قول الآخر :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العين

(٤) الكحل : محركة أن تسود مواضع الكحل من العين خلقة ، أى شرف تستغنى بسببه عن المدح كما تستغنى العين المكحولة خلقة عن التكحل بالكحل صناعة . (٥) أسديته : أعطيته ، والذكر النابه : الشريف المشتهر ، وهو خلاف الخامل . (٦) لم أطلب وفى الأصل: « لم أدع » .

(٧) الجميل .

مداعبة

« كتبها إلى أبي عبد الله بن القلاس البطليوس يداعبه بها »

أَصِخْ لِمَقَالَتِي وَاسْمَعْ   وَخُذْ - فِيمَا تَرَى - أَوْ دَعْ
وَأَقْصِرْ - بَعْدَهَا - أَوْ زِدْ   وَطِرْ - فِي إِثْرِهَا - أَوْ قَعْ

* * *

أَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّ الدَّهْـ   ـرَ يُعْطِي بَعْدَ مَا يَمْنَعْ
وَأَنَّ السَّعْيَ قَدْ يُكْدِي (١)   وَأَنَّ الظَّنَّ قَدْ يَخْدَعْ
وَكَمْ ضَرَّ امْرَءًا أَمْرٌ   تَوَهَّـمَ أَنَّهُ يَنْفَعْ

* * *

فَإِنْ يُجْدِبْ مِنَ الدُّنْيَا   جَنَابٌ طَالَمَا أَمْرَعْ
فَمَا إِنْ غَاضَ لِي صَبْرٌ   وَمَا إِنْ فَاضَ لِي مَدْمَعْ
وَكَائِنْ رَامَتِ الْأَيَّا   مُ تَرْوِيعِي فَلَمْ أَرْتَعْ (٢)
إِذَا صَافَتْنِيَ الْجُلَّى   تَجَلَّتْ عَنْ فَتًى أَرْوَعْ (٣)
عَلَى مَا فَاتَ لَا يَأْسَى   وَمِمَّا نَابَ لَا يَجْزَعْ
تَدِبُّ إِلَيَّ مَا تَأْلُو   عَقَارِبُ مَا تَنِي تَلْسَعْ

---

(١) يخفق ، وقد كرر هذا المعنى فى سينيته فقال :

« ولكم أحدى قعود ولكم اكدى التماس »

(٢) حاولت الأيام أن تخيفنى فلم أخف .

(٣) أى أن المصائب لاتنال منه منالا ، صادت من صافه الهم إذا نزل به ، والجلى : الأمر العظيم والحادث المروع ، والأروع : الذكي الحديد الفؤاد الحى النفس ، والمعنى : إذا نزلت بي جلى الحوادث تكشفت عن فتى حاضر العقل حديد الفؤاد ، وفى الأصل « صابتنى » من صاب السهم القرطاس بمعنى أصاب وهي لغة قليلة لا نظن أن ابن زيدون يلجأ إلى استعمالها مع غزارة مادته

كَأَنَّا لَمْ يُوَالِفْنَا زَمَانٌ لَيِّنُ الْأَخْدَعْ (١)
إِذِ الدُّنْيَا ـ مَتَى نَقْتَدْ أَبِيَّ سُرُورِهَا ـ يَتْبَعْ (٢)
وَإِذْ لِلْحَظِّ إِقْبَالٌ وَإِذْ فِى الْعَيْشِ مُسْتَمْتَعْ
وَإِذْ أَوْتَارُنَا تَهْفُو وَإِذْ أَقْدَاحُنَا تُتْرَعْ (٣)
وَأَوْطَارُ الْمُنَى تُقْضَى وَأَسْبَابُ الْهَوَى تَشْفَعْ
فَمِنْ أُدْمَانَةٍ (٤) تَعْطُو (٥) وَمِنْ قُمْرِيَّةٍ تَسْجَعْ
أَعِدْ نَظَراً فَإِنَّ الْبَغْـ ـىَ مِمَّا لَمْ يَزَلْ يَصْرَعْ
وَلَا تُطِعِ الَّتِى تُغْوِيـ ـكَ، فَهْىَ لِغَيِّهِمْ أَطْوَعْ (٦)
تَقَبَّلْ ـ إِنْ أَتَى ـ خَطْباً وَأَنْفُ الْفَحْلِ لَا يُقْرَعْ (٧)

---

(١) يقول : إنك مولع الآن بالكيد والاساءة إلىّ متناسيا تلك الأيام التى ألف فيها بيننا الزمن المواتى ، حين كنا أخوين متآلفين ، وفى الأصل : « كأنا لم يولينا » .

(٢) وفى الأصل : « إذ الدنيا متى » . (٣) تملأ .

(٤) الأدمان ـ بالفتح ـ شجر الحنة ، وهى أكبر من البقول وأصغر من الشجر ، الأدمانة : بضم فسكون قالوا إنه جمع إدماء كحمراء وهى الظبية الخالصة البياض ، قال ذو الرمة :

من المؤلفات الرمل أدماء حرة شعاع الضحى فى متنها يتوضح

وصحح بعض اللغويين أن أدمانة مفرد كخمصانة وإذن فهى مرادفة لأدماء ، وتعطوا : تتطاول إلى الشجر لتتناول منه . (٥) تميل .

(٦) دع غواية هذه الماكرة فانها أطوع لغواية أعدائك ومنافسيك ولن تستطيع أن تتغلب على كيدهم وغوايتهم ، وفى الأصل : « فهى لبغيهم أطوع » .

(٧) قرع الأنف رمز للهوان ، قالوا : وخص الأنف بالضرب لأنه محل الأنفة والكبر والشمم .
والعرب تقول فى امثالها : « أنف الفحل لايقرع » وهى تقوله : للخاطب الكفء .
والأصل فى الفحل الأبل إذا ضرب وجهه عن الناقة التى يريدون نتاجها منه .
قالوا : وتمثل به أبو سفيان بن حرب حين بلغه زواج النبى (صلى الله عليه وسلم) ابنته أم حبيبة فقال : « ذاك الفحل لا يقرع أنفه » .
وفى الأصل : « وأنف النمل لا يقرع » يقول : إن العظيم لايهن عزمه أمام الخطوب والكوارث ، وليكن لك فى هذا عزاء ولتتقبل أى خطب إن أتاك بصدر رحب ، فصبر واحد على تلك المرأة الغادرة التى لا قيمة لها ولا خطر

وَلاَ تَكُ مِنْكَ تِلْكَ الدَّا ... رُ بِالمَرْأَى وَلاَ المَسْمَعْ

فَإِنَّ قُصَارَكَ الدِّهْلِيـ ... ـزُ، حِينَ سِوَاكَ فِي المَضْجَعْ (١)

جَرِّبِ النَّاسَ وَامْتَحِنْ

خُنْتَ عَهْدِي وَلَمْ أَخُنْ ... بِعْتَ وُدِّي بِلاَ ثَمَنْ

قَائِلاً : « هَلْ مُزَايِدٌ ... رَابِحاً ؟ ثُمَّ مَنْ يَزِنْ (٢) »

عُدَّتِي كُنْتَ لِلزَّمَا ... نِ ، فَقَدْ خُنْتَ وَالزَّمَنْ (٣)

أَرْخِصِ البَيْعَ كَيْفَ شِئْتَ ... وَذَرْنِي ، لَتَنْدَمَنْ (٤)

سَوْفَ تُبْلَى بِغَيْرِنَا ، ... جَرِّبِ النَّاسَ وَامْتَحِنْ

---

(١) وتناس تلك الدار التي كانت ذكرياتها منبعث آلامك وأحزانك ، فليس لك أمل في اكتساب ودها ، وقصارى ما تصل إليه أن تكون في الدهليز حين ينعم غيرك بالمضجع .

(٢) بعت عهدي رخيصاً مع صدق ودادي لك ، وأخذت تدلل عليه في السوق زاهداً فيه باحثاً عمن يشتريه بأبخس الأثمان . (٣) كنت عدتي التي أحارب بها الزمن فأصبحت حرباً عليّ أنت والزمن .

وقريب من هذا المعنى وأدق منه وأروع قول ابن الرومي :

« تخذتكمو درعاً حصيناً لتدفعوا ... سهام العدا عني فكنتم نصالها

وقد كنت أرجو منكم خير ناصر ... على حين خذلان اليمين شمالها »

إلى أن يقول :

« قفوا وقفة المعذور عني بنجوة ... وخلوا نبالي للعدا ونبالها »

وقول القائل :

« وإخوان حسبتهمو دروعاً ... فكانوها ، ولكن للأعادي

وخلتهمو سهاماً صائبات ... فكانوها ، ولكن في فؤادي

وقالوا : « قد صفت منا قلوب ... لقد صدقوا ، ولكن عن ودادي »

(٤) ازهد في ودي كما شئت فوالله لتندمنّ على زهادتك فيّ ، وما أجمل قول ابن الرومي :

« وأراك بودي أن يذال فإنني ... في غير ذاك من الأمور أرخص

إياك لا تستحل ما أرخصته ... طرا ، فأغلى منه ما لا أرخص

شتري ـ متى استنفرتني وطلبتني ـ ... أني سأزهد عند ذاك وتحرص »

فى مدح ابن جهـــور

« قالها فى مدح أبى الحزم بن جهور
أحد ملوك الطوائف »

هٰذَا الصَّبَاحُ عَلَى سُرَاكِ رَقِيبَا ... فَصِلِي بِفَرْعِكِ لَيْلَكِ الْغِرْبِيبَا (١)

وَلَدَيْكِ ـ أَمْثَالَ النُّجُومِ ـ قَلَائِدٌ ... أَلِفَتْ سَمَاءَكِ لَبَّةً وَتَرِيبَا (٢)

لِيَنُبْ عَنِ الْجَوْزَاءِ قُرْطُكِ كُلَّمَا ... جَنَحَتْ تَحُثُّ جَنَاحَهَا تَغْرِيبَا (٣)

وَإِذَا الْوِشَاحُ تَعَرَّضَتْ أَثْنَاؤُهُ ... طَلَعَتْ ثُرَيَّا لَمْ تَكُنْ لِتَغِيبَا (٤)

---

(١) سراك : سيرك ليلا ، الغربيب : الشديد السواد يقول كاد الصباح يفضحك فصلى سواد الليل بسواد شعرك ، أليس شعرك كالليل ، قال ابن بسام :

قوله : « فصلى بفرعك ليلك الغربيبا » من قول أبى الطيب :

« كشفت ثلاث ذوائب من شعرها ... فى ليـــلة فأرت ليالى أربعاً »

وينظر إلى قول المعرى :

« يود أن ظلام الليل دام له ... وزيد فيه سواد القلب والبصر »

وللتهامى :

« وتود لو جعلت سواد قلوبها ... وسواد أعينها ســواد عذار »

وقال محمد بن هانئ :

قد أظلموا بالدهم منها فجرهم ... فتكورت شمس النهار تعصبا
واستأنفوا نشاتها سحرا ، فلو ... عقدوا نواصيها أعادوا الغيهبا

(٢) اللبة بوزن الحبة المنحر — والتريب : واحد ترائب الصدر ، وهى موضع القلادة منه — والمعنى لديك قلائد شبيهة بالنجوم تسكن سماء النحر والصدر منك كما تسكن النجوم السماء — وأمثال النجوم بالنصب حال من قلائد النكرة متقدم عليه ، وهو الذى سوغ مجىء صاحب الحال نكرة ، قال ابن مالك :

« ولم ينكر غالبا ذو الحال إن * لم يتأخر » ومن شواهده قوله : « وما لام نفسى مثلها لى لائم » فمثلها بالنصب حال من لائم النكرة ، ويجوز أن يكون أمثال مبتدأ خبره لديك وقلائد بدلا منه .

(٣) الجوزاء : نجم يعترض فى جوز السماء أى وسطه ، شبه قرطها بالجوزاء وجنحت أى مالت مغربة كأنها طائر يحث جناحه . يقول أنيبى عن الجوزاء قرطك إذا مالت مغربة لتغيب فى الأفق .

(٤) الوشاح : أديم ينسج عريضا ويرصع بالجواهر وتشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها وتشبه الثريا إذا تعرضت أى سارت معوجة بالوشاح المعوجة أثناؤه — وأثناء الوشاح ما أنثنى منه ، قال امرؤ القيس :

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت ... تعرض أثناء الوشاح المفصل

أى أعوجت ولم تستقم فى سيرها اعوجاج ما انثنى من الوشاح على جارية اتشحت به .

وَلَطَالَمَا أَبْدَيْتِ إِذْ حَيَّيْتِنَا كَفًّا هِيَ الْكَفُّ الْخَضِيبُ خَضِيبَا

***

أَظَنِينَةً ، دَعْوَى الْبَرَاءَةِ شَأْنُهَا أَنْتِ الْعَدُوُّ فَلِمْ دُعِيتِ حَبِيبَا (١)

مَا بَالُ خَدِّكِ لَا يَزَالُ مُضَرَّجًا بِدَمٍ وَلَحْظُكِ لَا يَزَالُ مُرِيبَا (٢)

لَوْ شِئْتِ مَا عَذَّبْتِ مُهْجَةَ عَاشِقٍ مُسْتَعْذِبٍ فِي حُبِّكِ التَّعْذِيبَا

وَلَزُرْتِهِ - بَلْ عُدْتِهِ - إِنَّ الْهَوَى مَرَضٌ يَكُونُ لَهُ الْوِصَالُ طَبِيبَا

مَا الْهَجْرُ إِلَّا الْبَيْنُ لَوْلَا أَنَّهُ لَمْ يَشْحُ فَاهُ بِهِ الْغُرَابُ نَعِيبَا (٣)

---

(١) يا متهمة بقتل العاشقين يا مخضوبة الكف بدمائهم أنت العدو فكيف دعوت نفسك حبيبا .

(٢) مثله قول الحصرى :

« عيناك قد اغترتا بدمى وعلى خديك توردة »

(٣) شحا فاه يشحوه . فتحه ، والنعيب والنعاب : صوت الغراب ، ويعنى ما الهجر إلا البين إلا أن الغراب فى هذه المرة — لم يفتح فاه لينذرنا بذلك الهجر المميت ، والنعيب نذير الفراق عند العرب ، ويسمون الغراب الأبقع غراب البين ، قال عنترة :

« ظعن الذين فراقهم أتوقع وجرى ببينهم الغراب الأبقع »

وقال النابغة الذبيانى :

« زعم الأحبة أن رحلتهم غدا وبذاك تنعاب الغراب الأسود
لا مرحبا بغد ، ولا أهلا به إن كان تفريق الأحبة فى غد »

وقال قيس ابن ذريح :

« ألا يا غراب البين ، قد طرت بالذى أحاذر من لبنى فهل أنت واقع
وإنك لو أبلغتها : قيلى اسلمى بكت حذرا وأرفض منها المدامع »

وقال المعرى : « نبى من الغربان ليس على شرع يخبرنا أن الشعوب إلى صدع
أصدقه فى مريه ، وقد امترت صحابة موسى بعد آياته التسع »

وقال فى رثاء الشريف المرتضى :

« من شاعر للبين قال قصيدة يرثى الشريف على روى القاف »

إلى آخر هذه الأبيات التى لاحاجة بنا إلى تقصيها .

وقد شذ أحد الشعراء فأنحى باللائمة على من مذهب هذا المذهب الخاطئ فى ذم الغراب ، وبرأه من تهمة التفريق ، فقال : والناس يلحون غراب البين لما جهلوا
وهل غراب البين إلا ناقة أو جمل
وما على ظهر غراب البين تطوى الرحل

وَلَقَدْ قَضَى فِيكَ التَّجَلُّدُ نَحْبَهُ ... فَثَوَى وَأَعْقَبَ زَفْرَةً وَنَحِيبَا

وَأَرَى دُمُوعَ الْعَيْنِ لَيْسَ لِفَيْضِهَا ... غَيْضٌ إِذَا مَا الْقَلْبُ كَانَ قَلِيبَا

***

مَالِي وَلِلْأَيَّامِ لَجَّ مَعَ الصِّبَا ... عُدْوَانُهَا فَكَسَا الْعِذَارَ مَشِيبَا

مَحَقَتْ هِلَالَ السِّنِّ قَبْلَ تَمَامِهِ ... وَذَوَى بِهَا غُصْنُ الشَّبَابِ رَطِيبَا

لَا لَمَّ بِي مَا لَوْ أَلَمَّ بِشَاهِقٍ ... لَانْهَالَ جَانِبُهُ فَصَارَ كَثِيبَا (١)

فَلَئِنْ تَسُمْنِي الْحَادِثَاتُ فَقَدْ أَرَى ... لِلْجَفْنِ فِي الْعَضْبِ «الطَّرِيرِ نُدُوبَا» (٢)

وَلَئِنْ عَجِبْتُ لِأَنْ أُضَامَ «وَجَهْوَرٌ» ... نِعْمَ النَّصِيرُ لَقَدْ رَأَيْتُ عَجِيبَا

مَنْ لَا تُعَدِّي النَّائِبَاتُ لِجَارِهِ ... زَحْفًا وَلَا تَمْشِي الضَّرَاءَ دَبِيبَا (٣)

مَلِكٌ أَطَاعَ اللهَ مِنْهُ مُوَفَّقٌ ... مَا زَالَ أَوَّابًا إِلَيْهِ مُنِيبَا

يَأْتِي رِضَاهُ مُعَادِيًا وَمُوَالِيًا ... وَيَكُونُ فِيهِ مُعَاقِبًا وَمُثِيبَا

مُتَمَرِّسٌ بِالدَّهْرِ يَقْعُدُ صَرْفُهُ ... إِنْ قَامَ فِي نَادِي الْخُطُوبِ خَطِيبَا

---

(١) المعنى : لقد نزل بي ما لو نزل بجبل شاهق لسقط جانبه فصار كثيبا مهيلا أى رملا قد هيل وانتثر — وهو مأخوذ من قوله تعالى « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا »

(٢) تسمني : أى تجشمني مكروها من قولهم سامه خسفا إذا أولاه إياه وأراده عليه — والجفن : الغمد — والعضب : السيف — والطرير : القاطع — والندوب : جمع ندب بفتحتين وهو فى الأصل أثر الجرح فى الجسم إذا لم يرتفع عن الجلد — وأراد به هنا أثر الصدأ الذى يعلو فرند السيف لطول مكثه فى الغمد — والمعنى فلئن يعيرني طول المكث فى السجن فإن السيف يصدأ بطول المكث فى الجفن .

(٣) تعدى : بالتضعيف تحضر وتسرع فى العدو — وزحفا من زحف الجيش — والضراء : من قولهم فلان يمشى الضراء إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر — والدبيب : مصدر دب النمل والشيخ مشى على هينته والمعنى : نعم النصير جهور من لا تسرع النائبات إلى جاره زحفا ولا تدب إليه مستخفية

لَا يُوسَمُ الرَّأْىُ الْفَطِيرُ بِهِ وَلَا ... يَعْتَادُ إِرْسَالَ الْكَلَامِ قَضِيبَا (١)

تَأْبَى ضَرَائِبُهُ الضُّرُوبَ نَفَاسَةً ... مِنْ أَنْ تَقِيسَ بِهِ النُّفُوسُ ضَرِيبَا (٢)

بَسَّامُ ثَغْرِ الْبِشْرِ إِنْ عَقَدَ الْحُبَا ... فَرَأَيْتَ وَضَّاحًا هُنَاكَ مَهِيبَا (٣)

مَلَأَ النَّوَاظِرَ صَامِتًا وَلَرُبَّمَا ... مَلَأَ الْمَسَامِعَ سَامِعًا وَمُجِيبَا (٤)

عِقْدٌ تَأَلَّفَ فِى نِظَامِ رِيَاسَةٍ ... نَسَقَ اللَّآلِئِ مُنْجِبًا وَنَجِيبَا

يَغْشَى التَّجَارِبَ كَهْلُهُمْ مُسْتَغْنِيًا ... بِقَرِيحَةٍ هِىَ حَسْبُهُ تَجْرِيبَا

وَإِذَا دَعَوْتَ وَلِيدَهُمْ لِعَظِيمَةٍ ... لَبَّاكَ رَقْرَاقَ السَّمَاحِ أَدِيبَا (٥)

---

(١) الرأى الفطير : ما فيه عجلة وأصله من اختبار العجين قبل أن يختمر — و قضيب : المقتضب من قولهم اقتضب الخطبة والكلام أى أرسلها من غير إعداد وتهيئة — والمعنى : أنه لايتسم سمة العجلة فى الرأى ولا يرسل الكلام مقتضبا مرتجلا من غير إعداد له ورياضة عليه .

(٢) ضرائبه : سجاياه — والضروب : جمع ضرب وهو المثل والشبيه كالضريب ، أى تمنع سجاياه أن يكون له أمثال وأشباه نفاسة بتلك الخلال الكريمة أى ضنا بها وإباء من أن تقيس به النفوس ضريبا وشبيها

(٣) الحبوة : كغرفة وسدرة تجمع على حبا كغرف وسدر ، والاحتباء أن يضم الجالس رجليه إلى بطنه ويجمعهما مع ظهره بثوب وقد يحتبي بيديه ، وهو يقوم مقام إسناد الظهر إلى حائط أو نحوه ، يعنى أنه كثير الابتسام فى طلاقة وبشر أن جلس محتبيا فطرت منه وضاح الجبين مشرق الطلعة مهيبا .

(٤) المعنى : أنه ملأ النواظر — روعة وهيبة فى حال صمته والمسامع حكمة وبيانا سامعا من الناس ومجيبا قال ابن بسام :

قوله : « ملأ النواظر صامتا » من قول ابن زيدون أيضا :

اسألها واجعل بكاك جوابا ... تجد الشوق سائلا ومجيبا

وينظر أيضا إلى لفظ هذا البيت دون معناه قول أبى الطيب :

فدعاك حاسدك الرئيس وامسكوا ... ودعاك خالقك الرئيس الأكبرا

خلقت صفاتك فى العيون كلامه ... كالخط يملأ مسمعى من أبصرا

ويلمح أيضا هذا البيت قول أبى نواس — على ما فسره بعض الناس —

«ألا فاسقنى خمرا وقل لى : هى الخمر » وهذا التفسير فيه أضعف الوجوه ، وبيت بن شرف أشبه من هذه كلها ببيت ابن زيدون ، وهو قوله يمدح صاحب القيروان :

سل عنه وانطق به وانظر إليه تجد ... ملء المسامع والأفواه والمقل

(٥) لباك : أجابك — ورقراق السماح : يريد أن سماحه يترقرق أى يجرى كالماء جريا سهلا — وأديبا : لعلها أريبا بالراء المهملة أي عاقلا

هِمَمٌ تُنَافِسُهَا النُّجُومُ وَقَدْ تَلاَ ... فى سُؤْدَدٍ مِنْهَا الْعَقِيبُ عَقِيبَا

وَمَحَاسِنٌ تَنْدَى رَقَائِقُ ذِكْرِهَا ... فَتَكَادُ تُوهِمُكَ الْمَدِيحَ نَسِيبَا (١)

كَالآسِ أَخْضَرَ نَضْرَةً ، وَالْوَرْدِ أَحْمَرَ بَهْجَةً ، وَالْمِسْكِ أَذْفَرَ (٢) طِيبَا

وَإِذَا تَفَنَّنَ فى اللِّسَانِ ثَنَاؤُهُ ... فَافْتَنَّ لَمْ يَكُنِ الْمُرَادُ غَرِيبَا (٣)

غَالَى بِمَا فِيهِ فَغَيْرُ مُوَاقِعٍ ... سَرَفًا وَلاَ مُتَوَقِّعٍ تَكْذِيبَا (٤)

***

كَانَ الْوُشَاةُ ـ وَقَدْ مُنِيتُ بِإِفْكِهِمْ ـ ... أَسْبَاطَ يَعْقُوبٍ وَكُنْتُ الذِّيبَا (٥)

وَإِذَا الْمُنَى بِقَبُولِكَ الْغَضِّ الْجَنَى ... هُزَّتْ ذَوَائِبُهَا فَلاَ تَثْرِيبَا

أَنَا سَيْفُكَ الصَّدِئُ الَّذِى ـ مَهْمَا تَشَأْ ـ ... تُعِدِ الصِّقَالَ إِلَيْهِ وَالتَّذْرِيبَا (٦)

كَمْ ضَاقَ بِى مِنْ مَذْهَبٍ فى مَطْلَبٍ ... فَثَنَيْتَهُ فُسُحَ الْمَجَالِ رَحِيبَا

«وَزَهَا» جَنَابُ الشُّكْرِ ـ حِينَ مَطَرْتَهُ ـ ... بِسَحَائِبِ النُّعْمَى ـ فَرُدَّ خَصِيبَا (٧)

---

(١) قال ابن بسام :
قوله : « فتكاد توهمك المديح نسيبا » من قول أبى تمام :

طاب فيك المديح والتذ حتى ... فاق وصف الديار والتشبيبا

(٢) أذفر : ذكى طيب الريح .

(٣) إذا تفنن : أى أطرد مديحه فى اللسان ـ فافتن : أى أخذ فى فنون وضروب من المدح لم يكن مراد المادح غريبا لأنه يستملى من صفاته فيقول .

(٤) مواقع : مدان ، والمتوقع : المنتظر ـ والمعنى : بالغ مادحه بما فيه من الصفات فلم يكن مدانيا إفراطاً ولا متخوفا تكذيبا .

(٥) منيت بليت ـ والافك الكذب والتحديث بالباطل ، يريد انه برئ مما ابتلى به من إفكهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

(٦) التذريب : التحديد .

(٧) وجد هذا البيت فى الأصل وفى غيره من المظان ناقصا ، والزيادة يعطيها السياق .

* * *

فَتَهَنَّأِ الْاعْيَادَ عَادَةَ لاَبِسٍ   يُبْلِي الْدَّرِيسَ فيَسْتَجِدُّ قَشِيبا (١)

وَمَــتَى سَعَيْتَ لِنَازِحٍ مُتَعَذِّرٍ   فَوَجَدْتَهُ سَهْلَ الْمَرَامِ قَرِيبَا (٢)

وَأَرَادَ فِيكَ مُرَادَكَ الْقَدَرُ الَّذِى   لاَ تَسْــتَطِيعُ لِحُكْمِهِ تَعْقِيبَا

عتاب

أَحِينَ عَلِمْتَ حَظَّكَ مِنْ وِدَادِي   وَلَمْ تَجْهَلْ مَحَلَّكَ مِنْ فُؤَادِي

وَقَادَنِي الْهَوَى فَانْقَدْتُ طَوْعًا   وَمَا مَكَّنْتُ غَيْرَكَ مِنْ قِيَادِي

رَضِيتَ لِيَ السِّقَامَ لِبَاسَ جِسْمٍ   كَحَلْتُ الطَّرْفَ مِنْهُ بِالسُّهَادِ (٣)

* * *

أَجِلْ عَيْنَيْكَ فِى أَسْطَارِ كُتْبِي   تَجِدْ دَمْعِي مِزَاجًا لِلْمِدَادِ (٤)

فَدَيْتُكَ إِنَّنِي قَدْ ذَابَ قَلْبِي   مِنَ الشَّكْوَى إِلَى قَلْبٍ جَمَادِ

---

(١) يقال تهنأ الطعام ونهمأ به كما يقال تعلق الشيء وتعلق به — أى تهنأ بالأعياد غير مخالف عادتك فيها من إبلاء الثوب الدريس أى الخلق ، ولبس القشيب أى الجديد ، وهذا نظير قوله فى الرائيه .

فأبل وأخلف إنما أنت لابس   لهدى الليالى الغر وهى ثياب

(٢) ومتى سعيت لعل الأصل ولكم سعيت الذات — والذى يظهر ان هذه الأبيات التى ختمت بها هذه القصيدة وقع فيها شيء من التحريف فليحرر .

(٣) يقول : « أحين أيقنت انى لا أحل أحداً محلك من قلبي وعلمت أنى أسير هواك حزيتنى على ذلك الاخلاص فى الحب سقاما وتسهيداً . وما أحمل قول المجنون :

وأدنيتنى حــتى إذا ما فتنتنى   بقول يحل العصم سهل الأباطح

تناءيت عــنى حــين لالى حيلة   وغادرت ما غادرت بين الجوانح

(٤) تأمل فى سطور الــكتب التى أبعث بها إليك تجد دمعى مختلطا بمداده

رثاء فتاة

« قال يرثى ابنة المعتضد المتوفاة قبل وفاته بثلاث »

سَرَّكَ ٱلدَّهْرُ وَسَاءَ فَاقْنَ شُكْراً وَعَزَاء (١)
كَمْ أَفَادَ الصَّبْرُ أَجْراً وَاقْتَضَى الشُّكْرُ نَمَاء (٢)
أَنْتَ إِنْ تَأْسَ عَلَى الْمَفْقُودِ إِلْفاً وَاجْتِبَاء (٣)
فَاسْلُ عَنْهُ غَيْرَةً وَاحْتَمِلِ الرُّزْء إِبَاء
أَيُّهَا « الْمُعْتَضِدُ » الْمَنْصُورُ مُلِّيتَ الْبَقَاء (٤)
وَتَزَيَّدْتَ مَعَ الْأَيَّامِ عِزّاً وَعَلَاء (٥)
إِنَّمَا يُكْسِبُنَا الْحُزْنُ عَنَاء لَا غَنَاء (٦)
أَنْتَ طَبٌّ أَنَّ دَاءَ الْمَوْتِ قَدْ أَعْيَا الدَّوَاء (٧)
فَتَأَسَّ (٨) إِنَّ ذَاكَ الْخَطْبَ غَالَ الْأَنْبِيَاء
وَسَيَفْنَى الْمَلَأُ الْأَعْلَى إِذَا مَا اللهُ شَاء

* * *

حَبَّذَا هَدْىُ عَرُوسٍ دَفْنُهَا كَانَ الْهِدَاء
عُمِّرَتْ حِيناً وَمَاءَ الْمُزْنِ شَكْلَيْنِ سَوَاء

---

(١) اقن : الزم من قولهم قنى حيائى أى لزمته ، قال عنترة :

فأجبتها إن المنية منهل لابد أن أسقى بذاك المنهل
فاقنى حياءك لا أبا لك واعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل

والمعنى : سرك الدهر وساءك فاشكره على أن سرك وتعز بذلك عما ساءك .

(٢) زيادة . (٣) الاجتباء : الاصطفاء .

(٤) مليت البقاء : متعك الله بالبقاء . (٥) العلاء : الرفعة .

(٦) إنما يكسبنا الحزن ألما لا فائدة فيه ولا جدوى منه .

(٧) أنت عالم خبير بأن داء الموت لا دواء له . (٨) اصبر .

ثُمَّ وَلَّتْ فَوَجَـدْنَا أَرَجَ [١] الْمِسْكِ ثَنَاء

جَمَعَتْ تَقْوَى وَإِخْبَا تًا [٢] وَفَضْـلاً وَذَكَاء

سَتُوَفَّى مِنْ جِمَامِ الْـكَوْثَرِ الْعَذْبِ رَوَاء [٣]

حَيْثُ تَلْقَى الْأَتْقِيَا ءَ السُّـعَدَاءَ الشُّهَدَاء

* * *

هَانَ مَالَاقَتْ عَلَيْهَا أَنْ غَدَتْ مِنْكَ فِدَاء [٤]

غُنْمُ أَحْبَابِكَ أَنْ تَبْـقَى وَإِنْ عُمُّوا فَنَاء [٥]

فَالْبَسِ الصُّنْعَ مُـلَاءً وَاُسْحَبِ السَّعْدَ رِدَاء [٦]

وَرِثِ الْأَعْـدَاءَ أَعْمَا رَهُمُ وَالْأَوْلِيَاء [٧]

فى الغـزل

مَا ضَرَّ لَوْ أَنَّكَ لِي رَاحِمُ وَعِلَّتِي أَنْتَ بِهَا عَالِمُ

يَهْنِيكَ يَا سُؤْلِي وَيَا بُغْيَتِي أَنَّكَ مِمَّا أَشْتَكِي سَالِمُ [٨]

تَضْحَكُ فِي الْحُبِّ وَأَبْكِي أَنَا اللهُ ــ فِيمَا بَيْنَنَا ــ حَاكِمُ

أَقُولُ لَمَّا طَارَ عَنِّيَ الْكَرَى قَوْلَ مُعَـنًّى قَلْبُهُ هَائِمُ

« يَا نَائِماً أَيْقَظَـنِي حُبُّهُ هَبْ لِي رُقَاداً أَيُّهَا النَّائِمُ [٩] »

---

(١) طيب . (٢) الاخبات : الخشوع . (٣) ستروى من ماء الكوثر .

(٤) هون عليها حطب الموت أنها افتدتك بنفسها من الردى .

(٥) إن أحبابك ليرون فى بقائك أكبر فوز لهم ولو افتدوك بأنفسهم .

(٦) الملاء والملاءة : الريطة ذات لفقين ، والمعنى : ارفل فى حلل المعروف والسعادة .

(٧) وهبك الله أعمار أعدائك وأصفيائك .

(٨) من أبدع ما قرأناه فى هذا المعنى قول الشريف الرضى :

«أهون عليك ــ إذا امتلأت من الكرى ــ أنى أبيت بليـلة الملسـوع»

(٩) يقول : « ليس من العدالة أن تنام وأسهر ، فانعم على بالكرى بعد أن أيقظنى هجرك » .

تهنئـــة

« وقال يهنئ المعتضد وقد شرب دواء »

أَحْمَدْتَ عَاقِبَةَ ٱلدَّوَاءِ   وَنِلْتَ عَافِيَةَ الشِّــفَاءِ
وَخَرَجْتَ مِنْـــهُ مِثْلَمَا   خَرَجَ الْحُسَامُ مِنَ ٱلْجِلَاءِ
وَبَقِيتَ لِلدُّنْيَا فَأَنْـــتَ دَوَاؤُهَا مِنْ كُلِّ دَاءِ
وَوَرِثْتَ أَعْمَارَ الْعِدَى   وَقَسَمْتَهَا فِي الْأَوْلِيَاءِ[1]
يَا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ ٱلْجِيَا   دَ وَسَارَ فِي ظِلِّ اللِّوَاءِ
وَٱجْتَالَ يَوْمَ الْحَرْبِ قُدْ   مًا وَٱحْتَبَى يَوْمَ ٱلْحِبَاءِ[2]
بُشْرَاكَ عُقْبَى صِحَّـــةٍ   تَجْرِي إِلَى غَـــيْرِ ٱنْتِهَاءِ
فِي دَوْلَةٍ تَبْـقَى بَقَا   ءَ ٱلدَّهْرِ آمِنَةَ الْفَنَاءِ
وَمَسَرَّةٍ يُفْضِي بِهَا   زَمَنٌ كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ
وَٱشْرَبْ فَقَدْ لَذَّ النَّسِـــيمُ وَرَقَّ سِرْبَالُ ٱلْهَوَاءِ
لِنَرَى بِكَ ٱلْبَهْوَ الْمُطِلَّ يَمِيسُ فِي حُلَلِ ٱلْبَهَاءِ
وَبَقِيتَ مَفْدِيًّا بِنَا   إِنْ نَحْنُ جُزْنَا فِي الْفِدَاءِ[3]

---

(١) قوله : « وقسمتها فى الأولياء » يذكرنا قول العباس الأحنف :

لو كان هذا الحب يفـ ـدى فيه حكمى أو قضائى
لطلبتــه فجمعتــه من كل أرض أو سماء
فقســمته بينى وبيـ ـن حبيب نفسى بالسواء
حتـــى إذا متنا جميـ ـعاً ، والأمور إلى انتهاء
مات الهوى من بعدنا أو عاش فى أهل الوفاء

(٢) أجال : من إجالة القداح فى الميسر ويناسبه قدحا أى فاز بالظفر والنصر على الأعداء ، واجتال فى الحرب وجال بمعنى واحد ويناسبها قدما بضمتين — والتخفيف بالاسكان فى مثله جائز — ومعناه جال فى الحرب يمضى قدما أى إلى الامام ، والحباء : بالكسر العطاء .

(٣) فدتك أعمارنا إن كان يقبل منا هذا الفداء .

تهنئة بفصـــد

« وقال يهنيه بفصد »

لِيَهْنِكَ أَنْ أَحْمَدْتَ عاقبَةَ الْفَصْدِ فَلِلّهِ منَّا أَجْمَلُ الشُّكْرِ وَالحَمْدِ
وَيَا عَجَباً مِنْ أَنَّ مِبْضَعَ فاصِدٍ تَلَقَّيْتَهُ لَمْ يَنْصَرِفْ نَابِيَ الحَدِّ
وَمِنْ مُتَوَلِّى فَصْدِ يُمْنَاكَ كَيْفَ لَمْ يَهُلْهُ عُبابُ الْبَحْرِ فى مُعْظَمِ المَدِّ
وَلَمْ تَغْشَهُ الشَّمْسُ المُنِيرُ شُعَاعُهَا فَيُخْطِئَ فِيما رَامَــهُ سَنَنَ القَصْدِ

☆☆☆

سَرَى دَمُكَ المُهْرَاقُ فى الأَرْضِ فاكْتَسَتْ أَفَانِينَ رَوْضٍ مِثْلَ حَاشِيَةِ الْبُرْدِ
فِصَادٌ أَطَابَ الدَّهْرَ فَالْفِطْرُ فِى الثَّرَى كَمَا طَابَ مَاءُ الْوَرْدِ فى الْعَنْبَرِ الْوَرْدِ
لَقَدْ أَوْفَتِ الدُّنْيَا بِعَهْدِكَ نُصْرَهُ كَأَنَّكَ قَدْ عَلَّمْتَهَا كَرَمَ الْعَهْـدِ (١)
لَدَى زَمَنٍ غَضٍّ أَنِيقٍ فِرِنْدُهُ (٢) كَمِثْلِ فِرِنْدِ الْوَرْدِ فى خَجْلَةِ الخَدِّ
تُسَوِّغُ مِنْهُ الْعَيْشَ فى ظِلِّ دَوْلَةٍ مُقَابَلَةُ الْأَرْجَاءِ بِالْكَوْكَبِ السَّعْدِ

☆☆☆

فَهُبَّ إِلَى اللَّذَاتِ مُؤْثِرَ رَاحَــةٍ تُجِمُّ بِهَا (٣) النَّفْسَ النَّفِيسَةَ لِلْكَدِّ (٤)
وَوَالِ بِهَا فى لُؤْلُؤٍ مِنْ جَنَابِهَا (٥) كَجِيدِ الْفَتَاةِ الرُّودِ فى لُؤْلُؤِ الْعِقْدِ
وَإِنْ تَدْعُنَا لِلْأُنْسِ ـ عَنْ أَرْيَحِيَّةٍ ـ فَقَدْ يَأْنَسُ الْمَوْلَى إِذَا ارْتَاحَ بِالْعَبْدِ

---

(١) يقال وفى بالعهد أوفى بالعهد وكلاهما بمعنى واحد قال تعالى « وأوفوا بعهد الله » ومعنى البيت لقد عاهدتك الدنيا على النصرة ووفت بالعهد ولم تنقصه فكأنك قد علمتها الوفاء وكرم العهد .

(٢) أنيق الوشى . (٣) ترتاح بها .

(٤) تجم : يقال جمت وأجمها هو أى تركها تستجمع ما فقدته ، والمعنى : انشط إلى اللذات مفضلا الراحة قليلا ، واترك نفسك تستجمع مافقدته من قوتها لتستأنف الكد والعمل لمهام الدولة .

(٥) الجناب : الناحية وما قرب من محلة القوم .

فى مدح ابن جهور

مَا طولُ عَذْلِكِ لِلْمُحِبِّ بِنَافِعِ ... ذَهَبَ الْفُؤَادُ فَلَيْسَ فِيهِ بِرَاجِعِ (١)

فُنِّدْتِ حِينَ طَمِعْتِ فِى سُلْوَانِهِ ... هَيْهَاتَ لاَ ظَفَرٌ هُنَاكِ لِطَامِعِ (٢)

فَدَعِيهِ حَيْثُ يَطُولُ مَيْدَانُ الصِّبَا ... كَيْمَا يَجُرَّ بِهِ عِنَانَ الْخَالِعِ (٣)

مَا ذَا يَرِيبُكِ مِنْ فَتًى عَزَّ الْهَوَى ... فَعَنَا لِنَخْوَتِهِ بِذِلَّةِ خَاضِعِ (٤)

هَلْ غَيْرَ أَنْ مَحَضَ الْوَفَاءَ لِغَادِرٍ ... أَوْ غَيْرَ أَنْ صَدَقَ الْوِصَالَ لِقَاطِعِ (٥)

لَمْ يَهْوَ مَنْ لَمْ يُمْسِ قُرَّةَ عَيْنِهِ ... سَهَرُ الصَّبَابَةِ فِى خَلِيٍّ هَاجِعِ (٦)

وَاهاً لِأَيَّامٍ خَلَتْ مَا عَهْـــدُهَا ... ـ فِى حِينِ ضَيَّعْتِ الْعُهُودَ ـ بِضَائِعِ (٧)

زَمَنٌ كَمَا رَاقَ السَّقِيطُ مِنَ النَّدَى ... يَسْتَنُّ فِى صَفَحَاتِ وَرْدٍ يَانِعِ (٨)

أَيَّامَ إِنْ عَتَبَ الْحَبِيبُ ـ لِهَفْوَةٍ ـ ... شَفَعَ الشَّبَابُ فَكَانَ أَكْرَمَ شَافِعِ (٩)

---

(١) العذل : اللوم ، والمعنى : لاتعذليه فليس العذل بنافع محبا ذهب فؤاده مع من يهواه فليس يرجعه كثرة اللوم والتعنيف . (٢) فندت : أى نسبت إلى الكذب وضعف الرأى حين تطمعين فى سلو محب يبعد كل البعد أن يظفر طامع فى سلوانه بطائل .

(٣) الخالع : من خلع الفرس عذاره ألقاه عن نفسه فعدا بشر ، وهو مثل يضرب لمن أطلق من قيده ، يقول : اتركيه وشأنه فى الهوى حيث يتسع له مجال الصبا ، ومراح الشباب ، كى يطلق لنفسه العنان فى اللهو والمراح . (٤) ماذا يريبك : ماذا تكرهينه ويسوءك من فتى ، أو أى شىء يحملك منه فى ريبة وشك ، وعنا : خضع وأطاع ، والنخوة : العظمة والكبر ، وهذا البيت يذكرنا بقول الشريف الرضى:

« لو حيث يستمع السرار وقفتما لعجبتما من عزه وخضوعي »

(٥) معناه : هل يعرف غير محض الوفاء لمن غدر ، وحسن الصلة لمن هجر .

(٦) لم يذق طعم الهوى من لم يكن سهر الصبابة فى خلى نائم حبيبا إلى نفسه ، وقرة لعينيه .

(٧) واها : كلمة يتعجب بها من طيب الشىء وحسنه ، والمعنى : ماعهد تلك الأيام التى تروق بهجتها بضائع عندى فى حين ضيعت أنت كل العهود .

(٨) راق : أعجب ، والسقيط : ماسقط من الندى على الزهر ، ويستن : ينصب كالدمع فى صفحة الورد

(٩) قريب من هذا المعنى قوله فى مطلع بائيته :

أما علمت أن الشفيع شباب ... فيقصر عن لوم المحب عتاب

علام الصبا غض يرف رواؤه ... إذا عن من وصل الحسان ذهاب

انظر « ص ٤٠

مَالِي وَلِلدُّنْيَا غُرِرْتُ مِنَ الْمُنَى فِيهَا بِبَارِقَةِ السَّرَابِ الْخَادِعِ
مَا إِنْ أَزَالُ أَرُومُ شُهْدَةَ عَاسِلٍ أَحْمِي مُجَاجَتَهَا بِإِبْرَةِ لَاسِعِ (١)

* * *

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي الْبِلَادَ إِذَا نَبَتْ أَنْ لَسْتُ لِلنَّفْسِ الْأَلُوفِ بِبَاخِعِ (٢)
أَمَّا الْهَوَانُ فَصُنْتُ عَنْهُ صَفْحَةً أَغْشَى بِهَا حَدَّ الزَّمَانِ الشَّارِعِ (٣)
فَلْيُرْغِمِ الْحَظَّ الْمُوَلِّي أَنَّهُ وَلَّى فَلَمْ أُتْبِعْهُ خُطْوَةَ (٤) تَابِعِ
إِنَّ الْغِنَى لَهُوَ الْقَنَاعَةُ لَا الَّذِي يَشْتَفُّ نُطْفَةَ مَاءِ وَجْهِ الْقَانِعِ (٥)

* * *

اللهُ جَارُ « الْجَهْوَرِيِّ » فَطَالَمَا مُنِيَتْ (٦) صَفَاةُ (٧) الدَّهْرِ مِنْهُ بِقَارِعِ

---

(١) شهدة : بالضم والفتح واحدة الشهد وهو العسل مادام لم يعصر من شمعه ، والعاسل : الذى يشتار العسل أى يأخذه من الخلية ، والمجاجة : ما يمجه النحل من العسل ، وبين « عاسل » و « لاسع » جناس القلب ، والمعنى : مازلت أطلب من الدنيا أملا يحكى مجاجة عاسل حمتها إبرة لاسع .

(٢) نبت : لم يوافقه المقام بها قال : « وإذا نبا بك منزل فتحول » ، وباخع : مزهق نفسى وقاتلها غما والمعنى : من يبلغ عنى ساكنى تلك البلاد التى برحت عنها مع شدة تعلقى بها أنى لست بقاتل نفسى أسفا وغما على مفارقتها إذا نبت بى ولم توافقنى الاقامة فيها ، وفى معنى التحول عن منزل الضيم يقول بشار :

إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها خرجت مع البازى على سواد

أى على بقية من سواد الليل .

(٣) الشارع : من شرع نحوه حد السيف أو الرمح وأشرعه سدده له وهو نظير قول الآخر :

نعرض للطعان إذا التقينا وجوها لا تعرض للسباب

(٤) بالضم مابين القدمين وتجمع على خطا وخطوات .

(٥) النطفة الماء : القليل ، ويشتفها : يشربها عن آخرها ، يقال اشتف فى شربه إذا أتى على آخر ما فى الاناء فلم يسئر ، والمراد هنا انه يريقها كلها عند السؤال ، والقانع : السائل ، وفى الكتاب العزيز « وأطعموا القانع والمعتر » وهو من قنع — بالفتح — قنوعا إذا سأل ، لامن قنع — بالكسر — قناعة إذا رضى ولم يرق ماء وجهه ببذل السؤال ، يقول أن الغنى غنى النفس بالقناعة لا فى المال الذى يستنزف فيه السائل ماء وجهه ، ويشتف آخر قطرة من حيائه .

(٦) ابتليت .

(٧) الحجر العريض الأملس ويجمع على صفا .

مَلِكٌ دَرَى أَنَّ الْمَسَاعِيَ سُمْعَةٌ ... فَسَعَى فَطَابَ حَدِيثُهُ لِلسَّامِعِ

شِيَمٌ هِيَ الزَّهْرُ الْجَنِيُّ تَبَسَّمَتْ ... عَنْهُ الْكَمَائِمُ فِي الضَّحَاءِ[1] الْمَاتِعِ[2]

أَغْرَى مُنَافِسَهُ لِيُدْرِكَ شَأْوَهُ ... فَشَآهُ بِالْبَاعِ الطَّوِيلِ الْوَاسِعِ[3]

ثَبْتُ السَّكِينَةِ فِي النَّدِيِّ كَأَنَّمَا ... تِلْكَ الْحُبَا لِيثَتْ بِهَضْبٍ مَتَالِعِ[4]

عَذْبُ الْجَنَى لِلْأَوْلِيَاءِ فَإِنْ يَهِجْ ... فَالسُّمُّ يَأْبَى أَنْ يَسُوغَ لِجَارِعِ

* * *

يَأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي حَاطَ الْهُدَى ... لَوْلَاكَ كَانَ حِمًى قَلِيلَ الْمَانِعِ

أَنِسَ الْأَنَامُ إِلَيْكَ فِيهِ، فَهُمْ بِهِ ... مِنْ قَائِمٍ أَوْ سَاجِدٍ أَوْ رَاكِعِ

مُتَبَوِّئُونَ جَنَابَ عَيْشٍ مُونِقٍ ... مُتَفَيِّئُونَ ظِلَالَ أَمْنٍ شَائِعِ

فَلْتَضْرِبَنْ مَعَهُمْ بِأَوْفَرِ شِرْكَةٍ ... فِي أَجْرِهِمْ مِنْ مُوتِرٍ أَوْ شَافِعِ

خَيْرُ الشُّهُورِ اُخْتَرْتَ عِنْدَ طُلُوعِهِ ... خَيْرَ الْبِقَاعِ لَهُ بِأَسْعَدِ طَالِعِ[5]

---

(١) النهار قبل انتصافه بقليل وزمنه بعد زمن الضحى .

(٢) المرتفع .

(٣) الشأو : الطلق والشوط والغاية ، وشآه : سبقه .

(٤) الندىّ : المجلس ، والحبا : بالضم والكسر جمع حبوه وهى أن يجمع الجالس ساقيه إلى بطنه بيديه أو يجمع ظهره وساقيه بثوب ، والاحتباء من عادة العرب وهو يمنع الجالس من السقوط ويغنيه عن الجدار الذي يسند إليه ظهره ، وليثت : لفت وطويت حوله كما تطوى العمامه ، والمعنى : أنه وقور فى مجلسه رابط الجأش كأنما شدّت تلك الحبا منه على طود من الصخر تنحدر عنه مسايل الماء .

(٥) يقول إن شهر الصيام وهو خير الشهور قد اخترت له خير البقاع عند طلوعه بأسعد طالع

شكر

« وقال أيضا وقد أباح له المعتضد التنزه مع حرمه فى إحدى جناته . »

غَمَرَتْنِي لَكَ الْأَيَادِي (١) الْبِيضُ ... نَشَبٌ (٢) وَافِرٌ وَجَاهٌ عَرِيضُ

كُلَّ يَوْمٍ يَجِدُّ مِنْكَ اهْتِبَالٌ (٣) ، ... عَهْدُ شُكْرِي عَلَيْهِ غَضٌّ غَرِيضُ (٤)

بَوَّأَتْنِي (٥) نُعْمَاكَ جَنَّـــةَ عَدْنٍ ... جَالَ فِي وَصْفِهَا فَضَلَّ الْقَرِيضُ

مُجْتَنًى مُدَّنٍ ، وَظِلٌّ بَرُودٌ ، ... وَنَسِيمٌ يَشْفِي النُّفُوسَ مَرِيضُ (٦)

وَمِيَاهٌ قَدْ أَخْجَلَ الْوَرْدَ أَنْ عَا ... رَضَ تَذْهِيبَهُ لَهَا تَفْضِيضُ

كُلَّمَا غَنَّتِ الْحَمَائِمُ قُلْنَا : ... «مَعْبَدٌ إِذْ شَدَا أَجَابَ الْغَرِيضُ (٧)»

---

(١) النعم . (٢) النشب : المال والعقار . (٣) غنم .

(٤) الغريض : ماء المطر ، وكل أبيض طرى ، والمعنى : إنى أظفر منك كل يوم بنعم جديد أقابله منك بشكر جديد . (٥) أحلتنى أو أنزلتنى أو أسكنتنى .

(٦) يصف الجنة التى أحله فيها ممدوحه بأن قطوفها دانية وظلها ظليل ونسيمها عليل يشفى النفوس .

* * *

(٧) معبد والغريض

علمان من أعلام الموسيقى العربية وقد كانا متعاصرين ، وقد ذاع صيتهما حتى أصبحا مضرب الأمثال فى إجادة الغناء والافتنان فيه ، وقد كان معبد يقدر نبوغ الغريض ويشيد به ، كما تدل على ذلك قصة تعارفهما التى تترك لمعبد روايتها بأسلوبه الممتع ، قال :

« خرجت إلى مكة فى طلب لقاء الغريض ، وقد بلغنى حسن غنائه فى لحنه :

وما أنس م الأشياء لا أنس شادنا ... بمكة مكحولا أسيلا مدامعه

وقد كان بلغنى أنه أول لحن صنعه ، وأن الجن نهته أن يغنيه لأنه فتن طائفة منهم فانتقلوا عن مكة من أجل حسنه

وفى هذا التمهيد ما يدل على تصورهم واعتقادهم فى ذلك العصر ، فقد سحرتهم ألحان الغريض فنسبوا إليها المعجزات وأنشأوا حولها الأساطير

. . . .

قال معبد :

فلما قدمت مكة سألت عنه فدللت على منزله فأتيته ، فقرعت الباب ، فما كلمني أحد ، وسألت بعض الجيران فقلت : هل في الدار أحد ؟ فقال لي : نعم فيها الغريض ، فقلت : إني قد أكثرت دق الباب فما أجابني أحد قالوا : إن الغريض هناك ، فرجعت ودققت الباب ، فلم يجبني أحد ، فقلت : إن نفعني غنائي يوما نفعني اليوم فاندفعت وغنيت لحني في شعر جميل ، فوالله ما سمعت حركة الباب ، فقلت : بطل سحري ، وضاع سعري وحدثت أطلب ما هو عسير علي واحتقرت نفسي ، وقلت : لم يتوهمني لضعف غنائي عنده ، فما شعرت إلا بصائح يصيح يا معبد المغني ، افهم وتلق عني ، شعر جميل الذي غنى فيه ياشقي البخت ، وغنى :

« وما أنس مل اشياء لا أنس قولها . . . . »

(قال) فلقد سمعت شيئا لم اسمع احسن منه وقصر إلي نفسي وعلمت فضيلته علي بما احس من نفسه ، وقلت : انه لحري بالاستتار من الناس تنزيها لنفسه وتعظيما لقدره وان مثله لا يستحق الابتذال ، ولا ان تتداوله الرجال ، فأردت الانصراف إلى المدينة راجعا ، فلما كنت غير بعيد إذا بصائح يصيح بي : يا معبد انظر أكلمك فرجعت ، فقال : إن الغريض يدعوك ، وأسرعت فرحاً فدنوت من الباب . فقال لي : أتحب الدخول ، فقلت : وهل إلى ذلك من سبيل ، فقرع الباب ففتح ، فقال لي : ادخل ولا تطل الجلوس فدخلت فاذا شمس طالعة في بيت ، فسلمت فرد السلام ثم قال : اجلس فجلست ، فاذا أنبل الناس وأحسنهم وجهاً وخلقا وخلقاً ، فقال : يامعبد كيف طرأت إلى مكة ، فقلت : جعلت فداءك وكيف عرفتني ؟ فقال : بصوتك فقلت : وكيف وأنت لم تسمعه قط ؟ قال : لما غنيت عرفتك به وقلت : إن كان معبد في الدنيا فهذا ، فقلت : جعلت فداك فكيف أجبتني بقولك : «وما أنس مل أشياء لا أنس قولها » ، فقال : قد علمت أنك تريد أن أسمعك صوتي :

« وما أنس مل أشياء لاأنس شادنا   بمكة مكحولا أسيلا مدامعه »

ولم يكن إلى ذلك سبيل لأنه صوت قد نهيت أن أغنيه فغنيتك هذا الصوت جواباً لما سألت وغنيت فقلت : والله ما عدوت ما أردت فهل لك حاجة ، فقال لي :يا أبا عباد لولا ملامة الحديث وثقل إطالة الجلوس لا ستكثرت منك فاعذر ، فخرجت من عنده وإنه لأجل الناس عندي ورجعت إلى المدينة ، فتحدثت بحديثه وعجبت من فطنته وقيافته ، فما رأيت انساناً إلا وهو أجل منه في عيني.

* * *

ومما نختاره من أخبار معبد الطريفة ما حدث له في السفينة ، فقد رووا عنه أنه كان قد علم الغناء جارية من جواري الحجاز تدعى ظبية وعني بتخريجها ، فاشتراها رجل من أهل العراق فأخرجها إلى البصرة وباعها هناك فاشتراها رجل من أهل الأهواز فأعجب بها وذهبت به كل مذهب وغلبت عليه ، ثم ماتت — بعد أن أقامت عنده برهة من الزمان — وأخذ جواريه أكثر غنائها عنها ، فكان لمحبته

. . . .

إياها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبد وأين مستقره ويظهر التعصب له والميل إليه والتقديم لغنائه على سائر أغانى أهل عصره إلى أن عرف ذلك منه وبلغ معبداً خبره فخرج من مكة حتى أتى البصرة ، فلما وردها صادف الرجل وقد خرج عنها فى ذلك اليوم إلى الأهواز فاكترى سفينة ، وجاء معبد يلتمس سفينة ينحدر فيها إلى الأهواز فلم يجد غير سفينة الرجل ، وليس يعرف أحد منهما صاحبه ، فأمر الرجل الملاح أن يحلسه معه فى مؤخر السفينة ففعل وانحدروا ، فلما صاروا فى فم نهر الأبلة تغدّوا وشربوا وأمر جواريه فغنين ومعبد ساكت وهو فى ثياب السفر وعليه فروة وخفان غليظان وزى جاف من زى أهل الحجاز إلى أن غنت إحدى الجوارى :

بانت سعاد وأمسى حبلها انصرما واحتلت الغور فالاجراع من إضما

(والغناء لمعبد) فلم تجد أداءه فصاح بها معبد : يا جارية إنّ غناءك هذا ليس بمستقيم (قال) فقال له مولاها ـ وقد غضب ـ وأنت ما يدريك الغناء؟ ماهو إلا أن تمسك وتلزم شأنك فأمسك ، ثم غنت أصواتاً من غناء غيره وهو ساكت لا يتكلم حتى غنت « يا بنة الأزدى قلبي كئيب . . . » (والغناء لمعبد) فأخلت ببعضه ، فقال لها معبد : ياجارية لقد أخللت بهذا الصوت إخلالا شديداً . فغضب الرجل وقال له : ويلك ما أنت والغناء ، ألا تكفّ عن هذا الفضول . فأمسك ، وغنى الجوارى مليا ثم غنت إحداهنّ :

خليلىّ عوجا منكما ساعة معى على الربع نقضى حاجة ونودّع

(والغناء لمعبد) فلم تصنع فيه شيئاً ، فقال لها معبد : يا هذه أما تقوين على أداء صوت واحد ؟ فغضب الرجل وقال له : ما أراك تدع هذا الفضول بوجه ولا حيلة ، وأقسم بالله لئن عاودت لأخرجنك من السفينة فأمسك معبد حتى إذا سكتت الجوارى سكتة اندفع يغنى الصوت الأوّل حتى فرغ منه ، فصاح الجوارى : أحسنت يا رجل فأعده ، فقال : لا والله ولا كرامة ، ثم اندفع يغنى الثانى ، فقلن لسيدهنّ : ويحك هذا والله أحسن الناس غناء فسله أن يعيده علينا ولو مرة واحدة لعلنا نأخذه عنه فانه إن فاتنا لم نجد مثله أبداً فقال : قد سمعتن سوء ردّه عليكنّ وأنا خائف مثله منه وقد أسلفناه الاساءة فاصبرن حتى نداريه ، ثم غنى الثالث فزلزل عليهم الأرض ، فوثب الرجل فخرج إليه وقبل رأسه ، وقال : ياسيدى اخطأنا عليك ولم نعرف موضعك ، فقال له : فهبك لم تعرف موضعى قد كان ينبغى لك أن تتثبت ولا تسرع إلىّ بسوء العشرة وجفاء القول . فقال له : قد أخطأت وأنا أعتذر إليك مما جرى وأسألك أن تنزل إلىّ وتختلط بى ، فقال : أما الآن فلا . فلم يزل يرفق به حتى نزل إليه ، فقال له الرجل : ممن أخذت هذا الغناء . قال : من بعض أهل الحجاز ، فمن أين أخذه جواريك ، فقال : أخذنه عن جارية كانت لى ابتاعها رجل من أهل البصرة من مكة ، وكانت قد أخذت عن أبى عباد معبد وعنى بتخريجها فكانت تحلّ منى محل الروح من الجسد ، ثم استأثر الله عزّ وجلّ بها وبقى هؤلاء الجوارى وهنّ من تعليمها فأنا إلى الآن أتعصب لمعبد وأفضله على المغنين جميعا وأفضل صنعته على كلّ صنعة . فقال له معبد : أو إنك لأنت هو افتعرفنى ؟ قال : لا (قال) فصك معبد بيده صلعته ، ثم قال : فأنا والله معبد وإليك قدمت من الحجاز ووافيت البصرة ساعة نزلت السفينة لأقصدك بالأهواز ووالله لاقصرت فى جواريك هؤلاء ولأجعلنّ لك فى كلّ واحدة منهنّ خلفا من الماضية ، فأكب

. . . .

الرجل والجوارى على يديه ورجليه يقبلونها ويقولون : كتمتنا نفسك طول هـذا حتى جفونك فى المخاطبة وأسأنا عشرتك وأنت سيدنا ومن نتمنى على الله أن نلقاه . ثم غير الرجل زيه وحاله وخلع عليه عدة خلع وأعطاه فى وقته ثلثمائة دينار وطيبا وهدايا بمثلها، وانحدر معه إلى الأهواز فأقام عنده حتى رضى حذق جواريه وما أخذنه ، ثم ودعه وانصرف إلى الحجاز .

***

وقد روى أبو الفرج قصة قدوم معبد إلى مكة وسماعه من المغنين وغنائه لهم فقال :

قال معبد : غنيت وأنا حى غنائى وأعجب الناس وذهب لى به صيت وذكر ، فقلت : لآتين مكة فلأسمعن من المغنين بها ولأغنينهم ولأتعرفن إليهم ، فابتعت حمارا فخرجت عليه إلى مكة ، فلما قدمتها بعت حمارى وسألت عن المغنين أين يجتمعون ، فقيل : بقعيقعان فى بيت فلان فجئت إلى منزله فالتمس فقرعت الباب ، فقال من هذا ، فقلت : انظر عافاك الله ، فدنا وهو يسبح ويستعيذ ـ كأنه يخاف ـ ففتح ، فقال : من أنت عافاك الله ؟ قلت : رجل من أهل المدينة . قال : فما حاجتك ؟ قلت : أنا رجل أشتهى الغناء وأزعم أنى أعرف منه شيئا وقد بلغنى أن القوم يجتمعون عندك وقد أحببت أن تنزلنى فى جانب منزلك وتخلطنى بهم فانه لا مؤونة عليك ولا عليهم منى ، فلوى شيئاً ثم قال : انزل على بركة الله (قال) فنقلت متاعى ونزلت فى جانب حجرته ثم جاء القوم حين أصبحوا واحداً بعد واحد حتى اجتمعوا وأنكرونى وقالوا : من هذا الرجل . قال : رجل من أهل المدينة خفيف يشتهى الغناء ويطرب عليـه ليس عليكم منه عناء ولا مكروه . فرحبوا بى وكلمتهم ثم انبسطوا وشربوا وغنوا، فجعلت أعجب بغنائهم وأظهر ذلك لهم ويعجبهم منى حتى أقمنا أياماً وأخذت من غنائهم وهم لايدرون أصواتاً وأصواتاً وأصواتاً ، ثم قلت لابن سريج : فديتك امسك علىّ صوتك :

قل لهند وتربها قبل شحط النوى غدا

قال : أو تحسن شيئا ، قلت : تنظر وعسى أن أصنع شيئا . واندفعت فيه فغنيته فصاح وصاحوا وقالوا : أحسنت قاتلك الله . قلت : فأمسك على صوت كذا فامسكوه علىّ فغنيته فازدادوا عجباً وصياحا . فما تركت أحداً منهم إلا غنيته من غنائه أصواتاً قد تخيرتها (قال) فصاحوا حتى علت أصواتهم وهرعوا بى ، وقالوا : لأنت أحسن بأداء غنائنا منا ، قلت : فامسكوا علىّ ولا تضحكوا بى حتى تسمعوا من غنائى ، فامسكوا على فغنيت صوتا من غنائى فصاحوا بى ثم غنيتهم آخر وآخر فوثبوا إلى وقالوا : نحلف بالله إن لك لصيتا واسما وذكراً وان لك فيما هاهنا لسهماً عظيما فمن أنت ؟ قلت أنا معبد فقبلوا رأسى وقالوا : لبست علينا وكنا نتهاون بك ولا نعدك شيئا وأنت أنت . فأقمت عندهم شهرا آخذ منهم ويأخذون منى ثم انصرفت إلى المدينة.

***

ومن الطرف النادرة ماحدث لمعبد والأسود .

قال معبد : بعث إلىّ بعض أمراء الحجاز وقد كان جمع له الحرمان إن اشخص إلى مكة فشخصت ، قال : فتقدمت غلامى فى بعض تلك الأيام واشتد على الحر والعطش فانتهيت إلى خباء فيه أسود ، وإذا حباب

جَاوَرَتْ حَمَّةً (١) مُشَــيَّدَةَ المَبْـــنَى لِبَرْقِ الرِّخَامِ فِيـــهِ وَمِيض
مَرْمَرٌ أَوْقَدَ الفِرِنْدَ (٢) عَلَيْهِ سَلْسَلٌ بَحْرُهُ الزُّلَالُ يَفِيضُ
وَسْطَهَا دُمْيَةٌ يَرُوقُ أَجْتِلَاءُ الْـــكُلِّ مِنْهَا وَيَفْتِنُ التَّبْعِيضُ (٣)

ماء قد بردت فملت إليه فقلت : يا هذا اسقنى من هذا الماء ، فقال لا ، فقلت : فأذن لى فى الكن ساعة قال : لا ، فأنخت ناقتى ولجأت إلى ظلها فاستترت به ، وقلت : لو احدثت لهذا الأمير شيئا من الغناء أقدم به عليه ولعلى إن حركت لسانى ان يبل حلقى ريقى فيخفف عنى بعض ما أجده من العطش. فترنمت بصوتى : « القصر فالنخل فالجماء بينهما » فلما سمعنى الأسود ما شعرت به إلا وقد احتملنى حتى ادخلنى خباءه ثم قال اى بأبى أنت وأمى، هل لك فى سويق السلت بهذا الماء البارد ، فقلت : قد منعتنى أقل من ذلك وشربة ماء تجزئنى (قال) فسقانى حتى رويت وجاء الغلام فأقمت عنده إلى وقت الرواح ، فلما أردت الرحلة قال : اى بأبى أنت وأمى الحر شديد ولا آمن عليك مثل الذى أصابك فأذن لى أن أحمل معك قربة من ماء على عنقى وأسعى بها معك فكلما عطشت سقيتك وغنيتنى صوتا (قال) قلت : ذلك لك ، فوالله ما فارقنى يسقينى وأغنيه حتى بلغت المنزل .

وأخبار معبد والغريض طويلة متفرقة فى كتاب الأغانى فليرجع إليها من شاء .

(١) الحمة ـ بالفتح ـ العين الحارة الماء يستشفى بها الأعلاء ومنـه الحديث : « مثل العالم كمثل الحمة يأتيها البعداء ويتركها القرباء ، فبينما هى كذلك إذ غار ماؤها وقد انتفع بها قوم وبقى أقوام يتفكنون أى يتندمون» والحمة مدينة ذات ينابيع معدنية حارة وباردة بالقرب من مدينة «لوشة» وقد زارها «ابن بطوطة» ودخل مسجدها ووصف ماءها من صيـد البر والبحر ، والحمة ـ أيضا ـ اسم لمدائن أخرى ذات ينابيع معدنية حارة فى إقليم « غرناطة » وإقليم مرسية وغير ذلك ، وحمة غرناطه ، وتسمى مدينة الحمة عنـد أهل غرناطة .

(٢) الفرند : السيف ووشيه وجوهره ، وهو مايرى فيه شبه غبار أو مدب نمل ، والفرند : الورد الأحمر أيضاً .

(٣) أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومى فى وحيد المغنية :

وغرير بحسنها قال : « صفها » قلت : « أمران، هين وشديد.
يسهل القول : إنها أحسن الأشـ ـياء طرا ويصعب التحديد »

وفى هذه القصيدة يقول :

غادة زانها ـ من الغصن ـ قد ومن الظبى مقلتان وجيـــد
وزهاها من فرعها ومن الخـد ين ذاك الســـواد والتوريد
فهى برد ـ بخدها ـ وسـلام وهى للعاشـقين جهد جهيد
ما لما تصطليه ـ من وجنتيها ـ غـــير ترشاف ريقها تبريد
مثل ذاك الرضاب أطفأ ذاك الـ ـوجـد ، لولا الاباء والتصريد

وفيها يقول : تتجلى للناظرين إليها فشقى بحسنها وسعيد
ظبية ـ تسكن القلوب وترعا هـا ـ وقرية لها تغريد

بَشَرٌ نَاصِعٌ وَخَدٌّ أَسِيلٌ ... وَمُحَيًّا طَلْقٌ وَطَرْفٌ غَضِيضُ

وَقَوَامٌ كَمَا اسْتَقَامَ قَضِيبُ الْـ ... ـبَانِ إِذْ عَلَّهُ[1] ثَرَاهُ الْأَرِيضُ[2]

وَابْتِسَامٌ لَوْ أَنَّهَا اسْتَغْرَبَتْ فِيـ ... ـهِ أَرَاكَ اتَّسَاقُهُ الْإِغْرِيضُ[3]

وَالْتِفَاتٌ كَأَنَّمَا هُوَ بِالْإِيـ ... ـحَاءِ ـ مِنْ فَرْطِ لُطْفِهِ ـ تَعْرِيضُ

* * *

لُمَعٌ طَلَّةٌ مِنَ الْعَيْشِ مَا إِنْ ... لِلْهَوَى عَنْ مَحَلِّهَا تَعْوِيضُ

سَوَّغَتْنِي نَعِيمَهَا نَفَحَاتٌ ... لِلْمُنَى ـ مِنْ سَحَابِهَا ـ تَرْوِيضُ

تَابَعَتْهَا يَدُ الْهُمَامِ أَبِي عَمْـ ... ـرٍو فَمَا غَمْرُهَا لَدَيَّ مَغِيضُ[4]

تتعسى كأنها لا تعى ... ـ من سكون الأوصال ـ وهى تحيد

لا تراها هناك تلحظ عيـ ... ـنك منها ـ ولا يدر وريد

من هدوٍّ وليس فيه انقطاع ، ... وسجوٍّ وما به تبليد

مدّ فى شأو صوتها نفس كا ... فٍ ـ كأنفاس عاشقيها ـ مديد

وأرقّ الدلال والغنج منه ... وبراه الشجا ، فكاد يبيد

فتراه يموت طورا ويحيا ... مستلذّ بسيطه والنشيد

فيه وشى وفيه حلى من النغـ ... ـم مصوغ يختال فيه القصيد

طاب فوها وما ترجع فيه ... كل شىء لها بذاك شهيد

ثغب يقنع الصدى ، وعاء ... عنده يوجد السرور الفقيد

فلها ـ الدهر ـ لاثم مستزيد ... ولها ـ الدهر ـ سامع مستعيد

فى هوى مثلها يخف حليم ... ـ راجح حلمه ـ ويغوى رشيد

ما تعادى القلوب إلا أصابت ... بهواها منهنّ حيث تريد

إلى آخر هذه القصيدة المدة التى نجتزئ منها بهذا القدر اليسير فليرجع إليها من شاء فى ديوانه ليقارن بين هذه القصيدة وقصيدة ابن زيدون .

(١) عله : سقاه ، والأريض : الزكي التربة الخليق للنبت . (٢) المعجب

(٣) استغربت : بالغت فى الضحك ، والاغريض : الطلع وكل أبيض طرى .

(٤) اليد : النعمة ، والغمر : الماء الكثير ، ومغيض : اسم مفعول من غيض الماء فهو مغيض إذا غار ونضب ، أي تابعت تلك اللمع من رغد العيش يد مضافة إلى « أبى عمرو » لا تزال تغمرنا بمعينها الذى الذى لا يغيض ماؤه فليس معينها الغزير الماء ناضبا عندى .

مَلِكٌ ذَادَ عَنْ حِمَى الدِّينِ مِنْهُ　　مَنْ إِلَيْهِ فِى نَصْرِهِ التَّفْوِيضُ

وَسَمَا نَاظِرٌ مِنَ الْمَجْدِ فِى دُنْـ　　ـيَاهُ قَدْ كَانَ كَفَّهُ التَّغْمِيضُ (١)

إِنْ أَسَاءَ الزَّمَانُ أَحْسَنَ دَأْبًا　　مِثْلَمَا بَايَنَ النَّقِيضَ النَّقِيضُ (٢)

* * *

يَا مُعِزَّ الْهُدَى الَّذِى مَا لِمَسْـمَا　　هُ إِلَى غَيْرِ سَمْتِهِ تَغْرِيضُ

يَا مُحِلِّى يَفَاعَ حَالٍ ، مَكَانُ النَّـ　　ـجْمِ ـ مَهْمَا يُقَسْ إِلَيْهِ ـ حَضِيضُ (٣)

إِنْ أَنَلْ أَيْسَرَ الرَّغَائِبِ فِيهِ　　يَرْضَ فَوْزَ الْقِدَاحِ مِنِّى مُفِيضُ (٤)

لَوْ يَفَاعُ الْمَجَرَّةِ اعْتَضْتَ مِنْهُ　　رَاحَ يَدْعُو ثُبُورَهُ الْمُسْتَعِيضُ

حَظُّ سِنِّ امْرِئٍ نَأَى مِنْكَ قَرْعٌ　　وَقُصَارَى بَنَانِهِ تَعْضِيضُ

* * *

حَسْبِىَ النُّصْحُ وَالْوِدَادُ وَشُكْرٌ　　عَطَّرَ الدَّهْرَ مِنْهُ مِسْكٌ فَضِيضُ

دُمْ مُوَقًّى وَلِيُّكَ ـ الدَّهْرَ ـ مَجْبُو　　رُ مَسَاعِيكَ ، وَالْعَدُوُّ مَهِيضُ

فَاعْتِرَافُ الْمُلُوكِ أَنَّكَ مَوْلَا　　هُمْ حَدِيثٌ مَا بَيْنَهُمْ مُسْتَفِيضُ

---

(١) وتطلع إليك ناظر المجد بعد أن كف ناظره كثرة التغميض . يريد أنه بعد أن ذاد عن حوزة الدين سما بنظره فى شؤون دنيا كان قد صرفه عنها كثرة التغميض والاعراض .

(٢) وقريب من هذا قول الشاعر :

ضدّان لما استجمعا حسنا　　والضدّ يظهر حسنه الضدّ .

(٣) اليفاع : ما ارتفع من الأرض. يقول: يامن أحللتنى حالا رفيعا ، إذا قيس إليه النجم ـ على رفعته ـ عد حضيضا .

(٤) المفيض : من أفاض الرجل بقداح الميسر إذا ضرب بها فوقعت منبثة متفرقة .

شفاعة

قال هـذه القصيدة يمدح أبا الحزم بن جهور ويتحرم بجنابه ويطلب شفاعته ، قال ابن بسام :

« كان أبو الوليد ممن أنشأته دولة الجهاورة واصطفته اصطفاء الفرس للأساورة ، وقد اختص بأبي الوليد اختصاص الفرع بالورق وارتبطهم ارتباط الافاضة بالفور ، وأبو الحزم بن جهور — إذ ذاك — رأس الجماعة وأصل تلك الأسرة المطاعة من رجل أدهى من عمان وأجرأ من ليث خفان وأدهى من عمرو بن الحفان . وكان ابن زيدون متصلا بابنه أبي الوليد أطول حقبه اتصال أبي زبيد بالوليد بن عقبة وبينهما تآلف أحرما بكعبته وطافا وسقيا من تصافيهما نطافا وابن زيدون يعتد ذلك حساما مسلولا ويرى أنه يرد به صعب الخطوب ذلولا، إلى أن طلب صد أبيه أبي الحزم وتوسل فاستدفع به تلك الأسنة والأسل فما ثنى إليه عنان عطفه ولا كف عنه سنان صرفه مع استعطافه له بكل مقال يحل سخائم الاحقاد واستلطافه إياه بما يرد الصعب سلس القياد ، فمن بديع ذلك وأحسنه قوله :

ايه أبا الحزم اهتبل غرة ألسنة الشكر عليها فصاح »

أَمَا وَأَلْحَاظٍ مِرَاضٍ صِحَاحْ تُصْبِي وَأَعْطَافٍ نَشَاوَى صَوَاحْ

لِبَانَنٍ بِالْحُسْنِ فِي خَدِّهِ وَرْدٌ وَأَثْنَاءَ ثَنَايَاهُ رَاحْ

لَمْ أَنْسَ إِذْ بَاتَتْ يَدِي لَيْلَةً وِشَاحَهُ اللَّاصِقَ دُونَ الْوِشَاحْ (١)

أَلْمَمْتُ بِالْأَلْطَفِ مِنْـهُ وَلَمْ أَجْنَحْ إِلَى مَا فِيهِ بَعْضُ الْجُنَاحْ

لَأُصْفِيَنَّ الْمُصْطَفَى (٢) « جَهْوَراً » عَهْدًا لِرَوْضِ الحَزْنِ عَنْهُ انْتِضَاحْ

---

(١) قال ابن بسام : قوله : « وشاحه اللاصق دون الوشاح » معنى متداول ، ومن أقربه عصراً قول الفحل من أهل وقتنا :

« إن العزيز على حقوك انه بالردف حل منك مالا يحمل
تخذي له جسمي مكان وشاحه إن العليل بشكله يتعلل »

وقريب من هذا المعنى قول العباس بن الأحنف :

« يا ليت عباس سربال على جسدي أو ليتني كنت سربالا لعباس »

(٢) وفي رواية ابن بسام : « لأصفين المرتضى جهورا » .

جَزَاءُ مَا رَفَّهَ شُرْبَ الْمُنَى ... وَأَذَّنَ السَّعْيُ بِوَشْكِ النَّجَاحْ (١)

يَسَّرْتُ آمَالِي بِتَأْمِيلِهِ ... فَمَا عَدَانِي مِنْهُ فَوْزُ الْقِدَاحْ (٢)

لَمْ أَشِمِ الْبَرْقَ جَهَامًا وَلَمْ ... أَقْتَدِحِ الصُّمَّ بِبِيضِ الصِّفَاحْ (٣)

مَنْ مِثْلُهُ - لَا مِثْلَ يُلْفَى لَهُ - ... إِنْ فَسَدَتْ حَالٌ فَعَزَّ الصَّلَاحْ

يَا مُرْشِدِي جَهْلًا إِلَى غَيْرِهِ ... أَغْنَى عَنِ الْمِصْبَاحِ ضَوْءُ الصَّبَاحْ

رَكِينٌ مَا تُثْنِي عَلَيْهِ الْحُبَا ... يَهْفُو بِهِ نَحْوَ الثَّنَاءِ ارْتِيَاحْ (٤)

ذُو بَاطِنٍ أُقْبِسَ نُورَ التُّقَى ... وَظَاهِرٍ أُشْرِبَ مَاءَ السَّمَاحْ

أُنْظُرْ تَرَ الْبَدْرَ سَنًا وَاخْتَبِرْ ... تَجِدْهُ كَالْمِسْكِ إِذَا مِيثَ فَاحْ (٥)

* * *

إِيهِ « أَبَا الْحَزْمِ » اهْتَبِلْ غِرَّةً ... أَلْسِنَةُ الشُّكْرِ عَلَيْهَا فِصَاحْ (٦)

لَا طَارَ بِي حَظٌّ إِلَى غَايَةٍ ... إِنْ لَمْ أَكُنْ مِنْكَ مَرِيشَ الْجَنَاحْ

---

(١) رفه : من ورود الابل رفها ، وهى أن ترد الماء فى كل يوم متى شاءت .

(٢) يسرت يجوز أن يكون بالتشديد بمعنى سهلت وبالتخفيف من يسر ييسر إذا ضرب بقداح الميسر — والمعنى على الثانى ضربت بقداح آمالى ياسراً فلم يعدنى أن فزت بأوفر القداح حظوظا ، وفى رواية ابن بسام : « نشرت آمالى بتأميله »

(٣) أى لم انظر البرق ليس فيه مطر ، ولم اقتدح صلدا لم يور ناراً .

(٤) ركين من الركانة أى الرزانة — والمعنى : أنه وقور الحبوة رزينها يهفو به ويحركه نحو المدح أريحية فيهتز بعد سكون فى مجلسه ووقار .

(٥) مات الشيء يميثه إذا مرسه بيده فى الماء فذاب مرمسك ونحوه — يقول انظر تره كالبدر سنا وبهاء وأختبره تجده كالمسك فاح شذاه وقد ميث أى مرس باليد ، والمسك — إذا سحق — فاح شذاه ، وقد قال المعرى فى هذا المعنى وأجاد ما شاء أن يجيد .

« على البلى سيعيد المرء فائدة ... فالمسك يزداد من طيب إذا سحقا »

(٦) اهتبل : اغتنم يقال اهتبلت غفلته — والغرة : بالكسر الغفلة ، وفى المثل « الغرة تجلب الدره » أى الغفلة تجلب الرزق — والمعنى : أستكثر أبا الحزم فى غفلة أعدائك من المغانم والأموال تنطلق الألسنة مفصحة بشكرك ، وفى رواية ابن بسام : « ألسنة الدهر عليها فصاح »

عُتْبَاكَ ـ بَعْـدَ الْعَتْبِ ـ أُمْنِيَّةٌ مَا لِى عَلَى الدَّهْرِ سِوَاهَا اقْتِرَاحْ[1]

لَمْ يَثْنِنِى عَنْ أَمَلٍ مَا جَرَى قَدْ يُرْقَعُ الْخَرْقُ وَتُوْسَى الْجِرَاحْ

فَاشْحَذْ ـ بِحُسْنِ الرَّأْيِ ـ عَزْمِى يَرُعْ مِنِّى الْعِدَا، أَلَيْسَ شَاكِى السِّلَاحْ؟[2]

وَاشْـفَعْ فَلِلشَّافِعِ نُعْمَى بِمَا سَنَّاهُ مِنْ عَقْدٍ وَثِيقِ النَّوَاحْ[3]

إِنَّ سَحَابَ الْأُفْقِ مِنْهَا الْحَيَا وَالْحَمْدُ فِى تَأْلِيفِهَا لِلرِّيَاحْ[4]

وَقَاكَ مَا تَخْشَى مِنَ الدَّهْرِ مَنْ تَعِبْتَ فِى تَأْمِينِهِ وَاسْـتَرَاحْ

هـــدية تفاح

« وقال فى تفاح أهداه إلى المعتضد بالله
أبى عمرو عباد بن محمد بن عباد »

يَا مَنْ تَزَيَّنَتِ الرِّيَا سَةُ حِينَ أُلْبِسَ ثَوْبَهَا

وَلَهُ يَدٌ يَئِسَ الْغَـمَا مُ مِنَ اَنْ يُعَارِضَ صَوْبَهَا[5]

جَاءَتْكَ جَامِدَةُ الْمُدَا مِ فَخُذْ عَلَيْهَا ذَوْبَهَا[6]

---

(١) العتبى : الرجوع إلى ما يرضى العاتب أى رجوعك بعد العتاب إلى ما يرضينى أمنيه لا اقترح على الدهر سواها . (٢) قوِّ بحسن الرأى عزمى يخف منى العدا ، أليس عزمى شاكي السلاح ؟

(٣) سناه : سهله ويسره ـ من عقد : أى من حل عقد ـ وثيق النواح : أى عسر الحل من أى نواحيه أتيته ، وقرأت شاهدا على هذا فى أمالى أبى القاسم الزجاجى ، إن معاوية بن أبى سفيان صرف روح ابن زنباع عن عمله لخيانة بلغته عنه ، وأمره بالقدوم عليه ففعل ، وأمر بضربه فلما أخذته السياط قال : « نشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تهدم منى ركنا أنت بنيته ، أو تضع منى خسيسة أنت رفعتها » الخ ما قال ، فقال معاوية . « إذا الله سنى حل عقد تيسر ، خليا عنه » ـ ومعنى البيت أنه يطلب شفاعته ، ويبين أن للشافع على المشفوع له يد ونعمة بسبب ما سهله ويسره من حل عقد تيسر بعد أن تعقدت أواخيه وتوثقت نواحيه . (٤) الحيا : المطر ـ يريد أن الحمد للشافع لا للذى قبل منه الشفاعة ، كما أن الحمد ليس للسحب التى منها المطر بل للرياح التى تزجيها ثم تؤلف بينها فتمطر ، وقد كرر هذا المعنى فى بعض قصائده فقال :

للشفيع الثناء ـ والحمد فى صوب الحيا للرياح لا للغيوم

انظر (ص) من هذا الديوان . وقد سبقه البحترى إلى هذا المعنى فقال وأبدع :

« حازحمدي ، وللرياح ـ اللواتى تجلب الغيث ـ مثل حمد الغيوم »

(٥) نزول المطر . (٦) جعل المدام وهي الخمر نوعين جامدة وهى التفاح وذائبة وهى الراح وطلب إلى الممدوح أن يشرب عليها ذوبها وهى الراح الحقيقية .

لا يهنأ الشامت

« قال يمدح أبا الحزم بن جهور وقد كتبها
إليه من السجن . »

مَا جَالَ بَعْدَكِ لَحْظِى فى سَنَا الْقَمَرِ   إلاَّ ذَكَرْتُكِ ذِكْرَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ (١)

وَلاَ اسْتَطَلْتُ ذَمَاءَ اللَّيْلِ مِنْ أَسَفٍ   إلاَّ عَلَى لَيْلَةٍ سَرَّتْ مَعَ الْقِصَرِ (٢)

نَاهِيكِ مِنْ سَهَرٍ بَرْحٍ تَأَلَّفَهُ   شَوْقٌ إلَى مَا انْقَضَى مِنْ ذٰلِكَ السَّمَرِ

فَلَيْتَ ذَاكَ السَّوَادَ الجَوْنَ مُتَّصِلٌ   لَوِ اسْتُعَارَ سَوَادَ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ (٣)

☆
☆ ☆

أَمَّا الضَّنَى فَجَنَتْهُ لَحْظَةٌ عَنَنٌ   كَأَنَّهَا وَالرَّدَى جَاءا عَلَى قَدَرِ (٤)

فَهِمْتُ مَعْنَى الْهَوَى مِنْ وَحْيِ طَرْفِكِ لِى   إنَّ الْحِوَارَ لَمَفْهُومٌ مِنَ الحَوَرِ

وَالصَّدْرُ مُذْ وَرَدَتْ رِفْهًا نَوَاحِيَهُ   تُومُ الْقَلاَئِدِ لَمْ تَجْنَحْ إلَى صَدَرِ (٥)

---

(١) أى لم أجل ملحظى فى نور القمر بعد غيبتك عنى إلا ذكرتك كما يذكر الرائى عين الشىء وذاته بما يراه من آثاره . (٢) الذماء : بالفتح البقية الباقية من الليل — أى ما تمنيت أن يطول ما بقى من عمر الليل إلا أسفا على ليلة اشتملت على ما يسر مع قصرها والشعراء كثيرا ما يصفون ليالى الوصال بالقصر ، ومن أبدع ماقرأناه فى ذلك قول الشريف الرضى :

« أشكو الليالى غير ممتنة   إما من الطول أو من القصر

تطول فى هجرهم وتقصر فى الوصـ ـل ، فلا نلتقى على القدر

يا ليلة كاد من تقاصرها   يعثر فيها العشاء بالسحر »

(٣) يتمنى أن يصل ظلام الليل بما يستعيره من سواد القلب والبصر ، ولو للتمنى أى وليته استعار ، ولا خفاء أن سويداء القلب وسواد العين من أنفس الأشياء وأعزها ، ولكنه يبذلهما عارية فى سبيل استدامة الليل وطوله ، وجاء لابن بسام فى الذخيرة فى نقد هذا البيت . قوله : « لو استعار سواد القلب والبصر » لفظ المعرى حيث يقول :

يود أنّ ظلام الليل دام له   وزيد فيه سواد القلب والبصر

(٤) العنن : بفتحتين من عنّ الشىء إذا ظهر أمامك واعترض .

(٥) رفها : هو أن ترد الإبل الماء كل يوم — توم القلائد : جمع تومة بالضم وهى اللؤلؤة ، استعار ورود الإبل رفها لملازمة الحلى صدرها من غير أن تجنح بعد الورد إلى الصدر .

حُسْنٌ أَفَانِينُ لَمْ تَسْتَوْفِ أَعْيُنُنَا   غَايَاتِهِ بِأَفَانِينٍ مِنَ النَّظَرِ
وَاهاً لِثَغْرِكِ ثَغْراً بَاتَ يَكْلَؤُهُ   غَيْرَانُ تَسْرِى عَوَالِيهِ إِلَى الثُّغَرِ [1]
يَقْظَانُ لَمْ يَكْتَحِلْ غَمْضاً مُرَاقَبَةً   لِرَابِطِ الْجَأْشِ مِقْدَامٍ عَلَى الْغِرَرِ [2]
لاَ لَهْوُ أَيَّامِهِ الْخَالِى بِمُرْتَجَعٍ   وَلاَ نَعِيمُ لَيَالِيهِ بِمُنْتَظَرِ
إِذْ لاَ التَّحِيَّةُ إِيمَاءٌ مُخَالَسَةً   وَلاَ الزِّيَارَةُ إِلْمَامٌ عَلَى خَطَرِ
مُنًى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ تَذَكُّرُهَا   إِنَّ الْغَرَامَ لَمُعْتَادٌ مَعَ الذِّكَرِ

***

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ عَنْ حَالِى فَشَاهِدُهَا   مَحْضُ الْعِيَانِ الَّذِى يُغْنِى عَنِ الْخَبَرِ
لَمْ تَطْوِ بُرْدَ شَبَابِى كَبْرَةٌ وَأَرَى   بَرْقَ الْمَشِيبِ اعْتَلَى فِى عَارِضِ الشَّعَرِ [3]
قَبْلَ الثَّلاَثِينَ إِذْ عَهْدُ الصِّبَا كَثَبٌ   وَلِلشَّبِيبَةِ غُصْنٌ غَيْرُ مُهْتَصَرِ

---

(١) يكلؤه : يحفظه ويغار عليه — وغيران : وصف من الغيرة — والعوالى صدور الرماح — الثغر : جمع ثغرة بالضم وهى الطرق والمنافذ المسلوكة أو أراد بها جمع الثغرة وهى النقرة فى النحر .

(٢) الغرر : جمع غرة بالكسر وهى الغفلة ، والمعنى : أنه ينتهز غرّات الرقيب الساهر طول ليله غيرة وحفاظا ومراقبة ، ويقدم رابط الجأش بالرغم من يقظته وتنبهه ومراقبته إياه ، ولا يحجم عما اعتزمه من موافاة حبيبه .

(٣) الكبرة : بفتح فسكون كبر السن — والعارض : الخد يقال أخذ الشعر من عارضيه — والمعنى : أن بياض المشيب وخط عارضيه قبل أن يخلع برد الشباب وقبل أن يعد من سنيه ثلاثين ربيعا ، وأبدع أبونواس فى هذا المعنى أيما إبداع إذ يقول فى سينيته :

« وإذا عددت سنى ، كم هى؟ لم أجد   للشيب عذرا فى النزول براسى
قالوا كبرت فقلت ما كبرت يدى   عن أن تسير إلى فمى بالكاس »

وقال ابن الرومى : « قد يشيب الفتى وليس عجيبا   أن يرى النور فى القضيب الرطيب »
وقال الآخر : « ياعمر هل لك فى شيخ فتى أبدا   وقد يكون شباب غير فتيان »
وقال أبوالعلاء : ارجع إلى السن فانظر ما تقادمها   فاحكم عليه ولا تحكم على الشعر
فكم ثلاثين حولا شيبت ، ومضت   ستون ، والشيب فيها غير مستعر
وليس ذلك إلا صبغة جعلت   طبعا ، وإن قيل : شاب الرأس للدهر .

هَا إِنَّهَا لَوْعَةٌ فِى الصَّدْرِ قَادِحَـةٌ ... نَارَ الأَسَى وَمَشِيبِى طَائِرُ الشَّرَرِ [١]

***

لاَ يُهْنِئُ الشَّامِتَ المُرْتَاحَ خَاطِرُهُ ... أَنِّى مُعَنَّى الأَمَانِى ضَائِعُ الخَطَرِ [٢]

هَلِ الرِّيَاحُ بِنَجْمِ الأَرْضِ عَاصِفَةٌ ؟ ... أَمِ الكُسُوفُ لِغَيْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ [٣]

إِنْ طَالَ فِى السِّجْنِ إِيدَاعِى، فَلاَ عَجَبٌ ... قَدْ يُودَعُ الجَفْنَ حَدُّ الصَّارِمِ الذَّكَرِ

وَإِنْ يُثَبِّطْ ـ «أَبَا الحَزْمِ» الرِّضَى ـ قَدَرٌ ... عَنْ كَشْفِ ضُرِّى فَلاَ عَتْبٌ عَلَى القَدَرِ

***

مَا لِلذُّنُوبِ ـ الَّتِى جَانِى كَبَائِرِهَا ... غَيْرِى ـ يُحَمِّلُنِى أَوْزَارَهَا وَزَرِى [٤]

---

(١) أى أنها لوعة تقدح نار الأسى والحزن فى صدره ، ومشيب رأسه ما تطاير من شرر تلك النار الموقدة فيه ، وجاء فى الذخيرة لابن بسام قبل هذا البيت قوله .

يا للرزايا لقد شابهت منهلها ... غمرا فما اشرب المكروه بالغمر

والغمر القدح الصغير ، فهو يعنى أنه لايشرب من المصائب بالقدح الصغير .

وجاء بعده فى نسختى الديوان المخطوطتين هذا البيت ناقصا هكذا :

حوادث استفرصتنى ماندرت لها ... غراره . . . .

ونحن نثبتهما هنا كما وجدناهما .

(٢) لايهنأ : يقال هناه الأمر أى تهنأ به ـ معنى الأمانى : اسم مفعول من العناء وهو التعب ـ والخطر الشرف والمنزلة ـ والمعنى : لا يتهنأ الشامت المثلوج الفؤاد بكونى فى عناء ونصب بسبب الأمانى وبكونى ضائع القدر والمنزلة .

(٣) أراد بنجم الأرض ما نجم على وجهها من النبات ولم يقم على ساق ومنه قوله تعالى « والنجم والشجر يسجدان » وهـذا البيت تعليل للبيت قبله أى لا تفرح أيها الشامت فالريح لا تعصف إلا بما له ساق من الشجر ، والكسوف : لايكون لغير الشمس والقمر ـ وهو معنى طرقه الشعراء كثيرا ، ومنه قول أبى تمام

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت ... عيدان نجد ولم يعبأن بالرتم

بنات نعش ونعش لا كسوف لها ... والشمس والبدر منها الدهر فى رقم

وقريب منه قوله أيضاً :

لاتنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالى

(٤) الوزر : بالكسر الذنب والوزر بفتحتين المعين والملجأ ـ والمعنى : لأىّ سبب يحملنى ملجئى ومعتصمى تبعة ما جناه غيرى من كبائر الذنوب ، وهو نظير قول المعرى :

وجرم جره سفهاء قوم ... وحل بغير جارمه العقاب

مَنْ لَمْ أَزَلْ مِنْ تَأَنِّيهِ عَلَى ثِقَةٍ ... وَلَمْ أَبِتْ مِنْ تَجَنِّيهِ عَلَى حَذَرِ (١)

ذُو الشِّيمَةِ الرَّسْلِ - إِنْ هِيجَتْ حَفِيظَتُهُ - ... وَالجَانِبِ السَّهْلِ وَالمُسْتَعْتَبِ الْيَسَرِ (٢)

مَنْ فِيهِ لِلْمُجْتَلِي وَالمُبْتَلِي نَسَقَا ... جَمَالُ مَرْأًى عَلَيْهِ سَرْوُ مُخْتَبَرِ (٣)

مُذَلَّلٌ لِلْمَسَاعِي حُكْمَهَا شَطَطًا ... عَلَيْهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ النَّفْسِ وَالنَّفَرِ (٤)

وَزِيرُ سِلْمٍ كَفَاهُ يُمْنُ طَائِرِهِ ... شُؤْمَ الحُرُوبِ وَرَأْيٌ مُحْصَدُ المِرَرِ (٥)

أَغْنَتْ قَرِيحَتُهُ مُغْنَى تَجَارِبِهِ ... وَنَابَتِ اللَّمْحَةُ العَجْلَى عَنِ الْفِكَرِ (٦)

كَمِ اشْتَرَى - بِكَرَى عَيْنَيْهِ - مِنْ سَهَرٍ ، ... هُدُوءَ عَيْنِ الْهُدَى فِي ذَلِكَ السَّهَرِ

فِي حَضْرَةٍ غَابَ صَرْفُ الدَّهْرِ - خَشْيَتَهُ - ... عَنْهَا ، وَنَامَ الْقَطَا فِيهَا فَلَمْ يَثُرِ

مُمَتَّعٌ بِالرَّبِيعِ الطَّلْقِ نَازِلُهَا ... يُلْهِيهِ عَنْ طِيبِ آصَالٍ نَدَى بُكَرِ

مَا إِنْ يَزَالُ يَبُثُّ النَّبْتَ فِي جَلَدٍ ... - مُذْ سَاسَهَا - وَيُفِضْ الْمَاءَ مِنْ حَجَرِ (٧)

* * *

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي وَالنَّجْمَ فِي قَرَنٍ ... فَفِيمَ أَصْبَحْتُ مُنْحَطًّا إِلَى الْعَفَرِ (٨)

---

(١) التأنى : التمهل ، والتجنى : ادعاء ذنب لم يفعله — أى أنا على ثقة من الحصول على أمنيتى ، وإن تأنى ، ولا أحذر أن ينسب إلىّ ذنبا لم أفعله .

(٢) الشيمة الرسل : الخلق السهل السمح — والحفيظة : الغضب — والمستعتب : مصدر ميمى بمعنى الاستعتاب أى الاسترضاء يقال استعتبته أى استرضاه فأعتبه أى أرضاه — واليسر : الميسر .

(٣) المجتلى : الناظر ، والمبتلى : المختبر ، والسرو : الشرف أى مختبر سرى شريف .

(٤) المساعى المآثر أى مذلل لمساعاته أن تشتط عليه فى الحكم وهو العزيز النفس المنيع الجانب .

(٥) محصد المرر : مفتول القوى .

(٦) يقول انه لألمعيته لايحتاج إلى تجارب وان بداهته تغنى عن رويته ونظرته السريعة تغنى عن إطالة الفكر وقديماً قالوا :

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

(٧) الجلد : الأرض الصلبة ، أى أنه منذ ساس المملكة وهو دائب على بث النبات والزرع فى أرض لاتنبت لصلابتها وإفاضة الماء إليها من عيون تتفجر من الصخر .

(٨) يقول : ما بالك أحلفت آمالى وبدلت مكانتى العالية عندك التى كنت تحلنى بها فوق ذروة النجم فأنزلتنى إلى حضيض الهوان؟

أَحِينَ رَفَّ عَلَى الآفاقِ مِنْ أَدَبِى غَرْسٌ لَهُ مِنْ جَنَاهُ يَانِعُ الثَّمَرِ (١)

وَسِيلَةً سَبَبًا ـ إِلاَّ تَكُنْ نَسَبًا ـ فَهْوَ الْوِدَادُ صَفَا مِنْ غَيْرِ مَا كَدَرِ

***

وَبَانٍ مِنْ ثَنَاءٍ حُسْنُهُ مَثَلٌ وَشْىُ المَحَاسِنِ مِنْهُ مُعْلَمُ الطُّرَرِ

يُسْتَوْدَعُ الصُّحْفَ لاَ تَخْفَى نَوَافِحُهُ إِلاَّ خَفَاءَ نَسِيمِ الْمِسْكِ فِى الصُّرَرِ (٢)

مِنْ كُلِّ مُخْتَالَةٍ بِالْحِبْرِ رَافِلَةٍ فِيهِ اُخْتِيَالَ الْكَعَابِ الرُّودِ بِالْحِبَرِ (٣)

تُجْنَى لَهَا الرَّوْضَةُ الْغَنَّاءُ أَضْحَكَهَا مَجَالُ دَمْعِ النَّدَى فِى أَعْيُنِ الزَّهَرِ (٤)

---

(١) رف النبات اهتز — يقول : هل حين انتشرت آدابى ومدائحى فى الآفاق فاجتنت يانع الثمر ، ولم يذكر جواب الاستفهام فى البيت بعده لأنه مفهوم من السياق ، وهى عادة مألوفة كما قال الشاعر :

«الآن لما كنت أكمل من مشى وافتر نابك عن شباة القارح
وتكاملت فيك المروءة والتقى وأعنت ذلك بالفعال الصالح»

وقول القائل :

« أبت لى همتى وأبى بلائى وأخـذى الحمد بالثمن الربيح
وإحشامى على المـكروه نفسى وضربى هامة البطل المشيح
وقولى ـ كلما جشأت وجاشت ـ مكانك تحمدى أو تستريحى »

وربما ذكر الجواب كما ترى فى قول ابن الرومى :

« الآن حين رأرت واستمع الورى رأيى وأنذر كلب شر ديسه
الآن حـين سبقت كل مسابق فتركت اسرع جريه تقريبـه
يتكلف المتكلفون رياضـتى ليطـل بذلك معجب تعجيبه »

(٢) أى يستودع ذلك الثناء ــ المضروب بحسنه المثل ــ بطون الصحف ولا يمكن أن يخفى ما يفوح من أريجه إلا إذا خفى ريح المسك فى الصرر .

(٣) أى من كل صحيفة تختال بما فيها من المداد الذى سطرت به آيات بيانه وسحر بلاغته اختيال الجارية التى كعب ثدياها بما تلبسه من وشى منمنم وبرد محبر .

(٤) أى أنه يصطحب الحبرة التى يكتب بمدادها آيات بلاغته ويجمو لأجلها الروضة الغناء أضحكها الحيا ، وجالت فى أعين أزهارها دموع الندى .

يَا بَهْجَةَ الدَّهْرِ حَيًّا وَهْوَ ـ إِنْ فَنِيَتْ   حَيَاتُهُ ـ زِينَةُ الآثَارِ وَالسِّيَرِ [١]

لِى فِى اعْتِمَادِكَ ـ بِالتَّأْمِيلِ ـ سَابِقَةٌ   وَهِجْرَةٌ ـ فِى الْهَوَى ـ أَوْلَى مِنَ الْهِجَرِ

فَفِيمَ غَضَّتْ هُمُومِى مِنْ عُلاَ هِمَمِى   وَحَاصَ بِى مَطْلَبِى عَنْ وِجْهَةِ الظَّفَرِ؟ [٢]

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ فَمَاءُ الْعَتْبِ لِى أَسِنٌ   إِلَى الْعُذُوبَةِ مِنْ عُتْبَاكَ وَالْخَصَرِ؟ [٣]

نَذَرْتُ شُكْرَكَ لاَ أَنْسَى الْوَفَاءَ بِهِ   إِنْ أَسْفَرَتْ لِىَ عَنْهَا أَوْجُهُ الْبُشَرِ [٤]

* * *

لاَ تَلْهُ عَنِّى فَلَمْ أَسْأَلْكَ مُعْتَسِفاً   رَدَّ الصِّبَا بَعْدَ إِيفَاءٍ عَلَى الْكِبَرِ [٥]

وَاسْتَوْفِرِ الحَظَّ مِنْ نُصْحٍ وَصَاغِيَةٍ   كِلاَهُمَا الْعِلْقُ لَمْ يُوهَبْ وَلَمْ يُعَرِ [٦]

هَبْنِى جَهِلْتُ فَكَانَ الْعِلْقُ سَيِّئَةً   لاَ عُذْرَ مِنْهَا سِوَى أَنِّى مِنَ الْبَشَرِ

إِنَّ السِّيَادَةَ بِالإِغْضَاءِ لاَبِسَةٌ   بَهَاءَهَا وَبَهَاءُ الْحُسْنِ فِى الْخَفَرِ

---

(١) يعنى فى هذا البيت ممدوحه وهو لا يزال حيا يرزق ، وقد أخذ هذا المعنى — ولم يحسن الأخذ — من قول أبى العلاء :

« جمال ذى الأرض كانوا فى الحياة وهم   بعد الممات جمال الكتب والسير . »

(٢) حاص : حاد ومال .

(٣) العتب : السخط وإظهار الموجدة لمخالفة ارتكبت ، والعتبى : الرضا والرجوع إلى المسرة بعد السخط ، والخصر : البرودة ، والمعنى : هل من سبيل بعد العتب الشبيه بالماء الآسن أى المتغير الذى لا يستسيغه شاربه إلى العتبى الشبيهة بالماء العذب البارد السائغ شرابه — وقد أحسن أبو العلاء فى جعل برد الماء الذى يصير به أطيب لشاربه سببا فى هجره لا فراطه فى الخصر والبرودة وذلك حيث يقول :

« لو اختصرتم من الاحسان زرتكم   والعذب يهجر للافراط فى الخصر . »

(٤) الضمير فى « عنها » عائد إلى العتبى ، والبشر : جمع بشرى .

(٥) أى لم أعتسف فى السؤال ولم أطلب مستحيلا .

(٦) استوفر : استكثر ، وصاغية : الانسان خاصته الذين يميلون إليه ويغشون مجلسه ويطلبون ما عنده والعلق : الشىء النفيس الذى يضن به لنفاسته فلا يوهب ولا يعار ، وقد ورد فى ديوان الحماسة قول الشاعر :

« أبيت اللعن إن سكاب علق   نفيس لا يعار ولا يباع

مفــداة مكرمة علينا   يجاع لها العيال ولا تجاع

سـليلة سابقين تناجلاها   إذا نسبا يضمهما الكراع . »

لَكَ الشَّفَاعَةُ لاَ تُثْنَى أَعِنَّتُهَا ... دُونَ القَبُولِ بِمَقْبُولٍ مِنَ العُذَرِ [1]

وَالْبَسْ مِنَ النِّعْمَةِ الخَضْرَاءِ أَيْكَتَهَا ... ظِلاًّ حَرَامًا عَلَى « الآفَاتِ وَالغِيَرِ » [2]

نَعِيمَ جَنَّةِ دُنْيَا ـ إِنْ هِيَ انْصَرَمَتْ ـ ... نَعِمْتَ بِالخُلْدِ فِي الجَنَّاتِ وَالنَّهَرِ

أترع الكأس

أَدِرْهَا فَقَدْ حَسُنَ المَجْلِسُ ... وَقَدْ آنَ أَنْ تُتْرَعَ الأَكْؤُسُ

وَلاَ بَأْسَ إِنْ كَانَ وَلَّى الرَّبِيعُ ... إِذَا لَمْ تَجِدْ فَقْدَهُ الأَنْفُسُ [3]

فَإِنَّ خِلاَلَ أَبِي عَامِرٍ ... بِهَا يَحْضُرُ الوَرْدُ وَالنَّرْجِسُ [4]

لا حيلة فى الحب

يَا مُخْجِلَ الغُصْنِ الفَيْنَانِ إِنْ خَطَرَا ... وَفَاضِحَ الرِّئْمِ الوَسْنَانِ إِنْ نَظَرَا [5]

يَفْدِيكَ مِنِّي مُحِبٌّ شَأْنُهُ عَجَبٌ ... مَا جِئْتَ بِالذَّنْبِ إِلاَّ جَاءَ مُعْتَذِرَا [6]

لَمْ يُنْجِنِي مِنْكَ مَا اسْتَشْعَرْتُ مِنْ حَذَرٍ ... هَيْهَاتَ يُبْدِ الهَوَى يَسْتَهْلِكُ الحَذَرَا

مَا كَانَ حُبُّكَ إِلاَّ فِتْنَةً قُدِرَتْ ... هَلْ يَسْتَطِيعُ الفَتَى أَنْ يَدْفَعَ القَدَرَا [7]

---

(١) العذر : جمع عذره كسدره مصدر كالعذر .   (٢) وجد هذا البيت فى الأصل ناقصاً هكذا :

وألبس من النعمة الخضراء أيكتها ... ظلا حراما على الارفات . .

ووجد فى هامش بعض النسخ تكملة لهذا البيت كله (والغير) وهذه الكلمة يناسبها الآفات لا الارفات فحصلت تكملة البيت بكلمتين كما ترى إحداهما من هامش بعض الأصول ، والأخرى يعطيها السياق .

(٣) أدر الكأس فقد صفا المجلس واغناه حسنه عن حسن الربيع فلم نعد نحس للربيع فقدا .

(٤) فان خلال أبى عامر تذكرنا بالورد والنرجس وينسينا طيبها عنهما .

(٥) يقول : « إنك تزرى بالغصن المورق إن مشيت وتزرى بالظبى الغرير الطرف إن نظرت .

(٦) يقدم لك الفداء محب أمره عجيب ، ذلك كلما أتيت ذنباً أبى إلا أن يتلمس لك الأعذار ويخلقها لك خلقاً

(٧) كنت أقدر أنك تهجرنى بعد الوصال وكنت اتلافى كل سبب يؤدى إلى ذلك وأحاذر جهدى ألا يقع ما خفته ولكن القدر لابد أن ينفذ حكمه وليس يدفعه حذر . وما أجمل قول الشاعر الناثر محمود أبى الوفا :

« يا لائمى فى الهوى دعنى وما خلقت ... روحى له ، ليس أمرى فى الهوى بيدى »

وقول العباس بن الأحنف :

« لقد ولدت حواء منك بلية ... علىّ أقاسيها ، وخبلا من الخبل . »

فى مدح ابن جهـــور

مَرَادُهُمُ حَيْثُ السِّلَاحُ خَمَائِلُ ... وَمَوْرِدُهُمْ حَيْثُ الدِّمَاءُ مَنَاهِلُ (١)

وَدُونَ الْمُنَى فِيهِمْ جِيَادٌ صَوَافِنٌ ... وَمَأْثُورَةٌ بِيضٌ وَسُمْرٌ عَوَامِلُ (٢)

لِكُلِّ نَجِيدٍ فِى النِّجَادِ كَأَنَّمَا ... تُنَاطُ بِمَتْنِ الرُّمْحِ مِنْهُ الْحَمَائِلُ (٣)

طَوِيلٌ عَلَيْنَا لَيْلُهُ مِنْ حَفِيظَةٍ ... كَأَنَّ صَبَابَاتِ النُّفُوسِ طَوَائِلُ (٤)

كِنَاسٌ دَنَا مِنْهُ الشَّرَى فِى مَحَلَّةٍ ... بِهَا اللَّيْثُ يَعْدُو وَالْغَزَالُ يُغَازِلُ (٥)

---

(١) المراد : اسم مكان من راد يرود أى ارتاد طلبا للنجعة والكلأ ، والخمائل . جمع خميلة وهى الشجر الكثير المجتمع الملتف الذى يستر ما فى داخله ، والمناهل — جمع منهل — وهو موضع النهل وهو الشرب أولا يقال شرب عللا بعد نهل يريد أنهم ينهلون من دم واردهم ، والمعنى : الذى يرود حمى أولئك العرب الأنجاد حيث تسكن الحمية يرود هناك خمائل يكثر فيها السلاح وتشتجر الرماح ، ومن يرد منجمهم يجد مناهل تنهل فيها الدماء وتتعرض واردها لأسباب الفناء .

(٢) الصوافن : من الخيل جمع صافن وهو الذى يقوم على ثلاث ويثنى سنبك الرابعة ، ومأثورة صفة السيوف ، يقال سيف مأثور أى فى متنه أثر بفتح فسكون وهو فرند السيف وجوهره وديباجه ، والسمر الرماح ، والعوامل : صدورها جمع عامل ، يقول دون ما يتمناه حمى منيع بالصافنات الجياد محمى بالبيض السيوف وسمر الرماح .

(٣) نجيد : شجاع ذو نجدة وبأس ، والنجاد : حمائل السيف ، وتناط : تعلق ، بمتن الرمح : أى بقامة كالرمح فى الطول ، والعرب تمدح بالطول وتذم الدمامة والقصر ، قال رجل من طيئ :

«ولما التقى الصفان واختلف القنا ... نهالا وأسباب المنايا نهالها
تبين لى أن القماءة ذلة ... وأن أعزاء الرجال طوالها
دعوا يا لسعد وانتميا لطيئ ... أسود الشرى إقدامها ونزالها .»

وقد أجاد أبو العلاء فى مدح القصر ، فقال :

«عجب الأنام لطول همة ماجد ... أوفى به قصر على أضرابه
سهم الفتى أقصى مدى من سيفه ... والرمح ، يوم طعانه وضرابه .»

(٤) الحفيظة : الغضب ، والصبابات : جمع صبابة وهى العشق ، والطوائل : جمع طائلة وهى الترة والثأر يقول يطول على كل طويل النجاد ليله من حفيظة وغضب علينا ، وكأن العشق وصبابات النفوس أوجبت له عندنا طوائل وترات فهو كمن يطلبنا ليثأر منا .

(٥) الكناس : مأوى الظباء والبقر الذى تستكن فيه من الحر ، والشرى : موضع تنسب إليه الأسود .

اعَمْرُ القِبَابِ الحُمْرِ وَسْطَ عَرِينِهِمْ	لَقَدْ قُصِرَتْ فِيهَا السُّرُوبُ العَقَائِلُ (١)
أَمَحْجُوبَةٌ لَيْلَى وَلَمْ تُخْضَبِ القَنَا	وَلَا حَجَبَتْ شَمْسَ الضَّحَاءِ القَسَاطِلُ ؟ (٢)
أَنَاةٌ عَلَيْهَا مِنْ سَنَا البَدْرِ مِيسَمٌ	وَفِيهَا مِنَ الغُصْنِ النَّضِيرِ شَمَائِلُ (٣)
يَجُولُ وِشَاحَاهَا عَلَى خَيْزُرَانَةٍ	وَتُشْرِقُ فِى «مُوَشَّيَتَيْنِ» الخَلَاخِلُ (٤)
وَلَيْلَةَ وَافَتْنَا الكَثِيبَ لِمَوْعِدٍ	كَمَا رِيعَ وَسْنَانُ العَشِيَّاتِ خَاذِلُ (٥)
تَهَادَى ـ انْسِيَابَ الأَيْمِ ـ يَعْفُو آثَارَهَا	مِنَ الوَشْيِ مَرْقُومُ المِطَافَيْنِ ذَائِلُ (٦)

---

(١) العرين : مأوى الأسد ، وقصرت : حبست قال تعالى « حور مقصورات فى الخيام » أى محبوسات فى الخيام مخدّرات على أزواجهن فى الحمات ، والسروب جمع سرب بالكسر وهو القطيع من الظباء والنساء والطير ، والمنصوص فى كتب اللغة أنه يجمع على أسراب وسراب ، وقد جمعه هنا على سروب ، والقياس لا يأباه كما فى حمل وحمول وضرس وضروس ، والعقائل : جمع عقيلة وهى من النساء الكريمة المخدرة ، والمعنى أقسم بحياة القباب الحمر وسط عرين حماتها والذابين عنها من أولئك الأسود لقد حبست فيها أسراب العقائل ومنعت من السروب إلينا والخروج لملاقاتنا .

(٢) الضحاء : ارتفاع النهار ووقته عقب الضحى قبل انتصاف النهار ، والقساطل . جمع قسطل وهو الغبار الساطع

(٣) الأناة . المرأة التى فيها فتور عن القيام وتأن ، قال الشاعر :

أناة تزين البيت إما تلبست وإن قعدت هلا فأحسن بها هلا

أى تزين البيت لابسة حليها ومتفضلة بثوب واحد ، والسنا : الضوء ، والميسم ما عليها من أثر الوسامة والحسن ، والشمائل : الطباع .

(٤) وفى الأصل « وتشرق فى بردتيه الخلاخل » وبهذه الرواية يختل وزن البيت ، وقد أبدلناها بلفظة « موشيتين » الموضوعة بين قوسين لأنها تعنى بردتين منقوشتين ولأنها قريبة منها فى رسم الحروف ، إلى أن يظهر خلاف ما أثبتناه هنا .

(٥) ريع : فزع لأمر مفاجئ ، والوسنان : الفاتر الطرف شبه المرأة الوسنى من النوم ، والعشيات : جمع عشية وهى آخر النهار ، والخاذل : من خذلت الظبية فهى خاذل تخلفت عن صواحبها وانفردت ، يقول ما أنس لا أنس ليلة وافتنا فى الكثيب لوقت حددناه موعدا للقاء فكانت كما ريع ظبى فاتر اللحظ انفرد عن سائر سرب الظباء . وقد مرّ الشطر الأول من هذا البيت فى قصيدته الفائية ص (٢٤) من هذا الكتاب إذ قال :

وليلة وافتنا الكثيب لموعد سرى الأين لم يعلم لمسراه مزحف
تهادى أناة الخطو مرتاعة الحشا كما ريع يعفور الملا المتشرف

(٦) تهادى : أصله تتهادى ، وهو مشى فى تثاقل وتمايل وسكون ، والأيم : والأين الحية ، ويعفو : يمحو والآثار : جمع أثر جمعه على فعال بالكسر جمعا قياسيا كما فى حبل وحبال وجمل وجمال ، قال ابن مالك :

« وفعل أيضا له فعال ما لم يكن فى لامه اعتلال . »

قَعِيدَكِ ، أَنَّى زُرْتِ ضَوْءُكِ سَاطِعٌ ... وَطِيبُكِ نَفَّاحٌ وَحَلْيُكِ هَادِلُ (١)

هَبِيكِ اغْتَرَرْتِ الحَيَّ وَاشِيكِ هَاجِعٌ ... وَفَرْعُكِ غِرْبِيبٌ وَلَيْلُكِ لَائِلُ (٢)

فَأَنَّى اعْتَسَفْتِ الْهَوْلَ خَطْوُكِ مُدْمَجٌ ... وَرِدْفُكِ رَجْرَاجٌ وَعِطْفُكِ مَائِلُ

خَلِيلَيَّ مَالِي كُلَّمَا رُمْتُ سَلْوَةً ... تَعَرَّضَ شَوْقٌ دُونَ ذَلِكَ حَائِلُ

أُرَاحُ إِذَا رَاحَ النَّسِيمُ شَآمِيًا ... كَأَنَّ شَمُولًا مَا تُدِيرُ الشَّمَائِلُ (٣)

ضَلَالًا تَمَادَى الحُبُّ فِي المَعْشَرِ الْعِدَا ... وَلَجَّ الْهَوَى فِي حَيْثُ تُخْشَى الْغَوَائِلُ (٤)

ولم نعثر فيما راجعناه من كتب اللغة على هذا الجمع ، والمعطاف . بالكسر والمعطف كل ثوب كالرداء والطيلسان تعطفت أى ترديت به ، وسمى عطافا لوقوعه على عطفى اللابس وهما ناحيتا عنقه ، والمرقوم : ذو الوشى والنقش أو المكتوب عليه رقم التاجر ، والدائل ذو الذيل ، وهو أيضا من الدألان وهو مشى مقارب الخطو فيه ضعف وعجلة شبيه بمشية الذئب أو المثقل من حمل ، أو هو مشى سريع خفيف فى ميس وسرعة وبه سمى الذئب ذؤالة ، والمعنى الأول هو المقصود هنا، يقول وافتنا للموعد فى تلك الليلة تتهادى فى مشيتها كانسياب الحية فى الرمل تمحو ماتركته من آثار المشى ، ذيل ثوبها الموشى، وهو قريب من قول امرئ القيس :

« خرجت بها أمشى تجر وراءنا ... على أثرينا ذيل مرط مرحل. »

(١) قعيدك : مصدر منصوب لنيابته عن الفعل والتقدير سألت الله حفظك ، وهادل : مرسل مسترخ إلى أسفل

(٢و٣) مكرران مع قوله فيما تقدم فى الفائيه :

«هبيك اغتررت الحى واشيك هاجع ... وفرعك غربيب وليلك أغضف

فأنى اعتسفت الهول خطوك مدمج ... وردفك رجراج وخصرك مخطف »

ولكن بتغيير القافية كما ترى ، واغتررت : بالغين المعجمة أتيت منهم غرة وغفلة فزرتنا ، وقد ضمنه معنى خدعت فعداه إلى المفعول بنفسه ، وتقدم تفسيره بالعين المهملة بمعنى غشيت الحى وطفت به سائلة على غير علم من أهله ، إلا أن هذا يستعمل غالبا فى المعتر أى طالب المعروف . قال حاتم الطائى :

« أوقد فان الليل ليل قرّ ... والريح يا غلام ريح صرّ

لعلّ أن يبصرها المعتر ... إن جلبت ضيفاً فأنت حر . »

(٣) أراح : كأخاف من الارتياح ، وراح : من الرواح ، والشمول : من أسماء الخمر ، والشمائل : جمع الشمال بالفتح وهى ريح تهب من قبل الشام عن يسار القبلة ، وفى الشمال والشمول يقول الشاعر :

« ألمت سليمى والنسيم عليل ... فخيل لى أن الشمال شمول

كأن الخزامى صفقت منه قرقفا ... فللسكر أعناق المطى تطول. »

(٤) معنى مكرر بلفظه ولكن بتغيير القافية مع قوله فى الفائية المتقدمة :

« لجاج تمادى الحب فى المعشر العدا ... وأم الهوى الأفق الذى فيه نشنف. »

كَأَنْ لَيْسَ فى نُعْمَى الْهُمَامِ « مُحَمَّدٍ »   مُسَلٍّ وَفى مَثْنَى أَيَادِيهِ شَاغِلُ [١]

أَغَرُّ إِذَا شِمْنَا سَــحَائِبَ جُودِهِ   تَهَلَّلَ وَجْـــهٌ وَاسْتَهَلَّتْ أَنَامِلُ [٢]

يبَشِّرُنَا بِالنَّائِلِ الْغَــمْرِ « جُودُهُ »   وَقَبْلَ الحَيَا مَا تَسْــتَطِيرُ المَخَايِلُ [٣]

لَدَيْهِ رِيَاضٌ لِلسَّـــجَايَا أَنِيقَةٌ   تَغَلْغَلُ فِيهَا لِلْعَطَايَا جَـــدَاوِلُ

أَنِيٌّ فَمَا تِلْكَ السَّمَاحَـــةُ نُهْزَةٌ   وَفِيٌّ فَمَا تِلْكَ الْحِبَالُ حَبَائِلُ [٤]

زَعِيمُ الدَّهَاءِ أَنْ تُصَابَ مِنَ الْعِدَا   مَكَايِدُهُ مَا لاَ تُصِيبُ الجَحَافِلُ

فَمَا سَيْفُ ذَاكَ الْعَزْمِ فِيهِمْ بِمِعْضَدٍ   وَلاَ سَهْمُ ذَاكَ الرَّأْىِ أَفْوَقُ نَاصِلُ [٥]

بَنِى « جَهْوَرٍ » عِشْتُمْ بِأَوْفَرِ غِبْطَةٍ   فَلَوْلاَ كُمُ مَا كَانَ فى الْعَيْشِ طَائِلُ

تَفَاصَلَ فى السَّرْوِ الْمُلُوكُ ، فَخِلْتُهُمْ   أَنَابِيبَ رُمْحٍ أَنْتُمُ فِيـــهِ عَامِلُ

---

(١) مسلّ : أى صارف عن الهوى الذى تحدث عنه فيما سبق من أبيات القصيدة ، ومثنى الأيادى : إعادة المعروف مرتين فأكثر ، والأنصباء من جزور الميسر يشتريها الجواد فيطعمها الأبرام ، قال النابغة :

« ينبيك ذو عرضهم عنى وعالمهم   وليس جاهل أمر مثل من علما
أنى أتمم أيسارى وأمنحهم   مثنى الأيادى وأكسو الجفنة الأدما »

والبيت من حسن أبيات التخلص من النسيب إلى المدح .

(٢) تهلل : أشرق وظهرت عليه أمارات السرور ، واستهلت : من استهلال المطر وهو انصبابه بشدة حتى يسمع له صوت ، شبه أنامله فى الجود بسحاب المنهل .

(٣) الحيا : المطر ، ما تستطير : ما زائدة أو مصدرية ، وتستطير : تنتشر وتعم الأفق ، والمخايل : جمع مخيلة وهى أن ترجو وتظن أن السماء حاملة للمطر ، وفى الأصل « يبشرنا بالنائل الغمر » وبعده بياض وقد أكملنا الشطر بلفظ « جوده » الموضوعة بين هلالين أخذا من السياق ، ومعنى البيت يبشرنا بالعطاء الكثير جوده وقبل استهلال المطر تنتشر مخايله وعلاماته فى السماء .

(٤) الأنى : الناقد الذى يتأنى للأمور ، ونهزة : يريد أنه لا ينال السماحة انتهازاً وافتراصاً إذا سنحت له الفرصة بل يتأنى لها ويقضى عليها فى كل وقت غير متحين لها الفرص ، والحبل : العهد والذمة والتواصل وعدم التقاطع ، والحبائل : جمع حبالة وهى المصيدة وفى الحديث « النساء حبائل الشيطان » أى مصايده .

(٥) المعضد والمعضاد : سيف ممتهن على شكل المنجل يتخذه القصابون لقطع العظام ، والرعاة لقطع فروع الشجر ليعلفوا بما يسقط من ورقها غنمهم وإبلهم ، وأفوق : مكسور الفوق بالضم وهو حرف السهم وإذا كان فى إحدى زنمتى السهم أى حرفيه انكسار فذلك السهم أفوق ، والناصل : الساقط النصل وهو حديدة السهم ، والمعنى : أنه ماضى العزيمة صائب الرأى ، وفى الأصل : « أفوق ناصل » .

لَئِنْ قَلَّ فى أَهْلِ الزَّمَانِ عَدِيدُكُمْ ... فَإِنَّ دَرَارِىَّ النُّجُومِ قَلَائِلُ (١)

فِدَاؤُكُمُ مَنْ إِنْ تَعِدْهُ ظُنُونُهُ ... لَحَاقَكُمُ فى الْمَجْدِ فَالدَّهْرُ مَاطِلُ

مَنَاكِيدُ (٢) فِعْلُ الْخَيْرِ مِنْهُمْ تَكَلُّفٌ ... إِذِ الشَّرُّ طَبْعٌ مَا لَهُمْ عَنْهُ نَاقِلُ

فَإِنْ سُتِرَتْ أَخْلَاقُهُمْ بِتَخَلُّقٍ ... فَكُلُّ خَضِيبٍ لَا مَحَالَةَ نَاصِلُ (٣)

لَكَ الْخَيْرُ ، إِنِّى قَائِلٌ غَيْرُ مُقْصِرٍ ... فَمَنْ لِىَ بِاسْتِيفَاءِ مَا أَنْتَ فَاعِلُ ؟

لَعَمْرُ سَرَاةِ الثَّغْرِ وَافَاكَ وَفْدُهُمْ ... لَمَا ذَمَّ مِنْهُمْ ذَلِكَ النُّزْلَ نَازِلُ

لَأَعْذَرْتَ لَمَّا لَمْ يُمِلَّكَ مُكْثُهُمْ ... إِذَا عَذَرَ الْمُسْتَثْقِلَ الْمُتَثَاقِلُ (٤)

نَضَدْتَ رَيَاحِينَ الطَّلَاقَةِ غَضَّةً ... وَرَقْرَقْتَ مَاءَ الْبِرِّ وَهْوَ سَلَاسِلُ

فَمَا مِنْهُمُ إِلَّا سَدِيدٌ نِزَاعُهُ ... إِلَيْكَ مُقِيمُ الْقَلْبِ وَالْجِسْمُ رَاحِلُ

ضَمَانٌ عَلَيْهِمْ أَنْ سَيُؤْثَرُ عَنْهُمُ ... عَلَيْكَ ثَنَاءٌ فى الْمَحَافِلِ حَافِلُ (٥)

---

(١) ألم كثير من الشعراء بهذا المعنى فى صور مختلفة نختار منها قول السموأل فى لاميته المشهورة :

« تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها : إن الكرام قليل

وما قل من كانت بقاياه مثلنا ... شباب تسامى للعلا وكهول. »

وقول العباس بن مرداس :

« بغاث الطير أكثرها فراخا ... وأم الصقر مقلاة نزور . »

(٢) جمع منكود من نكد الرجل بالبناء للمجهول فهو منكود إذا كثر سؤاله وقلّ خيره .

(٣) خضيب : مخضوب ، وناصل : وصف من نصل الشعر ينصل بالضم زال عنه الخضاب ، وهو معنى كثير الورود فى كلام الشعراء ، قال زهير .

« ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم. »

وقال الآخر : « ومن يتخذ خيما سوى خيم نفسه ... يدعه ويغلبه على النفس خيمها . »

وقال ذو الأصبع العدوانى .

« كل امرئ صائر يوما لشيمته ... وإن تخلق أخلاقا إلى حين. »

(٤) لأعذرت : لقد بدا عذرك واتضح ، والمستثقل : المستبطئ لمكثهم أكثر مما تستلزمه موجبات الضيافة ، والمتثاقل : المتباطئ الذى أثقل على مضيفه فأمله وأضجره ، يقول أثبت عذرا لنفسك واضحا حين لم تمل ولم تسأم طول مكث سراة الثغر الوافدين عليك فى وقت يعرف فيه المتثاقل عذر مضيفه إذا مل مكثه وعده ثقيلا .

(٥) ضمان على هؤلاء الوافدين أنه سيؤثر ويروى عنهم ثناء عليك فى المحافل حافل بأنواع المحامد والمدائح .

مَسَاعٍ هِيَ الْعِقْدُ انْتِظَامَ مَحَاسِنٍ ... تَحَلَّى بِهَا جِيدٌ مِنَ الدَّهْرِ عَاطِلُ
تُنِيرُ بِهَا الآمَالُ وَاللَّيْلُ وَاقِبٌ (١) ... وَتَخْصِبُ مِنْهَا الأَرْضُ وَالأُفْقُ مَاحِلُ

❊

هَنِيئاً لَكَ الْعِيدُ الَّذِي بِكَ أَصْبَحَتْ ... تَرُوقُ الضُّحَا مِنْهُ وَتَنْدَى الأَصَائِلُ
تَلَقَّاكَ بِالْبُشْرَى وَحَيَّاكَ بِالْمُنَى ... فَبُشْرَاكَ أَلْفٌ بَعْدَ عَامِكَ قَابِلُ
لَئِنْ يَنْصَرِمْ شَهْرُ الصِّيَامِ لِبَعْدَهُ ... ثَنَا صَالِحِ الأَعْمَالِ مَا أَنْتَ عَامِلُ
رَأَيْتَ أَدَاءَ الْفَرْضِ ضَرْبَةَ لاَزِمٍ ... فَلَمْ تَرْضَ حَتَّى شَيَّعَتْهُ النَّوَافِلُ
سَدَنْتَ (٢) بِبَيْتِ اللهِ حُبَّ جِوَارِهِ ، ... لَكَ اللهُ بِالأَجْرِ الْمُضَاعَفِ كَافِلُ
هَجَرْتَ لَهُ الدَّارَ الَّتِي أَنْتَ آلِفٌ ... لِيَعْتَادَهُ مَحْضُ الْهَوَى مِنْكَ وَاصِلُ
فَإِنْ تَتَنَاقَلْكَ الدِّيَارُ فَطَالَمَا ... تَنَاقَلَتِ الْبَدْرَ الْمُنِيرَ الْمَنَازِلُ
أَلاَ كُلُّ ـ رَجْوَى فِي سِوَاكَ ـ عُلاَلَةٌ ... وَكُلُّ مَدِيحٍ ـ لَمْ يَكُنْ فِيكَ ـ بَاطِلُ
فَمَا لِعِمَادِ الدِّينِ ـ حَاشَاكَ ـ رَافِعٌ ... وَلاَ لِلِوَاءِ الْمُلْكِ ـ غَيْرُكَ ـ حَامِلُ

❊

لأَمَّنْتَنِي الْخَطْبَ الَّذِي أَنَا خَائِفٌ ... وَبَلَّغْتَنِي الْحَظَّ الَّذِي أَنَا آمِلُ (٣)
أَرَى خَاطِرِي كَالصَّارِمِ الْعَضْبِ لَمْ يَزَلْ ... لَهُ شَاحِذٌ مِنْ حُسْنِ رَأْيِكَ صَاقِلُ
وَمَا الشِّعْرُ مِمَّا أَدَّعِيهِ فَضِيلَةً ... تَزِينُ ، وَلٰكِنْ أَنْطَقَتْنِي الْفَوَاضِلُ
بَقِيتَ كَمَا تَبْقَى مَعَالِيكَ إِنَّهَا ... خَوَالِدُ حِينَ الْعَيْشُ كَالظِّلِّ زَائِلُ
فَمَا نَسْتَزِيدُ اللهَ بَعْدَ نِهَايَةٍ ... لِنَفْسِكَ غَيْرَ الْخُلْدِ إِذْ أَنْتَ كَامِلُ (٤)

---

(١) فى الأصل «رائد» (٢) وفى الأصل «سدلت» (٣) وقد ورد بعد هذا البيت قوله :
« . . . . ألهم همتى مها أنا لا غعل ولا أنت عاقل . »
وقد أثبتناه ناقصا كما ورد بالأصل .

(٤) قريب من هذا المعنى قوله من قصيدة سابقة :
« لا أستزيد الله بعد نعمى فيك ، لا بل أستديم »

إلى ابن جهـــور

« وقال أيضا مع تفاح أهداه إلى ابن جهور . »

أَتَتْكَ بِلَوْنِ الْمُحِبِّ الْخَجِــلْ   تُخَالِطُ لَوْنَ الْمُحِبِّ الْوَجِلْ (١)

ثِمَارٌ تَضَمَّنَ (٢) إِدْرَاكَهَا   هَوَاءٌ أَحَاطَ بِهَا مُعْتَــدِلْ

تَأَتَّى (٣) لِإِلْطَافِ تَدْرِيجِهَا   فَمِنْ حَرِّ شَمْسٍ إِلَى بَرْدِ ظِلّْ

إِلَى أَنْ تَنَاهَتْ شِفَاءَ الْعَلِيلِ   وَأُنْسَ الْمَشُوقِ وَلَهْوَ الْغَزِلْ

فَلَوْ تَجْمُدُ الرَّاحُ لَمْ تَعْـدُهَا   وَإِنْ هِيَ ذَابَتْ فَخَمْرٌ تَحِلّْ (٤)

لَهَا مَنْظَرٌ حَسَنٌ فِي النُّفُوسِ   كَدُنْيَاكَ لَـكِنَّهُ مُنْتَقِلْ (٥)

وَطَعْمٌ يَلَذُّ لِمَنْ ذَاقَهُ   كَلَذَّةِ ذِكْرَاكَ لَوْ لَمْ يُمَلّْ (٦)

وَرَيًّا إِذَا نَفَحَتْ خِلْتَهَا   تُمِلُّ ثَنَاءَكَ أَوْ تَسْتَهِلّْ (٧)

يُمَثِّلُ مَلْمَسُـــهَا لِلْأَكُفِّ   لِينَ زَمَانِكَ أَوْ يَمْتَثِلْ (٨)

---

(١) معنى البيت: أتتك هذه التفاحات بحمرة كحمرة خدود الملاح عند الخجل، تخالطها صفرة كصفرة خدود العاشقين عند الوجل . (٢) أى تكفل بانضاج هذه الثمار هواء معتدل متوسط بين الحرارة والبرودة

(٣) تأتى للامر ترفق له وأتاه من وجهه ، والمعنى : تلطف ذلك الهواء فى تدريج نموها وصبغها بتلك الألوان الزاهية وتنقل معها من حر شمس إلى برد ظل حتى نضجت وأينعت .

(٤) يقول لو أن ذوب الراح تحول إلى جمد لم يعد أن يكون ذلك التفاح ، ولو أن جامد التفاح تحول إلى ذوب أحمر لم يعد أن يكون خمرا حلالا لا إثم على شاربها .

(٥) يعنى : أن منظرها حسن ينتظم ما فى دنياك من محاسن إلا أنه حسن منتقل حائل ، وحسن دنياك لايحول ولا ينتقل .

(٦) ولها طعم حلو المذاق لذيذ كلذة ذكراك فى الأسماع إلا أنه يمل وترديد ذكراك لا يمل .

(٧) ولها ريا : أى ريح طيبة ، تمل : أى تملى مدحك ، أو تستهل : أى ترفع صوتها بالثناء عليك .

(٨) يصور ملمس التفاح الناعم للأكف لين زمانك حتى كأنها تحسه ، أو يمتثل أى يضرب نفسه مثلا للين زمانك .

صَفَوْتُ فَأَدْلَلْتُ(١) فى عَرْضِهَا   وَمَنْ يَصْفُ مِنْهُ الْهَوَى فَلْيُدِلْ
قَبُولُكَهَا نِعْمَةٌ غَضَّـــةٌ   وَفَضْلٌ - بِمَا قَبْلَهُ - مُتَّصِلْ
وَلَوْ كُنْتُ أَهْدَيْتُ نَفْسِي اخْتَصَرْ   تُ عَلَى أَنَّهَا غَايَةُ الْمُحْتَفِلْ (٢)

مجلس أبى على

« لما ورد ابن زيدون إشبيلية نزل فى دار ذى الوزارتين الكاتب أبى علىّ بن جلة وهو يبنى فيها مجلسا ، فصنع أبياتا فكتبت فيه : »

عُمِّرَ مَنْ يَعْمُرُ ذَا الْمَجْلِسَا   أَطْوَلَ عُمْرٍ يُبْهِجُ الأَنْفُسَا
وَبَعْدَ ذَا عُوِّضَ عَنْ دَارِهِ   عَدْنًا وَمِنْ دِيبَاجِهِ السُّنْدُسَا
وَوُفِّيَ الْفَوْزَ بِهَا وَالرِّضَى   وَوُقِيَ الأَسْوَاءَ وَالأَبْؤُسَا(٣)
وَدَامَ عَبَّادٌ لِعَهْدِ الْهُدَى   يَحْرُسُ حَتَّى يُفْنِيَ الأَحْرُسَا(٤)

* * *

مُعْتَضِـــدٌ بِاللهِ إِحْسَانُهُ   جَمٌّ إِذَا مَا الدَّهْرُ يَوْمًا أَسَا
الْمَلِكُ الْغَمْرُ النَّدَى الْمُقْتَنِي   مِنْ كُلِّ حَمْدٍ عِلْقَهُ الأَنْفَسَا(٥)
إِنْ رَامَ يَوْمًا وَصْفَ عَلْيَائِهِ   مُفَوَّهٌ مُقْتَدِرٌ أُخْرِسَا (٦)
لاَ زَالَ بَدْرًا طَالِعًا نَيِّرًا   يَكْشِفُ مِنْ آمَالِنَا الْحِنْدِسَا(٧)

---

(١) الادلال التدلل والانبساط والجرأة على من تحب باظهار الدالة عليه ، أى وثقت بما بيننا من الصفاء والود وأفرطت فى الدالة عليك بعرض هــذا التفاح الذى يتهادى مثله الأصفياء المخلصون ، ومن يصف فى الهوى فليظهر الدلال على من يحبه .

(٢) المحتفل المبالغ فى الاهداء ، والمعنى : لو كنت حين أردت الاهــداء أهديت نفسى لاختصرت ، على أنها غاية ما أحتفل وأبالغ فى تقديمه إليك هدية . (٣) الأسواء : جمع سوء والأبؤس جمع بؤس.

(٤) الأحرس : الدهور ، جمع حرس بفتح فسكون وهو الدهر .

(٥) الملك العظيم الاحسان الذى ظفر من الثناء بما لم يظفر به غيره من آيات الحمد .

(٦) إذا رام اللسن المبين أن يصف مجده أعياه الخرس لأنه يحاول بذلك أن يظفر بالمستحيل .

(٧) الظلام .

جـــواب

« كتب الوزير الفقيه صاحب الأحكام والأحباس
« أبو طالب بن مكى » بيتين وهما :

« يا بعيد الدار موصو
لا بقلبي ولساني
ربما باعدك الده
ر فأدنتك الأماني . »

فكتب إليه الأبيات التالية : »

لاَ افْتِنَانَ كَافْتِنَانِي فِي حُلِي الطُّرْفِ الحِسَانِ [1]
خَصَّنِي بِالْأَدَبِ اللهُ فَأَعْلَى فِيهِ شَانِي
خَاطِرِي أَنْفَذُ ـ مَهْمَا قِيسَ ـ مِنْ حَدِّ السِّنَانِ

* * *

أَيُّهَا الْمُرْسِلُ أَطْيَا رَ الْمُعَمَّى لِامْتِحَانِي
هَاكَ كَيْ تَزْدَادَ فِي الْآدَابِ عِلْماً بِمَكَانِي
قَدْ أَتَتْنَا الطَّيْرُ تَشْدُو بَعْضَ أَبْيَاتِ الْأَغَانِي
بِرَطَانَاتٍ قَضَتْنَا مَا اقْتَضَتْنَا مِنْ بَيَانِ

* * *

إِنْ تَغَنَّى الْبُلْبُلُ اهْتَا جَ غِنَاءَ الْوَرَشَانِ [2]

---

(١) قال فى اللسان : الطرف البراعة وذكاء القلب يوصف به الفتيان الأروال والفتيات الرولات ولا يوصف به الشيخ ولا السيد، وقد وصف الحسان بالطرف مبالغة ، ويجوز أن يكون بالضم جمع طريف، فانه يجمع على طرف بضمتين ، والاسكان فى مثله جائز ، والمعنى : ليس يجيد أحد ــ كما أجيد ــ الافتنان فى صوغ تلك الحلى الحسان التى يمليها الطرف واللباقة .

(٢) الورشان : طائر لحمه ــ فيما يقولون ــ أخف من الحمام ، والمعنى : أن غناء البلبل يهتاج غناء الورشان يشير بذلك إلى أن شعر صديقه الوزير اهتاجه فحرك فيه بواعث الشعر كما اهتاج غناء البلبل غناء الورشان .

فَتَأَدَّى مِنْـــهُ بَيْتَا غَـــزَلٍ مُنْفَرِدَانِ
لِمُحِبٍّ فِى حَبِيبٍ عَنْهُ نَاءٍ مِنْهُ دَانِ:
« يَا بَعِيدَ الدَّارِ مَوْصُو لاً بِقَلْبِي وَلِسَانِي
رُبَّمَـــا بَاعَدَكَ الدَّهْـــرُ فَأَدْنَتْكَ الْأَمَانِي »

كن كيف شئت

يَا غَـــزَالاً أَصَارَنِي مُوثَقاً فِي يَدِ الْمِحَنْ
إِنَّنِي — مُذْ هَجَرْتَنِي — لَمْ أَذُقْ لَذَّةَ الْوَسَنْ
لَيْتَ حَظِّي إِشَارَةٌ مِنْكَ، أَوْ لَحْظَةٌ عَنَنْ[1]
شَافِعِي يَا مُعَذِّبِي — فِي الْهَوَى — وَجْهُكَ الْحَسَنْ
كُنْتُ خِلْواً مِنَ الْهَوَى فَأَنَا الْيَوْمَ مُرْتَهَنْ[2]
كَانَ سِرِّي مُكَتَّماً وَهُوَ الْآنَ قَدْ عَلَنْ[3]
لَيْسَ لِي عَنْكَ مَذْهَبٌ فَكَمَا شِئْتَ لِي فَكُنْ[4]

---

(١) يقول: إنى أقنع منك بالشيء القليل التافه وأكتفى بأن يكون حظى من حبك إشارة أو لمحة سريعة، وقد دار الشعراء حول هذا المعنى، ولعل أبدع ما قيل فيه قول جميل بثينة:

« وإنى لأرضى من بثينة بالذى لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا، وبألا أستطيع، وبالمنى، وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى، وبالحول تنقضى أواخره — لا نلتقى — وأوائله.»

(٢) الخلو: الخالى. يقول «كنت طليقاً خالياً من إسار الهوى فصرت اليوم أسيراً مرتهناً.»

(٣) يقول: «كان سرى خافياً لا يعلمه أحد وأصبح معلناً، وما أجمل قول صرّود فى تشبيه هذا المعنى:

«وقد كشف الغطاء فما نبالى أصرحنا بذكرك أم كنينا
سائل عن ثمامات بحزوى وبان الرمل يعلم من عنينا
ولو أنا نادى «ياسليمى» لقالوا: ما عنيت سوى لبينى»

(٤) يقول: «لا انفكاك لى من إسار حبك فاصنع بى ما أنت صانع.»

حنين

هَلْ رَاكِبٌ ذَاهِبٌ عَنْهُمْ يُحَيِّينِي ... إِذْ لَا كِتَابَ يُوَافِينِي فَيُحْيِينِي [١]

قَدْ مِتُّ إِلَّا ذَمَاءً فِيَّ يُمْسِكُهُ ... أَنَّ الفُؤَادَ بِلُقْيَاهُمْ يُرَجِّينِي [٢]

مَا سَرَّحَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنِي وَأَطْلَقَهُ ... إِلَّا اعْتِيَادُ أَسًى فِي القَلْبِ مَسْجُونِ [٣]

صَبْرًا لَعَلَّ الَّذِي بِالبُعْدِ أَمْرَضَنِي ، ... بِالقُرْبِ يَوْمًا يُدَاوِينِي فَيَشْفِينِي

كَيْفَ اصْطِبَارِي وَفِي كَانُونَ [٤] فَارَقَنِي ... قَلْبِي وَهَا نَحْنُ فِي أَعْقَابِ تَشْرِينِ [٥]

شَخْصٌ يُذَكِّرُنِي فَاهُ وَغُرَّتَهُ ... شَمْسُ النَّهَارِ وَأَنْفَاسُ الرَّيَاحِينِ

لَئِنْ عَطِشْتُ إِلَى ذَاكَ الرُّضَابِ لَكَمْ ... قَدْ بَاتَ مِنْهُ يُسَقِّينِي فَيُرْوِينِي

وَإِنْ أَفَاضَ دُمُوعِي نَوْحُ بَاكِيَةٍ ... فَكَمْ أَرَاهُ يُغَنِّينِي فَيُشْجِينِي [٦]

وَإِنْ بَعُدْتُ وَأَضْنَتْنِي الهُمُومُ لَقَدْ ... عَهِدْتُهُ وَهْوَ يُدْنِينِي فَيُسْلِينِي

أَوْ حَلَّ عَقْدَ عَزَائِي نَأْيُهُ فَلَكَمْ ... حَلَلْتُ عَنْ خَصْرِهِ عَقْدَ الثَّمَانِينِ [٧]

---

(١) هل يوافيني رسول من قبل من أحبه فيحمل إلى تحيتهم بعد أن حرمت كتبهم التي كانت تعيد إلى الحياة.

(٢) لقد كدت أحسب في عداد الهلكى لولا بقية قليلة من الروح يبعثها فيّ الرجاء والأمل في لقائهم . قال ابن الرومي في رثاء ابنه :

« ولقد تعزى القلب سلوته ... أني بأن ألقاك مرتهن . »

(٣) لم يفض دمعي إلا ذكريات مؤلمة مسجونة في قلبي تعتادني حيناً بعد حين وتطيف بنفسي فتطلق الدمع وتسرحه . (٤) شهر من شهور الشتاء وهو ديسمبر ، قال أبو العلاء :

مضى كانون ما استعملت فيه ... حميم الماء ، فاقدم يا سباط

تشابه أنفس الحشرات نفسي ... يكون لهن بالصيف ارتباط

(٥) شهر من شهور السنة الرومية وهو يوافق ١٤ اكتوبر ، وهما تشرينان أحدهما في ١٤ اكتوبر والثاني في ١٤ نوفمبر ، ولعل المراد تشرين الثاني . (٦) في الأصل : فيرويني .

(٧) عقد عزائي : العقد ضدّ الحلّ ، والعزاء : الصبر ، والنأي : البعد وعقد الثمانين : أحد عقد الأصابع التي يفهم بها عدد الثمانين والاشارة إلى عقد الثمانين تكون ببسط الابهام والسبابة معا متلاصقتين بلا فرجة ظاهرة بينهما ، والمعنى : لئن حل نأي الحبيب وبعده عقد عزائي وسلواني عنه ، فكثيراً ما حللت عن خصره نطاقاً يشبه في الضيق عقد الثمانين ، وهذا الخصر الذي وصفه ابن زيدون يدقّ في الوهم ، ويلطف في الخيال والحس إلى حدّ أننا لا نعثر له على شبيه ومثيل حتى ولا في خصور الناحلات الرشيقات

* * *

تا حُسْنَ إشْرَاقِ ساعاتِ الدُّنُوِّ بَدَتْ   كَوَاكِباً فى لَيالِى بُعْدِهِ الجُونِ (١)

من سات أوربا وأمريكا فى العصر الحاضر عصر التفنن فى الرشاقة ، ودقة الخصور ، والافراط فى تضييق عقد النطاق .

عقد الأصابع

لما كانت كلمة « عقد الثمانين » الواردة فى بيت « ابن زيدون » هذا لايتبين فيها وجه التعقيد والمغالطة التى عمد إليها ابن زيدون أحيانا ، إلا بعد بيان ما تدلّ عليه عقد الأصابع من الأعداد العربية للحساب ، وهو اصطلاح قديم استعمله العرب ، وجاء فى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم عقد ثلاثة وخمسين فى التشهد ، أى بقبض الخنصر والبنصر والوسطى على هيئة خاصة تدلّ على العدد المذكور ، فنحن نستطرد بتلخيص ما هو مبسوط فى بعض كتب اللغة والنحو ، صفقاً لهذا الموضوع فنقول :

جعلوا للدلالة على الآحاد من أصابع اليد اليمنى الخنصر والبنصر والوسطى ، والعشرات إلى التسعين الوسطى والسبابة .

فالعقد الدالّ على الواحد يكون بإلصاق الخنصر بباطن الكف مع بسط سائر الأصابع ، وعلى الاثنين بإلصاق البنصر معها كذلك ، وعلى الثلاثة ضم الوسطى إليهما كذلك ، وعلى الأربعة بإلصاق البنصر والوسطى وحدهما كذلك ، وعلى الخمسة بإلصاق الوسطى وحدها كذلك ، وعلى الستة بإلصاق البنصر وحدها كذلك ، وعلى التسعة بإلصاق الخنصر وحدها ممدودة إلى أسفل الكف على شكل يخالف شكل الواحد .

وعلى العشرة بوضع ظفر السبابة فى وسط باطن أنملة الإبهام بحيث تحصل شكل حلقة ، ولكن مع نشور رأس الإبهام بقدر نصف الأنملة ، وعلى العشرين بجعل المفصل الأوّل من السبابة على ظفر الإبهام بحيث تكون السبابة على شكل الدال ، وعلى الثلاثين بضم رأس بطن السبابة إلى بطن رأس الإبهام على هيئة لاقط الإبرة ، وعلى الأربعين بوضع باطن أنملة الإبهام على ظاهر أصل السبابة مما يلى الكف ، وعلى الخمسين بوضع الطرف الأيمن للإبهام على حز العقدة السفلى للسبابة بحيث تكون قائمة ، والجانب الأعلى للإبهام منحنياً عليها ، وعلى الستين بوضع باطن أعلى أنملة الإبهام على باطن أعلى أنملة السبابة ، بحيث تكون السبابة على شكل قوس وتره الإبهام ، وعلى السبعين بوضع حرف ظفر الإبهام على العقدة الوسطى لباطن السبابة على هيئة رامى الحصاة بالحذف « وهو رمى صغار الحصا بعد أخذها بين طرفى السبابة والإبهام » ، وعلى الثمانين ببسطهما معا لاصقتين بلا فرجة بينهما كما أسلفناه فى شرح البيت الذى نحن بصدده ، وعلى التسعين بطى السبابة إلى أصلها ووضع الإبهام على ظهر العقدة الوسطى للسبابة كما تنطوى الحية .

وجعلوا للدلالة على المئات من أصابع اليد اليسرى السبابة والإبهام طبق ما فى اليد اليمنى .

فالمائة فى اليسرى كالعشرة فى اليمنى ، والمائتان كالعشرين ، وهكذا إلى التسعمائة ، والألف فى اليسرى كالواحد فى اليمنى ، والألفان كالاثنين ، وهكذا إلى تسعة آلاف ، والعشرة آلاف بضم أعلى السبابة والإبهام بطناً لبطن ، وتستعمل عقد أصابع اليدين معاً للدلالة على الأعداد المركبة من الآحاد والعشرات والمئات والآلاف بنفس الهيئات المتقدمة .

(١) أى أن ليالى الوصال تبدو مضيئات لامعات فى ليالى البعاد السود .

وَٱللهِ مَا فَارَقُونِى بِٱخْتِيَارِهِمِ وَإِنَّمَا ٱلدَّهْرُ بِالْمَكْرُوهِ يَرْمِينِي
وَمَا تَبَدَّلْتُ حُبًّا غَيْرَ حُبِّهِمِ إِذًا تَبَدَّلْتُ دِينَ الْكُفْرِ مِنْ دِينِي (١)
أَفْدِى الْحَبِيبَ الَّذِى لَوْ كَانَ مُقْتَدِراً لَكَانَ بِالنَّفْسِ وَالْأَهْلِينَ يَفْدِينِي
يَا رَبِّ قَرِّبْ — عَلَى خَيْرٍ — تَلَاقِيَنَا بِالطَّالِعِ السَّعْدِ وَالطَّيْرِ الْمَيَامِينِ .

فى الغـــزل

أَيُوحِشُنِى الزَّمَانُ وَأَنْتَ أُنْسِى وَيُظْلِمُ لِى النَّهَارُ وَأَنْتَ شَمْسِى
وَأَغْرِسُ فِى مَحَبَّتِكَ الْأَمَانِى فَأَجْنِى الْمَوْتَ مِنْ ثَمَرَاتِ غَرْسِى (٢)
لَقَدْ جَازَيْتَ غَدْراً عَنْ وَفَائِى وَبِعْتَ مَوَدَّتِى ظُلْماً بِبَخْسِ
وَلَوْ أَنَّ الزَّمَانَ أَطَاعَ حُكْمِى فَدَيْتُكَ — مِنْ مَكَارِهِهِ — بِنَفْسِى (٣)

فى بعض مجالس الأنس

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْجَلِيـــلُ بِكُلِّ أَلْسُنِنَا جَلَالُكْ
انْظُرْ إِلَى مُحْتَلَّنَا (٤) قَدْ زَانَ سَاحَتَهُ احْتِلَالُكْ
نَهْرٌ وَرَوْضٌ نَحْنُ بَيْنَهُمَا تُفَيِّئُنَا ظِلَالُكْ (٥)
قَدْ فَاضَ فِى هٰذَا نَدَا كَ وَنَمَّتْ هٰذَا خِلَالُكْ .

---

(١) إن إيمانى بحبهم كإيمانى بدينى سواء بسواء وليس فى مقدور أحد أن يبدلنى بمن أحب إلا إذا استطاع أن ينقلنى من دينى إلى الكفر .

(٢) يقول : « هل من العدل أن أكثر من الآمال والأمانى فلا أجنى من ذلك كله إلا الاخفاق » .

(٣) ليت الزمان يقبل حكمى ، اذن لفديتك بنفسى ، ولكن لا تجازينى بجنى إلا بالغدر .

(٤) المكان الذى حللنا فيه .

(٥) وفى الأصل : «تؤلفنا ظلالك .» والظلال : ما أظلك من سحاب ونحوه ، وظلال البحر : أمواجه ، والمقصود هنا النعيم والراحة ، ولما كانت بلاد العرب فى غاية الحرارة وكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة جعلوه كناية عن الراحة .

شكوى وألم !

« قال فى مدح ابن جهور »

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَبْكِى الْغَمَامُ عَلَى مِثْلِى ... وَيَطْلُبَ ثَأْرِى الْبَرْقُ مُنْصَلِتَ النَّصْلِ (١)

وَهَلَّا أَقَامَتْ أَنْجُمُ اللَّيْلِ مَأْتَمًا ... لِتَنْدُبَ فى الآفَاقِ مَاضَاعَ مِنْ نَثْلِى (٢)

وَلَوْ أَنْصَفَتْنِى ـ وَهْىَ أَشْكَالُ هِمَّتِى ـ ... لَأَلْقَتْ بِأَيْدِى الذُّلِّ لَمَّا رَأَتْ ذُلِّى

وَلَافْتَرَقَتْ سَبْعُ الثُّرَيَّا وَغَاضَهَا (٣) ... بِمَطْلَعِهَا مَا فَرَّقَ الدَّهْرُ مِنْ شَمْلِى

* * *

لَعَمْرُ اللَّيَالِى إِنْ يَكُنْ طَالَ نَزْعُهَا ... لَقَدْ قَرْطَسَتْ بِالنَّبْلِ فى مَوْضِعِ النُّبْلِ (٤)

تَحَلَّتْ بِآدَابِى وَإِنَّ مَآرِبِى ... لَسَانِحَةٌ فى عَرْضِ أُمْنِيَّةٍ عُطْلِ

أُخَصُّ لِفَهْمِى بِالْقِلَى وَكَأَنَّمَا ... يَبِيتُ لِذِى الْفَهْمِ الزَّمَانُ عَلَى ذَحْلِ (٥)

وَأُجْفَى عَلَى نَظْمِى لِكُلِّ قِلَادَةٍ ... مُفَصَّلَةِ السِّمْطَيْنِ بِالْمَنْطِقِ الْفَصْلِ

وَلَوْ أَنَّنِى أَسْطِيعُ كَىْ أُرْضِىَ الْعِدَا ... شَرَيْتُ بِبَعْضِ الْحِلْمِ حَظًّا مِنَ الْجَهْلِ (٦)

---

(١) الذى فى الأصل المنقول « ألم يأن أن تبكى الحمام على قتلى » والذى أثبتناه هنا هو ما نقلناه عن الذخيرة لابن بسام وهو أنسب مما ذكر فى الأصل لأنه يريد من الطبيعة أن تبكى لبكائه ، وتثأر من أعدائه .

(٢) نثلى : أى ما انتثلته واستخرجته فى حياتى من جاه ومنصب ومال .

(٣) غاضها : نقصها أى أخفاها .

(٤) نزعها : جذبها وتر القوس مصوبة نحوى سهام المصائب ، وقرطس : أى أصاب القرطاس ، وهو غرض من أديم يتخذ للنضال وتسديد الرماية .

(٥) القلى ــ بالكسر ــ البغض ، والذحل الثأر ، يريد أن غيره من أهل الجهل نالوا الحظوة والقربى ، وهو لفهمه خص بالقلى والبعد وكأنه قد جنى على الزمان فبات يطالبه بثأره .

(٦) الحلم : العقل ، والحظ : النصيب . يقول : لو أستطيع لإرضاء العدا وشفاء ما فى نفوسهم من الحقد لاستبدلت بشىء يسير من الجهل ، حظا عظيما من العقل .

*
* *

أَمَقْتُولَةَ الْأَجْفَانِ مَالَكِ وَالِهاً ... أَلَمْ تُرِكِ الْأَيَّامُ نَجْماً هَوَى قَبْلِي (١)

أَقِلِّي بُكَاءً لَسْتِ أَوَّلَ حُــــرَّةٍ ... طَوَتْ بِالْأَسَى كَشْحاً عَلَى مَضَضِ الثُّكْلِ (٢)

وَفِي « أُمِّ مُوسَى » عِبْرَةٌ أَنْ رَمَتْ بِهِ ... إِلَى الْيَمِّ فِي التَّابُوتِ فَاعْتَبِرِى وَاسْلِي (٣)

لَعَلَّ الْمَلِيكَ الْمُجْمِلَ الصُّنْعِ ـ قَادِرا ... لَهُ ـ بَعْدَ يَأْسٍ سَوْفَ يُجْمِلُ صُنْعاً لِي (٤)

وَلِلّهِ فِينَا عِــــلْمُ غَيْبٍ وَحَسْبُنَا ... بِهِ ـ عِنْدَ جَوْرِ الدَّهْرِ ـ مِنْ حَكَمٍ عَدْلِ (٥)

*
* *

هُمَامٌ عَرِيقٌ فِي الْكِرَامِ ، وَقَلَّمَا ... تَرَى الْفَرْعَ إِلَّا مُسْتَمَدّاً مِنَ الْأَصْلِ

نَهُوضٌ بِأَعْبَاءِ الْمُرُوءَةِ وَالتُّــــقَى ... سَحُوبٌ لِأَذْيَالِ السِّيَادَةِ وَالْفَضْلِ

إِذَا أَشْكَلَ الْخَطْبُ الْمُلِمُّ فَإِنَّهُ ... وَآرَاءَهُ كَالْخَطِّ يُوضَحُ بِالشَّكْلِ

*
* *

وَذُو تُدْرَإٍ لِلْعَزْمِ ـ تَحْتَ أَنَاتِهِ ـ ... كُمُونُ الرَّدَى فِي فَتْرَةِ الْأَعْيُنِ النُّجْلِ (٦)

---

(١) أمقتولة الأجفان ، الحائرة فيه للنداء أي يامن فى أجفانها فتور وتكسر ، ووالها : الشديدة الحزن على فقد ولدها شبهها فى شدة حزنها على نجمه الهاوى فى عيابه السحق بالمرأة الثكلى التي لا تفتر أجفانها العابرة المقرحة عن البكا لفقد الحبيب .

(٢) الكشح . الخاصرة ، وطوى كشحه على كذا استمر عليه ، والمضض : ألم المصيبة ، والثكل ـ بالضم ـ فقدان الولد والحبيب : أى لا تبكى باستمرار فلست أول حرة لازمها وجع مصيبة الثكل .

(٣) يشير بهذا إلى قوله تعالى : « وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليمّ ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادّوه إليك » أى اعتبرى بهذه القصة واصبرى .

(٤) لعل الملك المعتاد صنع الجميل ـ قادرا بعظمة قدره ـ سوف يعمل على خلاصى بعد يأس .

(٥) يلى هذا البيت بيت وجد فى الأصل ناقصا هكذا :

. . . . آل جهور لمستحكم الأسباب مستحصد الحبل

(٦) ذو تدرإ ـ بالضم ـ أى ذو عدّة وقوّة على مدافعة أعدائه إذا وجه عزيمته لعمل أمر كمن الردى تحت تأنيه كمونه تحت فتور الأعين النجل أى الواسعة جمع نجلاء ، واستعمل الفترة بمعنى انكسار جفون العين وضعفها ليعقد بينها وبين الأناة مناسبة وموافقة .

يَرِفُ عَلَى التَّأْمِيلِ لَأْلَاءُ بِشْرِهِ ... كَمَا رَفَّ لَأْلَاءُ الْحُسَامِ عَلَى الصَّقْلِ (١)

مَحَاسِنُ مَا لِلْحُسْنِ فِي الْبَدْرِ عِلَّةٌ ... سِوَى أَنَّهَا بَاتَتْ تُمِلُّ فَيَسْتَمْلِي (٢)

تُغِصُّ ثَنَائِي مِثْلَمَا غَصَّ جَاهِدًا ... سِوَارُ الْفَتَاةِ الرَّادِ بِالْمِعْصَمِ الْخَدْلِ (٣)

وَتَغْنَى عَنِ الْمَدْحِ اكْتِفَاءً بِسَرْوِهَا ... غِنَى الْمُقْلَةِ الْكَحْلَاءِ عَنْ زِينَةِ الْكُحْلِ

* * *

« أَبَا الْحَزْمِ » إِنِّي فِي عِتَابِكَ مَائِلٌ ... عَلَى جَانِبٍ تَأْوِي إِلَيْهِ الْعُلَا سَهْلِ

حَمَائِمُ شَكْوَى صَبَّحَتْكَ هَوَادِلًا ... تُنَادِيكَ مِنْ أَفْنَانِ آدَابِيَ الْهُدْلِ (٤)

جَوَادٌ إِذَا اسْتَنَّ الْجِيَادُ إِلَى مَدًى ... تَمَطَّرَ فَاسْتَوْلَى عَلَى أَمَدِ الْخَصْلِ (٥)

ثَوَى صَافِنًا فِي مَرْبَطِ الْهُونِ يَشْتَكِي ... بِتَصْهَالِهِ مَا نَالَهُ مِنْ أَذَى الشُّكْلِ (٦)

---

(١) يرف — بالكسر — يبرق ويتلألأ ، أى يلوح لألاء بشره مع التأميل كما يبدو بريق السيف ولمعانه حين تصقله وتجلوه .

(٢) تمل مضارع أمل : يقال أملاه القول وأمله ألقاه عليه ليكتبه ، ومنه قوله تعالى : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه » وقوله تعالى : « فليملل وليه بالعدل » واستمليته الكتاب طلبت أن يمليه على ، أى هذه محاسن الممدوح الشبيه بالبدر لا عيب فيها سوى أنها باتت تمل على الشاعر وهو يكتب ، ويستكتبها فتمليه .

(٣) تغص ثنائى : أى تجعله يغص كما يغص الشارب بالماء ولا يمكنه أن يستوفى هذه المحاسن كلها أو يسيغها ، وكما يغص سوارا الفتاة الراد أى التى ترود بيوت جاراتها بالمعصم الخدل — بالدال المهملة — أى الممتلئ ولا يتحرك

(٤) الهوادل : جمع هادلة ، والهديل : صوت الحمام ، والهدل : جمع أهدل ، وهو صفة الأغصان ، يقال : تهدلت أغصان الشجرة أى تدلت — يمثل شكوى رفعها إليه بالحمام الهوادل تناديه بهديلها من أعلى شجرة الأدب وقد تدلت أفنانها ، وتهدلت أغصانها .

(٥) استنت الجياد : مضت على وجهها فى السباق ، والمدى : الغاية تمطر : جاء إلى الغاية مسرعا ، فاستولى على الخصل : غلب على الرهان — يصف الشاعر نفسه بالسبق على غيره .

(٦) ثوى : أقام ، والصافن : من الجياد الذى قام على ثلاثة قوائم وقلب حافر الرابعة ، والشكل — بفتح فسكون — شد قوائم الدابة بالشكال — يصف حاله فى محبسه وما يبثه من الشكوى بحال الجواد المقيم على الهون يشكو بتصهاله ، أذى شكاله ، قال ابن بسام فى الذخيرة : « وقوله ثوى صافنا » كقول المتنبى :

« لو إن تكن محكمات الشكل تمنعنى ... ظهور جرى فلى فيهن تصهال . »

* * *

أَفِى الْعَدْلِ أَنْ وَافَتْكَ تَتْرَى رَسَائِلِى … فَلَمْ تَتْرُكَنْ وَضْعاً لَهَا فِى يَدَىْ عَدْلِ

أُعِدُّكَ لِلْجُلَّى وَآمُلُ أَنْ أُرَى … بِنُعْمَاكَ مَوْسُوماً وَمَا أَنَا بِالْغُفْلِ

وَمَا ذَاكَ وَعْدُ النَّفْسِ لِى مِنْكَ بِالْمُنَى … كَأَنِّى بِهِ قَدْ شِمْتُ بَارِقَةَ الْمَحْلِ (١)

* * *

أَئِنْ زَعَمَ الْوَاشُونَ مَا لَيْسَ مَزْعَماً … تُعَذِّرُ فِى نَصْرِى وَتُعْذِرُ فِى خَذْلِى

وَأَصْدَى إِلَى إِسْعَائِكَ السَّائِغِ الْجَنَى … وَأَضْحَى إِلَى إِنْصَافِكَ السَّابِغِ الظِّلِّ (٢)

وَلَوْ أَنَّنِى وَاقَعْتُ عَمْداً خَطِيئَةً … لَمَا كَانَ بِدْعاً مِنْ سَجَايَاكَ أَنْ تُمْلِى (٣)

فَلَمْ أَسْتَثِرْ حَرْبَ « الْفِجَارِ » وَلَمْ أُطِعْ … « مُسَيْلِمَةً » إِذْ قَالَ: إِنِّى مِنَ الرُّسْلِ (٤)

---

(١) فى معنى هذه الأبيات يقول ابن الرومى معاتبا :

« إذا ألت أرممت الصنيعة مرة … فلا تقتصر ماء الصنيعة بالمطل

ولا تخلط الحسنى بسوء فإنه … يحشمنا أن نخلط الشكر بالعذل

أترضى بأن تكنى بسهل وأن ترى … وما طلب الحاجات عندك بالسهل

أبى لعشاق المكارم أن يرى … مواعيدهم مثل البوارق فى المحل . »

(٢) أصدى : مضارع صدى — بالكسر — أى أعطش ، وأضحى مضارع كل من ضحا وضحى — بالفتح والكسر — أى أبرز للشمس ، ومنه قوله تعالى : « وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » واستعمله هنا فى البروز إلى إنصافه السابغ الظل ، لا فى البروز إلى الشمس ، وبعد هذا البيت وجد فى الأصل نصف بيت على هذه الصورة :

وحاشاك رام العبد إبلاغ سمعه … فصم ....

(٣) واقعت دانيت ، وتملى تمهل ولا تتعجل العقوبة ، أى لو أنى دانيت متعمدا لوقوع فى الخطيئة لم يكن من سجاياك غير العفو والامهال .

(٤) يقول : إن هفوتى صغيرة لايصح أن تجسم إلى حد أن أكون كمثير حرب الفجار أو كمطيع مسيلمة فى دعواه الرسالة ، والفجار : بالكسر بمعنى المفاجرة كالقتال والمقاتلة ، وسميت حرب الفجار لأن العرب فجروا فيها إذ قاتلوا فى الأشهر الحرم ، وكانت للعرب قبل مبعث النبىّ صلى الله عليه وسلم أربع فجارات آخرها حرب الفجار التى ذكرت فى كتب السير ، وكانت بين قريش ومن معها من كنانة ، وبين قيس عيلان وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أيامها وسنه عشرون سنة ولم يقاتل ولكنه كان ينبل على أعمامه أى يرد عليهم نبل عدوّهم إذا رموهم ، وأما « مسيلمة » فكان من خبره أن وفد مع قومه

وَمِثْلِيَ قَدْ تَهْفُو بِهِ نَشْوَةُ الصِّبَا ... وَمِثْلُكَ قَدْ يَعْفُو، وَمَا لَكَ مِنْ مِثْلِ

وَإِنِّي لَتَنْهَانِي نُهَايَ عَنِ الَّتِي ... أُشَادَ بِهَا الْوَانِي وَيَعْقِلُنِي عَقْلِي (١)

* * *

أَأُنْكِثُ فِيكَ الْمَدْحَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ... وَلاَ أَقْتَدِي إِلاَّ بِنَاقِضَةِ الْغَزْلِ! (٢)

ذَمَمْتُ إِذًا عَهْدَ الْحَيَاةِ وَلاَ يَزَلْ ... مُمِرًّا عَلَى الْأَيَّامِ طَعْمُهُمَا الْمُحْلِي (٣)

وَمَا كُنْتُ بِالْمُهْدِي إِلَى السُّودَدِ الْخَنَا ... وَلاَ بِالْمُسِيءِ الْقَوْلَ فِي الْحَسَنِ الْفِعْلِ

وَمَا لِيَ لاَ أُثْنِي بِآلاَءِ مُنْعِمٍ ... إِذَا الرَّوْضُ أَثْنَى بِالنَّسِيمِ عَلَى الطَّلِّ

هِيَ الْعَثْرَاتُ لِي، فَهَلْ أَنْتَ مُكْذِبٌ ... لِقِيلِ الْأَعَادِي إِنَّهَا زَلَّةُ الْحِسْلِ (٤)

وَهَلْ لَكَ فِي أَنْ تَشْفَعَ الطَّوْلَ شَافِعًا ... فَتَنْجَحَ مَيْمُونَ النَّقِيبَةِ أَوْ تَتْلِي (٥)

«بنى حنيفة» إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما رجع وفد بنى حنيفة إلى «اليمامة» ادعى النبوة، وأنه أشرك مع محمد بالأمر، واجتمع حوله «بنو حنيفة» وكانوا أربعين ألف مقاتل، وفى عهد الخليفة «أبى بكر» رضى الله عنه أرسل إليه «خالد بن الوليد» على رأس جيش، وجرت حرب بين الفريقين انتهت بقتل «مسيلمة» وتفرق أصحابه.

(١) نهاى: أى عقلى وسمى بذلك لأنه ينهى، قال فى اللسان: «والنهى العقل يكون واحدا وجمعا، وفى التنزيل العزيز: إن فى ذلك لآيات لأولى النهى» اهـ. ويدل عليه حيث اعتبره مفردا وأسنده إلى نفسه أن يجرد العقل من علاقة التأنيث إلا أن يكون قد أراد جمع نهية، وأن عقله لقوته شأنه شأن عقول متعددة، عن التى: أى تنهى عن التى، أشاد بها: أى رفعها ونوه بها. والعقل يحدس ويتمعى.

(٢) ناقضة الغزل، فى الكشاف عند قوله تعالى: «ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا» قيل هى ريطة بنت سعد بن تيم وكانت حمقاء اتخذت مغزلا قدر ذراع، وصنارة مثل أصبع، وفلكة عظيمة على قدرها، فكانت تغزل هى وجواريها من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن.»

(٣) ممرا من أمر الطعام صيره مرا، والمحلى اسم مفعول من حلت العيش أحلاه أى استحليته.

(٤) الخسة والدناءة، والحسل — بالكسر — ولد الضب، ويكنى الضب: «أبا الحسل».

(٥) تشفع: من قولهم شفع الوتر من العدد شفعا صيره زوجا، والطول: القدرة والفضل، وتتلى: تتبع مضارع أتليته إياه أتبعته، والمعنى هل لك أن تضم إلى طولك وإحسانك شافعا منك يشفع لى فى الخلاص من السجن فتسعى بإدراك حاجتى فى حال كونك ميمون النقيبة أو تتلى أى تتبع الاحسان والشفاعة بأمثالهما: هـذا مبلغ مايفهم من البيت، وقد وجد فى الأصل «تبلى» بالباء الموحدة، وقد فهمنا من السياق أنها تتلى لاتبلى ليناسب قوله «تشفع» أى تضم.

أَجِزْ أَعْدِ آمِنْ أَحْسِنِ ابْدَأْ أَعِدْ اكْفِ حُطْ تَحَفَّ ابْسُطِ اسْتَأْنِفْ صُنِ احْمِ اصْطَنِعْ أَعْلِ (١)
مُنًى - لَوْ تَسَنَّى عَقْدُهَا بِيَدِ الرِّضَا - تَيَسَّرَ مِنْهَا كُلُّ مُسْتَصْعَبِ الحَلِّ (٢)

*

أَلَا إِنَّ ظَنِّي - بَيْنَ فِعْلَيْكَ - وَاقِفٌ وُقُوفَ الْهَوَى بَيْنَ الْقَطِيعَةِ وَالْوَصْلِ
فَإِنْ تُمْنَ لِي مِنْكَ الْأَمَانِي فَشِيمَةٌ لِذَاكَ الْفَعَالِ الْقَصْدِ وَالْخُلُقِ الرِّسْلِ (٣)
وَإِلَّا جَنَيْتُ الْأُنْسَ مِنْ وَحْشَةِ النَّوَى وَهَوْلِ السُّرَى بَيْنَ الْمَطِيَّةِ وَالرَّحْلِ (٤)

سَيُغْنِي بِمَا ضَيَّعْتَ مِنِّيَ حَافِظٌ وَيُلْفِي لِمَا أَرْخَصْتَ مِنْ خَطَرِي مُغْلِي
وَأَيْنَ جَوَابٌ عَنْكَ تَرْضَى بِهِ الْعُلَا إِذَا سَأَلَتْنِي بَعْدُ أَلْسِنَةُ الحَفْلِ (٥)

---

(١) في هذا البيت كما يرى القارئ محاكاة لقول المتنبي، وقد حاول فيه أن يجمع أكثر ما يمكن من الحروف، فقال:

« عش، ابق، اسم، سد، قد، جد، مر، انه، اسر، فه، تسل
غظ، ارم، صب، احم، اغز، اسب، رع، زع، دل، اثن، نل
وهذا دعاء لو سكت كفيته لأني سألت الله فيك، وقد فعل. »

وخير من هذه المحاولة قول ابن الرومي.

« أبلى، وزهد، وأجزل مشوق وأمر على إدرار برى وواطب
لشتى حدودك — وهي سابغة من الذم — ما فيها اختلال لعائب. »

(٢) لو تسنى: أي تسهل وتيسر إحكام أمر تلك المنى من الممدوح لسهل منها ما استصعب حله.

(٣) تمن: تقدر من مناه الله يمنيه قدره ومنه قول الشاعر:

« لا تأمنن الدهر في حل وفي حرم إن المنايا توافي كل إنسان
واسلك طريقك فيها غير محتشم حتى تلاقي ما يمني لك الماني. »

أي يقدر لك القادر، والفعال — بالفتح اسم جامع لكل فعل حسن، والقصد الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، والرسل — بالكسر الرفق والتؤدة يقال افعل كذا على رسلك أي على هينتك وليس مرادا هنا بل المراد الرسل — بالفتح — أي السهل يقال سير رسل أي سهل.

(٤) وإن لم يقدر الله حصول تلك الأماني على يديك ولم تجر على عادتك وخابك في إسعافي بحاجتي فأطلق سراحي لأضرب في الفيافي وأجني من وحشة النوى وهول السرى أنسا.

(٥) وأين جواب عنك أي عذرا يكون جوابي عنك إذا سئلت عما أسديت من معروف أو قدمت من معونة. قال ابن بسام في باب الموازنة والنقد: « وأين جواب فيك ترضى به العلا » مأخوذ من قول الآخر:

« فاختر لنفسك ما أقول فإنني لابد أخبرهم وإن لم أسأل »

جـــواب

« كتب اليه الوزير الكاتب أبو بكر بن القصيرة في يوم أحد فيه دواء .

مولاى حسى إلى مطالعة الـ
حســى بعقبى الدواء مطامعه
وكيف ذاك الحس الذكى وقد
باشر تلك المداقة البشعه
وددت لو أنى حصصت عا اس
تبشعت منه وحرب مستفعه
أعتبك الله من وطاعته
أسوغ صنع في مثله صنعه
نسحة تصحب الزمان وتـ
ـلبه وهى حديدة نصعه
فأنت روح العلاء اساه الـ
ـله وسهل الوفاء لا صاعه

فجاوبه ابن زيدون »

قَدْ أَحْسَنَ اللهُ فِي الذي صَنَعَهْ عَارِضَ كَرْبٍ بِلُطْفِهِ رَفَعَهْ
تَبَارَكَ اللهُ إِنَّ عَادَهُ حُسْـــنَاهُ مَعَ الشُّكْرِ غَيْرُ مُنْتَزَعَهْ

يَاسَيِّدِي الْمُسْتَجِدُ[1] مِنْ مِقَتِي[2] بُحْطَةٍ فَاتَتِ الْحِسَابَ سَعَهْ
وَافَانِيَ الْعِقْدُ زِينَ نَاظِمُهُ وَالْوَشْيُ لَا رَاعَ حَاذِقٌ صَنَعَهْ[3]
بَثَثْتَ فِيـــهِ الْبَدِيعَ مُنْتَقِياً كَالرَّوْضِ إِذْ بَثَّ فِي الرُّبَا قِطَعَهْ

(١) في الأصل : المعتبد . (٢) من حى . (٣) صانعه .

أَزَاحَ كَرْبَ الدَّوَاءِ مَطْلَعُهُ   لَمَّا بَدَا طَالِعُ السُّرُورِ مَعَهْ (١)

كَمْ دَعْوَةٍ - قَدْ حَوَاهُ - صَالِحَةٍ،   مِنْ أَمَلِي أَنْ تَكُونَ مُسْتَمَعَهْ (٢)

جُمْلَةُ مَا نَفْسُكَ السَّرِيَّةُ مِنْ حَا   لِي إِلَى عِلْمِ كُنْهِهِ طُلَعَهْ

أَنَّ الدَّوَاءَ الْتَذَّتْ عَوَاقِبُهُ   مِنِّيَ نَفْسٌ تَبَشَّعَتْ جُرَعَهْ (٣)

فَالْحَمْدُ لِلّٰهِ - لَا شَرِيكَ لَهُ -   إِنْ بَدَأَ الطَّوْلَ مُنْعِمًا شَفَعَهْ

حبيب

وَرَامِشَةٍ (٤) يَشْفِي الْعَلِيلَ نَسِيمُهَا   مُضَمَّخَةٍ (٥) الْأَنْفَاسِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ (٦)

أَشَارَ بِهَا نَحْوِي بَنَانٌ مُنَعَّمٌ   لِأَغْيَدَ مَكْحُولِ الْمَدَامِعِ بِالسِّحْرِ (٧)

سَرَتْ نَضْرَةٌ - مِنْ عَهْدِهَا - فِي غُصُونِهَا   وَعُلَّتْ بِمِسْكٍ مِنْ شَمَائِلِهِ الزُّهْرِ

إِذَا هُوَ أَهْدَى الْيَاسِمِينَ بِكَفِّهِ   أَخَذْتُ النُّجُومَ الزُّهْرَ مِنْ رَاحَةِ الْبَدْرِ

لَهُ خُلُقٌ عَذْبٌ وَخَلْقٌ مُحَسَّنٌ (٨)   وَطَرْفٌ كَعَرْفِ الطِّيبِ أَوْ نَشْوَةِ الْخَمْرِ (٩)

يُعَلِّلُ نَفْسِي مِنْ حَدِيثٍ تَلَذُّهُ   كَمِثْلِ الْمُنَى وَالْوَصْلِ فِي عُقُبِ الْهَجْرِ (١٠)

---

(١) لما بدا شعرك الجميل ومعه طالع السرور أنساني مرارة الدواء .

(٢) كم دعوة حواها شعرك ادعو الله أن تكون مستجابه .

(٣) كانت عاقبة الدواء حميدة وإن جزعت نفسى من شربه .

(٤) فى القاموس الرمش : الطاقة من الريحان ونحوه . وفى شفاء العليل ، رامشه : قال الصولى هى ورقة آس لها رأسان . قال أبو نواس :

« لها روامش يدنحين لنا حطل آذانا مطاياها . »

(٥) معطرة . (٦) طيبة : الرائحة .

(٧) رب طاقة من الزهر معطرة الشذى طيبة الأنفاس قدمها إلىّ من أهواه .

(٨) خلقة حسنة . (٩) يعنى أن سحر عينيه يفعل فى النفس ما يفعله الطيب أو الخمر .

(١٠) العقب : ضمتين ، والعقب بضم فسكون العاقبة مثل عسر وعسر . قال تعالى : « هو خير ثوابا وخير عقبا . »

فى مدح ابن جهــــور

« قال يمدح ابن جهور ويذكر جوارا لم يرضه ، وأملا ضيعه ، ويتمنى إنجاحه فى طلبه ، وإسعافه بأمنيته . »

« جَنَاحِي » فى جِوَارِكُمُ الذَّلِيلُ   وَحَظِّى فى رِعَايَتِكُمْ الكَلِيلُ (١)

نَصِيبٌ مِنْ وِلاَيَتِكُمْ كَثِيرٌ   وَحَظٌّ مِنْ عِنَايَتِكُمْ قَلِيـــلُ

لَمُخْتَلِفَانِ مِنْ حَالَىَّ مَهْمَا   أَجَالَ الفِكْرَ بَيْنَهُمَا مُجِيلُ (٢)

أَتَحْيَا أَنْفُسُ الآمَالِ فِيكُمْ   وَلِى بَيْنَ أَحْيَائِهَا أَمَلٌ قَتِيلُ ؟ (٣)

وَأَعْجَبُ حَادِثٍ نَظَرِى لَدَيْكُمْ   إِلَى غَلَلِ النَّجَاحِ وَبِى غَلِيلُ (٤)

وَقِدْحِى فى وِدَادِكُمُ مُعَلًّى   وَبَاعِى فى اعْتِدَادِكُمُ طَوِيلُ (٥)

وَكَائِنْ لِى ثَنَاءٌ رَاحَ يُهْدِى   إِلَيْهِ الْمَدْحَ مَجْدُكُمُ الأَثِيلُ (٦)

---

(١) وجد هذا البيت فى نسخة الديوان على هذه الصورة

. . . . فى جواركم الذليل   وحظى فى رعايتكم الكليل

والتكملة من عندنا كما يقتضيها السياق .

(٢) يقول إن حالى لمختلفان عند إجالة الفكر فيهما ، فنصيبى من ولايتكم ونصرتكم وحبكم كثير ، وحظى من عنايتكم وتفقدكم قليل .

(٣) ينكر عليهم أن تكون آمال الناس حية عندهم وله بينها أمل قتيل بين الأحياء .

(٤) الغلل الماء القليل الضعيف الذى يجرى فى أصول الشجر فيرويها قبل أن تضعف ، والغليل : العطش أى وأعجب ما حدث لى أن أنظر إلى مسيل ماء من ناحيتكم فيه نجاحى وانتعاش آمالى ، وبى ظمأ شديد ويحال بينى وبين ما يبرد غلتى ويشفى عليلى .

(٥) المعلى من قداح الميسر العشرة ، والقدح : بالكسر اسم للسهم ، وكانت قداح الميسر عندهم معروفة بعلامات خاصة ، يضعونها فى خريطة على يدى عدل يجيلها ويخرج باسم كل واحد من المتقامرين قدحا ، فإن كان غفلا أى لا نصيب له غرم صاحبه ، وإن كان من ذوات الأنصباء أخذ نصيبه بحسبه ، والذى يخرج له القدح المعلى يعد أكبر فائز بأوفر نصيب لأن له سبعة أنصباء ، وكانوا يتقامرون على جزور يقتسمونها والذى يخرج لهم من الأنصباء ، يوزعونه على الفقراء .

(٦) وكم من ثناء ومديح راح يهدى إليه مجدكم المتأصل عطفه .

تُنَافِسُهُ الرِّيَاضُ مُنَوَّرَاتٍ ... تَنَفَّسَ عَنْ نَوَافِحِهَا الْأَصِيلُ (١)

***

« أَبَا الْحَزْمِ » الزَّمَانُ – بِأَنْ تُثَنَّى ... إِذَا عُدَّتْ فَوَاضِلُكُمْ – بَخِيلُ (٢)

عَلَوْتَ النَّجْمَ إِذْ مَلَّ الْمُسَامِي ... وَحُزْتَ الْخَصْلَ إِذْ كَلَّ الرَّسِيلُ (٣)

رَأَيْتُ النَّاسَ – مَا أَصْبَحْتَ فِيهِمْ – ... بَلَاءُ اللهِ عِنْدَهُمُ جَمِيلُ

وَمَاءُ الْعَيْشِ بَيْنَهُمُ فَضِيضٌ ... وَظِلُّ الْأَمْنِ فَوْقَهُمُ ظَلِيلُ (٤)

وَلَوْ فَقَدُوكَ – لَا فَقَدُوا – حَوَاهُمْ ... مَرَادٌ مِنْ زَمَانِهِمِ وَبِيلُ (٥)

وَشَاقَ نُفُوسَهُمْ رَسْمٌ مُحِيلٌ ... – مِنَ الدُّنْيَا – وَعَهْدٌ مُسْتَحِيلُ (٦)

فَخَاصِرْ دَوْلَةً تَفْنَى اللَّيَالِي ... وَلَمْ يُلْمِمْ بِسَاحَتِهَا مُدِيلُ (٧)

وَلَا زَالَتْ نِبَالُ الدَّهْرِ تُصْمِي ... عُدَاتَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّبِيلُ

أَأَيْأَسُ مِنْ مُسَاعَفَةِ اللَّيَالِي ... وَأَنْتَ – إِلَى نِهَايَتِهَا – سَبِيلُ ؟

---

(١) النوافح . جمع نافحة وأراد بها أنفاس الرياض التي تحملها نسمات الأصيل فتفوح منها نفحات طيبة ، يقول إن ذلك الثناء الطيب تنافسه الرياض وهي منورات قد تنفس الأصيل عن نوافحها أي مافوح من طيب روائحها ، ويجوز أن يكون عن نوافجها جمع نافجة المسك . (٢) ثناه يثنيه جعل له ثانيا ، أي يا أبا الحزم الزمان بخيل بأن يعد لك ثانيا في الفضل إذا عدت فواضلكم .

(٣) حزت الخصل : أي أحرزت الغلبة في الرهان أو أدركت الغاية في السبق ، والرسيل المناضل ، أو المسابق ، وقد جاء في الأصل «المساعي» موضوعا في مكانها «المسامي» كما يرشد إليه المعنى .

(٤) الفضيض : الماء العذب الكثير المتدفق ، أو ماء السحاب الغزير المفرق ، وظل ظليل : أي دائم لا ينسخه الشمس . (٥) مراد — بالفتح — اسم مكان من رادت الإبل ترود ، أي اختلف ذهابها ومجيئها في المرعى ، والوبيل الوخيم الذي لا يستمرأ ، والمعنى : لو فقدوك — لاقدر الله — ولم يستظلوا بظل دولتك لاحتواهم من زمانهم مرعى وبيل فلم يهنأ لهم عيش ولم ينعم لهم بال .

(٦) الرسم ما بقي من آثار الدار بعد ارتحال ساكنيها ، والمحيل : المتقادم العهد الذي مرت عليه أحوال ، والمستحيل : المتغير ، أي لو فقدوك لاستوحشوا الفاقة ، ولداعبتهم نفوسهم — إذا استمرءوا فقدك ولم يقوموا بنصرتك — إلى دنيا تحولت جدتها إلى بلى ، وشبابها إلى هرم ، وتغير عهدها من سعادة وهناء إلى محنة وشقاء . (٧) المخاصرة أخذ الرجل بيد صاحبه إذا ماشاه ، ومنه قوله :

ثم خاصرتها إلى القبة الخضـ ... ـراء تمشي في مرمر مسنون

معناه ماشيتها إلى القبة الخضراء تمشي على مرمر مملس ، والمديل المتغلب الذي تنتقل إليه الدولة ، يدعو للممدوح ببقاء الدولة له من غير تحول ولا انتقال

إلى المظفــــر

« كتب إلى المظفر سيف الدولة أبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلم صاحب بطليوس . »

لِبِيضِ الطُّلَى وَلِسُودِ اللِّمَمْ   بِعَقْلِيَ - مُذْ بِنَّ عَنِّي - لَمَمْ (١)

فَـفِي نَاظِرِي - عَنْ رَشَادٍ - عَمًى   وَفِي أُذُنِي - عَنْ مَلَامٍ - صَمَمْ (٢)

قَضَتْ بِشِمَاسِي عَلَى الْعَاذِلِينَ   شُمُوسٌ مُـكَلَّلَةٌ بِالظُّلَمْ (٣)

فَمَا سَــقِمَتْ لَحَظَاتُ الْعُيُو   نِ إِلَّا لِتُغْرِيَنِي بِالسَّــقَمْ

يَلُومُ الْخَلِيُّ عَلَى أَنْ أُجَنَّ   وَقَدْ مَزَجَ الشَّوْقُ دَمْعِي بِدَمْ (٤)

وَمَا ذُو التَّذَكُّرِ مِمَّنْ يُلَامُ   وَلَا كَرَمُ الْعَهْدِ مِمَّا يُذَمّْ (٥)

⁂

وَإِنِّي أُرَاحُ إِذَا مَا الْجَنُو   بُ رَاحَتْ بِرَيَّا جَنُوبِ الْعَلَمْ (٦)

---

(١) الطلاة . بضم الطاء هي العنق والجمع طلى مثل تقاة وتقى ، واللمم : بكسر اللام جمع لمة — الشعر المجاور شحمة الأذن — لمة بفتح اللام — الجنون .

(٢) في هذا البيت والذي قبله يقول الشاعر أنه عمى عن الرشاد وصم عن الملام وصار في حل من ود من نأى وبعد عنه الحسان بيض الأعناق سود اللمم .

(٣) شمس الفرس شموسا وشماسا منع ظهره — العرب تقول روضة مكللة ، يعني محفوفة بالنور ، فيقول الشاعر : شموس مكللة . أي محلاة بالليل الشعر الأسود — وهذا البيت بمثابة التكملة لوصف حالته في البيتين السابقين فكأنه يقول وكما عميت عن الرشد وصممت عن الملامة كذلك فقد قضى عليّ هذا الحال أن أشمس على العاذلين .   (٤) الخلي : كمعنى الفارغ ، وفي المثل العربي القديم « ويل للشجي من الخلي » .

(٥) انتقل الشاعر لتبرير جنونه في غرامه وفي دموعه التي مزجت بالدم وألزم لوّامه بالحجة وقذف في وجوههم بالبرهان الذي ليس وراءه برهان ، فقال : إن بكائي وجنوني ولوعتي كلّ أولئك لا لوم فيه ولا بأس منه في سبيل الذكرى والحفاظ بالعهد فليس كرم العهد مما يذم ، وفي القرآن الكريم : «وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسئولا »

(٦) أراح — استريح — ريح الجنوب هي المقابلة لريح الشمال — « راحت » — من الرواح ، وهو ضد الغدوّ . يقول : إني لكثرة تذكري الأحبة ولكثرة حفاظي بعهودهم أستريح إذا ريح الجنوب عادت إليّ برائحة أمكنتهم المقدّسة المحبوبة .

وَأَصْبُو لِعِرْفَانِ عَرْفِ الصَّبَا وَأُهْدِي السَّلَامَ إِلَى «ذِي سَلَمْ»(١)

وَمِنْ طَرَبٍ عَادَ نَحْوَ «الْبُرُو قِ» أُجْهِشْتُ لِلْبَرْقِ حِينَ ابْتَسَمْ(٢)

أَمَا وَزَمَانٍ — مَضَى عَهْدُهُ حَمِيداً — لَقَدْ جَارَ لَمَّا حَكَمْ

قَضَى بِالصَّبَابَةِ ثُمَّ انْقَضَى وَمَا اتَّصَلَ الْأُنْسُ حَتَّى انْصَرَمْ(٣)

لَيَالِيَ نَامَتْ عُيُونُ الْوُشَا ةِ عَنَّا، وَعَيْنُ الرِّضَى لَمْ تَنَمْ(٤)

وَمَالَتْ عَلَيْنَا غُصُونُ الْهَوَى فَأَجْنَتْ ثِمَارَ الْمُنَى مِنْ أَمَمْ(٥)

وَأَيَّامُنَا مُذْهَبَاتُ الْبُرُودِ رِقَاقُ الْحَوَاشِي صَوَافِي الْأَدَمْ(٦)

---

(١) أصبو — أميل — وعرفان — معرفة ، والعرف هو الشذى . يقول : أنى أيضا أميل صبوة وحبا إذا هبت الصبا — ريح الشمال — لأنها معطرة بشذى من يحبهم ويهواهم ويهدى السلام إلى ذى سلم الموضع الذى حملت منه الصبا ذلك الشذى المحبوب .

(٢) أجهشت : ارتفع صوتى باكيا ، يقول : كما أنى أستريح للمحبوب إذا عادت بريا ريح العلم وأصبو إلى شذى الصبا كذلك أبكى من طرب يعاودنى إذا ابتسم البرق ولمع ، والمعنى فى هذه الأبيات أنه يستريح لكل قادم من جهات أحبته لأن فى ذلك نوعا من الذكرى . ولانظن شاعرا لم يبك لابتسام البروق ولم ينتش من ريا الصبا والمحبوب .

(٣) الصرم : هو القطع ، والمعنى أن الزمان الذى مضى حميدا جاد عن العدل حين حكم وهل أقل من وسم هذا الزمن بإقامة العدل ، وهو الذى ما كاد يقضى لنا بالصبابة والاستمتاع حتى انقضى وسيكا ، وما كادت تتصل أوقات الأنس حتى صرمه عنا وحال بيننا وبينه .

(٤) الوشاه . فى الأصل هم الذين يمشون بالشر والسعاية فيذيعون الأسرار ، والمراد بهم هنا الخصوم على الاطلاق والمراد بعين الرضى حالة السعادة التى ينعم بها المحبوب فى ساعات الوصال ، وكأنك بالشاعر فى هذا الباب شرع يفصل الصبابة التى انقضت والانس الذى انصرم ، فقال : ليالى نامت عيون الوشاة إلى آخر هذا الوصف الذى يتخلص به إلى المديح فى أبى بكر .

(٥) أجنت ثمار المنى . أى أعطت ، والأمم هو القرب ، تقول : رأيته من أمم ، أى من قرب ، يقول أيضا فى تفصيل الأنس الذى انصرم : ومالت علينا غصون الهوى أى وليالى ظللتنا هذه الغصون — فجنينا منها ماشئنا .

(٦) مذهبات البرود : أى مموهة البرود — جمع برد — بالذهب ، وقوله « رقاق الحواشى » كناية عن رقة وخضرة العيش فى تلك الأيام ورغده ، وكذلك قوله صوافى الأدم ، والأدم هو الجلد . قال المتنبى :

« وأينما قدم سعيت إلى العلا أدم الهلال لأخمصيك حذاء . »

كَأَنَّ « أَبَا بَكْرٍ » الْأَسْـــلَمِيَّ أَجْرَى عَلَيْهَا فِرِنْدَ الْـكَرَمْ[١]

وَوَشَّحَ زَهْرَةَ ذَاكَ الزَّمَانِ بِمَا حَازَ مِنْ زُهْرِ تِلْكَ الشِّيَمْ[٢]

هُوَ الْحَاجِبُ الْمُعْتَلِي لِلْعُلاَ شَمَارِيخَ كُلِّ مُنِيفٍ أَشَمْ[٣]

مَلِيكٌ إِذَا سَابَقَتْهُ الْمُلُوكُ حَوَى الْخَصْلَ أَوْ سَاهَمَتْهُ سَهَمْ[٤]

فَأَطْوَلُهُمْ ـ بِالْأَيَادِي ـ يَداً ، وَأَثْبَتُهُمْ ـ فِي الْمَعَالِي ـ قَدَمْ[٥]

⁂

وَأَرْوَعَ لاَ مُعْتَفِي رِفْدِهِ يَخِيبُ وَلاَ جَارُهُ يُهْتَضَمْ[٦]

---

(١) كأن أبا بكر الأسلمي أجرى محاسن جوده وديباجة كرمه على تلك الليالي والأيام التي نامت عنها عيون الوشاة وطلائعه فتعودنا اللهو فيها ، وهذا مما يفعل الشعراء كثيراً تخلصاً من النسيب والتشبيب إلى المدح وهو ما يسميه علماء البديع « حسن التخلص » .

(٢) وكأن أبا بكر بما أحرز من شمائل يزين كرمها زهر الدهر ... ووشح تلك الأيام ... وشحها به من نضرة وحسن .

(٣) شماريخ : جمع شمراخ أو شمروخ ـ أعالي الجبال ـ كل منيف أشم : أي كل عال مرتفع . يقول : إن أبا بكر هذا لا يتسنم في العلا حداً فهو في سلمها قد تسنم ذرا كل منيف ، وعلا فوق كل عال .

(٤) حوى الخصل : أحرز الشيء المعلوم الذي يتراهن عليه في السباق ، يعني أحرز قصب السبق ، وساهمه : أي قارعه الملوك ونالته سهامهم أي غلبهم ، والمعنى أن هذا الملك إذا سابقه الملوك في المجد فأحرز دونهم قصب السبق ، وإن قارعه في مضمار النضال قرعهم وغلبهم .

(٥) بالأيادي : النعم ، ويداً : يريد نعماً ، وهذا البيت توضيح أو تأكيد لسابقه أو هو بيان المبرات التي بها يغلب هذا الملك أقدار الملوك من أمثاله ويسبقهم .

(٦) الأروع : من يعجبك حسنه وجهارة منظره أو شجاعته وكرمه ، والمراد من الأروع أنه الرجل الكريم الحي النفس الذكي الجميل الذي يروعك حسنه ، ويعجبك إذا رأيته ، والمعتفي كالعافي كل من جاء يطلب رفداً وعطاء وفضلا ، قال الأعشى

« تطوف العفاة بأبوابه طواف النصارى ببيت الوثن . »

وقال مسلم بن الوليد .

« ترى العفاة عكوفاً حول حجرته يرجون أروع رحب الباع بساما . »

وقال أبو تمام :

« كم أعطت راحتاه من نشب سلامة المعتفين في عطبه . »

والرفد : العطاء ـ وقوله لا معتفي ـ في القاموس اعتفت الابل اليبس واستعفت أحدته بمشافرها فوق التراب مستصفية له ، والرفد هو العطاء ولا جاره يهضم هضم الجار وتهضمه غمض حقه يقول إن هذا الملك اجتمع له حسن الخلق فهو يعجب الناظر إليه بحسنه وجمال هيئته كما اجتمع له حسن الخلق ، لأنه لا يخيب طالب رفده ولا يظلم جاره .

ذَلولُ الدَّمَانَةِ صَعْبُ الإِبَاءِ ثَقِيفُ الْعَزِيمِ إِذَا مَا اعْتَزَمْ (١)

سَمَا لِلْمَجَــرَّةِ فِى أُفْقِهَا فَجَرَّ عَلَيْهَا ذُيُولَ الْهِمَمْ (٢)

وناصَتْ مَسَاعِيهِ زُهْرَ النُّجُومِ وَبَارَتْ عَطَايَاهُ وُطْفَ الدِّيَمْ (٣)

نَهِيكٌ إِذَا جَنَّ لَيْلُ الْعَجَاجِ سَرَى مِنْهُ فِى جُنْحِهِ بَدْرُ تِمْ (٤)

---

(١) الدمانة سهولة الخلق — وقوله ثقيف العزيم — ثقف إذا صار حاذقا حصيفا فطنا، وثقيف إذا عظمت فيه هذه الصفات ، والعزيم والعزيمة والعزم واحد ، يعنى أن الممدوح مع ماتقدم من صفات رجولته وسمو مروءته وبطولته ليس متكبر ولا متعجرف ، وإنما هو سهل الخلق دمث الطبع ولكن فى إباء ، كما أنه كثير الحذق والفطنة متثقف العزيم إذا ما اعتزم الأمور أو طلب القنائص والرغاب .

(٢) المجرة : إحدى كواكب السماء فهذا الممدوح قد سما للمجرة أى علا إليها وزاد عليها بعلوّ الهمم التى فصلها قوله فى الأبيات السابقة لامع فى وعده يجيب ولا جاره يهتضم وأنه إذا سابق الملوك علاهم ، وأنه أطولهم يدا ، وأثبتهم قدما ، وليس المجرة من المآثر فى الناس ما يعادل مآثر همم هذا الممدوح .

(٣) ناصت مساعيه زهر النجوم : أى أن مساعيه ارتفعت حتى ساوت النجوم الزاهرة كالمجرة والنثرة والأكاليل ، وقوله وطف الديم ، وطف : جمع وطفاء ، وهى السحابة المسترخية من المطر ، والديم : جمع ديمة ، وهى مطر يدوم فى سكون بلا رعد ، يقول : إن عطاياه تبارى السحب الممطرة الدائمة بلا جلبة ولا صوصاء فكأن هــذا البيت برهان لسابقه ، وكأنه يقول : لم لاتفضل على المجرة من هــذه صفات مساعيه وسحب مبراته وعطاياه .

(٤) النهيك : الشجاع القوى المبالغ فى الشجاعة لأنه ينهك عدوه فيبلغ منه ما يريد ، جن ليل العجاج : كل ما ستر عنك فقد جن عنك، والعجاج: الغبار المثار واحدته عجاجة ، وجنح الليل — بكسر الجيم ويضم — الطائفة من الليل ، وبدر تم: هو القمر إذا أبدر فى ليلة تمامه أربع عشرة ، يقول: حسبك من هذا الممدوح أنه إذا جن ليل الحرب سرى منه وجه مشرق أو سيف لامع يشبه البدر فى ليلة التمام يكشف ظلام هــذا العجاج ، ويبين عن جبهة النصر والنور ، فهو بعــد أن فرغ من إثبات كرم ممدوحه ، وحسن خلقه بما يعلو به على مكانة النجوم ويزهو بقدره فوق هام الــكواكب شرع يثبت له أنه فارس خيل ، وكاشــف ... ، وأنه لا يسطع بدر كلما ثارت عجاجة للهيجاء ، وادلهمت الحرب الهوجاء .

فَشَامَ السُّيُوفَ بِهَامِ الْكُمَاةِ ... وَرَوَّى الْقَنَا فِى نُحُورِ الْبُهَمْ (١)

جَوَادٌ ذَرَاهُ مَطَافُ الْعُفَاةِ ... وَيُمْنَاهُ رُكْنُ النَّدَى الْمُسْتَلَمْ (٢)

يَهِيجُ النِّزَالُ بِهِ وَالسُّؤَا ... لُ لَيْثاً هَصُوراً وَبَحْراً خِضَمْ (٣)

شَهِدْنَا ، لَأُوتِىَ فَصْلَ الْخِطَابِ ... وَخُصَّ بِفَضْلِ النُّهَى وَالْحِكَمْ (٤)

وَهَلْ فَاتَ شَىْءٌ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ ... جَرَى السَّيْفُ يَطْلُبُهُ وَالْقَلَمْ (٥)

---

(١) فشام السيوف : معناه أغمدها أو سلها فهو من الاضداد ، ولكن يتعين هنا أن يكون معناه أغمدها فى هام الكماة ، يقال شام الشىء فى الشىء أدخله فيه أى جعل من رءوس الكماة أغمادا للسيوف — هام : جمع هامه ، وهى الرأس ، والكماة : جمع كمى ، وهو الفارس المدجج فى السلاح والقنا : جمع قناه ، وهى الرمح ، والبهم : جمع بهمة بضم الباء وسكون الهاء الشجاع الذى لايهتدى من أين يؤتى — أو هو الجيش ، فهو يقول: إذاص ابل الصحاح وسرى من دلك الممدوح فى تلك الناحية — فدر تم — هنالك رأيت كيف يغمد السيوف فى رؤس الفرسان المدججين فى السلاح ، ورأيت كيف تسقى الرماح من دم نحور الشجعان الذين لاتعرف ما تأتيهم فى الحروب .

(٢) يقول : ان ممدوحه جواد وإن فى داره مطافا ومثابه للعفاة من طلاب الرفد والعطاء وإن يده اليمنى كأنها لكثرة ما تقبل من شفاه المرفودين أصبحت كالحجر الأسود المستلم الذى يقبله حجاج بيت الله الحرام .

(٣) الخضم : السيد الحمول المعطاء قال فى القاموس : هو خاص بالرجال ومن معانيه البحر أيضا — النزال : بالكسر أن ينزل الفريقان المتحاربان عن إبلهما إلى خيلهما فيتضاربوا ، ويقال : نزال : كقطام ، أى انزل — للواحد والجمع والمؤنث ، والليث من أسماء الأسد ، والهصور — كالهصار — والمهصير — أسما للأسد أيضا ، وقوله « وبحرا خضم » ، وكذلك قوله فى بيت سبق فى هذه القصيدة نفسها :

« فأطولهم بالأيادى يدا وأثبتهم فى المعالى قدم »

أجرى فيه المنصوب المنون فى الوقف مجرى المرفوع والمجرور، فوقف عليه بالسكون ولم يقف عليه بالألف. وذكر النحاة أن اللغة الفاشية من لسان العرب قلب التنوين ألفا فى المنصوب المنون عند الوقف نحو رأيت زيدا ، وبحرا خضما ، وربيعة يجيزون إجراءه فى الوقف مجرى المرفوع والمجرور ، قال الشاعر :

« ألا حبذا غنم وحسن حديثها فقد تركت قلبى بها هائما دنف . »

« وابن زيدون » على فحولته ما كان ينبغى له أن يضطر إلى استعمال هذه اللغة القليلة فى شعره . ومعنى البيت أن دعوة الحرب تهيج من هذا الممدوح ليثا هصورا كما أن سؤال رفده وعطائه يهيج منه سيدا حمولا لما يكلف معطاء لما يسأل كالبحر .

(٤) فى هذا البيت الجناس بين فصل الخطاب وفضل النهى ، ومعنى البيت أن الممدوح حكيم لا فى غبا وبكم ودرب اللسان والمنطق ولكن لا فى طيش وخفة ، وهذا قلما يتاح إلا لمن هيأهم الله لنصرة الحق والدفاع عن حوزة الدين ، وجدير بمن يؤتى فصل الخطاب وفضل النهى أن يشهد له رمه ويعترف له بالزعامة . والرياسة والفضل . (٥) يؤكد ما قاله فى البيت السابق ، فيقول : هل ترك الممدوح أو فات شيئا من المكرمات يمكن السيف والقلم إحرازه من غير أن يحرزه ؟

***

وَمُسْـــتَحْمَدٍ بِكَرِيمِ الْفَعَا ... لِ عَفْواً إِذَا مَا اللَّئِيمُ اسْتَذَمْ (١)

شَمَائِلُ تُهْجَرُ عَنْهَا الشَّمُولُ ... وَتُجْفَى لَهَا مُشْجِيَاتُ النَّغَمْ (٢)

عَلَى الرَّوْضِ مِنْهَا رُوَاءٌ يَرُوقُ ... وَفِى الْمِسْكِ طِيبُ أَرِيجٍ يُشَمْ (٣)

***

أَبُوهُ الَّذِى فَلَّ غَرْبَ الضَّلَالِ ... وَلَاءَمَ شَعْبَ الْهُدَى فَالْتَأَمْ (٤)

وَلَاذَ بِهِ الدِّينُ مُسْـــتَعْصِماً ... بِذِمَّةِ أَبْلَجَ وَافِى الذِّمَمْ (٥)

وَجَاهَدَ فِى اللهِ حَقَّ الْجِهَا ... دِ مَنْ دَانَ مِنْ دُونِهِ بِالصَّنَمْ (٦)

---

(١) مستحمد : أى منسوب إلى الحمد ، ويقال فعل الشيء عفواً أى من غير تعمل ولا طلب ، واستذم : فعل ما يذم عليه ، والمعنى فى هـذا البيت أنه من طبيعته الاستحماد — عفواً — لأنه كريم الفعال التى من شأنها أن تعود على صاحبها بالحمد ، وذلك فى الوقت الذى يصدر فيـه لؤم الأوماء عفواً أيضاً . يقول إن ممدوحه فى الوقت الذى يبدو فيـه لؤم اللؤماء رغم لؤمهم ورياءهم يظهر كرمه الفطرى وميوله الحية التى ترغمه أيضا على إحراز المحامد .

(٢) الشمول : من أسماء الخمر — تجفى : تهجر ، والمعنى أن شمائل ممدوحه تغنى عن الخمر والغناء الشجى لأنها يتغنى بها فتطرب ويتحدث عنها فتسكر .

(٣) الرواء الحسن — الأريج : الرائحة الطيبـة ، يقول : إن هـذه الشمائل تابى فى رواء الحسن الذى يروق الناظر فى الروض ، وكذلك تلوى فيما يلذ العاطس فى الأريج الطيب المشموم من المسك .

(٤) فلّ غرب الضلال : أى ثلم حده الذى يشبه حدّ السيف فى المضاء ، وقوله — ولاءم شعب الهدى فالتأم معناه أصلح شـعب الهدى فانصلح ، والمعـنى أن أباه رأب صدع الهدى وفرق حزب الضـلال وحصد شوكته .

(٥) الأبلج : هو كل واضح ، ويقال : أبلج الصبح وضح يقول بأن الممدوح احتمى الدين منه واعتصم بواضح المكانة وافى الذمم .

(٦) يقول : وإن أبا هذا الممدوح أبلى البـلاء الحسن فى الجهاد لله وفى مجاهدة من دان من دون الله بالصنم ، يعنى أنه عاش لله وليا لأوليائه عدوًا لدودا لأعدائه

فَلاَ سَامِيَ الطَّرْفِ إلاَّ أَذَلَّ ... وَلاَ شَامِخَ الْأَنْفِ إِلاَّ رَغَمْ (١)

تَقَيَّلَ فى الْعِزِّ — مِنْ حِمْيَرٍ — ... مَقَاوِلَ عَزُّوا جَمِيعَ الْأُمَمْ (٢)

هُمُ نَعَشُوا الْمُلْكَ حَتَّى اسْتَقَلَّ ... وَهُمْ أَظْلَمُوا الْخَطْبَ حَتَّى أَظْلَمْ

نُجُومُ هُدًى — وَالمَعَالِى بُرُوجٌ — ... وَأُسْدُ وَغًى وَالْعَوَالِى أَجَمْ (٣)

* * *

« أَبَا بَكْرٍ » أَسْلَمْ عَلَى الْحَادِثَاتِ ... وَلاَ زِلْتَ مِنْ رَيْبِهَا فى حَرَمْ (٤)

أُنَادِيكَ — عَنْ مِقَةٍ — عَهْدُهَا ... كَمَا وَشَّتِ الرَّوْضَ أَيْدِى الرِّهَمْ (٥)

وَإِنْ يَعْدُنِى عَنْكَ شَحْطُ النَّوَى ... فَحَظِّى أَخَسَّ وَنَفْسِى ظَلَمْ (٦)

---

(١) رغم : رغم يقول . إنه لم يترك من أعدائه ، سامى الطرف إلا أذله ، ولا أشم الأنف إلا أرغمه ، ويقال رغم أنفه يعنى أذله عن كره عنى أرغمه .

(٢) تقيل أباه أشبهه — مقاول ومقاولة وأقيال وأقوال جمع مقول كمنبر أو جمع قيل — الملك من ملوك حمير — أوهو مادون الملك الأعلى، وسمى قيلا لأنه يقول ماشاء فينفذ ، وحينئذ فمعنى البيت أنه فى عزه ومجده ومناعته أشبه آباءه وأجداده من ملوك وأقيال حمير الذين سادوا وعلوا جميع الأمم

(٣) بروج السماء معروفة — الوغى: غبار الحرب أوالحرب — العوالى صدور الرماح — والأجم بضمتين وبالتحريك جمع أجمة محركة — الشجر الكثير الملتف ، والمعنى أن المقاولة الاقيال آباء هذا الممدوح كانوا فى المعالى يشبهون النجوم فى بروجها فى السماء كما كانوا فى الحروب يشبهون الأسد تظللهم رماح كأنها أجم الأسد .

(٤) يدعو له أن يظل فى مأمن من أحداث الدهر ومصائبه ، وأن يظل فى موضع لا تهتكه الحادثات ولا تصل إليه ريبها .

(٥) المقة : المحبة ، والرهم : كعنب جمع رهمة بكسر الراء وسكون الهاء وهى المطر الضعيف الدائم ويقال روضة مرهومة ، يقول الشاعر : أناديك نداء صادراً عن مقة ومحبة عهدها فى الجدة والشباب كما نقشت أيدى السحاب الماطر ، أديم الروض الناضر ، بألوان الربيع الزاهر .

(٦) عداه عن الأمر صرفه وشغله ، ويعدنى عنك : يصرفنى ويشغلنى عنك ، والشحط : البعد ، والنوى الاغتراب . يقول : إذا كان الاغتراب يشغلنى ويصرفنى عنك فانه لم يبخس إلا حظى ولم يظلم إلا نفسى فضرر هذا البعد واقع بى وحدى وليس يقع منه شىء عليك

وَإِنِّى لأُصْفِيكَ مَحْضَ الْهَوَى ... وَأُخْفِي لِبُعْدِكَ بَرْحَ الْأَلَمْ (١)

وَغَيْرُكَ أَخْفَرَ عَهْدَ الذِّمَامِ ... إِذَا حُسْنُ ظَنِّى عَلَيْهِ أَذَمْ (٢)

⁂

وَمُسْتَشْفِعٍ بِى بَشَّرْتَهُ ... ـ عَلَى ثِقَةٍ ـ بِالنَّجَاحِ الْأَتَمْ (٣)

وَقِدْمًا أَقَلْتَ الْمُسِىءَ الْعِثَارَ ... وَأَحْسَنْتَ بِالصَّفْحِ عَمَّا اجْتَرَمْ (٤)

وَعِنْدِى ـ لِشُكْرِكَ ـ نَظْمُ الْعُقُودِ ... تَنَاسَقُ فِيهَا اللَّآلِى التُّؤَمْ (٥)

تُجِدُّ لِفَخْرِكَ بُرْدَ الشَّبَابِ ... إِذَا لَبِسَ الدَّهْرُ بُرْدَ الْهَرَمْ (٦)

فَعِشْ مُعْصِمًا بِيَفَاعِ السُّعُودِ ... وَدُمْ نَاعِمًا فِى ظِلَالِ النِّعَمْ (٧)

وَلَا يَزَلِ الدَّهْرُ أَيَّامُهُ ... لَكُمْ حَشَمٌ وَاللَّيَالِى خَدَمْ (٨)

---

(١) محض الهوى : خالصه — والبرح : الشدة يدعم بهذا البيت معنى سابقه فيقول إنى لأصفيك وأمحضك الهوى خالصا لاشائبة فيه وإنى فى بعدك لأسعر فى نفسى بالألم المبرح واللوعة المرة ولكنى أخفى ذلك فى حنايا الضلوع وفى موضع الأسرار من القلوب .

(٢) أخفر به : نقض عهده وغدره — الذمام : الحرمة ويجمع على أذمة ويقال — أذم له عليه أى أخذ له ذمة أى حرمة أو اجارة . يقول : إن غيرك يا أبا بكر هو الذى يخفر عهد الذمام ويضيعه ويغدر به إذا حمل حسن ظنى وطيب قلبى له حرمة عندى أو أذما لى عليه ذمة .

(٣) يقول : ما بشرت المستشفع بى لديك بالنجاح إلا تم لمطلبه وقيل له ثق بنجاحك فقد تشفعت بالذى لا ترد شفاعته عند أبى بكر ولا يخيب له رجاء لديه .

(٤) قدما أى قديما وأقلت فلانا من كذا يعنى أعفيته منه واجترم أى أتى الذنب أو الجريمة والصفح هو العفو يقول واننا نعرفك تقيل العاثر من عثرته وتعفو عن الجانى فى جريمته .

(٥) التناسق هو التتابع حبات العقود ولآلئها واللآلئ التوم أى المتشاكلة وتسمى اللؤلؤة التوامية وتوائم النجوم واللؤلؤ ما تشاكل منها يعمد الشاعر إلى تشويق الممدوح لاقتناء مدائحه وشعره الذى يشبه العقود المنظومة المتناسقة توائم اللآلئ .

(٦) أجد الثوب صيره جديدا يعنى أن نظم هذه العقود المتسقة يجد ويعيد ابراد الشباب من الفخر بها جديدة فى الوقت الذى يلبس فيه الزمن ثوب الهرم ، أو أن فخر الممدوح نفسه هو الذى يظل بتلك المدائح جديدا .

(٧) يفاع : كسحاب التل والمقصود به هنا المرتفع يدعو للممدوح أن يعيش معتصما بمرتفعات السعود وأن يدوم مظللا بالنعم الطليلة لوارفة .

(٨) حشم الرجل وحشمته الذين يعصبون له من أهله وعبيده وجيرانه ، والحشم للواحد والجمع والخدم جمع خادم . يقول : لازال الدهر خادما لك

فى نكبة بنى ذكوان

«قال عند نكبة بنى ذكوان وابن حذام
فى سنة ٤٤٠ هـ أربعين وأربعمائة.»

هَلِ النِّدَاءُ ـ الَّذِى أَعْلَنْتُ ـ مُسْتَمَعُ ... أَمْ فى الْمِئَاتِ الَّتِى قَدَّمْتُ مُنْتَفَعُ (١)

إِنِّى لَأَعْجَبُ مِنْ حَظٍّ يُسَوِّفُ بِى ... كَالْيَأْسِ مِنْ نَيْلِهِ أَنْ يَجْذِبَ الطَّمَعُ (٢)

تَأْبَى السُّكُونَ إِلَى تَعْلِيلِ دَهْرِىَ لِى ... نَفْسٌ ـ إِذَا خُودِعَتْ ـ لَمْ تُرْضِهَا الْخُدَعُ (٣)

لَيْسَ الرُّكُونُ إِلَى الدُّنْيَا دَلِيلَ حِجًا ... فَإِنَّهَا دُوَلٌ أَيَّامُهَا مُتَعُ (٤)

تَأْتِى الرَّزَايَا نِظَامًا مِنْ حَوَادِثِهَا ... إِذِ الْفَوَائِدُ فى أَثْنَائِهَا لُمَعُ (٥)

أَهْلُ النَّبَاهَةِ أَمْثَالِى لِدَهْرِهِمُ ... بِقَصْرِهِمْ دُونَ غَايَاتِ الْمُنَى وَلَعُ (٦)

---

(١) يقول : هل وصل إلى سمعكم ذلك النداء الذى أعلنت فيه شكواى ، أم هل مما قدمته من مئات القصائد والرسائل غناء ونفع ، وهو بهذا الاستفهام ينكر أن تكون شكواه قد سمعت ، وأن تكون قصائده قد نفعت .

(٢) الطمع : ضدّ اليأس ، والمعنى : إنى لأعجب من حظ امتدّ بى فى نيله تسويف الممدوح ومطله ، حتى لقد أصبح شبيها باليأس منه طمع يجذبنى إليه يريد أن الطمع فيه أخو اليأس منه .

(٣) يقول : إن دهرى يعللنى بنيل تلك الأمانى البعيدة ، ولكن نفسى لا تسكن إلى هذا التعليل لأنها لا تنخدع إذا خودعت .

(٤) الحجا : العقل والفطنة ، معناه أن الركون إلى الدنيا ليس فيه دليل على ذكاء وفطنة من يركن إليها لأنها زائلة متحولة ، والمتمتع بها مغرور مفتون .

(٥) يقول : ان الرزايا فى هذه الدنيا تأتى على نسق متتابع من الحوادث التى يتخلل سوادها بصيص من لمع الفوائد .

(٦) القصر : الحبس والمنع ، والولع : مصدر ولع فلان بكذا إذا لجّ فيه وحرص عليه ، يعنى أن الدهر مولع بالحيلولة بين النابه الشريف وبين بلوغ أمانيه .

***

لَولاَ بَنو « جَهْوَرٍ » مَا أَشْرَقَتْ هِمَمِى كَمِثْلِ بِيضِ اللَّيَالِى دُونَهَا الدُّرَعُ (١)

هُمُ المُلُوكُ مُلُوكُ الأَرْضِ دُونَهُمُ غيدُ السَّوَالِفِ فى أَجْيَادِهَا تَلَعُ (٢)

مِنَ الْوَرَى إِنْ يَفُوقُوهُمْ فَلاَ عَجَبٌ لِذَلِكَ الشَّهْرُ مِنْ أَيَّامِهِ الجُمَعُ (٣)

قَوْمٌ مَتَى تَحْتَفِلْ فى وَصْفِ سَوْدَدِهِمْ لاَ يَأْخُذِ الْوَصْفُ إِلاَّ بَعْضَ مَا يَدَعُ (٤)

تَجَهَّمَ الدَّهْرُ فَانْصَاتَتْ لَهُمْ غُرَرٌ مَاءُ الطَّلاَقَةِ فى أَسْرَارِهَا دُفَعُ (٥)

بَاهَتْ وُجُوهُهُمُ الأَعْرَاضَ مِنْ كَرَمٍ فَكُلَّمَا رَاقَ مَرْأًى طَابَ مُسْتَمَعُ

سَرْوٌ تَزَاحَمُ فى وَصْفِ المَدِيحِ لَهُ مَحَاسِنُ الشِّعْرِ حَتَّى بَيْنَهَا قُرَعُ (٦)

---

(١) الدرع : الليالى التى اسودت أوائلها وابيض سائرها ، والليالى البيض هى التى يطلع فيها القمر من أولها إلى آخرها ، أى لولا الجهاورة ما أشرقت هممى إشراقا كاشراق الليالى البيض دونها فى البياض الدرع أى الليالى التي أظلمت أوائلها .

(٢) غيد جمع أغيد : أى مائل ، والسوالف : جمع سالفة ، وهى صفحة العنق مما يلى الأذن ، والتلع : طول العنق وامتداده ، يقول : بنو جهور هم ملوك الأرض لايدانيهم فى المنزلة أولئك الملوك الذى أمالوا سوالفهم ، ومدوا أعناقهم خيلاء وكبرا .

(٣) أى هم من الورى وليس عجيبا أن يفوقوهم ، كما أن الجمع من أيام الشهر ولكنها تفوق سائره .

(٤) تحتفل : تبالغ يريد أنك مهما تبالغ فى وصف سوددهم ولا يمكنك أن تثبت من صفاتهم فى السيادة والمجد إلا جزءا صغيرا مما تدعه لكثرته ، وعجزك عن الاحاطة به .

(٥) تجهم : عبس وتنكرت أيامه ، وانصاتت : اشتهرت ، والأسرار : جمع سرّ ، ويجمع أيضا على أسارير ، وهى خطوط فى الغرة والجبين ، والدفع : جمع دفعة ، وهى الدفقة من المطر ونحوه ، والمعنى عبس وجه الزمان واسودت جوانب العيش فاشتهرت لهم فى أثناء تجهمه غرر بيض يجرى فى غضونها ماء الطلاقة والبشر مترقرقا متسلسلا .

(٦) جمع قرعه ، وهى السهمة ، أى حتى يساهم ويقرع بين جيد الأشعار أيها أدق وأحسن وأجدر بسى الجوائر

***

« أَبُو الْوَلِيدِ » قَدِ اسْتَوْفَى مَنَاقِبَهُمْ ... فَلِلتَّفَارِيقِ مِنْهَا فِيهِ مُجْتَمَعُ (١)

هُوَ الْكَرِيمُ الَّذِي سَنَّ الْكِرَامُ لَهُ ... زُهْرَ الْمَسَاعِي فَلَمْ تَسْتَهْوِهِ الْبِدَعُ

مِنْ عِتْرَةٍ أَوْهَمَتْهُ فِي تَعَاقُبِهَا ... أَنَّ الْمَكَارِمَ إِيصَاءٌ بِهَا شِرَعُ (٢)

مُهَذَّبٌ أَخْلَصَتْهُ أَوَّلِيَّتُهُ ... كَالسَّيْفِ بَالَغَ فِي إِخْلَاصِهِ الصَّنَعُ (٣)

---

(١) يعني أن (أبا الوليد) استوفى مناقب الملوك حتى اجتمع فيه ما تفرق في غيره منها وعبر بالتفاريق للاشارة إلى قولهم في المثل السائر «هو خير من تفاريق العصا» ، يريد أن مناقبه كالعصا جمعت كثيرا من المنافع ، وأن مناقب غيره من الملوك كتفاريق العصا اختصت كل واحدة منها بفائدة ومنفعة ، وجاء في كتاب العصا من البيان والتبيين للجاحظ ما نسخته : « ومن جمل القول في العصا » وما يجوز فيها من المنافع والمرافق ، تفسير شعر «غنية» الأعرابية في شأن ابنها ، وذلك أنها كان لها ابن شديد العرامة كثير التلفت إلى الناس مع ضعف أسر ، ودقة عظم ، فواثب مرة فتى من الأعراب ، فقطع الفتى أنفه وأخذت « غنية » دية أنفه ، فحسنت حالها بعد فقر مدقع ، ثم واثب آخر فقطع أذنه فأخذت الدية فزادت دية أذنه في المال وحسن الحال ، ثم واثب بعد ذلك آخر فقطع شفته ، فلما رأت ما قد صار عندها من الإبل والغنم والمتاع والكسب بجوارح ابنها ، حسن رأيها فيه فذكرته في أرجوزة لها تقول فيها :

« أحلف بالمروة يوما والصفا ... إنك خير من تفاريق العصا . »

وسئل ابن الأعرابي ، ما تفاريق العصا ؟ قال : العصا تقطع ساجورا وتقطع عصا الساجور فتصير أوتادا ، ويفرق الوتد فتصير كل قطعة شظاظا ، فإن كان رأس الشظاظ كالفلكة صار للبختي مهارا ، وهو العود الذي يدخل في أنف البختي ، وإذا فرق المهار جاءت منه التوادي ، والسواجير تكون للكلاب والأسراء من الناس — وقال النبي صلى الله عليه وسلم ، «يؤتى بناس من هاهنا يقادون إلى حظوظهم بالسواجير» — وإذا كانت قناة فكل شقة منها قوس بندق ، قال فإن فرقت الشقة صارت سهاما ، فإن فرقت السهام صارت حظاء ، وهي سهام صغار ، والواحدة حظوة وسروه ، فإن فرقت الحظاء صارت مغازل ، فإن فرق المغزل شعب به الشعاب أقداحه المصدوعة المشقوقة على أنه لا يجد لها أصلح منها . وقال الشاعر :

« نوافذ أطراف القنا قد شككته ... كشكك بالشعب الإناء المثلما . »

فإذا كانت العصا صحيحة سالمة ففيها من المنافع الكبار ، والمرافق الأوساط والصغار ، ما لا يحصيه أحد ، فإذا فرقت ففيها مثل الذي ذكرنا وأكثر» إلى آخر ما أورده الجاحظ في هذا الباب .

(٢) جمع شرعة بكسر أوله أي شرائع ومناهج يجري فيها على سنة الملوك من آبائه . يريد أن آباءه من الملوك لتعاقبهم على سنن المكارم فيمن يخلفهم من أبنائهم أوهموه لكثرة ما أوصوا بها أنها شرائع منزلة .

(٣) الحاذق في صنعته .

إِنَّ السُّيُوفَ إِذَا مَا طَابَ جَوْهَرُهَا ... فِى أَوَّلِ الطَّبْعِ لَمْ يَعْلَقْ بِهَا طَبَعُ (١)

جَذْلَانُ يَسْتَضْحِكُ الْأَيَّامَ عَنْ شِيَمٍ ... كَالرَّوْضِ تَضْحَكُ مِنْهُ فِى الرُّبَا قِطَعُ

كَالْبَارِدِ الْعَذْبِ لَذَّتْ مِنْ مَوَارِدِهِ ... ـ لِشَارِبٍ غِبَّ تَبْرِيحِ الصَّدَى ـ جُرَعُ (٢)

* * *

قُلْ لِلْوَزِيرِ الَّذِى تَأْمِيلُهُ وَزَرِى ... إِنْ ضَاقَ مُضْطَرَبٌ أَوْ هَالَ مُطَّلَعُ (٣)

أَصِخْ لِهَمْسِ عِتَابٍ تَحْتَهُ مِقَةٌ ... وَكَلِّفِ النَّفْسَ مِنْهَا فَوْقَ مَا تَسَعُ (٤)

مَا الْمَتَابُ ـ الَّذِى أَحْصَفْتَ عُقْدَتَهُ ـ ... قَدْ خَامَرَ الْقَلْبَ مِنْ تَضْيِيعِهِ جَزَعُ (٥)

لِى فِى الْمُوَالَاةِ أَتْبَاعٌ يَسُرُّهُمُ ... أَنِّى لَهُمْ فِى الَّذِى يُجْزَى بِهِ تَبَعُ (٦)

أَلَسْتُ أَهْلَ اخْتِصَاصٍ مِنْكَ يُلْبِسُنِى ... جَمَالَ سِيمَاهُ ؟ أَمْ مَا فِىَّ مُصْطَنَعُ ؟ (٧)

---

(١) الطبع : الصدأ ، يقول : إن السيوف فى مبدأ طبعها إذا طاب جوهرها لم يعلق بها شىء الصدأ ، يعنى أن الممدوح طابت أوليته فخلص جوهره ولم يشبه عيب .

(٢) فيه تشبيه الممدوح بورد الماء البارد العذب لذ لشاربه منه جرع أطفأت غلة صدره بعد ظمأ مبرح شديد .

(٣) وزرى : ملجئى ومعتصمى ، ومضطرب اسم مكان من الضرب وهو السير فى الأرض ، ومطلع : مكان الاطلاع من مشرف عال ، أو مكان الصعود من أسفل إلى أعلى ، وفى حديث عمر رضى الله عنه أنه قال عند موته ، « لو أن لى ما فى الأرض جميعا لافتديت به من هول المطلع » وهو بالتشديد مكان الاطلاع أراد به ما يشرف عليه من أمر الآخرة ويطلع عليه عقيب الموت .

(٤) اقبل رقيق عتاب كالهمس فى الأذن ينطوى على مقة ومحبة وكلف نفسك من تحقيق أمنيتى فوق طاقتها .

(٥) أحصفت : أحكمت ، والعقدة : المراد بها هنا الرأى والتدبير ، والمعنى : قد كان من العقل وحصافة الرأى أن أبادر إلى التوبة وهأنذا تائب مما نسب إلى ، فما لتوبتى قد ضيعت ولم تقبل مما جعل قلبى يخالطه الجزع وعدم الصبر ، ويمازجه اليأس والحزن .

(٦) يقول : أنا أول الناس فى الولاء لكم وغيرى تبع ، وأتباعى فى الموالاة يسرهم أن أكون فى الجزاء تبعا وتاليا لهم ، فهم دائما يسعون لاسقاط منزلتى وإحباط مسعاى .

(٧) يقول : أتنكر اختصاصى منك بما يجعلنى متحليا بجمال هذا الاختصاص ، فلا يتقدم على من هم تبع لى فى الولاء والاخلاص ؟ أم هل تنكر أنى قبل غيرى أهل لرب الصنيعة وإسداء الجميل ؟

لَمْ أُوتَ فِى الحَالِ ـ مِنْ سَعْيِي لَدَيْكَ ـ وَنًى ... بَلْ بِالْجُدُودِ تَطِيرُ الْحَالُ أَوْ تَقَعُ (١)

لاَ تَسْتَجِزْ وَضْعَ قَدْرِى بَعْدَ رَفْعِكَهُ ... فَاللهُ لاَ يَرْفَعُ الْقَدْرَ الَّذِى تَضَعُ

تَقَدَّمَتْ لَكَ نُعْمَى رَادَهَا أَمَلِى ... فِى جَانِبٍ هُوَ لِلإِنْسَانِ مُنْتَجَعُ (٢)

مَا زَالَ يُونِقُ شُكْرِى فِى مَوَاقِعِهَا ... كَالْمُزْنِ تُونِقُ فِى آثَارِهِ التُّرَعُ (٣)

شُكْرٌ يَرُوقُ وَيُرْضِى طِيبُ طُعْمَتِهِ ... فِى طَيِّهِ نَفَحَاتٌ بَيْنَهَا خِلَعُ (٤)

ظَنَّ الْعِدَا ـ إِذْ أَغَبَّتْ ـ أَنَّهَا انْقَطَعَتْ، ... هَيْهَاتَ لَيْسَ لِمَدِّ الْبَحْرِ مُنْقَطَعُ (٥)

لاَ بَأْسَ بِالأَمْرِ ـ إِنْ سَاءَتْ مَبَادِئُهُ ... نَفْسَ الشَّقِيقِ ـ إِذَا مَا سَرَّتِ الرُّجَعُ

* * *

إِنَّ الأُلَى كُنْتُ ـ مِنْ قَبْلِ افْتِضَاحِهِمِ ـ ... مِثْلَ الشَّجَى فِى لَهَاهُمْ لَيْسَ يُنْتَزَعُ (٦)

---

(١) ونى : أى فترة وتوان فى السعى ، والجدود : جمع جد بالفتح وهو الحظ والبخت والمعنى : لم أوت ولم يذهب سعيي عندك فتور ولا تقصير فى المطالبة والسعى ، ولكن الذى قعد بى عن درك أمنيتى عندك إنما هو حظى الذى به يعلو الحال ويرتفع ، كما يطير الطائر أو يقع .

(٢) رادها : أى تقدمنى أملى أرسلته فى طلب النجعة ، وارتياد النعمة ، فصادف جانبا مرعا ، ومراداً لنعمائك ومنتجعا .

(٣) الترع : جمع ترعة ، وهى الروضة على المكان المرتفع من الأرض ، يقول : ما زال روض شكرى مونقا مفتحا عن سماء نعمائك ، كالمزن أى السحاب يضحك على أثر نزول المطر منه الرياض والربى قد أترعت بألوان الزهر ، وأينعت بأنواع الثمر .

(٤) طيب طعمته : أى مكسبه الطيب الحلال ، والخلع : جمع خلعة بالكسر ، وهى ما تخلعه من الثياب وتطرحه على آخر ، أى شكر يروق السامع حسنه . ويرضى الشاكر مايثمره من طيبات المكاسب ، فى طيه مثل نفحات الروض بينها وفى أثنائها تخلع علينا خلع ثمينة ، وحلل فاخرة .

(٥) ظن العدا أن هذه العطايا والنفائس قد أغبت وتأخرت أياما أنها انقطعت عنى ، هيهات أن ينقطع عطاء يشبه البحر الذى ليس لمده انقطاع .

(٦) يقول فى هذا البيت والذى بعده : —
أن الذين كنت — من قبل افتضاح أمرهم وظهور صريح العداوة منهم كالشجا معترضا فى حلوقهم لا يمكن انتزاعه ، لم أحظ منهم وهم أعداء منافقون ، إلا بما كنت أحظى به منهم وهم شيعة مسالمون ، يريد أن نصيبه منهم فى الحالين لم يكن سوى الشر والأذى والوقيعة .

لَمْ أَحْظَ - إِذْ هُمْ عدًا بَادٍ نِفَاقُهُمْ - ... إلاَّ كَمَا كُنْتُ أَحْظَى إِذْ هُمُ شِيَعُ

مَا غَاظَهُمْ غَيْرُ مَا سَيَّرْتُ مِنْ مِدَحٍ ... فِى صَائِكِ الْمِسْكِ مِنْ أَنْفَاسِهَا فَنَعُ (١)

كَمْ غُرَّةٍ لِى تَلَقَّتْهَا قُلُوبُهُمُ ... كَمَا تَلَقَّى شِهَابَ الْمُوقِدِ الشَّمَعُ (٢)

إِذَا تَأَمَّلْتَ حُبِّى غِبَّ غِشِّهِمِ ... لَمْ يَخْفَ مِنْ فَلَقِ الْإِصْبَاحِ مُنْصَدِعُ (٣)

تِلْكَ الْعَرَانِينُ لَمْ يَصْلُحْ لَهَا شَمَمٌ ... فَكَانَ أَهْوَنَ مَا نِيلَتْ بِهِ الْجَدَعُ (٤)

أَوْدَعْتَ نُعْمَاكَ مِنْهُمْ شَرَّ مُغْتَرَسٍ ... لَنْ يَكْرُمَ الْغَرْسُ حَتَّى تَكْرُمَ الْبُقَعُ (٥)

لَقَدْ جَزَتْهُمْ جَوَازِى الدَّهْرِ عَنْ مِنَنٍ ... عَفَتْ فَلَمْ يَثْنِهِمْ عَنْ غَمْطِهَا وَرَعُ (٦)

لاَ زَالَ جَدُّكَ بِالْأَعْدَاءِ يَصْرَعُهُمْ ... إِنْ كَانَ بَيْنَ جُدُودِ النَّاسِ مُصْطَرَعُ

---

(١) صائك : اسم فاعل من صاك به المسك يصيك أى لصق به ، قال الأعشى :

« ومثلك معجبة بالشبا ب صاك العبير بأجلادها . »

وسيأتى لصاحب الديوان قوله فى « ص ١٣٩ » :

« ثناء محتفل كأن ثناءه مسك بأردان الحافل صاكا . »

والفنع : نفحة المسك ،ومسك ذو فنع ذكي الرائحة طيب الأنفاس . قال الشاعر :

وفروع ساخ أطرافها علاتها ريح مسك ذى فنع

وجاء بالأصل «صايك » بالياء و « كنع » بالكاف ولا معنى لهما .

(٢) كم غرّة لى واضحة منيرة تطلع عليهم فتتلقاها قلوبهم وهى متأججة مستعرة ، كما يتلقى الشمع عند الانارة حر الشهاب من موقده ومشعله .

(٣) يقول حبي واضح كفلق الصبح ، وغشهم مغشوش كاذب .

(٤) العرانين : جمع عرنين ، وهو أعلى الأنف عند ملتقى الحاجبين ، أو هو ما صلب من عظم الأنف ، قال ذو الرمة :

« تثنى النقاب على عرنين أرنبة شماء مارنها بالمسك مرثوم . »

والشمم : ارتفاع قصبة الأنف وحسنها مع استواء أعلاها وإشراف الأرنبة ، وإذا وصف الرجل بالشمم فانما يعنون أنه سيد شريف النفس ذو أنفة وشموخ وحميه ، ويقال هم شم العرانين كناية عن ذلك ، قال كعب بن زهير :

«شم العرانين أبطال لبوسهم من نسج داود فى الهيجا سرابيل.»

والجدع : القطع البائن فى الأنف والأذن ونحوهما وهو مصدر جدع كفرح فهو أجدع .

(٥) يقول : لقد استنبت نعماك فى بقعة خبيثة من نفوس عرفت بغمط النعمة ونكران الجميل .

(٦) يقول : إن الدهر جازاهم عن منن أسديتموها إليهم ، عفوا على آثارها ولم يتورعوا فى غمطها والامتناع عن شكرها.

تهنئـــة بقران

« وقال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله
أبا عمرو عبد الله ويهنيه بالبناء على السيدة
بنت الموفق مجاهد رحمهما الله . »

أُخْطُبْ فَلْـــكُكَ يَفْقِدُ الإِمْلاَ كَا ‏ ‏ ‏ ‏ وَاُطْلُبْ فَسَعْدُكَ يَضْمَنُ الْإِدْرَا كَا (١)

وَصِلِ النُّجُومَ بِحَظِّ مَنْ لَوْ رَامَهَا ‏ ‏ ‏ ‏ هَجَرَتْ إِلَيْهِ زُهْرُهَا الْأَفْلاَ كَا (٢)

وَاُسْتَهْدِ مِنْ أَحْمَى مَرَاتِعِهَا المَهَا ‏ ‏ ‏ ‏ فَالصَّعْبُ يَسْمَحُ فِى عِنَانِ هَوَا كَا (٣)

يـاأَيُّهَا المَلِكُ الَّذِى تَدْبِيرُهُ ‏ ‏ ‏ ‏ أَضْحَى لِمَمْلَـــكَةِ الزَّمَانِ مِلاَ كَا (٤)

هٰذِى اللَّيَالِى بِالْأَمَانِى سَمْحَـــةٌ ‏ ‏ ‏ ‏ فَمَتَى تَقُلْ : « هَاتِى » تَقُلْ لَكَ : « هَا كَا »

فَاعْقِلْ شَوَارِدَهَا إِزَاءَ عَقِيـــلَةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ وَافَتْ مُبَشِّرَةً بِنَيْلِ مُنَا كَا

أَهْدَى الزَّمَانُ إِلَيْكَ مِنْهَا تُحْفَةً ‏ ‏ ‏ ‏ لَمْ تَعْدُ أَنْ قَرَّتْ بِهَا عَيْنَا كَا

شَمْسٌ تَوَارَتْ ــ فِى ظَلاَمِ مَضِيعَةٍ ــ ‏ ‏ ‏ ‏ ثُمَّ اُسْتَطَارَ لَهَا السَّنَا بِسَنَا كَا (٥)

---

(١) الاملاك : عقد الزواج ، يقول : احطب فملكتك يعوزها الصهر والنسب ، واطلب فسعدك يضمن إدراك ماتطلب .

(٢) وصل النجوم بحظ ملك لو رام زهر النجوم لهجرت إليه أفلاكها ، يريد أنه لورام مصاهرة من ارتفع نسبهم من الملوك إلى مستوى زهر الكواكب فى أفلاكها ، لسارعوا إليه من زهر عرائسها مايرومه ، وتسمو إليه نفسه ، ويختاره سنا ونصهرا .

(٣) استهد : أطلب الهداء من هدى العروس يهديها إليه هداء زفها إليه ، وفى الأصل (استهو) وهو من استهواء الشياطين ، ولا معنى له هنا ، أى اطلب من أمنع أحياء العرب وأشدها حماية وحفيظة أن يهدوا إليك من بناتهم الشبيهات بالمها أى بقر الوحش فى البياض وسواد العيون من تريد وتهوى فان الصعب يسلس وينقاد فى عنانه مرادك وهواك .

(٤) أى أضحى تدبيره قوام المملكة ونظامها الذى يعتمد عليه فى أمورها .

(٥) مضيعة : يقال هو بدار مضيعة كمعيشة أى بدار ترك واطراح وإضاعة ، واستطار : انتشر ، والسنا : بالقصر الضياء ، أى كانت قبل هذا الاملاك شمسا محتجبة وراء حجب الاهمال والترك ، فاستطار إليها شعاع من سنا وجهك ، فأشرقت وأنارت .

قُرِنَتْ بِبَدْرِ التِّمِّ كَافِلَةً لَهُ ... أَنْ سَوْفَ تُتْبِــعُ فَرْقَدَيْنِ سِمَاكَا(١)

هِىَ وَالْفَقِيدَةُ كَالْأَدِيمِ اُخْتَرْتَهُ ... فَقَدَدْتَ إِذْ خَلُقَ الشِّرَاكُ شِرَاكَا(٢)

فَاصْفَحْ عَنِ الرُّزْءِ الْمُعَاوِدِ ذِكْرُهُ ... وَاسْتَأْنِفِ النُّعْمَى فَتِلْكَ بِذَاكَا(٣)

⁂

لَمْ يَبْقَ عُذْرٌ فِى تَقَسُّمِ خَاطِرٍ ... إِلَّا الصَّبَابَةُ مِنْ دِمَاءِ عِدَاكَا

كُفَّارُ أَنْعُمِكَ الْأُلَى حَلَّيْتَهُمْ ... أَطْوَاقَهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ ظُبَاكَا(٤)

أَعْرِضْ عَنِ الْخَطَرَاتِ إِنَّكَ إِنْ تَشَأْ ... تَكُنِ النُّجُومُ أَسِنَّةً لِقَنَاكَا(٥)

هُصِرَ النَّعِيمُ بِعِطْفِ دَهْرِكَ فَانْثَنَى ... وَجَرَى الْفِرِنْدُ بِصَفْحَتَىْ دُنْيَاكَا(٦)

وَبَدَا زَمَانُكَ لَابِسًا دِيبَاجَةً ... تَجْلُو لِعَيْنِ الْمُجْتَلِى سِيمَاكَا

دُنْيَا لِزَهْرَتِهَا شُعَاعٌ مُذْهَبٌ ... لَوْ كَانَ وَصْفًا كَانَ بَعْضَ حُلَاكَا

---

(١) يقول : قرنت هذه العقيلة ببدر التم ضامنة له أن ستتبع فرقدين نجما يريد أنها ستنجب أمثال الكواكب النيرة من الذكور .

(٢) الأديم : الجلد ، وخلق : بلى ، والشراك : أحد سيور النعل التى على ظهرها ، يقول : هذه العقيلة وروحتك الفقيدة كالأديم قطعت منه بدل الشراك الذى بلى شراكا جديدا ، أى اخترت بدل الفقيدة زوجا أخرى جديدة ، وقد ألف العرب أن يشبهوا المرأة بالنعل ، وجاراهم ابن زيدون فى ذلك ، وقد قال الحريرى فى مقاماته من حوار طويل : « فإن لمس ظهر نعله ، فقد انتقض وضوءه بفعله » أى إن لمس امرأته .

(٣) أى فتلك النعمى بالجديدة ، عوض من ذلك الرزء بالفقيدة ، فاضرب صفحا عما يعاودك من ذكريات تؤلم نفسك وتبعثك على الحزن .

(٤) جمع ظبة بالضم ، وهى حدّ السيف ، يقول : إن الذين طوقتهم بأنعمك فجحدوا بها ، ستجعل لهم غدا من سيوفك فى أعناقهم أطواقا يطوقونها .

(٥) أعرض عن كل خطرة تخطر بقلبك ، وتقع فى بالك من جهة تدبير المملكة ، فإنك منصور على أعدائك ، ولو شئت لتناولت نجوم السماء فجعلتها أسنة لرماحك .

(٦) جعل للنعيم عطفا كعطف الحسناء تهصره أى تميله إليك فينثنى كما تهصر الغصن وتميله نحوك لقطف ثماره ، وجعل لدنيا الممدوح التى احتوت النعيم فرندا يجرى فى صفحتيها ماؤه وتترقرق ديباجته ، فأعطاك صورة ساحرة فاتنة لما يتصل بالممدوح من دنيا يحفها النعيم .

فَتَمَلَّ فى فُرُشِ الْكَرَامَةِ نَاعِماً ... وَاعْقِدْ بِمَرْتَبَةِ السُّرُورِ حُبَاكَا [١]

وَأَطِلْ ـ إِلَى شَدْوِ القِيَانِ ـ إِصَاخَةً ... وَتَلَقَّ مُتْرَعَةَ الْكُؤُسِ دِرَاكَا

تَحْثُثْهَا مَثْـــنَى مَثَانِى غَادَةٍ ... شَفَعَتْ بِحَثِّ غِنَائِهَا الإِمْسَاكَا [٢]

مَا الْعَيْشُ إِلاَّ فى الصَّبُوحِ بِسُحْرَةٍ ... قَدْ جَاسَدَتْ أَنْوَارُهَا الْأَحْلاَكَا [٣]

⁂

لَكَ أَرْيَحِيَّةُ مَاجِدٍ ـ إِن تَعْتَرِضْ ... فى لَهْوِ رَاحِكَ ـ تَسْتَهِلُّ لُهَاكَا [٤]

مَنْ كَانَ يَعْلَقُ فى خِلاَلِ نِدَامِهِ ... ذَمٌّ بِبَعْضِ خِلاَلِهِ فَخَلاَكَا [٥]

أُسْبُوعُ أُنْسٍ مُحْدِثٌ لِى وَحْشَةً ... عِلْماً بِأَنِّى فِيــهِ لَسْتُ أَرَاكَا [٦]

فَأَنَا الْمُعَذَّبُ غَــيْرَ أَنِّى مُشْعَرٌ ... ثِقَةً بِأَنَّكَ نَاعِمٌ فَهَنَاكَا

إِنِّى أَقُومُ بِشُكْرِ طَوْلِكَ بَعْدَ مَا ... مَلأَتْ مِنَ الدُّنْيَا يَدَىَّ يَدَاكَا

بَرَدَتْ ظِلاَلُ ذَرَاكَ ، وَاحْلَوْلَى جَنَى ... نُعْمَاكَ لِى ، وَصَفَتْ جِمَامُ نَدَاكَا

وَأَمِنْتُ عَادِيَةَ العِدَا الْأَقْتَالِ مُذْ ... أَعْصَمْتُ فى أَعْلَى يَفَاعِ حِمَاكَا [٧]

---

(١) تمل : تمتع ، يقال ملاك الله حبيبك أى متعك وأعاشك معه طويلا ، والحبا : جمع حبوة وهو أن يجمع الجالس ظهره وساقيه بثوب أو نحوه .

(٢) تحثثها : أى الكؤوس أصوات تعاد مثنى من رنات مثانى عود فى يد غادة جمعت إلى حث الغناء إمساك الصوت بعد إطلاقه .

(٣) جاسدت : خالط بياض أنوارها سواد ظلماتها .

(٤) لهو راحك : أى فى إبان لهوك بشرب الراح : وتستهل تمطر واللها : جمع لهوة بالضم ، وهى العطايا الجزلة الكثيرة .

(٥) من كان فى أثناء المنادمة على الشراب يعلق ببعض خلاله وخصاله ما يعاب ويذم عليـه ، فخلاك ذم وحاشاك عيب .

(٦) هو الأسبوع الذى يأنس فيه بعروسه ، ولا يخرج إلى حاضنته الدرا : بالفتح كل ما استدريت به ، يقال أنا فى درا فلان أى فى كنفه ، والجمام : جمع جمة بالضم وهى معظم الماء ، والنـدى : العطاء أى صفا عطاؤك الشبيه بالماء فى الصفاء فلم يكدر بمن .

(٧) الأقتال : الأقران المساوون له فى الشجاعة من أعدائه ، وأعصمت : مثل اعتصمت أى استمسكت وامتنعت ولجأت ، واليفاع : المكان المرتفع .

جَهْــدَ المقِلِّ نَصِيحَةً مَمْحُوضَةً أَفْرَدْتَ مُهْدِيهَا فَلاَ إِشْرَاكَا[١]

وَثَنَاءَ مُحْتَفِلٍ كَأَنَّ ثَنَاءَهُ مِسْكٌ بِأَرْدَانِ المَحَافِلِ صَاكَا

وَلْتَدْعُنِي وَعَدُوَّكَ الشَّانِي، فَإِنْ يَرُمِ القِرَاعَ يَجِدْ سِلاَحِيَ شَاكَا[٢]

⁂

لاَ تَعْدَمَنَّ الحَظَّ غَرْساً مُطْلِعاً ثَمَرَ الفَوَائِدِ دَانِياً لِجَنَاكَا

وَالنَّصْرَ جَاراً لاَ يُحَاوِلُ نُقْلَةً وَالصُّنْعَ رَهْناً لاَ يُرِيدُ فِكَاكَا

وَإِذَا غَمَامُ السَّعْدِ أَصْبَحَ صَوْبُهُ دَرْكَ المَطَالِبِ فَلْيَصِلْ سُقْيَاكَا

فَالدَّهْرُ مُعْتَرِفٌ بِأَنَّا لَمْ نَكُنْ لِنُسَرَّ مِنْهُ بِسَاعَةٍ لَوْلاَكَا

عهد

لاَ تَخْشَ مِنِّيَ نِسْيَاناً وَلاَ بَدَلاَ كَمَا تَشَاءُ فَقُلْ لِي لَسْتُ مُنْتَقِلاَ[٣]

وَكَيْفَ يَنْسَاكَ مَنْ لَمْ يَدْرِ بَعْدَكَ مَا طَعْمُ الْحَيَاةِ وَلاَ بِالْبُعْدِ عَنْكَ سَلاَ

أَتْلَفْتَنِي كَلَفاً، أَبْلَيْتَنِي أَسَفاً قَطَّعْتَنِي شَغَفاً، أَوْرَثْتَنِي عِلَلاَ

⁂

إِنْ كُنْتُ خُنْتُ وَأَضْمَرْتُ السُّلُوَّ فَلاَ بَلَغْتُ يَا أَمَلِي مِنْ قُرْبِكَ الأَمَلاَ[٤]

وَاللهِ لاَ عَلِقَتْ نَفْسِي بِغَيْرِكُمُ وَلاَ اتَّخَذْتُ سِوَاكُمْ مِنْكُمُ بَدَلاَ

---

(١) أهدى إليك نهاية مايستطيع إهداءه مقل مثلى، نصيحة خالصة أفردت مهديها واختصصته بما لم تشرك معه فيه غيره .

(٢) الشانى : المبغض، والقراع المقارعة بالسيوف، وشاك : السلاح يشاك شوكا ظهرت شوكته وحدته، أى أدعنى لمنازلة ومجالدة عدوك الشانى المبغض فانه متى يرم ذلك يجدنى شاكي السلاح مستعدا لمقارعته .

(٣) يقول : إنى احتمل منك كل شيء وليس ذلك بمحولى عن حبك ولا هو بداعى إلى نسيانك أو الانتقال عن حبك إلى حب سواك .

(٤) يقول : « عاقبنى الله بيأسى منك وحرمنى عطفك وودادك إن كنت فكرت لحظة فى السلو عنك .

مدح ورثاء [١]

« قال يمدح المعتمد ، ويرثى المعتضد بالله . »

هُوَ الدَّهْرُ فاصْبِرْ لِلَّذِى أَحْدَثَ الدَّهْرُ ... فَمِنْ شِيَمِ الأَبْرَارِ ـ فى مِثْلِهَا ـ الصَّبْرُ

سَتَصْبِرُ صَبْرَ اليَأْسِ أَوْ صَبْرَ حِسْبَةٍ [٢] ... فَلاَ تُؤْثِرُ الْوَجْهَ الَّذِى مَعَهُ الْوِزْرُ [٣]

حِذَارَكَ مِنْ أَنْ يُعْقِبَ الرُّزْءُ فِتْنَةً ... يَضِيقُ لَهَا ـ عَنْ مِثْلِ إِيمَانِكَ ـ الْعُذْرُ

إِذَا أَسِفَ الثُّكْلَ اللَّبِيبُ فَشَفَّهُ ... رَأَى أَفْدَحَ الثُّكْلَيْنِ أَنْ يَهْلِكَ الأَجْرُ [٤]

مُصَابُ الَّذِى يَأْسَى بِمَيْتِ ثَوَابِهِ ... هُوَ الْبَرْحُ لاَ الْمَيْتُ الَّذِى أُحْرِزَ الْقَبْرُ [٥]

* * *

حَيَاةُ الْوَرَى نَهْجٌ إِلَى الْمَوْتِ مَهْيَعٌ [٦] ... لَهُمْ فِيهِ إِيضَاعٌ [٧] كَمَا يُوضِعُ السَّفْرُ [٨]

---

(١) جاء فى ص ٤٧٩ من نفح الطيب ما نصه :

« ولما مات والد المعتمد واستقل بالملك ، بدأ ذو الوزارتين ابن زيدون يرثى المعتضد بقصيدة طويلة أولها :

« هو الدهر ، فاصبر للذى أحدث الدهر ... فمن شيم الأحرار فى مثلها الصبر . »

وقد ذكر صاحب نفح الطيب أكثر أبيات هذه القصيدة وإن اختلفت فى قليل من الألفاظ فى نص أبيات القصيدة عن رواية الديوان .

وسيرى القارئ تشابها كثيرا بين هذه القصيدة وبين القصيدة الرائية التى قالها ابن زيدون فى رثاء الوزير أبى الحزم .

(٢) حسبة : احتساب الأجر ، وفى رواية نفح الطيب : « أو صبر وحشة »

(٣) وفى رواية نفح الطيب : « فلا تؤثر الوجه الذى معه العذر »

(٤) وفى روايه نفح الطيب : « أن يذهب الأجر »

(٥) وفى روايه نفح الطيب : « يأس بموت ثوابه » (٦) طريق .

(٧) الايضاع : السير السريع . قال أبو العلاء :

« لا وضع للرحل إلا بعد إيضاع ... فكيف شاهدت إمضائى وإزماعى . »

(٨) السفر : المسافرون .

فياهادىَ المِنْهاجِ جُــــرْتَ ، فإنَّما   هُوَالفَجْرُ يَهْدِيكَ الصِّراطَأوِ البَجْرُ(١)

إذَا المَوْتُ أَضحى قَصْرَ(٢) كُلِّ مُعمَّرٍ   فإنَّ سَوَاءٌ طَالَ أَوْ قَصُرَ العُمْرُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدِّينَ ضِــيمَ ذِمَارُهُ   فَلَمْ يُغْنِ أَنْصارٌ عَدِيدُهُمُ دَثْرُ(٣)

بِحَيْثُ اسْتَقَلَّ المُلْكَ ثَانِيَ عِطْفِهِ   وَجَرَّرَ مِنْ أَذْيَالِهِ العَسْكَرُ المَجْرُ

هُوَ الضَّيْمُ لَوْ غَيْرُ القَضَاءِ يَرُومُهُ   ثَنَاهُ المَرَامُ الصَّعْبُ وَالمَسْلَكُ الوَعْرُ

إذَا عَثَرَتْ جُرْدُ العَنَاجِيجِ(٤) في القَنَا   بِلَيْلٍ عَجَاجٍ لَيْسَ يَصْدَعُهُ فَجْرُ

* * *

أَأَنْفَسَ نَفْسٍ ـ في الوَرَى ـ أَقْصَدَ الرَّدَى   وَأَخْطَرَ عِلْقٍ ـ لِلْهُدَى ـ أَفْقَدَ الدَّهْرُ

أَعَبَّادُ يا أَوْفَى المُلُوكِ ، لَقَدْ عَدَا   عَلَيْكَ زَمَانٌ مِنْ سَجِيَّتِهِ الغَدْرُ

فَهَلاَّ عَــــدَاهُ أَنَّ عَلْيَاكَ حَلْيَهُ .   وَذِكْرَكَ ـ في أَرْدَانِ أَيَّامِهِ ـ عِطْرُ

* * *

غُشِيتَ فَلَمْ تَغْشَ الطِّرَادَ سَوَابِحٌ ،   وَلاَ جُرِّدَتْ بِيضٌ ،وَلاَ أُشْرِعَتْ سُمْرُ(٥)

---

(١) البحر بالفتح والضم : المكروه والأمر العظم ، وقد روى المبرد صاحب الكامل أن الخليفة أبا بكر رضى الله عنه حين حضرته الوفاة .قال فى آخر كلة له : ياهادى الطريق حرت ، إنما هو والله الفجر أوالبجر وقوله « إنما هو والله الفجر أو البحر » يقول : « إن انتظرت حتى يضىء لك الفجر الطريق أبصرت قصدك وإن خبطت الظلماء وركبت العشواء هجما بك على المكروه » وضرب ذلك مثلا لغمرات الدنيا وتحييرها أهلها (الكامل : حـ ١ ص ٥ و ٦ و ٧)

وجاء فى اللسان قوله : وفى حديث أبى بكر رضى الله عنه : إنما هو الفجر أوالبجر» قال : البجر ـ بالفتح والضم ـ الداهية والأمر العظيم . أى أن انتظرت حتى يضىء الفجر أبصرت الطريق ، وإن خبطت الظلماء أفضت بك إلى المكروه . قال : ويروى البحر بالحاء يريد غمرات الدنيا شبهها بالبحر لتحير أهلها فيها .

(٢) قصر : قصارى أو غاية . (٣) دثر : كثير .

(٤) العناجيج : جياد الخيل والأبل . (٥) بيض وسمر : سيوف ورماح .

وَلاَ ثَنَتِ المَحْذُورَ عنكَ جَلاَلَةٌ ... وَلاَ غُرَرٌ ثَبْتٌ وَلاَ نَائِلٌ غَمْرُ (١)

⁂

لَئِنْ كَانَ بَطْنُ الأَرْضِ هُيِّئَ أُنْسُهُ ... بِأَنَّكَ ثَاوِيهِ لَقَدْ أَوْحَشَ الظَّهْرُ

لَعَمْرُ البُرُودِ البِيضِ فى ذٰلِكَ الثَّرَى ... لَقَدْ أُدْرِجَتْ أَثْنَاءَهَا النِّعَمُ الخُضْرُ

عَلَيْكَ — مِنَ اللهِ — السَّلاَمُ تَحِيَّةً ... يُنَسِّمُكَ الغُفْرَانَ رَيْحَانُهَا النَّضْرُ

وَعَاهَدَ ذَاكَ اللَّحْدَ عَهْدُ سَحَائِبٍ ... إِذَا اسْتَعْبَرَتْ فى تُرْبِهِ ابْتَسَمَ الزَّهْرُ (٢)

فَفِيهِ عَلاَءٌ لاَ يُسَامَى يَفَاعُهُ (٣) ... وَقَدْرُ شَبَابٍ لَيْسَ يَعْدِلُهُ قَدْرُ

⁂

وَأَبْيَضَ فى طَيِّ الصَّفِيحِ كَأَنَّهُ ... صَفِيحَةُ مَأْثُورٍ طَلاَقَتُهُ الأُثْرُ (٤)

كَأَنْ لَمْ تَسِرْ حُمْرُ المَنَايَا تُظِلُّهَا ... إِلَى مُهَجِ الأَقْيَالِ (٥) رَايَاتُهُ الحُمْرُ

وَلَمْ يَحْمِ مِنْ أَنْ يُسْتَبَاحَ حِمَى الهُدَى ... فَلَمْ يُرْضِهِ إِلاَّ أَنِ ارْتَجَعَ الثَّغْرُ

وَلَمْ يَنْتَجِعْهُ المُعْتَفُونَ (٦)، فَأَقْبَلَتْ ... عَطَايَا كَمَا وَالَى شَآبِيبَهُ (٧) القَطْرُ

---

(١) النائل الغمر : العطاء الجزيل الكثير .

(٢) يدعو الله أن يمطر جدثه سحائب تدرف ماءها على الأرض فتروى أزهارها فتنضرها .

(٣) اليفاع : المرتفع من الأرض .

(٤) الأثر : فرند السيف ، ورونقه ، وهو واحد ليس بجمع ، قال الشاعر :

« جلاها الصيقلون فأخلصوها ... خفافا ، كلها يتقى بأثر . »

أى كلها يستقبلك بفرنده . ويتقى مخفف من يتقى .

وقالت إعرابية :

« فإذا رقدت فأنت منتبه ... وإذا انتبهت فعزمك الأثر . »

وقالوا : سيف مأثور ، أى فى متنه أثر . وأخذ من الأثر كأن وشيه أثر فيه ، أو متنه حديد أنيث وشفرته حديد ذكر ، وقد زعموا أنه السيف الذى يعمله الجن .

(٥) الأقيال — جمع قيل — وهو الشجاع .

(٦) ينتجعه المعتفون : يطلب معروفه طالبو الاحسان والندى .

(٧) شآبيب : جمع شؤبوب ، وهو الدفعة من المطر .

وَلَمْ تَكْتَنِفْ آرَاءهُ أَلْمَعِيَّةٌ كَأَنَّ نَجِيَّ الْغَيْبِ فِي رَأْيِهَا جَهْرُ (١)

وَلَمْ يَتَشَذَّرْ لِلأُمُورِ (٢) مُجَلِّيًا إِلَيْهَا كَمَا جَلَّى مِنَ الْمَرْقَبِ الصَّقْرُ

* * *

كِلاَ لَقَبَيْ سُلْطَانِهِ صَحَّ فَأْلُهُ فَبَا كَرَهُ عَضْدٌ وَرَاوَحَهُ نَصْرُ (٣)

إِلَى أَنْ دَعَاهُ يَوْمُهُ فَأَجَابَهُ وَقَدْ قَدِمَ الْمَعْرُوفُ وَاسْتُمْجِدَ الذُّخْرُ

فَأَمْسَى ثَبِيرٌ قَدْ تَصَدَّى لِحَمْلِهِ سَرِيرٌ فَلَمْ يَبْهَضْهُ (٤) مِنْ هَضْبِهِ إِصْرُ

* * *

أَلاَ أَيُّهَا الْمَوْلَى الْوَصُولُ عَبِيدَهُ لَقَدْ رَابَنَا أَنْ يَتْلُوَ الصِّلَةَ الْهَجْرُ

نُنَادِيكَ — دَاعِينَا السَّلاَمَ — كَعَهْدِنَا فَمَا يُسْمَعُ الدَّاعِى وَلاَ يُرْفَعُ السِّتْرُ

أَعَتْبٌ عَلَيْنَا ذَادَ عَنْ ذَلِكَ الرِّضَى فَنُعْتَبَ أَمْ بِالْمَسْمَعِ الْمُعْتَلِي وَقْرُ (٥)

أَمَا إِنَّهُ شُغْلٌ فَرَاغُكَ بَعْدَهُ سَيَنْصَاتُ إِلاَّ أَنَّ مَوْعِدَهُ الْحَشْرُ (٦)

أَأَنْسَاكَ — لَمَّا يَنْأَ عَهْدٌ — وَلَوْ نَأَى سَحِيسَ اللَّيَالِي لَمْ يَرِمْ نَفْسِيَ الذِّكْرُ (٧)

وَكَيْفَ بِنِسْيَانٍ وَقَدْ مَلأَتْ يَدِى جِسَامُ أَيَادٍ مِنْكَ أَيْسَرُهَا الْوَفْرُ

---

(١) كأن لم تتكشف فطنته وألمعيته مستور الغيب الذى يتبدى لها رغم خفائه واضحا جليا .

(٢) تشذر للأمور : نشط إليها وتسرع ، وتشذر الرجل تهيأ للقتال والحملة .

(٣) يشير إلى تلقيبه بالمعتضد والمنصور . (٤) يبهضه : يبهظه ، أى يثقل عليه حمله .

(٥) فى رواية نفح الطيب :

«أعتب علينا ذادوص ذلك الرضى فنسمع أم الخ . . . . »

(٦) يقول : إنك فى شغل لن ينقضى إلا إذا جاء يوم الحشر .

(٧) رام يريم : فارق يفارق ، يقول : كيف أنساك ولم يطل عهدى بك ولو طال أبد الدهر لم أنسك ولم تفارق نفسى ذكراك

***

لَئِنْ كُنْتَ لَمْ أَشْكُرْ لَكَ الْمِنَنَ الَّتِي ... تَمَلَّيْتُهَا تَتْرَى لَأَوْبَقَنِي (١) الْكُفْرُ

فَهَلْ عَلِمَ الشِّلْوُ الْمُقَدَّسُ أَنَّنِي ... مُسَوِّغُ حَالٍ ضَلَّ فِي كُنْهِهَا الْفِكْرُ (٢)

وَأَنَّ مَتَابِي لَمْ يُضِعْهُ « مُحَمَّدٌ » ... خَلِيفَتُكَ الْعَدْلُ الرِّضَى وَابْنُكَ الْبَرُّ

هُوَ الظَّافِرُ الْأَعْلَى الْمُؤَيَّدُ بِالَّذِي ... لَهُ فِي الَّذِي وَلَّاهُ مِنْ صُنْعِهِ سِرُّ

رَأَى فِي اُخْتِصَاصِي مَا رَأَيْتَ وَزَادَنِي ... مَزِيَّةَ زُلْفَى (٣) مِنْ نَتَائِجِهَا الْفَخْرُ

وَأَرْغَمَ فِي بِرِّي أُنُوفَ عِصَابَةٍ ... لِقَاؤُهُمُ جَهْمٌ وَلَحْظُهُمُ شَزْرُ

إِذَا مَا اُسْتَوَى فِي الدَّسْتِ عَاقِدَ حَبْوَةٍ ... وَقَامَ سِمَاطَا حَفْلِهِ فَلِيَ الصَّدْرُ (٤)

---

(١) لأهلكني (٢) الشلو : العضو جمعه أشلاء . يقول . هل علم الجسد الميت الطاهر أنى أحاول أن أستسيغ ما لا سبيل إلى استساغته أى أنه يحاول أن يرغم نفسه على الرضى عما حدث ولا يجد إلى ذلك سبيلا . (٣) قربى .

(٤) استوى : جلس ، والدست : معرب دشت ومعناها بالفارسية اليد — كما يؤخذ من شفاء العليل وترك هذه المادة فى اللسان ، وفى القاموس : « الدست الدشت ومن الثياب والورق وصدر البيت معربات . » واستعملها المولدون لمعان منها المجلس كما فى البيت الذى نحن بصدده ، قال أبو العلاء المعرى :

« من آلة الدست ما عند الوزير سوى ... تحريك لحيته فى حال إيماء

فهو الوزير ولا أزر يشد به ... مثل العروض له بحر بلا ماء . »

وورد فى المقامة الحادية عشرة من مقامات الحريرى عند قوله :

« تبصر ودع اللوم ... وقل لى هل ترى اليوم

فتى لا يقمر القوم ... إذا ما دسته تم . »

وهو هنا بمعنى الحيلة والخداع ، والمعنى تمت حيلته ، ويقال فلان تم عليه الدست فى القمار أى لم يفز وورد فى آخر المقامة الثامنة عشرة عند قوله :

« فبادرنا بعد أن وجدت عدسه ، ورأيتها أسه ، كدست عاب صدره ، أو ليل أفل بدره . »

وهو هنا بمعنى المجلس وورد فى أول المقامة الثالثة والعشرين عند قوله :

« فركضت فى إثر النظاره ، حتى وافينا باب الاماره ، وهناك صاحب المعونة مترعا فى دسته ، ومروعا بسمته . »

وَفِي نَفْسِـــهِ الْعَلْيَاءُ لِي مُتَبَوَّأٌ ... يُنَافِسُنِي فِيـــهِ السِّمَاكَانِ وَالنَّسْرُ

يُطِيلُ الْعِـدَا فِيَّ التَّنَاجِيَ خُفْيَةً ... يَقُولُونَ: «لَا تَسْتَفْتِ، قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ»

مَضَى نَفْثُهُمْ ـ فِي عُقْدَةِ السَّعْيِ ـ ضَلَّةً ... فَعَادَ عَلَيْهِمْ غُمَّةً ذٰلِكَ السِّـــحْرُ

يَشِبُّ مَكَانِي عَنْ تَوَقِّي مَكَانِهِمْ ... كَمَا شَبَّ ـ قَبْلَ الْيَوْمِ ـ عَنْ طَوْقِهِ عَمْرُو[1]

وهو هنا بمعنى المجلس أيضا وورد فى آخر هذه المقامة عند قوله :

« فلما حضرت الوالى وقد خلا مجلسـه ، وانجلى تمسه ، أخذ يصف أبا زيد وفضله ، ويذم الدهر له ، ثم قال : نشدتك الله ــ ألست الذى أعاره الدست ؟ فقلت : لا والذى أحلك فى هـذا الدست ، ما أنا بصاحب هـذا الدست ، بل أنت الذى تم عليه الدست . » فالدست الأول هو الثوب ، والثانى المجلس ، والثالث هو الثوب أيضا ، والرابع الحيلة .

والحبوة : بضم وكسر أوله وتجمع على حبا هى أن يجمع الجالس ظهره وساقيه بثوب أو بيديه ، ويقال حل فلان حبوته ، وهـذا الأمر مما تحل له الحبا ، والحبوة ــ بالفتح ــ المصدر ، والسماط : الصف من الناس ، يقال قام القوم حوله سماطين أي صفين ، ومشى بين السماطين أى بين الصفين ، يقول إنه يفسح لى الجلوس فى الصدر إذا استوى فى مجلسه ومثل حوله صفان من حفله .

(١) أصـل المثل : « شب عمرو عن الطوق » وفى رواية أساس البلاغة : « جل عمرو عن الطوق » ، وفى رواية مجمع الأمثال الميدانى « كبر عمرو عن الطوق » ومعنى البيت :

« لقد جل مكانى عن أن أحاذرهم ، كما جل عمرو عن الطوق . »

قال ابن قتيبة فى كتاب المعارف : وعمرو هذا هو عمرو بن عدى بن نصر ، ابن أخت جذيمة الأبرش، وهو الذى كان يقول ــ إذاجنى الكمأة بين يدى خاله وهو صبى ــ :

« هـذا جناى ، وخياره فيـه ... إذ كل جان يده إلى فيـه . »

وقد زعموا أن الجن استهوته حينا ، ثم ظهر فوجـده مالك وعقيل ، قالوا : « فانتسب لهما . فأتيا به جذيمة فسر به سرورا شديدا وحكمهما فسألاه منادمته . »

وقد ضربت الأمثال بندمانى جذيمة ، فقال متمم النويرى حين رثى أخاه :

« وكنا كندمانى جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن تتصدعا

وعشنا بخير ــ فى الحياة ــ وقبلنا ... أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا

فلما تفرقنا كأنى ومالكا ... ــ لطول افتراق ــ لم نبت ليلة معا . »

وقال أبو خراش الهذلى :

« ألم تعلمى أن قد تفرق قبلنا ... خليلا صفاء مالك وعقيل . »

وقد أشار أبو العلاء المعرى إلى ندمانى جذيمة إشارة نافعة فى رسالة الغفران (ج ١ ص١٣٢) فليرجع إليها من شاء ، قالوا : وأصل هذا المثل أن أم عمرو نظفته وألبسته ثياب الملوك وطوّقته بطوق فى عنقه وأمرته بزيارة خاله ، قالوا : فلما رأى خاله لحيته والطوق فى عنقه ، قال : « شب عمرو عن الطوق » فذهبت مثلا. قالوا : « وكانت الزباء قتلت خاله فأدرك عمرو وقصير ثأره فقتلاها . »

* * *

لكَ الخيرُ ، إنَّ الرُّزْء كانَ غَيَابةً طلعْتَ لنا فيها كما طلعَ البَدْرُ
فقَرَّتْ عيونٌ كانَ أسْخَنَها البُكا وقرَّتْ قُلوبٌ كانَ زلزَلَها الذُّعرُ
ولولاكَ أعيا رأبُنا ذلكَ الثأى (١) وعزَّ فلمَّا ينْتَعِشْ ذلكَ العَثرُ
ولمّا قدمْتَ الجيْشَ بالأمسِ أشرقَتْ إليْكَ - منَ الآمالِ - آفاقُها الغُبْرُ (٢)
فقضَّيْتَ منْ فرْضِ الصّلاةِ لُبانَةً مُشيِّعُها نُسْكٌ وفارطُها طُهْرُ (٣)
ومِنْ قبْلُ ما قدَّمْتَ مثْنى نوافِلٍ يُلاقِي بها منْ صامَ منْ عيدِهِ فِطْرُ
ورُحْتَ إلى القصْرِ الَّذي غضَّ طرْفَهُ بُعَيْدَ التَّسامِي أنْ غدا غيْرَهُ القصْرُ (٤)
فدامَا معاً فى خيْرِ دهْرٍ ، صُرُوفُهُ حَرامٌ عليْهَا أنْ يطُورَهُما هجْرُ (٥)
وأجمِلْ - عنِ الثَّاوِي - العزاءَ فإنْ ثوَى فإنَّكَ لا الوانِي، ولا الضَّرَعُ الغُمْرُ (٦)

---

(١) الثأى : الفساد ورأبه إصلاحه ، قال الشاعر :

« يرأب الصدع والثأى برصين من سجايا آرائه ويعير . »

(٢) قدمت : يقال قدم فلان فلانا يقدمه من باب نصر إذا تقدّمه ، قال تعالى : « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار » والمعنى : ولما تقدمت الجيش صبيحة يوم الفطر أشرقت إليك شموس الآمال من آفاقها الغبر يريد أن الآمال ابتسمت له مشرقة ، وقد اغبرت الآفاق حزنا على فقد والده .

(٣) اللبانة : الحاجة يقال قضى فلان لبانته أى حاجته ، والفارط : المتقدّم أي قضيت حاجة فى نفسك من صلاة الفرض التى شيعها وتلاها نسك العيد وسبقها وتقدمها الطهر المسنون والطيب، وفى رواية نفح الطيب:
« فشيعها نسك وقارنها طهر »

(٤) أى بعد أن عدت من مصلى العيد رحت إلى القصر الذى غض طرفه حياء - بعد أن سما ببصره إليك - لأنك تبدلت به قصرا غيره . (٥) لايطورهما : لايقربهما والضمير عائد على القصرين .

(٦) الوانى : الضعيف ، والضرع : الخاضع الذليل ، والغمر : الذى لم يجرب الأمور ، يقول : تدرع بالصبر وأجمل عزاءه عن الراحل الثاوى في قبره ، فانك لست - إذ ألم بك خطب - بالضعيف ولا الغر الجاهل الذى لم يجرب الأمور ولم يعتبر بصروف الدهر ، وفى الأصل « فانك لا الفانى » وقد أثبتنا هنا رواية نفح الطيب ، قال الشاعر :

أناة وحلما وانتظارا بهم غدا فما أنا بالوانى ولا الضرع الغمر

وَمَا أَعْطَتِ السَّبْعُونَ ـ قَبْلُ ـ أُولِى الْحِجَا ... مِنَ الْإِرْبِ مَا أَعْطَتْكَ عِشْرُوكَ وَالْعَشْرُ (١)

***

أَلَسْتَ الَّذِى إِنْ ضَاقَ ذَرْعٌ بِحَادِثٍ ... تَبَلَّجَ مِنْهُ الْوَجْهُ وَاتَّسَعَ الصَّدْرُ (٢)

فَلَا تَهِضِ الدُّنْيَا جَنَاحَكَ بَعْدَهُ ... فَمِنْكَ ـ لِمَنْ هَاضَتْ نَوَائِبُهَا ـ جَبْرُ

وَلَا زِلْتَ مَوْفُورَ الْعَدِيدِ بِقُرَّةٍ ... لِعَيْنَيْكَ مَشْدُودًا بِهِمْ ذَلِكَ الْأَزْرُ

فَإِنَّكَ شَمْسٌ ـ فِى سَمَاءِ رِيَاسَةٍ ـ ... تَطَلَّعَ مِنْهُمْ حَوْلَهَا أَنْجُمٌ زُهْرُ

***

شَكَكْنَا فَلَمْ نُثْبِتْ (٣) أَأَيَّامُ دَهْرِنَا ... بِهَا وَسَنٌ أَمْ هَزَّ أَعْطَافَهَا سُكْرُ ؟

وَمَا إِنْ تَغَشَّتْهَا مُغَازَلَةُ الْكَرَى ... وَمَا إِنْ تَمَشَّتْ ـ فِى مَفَاصِلِهَا (٤) ـ خَمْرُ

سِوَى نَشَوَاتٍ ـ مِنْ سَجَايَا مُمَلَّكٍ ـ ... يُصَدِّقُ فِى عَلْيَائِهَا الْخَبَرَ الْخُبْرُ

***

أَرَى الدَّهْرَ ـ إِنْ يَبْطِشْ ـ فَأَنْتَ يَمِينُهُ ... وَإِنْ تَضْحَكِ الدُّنْيَا فَأَنْتَ لَهَا ثَغْرُ

وَكَمْ سَائِلٍ ـ بِالْغَيْبِ عَنْكَ ـ أَجَبْتُهُ : ... هُنَاكَ الْأَيَادِى الشَّفْعُ وَالسُّودَدُ الْوِتْرُ (٥)

هُنَاكَ التُّقَى وَالْعِلْمُ وَالْحِلْمُ وَالنُّهَى ... وَبَذْلُ اللُّهَا وَالْبَأْسُ وَالنَّظْمُ وَالنَّثْرُ

---

(١) أولى الحجا : أرباب العقول ، والارب : العقل والدهاء والبصر بالأمور ، يقال أرب ككرم أرابة فهو أريب أى عاقل وجاء فى نفح الطيب «اللب» بدل «الارب» ، وعشروك : بالاضافة ، وعشرون إذا أضيف سقطت منه النون لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ، يقال : « هذه عشروك وعشرىّ » بتشديد الياء كمسلمى ، أى أن ثلاثين حجة أفادتك من الحجا والعقل ما لم تعطه غيرك السبعون .

(٢) ألست الذى إن ضاق الناس ذرعا بحادث تهلل له وجهك بشرا ، واتسع له صدرك احتمالا وصبراً ، ثقة منك بأنك ستكشف النازلة ، وتدفع الكارثة .

(٣) وفى نفح الطيب : « فلم ندرك »   (٤) وفى نفح الطيب : « معاطفها » .

(٥) أى : هناك الايادى أى النعم المزدوجة المتكررة والمجد الفذ .

هُمَامٌ ـ إِذَا لاَقَى الْمُنَاجِزَ رَدَّهُ ـ وَإِقْبَالُهُ خَطْوٌ ، وَإِدْبَارُهُ حُضْرُ (١)

مَحَاسِنُ ، مَا لِلرَّوْضِ ـ خَامَرَهُ النَّدَى ـ رُوَاءٌ إِذَا نُصَّتْ حُلاَهَا وَلاَ نَشْرُ (٢)

مَتَى انْتُشِقَتْ لَمْ تُطْرِ دَارِينُ مِسْكَهَا حَيَاءً ، وَلَمْ يَفْخَرْ بِعَنْبَرِهِ الشَّحْرُ (٣)

عَطَاءٌ وَلاَ مَنٌّ ، وَحُكْمٌ وَلاَ هَوًى وَحِلْمٌ وَلاَ عَجْزٌ ، وَعِزٌّ وَلاَ كِبْرُ

قَدِ اسْتَوْفَتِ النَّعْمَاءُ فِيكَ تَمَامَهَا عَلَيْنَا ، فَمِنَّا الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالشُّكْرُ

إلى ابن ذكوان

« كتب إلى الوزير أبى العباس بن حاتم بن ذكوان »

لَسْتَ مِنْ بَابَةِ الْمُلُوكِ (٤) أَبَا الْعَبَّاسِ ، دَعْهُمْ فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَانِكْ

مَا جَزَاءُ الْوَزِيرِ مِنْكَ ـ إِذَا اخْتَصَّكَ ـ أَنْ تَسْتَمِرَّ فِى إِدْمَانِكْ

أَتُرَاهُ لاَ يَسْتَرِيبُ لِإِمْسَا كِكَ سَرْدَ الْعِرَاقِ تَحْتَ لِسَانِكْ (٥)

مُذْ نَهَانَا ـ عَنِ الْمُدَامِ ـ انْتَهَيْنَا مَعَ أَنَّا نُعَدُّ مِنْ صِبْيَانِكْ .

---

(١) المناجز : من المناجزة وهى المبارزة فى القتال والمقاتلة ، قال عبيد :

كالهندوانى المهنـــــد هزه القرن المناجز

والحضر : إحضار الفرس وعدوه ، يقول هو ملك همام إذا لاقى عدوه المناجز فى الحرب والقتال رده منهزما فى حال كون إقباله بطيئا وإدباره سريعا .

(٢) نصت : وضعت على المنصة بكسر الميم وهى سرير العروس الذى تنص وتجلى عليـه ليلة الزفاف ، والنشر : الرائحة الطيبة ، وفى الأصل « ولانشر » والذى أثبتناه هنا رواية نفح الطيب .

(٣) لم تطر : لم تمدح ، ودارين : ثغر على الخليج الفارسى يجلب إليه الطيب من بلاد الهند ، والذى فى نفح الطيب « لم تدر » والشحر : ساحل البحر ـ بين « عمان » و « عدن » ـ أو هو صقع على ساحل الخليج الفارسى وإلى هذا الصقع ينسب العنبر الشحرى ، وهناك عدة مدن بهذا الاسم كما يؤخذ من معجم البلدان ، والمعنى : متى فاح عبير تلك المحاسن لم تثن دارين على مسكها ولم يفخر الشحر بعنبره .

(٤) من بابة الملوك : من الشروط والوجوه التى تصلح لهم ، ويقال : « هذا شىء من بابتك » أى يصلح لك . يقول : « لست من بيئتهم . »

(٥) العراق : بالكسر الجلد المخروز على فم السقاء والزق ونحوهما تشبه بخرزه الأسنان فى السرد ، والاستواء ، وجاء فى الأصل « سعد العراق » يقول : أترى الوزير لا يقع فى الريبة لوضعك مسرودة العراق تحت لسانك ، يريد أنه يحتسى الخمر من فم زق معرق أى على فمه عراق .

إلى المعتمد

« كتب ابن زيدون إلى المعتمد يشوّقه إلى تعاطى الحيا فى قصوره البديعة التى منها المبارك والثريا [1]. »

فُزْ بِالنَّجَاحِ وَأَحْرِزِ الْإِقْبَالَا ... وَحُزِ الْمُنَى وَتَنَجَّزِ الآمَالَا

وَلْيَهْنِكَ التَّأْيِيدُ وَالظَّفَرُ اللَّذَا ... صَدَقَاكَ ـ فِى السِّمَةِ الْعَلِيَّةِ ـ فَالَا

يٰأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِى لَوْلَاهُ لَمْ ... تَجِدِ الْعُقُولُ النَّاشِدَاتُ كَمَالَا

* * *

أَمَّا « الثُّرَيَّا » [2] فَالثُّرَيَّا نِصْبَةً ... وَإِفَادَةً وَإِنَافَةً وَجَمَالَا

قَدْ شَاقَهَا الْإِغْبَابُ حَتَّى أَنَّهَا ... لَوْ تَسْتَطِيعُ سَرَتْ إِلَيْكَ خَيَالَا

رِفْهٍ [3] وُرُودَكَهَا لِتَغْنَمَ رَاحَةً ... وَأَطِلْ مَزَارَكَهَا لِتَنْعَمَ بَالَا

* * *

وَتَمَلِّ الْقَصْرَ « الْمُبَارَكَ » وَجْنَةً ... قَدْ وَسَّطَتْ فِيهَا « الثُّرَيَّا » خَالَا

وَأَدِرْ هُنَاكَ مِنَ الْمُدَامِ أَتَمَّهَا ... أَرَجًا زَكَا وَأَشَفَّهَا جِرْيَالَا [4]

قَصْرٌ يُقِرُّ الْعَيْنَ مِنْهُ مَصْنَعٌ ... بَهِجُ الْجَوَانِبِ، لَوْ مَشَى لَاخْتَالَا

لَازِلْتَ تَفْتَرِشُ السُّرُورَ حَدَائِقًا ... فِيهِ، وَتَلْتَحِفُ النَّعِيمَ ظِلَالَا .

---

(١) وردت هذه القصيدة فى الديوان ولم يكتب لها عنوان ، وقد نقلنا هذه الكلمة من نفح الطيب

(٢) يعنى قصره المسمى « الثريا » .

(٣) أى اجعل ورودك اياها رفها أى كل يوم ، يقال وردت الابل رفها إذا كانت ترد الماء كلما شاءت الورود . (٤) الجريال : الخمر ، أو حمرتها وسيأتى تفسيرها فى ص « ١٥٥ »

مدح ورثاء وتهنئة (١)

« وقال أيضا يمدحه ويرثى الوزير الكاتب الأعلى
أبا الحزم أباه رحمهما الله . »

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ ضَمَّهَا الْقَبْرُ وَأَنْ قَدْ كَفَانَا ـ فَقْدَنَا الْقَمَرَ ـ الْبَدْرُ
وَأَنَّ الْحَيَا (٢) ـ إِنْ كَانَ أَقْلَعَ صَوْبُهُ ـ فَقَدْ فَاضَ لِلْآمَالِ فِى إِثْرِهِ الْبَحْرُ
إِسَاءَةُ دَهْرٍ أَحْسَنَ الْفِعْلَ بَعْدَهَا ، وَذَنْبُ زَمَانٍ جَاءَ يَتْبَعُهُ الْعُذْرُ
فَلَا يَتَهَنَّ الْكَاشِحُونَ فَمَا دَجَا لَنَا اللَّيْلُ إِلَّا رَيْثَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ
وَإِنْ يَكُ وَلَّى « جَهْوَرٌ » ، « فَمُحَمَّدٌ » خَلِيفَتُهُ الْعَدْلُ الرِّضَى وَابْنُهُ الْبَرُّ

* * *

لَعَمْرِى لَنِعْمَ الْعِلْقُ (٣) أَتْلَفَهُ الرَّدَى فَبَانَ ، وَنِعْمَ الْعِلْقُ أَخْلَفَهُ الدَّهْرُ
هَزَزْنَا بِهِ الصَّمْصَامَ (٤) فَالْعَزْمُ حَدُّهُ وَحِلْيَتُهُ الْعَلْيَا وَإِفْرِنْدُهُ الْبِشْرُ
فَتًى يَجْمَعُ الْمَجْدَ الْمُفَرَّقَ هَمُّهُ وَيُنْظَمُ ـ فِى أَخْلَاقِهِ ـ السُّؤْدُدُ النَّثْرُ
أَهَابَتْ إِلَيْهِ بِالْقُلُوبِ مَحَبَّةٌ هِىَ السِّحْرُ لِلْأَهْوَاءِ ، بَلْ دُونَهَا السِّحْرُ
سَرَتْ ـ حَيْثُ لَا تَسْرِى مِنَ الْأَنْفُسِ الْمُنَى ـ وَدَبَّتْ دَبِيبًا لَيْسَ يُحْسِنُهُ الْخَمْرُ
لَدِسْنَا لَدَيْهِ الْأَمْنَ تَنْدَى ظِلَالُهُ وَزَهْرَةَ عَيْشٍ مِثْلَ مَا أَيْنَعَ الزَّهْرُ
وَعَادَتْ لَنَا عَادَاتُ دُنْيَا كَأَنَّهَا بِهَا وَسَنٌ أَوْ هَزَّ أَعْطَافَهَا سُكْرُ

* * *

مَلِيكٌ لَهُ مِنَّا النَّصِيحَةُ وَالْهَوَى وَمِنْهُ الْأَيَادِى الْبِيضُ وَالنِّعَمُ الْخُضْرُ

---

(١) ارجع إلى ص « ١٤٠ » و ص « ١٧٤ » من هذا الديوان .

(٢) المطر . (٣) النفيس . (٤) الحسام .

نُسِرُّ وَفَاءً ـ حِينَ نُعْلِنُ طَاعَةً ـ فَمَا خَانَهُ سِرٌّ وَلَا رَابَهُ جَهْرُ
فَقُلْ لِلْحَيَارَى: « قَدْ بَدَا عَلَمُ الْهُدَى » وَلِلطَّامِعِ الْمَغْرُورِ: « قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ[1] »

* * *

« أَبَا الْحَزْمِ » قَدْ ذَابَتْ عَلَيْكَ ـ مِنَ الْأَسَى ـ قُلُوبٌ مُنَاهَا الصَّبْرُ، لَوْ سَاعَدَ الصَّبْرُ
دَعِ الدَّهْرَ يَفْجَعْ بِالذَّخَائِرِ أَهْلَهُ فَمَا لِنَفِيسٍ ـ مُذْ طَوَاكَ الرَّدَى ـ قَدْرُ
تَهُونُ الرَّزَايَا بَعْدُ ـ وَهْيَ جَلِيلَةٌ ـ وَيُعْرَفُ ـ مُذْ فَارَقْتَنَا ـ الْحَادِثُ النُّكْرُ
فَقَدْنَاكَ فِقْدَانَ السَّحَابَةِ لَمْ يَزَلْ لَهَا أَثَرٌ يُثْنِي بِهِ السَّهْلُ وَالْوَعْرُ
مَسَاعِيكَ حَلْيٌ لِلَّيَالِي مُرَصَّعٌ وَذِكْرُكَ ـ فِي أَرْدَانِ أَيَّامِهَا ـ عِطْرُ
فَلَا تَبْعَدَنْ إِنَّ الْمَنِيَّةَ غَايَةٌ إِلَيْهَا التَّنَاهِي طَالَ أَوْ قَصُرَ الْعُمْرُ

* * *

عَزَاءً ـ فَدَتْكَ النَّفْسُ عَنْهُ ـ فَإِنْ ثَوَى فَإِنَّكَ لَا الْوَانِي وَلَا الضَّرَعُ الْغُمْرُ
وَمَا الرُّزْءُ فِي أَنْ يُودَعَ التُّرْبَ هَالِكٌ بَلِ الرُّزْءُ كُلُّ الرُّزْءِ أَنْ يَهْلِكَ الْأَجْرُ
أَمَامَكَ ـ مِنْ حِفْظِ الْإِلٰهِ ـ طَلِيعَةٌ وَحَوْلَكَ ـ مِنْ آلَائِهِ ـ عَسْكَرٌ مَجْرُ
وَمَا بِكَ مِنْ فَقْرٍ إِلَى نَصْرِ نَاصِرٍ كَفَتْكَ ـ مِنَ اللهِ ـ الْكَلَاءَةُ[2] وَالنَّصْرُ

* * *

لَكَ الْخَيْرُ، إِنِّي وَاثِقٌ بِكَ شَاكِرٌ لِمَثْنَى أَيَادِيكَ الَّتِي كُفْرُهَا الْكُفْرُ
تَحَامَى الْعِدَا ـ لَمَّا اعْتَلَقْتُكَ ـ جَانِبِي وَقَالَ الْمُنَاوِي: شَبَّ عَنْ طَوْقِهِ عَمْرُو[3]

---

(١) قريب من هذا قول ابن هانئ الأندلسي :

تقول بنو العباس : « هل فتحت مصر ؟ » فقل لبني العباس : « قد قضى الأمر »

(٢) الرعاية والحفظ (٣) ارجع إلى تفسير هذا المثل في (ص ١٤٥) من هذا الكتاب

يَلِينُ كَلاَمٌ كَانَ يَخْشُنُ مِنْهُمُ ... وَيَفْتَرُّ نَحْوِى ذَلِكَ النَّظَرُ الشَّزْرُ

* * *

فصَــدِّقْ ظُنُونًا لِى وَفِىَّ ، فَإِنَّنِى ... لَأَهْلُ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ مِنْكَ وَلاَ فَخْرُ

وَمَنْ يَكُ ـ لِلدُّنْيَا وَلِلْوَفْرِ ـ سَعْيُهُ ... فَتَقْرِيبُكَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالُكَ الْوَفْرُ [1]

هـــدية عنب

« وأهدى إلى الوزير الفقيه صاحب الأحكام أبى بكر محمد بن محمد بن إبراهيم جدّه لأمّه عنبا عدارى وكتب معه . »

أَتَاكَ مُحَيِّيًا عَـــنِّى اعْتِذَارَا ... عَذَارَى دُونَهُ رِيقُ الْعَذَارَى [2]

تَخَالُ الشَّهْدَ مِنْهُ مُسْتَمَدًّا ... وَنَفْحَ الْمِسْكِ مِنْهُ مُسْتَعَارَا

يَرُوقُ الْعَيْنَ مِنْهُ جِسْمُ مَاءٍ ... غَدَا ثَوْبُ الْهَوَاءِ لَهُ شِعَارَا

وَلَوْلاَ أَنَّنِى قَدْ نِلْتُ مِنْهُ ... ـ وَلَمْ أُسْكَرْ ـ لَخِلْتُ بِهِ عُقَارَا

بَعَثْتُ بِهِ وَلَوْ أَهْدَيْتُ نَفْسِى ... إِلَيْكَ ، لَكَانَ مِنْ بِرِّى اقْتِصَارَا

فَأَنْعِمْ بِالْقَبُولِ فَرُبَّ نُعْمَى ... أَعَدْتَ بِهَا دُجَى لَيْلِى نَهَارَا

---

(١) يقول : إن من كانت غايته من الدنيا أن تقبل عليه وأن ينال الغنى فانه يظفر بهما جميعا حين تدنيه منك وتقبل عليه .

(٢) العذارى : صنف من العنب يشبه بأصابع العذارى لطوله ، يقول : أتاك يحمل تحيتى معتذراً إليك « عنب عذارى » . تعلو دونه فى الحلاوة ريق العذارى .

رثاء ابن ذكوان

« قال يرثى القاضى أبا بكر بن ذكوان . »

اعْجَبْ لِحَالِ السَّرْوِ كَيْفَ تُحَالُ ... وَلِدَوْلَةِ الْعَلْيَاءِ كَيْفَ تُدَالُ (١)

لاَ تَفْسَحَنْ لِلنَّفْسِ فى شَأْوِ الْمُنَى ... إِنَّ اغْتِرَارَكَ - بِالْمُنَى - لَضَلاَلُ

مَا أَمْتَعَ الآمَالَ لَوْلاَ أَنَّهَا ... تَعْتَاقُ - دُونَ بُلُوغِهَا - الآجَالُ (٢)

مَنْ سُرَّ - لَمَّا عَاشَ - قَلَّ مَتَاعُهُ ... فَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالسُّرُورُ خَيَالُ (٣)

***

فى كُلِّ يَوْمٍ تُنْتَحَى بِرَزِيَّةٍ ... لِلأَرْضِ - مِنْ بُرَحَائِهَا - زِلْزَالُ (٤)

إِنْ يَنْكَدِرْ بِالأَمْسِ نَجْمٌ ثَاقِبٌ ... فَالْيَوْمَ أَقْلَعَ عَارِضٌ هَطَّالُ (٥)

إِنَّ النَّعِيَّ « لِجَهْوَرٍ » وَ « مُحَمَّدٍ » ... أَبْكَى الْغَمَامَ ، فَدَمْعُهُ مُنْثَالُ (٦)

شَكْلاَنِ - إِنْ حُمَّ الْحِمَامُ - تَجَاذَبَا ... لاَغَرْوَ أَنْ تَتَجَاذَبَ الأَشْكَالُ (٧)

---

(١) السرو : الشرف والسيادة ، يقول : أعجب لهذا المجد كيف حال عن عهده وتحول ، واعجب لدولة العلياء كيف دالت وتبدلت . (٢) يقول : إن أحسن شىء تتمتع به النفس الآمال ، لولا أن الآجال ، تعوق دون بلوغ الآمال .

(٣) من سره العيش فى هده الحياة الدنيا فليعلم أن متاعها قليل ، وأن الناس فيها نيام لا انتباه لهم ولا يقظة إلا بعد الموت إذن فسرورها خيال ، وغرورها باطل .

(٤) تنتحى : تقصد ، يقال انتحاه إذا قصد ناحيته ، والبرحاء : الشدة .

(٥) ينكدر : ينقص ويسقط ، قال تعالى « وإذا النجوم انكدرت » أى تناثرت ، والعارض : السحاب ، يقول : إن موت أبى بكر القاضى جاء عقب موت اثنين من آل جهور سيذكرهما فى البيت التالى لهذا البيت .

(٦) النعى : كغنى الناعى ، من نعى الميت ينعاه إذا أخبر بموته ، ومنثال : من ثال الدمع وغيره استخرجه.

(٧) حم : قدر ، والحمام : الموت ، يقول : « جهور » و « محمد » شكلان متجانسان حم الموت على أحدهما فانجذب إليه شكله ، وكذلك الأشكال تتجاذب .

*
* *

وَلَّى « أَبُو بَكْرٍ » فَرَاعَ لَهُ الْوَرَى ‏ هَوْلٌ تَقَاصَرُ ـ دُونَهُ ـ الْأَهْوَالُ

قَمَرٌ هَوَى فِى التُّرْبِ ـ تَحْثِى فَوْقَهُ ـ ‏ لِلّٰهِ مَا حَازَ الثَّرَى الْمُنْهَالُ (١)

قَدْ قُلْتُ ـ إِذْ قِيلَ السَّرِيرُ يُقِلُّهُ ـ ‏ هَلْ لِلسَّرِيرِ بِقَدْرِهِ اسْتِقْلَالُ ؟

الآنَ بَيَّنَ لِلْعُقُولِ زَوَالُهُ ‏ أَنَّ الْجِبَالَ قُصَارُهُنَّ زَوَالُ

مَا أَقْبَحَ الدُّنْيَا ! خِلَافَ مُوَدِّعٍ ‏ غَنِيَتْ بِهِ فِى حُسْنِهَا تَخْتَالُ (٢)

*
* *

يَا قَبْرَهُ الْعَطِرَ الثَّرَى لَا يَبْعَدَنْ ‏ حُلْوٌ مِنَ الْفِتْيَانِ فِيكَ حَلَالُ (٣)

مَا أَنْتَ إِلَّا الْجَفْنُ أَصْبَحَ طَيَّهُ ‏ نَصْلٌ عَلَيْهِ ـ مِنَ الشَّبَابِ ـ صِقَالُ (٤)

فَهُنَاكَ نَفَّاحُ الشَّمَائِلِ مِثْلَ مَا ‏ طَرَقَتْ بِأَنْفَاسِ الرِّيَاضِ شَمَالُ (٥)

---

(١) تحثى : تهال فوقه ، والثرى : التراب الندى .

(٢) خلاف مودع : أى بعده ، يقال جاء فلان خلاف فلان أى بعده ، قال تعالى « وإذن لايلبثون خلافك إلا قليلا » أى خلفك كما فى القراءة الثانية ، والمعنى : ماأقبح الدنيا بعد هذا الراحل المودع الذى كانت الدنيا به تختال كالعروس المستغنية بجمالها عن الزينة ثم أصبحت بعده قبيحة دميمة .

(٣) الحلو الحلال : من الفتيان هو الفتى الذى لاريبة فيه الموثوق به ، قال الشاعر :

«ألا ذهب الحلو الحلال الحلاحل ‏ ومن قوله حكم وعدل ونائل .»

وقال الآخر :

« رأيت رباطا حين تم شبابه ‏ وولى شبابى ليس فى بره عتب

إذا كان أولاد الرجال حزازة ‏ فأنت الحلال الحلو والبارد العذب . »

والمعنى : يا قبره الشذى العطر ثراه لايبعدن فيك من الفتيان ذلك الفتى الحلو الحلال أى الذى لاشك ولا ريبة فى رجولته وفتوته .

(٤) ما أنت أيها القبر إلا جفن طوى فيه فتى كنصل السيف صقل بصقال الشباب .

(٥) هناك أى فى ذلك القبر ورى فتى شمائله وطباعه تنفح بأنواع العطر مثل ما هبت بأنفاس الرياض

دَانٍ مِنَ الْخُلُقِ الْمُزَيِّنِ ، نَازِحٌ ... عَنْ كُلِّ مَا فِيهِ عَلَيْهِ مَقَالُ (١)

شِــــيَمٌ يُنَافِسُ حُسْنَهَا إِحْسَانُهَا ... كَالرَّاحِ نَافَسَ طَعْمَهَا الْجِرْيَالُ (٢)

***

يَا مَنْ شَأَى الْأَمْثَالَ ، مِنْهُ وَاحِدٌ ... ضُرِبَتْ بِهِ فِي السُّودَدِ الْأَمْثَالُ (٣)

نَقَصَتْ حَيَاتُكَ حِينَ فَضْلُكَ كَامِلٌ ... هَلَّا اسْتُضِيفَ إِلَى الْكَمَالِ كَمَالُ (٤)

وُدِّعْتَ عَنْ عُمُرٍ عَمَرْتَ قَصِيرِهِ ... بِمَكَارِمٍ أَعْمَارُهُنَّ طِوَالُ

مَنْ لِلنَّدِيِّ إِذَا تَنَازَعَ أَهْلُهُ ... فَاسْتَجْهَلَتْ حُلَمَاءَهُ الْجُهَّالُ (٥)

لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهُمْ لَقَلَّ مِرَاؤُهُمْ ... لِأَغَرَّ فِيهِ مَعَ الْفَتَاءِ جَلَالُ (٦)

---

(١) دان : قريب من كل خلق حميد يزينه ، نازح : بعيد عن كل ما فيه عليه لوم ومؤاخذة وعيب ، ولفظه كلفظ قول الشاعر :

« إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى ... إلى بعض ما فيـــه عليك مقال . »

(٢) جريال الخمر : حمرتها الشديدة ، قال الأعشى :

« وسبيئة مما تعتق بابل ... كدم الذبيح سلبتها جريالها . »

ومعنى سلبتها جريالها ــ أى لونها وحمرتها ــ أن لونها ظهر على وجهـــه حين شربها ولـــكنها حين خرجت منه عند البول خرجت بيضاء ، ويطلق الجريال والجريالة على الخمر نفسها ، قال ذو الرمة :

« كأنى أخو جريالة بابلية ... كميت تمشت فى العظام شمولها . »

وقالوا فى السلاف ــ وهو أول ما يجرى من ماء العنب من غير عصر ولونه أصفر ــ إنه أجود من الجريال. قال المتنبي :

« ولقد خبأت من الكلام سلافه ... وسقيت من نادمت من جرياله . »

ومعنى البيت الذى نحن بصـــدده : نافس إحسان شيمك وخلالك حسنها كما نافس لون الراح طعمها ، حين جمعت إلى لذة الطعم حسن اللون .

(٣) وفى الأصل : « يامن شاء . »

(٤) عاجلتك المنية فى الوقت الذى كمل فيه فضلك ، فهلا نسىء فى عمرك حتى تستضيف كمالا إلى كمالك .

(٥) الندى : المجلس ، واستجهلت نسبتهم إلى الجهل ، والحلماء : أصحاب الأحلام أى العقول .

(٦) لو كنت حاضر مجلسهم لأفحمتهم فلم يماروك ويجادلوك لإذعانا لأغر فيه مع فتاء السن وقار وهيبة .

***

مَنْ لِلْعُلُومِ ؟ فَقَدْ هَوَى الْعَلَمُ الَّذِى ... وُسِمَتْ بِهِ أَنْوَاعُهَا الْأَغْفَالُ (١)

مَنْ لِلْقَضَاءِ يَعِزُّ (٢) – فِى أَثْنَائِهِ – ... إِيضَاحُ مُظْلِمَةٍ لَهَا إِشْكَالُ ؟

مَنْ لِلْيَتِيمِ تَتَابَعَتْ أَرْزَاؤُهُ ؟ ... هَلَكَ الْأَبُ الْحَانِى وَضَاعَ الْمَالُ !

أَعْزِزْ بِأَنْ يَنْعَاكَ نَعْىَ شَمَاتَةٍ ... لِلْأَوْلِيَاءِ الْمَعْشَرُ الْأَقْتَالُ (٣)

فُجِعَتْ رَحَى الْإِسْلَامِ مِنْكَ بِقُطْبِهَا ... لَيْتَ الْحَسُودَ فِدَاكَ فَهْوَ ثِفَالُ (٤)

***

زُرْنَاكَ لَمْ تَأْذَنْ كَأَنَّكَ غَافِلٌ ... مَا كَانَ مِنْكَ لِوَاجِبٍ إِغْفَالُ

أَيْنَ الْحَفَاوَةُ رَوْضُهَا غَضُّ الْجَنَى ... أَيْنَ الطَّلَاقَةُ بِشْرُهَا سَلْسَالُ

أَيَّامَ مَنْ يَعْرِضْ عَلَيْكَ وِدَادَهُ ... يَكُنِ الْقَبُولُ بَشِيرُهُ الْإِقْبَالُ

مَهْمَا نُغِبَّكَ لَا نُرِبْكَ وَإِنْ نَزُرْ ... رِفْهًا فَمَا لِزِيَارَةٍ إِمْلَالُ (٥)

هَيْهَاتَ لَا عَهْدٌ – كَعَهْدِكَ – عَائِدٌ ... إِذْ أَنْتَ فِى وَجْهِ الزَّمَانِ جَمَالُ

---

(١) العلوم المتروكة لصعوبة الخوص فيها إلا على أمثاله من الباحثين .

(٢) يقل ويمتنع فلا يوجد لاشكالها حل .

(٣) أعزز : أعظم على نفسى منعاك نعى شماتة أى يعز علىّ ويشق علىّ نفسى أن ينعاك الأقتال أى الأعداء نعى شماتة لأوليائك وأصفيائك .

(٤) قطب الرحى : الحديدة القائمة فى وسط الرحى السفلى ، وهو الذى يدور عليه طبق الرحى العليا ، جعل للاسلام رحى هو قطبها الذى تدور عليه ، يعنى أن عليه نظام الاسلام ، ومدار الأحكام ، والثفال ما يوضع تحت الرحى من جلد ونحوه ليبقى ما يسقط عند الطحن من التراب ، وهذا لا يكون إلا فى رحى اليد ، قال زهير . « فتعرككم عرك الرحى بثفالها » ، والمعنى فجع الاسلام بقطب العلماء ورئيسهم ، وليت الحسود كان فداء لك فعركه الموت عرك الرحى فوق ثفالها أى ليت رحى الموت دارت على حاسدك وشانئك .

(٥) نغبك : الاغباب أن تزوره يوما وتغبه أى تنقطع عنه يوما أو أياما ، ورفها : هو من ورود الابل رفها وهو أن ترد الماء كلما شاءت الورود ، والمعنى : مهما انقطعنا عن زيارتك لم ترتب فى ودنا ، وإن زرناك رفها وفى كل وقت لم تسأم ولم تمل الزيارة .

فَأَذْهَبْ ذَهَابَ الْبُرْءِ أَعْقَبَهُ الضَّنَى وَالْأَمْنِ وَافَتْ بَعْدَهُ الْآجَالُ (١)

لَكَ صَالِحُ الْأَعْمَالِ إِذْ شَيَّعْتَهَا بِالْبِرِّ سَاعَةَ تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ

❁

حَيَّا الْحَيَا مَثْوَاكَ، وَامْتَدَّتْ عَلَى ضَاحِي ثَرَاكَ — مِنَ النَّعِيمِ — ظِلَالُ (٢)

وَإِذَا النَّسِيمُ اعْتَلَّ فَاعْتَامَتْ بِهِ سَاحَاتِكَ الْغَدَوَاتُ وَالْآصَالُ (٣)

وَلَئِنْ أَذَالَكَ — بَعْدَ طُولِ صِيَانَةٍ — قَدَرٌ، فَكُلُّ مَصُونِهِ سَيُذَالُ (٤)

سَيَحُوطُ مَنْ خَلَّفْتَهُ مُسْتَبْصِرٌ فِي حِفْظِ مَا اسْتَحْفَظْتَهُ لَا يَأْلُو

كَفَلَ الْوَزِيرُ «أَبُو الْوَلِيدِ» بِجَبْرِهِمْ إِنَّ الْوَزِيرَ — لِمِثْلِهَا — فَعَّالُ

مَلِكٌ سَجِيَّتُهُ الْوَفَاءُ فَمَالَهُ بِالْعَهْدِ — فِي ذِي خُلَّةٍ — إِخْلَالُ

حَتْمٌ عَلَيْهِ لَعًا (٥) لِعَثْرَةِ حَالِهِمْ قَدْ تَعْثُرُ الْحَالَاتُ ثُمَّ تُقَالُ

❁

إِيهًا: بَنِي ذَكْوَانَ — إِنْ غَلَبَ الْأَسَى — فَلَكُمْ إِلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ مَآلُ

إِنْ كَانَ غَابَ الْبَدْرُ عَنْ سَاهُورِهِ مِنْكُمْ وَفَارَقَ غَابَهُ الرِّئْبَالُ (٦)

---

(١) ادهب على رغم منا دهاب العافية جاء عقبها المرض ، والأمن وافى بعده الأجل .

(٢) الحيا : المطر ، والمثوى ، القبر ، وضاحى ثراك : أى ثراك الصاحى أى البارز للشمس .

(٣) اعتامت : احتارت ، ومنه قول طرفه :

« أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدّد . »

والمعى : اعتامت أى اختارت العدوات والآصال ساحات القبر وآثرتها بمرور النسيم العليل .

(٤) أذالك : أهانك ، أى لئن امتهنك القدر بعد طول صيانه ، فكل مصون لم تمتد إليه يد القدر سيذال ويهان يوما من الأيام .

(٥) دعاء للعاثر أن يقيمه الله من عثرته ، وإذا قيل « لالعا للعاثر » فمعناه لاأقاله الله من عثرته .

قال ابن دريد :

« فان عثرت بعدها — إن وألت نفسى من هاتا — فقولا: « لالعا »

وإن تكن مدتها موصولة بالحتف ، سلطت الأسى على الأسى . »

وقال الأخطل :

« فلا هدى الله قيسا — من ضلالتهم — ولا لعا لبنى ذكوان إذ عثروا . »

(٦) الساهور : دارة القمر ، والرئبال : الأسد .

فى مدح المعتضـــد

« قال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله
أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد . »

أَعَرْفُكِ رَاحَ فى عُرْفِ الرِّيَاحِ ؟ ‏ ‏ ‏ فَهَزَّ مِنَ الْهَوَى عِطْفَ ارْتِيَاحِى (١)

وَذِكْرُكِ مَا تَعَرَّضَ أَمْ عَذَابٌ ؟ ‏ ‏ ‏ غَصِصْتُ عَلَيْهِ بِالْعَذْبِ الْقَرَاحِ (٢)

وَهَلْ أَنَا مِنْكِ فى نَشَوَاتِ شَوْقٍ ‏ ‏ ‏ ـ هَفَتْ بِالْعَقْلِ ـ أَوْ نَشَوَاتِ رَاحِ (٣)

لَعَمْرُ هَوَاكِ مَا وَرِيَتْ زِنَادٌ ‏ ‏ ‏ لِوَصْلٍ مِنْكِ طَالَ لَهَا اقْتِدَاحِى (٤)

وَكَمْ أَسْقَمْتِ ـ مِنْ قَلْبٍ صَحِيحٍ ـ ‏ ‏ ‏ بِسُقْمِ جُفُونِكِ الْمَرْضَى الصِّحَاحِ

* * *

مَتَى أُخْفِ الْغَرَامَ يَصِفْهُ جِسْمِى ‏ ‏ ‏ بِأَلْسِنَةِ الضَّنَى الْخُرْسِ الْفِصَاحِ (٥)

فَلَوْ أَنَّ الثِّيَابَ فُحِصْنَ عَنِّى ‏ ‏ ‏ خَفِيتُ خَفَاءَ خَصْرِكِ فى الْوِشَاحِ

---

(١) العرف : بالفتح الرائحة الطيبة ، والعرف : بالضم واحد أعراف الرياح وهى أوائلها وأعاليها ، والعطف : الجانب وماتثنيه إذا عطفت على شىء حنوا وإشفاقا ، وتحركه إذا هزتك أريحية ، والمعنى : أعرفك وطيبك سرى إلى أوائل الرياح التى هبت مائحة من ناحيتك ، فثنى نحوك بعاطفة الهوى والارتياح .

(٢) غصصت : كشرقت بالماء وزنا ومعنى ، أو وقف فى حلقه فلم يسغه ، والقراح : الماء الذى لم يخالطه غيره ، يقول : وهل ماتعرض ذكرك أم عذاب شرقت لأجله بالماء العذب الذى لم تشبه شائبة فلم أسغه ، وفى الأصل « وذكرك ماتعرض أم عداد »

(٣) نشوات : واحدها نشوه ، والنشوة تكون من الريح ومن السكر وهى من السكر أوائله ومقدماته ، وهفت بالعقل : ذهبت به ، يقال : هفت الريح بالشىء تهفو أى ذهبت به ، والمعنى . هل أنا من أجل هواك ، وبسبب ذكراك ، فى نشوات من ريح الشوق أو نشوات من سكر الراح أطارت عقلى وأذهبت لبى .

(٤) أقسم بهواك إن طول اقتداحى لزناد الوصل لم يور ناراً .

(٥) فى الوقت الذى أخفى فيه غرامى عن العاذلين ينم على نحول جسمى بألسنة المرض الخرساء المفصحه .

لَقِينَا مِنَ الْوَاشِينَ حَتَّى ... رَضِينَا الرُّسْلَ أَنْفَاسَ الرِّيَاحِ (١)

وَرُبَّ ظَلَامِ لَيْلٍ جَنَّ فَوْقِي ... فَبُتُّ عَنِ الصَّبَاحِ إِلَى الصَّبَاحِ (٢)

فَهَلْ عَدَتِ العَفَافَ هُنَاكَ نَفْسِي ... — فَدَيْتُكِ — أَوْجَنَحْتُ إِلَى الْجُنَاحِ (٣)

***

وَكَيْفَ أَلِجُّ لَا يَثْنِي عِنَانِي ... رَشَادُ الْعَزْمِ عَنْ غَيِّ الْجِمَاحِ (٤)

وَمِنْ سِرِّ ابْنِ « عَبَّادٍ » دَلِيلٌ ... بِهِ بَانَ الْفَسَادُ مِنَ الصَّلَاحِ

هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي بَرَّتْ فَسَرَّتْ ... خِلَالٌ مِنْهُ طَاهِرَةُ النَّوَاحِي

هُمَامٌ خَطَّ — بِالْهِمَمِ السَّوَامِي — ... مِنَ الْعَلْيَاءِ فِي الْخِطَطِ الْفِسَاحِ (٥)

أَغَرُّ إِذَا تَجَهَّمَ وَجْهُ دَهْرٍ ... تَبَلَّجَ فِيهِ كَالْقَمَرِ اللِّيَاحِ (٦)

---

(١) لقد تعلمنا من الواشين حيلهم فى الوقوف على مكتوم أسرارنا ، حتى أصبحنا نقنع بأن تكون أنفاس الرياح بريداً يحمل عنا رسائل الحب والغرام ، وقد أبدع ابن الرومى حيث يقول :

« أحباى كم لى نحوكم من تحية ... أحملها هبات كل جنوب

فلا تتركوا رد السلام إذا جرت ... شمال على نائى المحل غريب . »

(٢) كثيراً ما أرخى الليل علينا سدوله ، فبت فى ظلامه عن الصباح إلى أن أسفر الصباح وقريب من هذا قول أبى تمام :

« رحن والليل قد أقام رواقا ... فأقمن الصباح فيه عموداً . »

(٣) لم تتعد نفسى فى تلك الليلة التى نعمت فيها بالحبيب حدود العفاف ، ولم تمل إلى ارتكاب ما يخالف طبيعة الحب البرىء مما فيه إثم علينا وجناح ، وفى هذا المعنى يقول ابن المعتز :

« كم قد خلوت بها وثالثنا التقى ... يحمى على العطشان برد المورد. »

(٤) فى هذا البيت والذى بعده تخلص من النسيب إلى المدح حيث يقول : كيف ألج فى الهوى ، وأتمادى فى الغى ، ولا يثنى عنان جماحى اعتزامى الرشد ، فى حال أن لى من سر « ابن عباد » وقوة نفسه دليل عرفت به الرشد من الغى ، والصلاح من الفساد .

(٥) خط : اختط الأرض وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها ليبنيها ، والخطط : جمع خطة بكسر أولهما ، وهى الأرض التى يختطها لنفسه ليبنى عليها .

(٦) اللياح : بكسر وفتح أوله الأبيض المتلألئ

سَمِيعُ النَّصْرِ لِاُسْتِمْدَاءِ جَارٍ ... أَصَمُّ الجُودِ عَنْ تَفْنِيدِ لَاحٍ (١)

ضَرَائِبُ جَهْمَةٍ — فِي الْعَتْبِ — تُتْلَى ... بِأَخْلَاقٍ لَدَى الْعُتْبَى مِلَاحِ (٢)

إِذَا أَرِجَ الثَّنَاءُ الرَّوْعُ مِنْهَا ... فَكَمْ لِلْمِسْكِ عَنْهُ مِنَ افْتِضَاحِ

هُوَ الْمُبْقِي مُلُوكَ الْأَرْضِ تَدْمَى ... قُلُوبُهُمُ كَأَفْوَاهِ الْجِرَاحِ

رَآهُ اللهُ أَجْوَدَ بِالْعَطَايَا ... وَأَطْعَنَ بِالْمَكَايِدِ وَالرِّمَاحِ

وَأَفْرَسَ لِلْمَنَابِرِ وَالْمَذَاكِي ... وَأَبْهَى فِي الْبُرُودِ وَفِي السِّلَاحِ (٣)

وَأَمْنَعَهُمْ حِمَى عِرْضٍ مَصُونٍ ... وَأَوْسَعَهُمْ ذُرًا مَالٍ مُبَاحِ

فَرَاضَ لَهُ الْوَرَى حَتَّى تَأَدَّتْ ... إِلَيْهِ إِتَاوَةُ الْحَيِّ اللَّقَاحِ (٤)

« لِمُعْتَضِدٍ » بِهِ أَرْضَاهُ سَعْياً ... فَأَقْبَلَ وَجْهَهُ وَجْهَ الْفَلَاحِ (٥)

فَمَنْ قَاسَ الْمُلُوكَ إِلَيْهِ جَهْلاً ... كَمَنْ قَاسَ النُّجُومَ إِلَى بَرَاحِ (٦)

---

(١) الاستمداء : الاستعانة وطلب النصرة ، والتفنيد : اللوم وتضعيف الرأى ، ولاح : اسم فاعل من لحاه يلحاه إذا لامه وعذله .

(٢) ضرائب : سجايا وطبائع جمع ضريبة ، وجهمة : عابسة من جهمه إذا استقبله بوجه كريه ، والعتبى : الرجوع إلى مايرضى العاتب . وفى المثل « لك العتبى ولا أعود » أى لك منى أن أعتبك أى أرضيك ولا أعود إلى ما يسخطك .

(٣) أفرس : أفعل تفضيل من الفراسة بالفتح والفروسة والفروسية وهى الحذق بركوب الخيل ، وفى المثل : أفرس من ملاعب الأسنة ، وأفرس من عامر ، وأفرس من بسطام ، والمذاكي : الخيل التى أتى عليها بعد تمام السن أى — بلوغها النهاية فى الشباب — سنة أو سنتان ، والمعنى أنه أحذق الملوك باعتلاء المنابر وركوب الخيل وأبهاهم لباسا ولبوسا فى السلم والحرب .

(٤) الاتاوة : الخراج وكل ما أخذ بكره أو فرض من أموال الجباية ، والحى اللقاح : فى اللسان قوم لقاح وحى لقاح لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم فى الجاهلية سباء أنشد ابن الأعرابى :

« لعمر أبيك والأنباء تنمى ... لنعم الحى فى الجلى رياح

أبوا دين الملوك فهم لقاح ... إذا هيجوا إلى حرب أشاحوا . »

(٥) أقبل وجهه : من قولهم أقبلته الشىء أى جعلته يلى قبالته وجهته والمعنى أن سكان الحواضر والبوادى دانوا بالطاعة « لمتعضد » بالله أرضت مولاه مساعيه فأقبل الله وجهه وجه الفلاح أى جعل وجهه يستقبل جهة الفلاح :

(٦) إلى أرض ظاهرة

وَمُعْتَقِدُ الرِّيَاسَـــةِ فِي سِوَاهُ كَمُعْتَقِدِ النُّبُوَّةِ فِي سَجَاحِ [1]

(١) هي «سجاح» بنت الحرث بن سويد بن عقفان التميمية، وكانت تسكن الجزيرة في اخوالها من بني تغلب، فادعت النبوة وخرجت تريد غزو المدينة في عهد «أبي بكر» رضي الله عنه، وجرت بينها وبين مسلمي قومها — من بني تميم — حروب انتهت بعجزها عما اعتزمته من الذهاب إلى المدينة لغزوها، فانقلبت إلى اليمامة وتقابلت مع مسيلمة، ثم رجعت إلى موطنها من بلاد الجزيرة وبقيت في أخوالها — من بني تغلب — إلى أن نقلهم «معاوية» عام المجاعة: وجاءت معهم فاسلموا وأسلمت وحسن إسلامهم.

حروب الردة وقصة سجاح ومسيلمة

وقد كتب المؤرخ «دوزى» كلمة ممتعة عن «سجاح» و«مسيلمة» وعن حروب الردة في كتابه القيم: «تاريخ الاسلام» وقد نشرنا بعض فصوله في كتاب «مختارات كامل كيلانى»، ونحن نجتزىء منه بما يلي:

كان الوقت عصيبا، وكانت الظروف عاتية في الحرج، فقد كان موت النبي — صلى الله عليه وسلم — الذى كانت تترقبه العرب منذ زمن طويل بفارغ الصبر مؤذناً بالثورة في كل مكان، ولقد كنت ترى الثائرين — في حيثما ذهبت — رافعين علم الثورة والتمرّد، وقد رجحت كفتهم أيما رجحان حتى لقد طردوا ولاتهم من بلادهم، فلم يجد هؤلاء أمامهم ملجأ إلا المدينة، فتقاطروا عليها من كل فج يحتمون فيها من أذاهم.

وكان لايمر يوم حتى يفد على المدينة بعض الولاة والعمال المطرودين، وأعدت القبائل المجاورة للمدينة عدتها لحصارها.

فكيف يقاومهم «أبو بكر» وليس لديه جيش يحاربهم به بعد أن أرسل جيشه إلى سوريا ليفتحها تنفيذاً لأمر النبي — صلى الله عليه وسلم — برغم صيحة المسلمين الذين رأوا خطورة الحال، فقد ألحوا عليه أن يعدل عن تنفيذ فكرة الفتح حينئذ، فقال لهم —: «لن أخالف ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ولو أصبحت المدينة نفسها نهباً للثائرين والمتمردين ولابد لى من تحقيق مشيئته!»

ومن ثم ترى الخطر المعظم باديا. على أنه — على الحقيقة — خطر أقل مما تدل عليه ظواهره، فان قوة الخصم الحقيقية لاتقاس بما لديه من عدّة ورجال بل بما عنده من قوّة معنوية، وبما يصبو إلى تحقيقه من غاية سامية يتطلع إليها ويخوض غمار الحرب من أجلها باذلا في سبيلها النفس والنفيس.

فما هي الغاية التي يسعى إليها الثائرون؟ وأى حافز يدفعهم إلى إضرام هذه الحرب؟

أهو إيمان وثيق متوشج في أعماق قلوبهم كإيمانهم القديم الذى كانوا عليه قبل البعثة؟ لو كان ذلك لما كان ثمة شك في انتصارهم الحاسم!

ولكن شيئا من ذلك لم يكن، فانهم لايحاربون الآن لينصروا دينهم القديم ويؤيدوه، بل هم يثورون على دينهم الجديد لأنهم لايطيقون احتماله.

وليس هذا بالسبب القوى الذى يلهب حماستهم ويحفزهم إلى الاتيان بجلائل الأعمال، ولا هو بالسبب الذى يخلق البطولة والأبطال، فقد كان رؤساء القبائل المتمرّدة أنفسهم شاعرين كل الشعور بضعف قوّتهم المعنوية، فلجأ بعضهم إلى فكرة سخيفة حسبوا أنها تعيد إليهم تلك القوّة، فادعوا النبوّة! وخيل إليهم أن محمداً — صلى الله عليه وسلم — لم ينجح إلا بهذه الفكرة فأرادوا تقليده.

ولكنهم نسوا أمراً واحداً — هو سر نجاحه في بث دعوته — ذلك أنه كان مؤمنا بما يدعو إليه إيمان المستيقن الجازم. وهذا هو الذى يعوزهم وبغيره لايتم نجاح.

* * *

وكانت تلك الثورة الهائلة وتلك الحرب الشعواء ـ على ما أريق فيهما من دماء غزيرة إذا قورنت بما أتاه المسلمون فى غزواتهم التى عز بها الاسلام ـ ظاهرة سخيفة مضحكة ، يتمثل فيها الانسان ـ غير قصد ـ كيف قلبوا تمثيل هذه الرواية الجدية ـ التى مثلها النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ـ مهزلة وعبثا !

ألا ترى إلى مسيلمة لدى مثل دور النبى صلى الله عليه وسلم فى اليمامة ؟

ألا ترى إلى ذلك الدجال السوقى التعس ، ذلك المشعوذ السمج الذى لا يصلح لغير التدجيل وإدخال بيضة فى زجاجة ضيقة الفوهة ؟ ألا ترى إليه ينشىء قرآنا سخيفا يقلد به محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يرخص لأتباعه فى شرب الخمور أنى شاءوا ، ولا يكاد ينشر دعوته حتى يصادفه سوء الحظ فتحاصره « سجاح » وتنازعه النبوّة ؟

☆

أما « سجاح » هذه فقد كانت مسيحية نشأت فى « بلاد النهرين » وجاءت تبث الدعوة لنفسها ـ على رأس جيش عظيم فماذا يصنع مسيلمة ؟

ليس أمامه إلا أن يلجأ إلى طريق المسالمة ـ وقد فعل ـ فأرسل إليها هدايا فاخرة ودعاها إلى محادثته ، وطال بينهما الحوار .

ولما عادت « سجاح » إلى قومها سألوها عن رأيها فى «مسيلمة» فقالت لهم ـ :

« لقد رأيته نبيا حقا فتزوجت منه ! »

فسألها التميميون ـ : «هل أهدى إلينا شيئاً من مهر الزواج ؟ » فقالت : «لا » فقالوا لها ـ :

« عار علينا أن نزوج نبيتنا بلا مهر ! ولن تقبل ذلك بحال ما ! »

فأرسلت إليه بذلك ـ وكان « مسيلمة » حذرا متحصنا ـ فلما جاءه الرسول لم يأذن له حتى عرف الغرض الذى جاء من أجله فاطمأن إليه وقال له :

« عد إلى قومك وأخبرهم أن «مسيلمة بن حبيب» رسول الله قد رفع عن التميميين ـ من الصلوات الخمس ـ صلاة الصبح والعشاء »

ولقد فرح التميميون بذلك وظلوا يتبعونه حتى بعد أن عادوا إلى الاسلام من جديد .

☆

ومن ثم ترى أن هؤلاء الثائرين ليس لهم عقيدة جدية يدافعون عنها ، فلاغرو إذا قهرهم رجل كأبى بكر وثيق الايمان قوى الارادة صلب العزيمة لايعرف هوادة فى إرغام أنوفهم ولا رحمة !

ولو شاء أبو بكر أن يهادنهم لتنازل لهم عن قليل من مطالبه فكسب بذلك مساعدة كثير من القبائل ـ أو ضمن حيادهم على الأقل ـ فقد وعدوه بالمواظبة على إقامة الصلاة المفروضة عليهم على شريطة أن يعفيهم من إيتاء الزكاة ، ونصحه أعيان المسلمين أن يقبل ذلك منهم فرفض رأيهم بإباء شديد ، وقال لهم :

« إن الاسلام قانون واحد لايتجزأ ، وليس لأحد أن يأخذ ببعضه ويرفض البعض الآخر . »

وقد كان هذا الاصرار الحازم وذلك الحقد الشديد ـ على أهل الردة ـ سبباً فى منحه قوّة أكثر مما نتصورّ .

☆

ولم يكد ينتهي من إخضاع القبائل المجاورة له حتى بدأ يواجه «طليحة» الذى كان بطلا من قبل وقد جاء ... ... عن دخول المعركة فظل يرقب الحرب ـ وهو بعيد عن الميدان ـ مدثرا فى عباءته

لَقَدْ سَفَرَتْ بِمِلَّتِكَ اللَّيَالِى ... لَنَا عَنْ وَجْهِ حَادِثَةٍ وَقَاحِ (١)

كأنما يؤمل أن ينزل وحى من السماء أو تحدث معجزة خارقة ، وقد لبث زمناً طويلا ثم وقعت المعجزة — إذ بدأت تنهزم قبيلته أشنع انهزام — وحينئذ صاح فى جنده « احتذوا حذوى إن استطعتم . »
ثم امتطى جواده وأطلق له العنان وأمعن فى فراره .

⁂

وكانت تلك المعركة التى اصطلاها المسلمون معركة مروعة هائلة ، وفى الحق أن الدماء التى أريقت فى هذه الحرب كانت أكثر مما أريق فى تلك الحروب الطاحنة التى نشبت — فيما بعد — بين المسلمين والفرس ، ثم بين المسلمين والامبراطورية الرومانية ، وقد اقترف العرب من الفظائع فى هذه الحرب «حرب الردة» شنعاً لم يعرفها الاسلام قط . وكانوا إذا انهزم العدوّ تعقبوه ونكلوا به . لأن الردة جزاؤها القتل ، لا هوادة فى ذلك ولا رحمة ، وقد بعث أبو بكر إلى خالد يأمره بقوله — :

« عليك بإبادة الكفر بالحديد والنار ، ولا تأخذك رحمة فيهم قط »

⁂

ولقد انهزم أصحاب « مسيلمة » — وكان عددهم زهاء عشرة آلاف مقاتل — ومزّقهم المسلمون شرّ ممزّق ، وغرقت بلاد العرب كلها فى الدماء !

ولكن الاسلام قد خرج من تلك المعارك — الناشبة فى كل مكان — مؤيدا منصورا ، ودان به العرب بعد ذلك — طوعا أو كرها — فقد أقنعهم خذلانهم بوجوب الاعتراف بالدين الاسلامى ، إن لم يكن اعتراف المستيقن المؤمن فاعتراف الخائف الذى يعرف قوّة هذا الدين العظيمة التى لا تجدى معها أية مقاومة .

بعد النصر

ولم يكد يتم انتصار أبى بكر حتى وجه هؤلاء البدو الظامئين إلى الدماء ، إلى مهاجمة فارس والامبراطورية الرومانية ، وهذا العمل — عند من ينظر إلى ظواهر الأمور وحدها — جرأة وتهور ، ولكنه — على الحقيقة — رزانة وتعقل .

وإنما سار أبو بكر فى هذا على خطة النبى صلى الله عليه وسلم التى كان يتبعها ، وهى أن يشغل العرب عن التفكير فى خضوعهم ولا يدع لهم وقتاً كافياً لذلك ، وقد رأى أن خير ما يربطهم بالاسلام لا يكون إلا عن طريق الفتح والانتصارات الحربية وما يجره ذلك من الغنائم .

⁂

وهكذا انتهت حروب الردة ولم تقم للمرتدين بعدها قائمة ، فقد كان عقاب الردة القتل ، ومن هنا تظاهر الناس بالاسلام ووقفوا عند هذا الحد .

ونحن — إذا استثنينا صفوة المسلمين ونواتهم المؤلفة من المهاجرين والأنصار وبعض من يمتون إليهم بسبب — لم نجد بعد ذلك من يعرف القرآن وتعاليمه إلا عددا غاية فى القلة . أما العرب الذين استوطنوا أفريقيا فقد ظلوا — حتى بعد مضى قرن من الهجرة — لا يعرفون من الاسلام أكثر من أنه دين أتى بتحريم الخمر .

أما أولئك الذين استوطنوا مصر فانهم ما تحدثوا عن الاسلام أو شغلوا به أنفسهم قط . وكانوا لا يذكرون إلا أيام الوثنية وعهودها الطيبة بالثناء والحنين . »

(١) وقاح : صلبة الوجه لاحياء فيها ، يقال رجل وقيح الوجه ووقاح الوجه صلبه لاحياء فيه ، والأنثى وقاح بغير هاء

أَلَسْتَ مُصِحَّهَا مِنْ كُلِّ دَاءٍ ؟ وَمُبْدِيَ حُسْنِ أَوْجُهِهَا الصِّبَاحِ
وَلَوْ كَشَفَتْ ـ عَنِ الصَّفَحَاتِ ـ شَامَتْ بُرُوقَ المَوْتِ مِنْ بِيضِ الصِّفَاحِ (١)

* * *

وَقَاكَ اللهُ مَا تَخْشَى وَوَالَى عَلَيْكَ بِصُنْعِهِ المُغْدَى المُرَاحِ (٢)
فَلَوْ أَنَّ السَّعَادَةَ سَوَّغَتْنَا تِجَارَتَهَا المُلِمَّةَ بِالرَّبَاحِ
تَجَافَيْنَا عَبِيدَكَ عَنْ نُفُوسٍ ـ عَلَيْكَ مِنَ الضَّنَى ـ حَرَّى شِحَاحِ (٣)
تُهَنَّأُ فِيكَ بِالْبُرْءِ المُوَفَّى وَتُبْهِجُ مِنْكَ بِالأَلَمِ المُزَاحِ

* * *

فَدَيْتُكَ كَمْ لِعَيْنِي مِنْ سُمُوٍّ ـ لَدَيْكَ ـ وَكَمْ لِنَفْسِي مِنْ طِمَاحِ
أَلَا هَلْ جَاءَ مَنْ فَارَقْتُ أَنِّي بِسَاحَاتِ المُنَى رَفْلُ المَرَاحِ (٤)
وَأَنِّي ـ مِنْ ظِلَالِكَ ـ فِي زَمَانٍ نَدِي الآصَالِ رَقْرَاقِ الضَّوَاحِي
تُحَيِّينِي بِرَيْحَانِ التَّحَفِّي وَتُصْبِحُنِي مُعَتَّقَةُ السَّمَاحِ (٥)
فَهَا أَنَا قَدْ ثَمِلْتُ مِنَ الأَيَادِي إِذِ اتَّصَلَ اغْتِبَاقِي فِي اصْطِبَاحِي

---

(١) لو كشفت هذه الليالى ، وأبدت عن صفحة الشر والعداء لشامت سيوف بأس الممدوح تلمع ببروق موت وهلاك تلك الليالى التى فاجأتنا بمرضه ، بعد أن أصحها من كل داء وخلع عليها من الرواء والحسن أبهى رداء .

(٢) وقاك الله ما تخشى من عارض المرض وعصمك من كل محذور ومخوف ، وتعهدك بجميل صنعه المغدى المراح أى الذى يجعله يغدو عليك فى أول النهار ، ويروح فى آخره ، فلا يعمك صنيعه ، ولا يتخلف عنك إحسانه .

(٣) الضنى : السقم ، وحرى : عطشى ، وشحاح : جمع شحيحه من الشح وهو البخل .

(٤) الرفل : جر الذيل وركضه بالرجل ، يقول : ألا هل أتى من فارقت من فتيان « قرطبة » أنى أجر ذيل مرح وأرفل فى ثياب النعمة وغضارة العيش

(٥) التحفى : الحفاوة ، والـ

فَإِنْ أَعجِزْ فَإِنَّ النُّصْحَ ثَقْفٌ ... وَإِنْ أَشْكُرْ فَإِنَّ الشُّكْرَ صَاحِ
لِمَا أَكْسَبْتَ قَدْرِى مِنْ سَنَاءٍ ... وَمَا لَقَّيْتَ سَعْيِي مِنْ نَجَاحِ

***

لَقَدْ أَنفَذْتَ - فى الآمَالِ - حُكْمِي ... وَأَجْرَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى اقْتِرَاحِي
وَهَلْ أَخْشَى وُقُوعًا - دُونَ حَظٍّ - ... إِذَا مَا أَثَّ رِيشُكَ مِنْ جَنَاحِي
فَمَا اسْتَسْقَيْتُ مِنْ غَيْمٍ جَهَامٍ ... وَلاَ اسْتَرْوَيْتُ مِنْ زَنْدٍ شِحَاحِ
وَوَاصَلَنِي جَمِيلُكَ - فى مَغِيبِي - ... وَطَالَعَنِي نَدَاكَ مَعَ انْتِزَاحِي
وَلَمْ أَنفَكَّ - إِذْ عَدَتِ العَوَادِي - ... إِلَيْكَ رَهِينَ شَوْقٍ وَالْتِيَاحِ
فَحَسْبِي أَنْتَ - مِنْ مُسْدٍ لِنُعْمَى - ... وَحَسْبُكَ بِى بِشُكْرٍ وَامْتِدَاحِ

هدية تفاح

« وأهدى إليه تفاحا وأراد أن يكتب معه قطعة ، فبدأ بها ثم عرض له غيرها فتركها . »

دُونَكَ الرَّاحَ جَامِدَهْ ... وَفَدَتْ خَيْرَ وَافِدَهْ
وَجَدَتْ سُوقَ ذَوْبِهَا ... - عِنْدَ تَقْوَاكَ - كَاسِدَهْ
فَاسْتَحَالَتْ إِلَى الجُمُو ... دِ وَجَاءَتْ مُكَايِدَهْ

والقطعة التى بعثت هى هذه

جَاءَتْكَ وَافِدَةُ الشَّمُولْ ... فى المَنْظَرِ الحَسَنِ الجَمِيلْ
لَمْ تَحْظَ ذَائِبَةً لَدَيْكَ ... وَلَمْ تَنَلْ حَظَّ القَبُولْ

فَتَجَامَدَتْ مُحْتَـــالَةً ‌ ‌ ‌ ‌ وَالْمَرْءُ يَعْجِزُ لَاَالحَوِيلْ[١]

لَوْلَا انْقِلَابُ الْعَيْنِ سُـــدَّتْ دُونَ بُغْيَتِهَا السَّبِيلْ[٢]

لَهَجَرْتَهَا صَـــفْرَاءَ فِى ‌ ‌ ‌ ‌ بَيْضَاءَ هَاجِرُهَا قَلِيلْ

الْكَأْسُ مِنْ رَأْدِ الضُّحَى ‌ ‌ ‌ ‌ وَالرَّاحُ مِنْ طَفَلِ الْأَصِيلْ

آثَرْتَ عَائِدَةَ التُّـــقَى ‌ ‌ ‌ ‌ وَرَغِبْتَ فِى الْأَجْرِ الْجَزِيلْ

⁂

يٰأَيُّهَـــا الْمَلِكُ الَّذِى ‌ ‌ ‌ ‌ مَا فِى الْمُلُوكِ لَهُ عَدِيلْ

يَا مَاءَ مُزْنٍ ، يَا شِـــهَا ‌ ‌ ‌ ‌ بَ دُجُنَّةٍ[٣] ، يَالَيْثَ غِيلْ

يَا مَنْ عَجِبْنَا أَنْ يَجُو ‌ ‌ ‌ ‌ دَ بِمِثْلِهِ الزَّمَنُ الْبَخِيلْ

بُشْرَاكَ دُنْيَا غَضَّـــةٌ ‌ ‌ ‌ ‌ فِى ظِلِّ إِقْبَالٍ ظَلِيلْ

رَقَّتْ كَمَا سَالَ الْعِذَا ‌ ‌ ‌ ‌ رُ بِجَانِبِ الخَدِّ الْأَسِيلْ

وَتَأَوَّدَتْ كَالْغُصْنِ قَا ‌ ‌ ‌ ‌ بَلَ عِطْفَهُ نَفَسُ الْقَبُولْ[٤]

يُصْـــبِى مُقَبَّلُهَا الشَّهِىُّ ‌ ‌ ‌ ‌ وَلَحْظُهَا السَّاجِى الْعَلِيلْ

فَتَمَلَّهَا[٥] فِى الْعِزَّةِ الْـــقَعْسَاءِ وَالْعُمْرِ الطَّوِيلْ

---

(١) الحويل : الحيلة ، يقال : احتال احتيالا وحولا وحيلة وحويلا ومحالة ، قال دؤاد يعاتب زوجه :

« حاولت ــ حين صرمتنى ــ ‌ ‌ والمرء يعجز لا المحالة

والدهر يلعب بالفــتى ‌ ‌ والدهر أروغ من ثعاله

والمرء يكسب ماله ‌ ‌ بالشح ، يورثه الكلاله . »

وفى المثل المشهور : « المرء يعجز لا المحالة » أو « لا محالة » فى رواية أخرى ، أى لا تضيق مخارج الأمور إلا على العاجز الذى لا يعرف وجوه الحيل . ويقال : احتال وتحيل وتحوّل ، قال أبو العلاء :

« لا يعجبنك خطيب ــ قام فى ملا ‌ ‌ بخطبــة زان معناها وطولها

فما العظات ــ وإن راعت ــ سوى حيل ‌ ‌ من ذى مقال على ناس تحولها . »

(٢) يقول : لولا انقلاب عينها من ذائبة إلى جامدة لسدت دون ما تبغيه من إهداء نفسها إليك السبيل لأنك لا تبيح لها أن تزور مجلسك وهى ذائبة . ‌ ‌ (٣) يقال يوم دجنة ، والدجنة: الظلمة والغيم المطبق الريان المظلم لا مطر فيه . يقول : إنك نور تبدد الدياجى والظلمات .

(٤) القبول : ريح الصبا ، قالوا وذلك لأنها تقابل الدبور . ‌ ‌ (٥) انعم بها .

شكر على زيارة

« قال يشكر المعتمد على الله أبا القاسم محمد ابن المعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد ، وقد شرفه بالعيادة فى بعض علله . »

لَسْتُ بِالجَاحِدِ آلاءَ الْعِلَلْ ... كَمْ لَهَا مِنْ أَلَمٍ يُدْنِى الْأَمَلْ

أَجْتَلِى – مِنْ أَجْلِهَا – بَدْرَ الْعُلاَ ... مُشْرِقًا فى مَنْزِلِى حِينَ كَمَلْ

حُلَّةٌ أَلْبَسَ عَيْنِى فَخْرَهَا ... فَاغْتَدَتْ تَرْفُلُ فى أَبْهَى الْحُلَلْ

رَفَّ بِشْرُ الْأُفْقِ فى عَيْنِى لَهَا ... لاَ لِأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ فى الْحَمَلْ [1]

مَا أُبَالِى مِنْ زَمَانٍ بَعْدَهَا ... – إِذْ أَصَحَّ النَّفْسَ – إِنْ جِسْمِى أَعَلْ [2]

⁂

أَيُّهَا الْمَوْلَى لَقَدْ حُمِّلْتُ مَا ... لَمْ يَدَعْ فِى وُسْعِ عَبْدٍ مُحْتَمَلْ

وَضَحَ الطَّوْقُ الَّذِى حَلَّيْتَنِى ... فَتَرَاءَتْهُ نُفُوسٌ لاَ مُقَلْ [3]

أَنَا لَوْ طُوِّقْتُ مِنْهُ بَدَلاً ... أَنْجُمَ الْجَوْزَاءِ لَمْ أَرْضَ الْبَدَلْ

كَمْ مَرَادٍ لِىَ – مِنْ نَعْمَائِكُمْ – ... وَارِفِ الظِّلِّ وَكَمْ وِرْدٍ عَلَلْ [4]

لاَ تَزَلْ دَوْلَتُكُمْ مَبْسُوطَةً ... بَسْطَةً فِى طَيِّهَا قَبْضُ الدُّوَلْ

وَرَأَى الْمُعْتَضِدُ الْمَنْصُورُ مَا ... أَنْبَأَتْهُ فِيكَ لَيْتٌ أَوْ لَعَلْ

فَسَتَلْقَاهُ اللَّيَالِى طَلْقَةً ... بِتَفَارِيقِ أَمَانِيهِ جُمَلْ [5]

(١) الحمل : برج فى السماء من البروج الربيعية ، يقول إن الأفق أشرق بنوره وازدان ببهائه لابهاء الشمس التى حلت فى برج الحمل .

(٢) يقول : لا أبالى بعد أن صحت نفسى بزيارته وتشريفه منزلى إن أمرض الدهر جسمى .

(٣) يقول : إن إحسانك الذى طوّقت به عنقى قد وضح للنفوس لا للعيون . وفى الأصل : تماءته من مأى فى الشىء يمأى مأيا بالغ وتمأى الجلد إذا مددته، وقد سبق له هذا المعنى فى قوله :

« يا هلالا تتراءا ه نفوس لاعيون .» انظر صفحة ٣٩ .

(٤) العلل : الشرب الثانى ويقال علل بعد نهل أى شرب ثان بعد شرب أول أى أنه يورد حياض كرمه مرة بعد أخرى .

(٥) أى ستنيله الدهر جملة أمانيه المتفرقة فلا يدع منها شيئا إلا حققه له .

تهنئــــة

« وقال يهنيه أيده الله بقدوم وإبلال » .

اِقْدَمْ كَمَا قَدِمَ الرَّبِيعُ الْبَاكِرُ   وَاُطْلُعْ كَمَا طَلَعَ الصَّبَاحُ الزَّاهِرُ

قَسَمًا لَقَدْ وَفَّى الْمُنَى وَنَفَى الْأَسَى   مَنْ أَقْدَمَ الْبُشْرَى بِأَنَّكَ صَادِرُ

لِيُسَرَّ مُكْتَئِبٌ وَيُغْفِيَ سَاهِرٌ   وَيَرَاحَ مُرْتَقِبٌ وَيُوفِيَ نَاذِرُ

قَفَلٌ وَإِبْلَالٌ ـ عَقِيبَ مُطِيفَةٍ ـ   غَشِيَتْ كَمَا غَشِيَ السَّبِيلَ الْعَابِرُ (١)

إِنْ أَعْنَتَ الْجِسْمَ الْمُكَرَّمَ وَعْكُهَا   فَلَرُبَّمَا وُعِكَ الْهِزَبْرُ الْخَادِرُ (٢)

مَا كَانَ إِلَّا كَالْجِلَاءِ غِيَابَةً   لَبِسَ الْفِرِنْدَ بِهَا الْحُسَامُ الْبَاتِرُ (٣)

فَلْتَغْدُ أَلْسِنَةُ الْأَنَامِ وَدَأْبُهَا   شُكْرٌ يُجَاذِبُهُ الْخَطِيبَ الشَّاعِرُ

إِنْ كَانَ أَسْعَدَ ـ مِنْ وُصُولِكَ ـ طَالِعٌ   فَكَذَاكَ أَيْمَنَ مِنْ قُفُولِكَ (٤) طَائِرُ

أَضْحَى الزَّمَانُ نَهَارُهُ كَافُورَةٌ   وَاللَّيْلُ مِسْكٌ ـ مِنْ خِلَالِكَ ـ عَاطِرُ

قَدْ كَانَ هَجْرِي الشِّعْرَ ـ قَبْلُ ـ صَرِيمَةً (٥)   حَذَرِي لِذَاكَ النَّقْدِ فِيهَا عَاذِرُ

حَتَّى إِذَا آنَسْتُ أَوْبَكَ بَارِئًا   صَفَتِ الْقَرِيحَةُ وَاسْتَنَارَ الْخَاطِرُ (٦)

عِيٌّ قَلَبْتَ إِلَى الْبَلَاغَةِ عِيَّهُ   لَوْلَا تُقَاكَ لَقُلْتُ : إِنَّكَ سَاحِرُ (٧)

لَقَّحْتَ ذِهْنِي ، فَاجْنِ غَضَّ ثِمَارِهِ   فَالنَّخْلُ يُحْرِزُ مُجْتَنَاهُ الْآبِرُ (٨)

---

(١) يقول : قدوم من السفر ، وإبلال من المرض عقيب علة أطافت بك وغشيتك غشيان عابر سبيل .

(٢) الوعك : الحمى أو ألمها والموعوك المحموم ، والخادر : الفاتر الكسلان ، والأسد الخادر : المقيم فى خدره أي الذى لزم عرينه . (٣) يقول : لم يكن المرض إلا فترة عاد بعدها الحسام إلى حلائه وورونقه .

(٤) رجوعك . (٥) الصريمة : العزيمة ، يقال : « هو رجل ذوصريمة وصرائم » أى ذو عزيمة ، يقول : إنى هجرت قبل قدومك الشعر هجرا صارما قاطعاً ، وعذرى فى ذلك واضح وهو ما كنت أحذره من ذلك النقد الذى يتعرض له شعرى ،أما الآن فقد صفت القريحة لأوبتك بارئاً. (٦) يقول كنت اعتزمت هجراً بشعر حتى إذ آنس خاطرى إيابك من سفرك صفت قريحتى وشحذ فكرى فتفتحت أمامى طرق الشعر .

(٧) يقول إنك ألهمت العيي بالبيان فعاد بليغا ولولا أنك تقى لاتهمتك بالسحر فى ذلك . وفى الأصل : « عى رددت إلى البلاغة عيه . »

(٨) يقال لقح النخلة وألقحها وألقح الفحل الناقة أحبلها ، وألقحت الريح الشجر والسحاب أحملتها ، واللواقح من الرياح : التى تحمل الندى ثم تمجه فى السحاب فإذا اجتمع فى السحاب صار مطراً ، يقول إنك : لقحت ذهنى ـ كما يلقح الزارع النخلة ـ فأتى بأحسن الثمر وأشهاه ،فأنت أحق باجتناء الثمر لأنك فارسه ومتعهده .

كَمْ قَدْ شَكَرْتُكَ ـ غِبَّ ذِكْرِكَ ـ فَانْتَشَى مُتَذَكِّرٌ مِنِّي وَغَرَّدَ شَاكِرُ (١)

***

يَأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي عَلْيَاؤُهُ مَثَلٌ ـ تَنَاقَلُهُ اللَّيَالِي ـ سَائِرُ

يَا مَنْ لِبَرْقِ الْبِشْرِ مِنْهُ تَهَلُّلٌ مَا شِيمَ إِلاَّ أَنْهَلَّ جُودٌ هَامِرُ

أَنْتَ ابْنُ مَنْ مَجَدَ الْمُلُوكَ ، فَإِنْ يَكُنْ لِلْمَجْدِ عَيْنٌ فَهُوَ مِنْهَا نَاظِرُ

مَلِكٌ أَغَرُّ ازْدَانَتِ الدُّنْيَا بِهِ وَأَعَزَّ دِينَ اللهِ مِنْهُ نَاصِرُ

أَبْنَاكَ فِي ثَبَجِ الْمَجَرَّةِ قُبَّةً فَهَنَاكَ أَنَّكَ لِلنُّجُومِ مُخَاصِرُ (٢)

وَتَلَقَّ ـ مِنْ سِمَتَيْكَ ـ صِدْقَ تَفَاؤُلِي فَهُمَا « الْمُؤَيَّدُ » بِالْإِلَهِ « الظَّافِرُ » (٣)

ابتداء قصيد

« وقال ابتداء قصيد اعتقد إنفاذه إليه وقد طالت غيبته فى بعض أسفاره ولم يكلمه . »

سَأُهْدِي النَّفْسَ فِي نَفَسِ الشَّمَالِ فَقَدْ لَقِحَ التَّشَوُّقُ عَنْ خِيَالِ

إِلَى الشَّثْنِ الْعَزَائِمِ ـ إِنْ أُثِيرَتْ حَفِيظَتُهُ ـ إِلَى اللَّدْنِ الْخِلاَلِ (٤)

إِلَى الْوَضَّاحِ آثَارَ الْمَسَاعِي ، إِلَى النَّفَّاحِ أَخْبَارَ الْمَعَالِي

إِلَى مَلِكٍ هُوَ الْمَعْنَى الْمُجَلَّى بِهِ الْإِشْكَالُ مِنْ لَفْظِ الْكَمَالِ

إِلَى مَنْ لاَ مَثِيلَ لَهُ إِذَا مَا بَدَا فِي السَّرْجِ أَوْ فَوْقَ الْمِثَالِ

هَدِيَّةُ مَنْ ـ لَوَ انَّ الدَّهْرَ سَنَّى مُنَاهُ ـ هَدَى إِلَيْكَ سُرَى الْخَيَالِ

فَكَمْ بَوَّأْتَنِي سَاحَاتِ نُعْمَى عِذَابِ الْوِرْدِ وَارِفَةِ الظِّلاَلِ

---

(١) يقول ما شكرتك عقب ذكراك إلا ثملت من نشوة المرح وغردت بالثناء عليك . وفى الأصل : « وعوبد شا كر . »

(٢) تبج المجرة وسطها أو أعلا مكان فيها ، وتخاصر : أى تمشى الى جنبها ، يقول: « لقد بى لك أبوك قبة فى ذروة المجرة فهنيئا لك هذا المقام الرفيع الذى تخاصر فيه النجوم فى عليائها. »

(٣) يقول : ثق بتفاؤلى فيك فسيحقق الله صدق لقبيك وهما المؤيد والمنصور فيؤيدك وينصرك على أعدائك.

(٤) إلى ذى العزيمة القوية إن هاجه مثير والخلال المرضية السمحة إذا لاينه سالم ، وقريب من هذا قول ابن دريد :

« سهل إذا لوينت لدن معطف ألوى ـ إذا خوشنت ـ مرهوب الشذا. »

إلى أبى القاسم

« كتب إلى أبى القاسم بن رفق »

عِذَرِى[1] ـ إنْ عذَلْتَ فى خَلْعِ عُذْرِى[2] ـ غُصُنٌ أَثمرَتْ ذُرَاهُ بِبَدْرِ[3]

هَزَّ مِنْهُ الصِّـبَا فقَوَّمَ شَطْراً وَتَجافَى ـ عَنِ الْوِشَاحِ ـ بِشَطْرِ

رَشَأٌ أَقْصَدَ[4] الجَوَانِحَ قَصْدًا عَنْ جُفُونٍ كُحِلْنَ ـ عَمْداً ـ بِسِحْرِ

كُسِيَ الحُسْنَ فَهْوَ يَفْتَنُّ فِيهِ سَاحِباً ذَيْلَ بُرْدِهِ الْمُسْبَكِرِّ[5]

تَحْتَ ظِلٍّ ـ مِنَ الْغَرَارَةِ ـ فَيْنَا نَ وَوُرْقٍ[6] مِنَ الشَّبِيبَةِ نُضْرِ

أَبْرَزَ الْجِيدَ فى غَلَائِلَ بِيضٍ وَجَلَا الخَدَّ فى مَجَاسِدَ حُمْرِ[7]

وَتَثَنَّتْ بِعِطْفِهِ ـ إذْ تَهَادَى ـ خَطْرَةٌ تَمْزُجُ الدَّلَالَ بِكِبْرِ

زَارَنِى ـ بَعْدَ هَجْعَةٍ ـ وَالثُّرَيَّا رَاحَةٌ تَقْدُرُ[8] الظَّلَامَ بِشِبْرِ

وَالدُّجَا ـ مِنْ نُجُومِهِ ـ فى عُقُودٍ يَتَلَأْلَأْنَ مِنْ سِمَاكٍ وَنَسْرِ

تَحْسَبُ الْأُفْقَ بَيْنَهَا لَازَوَرْدًا نُثِرَتْ ـ فَوْقَهُ ـ دَنَانِيرُ تِبْرِ

فَرَشَفْتُ الرُّضَابَ أَعْذَبَ رَشْفٍ وَهَصَرْتُ الْقَضِيبَ أَلْطَفَ هَصْرِ

---

(١) عذر ـ جمع عذرة بالكسر ـ أى معاذير . (٢) عذر : بضم أوله وثانيه جمع عذار وهو الحياء ، وخلع العذار أى ترك الحياء .

(٣) يقول إننى إذا خلعت عذارى فى الهوى فان معاذيرى واضحة فقد فتننى قوامه المياد الذى يشبه الغصن ووجهه المضىء كالبدر . (٤) يقال أقصد فلانا : طعنه فلم يخطئه .

(٥) المسبكر : المسترسل ، والمسبكر كل شىء امتدّ وطال .

(٦) الورق الحمائم التى يضرب لونها إلى خضرة ، قال جران العود :

« وكان فؤادى قد صحاء ثم هاجنى حمائم ورق بالمدينة هتف . »

(٧) المجاسد ـ جمع مجسد ـ وهو القميص الذى يلى البدن ، قال ابن الأعرابى : « ولا تخرجنّ إلى المساجد بالمجاسد » (٨) تقيس .

وَنَعِمْنَا بِلَفٍّ جِسْمٍ بِجِسْمٍ ـ لِلتَّصَافِي ـ وَقَرْعِ ثَغْرٍ بِثَغْرِ
يَالَهَا ! لَيْـــلَةً تَجَلَّى دُجَاهَا ـ مِنْ سَنَا وَجْنَتَيْهِ ـ عَنْ ضَوْءِ فَجْرِ
قَصَّرَ الوَصْلُ عُمْـــرَهَا، وَبِوُدِّي أَنْ يَطُولَ الْقَصِيرُ مِنْهَا بِعُمْرِي

***

مَنْ عَذِيرِي مِنْ رَيْبِ دَهْرٍ خَئُونٍ ـ كُلَّ يَوْمٍ ـ أُرَاعُ مِنْهُ بِغَدْرِ
كُلَّمَا قُلْتُ : « حَاكَ فِيهِ مَلاَمِي » نَهَسَتْنِي مِنْهُ عَقَارِبُ تَسْرِي [(١)]
وَتَرَتْنِي خُطُوبُهُ فِي صَـــفِيٍّ فَاضِلٍ نَابِهٍ ـ مِنَ الدَّهْرِ ـ وِتْرِ [(٢)]
بَانَ عَنِّي ـ وَكَانَ رَوْضَةَ عَيْنِي ـ فَغَدَا الْيَوْمَ وَهْوَ رَوْضَةُ فِكْرِي [(٣)]
فَـــكِهٌ يُبْهِجُ الْخَلِيلَ بِوَجْهٍ تَرِدُ الْعَيْنُ مِنْهُ يَنْبُوعَ بِشْرِ
لَوْذَعِيٌّ ـ إِنْ يَبْلُهُ الْخُبْرُ يَوْمًا ـ أَخْجَلَ الْوَرْدَ عَنْ خَلاَئِقَ زُهْرِ
وَإِذَا غَازَلَتْهُ مُقْـــلَةُ طَرْفٍ كَادَ ـ مِنْ رِقَّةٍ يَذُوبُ ـ فَيَجْرِي [(٤)]

***

يَا «أَبَا الْقَاسِمِ» الَّذِي كَانَ رِدْئِي وَظَهِيرِي ـ عَلَى الزَّمَانِ ـ وَذُخْرِي

---

(١) حاك : رسخ أو أثر فيه ، ونهستنى : عضتنى، يقول : « كلما قلت إن زمانى قد ارعوى وأثر فيه عتابى ظهر لى خطئى فى ظنى وعضتنى عقارب لوم تدب إلى وتسرى فى الظلام من عقارب دهرى » ولله در أبو العلاء إذ يقول فى الزمن :

« وغيظ بنوه منه ، وغيظ منهم معـــد ساكنيه ومعـدبوه
وما يخشى الوعيـــد فيوعدوه ولا يرعى العتاب فيعتبـوه
أساء ـ بجهله ـ أدبا عليهم فهل من حيلة فيؤدبوه . »

(٢) وتر : فذ . (٣) كنت أراه أمامى فتنعم به عيناى واليوم لا أراه ـ بعد نأيه ـ فأصبح ينعم خاطرى بذكراه .

(٤) يقول إنه كاد من رقته يسيل . وقريب من هذا المعنى قول ابن الرومى :

« أيضيمنى خنث الشمائل ـ لو نضا عنه غلالته ـ حساه الحاسى . »

يَا أَحَق الْوَرَى بِمَمْحُوضِ إِخْلاَ صِى وأَوْلاَهُمُ بِغَايَةِ شُكْرِى
طَرَقَ الدَّهْرُ سَاحَتِي – مِنْ تَنَائِيكَ – بِجَهْمٍ مِنَ الحَوَادِثِ نُكْرِ

* * *

لَيْتَ شِعْرِى ! وَالنَّفْسُ تَعْلَمُ أَنْ لَيْسَ بِمُجْدٍ عَلَى الْفَتَى : «لَيْتَ شِعْرِى»[1]
هَلْ لِحَالِى زَمَانِنَا مِنْ رُجُوعٍ ؟ أَمْ لِمَاضِى زَمَانِنَا مِنْ مَكَرٍّ ؟

* * *

أَيْنَ أَيَّامُنَا وَأَيْنَ لَيَالٍ كَرِيَاضٍ لَبِسْنَ أَفْوَافَ زَهْرِ
وَزَمَانٌ كَأَنَّمَا دَبَّ فِيهِ وَسَنٌ أَوْ هَفَا بِهِ فَرْطُ سُكْرِ
حِينَ نَغْدُو إِلَى جَدَاوِلَ زُرْقٍ يَتَغَلْغَلْنَ فِى حَدَائِقَ خُضْرِ
فِى هِضَابٍ – مَجْلُوَّةِ الحُسْنِ – حُمْرٍ وَبَوَادٍ – مَصْقُولَةِ النَّبْتِ – عُفْرِ
نَتَعَاطَى الشَّمُولَ – مُذْهِبَةَ السِّرْ بَالِ – وَالجَوُّ فِى مَطَارِفِ[2] غُبْرِ
فِى فُتُوٍّ[3] تَوَشَّحُوا بِالمَعَالِى وَتَرَدَّوْا بِكُلِّ مَجْدٍ وَفَخْرِ
وَضَّحٌ تَنْجَلِى الْغَيَاهِبُ مِنْهُمْ عَنْ وُجُوهٍ – مِثْلِ المَصَابِيحِ – غُرِّ
كُلُّ خِرْقٍ يَكَادُ يَنْهَلُّ ظَرْفاً زَانَ مَرْأَى بِهِ بِأَكْرَمِ خُبْرِ[4]

---

(١) يقول «ليت شعرى ، وإن كنت أعلم أنها غير مجدية ، قال ابن الرومى :
« يا ليت شعرى وليت غير مجدية إلا لاستراحة قلب وهو اسوان . »
وقال الشاعر :
« ليت وهل ينفع شيئا « ليت » ليت شبابا بيع فاشتريت . »
(٢) مطارف – جمع مطرف بضم الميم وكسرها – مع فتح الراء فى كليهما – : رداء مربع من خز ذو أعلام . (٣) فتو – جمع فتى وهو يجمع على فتيان وفتو وفتى بتشديد الواو والياء .
(٤) الخرق : من الفتيان الظريف فى سماحة ونجدة ، وينهل : يريد يكاد يسيل رقة وظرفا ، وقد جاء بعد هذا البيت قوله :
« . . . . محص حالى نفح المسك عرفها طيب نشر . »
وقد أثبتناه كما ورد ناقصاً بالأصل .

وَسَــجَايَا كَأَنَّهُنَّ كُئُوسٌ أَوْ رِيَاضٌ قَدْ جَادَهَا صَوْبُ قَطْرِ
يَتَلَقَّى الْقَبُولَ مِــنِّى قَبُولٌ كُلَّمَا رَاحَ نَفْحُهَا أَرْتَاحَ صَدْرِى
فَهْوَ يَسْرِى مُحَمَّلاً ـ مِنْ سَجَايَا كَ ـ نَسِيمًا يُزْهَى بِأَفْوَحِ عِطْرِ

***

يَا خَلِيــلِى وَوَاحِدِى وَالْمُعَلَّى مِنْ قِدَاحِى (١) وَالْمُسْتَبَدَّ بِبِرِّى
لاَ يَضَعْ وُدِّىَ الصَّرِيحُ الَّذِى أَرْ ضَاكَ مِنْهُ اسْتِوَاءُ سِرِّى وَجَهْرِى
وَتَوَالِى أَذِمَّــةٍ نَظَمَتْنَا نَظْمَ عِقْدِ الْجُمَانِ فِى نَحْرِ بِكْرِ
لاَ يَكُنْ قَصْرُكَ الْجَفَاءَ ، فَإِنَّ الْــوُدَّ ـ إِنْ سَاعَدَتْ حَيَاتِىَ ـ قَصْرِى (٢)
وَأَعِدْ ـ بِالْجَوَابِ ـ دَوْلَةَ أُنْسٍ قَدْ تَقَضَّتْ إِلاَّ عُلاَلَةَ ذِكْرِ (٣)
وَاكْسُ مَتْنَ الْقِرْطَاسِ دِيبَاجَ لَفْظٍ يَبْهَرُ الْفِكْرَ مِنْ نَظِيمٍ وَنَثْرِ
غُرَرٌ مِنْ بَدَائِعٍ لاَ يَشُكُّ الدَّهْرُ فِى أَنَّهَــا قَلاَئِدُ دُرِّ
تَتَوَالَى عَلَى النُّفُوسِ دِرَاكًا عَنْ فَتًى مُوسِرٍ ـ مِنَ الطَّبْعِ ـ مُثْرِ
شَدَّ فِى حَلْبَةِ الْبَلاَغَةِ حَــتَّى بَانَ فِيهَا عَنْ شَأْوِ سَهْلٍ وَعَمْرِو
وَإِذَا أَنْتَ لَمْ تُعَجِّلْ جَوَابِى كَانَ هٰذَا الْكِتَابُ بَيْضَةَ عُقْرِ (٤)
فَابْقَ ـ فِى ذِمَّةِ السَّلاَمَةِ ـ مَا أَنْجَا بَ عَنِ الْأُفْقِ عَارِضٌ مُتَسَرِّ
وَعَلَيْكَ السَّــلاَمُ مَا غَنَّتِ الْوُرْ قُ وَمَالَتْ بِهَا ذَوَائِبُ سِدْرِ (٥)

---

(١) أى القدح المعلى . (٢) يقول : لا يكن قصاراك الجفاء فان قصاراى الوداد أى لا تكن غايتك قطيعتى فان غايتى وصلك .

(٣) يقول : أعد عهد الأنس الذى مضى ولم يترك لنا إلا ذكريات نتعلل بها .

(٤) إذا لم تعجل بارسال الرد على كتابى كان هذا آخر كتاب أبعث به إليك .

(٥) السدر : شجر النبق يقول : « تحيتى إليك كلما غنت الحمائم ومالت بها أغصان الشجر » .

مدح ابن جهور ورثاء أمه

« كرّر ابن زيدون فى هذه القصيدة أكثر الابيات السابقة التى ذكرناها فى ص« ١٤٠ » من هذا الديوان . »

هوَ الدَّهرُ فاصْبِرْ للَّذِي أَحدَثَ الدَّهرُ — فَمِنْ شِيَمِ الأَبْرَارِ ـ فى مِثْلِهَا ـ الصَّبْرُ

سَتَصْبِرُ صَبْرَ الْيَأْسِ أَوْ صَبْرَ حِسْبَةٍ — فَلاَ تَرْضَ بِالصَّبْرِ الَّذِى مَعَهُ وِزْرُ

حِذَارَكَ مِنْ أَنْ يُعْقِبَ الرُّزْءُ فِتْنَةً — يَضِيقُ لَهَا ـ عَنْ مِثْلِ أَخْلاَقِكَ ـ الْعُذْرُ

إِذَا أَسِفَ الثُّكْلَ اللَّبِيبُ فَشَفَّهُ — رَأَى أَبْرَحَ الثُّكْلَيْنِ أَنْ يَحْبَطَ الأَجْرُ

مُصَابُ الَّذِى يَأْسَى بِمَيْتٍ ثَوَابِهِ — هُوَ الْبَرْحُ لاَ الْمَيْتُ الَّذِى أَحْرَزَ الْقَبْرُ

* * *

حَيَاةُ الْوَرَى نَهْجٌ إِلَى المَوْتِ مَهْيَعٌ — لَهُمْ فِيهِ إِيضَاعٌ كَمَا يُوضِعُ السَّفْرُ

فَيَاهَادِىَ الْمِنْهَاجِ جُرْتَ فَإِنَّمَا — هُوَ الْفَجْرُ يَهْدِيكَ الصِّرَاطَ أَوِ الْبَجْرُ

لَنَا ـ فِى سِوَانَا ـ عِبْرَةٌ غَيْرَ أَنَّنَا — نُغَرُّ بِأَطْمَاعِ الأَمَانِى فَنَغْتَرُّ

إِذَا المَوْتُ أَضْحَى قَصْرَ كُلِّ مُعَمَّرٍ — فَإِنَّ سَوَاءً طَالَ أَوْ قَصُرَ الْعُمْرُ

* * *

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدِّينَ رِيعَ ذِمَارُهُ — فَلَمْ يُغْنِ أَنْصَارٌ عَدِيدٌ وَلاَ وَفْرُ

بِحَيْثُ اسْتَقَلَّ الْمُلْكُ ثَانِىَ عِطْفِهِ — وَجَرَّرَ مِنْ أَذْيَالِهِ الْعَسْكَرُ المَجْرُ

هُوَ الضَّيْمُ لَوْ غَيْرُ الْقَضَاءِ يَرُومُهُ — شَآهُ المَرَامُ الصَّعْبُ وَالمَسْلَكُ الْوَعْرُ

إِذَا عَثَرَتْ جُرْدُ السَّوَابِحِ فِى الْقَنَا بِلَيْلٍ عَجَاجٍ لَيْسَ يَصْدَعُهُ فَجْرُ
لَقَدْ بَكَرَ النَّاعِى عَلَيْنَا بِدَعْوَةٍ عَوَانٍ أَمَضَّتْنَا لَهَا لَوْعَةٌ بِكْرُ

* * *

أَأَنْفَسُ نَفْسٍ ـ فِى الْوَرَى ـ أَقْصَدَ الرَّدَى ؟ وَأَخْطَرُ عِلْقٍ ـ لِلْهُدَى ـ أَهْلَكَ الدَّهْرُ ؟
هَنِيئًا لِبَطْنِ الْأَرْضِ أُنْسٌ مُجَدَّدٌ بِثَاوِيَةٍ حَلَّتْهُ فَاسْتَوْحَشَ الظَّهْرُ
بِطَاهِرَةِ الْأَثْوَابِ ، قَانِتَةِ الضُّحَى مُسَبِّحَةِ الآنَاءِ ، مِحْرَابُهَا الْخِدْرُ
فَإِنْ أُنْثِيَتْ فَالنَّفْسُ أُنْثَى نَفِيسَةٍ إِذِ الْجِسْمُ لَا يَسْمُو لِتَذْكِيرِهِ ذِكْرُ
حَصَانٌ ـ إِنِ التَّقْوَى اسْتَبَدَّتْ بِسِرِّهَا ـ فَمِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ يُسْتَوْضَحُ الْجَهْرُ
يُطَأْطَأُ سِتْرُ الصَّوْنِ دُونَ حِجَابِهَا فَيُرْفَعُ ـ عَنْ مَثْنَى نَوَافِلِهَا ـ السِّتْرُ

* * *

لَعَمْرُ الْبُرُودِ الْبِيضِ فِى ذَلِكَ الثَّرَى لَقَدْ أُدْرِجَتْ ـ أَثْنَاءَهَا ـ النِّعَمُ الْخُضْرُ
عَلَيْهَا سَلَامُ اللّٰهِ تَتْرَى تَحِيَّةً يُنَسِّمُهَا الْغُفْرَانُ رَيْحَانُهَا النَّضْرُ
وَعَاهَدَ تِلْكَ الْأَرْضَ عَهْدُ غَمَامَةٍ إِذَا اسْتَعْبَرَتْ فِى تُرْبِهَا ابْتَسَمَ الزَّهْرُ

* * *

فَدَيْنَاكَ ، إِنَّ الرُّزْءَ كَانَ غَمَامَةً طَلَعْتَ لَنَا فِيهَا كَمَا يَطْلُعُ الْبَدْرُ
أَلَسْتَ الَّذِى ـ إِنْ ضَاقَ ذَرْعٌ بِحَادِثٍ ـ تَبَلَّجَ مِنْهُ الْوَجْهُ وَاتَّسَعَ الصَّدْرُ
تَعَزَّ بِحَوَّاءَ ـ الَّتِى الْخَلْقُ نَسْلُهَا ـ فَمَنْ دُونَهَا فِى الْعَصْرِ يَتْبَعُهُ الْعَصْرُ
نِسَاءُ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى أُمَّهَاتُنَا ثَوَيْنَ فَمَغْنَاهُنَّ ـ مُذْ حُقُبٍ ـ قَفْرُ
وَجَارَتُهَا الْحُسْنَى ، فَأُمٌّ شَفِيقَةٌ تَحَفَّى بِهَا ابْنٌ كُلُّ أَفْعَالِهِ بِرُّ

تَمَنَّتْ وَفَاةً ـ فى حياتِكَ ـ بَعْدَ مَا ... تَوَالَتْ ـ كَنَظْمِ العِقْدِ ـ آمالُهَا النَّثْرُ

كَأَنَّ الرَّدَى نَذْرٌ عَلَيْهَا مُؤَكَّدٌ ... فَإِنْ أُسْعِفَتْ بِالْحَظِّ فِيكَ وَفَى النَّذْرُ

تَوَلَّتْ فَأَبْقَتْ ـ مِنْ مُجَابِ دُعَائِهَا ـ ... نَفَائِسَ ذُخْرٍ مَا يُقَاسُ بِهِ ذُخْرُ

تَتِمُّ بِهِ النُّعْمَى، وَتَتَّسِقُ الْمُنَى، ... وَتُسْتَدْفَعُ الْبَلْوَى، وَيُسْتَقْبَلُ الصَّبْرُ

فَلاَ تَهِضِ الدُّنْيَا جَنَاحَكَ بَعْدَهَا ... فَمِنْكَ ـ لِمَنْ هَاضَتْ نَوَائِبُهَا ـ جَبْرُ

وَلاَ زِلْتَ مَوْفُورَ الْعَدِيدِ بِقُرَّةٍ ... لِعَيْنَيْكَ مَشْدُودٍ بِهِمْ ذَلِكَ الأَزْرُ

* * *

بَنِى «جَهْوَرٍ» أَنْتُمْ سَمَاءُ رِيَاسَةٍ ... لِعَافِيكُمُ ـ فى أُفْقِهَا ـ أَنْجُمٌ زُهْرُ

تَرَى الدَّهْرَ ـ إِنْ يَبْطِشْ ـ فَمِنْكُمْ يَمِينُهُ ... وَإِنْ تَضْحَكِ الدُّنْيَا فَأَنْتُمْ لَهَا ثَغْرُ

لَكُمْ كُلُّ رَقْرَاقِ السَّمَاحِ كَأَنَّهُ ... حُسَامٌ عَلَيْهِ ـ مِنْ طَلاَقَتِهِ ـ أَثْرُ

سَحَائِبُ نُعْمَى أَبْرَقَتْ وَتَدَفَّقَتْ ... فَصَيِّبُهَا الْجَدْوَى، وَبَارِقُهَا الْبِشْرُ

إِذَا مَاذُكِرْتُمْ، وَاسْتُشِفَّتْ خِلاَلُكُمْ ... تَضَوَّعَتِ الأَخْبَارُ، وَاسْتُمْجِدَ الْخُبْرُ

طَرِيقَتُكُمْ مُثْلَى، وَهَدْيُكُمُ رِضًى ... وَنَائِلُكُمْ غَمْرٌ، وَمَذْهَبُكُمْ قَصْرُ

وَكَمْ سَائِلٍ ـ بِالْغَيْبِ عَنْكُمْ ـ أَجَبْتُهُ ... هُنَاكَ الأَيَادِى الشَّفْعُ وَالسُّودَدُ الْوِتْرُ

عَطَاءٌ وَلاَ مَنٌّ، وَحُكْمٌ وَلاَ هَوًى ... وَحِلْمٌ وَلاَ عَجْزٌ، وَعِزٌّ وَلاَ كِبْرُ

قَدِ اسْتَوْفَتِ النَّعْمَاءُ فِيكُمْ تَمَامَهَا ... عَلَيْنَا، فَمِنَّا الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالشُّكْرُ

فى مدح ابن جهـــور

« قال يمدح أبا الحزم بن جهور . »

أَجَلْ ، إنَّ لَيْلَى حَيْثُ أَحْيَاؤُهَا الأَسْدُ   مَهَاةٌ حَمَتْهَا ـ فى مَرَاتِعِهَا ـ أُسْدُ (١)
يَمَـــانِيَةٌ تَدْنُو وَيَنْأَى مَزَارُهَا   فَسِيَّانِ مِنْهَا فى الْهَوَى الْقُرْبُ وَالْبُعْدُ (٢)
إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهَا تَمَرَّدَ « مَارِدٌ »   وَعَزَّ ـ فَلَمْ نَظْفَرْ بِهِ ـ « الأَبْلَقُ الْفَرْدُ » (٣)
تَحُولُ رِمَاحُ الخَطِّ دُونَ اعْتِيَادِهَا   وَخَيْلٌ تَمَطَّى نَحْوَ غَايَاتِهَا جُرْدُ
لِحَيٍّ لَقَاحٍ تَأْنَفُ الضَّيْمَ مِنْهُمُ   جَحَاجِحَةٌ شِيبٌ وَصُيَّابَةٌ مُرْدُ (٤)
أَبٌ ذُو اعْتِزَامٍ ، أَوْ أَخٌ ذُو تَسَرُّعٍ   فَشَيْحَانُ مَاضِى الْهَمِّ ، أَوْ فَاتِكٌ جَلْدُ
فَمَا شِيمَ مِنْ ذى الْهَبَّةِ الصَّارِمِ الشَّبَا   وَلاَ حُطَّ عَنْ ذِى الْمَيْعَةِ السَّابِحِ اللِّبْدُ

* * *

وَفى الْكِلَّةِ الْحَمْرَاءِ وَسْطَ قِبَابِهِمْ   فَتَاةٌ كَمِثْلِ الْبَدْرِ قَابَلَهُ السَّعْدُ

---

(١) الأسد : لغة فى الأزد ، والأسد : الأسود ، يقول : نعم إن ليلى من قبيلة الأزد وهى ظبية تحميها الأسود وتذود عنها .

(٢) يقول إن قربها وبعدها سيان لأن وصلها ـ على القرب ، والبعد ـ بعيد المنال ، وما أجمل قول المعرى :

« فيادارها بالخيف ، إن مزارها   قريب ولكن دون ذلك أهوال . »

(٣) الأبلق الفرد : حصن السموءل بن عاديا بناه أبوه . وقالوا بل بناه سليمان ـ عليه السلام ـ بأرض تيماء ، وقصدته الزباء فعجزت عنه وعن مارد ، فقالوا : « تمرد مارد ، وعز الأبلق . » وفى هذا الحصن يقول السموءل ـ من لاميته الرائعة المشهورة :

« لنا جبل يحتله من نجيره   منيع ، يرد الطرف وهو كليل
هو الأبلق الفرد الذى شاع ذكره   يعز ـ على من رامه ـ ويطول . »

(٤) الحى اللقاح : هم الذين لايدينون للملوك ولا يؤدون لهم الاتاوة ، والجحاجحة : جمع جحجح ، وهو السيد السمح أو هو الكريم وهو وصف خاص بالرجال ، قال الشاعر : « بيض فطارقة غلب جحاجحة . » ويجمع أيضاً على جحاجح ، قال ابن الزبعرى :

« ماذا ببدر فالعقـــنقل من مرازبة جحاجح . »

صيابة القوم وصوابتهم : لبابهم .

عَقِيلَةُ سِرْبٍ لاَ الْأَرَاكُ مَرَادُهُ ... وَلاَ قِمْنٌ مِنْهُ الْبَرِيرُ وَلاَ الْمَرْدُ (١)

تَهَادَى فَيُضْنِيهَا الْوِشَاحُ غَرِيرَةٌ ... تَأَوَّهُ مَهْمَا نَاسَ (٢) فِى جِيدِهَا الْعِقْدُ

إِذَا اسْتُحْفِظَتْ سِرَّ السُّرَى جُنْحَ لَيْلِهَا ... تَنَاسَى النَّمُومَانِ : الْأُلُوَّةُ ، وَالنَّدُّ (٣)

لَهَا عِدَةٌ بِالْوَصْلِ ، يُوعِدُ غِبَّهَا ... مَصَالِيتُ ، يُنْسِى - فِى وَعِيدِهِمِ - الْوَعْدُ

عَزِيزٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعُودَ خَيَالُهَا ... فَيُسْعِفَ مِنْهَا نَائِلٌ فِى الْكَرَى ثَمْدُ (٤)

كَفَى لَوْعَةً أَنَّ الْوِصَالَ نَسِيئَةٌ ... يُطِيلُ عَنَاءَ الْمُقْتَضِى وَالْهَوَى نَقْدُ (٥)

سَتُبْلِغُهَا عَنَّا الشَّمَالُ تَحِيَّةً ... نَوَافِحُ أَنْفَاسِ الْجَنُوبِ لَهَا رَدُّ (٦)

فَمَا نُسِىَ الْإِلْفُ الَّذِى كَانَ بَيْنَنَا ... - لِطُولِ تَنَائِينَا - وَلاَ ضُيِّعَ الْعَهْدُ

***

لَئِنْ قِيلَ : « فِى الْجِدِّ النَّجَاحُ لِطَالِبٍ » ... لَقَلَّ غَنَاءُ الْجِدِّ مَا لَمْ يَكُنْ جَدٌّ (٧)

---

(١) المرد : الغض من ثمر الأراك أو نضيجه . (٢) ناس : الشيء ينوس نوساً ونوساناً تحرك وتذبذب واضطرب متدلياً ، وسمى ذو نواس - وهو من ملوك اليمن بذلك لذؤابتين كانتا تنوسان على ظهره .

(٣) الألوة : عود هندى يتبخر به ، وقال أعرابى حين مر على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يدفن :

« ألا جعلتم رسول الله فى سفط من الألوة أحوى ملبساً ذهبا . »

والند : ضرب من الطيب .

(٤) ثمد : قليل ، يقول وهم يستكثرون علينا أن يزورنا خيالها فيسعفنا بالوصال فى فترات الكرى المتقطعة القليلة . (٥) يقول : كفانا ألماً أنها لا تمن علينا بالوصال إلا وعوداً مؤجلة يضنينا اقتضاؤها وأداؤها فى مواعيدها مع أننا نصفيها الهوى عاجلا غير متمحلين ولا مؤجلين .

(٦) الشمال : ريح الشمال ، والجنوب : ريح الجنوب ، وفى الأصل نوافح ، والنوافح : السحب الكثيرة المطر ، ويقال نفح الثدى القميص أى رفعه ونفحت الريح أى جاءت بقوة ، والنوافح - جمع نافحة وهى النسيم .

(٧) يقول ابن دريد فى هذا المعنى :

« لا ينفع الجد بلا جد ولا يحطك الجهل إذا الجد علا . »

ويقول الشاعر : « عش بجد ولا يضرك نوك »

وقد أكثر الشعراء من الكلام فى الجدود ، ومن أبدع ما قرأناه فى ذلك قول ابن الرومى :

« إن للحظ كيمياء إذا ما مس كلبا أحاله إنسانا . »

يَنَالُ الْأَمَانِى بِالْحَظِيرَةِ وَادِعٌ ... كَمَا أَنَّهُ يُكْدِى الَّذِى شَأْنُهُ الْكَدُّ (١)

* * *

هُوَ الدَّهْرُ مَهْمَا أَحْسَنَ الفِعْلَ مَرَّةً ... فَمَنْ خَطَإٍ ، لَكِنْ إِسَاءَتُهُ عَمْدُ

حِذَارَكَ أَنْ تَغْتَرَّ مِنْهُ بِجَانِبٍ ... فَفِى كُلِّ وَادٍ مِنْ نَوَائِبِهِ « سَعْدُ » (٢)

وَلَوْلَا السَّرَاةُ الصِّيدُ مِنْ آلِ « جَهْوَرٍ » ... لَأَعْوَزَ مَنْ يُعْدَى عَلَيْهِ مَتَى يَعْدُو

مُلُوكٌ لَبِسْنَا الدَّهْرَ فِى جَنَبَاتِهِمْ ... رَقِيقَ الحَوَاشِى مِثْلَ مَا فُوِّفَ الْبُرْدُ

بِحَيْثُ مَقِيلُ الْأَمْنِ ضَافٍ ظِلَالُهُ ... وَفِى مَنْهَلِ الْعَيْشِ الْعُذُوبَةُ وَالْبَرْدُ

هُمُ النَّفَرُ الْبِيضُ الَّذِينَ وُجُوهُهُمْ ... تَرُوقُ فَتَسْتَشْفِى بِهَا الْأَعْيُنُ الرُّمْدُ

كِرَامٌ يَمُدُّ الرَّاغِبُونَ أَكُفَّهُمْ ... إِلَى أَبْحُرٍ مِنْهُمْ لَهَا بِاللُّهَا (٣) مَدُّ

وقول المتنبى :

« هو الجد حتى تفضل العين أختها ... وحتى يصير اليوم لليوم سيدا . »

وقول المعرى :

« والجد يدرك أقواما فيرفعهم ... وقد ينال الى أن يعبد الحجرا

وشرفت ذات أنواط قبائلها ... ولم تباين على علاتها الشجرا . »

وقد ذكرنا طرفا من أقوال الشعراء فى هذا المعنى فى رسالة الغفران « ج ٢ ص ٩٨ » فليرجع إليها من شاء .

(١) الحظيرة : عنى بها هنا الأموال المحظورة يقال : احتظر الرجل وحظر اتخذ حظيرة حبس فيها أمواله من تضييق ، ويقال للرجل القليل الخير « إنه لنكد الحظيرة » وسميت أمواله حظيرة لأنه حظرها ومنعها عنده ، والوادع : الذى ينال حظه من العيش من غير كلفة ولا مشقة . يقول : « كثيراً ما ينال الوادع الذى هو فى خفض ودعة من العيش أمانيه بأمواله المحظورة عنده كما أنه كثيراً ما يخفق ذو السعى والكد فلا يحصل من تعبه وكده على طائل » ، ولعل أبرع ما قرأناه فى هذا المعنى قول ابن الرومى :

« إذا كان مجرى كوكب سمت هالة ... علاها وإلا اعتاص ذلك مطلبا . »

وقول الآخر :

« سبحان ربى يعطى ذا ويحرم ذا ... هذا يصيد ، وهذا يأكل السمك . »

(٢) يقال « بكل واد سعد » أو « بكل واد بنو سعد » يريدون بذلك أن فى كل جهة أكفاءها من الشر والأذى . قالوا وأصل المثل أن الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة — رأى من أهله وقومه أمورا كرهها ففارقهم متنقلا فى القبائل فرأى من غيرهم مثل ما رأى منهم فقال : « فى كل أرض سعد بن زيد . »

(٣) الأعطيات والهبات .

فَلاَ يَنْعَ مِنْهُمْ هَالِكٌ فَهْوَ خَالِدٌ ... بِآثَارِهِ ، إِنَّ الثَّنَاءَ هُوَ الْخُلْدُ

«أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ لاَ أَبَا لِأَبِيكُمُ ... مِنَ اللَّوْمِ ، أَوْسُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِى سَدُّوا[1]»

أُولَئِكَ إِنْ نِمْنَا سَرَى فى صَلاَحِنَا ... سِجَاحٌ عَلَيْنَا كُحْلُ أَجْفَانِهِمْ سُهْدُ

* * *

أَلَيْسَ «أَبُو الْحَزْمِ» الَّذِى غِبَّ سَعْيِهِ ... تَبَصَّرَ غَاوِينَا فَبَانَ لَهُ الرُّشْدُ

أَغَرُّ تَمَهَّدْنَا بِهِ الْخَفْضَ[2] بَعْدَ مَا ... أَقَضَّ عَلَيْنَا مَضْجَعٌ وَنَبَا مَهْدُ[3]

لَشَمَّرَ حَتَّى انْجَابَ عَارِضُ فِتْنَةٍ ... تَأَلَّقَ مِنْهَا الْبَرْقُ وَاصْطَخَبَ الرَّعْدُ

فَسَالَمَ مَنْ كَانَتْ لَهُ الْحَرْبُ عَادَةً ... وَوَافَقَ مَنْ لاشَكَّ فِى أَنَّهُ ضِدُّ[4]

هُوَ الْأَثَرُ الْمَحْمُودُ إِنْ عَادَ ذِكْرُهُ ... تَطَلَّعَتِ الْعَلْيَاءُ وَاسْتَشْرَفَ الْمَجْدُ

تَوَلَّى فَلَوْلاَ أَنْ تَلاَهُ «مُحَمَّدٌ» ... لَأَوْطَأَ خَدَّ الْحُرِّ أَخْمَصَهُ الْعَبْدُ[5]

* * *

مَلِيكٌ يَسُوسُ الْمُلْكَ مِنْهُ مُقَلَّدٌ ... رَوَى عَنْ أَبِيهِ فِيهِ مَا سَنَّهُ الْجَدُّ

سَجِيَّتُهُ الْحُسْنَى ، وَشِيمَتُهُ الرِّضَى ، ... وَسِيرَتُهُ الْمُثْلَى ، وَمَذْهَبُهُ الْقَصْدُ

---

(١) ورد هذا البيت فى الأصل :

« . . . . عليهم ، لا أبا لأبيكم ... من اللوم ، أوسدوا المكان الذى سدوا.»

وليس هذا البيت لابن زيدون بل هو اقتباس ، وأصل البيت كما أثبتناه ، وهو من القصيدة المشهورة التى يقول فيها الشاعر :

« وتعذلنى أفناء سعد عليهم ... وماقلت إلا بالذى علمت سعد .»

(٢) الخفض : الدعة . (٣) يقول إنه بدلنا من خوف أمنا ومن سهاد رقادا .

(٤) يقول : وقد سالمه أشد الأعداء ولوعا بالحرب ووافقه من لاشك فى خصومته ولدده بعد ما رأوا من شدة بأسه وقوته .

(٥) يقول : لولا أن محمدا قد خلف أبا الحزم لساءت العاقبة ولسادت دولة العبيد على دولة الأحرار فأذلوهم أذلالا وداسوا خدودهم بأرجلهم

هُمامٌ إذا زانَ النَّدِىَّ بِحَبْوَةٍ   ترجَّحَ فى أثنائِها الحَسَبُ العَدُّ

زعيمٌ لأبناءِ السِّيادةِ بارعٌ   عليهم به تُثْنَى الخناصرُ إن عُدُّوا

بعيدُ منالِ الحالِ ، دانى جَنَى النَّدَى   إذا ذُكِرَتْ أخلاقُه خجلَ الوَرْدُ

تهلَّلَ فانهلَّتْ سَماءُ يَمينِه   عطايا ثَرَى الآمالِ من صَوْبِها جَعْدُ [(١)]

مُمِرٌّ لمن عاداه إذْ أولياؤُه   يَلَذُّ لهم كالماءِ شِيبَ به الشُّهْدُ

إذا اعترفَ الجانى عفا عفوَ قادرٍ   علا قَدْرُه عن أن يَلِجَّ به حِقْدُ [(٢)]

ومُتَّئِدٌ لو زاحمَ الطَّوْدَ حِلْمُه   لَحاجَزَه رُكْنٌ من الطَّوْدِ مُنْهَدُّ

له عَزْمةٌ مَطْوِيَّةٌ فى سَكينةٍ   كما لانَ مَتْنُ السَّيْفِ واخْشَوْشَنَ الحَدّ [(٣)]

يُوَكِّلُ بالتدبيرِ خاطِرَ فِكْرةٍ   إن اقْتَدَحَتْ فى خاطِرٍ أَثْقَبَ الزَّنْدُ [(٤)]

ذِراعٌ — لِما يأتى به الدهرُ — واسعٌ   وباعٌ — إلى ما يُحْرِزُ الفخرَ — مُمْتَدُّ

إذا أَنْهَبَ المُنُونَ فيه شَأَتْهُمُ [(٥)]   مراتبُ عُلْيا كلَّ عن عفوِها الجَهْدُ

هو المَلِكُ المَشْفُوعُ بالنُّسْكِ مُلْكُه   فيا فَضْلَ ما يُخْفِى ويا سَرْوَ ما يُبْدو [(٦)]

إلى اللهِ أوَّابٌ ، ولِلّهِ خائفٌ   وباللهِ مُعْتَدٌّ ، وفى اللهِ مُشْتَدُّ

---

(١) جعد : ندى .

(٢) قريب من هذا قول عنترة :

« لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب   ولا ينال العلا من طبعه الغضب . »

(٣) فى هذا المعنى يقول الشاعر :

« وكالسيف — إن لاينته — لان متنه   وحداه — إن خاشنته — خشنان . »

(٤) أثقب الزند : أورى .   (٥) شأتهم : فاتتهم وقصروا فيها عن الغاية .

(٦) يقول هو الملك الذى يجمع إلى سطوة الملك نسك الورعين فما أفضل مايسره فى نفسه وما أنبل وأشرف مايعلنه ، يعنى أن سره وإعلانه غاية فى النبل والفضل

***

لَقَدْ أَوْسَعَ الْإِسْلَامَ بِالْأَمْسِ حِسْبَةً ... نَحَتْ غَرَضَ الْأَجْرِ الْجَزِيلِ فَلَمْ تَعْدُ

أَبَاحَ حِمَى الْخَمْرِ الْخَبِيثَةِ ، حَائِطًا ... حِمَى الدِّينِ مِنْ أَنْ يُسْتَبَاحَ لَهُ حَدُّ

فَطَوَّقَ بِاسْتِئْصَالِهَا الْمِصْرَ مِنَّةً ... يَكَادُ يُؤَدِّى شُكْرَهَا الْحَجَرُ الصَّلْدُ

هِيَ الرِّجْسُ إِنْ يُذْهِبْهُ عَنْهُ فَمُحْسِنٌ ... شَهِيرُ الْأَيَادِى مَا لِآلَائِهِ جَحْدُ

مَظِنَّةُ آثَامٍ ، وَأُمُّ كَبَائِرٍ ... يُقَصِّرُ عَنْ أَدْنَى مَعَايِبِهَا الْعَدُّ

رَأَى نَقْصَ مَا يَجْبِيهِ مِنْهَا زِيَادَةً ... إِذِ الْعِوَضُ الْمَرْضِيُّ إِلَّا يَرُحْ يَغْدُو

***

غَنِيٌّ ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ مَالُهُ ... عَزِيزٌ ، فَصُنْعُ اللهِ مِنْ حَوْلِهِ جُنْدُ

لَنِعْمَ حَدِيثُ الْبِرِّ تُودِعُهُ الصَّبَا ... تَبُثُّ نَثَاهُ حَيْثُ لَا تُوضِعُ الْبُرْدُ (١)

تَغَلْغَلَ فِى سَمْعِ الرَّبَابِ وَطَالَعَتْ ... لَهُ صُورَةٌ لَمْ يَعْمَ – عَنْ حُسْنِهَا – الْخُلْدُ

مَسَاعٍ أَجَدَّتْ زِينَةَ الْأَرْضِ ، فَالْحَصَى ... لَآلِئُ نَثْرٌ ، وَالثَّرَى عَنْبَرٌ وَرْدُ

لَدَى زَهَرَاتِ الرَّوْضِ – عَنْهَا – بِشَارَةٌ ... وَفِى نَفَحَاتِ الْمِسْكِ – مِنْ طِيبِهَا – وَفْدُ

***

فَدَيْتُكَ ، إِنِّى قَائِلٌ فَمُعَرِّضٌ ... بِأَوْطَارِ نَفْسٍ مِنْكَ لَمْ تَقْضِهَا بَعْدُ

مُنًى كَالشَّجَا دُونَ اللَّهَاةِ (٢) تَعَرَّضَتْ ... فَلَمْ يَكُ لِلْمَصْدُورِ – مِنْ نَفْثِهَا – بُدُّ

---

(١) يقول : انعم حديث البر أودعته ريح الصبا فحملته وبثت خبره فى الجهات النائية حيث لا توضع البرد أى حيث لاتعدو خيل البريد اليها ولا تصلها الأخبار لبعدها ، وفى الأصل : « توضعه »

(٢) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق ، أو مابين منقطع أصل اللسان الى منقطع القلب من أعلى الفم ، وجمعها لهوات ولهيات ولهى . قال ابن دريد :

« والناس كالنبت ، فمنه رائق ... غض نضير عوده من الجنى
ومنه ما تقتحم العين ، فان ... ذقت جناه انساغ عذبا فى اللهى . »

أَمِثْلِيَ غُفْلٌ خَامِلُ الذِّكْرِ ضَائِعٌ ضَيَاعَ الْحُسَامِ الْعَضْبِ أَصْدَأَهُ الْغِمْدُ
أَبَى ذَاكَ أَنَّ الدَّهْرَ قَدْ ذَلَّ صَعْبُهُ فَسُنِّيَ مِنْهُ ـ بِالَّذِى نَشْتَهِى ـ الْعَقْدُ (١)

***

أَنَا السَّيْفُ لاَ يَنْبُو مَعَ الْهَزِّ غَرْبُهُ إِذَا مَا نَبَا السَّيْفُ الَّذِى تَطْبَعُ الْهِنْدُ
بَدَأْتَ بِنُعْمَى غَضَّةٍ إِنْ تُوَالِهَا فَحُسْنُ الْأَلَى (٢) فِى أَنْ يُوَالِيهَا سَرْدُ
لَعَمْرُكَ مَا الْمَالُ أَسْعَى فَإِنَّمَا يَرَى الْمَالَ أَسْنَى حَظِّهِ الطَّبِعُ الْوَغْدُ (٣)
وَلٰكِنْ لِحَالٍ ـ إِنْ لَبِسْتُ جَمَالَهَا ـ كَسَوْتُكَ ثَوْبَ النُّصْحِ أَعْلاَمُهُ الْحَمْدُ

***

أَتَتْكَ الْقَوَافِى شَاهِدَاتٍ بِمَا صَفَا مِنَ الْغَيْبِ فَاقْبَلْهَا فَمَا غَرَّكَ الشُّهْدُ
لِيَحْظَى وَلِىٌّ ـ سِرُّهُ وَفْقُ جَهْرِهِ ـ فَظَاهِرُهُ شُكْرٌ ، وَبَاطِنُهُ وُدُّ
يُمَيِّزُهُ ـ مِمَّنْ سِوَاهُ ـ وَفَاؤُهُ وَإِخْلاَصُهُ ، إِذْ كُلُّ غَانِيَةٍ هِنْدُ (٤)

---

(١) سنى منه العقد ، أى تيسر الصعب وسهل . قال الشاعر :

« وأعلم علما ليس بالظن أنه إذا الله سنى عقد أمر تيسرا . »

(٢) الألى : النعمة جمعها آلاء .

(٣) الطبع : يقال رجل طبع طمع (بكسر ثانيهما) متدنس العرض ذو خلق دنىء لايستحيي من سوءة ، والوغد : الخفيف الأحمق الضعيف العقل والبدن الدنىء الخسيس النذل .

(٤) كل غانية هند : مثل يضرب عند تساوى القوم فى فساد الباطن

رثاء أم المعتضد

« قال يرثى السيدة الكبرى والدته . »

أَلاَ هَلْ دَرَى الدَّاعِي الْمُثَوِّبُ ـ إِذْ دَعَا   بِنَعْيِكِ ـ أَنَّ الدِّينَ مِنْ بَعْضِ مَا نَعٰى ؟
وَأَنَّ التُّـــقَى قَدْ آذَنَتْنَا بِفُرْقَةٍ   وَأَنَّ الْهُدَى قَدْ بَانَ مِنْكِ فَوَدَّعَا ؟
لِرُزْئِكِ تَنْهَلُّ الدُّمُوعُ ، فَمِثْلُهُ   ـ إِذَا حَلَّ ـ وَدَّ الْقَلْبُ لَوْ كَانَ مَدْمَعَا
لَقَدْ أَجْهَشَ الْإِخْلاصُ بِالْأَمْسِ بَاكِيًا   عَلَيْكِ ، كَمَا حَنَّ الْيَقِينُ فَرَجَّعَا

***

وَدُنْيَا وَجَدْنَا الْعَيْشَ فِى غَفَلاَتِهَا   طَرِيقًا ـ إِلَى وِرْدِ الْمَنِيَّةِ ـ مَهْيَعَا (١)
نُعَلَّلُ فِيهَـــا بِالْمُنَى فَتَغُرُّنَا   بَوَارِقُ لَيْسَ الْآلُ مِنْهَا بِأَخْدَعَا (٢)

***

أُصِبْنَا بِمَا لَوْ أَنَّ هَضْبَ مَتَالِعٍ   أُصِيبَ بِهِ لَانْهَـــدَّ أَوْ لَتَضَعْضَعَا
مَنَارٌ ـ مِنَ الْإِيمَانِ ـ لَمْ يَعْدُ أَنْ هَوَى ،   وَحَبْلٌ ـ مِنَ التَّقْوَى ـ وَهَى فَتَقَطَّعَا
وَشَمْسُ هُدًى أَمْسَى لَهَا التُّرْبُ مَغْرِبًا   وَكَانَ لَهَا الْمِحْرَابُ ـ فِى الْخِدْرِ ـ مَطْلَعَا (٣)

***

لَئِنْ أُتْبِعَتْ مِنَّا غَمَامَةَ رَحْمَـــةٍ   لَقَـــدْ ظَلَّلَتْ ذَاكَ السَّرِيرَ الْمُرَفَّعَا

---

(١) المهيع : الطريق الواسع الواضح البين .

(٢) الآل : السراب ، يقول إن الأمانى تغرنا وتخدعنا كما يخدع السراب . ولله در مهيار إذ يقول :

« شد ما هى غرورا مسه   تاجر الآمال فى أن يربحا . »

وقوله : « ربما يقمر بالظن الكذوب . » ، وفى هذا المعنى يقول ابن نباته السعدى :

« وأقسم ما الدنيا بدار إقامة   ولا هى إلا مثل بعض المنازل
نسير إلى الآجال حول رحالها   ونطوى بها الأيام طى المراحل . »

(٣) يقول : أنها شمس أشرقت فى خدرها ثم غربت فى قبرها

سَرِيرٌ بِأَمْلاكٍ وَزُهْرِ مَلائِكٍ ـ إِلَى جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ ـ رَاحَ مُشَيَّعَا
لِتَبْكِ الْأَيَامَى وَالْيَتَامَى فَقِيدَةً هِيَ الْمُزْنَ أَحْيَا صَوْبُهُ ثُمَّ أَقْشَعَا
أَضَلَّهُمُ فِقْدَانُهَا ، فَكَأَنَّمَا أَضَلَّتْ سَوَامُ الْوَحْشِ فِي الْجَدْبِ مَرْتَعَا
مُسَبِّحَةَ الآنَاءِ ، قَانِتَةُ الضُّحَى ثَوَتْ فَثَوَى مَغْنَى التَّأَوُّهِ بَلْقَعَا
تَبِيتُ مَعَ الْإِخْبَاتِ (١) مُسْعَرَةَ الْحَشَا تَقِيَّةَ مَنْ يَخْشَى إِلَى اللهِ مَرْجِعَا
إِذَا مَا هِيَ اسْتَوْفَتْ مِنَ الْبِرِّ غَايَةً تَأَتَّتْ لِأُخْرَى لا تَرَى تِلْكَ مَقْنَعَا
كَأَنَّ قَضَاءَ الْوَاجِبَاتِ مُحَرَّجٌ تَقَبُّلُهُ إِلَّا بِأَنْ تَتَطَوَّعَا (٢)

⁂

أَصَرْفَ الرَّدَى ! لَوْ أَنَّ لِلسَّيْفِ مَضْرِبًا لَمَا رُعْتَنَا ، أَوْ أَنَّ فِي الْقَوْسِ مَنْزَعَا
فَلَوْ كُنْتَ ـ إِذْ سَاوَرْتَ ـ رَامَ مُجَاهِرٌ ذِمَارَ الْهُدَى كَانَ الْمَحُوطَ الْمُمَنَّعَا
إِذًا لَثَنَاهُ الْجَيْشُ مِنْ كُلِّ أَلْيَسٍ (٣) يُشَايِعُ قَلْبًا فِي الْحِفَاظِ مُشَيَّعَا
« وَمُعْتَضِدٌ بِاللهِ » يَحْمِي ذِمَارَهُ فَلَا سِرْبَ يُلْفَى ـ فِي حِمَاهُ ـ مُرَوَّعَا
وَلَكِنْ عَرَرْتَ الْمُلْكَ ـ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَى ـ فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِلْحَادِثِ الْحَتْمِ مَدْفَعَا (٤)

---

(١) الاخبات : التقوى والخشوع والقنوت ، يقول : هى البقية الباقية من النساء الصالحات تبيت من خشية الله مصلية داعية مسعرة الحشا خوفاً من لقاء الله ، ودرقا من هول يوم المرجع والمآب .

(٢) يقول : أنها لحرصها على التطوّع وضم النوافل إلى الفرائض كأنها تعتقد أن فى أداء الفرائض وحدها غير مشفوعة بالتطوع حرجاً وإنما لايحمل عادتها متقبلة وعملها مثاباً عليه إلا أن تتطوّع ، وهى لذلك تبيت ليلها قائمة متهجدة .

(٣) الأليس : الشجاع الذى لايبالى الحرب ولا يروعه القتال والجمع ليس ، قال الشاعر :

« تخال نديهم مرضى حياء وتلقاهم غداة الروع ليسا . »

(٤) عررت : وطئت ونزلت ، على غير هدى وعلم وبلا تمييز ، وهو من قول الله عزّ وجلّ : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم . » ، وقال عمر رضى الله عنه : « اللهمّ إنى أعوذ بك من معرة الجيش » تبرأ رضى الله عنه من وطأة جيش المسلمين من مروا به بلا تمييز بين مسلم ومعاهد وكافر وإصابتهم إياهم فى حريمهم وأموالهم وزروعهم بما لم يؤذن لهم فيه من قبل الشرع . يقول : لوكان صرف الدهر شخصاً يواجه مجاهرة لعجز عن غرضه ولثناه المعتضد الشجاع وجيشه الباسل ولكن صرف الدهر يأتى على غرة فلا يستطيع أحد أن يواجهه ويدفع غائلته ، ولله در القائل :

يَغِيظُ الْعِتَاقَ الْجُرْدَ أَلاَّ تَرَى لَهَا مَجَالاً ، فَتَعْنُو فِي الْمَرَابِطِ خُشَّعَا
وَتَأْسَفُ بِيضُ الْهِنْدِ أَنْ لَيْسَ تُنْتَضَى ، وَسُمْرُ الْقَنَا أَلاَّ تُهَزَّ وَتُشْرَعَا

***

لَئِنْ سَاءَكَ الدَّهْرُ الْمُسِيءُ فَلَمْ يَكُنْ بِأَوَّلِ عَهْدٍ وَاجِبِ الْحِفْظِ ضُيِّعَا
شَهِدْنَا : لَقَدْ طَرَّزْتَ بُرْدَ جَمَالِهِ وَقَلَّدْتَهُ عِقْدَ الْبَهَاءِ مُرَصَّعَا
وَمَا فَخْرُهُ إِلاَّ بِأَنْ كَانَ مُصْغِياً لِأَمْرِكَ ، إِنْ نَادَيْتَ لَبَّى فَأَسْرَعَا
أَتَى الْعَثْرَةَ الْعُظْمَى ، فَهَلْ أَنْتَ قَائِلٌ لَهُ حِينَ أَشْفَى مِنْ كَآبَتِهِ : «لَعًا»؟[1]
وَهَاهُوَ مُنْقَادٌ لِحُكْمِكَ ، فَاحْتَكِمْ لِتَبْلُغَ مَا تَهْوَى ، وَمُرْهُ لِيَصْدَعَا
لَعَمْرُ الَّتِي وَدَّعْتَ أَمْسِ ـ مُفَارِقاً ـ لَقَدْ وَرَدَتْ حَوْضَ السَّعَادَةِ مَشْرَعَا[2]
تَمَنَّتْ وَفَاهً ـ فِي حَيَاتِكَ ـ بَعْدَ مَا حَشَدْتَ لَهَا الْآمَالَ : مَرْأًى، وَمَسْمَعَا
فَوَفَّيْتَهَا مَا لَمْ يَدَعْ لِضَمِيرِهَا إِلَى غَايَةٍ مِنْ بَعْدِهِ مُتَطَلَّعَا
خَفَضْتَ جَنَاحَ الذُّلِّ فِي الْعِزِّ رَحْمَةً لَهَا ، وَعَزِيزٌ أَنْ تَذِلَّ وَتَخْضَعَا[3]
تَرُوحُ أَمِيراً فِي الْبِلَادِ مُحَكَّماً وَتَغْدُو شَفِيعاً فِي الذُّنُوبِ مُشَفَّعَا
عَزَاءً فَدَتْكَ النَّفْسُ ، عَزْمَ مُسَلِّمٍ لِمَرْفِعِ أَمْرٍ لَمْ يَزَلْ مُتَوَقَّعَا

« اليوم يبى لدويد بيته يا رب وحه حسن رأيته
ومعصم ـ ذى برة ـ لويته لو كان للدهر بلى أبليته
أو كان قرنى واحدا كفيته . »

(١) أشفى : من قولهم أشفى على الهلاك وأشفى على الموت إذا أشرف عليه ، والكآبة : الحزن ، ولعا : كلمة تقال للعاثر وهى فى الاثبات دعاء له ، وإذا قيل : لا لعا للعاثر ، فمعناه لا أقال الله عثرته ، يقول : لقد أساء إليك الدهر فى هذا الخطب فهل أنت صافح عنه ومقيله من عثرته .

(٢) المشرع : كالمشرعة والشريعة المكان الذى ينحدر منه الناس والدواب إلى الماء لوروده .

(٣) يشير إلى قوله تعالى فى بر الوالدين :
« واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »

مَتَى ظَنَّتِ الْأَيَّامُ أَنَّكَ جَزِعٌ ... أَوِ اسْتَشْعَرَتْ فِي فَلِّ صَبْرِكَ مَطْمَعَا

فَمَا ارْبَدَّ وَجْهُ الخَطْبِ إِلاَّ لَقِيتَهُ ... بِصَفْحَةِ طَلْقِ الْوَجْهِ أَبْلَجَ أَرْوَعَا

وَمَا كُنْتَ أَهْلاً أَنْ يُصِيبَكَ حَادِثٌ ... فَتُصْبِحَ عَنْهُ مُقْصَدَ الْقَلْبِ مُوجَعَا

فَلَوْلَاكَ لَمْ يَسْمَحْ مِنَ الدَّهْرِ جَانِبٌ ... وَلاَ اهْتَزَّ أَعْطَافاً ، وَلاَ لاَنَ أَخْدَعَا

فَأَنْتَ الَّذِي لَمْ يَنْتَقِمْ غِبَّ قُدْرَةٍ ... وَلَمْ يُؤْثِرِ الْمَعْرُوفَ إِلاَّ لِيَشْفَعَا

مَتَى تُسْدِ نُعْمَى ـ قِيلَ أَنْعَمَ مِثْلَهَا ـ ... يُقَلْ جَلَلٌ حَتَّى إِذَا قِيلَ أَبْدَعَا (١)

وَإِنْ يَسَلِ الْعَافُونَ جَدْوَاكَ يُعْطِهِمْ ... جَوَادٌ إِذَا لَمْ يَسْأَلُوهُ تَبَرَّعَا

وَيُغْرَى بِتَوْكِيدِ الإِسَاءَةِ مُذْنِبٌ ... فَيَلْفَاكَ بِالْإِحْسَانِ أَغْرَى وَأَوْلَعَا (٢)

خَلاَئِقُ مُمْهَاةُ الفِرِنْدِ كَأَنَّهَا ... حَدَائِقُ رَوْضِ الحَزْنِ جِيدَ فَأَيْنَعَا

تُنَافِحُهَا مِنْهَا أَحَادِيثُ سُودَدٍ ... تَخَالُ فَتِيتَ الْمِسْكِ عَنْهَا تَضَوَّعَا

تَغَلْغَلُ فِي الآفَاقِ أَسْرَى مِنَ الصَّبَا ... وَأَشْهَرَ مِنْ شَمْسِ النَّهَارِ وَأَسْرَعَا

فَلَوْ صَرَفَتْ صَرْفَ المَنُونِ جَلاَلَةً ... لَكُنْتَ مُحَيَّا مَنْ تَوَدُّ مُمَتَّعَا

فَلاَ زِلْتَ مَمْنُوعَ الْحِمَى مُسْعَفَ الْمُنَى ... إِذَا كَانَ شَانِيكَ الْمُصَابَ الْمُفَجَّعَا (٣)

وَدُمْتَ مُلَقَّى أَنْجُمِ السَّعْدِ بَاقِياً ... لِدِينٍ وَدُنْيَا أَنْتَ فَخْرُهُمَا مَعَا

---

(١) يقول كلما أسديت جميلا قال الناس : كم لهذا الجميل من أشباه ونظائر فهو ـ على عظمه ـ تافه عندهم لكثرة ما ألفوه من صنائعك ، ولو أبدعت لم يسترع انظارهم إبداعك لطول ما ألفوا من روائدك وبدائعك .

(٢) يقول : ان المسيء يطمعه عفوك عن زلته فهو إذا أولع بتوكيد إساءته وجدك أشد ولوعا بتوكيد إحسانك وعفوك عنه .

(٣) يقول : لا زال الزمن يعز من حماك ويسعفك بأمانيك على حين يصيب عدوك ويفجعه فيما يحب

قل للبغاة

« وقال ذو الوزارتين رحمه الله »

الدَّهْرُ ـ إنْ أَمْــلَى ـ فَصِيحٌ أَعْجَمُ ... يُعْطِى اُعْتِبَارِى مَا جَهِلْتُ فَأَعْلَمُ (١)

إِنَّ الَّذِى قَدَرَ الحَوَادِثَ قَدْرَهَا ... سَاوَى لَدَيْهِ الشُّهْدَ مِنْهَا الْعَلْقَمُ (٢)

وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَلاَ اُغْتِرَابٌ يَقْتَضِى ... كَدَرَ الْمَآلِ وَلاَ تَوَقٍّ يَعْصِمُ

كَمْ قَاعِدٍ يَحْظَى فَتُعْجِبُ حَالُهُ ... مِنْ جَاهِدٍ يَصِلُ الدُّؤُوبَ فَيُحْرَمُ

وَأَرَى الْمَسَاعِىَ كَالسُّيُوفِ تَبَادَرَتْ ... شَــأْوَ الْمَضَاءِ فَمُنْثَنٍ وَمُصَمِّمُ

وَلَكَمْ تَسَامَى بِالرَّفِيعِ نِصَابُهُ ... خَطَرٌ فَنَاصَبَهُ الْوَضِيعُ الأَلأَمُ (٣)

وَأَشَدُّ فَاجِعَةِ الدَّوَاهِى مُحْسِنٌ ... يَسْعَى لِيُعْلِقَهُ الجَرِيَةَ مُجْرِمُ (٤)

تَلْقَى الحَسُودَ أَصَمَّ عَنْ جَرْسِ الْوَفَا ... وَلَقَدْ يُصِيخُ ـ إِلَى الرُّقَاةِ ـ الأَرْقَمُ (٥)

* * *

قُلْ لِلْبُغَاةِ الْمُبْغِضِينَ قِسِــيَّهُمْ ... سَتَرَوْنَ مَنْ تُصْمِيهِ تِلْكَ الأَسْهُمُ

أَسْرَرْتُمُ فَرَأَى نَجِىَّ عُيُوبِكُمْ ... شَيْحَانُ مَدْلُولٌ عَلَيْهَا مُلْهَمُ

---

(١) يقول إن الدهر إن أملى ملسان الحوادث الفصيح الأعجم يكسب اعتبارى وقياسى الحوادث والعبر بعضها ببعض علم ماجهلت . (٢) إن الذى قاس الحوادث بقياس صحيح استوى لديه حلو الحياة ومرها .

(٣) وكثيرا ما يتسامى بالذى ارتفع منصبه خطره وشرفه فيناصبه العداء وضيع لئيم حسدا منه وبغيا .

(٤) وأشد مايفجع الانسان من الدواهى محسن يسعى مجرم ليلصق به إساءة وجريمة .

(٥) يصيخ مضارع أصاخ له استمع ، والرقاة جمع راق من الرقية وهى ماينفث فيه من العوذ ، والأرقم ذكر الحيات وهو أخبثها وأطلبها للناس ، أو هو مافيه بياض وسواد ، يقول : إن الحسود أصم عن سماع صوت الوفاء فى حين أن الأرقم وهو أخبث الحيات وأشدها عداوة للناس يصيخ بسمعه للراق الذى يتلو وينفث فى العوذ ، وفى الأصل «ولقد يصيح إلى الرقاة الأرقم»

وَعَبَأْتُمْ لِلْفِسْقِ ظُفْرَ سِعَايَةٍ ... لَمْ يَعْدُكُمْ أَنْ رُدَّ وَهْوَ مُقَلَّمُ

وَنَبَذْتُمُ التَّقْوَى وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ... فَغَدَا بِغَيْضِكُمُ التَّقِيُّ الْأَكْرَمُ

مَا كَانَ حِلْمُ « مُحَمَّدٍ » لِيُحِيلَهُ ... عَنْ عَهْدِهِ دَغَلُ الضَّمِيرِ[1] مُذَمَّمُ

مَلِكٌ تَطَلَّعَ لِلنَّوَاظِرِ غُرَّةً ... زَهْرَاءَ يُبْدِيهَا الزَّمَانُ الْأَدْهَمُ

يَغْشَى النَّوَاظِرَ مِنْ جَهِيرِ رُوَائِهِ ... خَلْقٌ ـ يُرَى مِلْءَ الصُّدُورِ ـ مُطَهَّمُ[2]

وَسَنَا جَبِينٍ يَسْتَطِيرُ شُعَاعُهُ ... يُغْنِي ـ عَنِ الْقَمَرَيْنِ ـ مَنْ يَتَوَسَّمُ[3]

صَلْتٌ تَوَدُّ الشَّمْسُ لَوْ صِيغَتْ لَهُ ... تَاجًا تُرَصِّعُ جَانِبَيْهِ الْأَنْجُمُ[4]

فَضَحَتْ مَحَاسِنُهُ الرِّيَاضَ بَكَى الْحَيَا ... ـ وَهْنًا عَلَيْهَا ـ فَاغْتَدَتْ تَتَبَسَّمُ

بِالْقَدْرِ يَبْعُدُ وَالتَّوَاضُعِ يَدْنُ ... وَالشَّرُّ يَشْمُسُ وَالنَّدَى يَتَغَيَّمُ[5]

جَذْلَانُ ـ فِي يَوْمِ الْوَغَى ـ مُتَطَلِّقٌ ... وَجِهًا إِلَيْهَا وَالرَّدَى مُتَجَهِّمُ[6]

بَأْسٌ ـ كَمَا صَالَ الْهِزَبْرُ ـ إِزَاءَهُ ... جُودٌ كَمَا جَاشَ الْخِضَمُّ الْخِضْرِمُ[7]

---

(١) نميره حقد مكتم . (٢) الرواء : الحسن ، وخلق مطهم : تام بارع الجمال .

(٣) يستطير : ينتشر ، من القمرين : الشمس والقمر ، والذى أجاز التثنية مع اختلاف لفظ المفرد التغليب كما هو معروف فى كتب النحو ، ويتوسم : ينظر إلى وسامة ذلك الجبين المضىء وحسنه .

(٤) الصلت : صفة الجبين ومعناه الواضح البارز المستوى ، أى تود الشمس لو أنها صيغت تاجا مرصعاً بلآلئ النجوم ، ووضعت فوق جبين الممدوح : (٥) فى الأصل :

« بالقدر يبعد والتواضع يدنى والبشر شمس والندى يتغيم. »

والذى أثبتناه هنا هو مايعطيه المعنى .

(٦) يقول : أنه يرى يوم الحرب جذلان فرحا طلق الوجه باشاً إلى الحرب والردى متجهم عابس الوجه كريه المنظر ، وفى الأصل : « والروا متجهم »

(٧) البحر الغطمطم العظيم .

❁

نَفْسِى فِدَاؤُكَ أَيُّهَا المَلِكُ الذِى … كُلُّ المُلُوكِ لَهُ العَلَاءَ تُسَلِّمُ

سُدْتَ الجَمِيعَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ مُنْكِرٌ … أَنْ صِرْتَ فَذَّهُمُ الَّذِى لاَ يُتْأَمُ (١)

لاَغَرْوَ أُمُّ المَجْدِ فِي بِكْرِ الحِجَا … مِنْ أَنْ يُضَافَ إِلَيْكَ صِنْوٌ أَعْقَمُ (٢)

فَاحْسِمْ دَوَاعِيَ كُلِّ شَرٍّ دُونَهُ … فَالدَّاءُ يَسْرِى إِنْ عَدَا لاَ يُحْسَمُ

كَمْ سِقْطُ زِنْدٍ قَدْ نَمَا حَتَّى غَدَا … بُرْكَانَ نَارٍ كُلَّ شَىْءٍ تَحْطِمُ

وَكَذَلِكَ السَّيْلُ الْجُحَافُ فَإِنَّمَا … أُولاَهُ طَلٌّ ثُمَّ وَبْلٌ يَثْجُمُ (٣)

وَالمَالُ يُخْرِجُ أَهْلَهُ عَنْ حَدِّهِمْ … وَافْهَمْ فَإِنَّكَ بِالبَوَاطِنِ أَفْهَمُ

وَاذْكُرْ صَنِيعَ أَبِيكَ أَوَّلَ أَمْرِهِ … فِى كُلِّ مُتَّهَمٍ فَإِنَّكَ تَعْلَمُ

لَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ مَنْ تَوَقَّعَ شَرَّهُ … فَصَفَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَلَذَّ المَطْعَمُ

فَعَلاَمَ تَنْكُلُ عَنْ صَنِيعٍ مِثْلِهِ … وَلأَنْتَ أَمْضَى فِى الخُطُوبِ وَأَشْهَمُ

وَجَنَابُكَ الثَّبْتُ الذِى لاَ يَنْثَنِى … وَحُسَامُكَ العَضْبُ الذِى لاَ يَكْهَمُ

وَالحَالُ أَوْسَعُ وَالعَوَالِى جَمَّةٌ … وَالمَجْدُ أَشْمَخُ وَالصَّرِيمَةُ أَصْرَمُ (٤)

❁

لاَ تَتْرُكَنْ لِلنَّاسِ مَوْضِعَ شُبْهَةٍ … وَاحْزِمْ ، فَمِثْلُكَ فِى العَظَائِمِ أَحْزَمُ

قَدْ قَالَ شَاعِرُ كِنْدَةٍ فِيمَا مَضَى … بَيْتاً عَلَى مَرِّ اللَّيَالِى يُعْلَمُ

---

(١) الذى لايكون له توءم ونظير من الملوك .

(٢) لاغرو فان أم المجد عقيم فى بكرها الموسوم بالحجا والعقل قد يئست من أن تضيف إليه صنوا .

(٣) الجحاف : كعراب الذى يذهب بكل شىء .

(٤) الصريمة : العزيمة وأصرم أى أقطع ، وفى الأصل : « والصريمة ضيغم . »

«لاَيَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأَذى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ[1] »

***

فِرَقٌ عوَتْ ، فزَأَرتَ زَأْرَةَ زَاجِرٍ رَاعَ الْكُلَيْبَ بِهَا السَّبَنْتَى الضَّيْغَمُ[2]

يَا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ يَعُودُ سَفِيهُهُمْ أَمْ قَدْ حَمَاهُ النَّبْحُ ذَاكَ المُكْعَمُ ؟

لِى مِنْكَ فَلْيَذُبِ الحَسُودُ تَلَظِّيًا لُطْفُ المَكَانَةِ وَالمَحَلُّ الأَكْرَمُ

وَشُفُوفُ حَظٍّ لَيْسَ يَفْتَأُ يُجْتَلَى غَضَّ الشَّبَابِ وَكُلُّ حَظٍّ يَهْرَمُ

لَمْ تُلْفَ صَاغِيَتِى[3] لَدَيْكَ مُضَاعَةً كَلاَّ وَلاَ خَفِىَ اصْطِنَاعِى الأَقْدَمُ

بَلْ أَوْسَعَتْ حِفْظًا وَصِدْقَ رِعَايَةٍ ذِمَمٌ مُوَثَّقَةُ العُرَا لاَ تُفْصَمُ

فَلْيَخْرِقَنَّ الأَرْضَ شُكْرٌ مُنْجِدٌ مِنِّى تَنَاقَلُهُ المَحَافِلُ مُتْهِمٌ

عَطِرٌ ـ هُوَ المِسْكُ السَّطُوعُ ـ يَطِيبُ فِى شَمِّ العُقُولِ أَرِيجُهُ المُتَنَسَّمُ

وَإِذَا غُصُونُ المَكْرُمَاتِ تَهَدَّلَتْ كَانَ الثَّنَاءُ هَدِيلَهَا المُتَرَنِّمُ

الفَخْرُ ثَغْرٌ ـ عَنْ حِفَاظِكَ ـ بَاسِمٌ وَالمَجْدُ بُرْدٌ ـ مِنْ وَفَائِكَ ـ مُعْلَمُ

فَاسْلَمْ مَدَى الدُّنْيَا فَأَنْتَ جَمَالُهَا وَتَسَوَّغِ النُّعْمَى فَإِنَّكَ مُنْعِمُ

---

(١) هذا البيت لـ تنبي وقد اقتبسه ابن زيدون في هذه القصيدة .

(٢) السبنتي والضيغم من أسماء الأسد .

(٣) صاغية الرجل خاصته : الذين يغشون مجلسه

موشح

ذكرى قرطبة

سَقَى اللهُ أطْلاَلَ الأحِبَّةِ بِالْحِمى

وَحَاكَ عَلَيْهَا ثَوْبَ وَشْيٍ مُنَمْنَمَا

وَأطْلَعَ فِيهَا لِلأزَاهِيرِ أنْجُمَا

فَكَمْ رَفَلَتْ فِيهَا الخَرَائِدُ كَالدُّمَى[1] إذِ الْعَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ غُلاَمُ

* * *

أهِيمُ بِجَبَّارٍ يَعِزُّ وَأخْضَعُ[2]

شَذَا الْمِسْكِ – مِنْ أرْدَانِهِ – يَتَضَوَّعُ

إذَا جِئْتُ أشْكُوهُ الجَوَى – لَيْسَ يَسْمَعُ

فَمَا أنَا – فِي شَيْءٍ مِنَ الْوَصْلِ – أطْمَعُ وَلاَ أنْ يَزُورَ الْمُقْلَتَيْنِ مَنَامُ

* * *

قَضِيبٌ – مِنَ الرَّيْحَانِ – أثْمَرَ بِالْبَدْرِ

لَوَاحِظُ عَيْنَيْهِ مُلِئْنَ مِنَ السِّحْرِ

وَدِيبَاجُ خَدَّيْهِ حَكَى رَوْنَقَ الْخَمْرِ

وَألْفَاظُهُ – فِي النُّطْقِ – كَاللُّؤْلُؤِ النَّثْرِ وَرِيقَتُهُ – فِي الارْتِشَافِ – مُدَامُ

---

(١) رفل: جر ذيله وتبختر، قال الشاعر: «يرفل في سرق الحرير وقزه» الخرائد — جمع خريدة — وهي المرأة الحيية، وهي أيضاً اللؤلؤة التي لم تثقب، قالوا: وكل عذراء خريدة، والدمى — جمع دمية — وهي الصورة المنقشة المزينة فيها حمرة كالدم، وقيل: هي من الرخام، وقيل: هي من العاج، وهي تضرب مثلا في الحسن، يقال «أحسن من الدمية»

(٢) قال الشريف:

«لو حيث يستمع السرار وقفتما لعجبتما من عزه وخضوعي.»

سَقَى جَنَبَاتِ الْقَصْرِ صَوْبُ الْغَمَائِمِ
وَغَنَّى عَلَى الْأَغْصَانِ وُرْقُ الْحَمَائِمِ
« بِقُرْطُبَةَ » الْغَرَّاءِ دَارِ الْأَكَارِمِ
بِلَادٌ بِهَا شَقَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِى (١) وَأَنْجَبَنِى قَوْمٌ — هُنَاكَ — كِرَامُ

❁

فَكَمْ لِىَ فِيهَا مِنْ مَسَاءٍ وَإِصْبَاحِ
بِكُلِّ غَزَالٍ مُشْرِقِ الْوَجْهِ وَضَّاحِ
يُفَدِّمُ (٢) أَفْوَاهَ الْكُؤُوسِ بِتُفَّاحِ
إِذَا طَلَعَتْ — فِى رَاحِهِ — أَنْجُمُ الرَّاحِ فَإِنَّا — لِإِعْظَامِ الْمُدَامِ — قِيَامُ

❁

وَيَوْمٍ لَدَى « النَّبْتِيِّ » فِى شَاطِئِ النَّهْرِ
تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِى فِتْيَةٍ زُهْرِ (٣)
وَلَيْسَ لَنَا فَرْشٌ سِوَى يَانِعِ الزَّهْرِ
يَدُورُ بِهَا عَذْبُ اللَّمَا أَهْيَفُ الْخَصْرِ بِفِيهِ — مِنَ الثَّغْرِ الشَّنِيبِ — نِظَامُ (٤)

---

(١) التمائم — جمع تميمة — وهى عوذة تعلق على الأطفال مخافة العين ، ومنه قول القائل : « من علق تميمة فلا أتم الله له » وقول الشاعر :

« وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع . »

(٢) فدّم فم الآنية وأفدمها جعل عليها الفدام أى الغطاء .

(٣) زهر : مشرق الوجوه ، وقريب من هذا — فى باب الخمريات — قول أبى نواس :

« ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنى ويابس
حبست بها صحبى فجددت عهدهم وإنى على أمثال تلك لحابس
ولم أدر منهم غير ما شهدت به — بشرقى ساباط — الديار البسابس
أقمنا بها يوما ويوما وثالثا ويوما له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح فى عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها مها تدريها بالقسى الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس » .

(٤) الشنيب — من الشنب — وهو رقة أو هو عذوبة فى الأسنان ، وقيل نقط بيض فيها .

وَيَوْمٍ « بِجُوفِ الرُّصَافَةِ » مُبْهِجِ
مَرَرْنَا بِرَوْضِ الْأُقْحُوَانِ الْمُدَبَّجِ
وَقَابَلَنَا فِيهِ نَسِيمُ الْبَنَفْسَجِ
وَلَاحَ لَنَا وَرْدٌ[1] كَخَدٍّ مُضَرَّجٍ نَرَاهُ أَمَامَ النَّوْرِ وَهْوَ إِمَامُ

⁂

وَأَكْرِمْ بِأَيَّامِ «الْعُقَابِ» السَّوَالِفِ[2]
وَلَهْوٍ أَثَرْنَاهُ بِتِلْكَ الْمَعَاطِفِ
بِسُودِ أَثِيثِ الشَّعْرِ بِيضِ السَّوَالِفِ
إِذَا رَفَلُوا فِي وَشْيِ تِلْكَ الْمَطَارِفِ[3] فَلَيْسَ - عَلَى خَلْعِ الْعِذَارِ - مَلَامُ

⁂

وَكَمْ مَشْهَدٍ عِنْدَ « الْعَقِيقِ » وَجِسْرِهِ
قَعَدْنَا عَلَى حُمْرِ النَّبَاتِ وَصُفْرِهِ
وَظَبْيٍ يُسَقِّينَا سُلَافَةَ خَمْرِهِ
حَكَى جَسَدِي - فِي السُّقْمِ - رِقَّةَ خَصْرِهِ لَوَاحِظُهُ - عِنْدَ الرُّنُوِّ - سِهَامُ

⁂

فَقُلْ لِزَمَانٍ قَدْ تَوَلَّى نَعِيمُهُ
وَرَثَّتْ - عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي - رُسُومُهُ
وَكَمْ رَقَّ فِيهِ - بِالْعَشِيِّ - نَسِيمُهُ
وَلَاحَتْ لِسَارِي اللَّيْلِ فِيهِ نُجُومُهُ : « عَلَيْكَ مِنَ الصَّبِّ الْمَشُوقِ سَلَامُ »

---

(١) في الأصل : « بجد »

(٢) السوالف — جمع سالفة — وهى صفحة العنق ، وقيل : ناحية مقدمها من لدن معلق القرط إلى الترقوة. وقد تقدم في ص (٥٤) وما يليها شرح أمكنة ومعاهد بقرطبة منها (جوف الرصافة) و(العقاب) فارجع إليها إن شئت .

(٣) المطارف — جمع مطرف — وهو رداء من خز مربع ذو أعلام .

سلوى المضطر

لَئِنْ قَصَّرَ الْيَأْسُ مِنْكِ الْأَمَلْ ... وَحَالَ تَجَنِّيكِ دُونَ الْحِيَلْ
وَنَاجَاكِ - بِالْإِفْكِ - فِيَّ الْحَسُودُ ... فَأَعْطَيْتِهِ - جَهْرَةً - مَا سَأَلْ
وَرَاقَكِ سِحْرُ الْعِدَا الْمُفْتَرَى ... وَغَرَّكِ زُورُهُمُ الْمُفْتَعَلْ
وَأَقْبَلْتِهِمْ فِيَّ وَجْهَ الْقَبُولِ ... وَقَابَلْتِهِمْ بِشْرُكِ الْمُقْتَبَلْ
فَإِنَّ ذِمَامَ الْهَوَى لَمْ أَزَلْ ... أُبَقِّيهِ[1] حِفْظًا كَمَا لَمْ أَزَلْ

* * *

فَدَيْتُكِ - إِنْ تَعْجَلِي - بِالْجَفَا ... فَقَدْ يَهَبُ الرَّيْثَ بَعْضُ الْعَجَلْ[2]
عَلَامَ أَطَّبَتْكِ[3] دَوَاعِي الْقِلَى ؟ ... وَفِيمَ ثَنَتْكِ نَوَاهِي الْعَذَلْ ؟
أَلَمْ أَلْزَمِ الصَّبْرَ كَيْمَا أَخِفَّ ؟ ... أَلَمْ أُكْثِرِ الْهَجْرَ كَيْ لَا أُمَلْ
أَلَمْ أَرْضَ مِنْكِ بِغَيْرِ الرِّضَى ... وَأُبْدِي السُّرُورَ بِمَا لَمْ أَنَلْ ؟
أَلَمْ أَغْتَفِرْ مُوبِقَاتِ الذُّنُو ... بِ عَمْدًا أَتَيْتِ بِهَا أَمْ زَلَلْ ؟

---

(١) فى الأصل : « أبكيه »

(٢) فى هذا تضمين للمثل المشهور : « رب عجلة تهب ريثا » ، قالوا : وأصل المثل فيما حكاه المفضل الضبي أن مالك بن عوف بن أبى عمرو بن عوف بن محلم شام غيما فأراد أن يرحل بامرأته حمامة بنت عوف بن أبى عمرو ، فقال له مالك : أين تظعن يا أخى ؟ قال : أطلب موقع هـذه السحابة ، قال : لا تفعل فانه ربما خيلت وليس فيها قطر ، وأنا أخاف عليك ، قال : لكنى لست أخاف فضى ، وعرض له عبسى فأعجله عن امرأته وجعلها بين نسائه ولم يكشف لها سترا ، فقال مالك بن سنان : مافعلت أخى ، قال : نفتنى عنها الرماح فقال مالك : رب عجلة تهب ريثا ، وفروقة يدعى ليثا ، ورب غيث لم يكن غيثا .

(٣) اطبتك : أعجبتك وراقتك . قال ابن دريد :

« ولا اطبى عينى — مذ فارقتهم — شىء يروق العين من هذا الورى

وَمَا سَاءَ ظَنِّيَ فِي أَنْ يُسِيءَ بِيَ الْفِعْلَ حُسْنُكِ حَتَّى فَعَلْ

عَلَى حِينِ أَصْبَحْتِ حَسْبَ الضَّمِيرِ وَلَمْ تَبْغِ مِنْكِ الْأَمَانِي بَدَلْ

وَصَانَكِ مِنِّي وَفِيٌّ أَبِيٌّ لِعِلْقِ الْعَلَاقَةِ أَنْ يُبْتَذَلْ

***

سَعَيْتِ لِتَكْدِيرِ عَهْدٍ صَفَا ، وَحَاوَلْتِ نَقْصَ وِدَادٍ كَمَلْ

فَمَا عُوفِيَتْ مِقَتِي [1] مِنْ أَذًى وَلَا أُعْفِيَتْ ثِقَتِي مِنْ خَجَلْ

وَمَهْمَا هَزَزْتُ إِلَيْكِ الْعِتَا بَ ظَاهَرْتِ بَيْنَ ضُرُوبِ الْعِلَلْ

كَأَنَّكِ نَاظَرْتِ أَهْلَ الْكَلَامِ وَأُوتِيتِ فَهْمًا بِعِلْمِ الْجَدَلْ

وَلَوْ شِئْتِ رَاجَعْتِ حُرَّ الْفِعَالِ وَعُدْتِ لِتِلْكَ السَّجَايَا الْأُوَلْ

فَلَمْ يَكُ حَظِّيَ مِنْكِ الْأَخَسَّ وَلَا عُدَّ سَهْمِيَ فِيكِ الْأَقَلّ

***

عَلَيْكِ السَّلَامُ سَلَامَ الْوَدَاعِ وَدَاعَ هَوًى مَاتَ قَبْلَ الْأَجَلْ

وَمَا بِاخْتِيَارٍ تَسَلَّيْتُ عَنْكِ ، وَلٰكِنَّنِي : مُكْرَهٌ لَا بَطَلْ [2]

وَلَمْ يَدْرِ قَلْبِيَ كَيْفَ النُّزُوعُ إِلَى أَنْ رَأَى سِيرَةً فَامْتَثَلْ

وَلَيْتَ الَّذِي قَادَ عَفْوًا إِلَيْكِ أَبِيَّ الْهَوَى فِي عِنَانِ الْغَزَلْ

يُحِيلُ عُذُوبَةَ ذَاكَ اللَّمَا وَيَشْفِي مِنَ السُّقْمِ تِلْكَ الْمُقَلْ .

---

(١) مقتى : حبي .

(٢) يقول : إنني مرغم على السلو وليس لى فيه اختيار وفى المثل « مكره أخوك لا بطل » يضرب لمن يحمل على ما ليس من شأنه ، ولا هو داخل فى حدود استطاعته.

فى مدح المعتضـــد

« وقال أيضا يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد . »

لِلْحُبِّ - فى تِلْكَ الْقِبَابِ - مَرَادُ(١) ‏ ‏ ‏ ‏ لَوْ ساعَفَ الْكَلِفَ الْمَشُوقَ مُرَادُ

لِيَغُرْ هَوَاكَ فَقَدْ أَجَدَّ حِمَايَةً ‏ ‏ ‏ ‏ لِفَتَاةِ نَجْدٍ فِتْيَةٌ أَنْجَادُ(٢)

كَمْ ذَا التَّجَلُّدُ؟ لَنْ يُسَاعِفَكَ الْهَوَى ‏ ‏ ‏ ‏ بِالْوَصْلِ إِلَّا أَنْ يَطُولَ نِجَادُ(٣)

أَعَقِيلَةَ السِّرْبِ! الْمُبَاحُ لِوِرْدِهَا ‏ ‏ ‏ ‏ صَفْوُ الْهَوَى إِذْ حُلِّئَ الْوُرَّادُ(٤)

مَا لِلْمَصَايِدِ لَمْ تَنَلْكِ بِحِيلَةٍ؟ ‏ ‏ ‏ ‏ إِنَّ الظِّبَاءَ لَتُدَّرَى(٥) فَتُصَادُ

إِنْ يَعْدُ عَنْ سَمُرَاتِ جِزْعِكِ سَامِرٌ ‏ ‏ ‏ ‏ فِى كُلِّ مُطَّلَعٍ لَهُمْ إِرْعَادُ(٦)

---

(١) مكان ارتياد . (٢) ليغر : لينحدر إلى الغور ، والانجاد : جمع نجيد وهو الشجاع ذو النجدة والبأس . (٣) يقول : ما هـذا التجلد والصبر ؟ إنه لن يسعدك الهوى بالوصل ما لم تكن شجاعا طويل النجاد بحيث يهابك الأعداء ، وتستطيع زيارة هذه الحبيبة فى حى قومها رغم رقبائهم ووعيدهم.

(٤) العقيلة : الكريمة من النساء المخدرة ، وحلئ الوراد : منعوا من ورود الهوى صفوا ، أى يا عقيلة بين سرب من النساء مباح لها ورد الهوى صافيا ممنوع غيرها من وروده ، وجواب النداء فى البيت بعده .

(٥) المصايد : بلا همز جمع مصيدة كمعيشة ومعايش ، وتدرى : تفتعل من ادرى الصائد الصيد إذا ختله واحتال له ليصيده ، قال الشاعر :

« وماذا يدرى الشعراء منى ‏ ‏ وقد جاوزت حدّ الأربعين. »

وقال أبو نواس فى وصف كأس :

« قرارتها « كسرى » وفى جنباتها ‏ ‏ مها تدّريها — بالقسى — الفوارس . »

(٦) سمرات : جمع سمرة (بفتح فضم) ضرب من الشجر . قال امرؤ القيس :

« كأنى غداة البين — يوم ترحلوا — ‏ ‏ لدى سمرات الحى ناقف حنظل . »

وجزعك : أراد به جزع الوادى أى منقطعه الذى يقطعه عرضا إذا أراد زيارتها ، والسامر : مجلس السمر يقول : إن يعدنى ويمنعنى عن سمرات جزع واديك سمار من قومك لهم فى كل ثنية ومطلع إرعاد وإبراق وزجر وتخويف ، وجواب الشرط فى البيت بعده .

فبما ترقرق للمتيم بينها غلل شفى حر الغليل براد (١)
أنا حين أطرق ليس يفتأ طارقي شوق كما طرق السليم عداد (٢)
ينهى جفاؤك عن زيارتي الكرى كيلا يزور خيالك المعتاد
لا تقطعي صلة الخيال تجنبا إذ فيه من عوز الوصال سداد (٣)
ما ضر أنك بالسلام ضنينة أيام طيفك بالعناق جواد
هلا حملت السقم عن جسم له في كل زرت عليك فؤاد
أو عدت من سقم الهوى، إن الهوى مما يطيل ضنى الفتى فيعاد
إيها ! فلولا أن أروعك بالسرى لدنا وساد أو لطال سواد (٤)

---

(١) ترقرق : تحرك وجاء وذهب كما يرى فى ترقرق السراب والماء وفرند السيف ، والضمير فى «بينها» عائد على السمرات ، والغلل : الماء الذي يتملل بين الشجر ، والغليل : العطش ، والبراد : البارد ، يقول : إن يمنعني قومك من الوصول إليك فمسيل الوادى الذى يتملل ماؤه بين سمرات الحى ما يشفى غليلى ويبرد غلتى ، يريد أن الوصول إلى هذا المكان يطفئ حرارة الشوق عنده ، وقد ورد هذا البيت والذى قبله فى الأصل على هذه الصورة :

«إن يعدعن ثمرات حرنك سامر فى كل مطلع لهم إرهاد
فبما ترقرق للمتيم بينها غلل تنى جر الدليل براد . »

(٢) السليم : الملدوغ ، وعداد السليم : اهتياج الوجع عنده ، وذلك إذا تمت له سنة من يوم لدغ هاج به الألم ، أو عداده أن تعد له سبعة أيام فإن مضت رجوا له البرء ، يقول : أنا حين أطرق برأسى مفكرا يطرقنى من ألم الشوق ما يطرق اللديغ هاج به الألم المعاود .

(٣) سداد : بالكسر هو كل شىء سددت به خللا ، ومنه سداد القارورة وهو صمامها الذى يسد به رأسها ، ويقال : سداد من عوز وسداد من عيش وهو ما تسد به الحاجة .

(٤) الوساد : المخدة والسواد : السرار مصدر ساودها مساودة وسوادا أى سارها مسارة وسرارا فأدنى سواده من سوادها ، وقيل لابنة الخس : «لم زنيت وأنت سيدة قومك» ؟ فقالت : «قرب الوساد ، وطول السواد .» وأرادت بطول السواد كثرة المسارة عند النوم لأن المسارة يلزمها قرب السواد من السواد، أى دنو شخصها من شخصه ، وهو مثل يضرب للأمر يلقى صاحبه فيما يكره .

لَغَشِيتُ سَجْفَكَ فِي مُلاَءَةِ نَثْرَةٍ ... فُضُلٍ سِوَى أَنَّ الْعِطَافَ نِجَادُ (١)
لِأَمِيلَ فِي سُكْرِ اللَّمَا فَيَبِيتَ لِي ... - مِمَّا حَوَى ذَاكَ السِّوَارُ - وِسَادُ
فَعِدِي الْمُنَى، فَوَعِيدُ قَوْمِكِ لَمْ يَكُنْ ... لِيَعُوقَ عَنْ أَنْ يُقْتَضَى الْمِيعَادُ

***

أَصْبُو إِلَى وَرْدِ الْخُدُودِ إِذَا عَدَتْ ... جُرْدٌ - تُبَلِّغُنِي جَنَاهُ - وِرَادُ
وَأَرَاحُ لِلْعِطْرِ السَّطُوعِ أَرِيجُهُ ... إِنْ شِيبَ بِالْجَسَدِ الْعَطِيرِ جِسَادُ (٢)
عَزْمٌ إِذَا قَصَدَ الْحِمَى لَمْ يَثْنِهِ ... أَنَّ الْقَنَا - مِنْ دُونِهَا - أَقْصَادُ (٣)
مَنْ كَانَ يَجْهَلُ مَا الْبَلِيدُ، فَإِنَّهُ ... مَنْ تَطَّبِيهِ - عَنِ الْحُظُوظِ - بِلاَدُ (٤)
وَفَتَى الشَّهَامَةِ مَنْ - إِذَا أَمَلٌ سَمَا - ... نَفَذَتْ بِهِ شُورَى أَوِ اسْتِبْدَادُ (٥)

***

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي الْأَحِبَّةَ إِذْ أَبَتْ ... ذِكْرَاهُمُ أَنْ يَطْمَئِنَّ مِهَادُ
لاَ يَأْسَ، رُبَّ دُنُوِّ دَارٍ جَامِعٍ ... لِلشَّمْلِ قَدْ أَدَّى إِلَيْهِ بِعَادُ (٦)

---

(١) السجف : الستر ، قالوا : أو هو الستران المقرونان بينهما فرجة ، أو هو كل باب ستر بسترين مقرونين ، فكل شق سجف وسجاف ، ويقال : اسجف الستر أى أرسله ، والملاءة : الريطة ، والنثرة الدرع السلسلة الملبس أو الواسعة ، والفضل — كالفضلة — : الثياب التى تبتذل للنوم ، وثوب فضل أى واحد أو هو أن يخالف بين طرفيه فيحملهما على عاتقه ويتوشح به ، والنجاد : حمائل السيف وضعها على عاتقه فكانت بدل العطاف ، يقول : لغشيت سجفك ، ودخلت عليك سترك فى درع واسعة كالملاءة ، فضل أى خالفت بين طرفيها فجعلتهما على عاتقى حين توشحت بها ، أو فضل أى واحدة ليس على غيرها سوى ما وضعته على عاتقى كالعطاف من نجاد السيف أى حمائله .

(٢) الجسد : الثوب المصبوغ بالزعفران أو العصفر ، والجساد : الزعفران ، قالوا : «والجسد والجساد : الزعفران» ويقال : أجسد ثوب فلان إجساداً فهو مجسد . يقول : إنى أرتاح وأنعم بعطرك الساطع إذا امتزج طيب الزعفران بثوبك الأحمر المصبوغ بالزعفران أو الأصفر المصبوغ بالعصفر .

(٣) أقصاد : يقال تقصدت الرماح تكسرت ورمح أقصاد منكسر ، ورماح أقصاد متكسرة يوصف به الواحد والجمع ، يقول : إذا اعتزمت زيارتها ، وقصدت حماها لم يصرفنى عن عزمى أن الرماح تتكسر دون الوصول اليها ، وفى الأصل : « القنى . »

(٤) اطباه : ازدهاه ، وشاقه وأعجبه .

(٥) وفى الأصل : « نفذت به شورى أو استبداد »

(٦) وفى الأصل : « لأبأس

إنْ أقْتَرِبْ فَمَوَاقِعُ الْكَرَمِ ـ الَّذِي   فِي الْغَرْبِ شِمْتُ بُرُوقَهُ ـ أَرْتَادُ
أَوْ أَنْأَ ـ عَنْ صِيدِ الْمُلُوكِ بِجَانِبِي ـ   فَهُمُ الْعَبِيدُ مَلِيكُهُمْ « عَبَّادُ » (١)
الْمَجْدُ عُذْرٌ فِي الْفِرَاقِ لِمَنْ نَأَى   لِيَرَى الْمَصَانِعَ مِنْهُ كَيْفَ تُشَادُ (٢)
يَا هَلْ أَتَى مَنْ ظَنَّ بِي ـ فَظُنُونُهُ   شَتَّى تَرَجَّحُ بَيْنَهَا الْأَضْدَادُ ـ
أَنِّي رَأَيْتُ « الْمُنْذِرَيْنِ » كِلَيْهِمَا   فِي كَوْنِ مُلْكٍ لَمْ يُحِلْهُ فَسَادُ
وَبَصُرْتُ بِالْبُرْدَيْنِ إِرْثِ « مُحَرِّقٍ » (٣)   ـ لَمْ تَخْلُقَا ـ إِذْ تَخْلُقُ الْأَبْرَادُ

---

(١) وفى الأصل :

« أو أماء ص صيد الملوك بجانبى   فهم العبيد ملوكهم عباد . »

(٢) وفى الاصل : « المجد عدر فى العراق لمن نأى »

(٣) محرق

هو ـ كما فى سرح العيون ـ « عمرو بن المدر بن ماء السماء » وهو « عمرو بن هند » وكان يعرف بأمه هند بنت الحرث بن حجر آكل المرار الكندى ، وكان يقال لعمرو مضرط الحجارة لشدة بأسه ، وسمى محرقا لقصة استوفى أبو الفرج شرحها فى كتاب الأغانى ، فقال : كان قد عاقد حياطئ على ألا ينازعوا، ولايفاخروا ، ولايغزوا ، ثم أنه غزا اليمامة ورجع معتبطاً ومرطى ، فقال له زرارة بن عدس التميمى ، وكان من خواصه أبيت اللعن أصب من هذا الحى شيئاً ، فقال ويلك إن لهم عقداً . قال وإن كان لهم ، فلم يزل به حتى أصاب نسوة وأدواداً ، فقال فى ذلك قيس بن وجرة الطائى :

« أراك ابن هند لم تعفك أمانة   وما المرء إلا عهده وموائقه
فأقسمت جهدى بالأباطح من منى   وما حب فى بطحائهن درادقه
لئن لم تعير بعض ما قد فعلته   لانتحين للعظم ذو أنت عارقه . »

سمى عارقا بهذا البيت وبلغ الشعر عمرو بن هند ، فقال له زرارة بن عدس أبيت اللعن أيتوعدك ؟ فقال عمرو لرميلة بن شعار الطائى أيهجونى ابن عمك ويتوعدنى . قال لاوالله ماهجاك ، ولكنه قال :

« والله لو كان ابن حفنة جاركم   ما إن كسا كم صيمة وهوانا . »

وأراد رميلة أن يسل سخيمته ، فقال والله لأقتلنه ، فبلغ ذلك عارقا ، فقال منشداً :

« أيوعدنى والرمل بينى وبينه   تبين رويداً ما امامة من هند
غدرت بعهد كنت أنت أخذتنا   عليه وشر الشيمة الغدر بالعهد
وقد يترك الغدر الفتى وطعامه   إذا هو أمسى حلاب دم الفصد . »

فبلغ عمرو بن هند قوله فغزا اطيأ فاسرأ سرى من بنى عدى بن أخزم رهط حاتم ، فوفد حاتم عليه وسأله فى الأسرى فأطلقهم له ، وكان المنذرين ماء السماء أبو عمرو قد وضع ابناً له صغيراً يقال له مالك عند زرارة

. . . .

ابن عدس ، وأن مالكا خرج وما يتصيد فأحفق ولم يجد شيئاً ، فرجع فمرّ بإبل لرجل من بنى عبدالله بن دارم يقال له سويد ، وكان عند سويد ابنة زرارة ، فولدت له سبعة غلمة ، فأمر مالك بن المنذر بناقة سمينة منها فنحرها ، ثم اشتوى وسويد نائم ، فلما انتبه شدّ على مالك بعصا فضربه فأمته ، فمات وخرج سويد هاربا حتى لحق بمكة ، وكانت طيء تطلب عمرو بن زرارة وبنى أبيه حتى بلغهم ماصنعوا بأخى الملك ، فقال ثعلبة بن عمرو الطائى :

« من مبلغ عمرواً بأن المرء لم يخلق صباره
وحوادث الأيام لا تبقى لها إلا الحجاره
أن ابن عمرو أمته بالسفح أسفل من أواره
تسفى الرياح خلال كشحيه وقد سلبوا ازاره
فاقتل زرارة لا أرى فى القوم أوفى من زراره . »

فلما بلغ هذا الشعر عمرو بن هند بكى وفاضت عيناه ، وبلغ الخبر زرارة فهرب وركب عمرو فى طلبه فلم يقدر عليه ، فأخذ امرأته وهى حبلى ، فقال أذكر فى بطنك أم أنثى ؟ قالت لا علم لى بذلك فبقر بطنها ، فقال قوم زرارة لزرارة والله ماقتلت أخا الملك فأنه فأصدقه الخبر ، فأتاه فتنصل إليه ، فقال علىّ بسويد ، فقال إنه لحق بمكة ، قال فعلىّ بنيه ، فأتاه بنبيه السبعة وأمهم بنت زرارة غلمة بعضهم فوق بعض ، فأمر بقتلهم ، فتناولوا أحدهم فضربوا عنقه وتعلق بزرارة الآخرون ، فقال زرارة : يابعضى ، فذهبت مثلا وقتلوا وآلى عمرو بن هند ألية ليحرقنّ من بنى حنظلة مائة رجل ، فخرج يريدهم وبعث على مقدمته عمرو بن ثعلبة الطائى فوجد القوم قد أنذروا فأخذ منهم ثمانية وتسعين رجلا بناحية البحرين فحبسهم ولحقه ابن هند فضربت قبته وأمر لهم بالخدود ثم أضرم فيه ناراً ، فلما احتدمت وتلظت قذف بهم فيه فاحترقوا فأقبل راكب من البراجم وهم بطن من بنى حنظلة لا يدرى بشىء مما كان يصنع ببعيره فأخذ وألقى فى النار وأقام عمرو بن هند لايرى أحداً ، فقيل له لو تحللت بامرأة منهم فقد أحرقت تسعة وتسعين رجلا ، فدعا بامرأة من بنى حنظلة ، فقال لها من أنت ؟ قالت الحمراء بنت ضمرة ، فقال إنى لأظنك أعجمية ؟ فقالت : ما أنا بأعجمية ولا ولدتنى العجم :

« إنى لبنت ضمرة بن جابر سادا معدا كابرا عن كابر . »

فقال عمرو : أما والله لولا مخافتى أن تلد مثلك لصرفتك عن النار ، فقالت : « أما والذى أسأله أن يضع وسادك ويخفض عمادك ، ماقتلت الا نساء أعاليها ثدىّ ، وأسافلها دمى . » قال اقذفوها فى النار فالتفتت وقالت : ألا فتى يكون مكان عجوز ، فلما أبطئوا عليها قالت : هيهات صار الفتيان حمماً وسمى من ذلك اليوم محرقاً ، ومن ملوك جفنة أيضاً المحرق لكنه غير صاحب البردين — فأما أمر البردين فحكى أن الوفود اجتمعت عند محرق فأخرج بردين من لباسه يبلو الوفود وقال ليقم أعزّ العرب قبيلة فليأخذهما ، فقام عامر بن أحيمر فأخذهما فأتزر بالواحد وارتدى بالآخر ، فقال له أنت أعزّ العرب قبيلة ؟ قال العز كله في معد والعدد فى معد ، ثم فى نزار ، ثم فى مضر ، ثم فى خندف ، ثم فى تميم ، ثم فى سعد ، ثم فى كعب ، ثم فى بهدلة فمن أنكر هذا فلينا فرنى فسكت الناس ، فقال هذه عشيرتك كما تزعم فكيف أنت فى نفسك وأهل بيتك ؟ قال أنا أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وعم عشرة ، وخال عشرة ، وها أنا فى نفسى وشاهد العز شاهدى ، ثم وضع قدمه على الأرض وقال من أزالها من مكانها فله عشرة من الابل فلم يقم إليه أحداً ، وخرج بالبردين فضربت العرب بعزه المثل وببرديه

وَعَرَفْتُ مِنْ ذِي الطَّوْقِ عَمْرٍو(١) ثَأْرَهُ لِجَذِيمَةَ الْوَضَّاحِ(٢) حِينَ يُكَادُ

---

(١) عمرو « ذو الطوق »

انظر ص « ١٤٥ » من هذا الديوان .

(٢) جذيمة الوضاح أو الأبرص

هو جذيمة بن مالك بن عامر التنوخى ، وقيل الأزدى أوّل من قاد العرب وملك على قضاعة ، وكانت منازله الحيرة والانبار وولايته من قبل اردشير بن بابك ، وكان أبرص فعدل عن هذا الاسم ، فقيل الأبرش والوضاح ، وزعم بعضهم أنه كان يأنف من اسم الأبرص ، ولذلك كنى عنه بالأبرش ، وفى العرب من يفتخر بذلك . قال الراجز يمدح أبرص :

« أبرص فياض اليـدين أكلف والبرص أدرى بالالها وأعرف . »

وهو أوّل من صنع له الشمع وأدلج من الملوك ، وكان ذا رأى وهمة وتيه مفرط ، ويقال له نديم الفرقدين كان إذا شرب قدحاً صب لهما قدحين ولا ينادم غـيرهما ، وكان سبب ذلك فيما زعموا أنه كان تكهن واتخذ صنمين يقال لهما الضيزنان يستسقى بهما وينتصر على أعدائه ، وكانت اياد قد خرج قوم منهم من الحجاز وانتشروا فيما بين البصرة والكوفة وتمكنوا على ما يلى الحيرة وكثروا بعين أباغ ، فخرج جذيمة غازياً ، وكان فى اياد رجل يقال له عـدىّ بن نصر ، وكان له ظرف وجمال ، وإليـه تنسب الملوك من آل نصر ، فنزل جذيمة ساحتهم ، وبعث اياد قوماً منهم إلى صنمى جذيمة فسقوا سـدنتهم الخمر وسرقوهما فأصبحوا بهما فى اياد ، وبعث اياد إلى جذيمة تقول : إن صنميك قد أصبحا عنـدنا زهداً فيك ورغبـة فينا ، فان عاهدتنا على أن لاتغزونا رددناهما إليك ، فقال جذيمة وتعطونى أيضاً عدىّ بن نصر يكون عندى ففعلوا وانصرف عنهم ، وضم عديا إلى نفسـه وولاه شرابه وأمر مجلسه ، وكان لجذيمة أخت تسمى رقاش وهى بكر ، فأحبت عديا وأحبها ، فسألته أن يخطبها من جذيمة إذا سكر ففعل ذلك وزوّجه بها وأشهد عليه من حضر ، فلما أصبح دخل عليه بثياب العرس ، وكان قد دخل بها تلك الليلة ، فقال جذيمة ما هـذه الآثار ياعدىّ ؟ فقال آثار عرس رقاش ، فقال من زوّجكها ويحك ؟ قال الملك ، فأكبّ على الأرض متفكراً وهرب عدىّ فلم يعرف له أثر ولا خبر ، وأرسل جذيمة إلى أخته يقول :

« خبرينى رقاش لا تكذبينى أبحر زنيت أم بهجين
أم بعبـد فأنت أهل لعبـد أم بدون فأنت أهل لدون . »

قالت بل أنت زوّجتنى امرأ غريباً ولم تشاورنى فى نفسى ، فكفّ عنها وآلى أن لاينادم إلا الفرقدين وحملت رقاش غلاماً وسـمته عمرا ، فلما ترعرع ألبسته وعطرته ودخلت به على خاله ، فلما رآه أحبه وحمله مع ولده وخرج جذيمة متبديا بأهله فى سـنة خصبة ، فأقام فى روضة ذات زهر ونهر ، فخرج ولده وعمرو معهم يجتنون الكمأة ، فكانوا إذا أصابوا كمأة جيـدة أكلوها ، وإذا أصابها عمرو خبأها وانصرفوا إلى جذيمة يتعادون وعمرو يقول : هذا جناى وخياره فيه ، إذ كلّ جانّ يده إلى فيه ، فضمه جذيمة إلى صدره وسرّ بقوله وحلاه بطوق من ذهب ، فكان أوّل عربى لبس الطوق ، ثم إن الجن استطارته فطلبه جذيمة فى الآفاق زماناً فلم يقدر عليه ، ثم أقبل رجلان من قضاعة يقال لهما مالك وعقيل ابنا فارج من الشام يريدان جذيمة وأهديا له طرفا ، فبينما هما يأكلان إذ أقبل فتى عريان قد تلبد شـعره فعرفهما نفسه فنهضا وغسـلا

وَأَتَى بِيَ النُّعْمَانَ (١) - يَوْمَ نَعِيمِهِ - نَجْمٌ تَلَقَّى سَعْدَهُ الْمِيلَادُ
قَدْ أُلِّفَتْ أَشْتَاتُهُمْ فِي وَاحِدٍ إِلاَّ يَكُنْهُمْ أُمَّةً فَيَكَادُ (٢)

رأسه وأصلحا أمره وألبساه ثياباً ، وقالا ما كنا لنهدى جذيمة أنفس من ابن أخته ، وخرجا به إلى جذيمة فسرّ به ورأى الطوق ، فقال شب عمرو عن الطوق فذهبت مثلا ، وقال لمالك وعقيل حكمكما قالا منادمتك ما بقينا وبقيت فكانا من ذلك وهما نديما جذيمة اللذان يضرب بهما المثل وإياهما عنى متمم بن نويرة بقوله فى رثاء أخيه :

« وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا . »

وقيل إنما عنى الفرقدين، ويحكى أن جذيمة سكر مرّة أخرى فقتلهما، فلما أصبح ندم ، وبنى عليهما الغريين ونادم الفرقدين وقيل إن صاحب الغريين المنذر الأكبر ، ثم إن جذيمة أرسل يخطب الزباء ملكة الحضر الحاجز بين الفرس والروم، وكاتبها وترصده فأجابته واستدعته إليها، فاستشار أصحابه فأشاروا عليه بالمضى فخالفهم قصير ابن سعد ، وكان لبيباً ، وقال : إن النساء يهدين إلى الأزواج فعصاه وسار حتى إذا كان بمكان يدعى بقة استشارهم فأشاروا عليه لما يعلمون من رأيه فيها ، فقال قصير انصرف ودمك فى وجهك فأبى ، وظعن جذيمة حتى إذا عاين الكتائب قد استقبلته . قال لقصير ما الرأى ؟ قال تركت الرأى ببقة ، ثم ركب قصير فرساً لجذيمة تسمى العصا فنجا وأخذ جذيمة ، فلما أدخل على الزباء أمرت برواهشه فقطعت والرواهش عروق اليد واستنزفته حتى مات فى خبر طويل مشهور ، وكانت مدة ملكه ستين سنة ، وله أشعار حسنة مشهورة فمنها :

« أضحى جذيمة فى يبرين منزله قد حاز ما جمعت من قبله عاد
مستعمل الخير لا تفنى زيادته فى كل يوم وأهل الخير تزداد . »

(١) النعمان

قالوا إن النعمان كان له نديمان فغضب عليهما فقتلهما ، فلما أصبح ندم على ذلك أشد الندم ، فبنى على قبريهما ضريحين ، وجعل لنفسه يومين فى كل عام يجلس فيهما بجوار القبرين أحدهما يوم نعيم ، والآخر يوم بؤس . فأول من يطلع عليه فى يوم النعيم يعطيه مائة من الابل ، وأول من يطلع عليه فى يوم بؤسه يقتله ويطلى بدمه ضريحى نديميه .

وقد ذكروا مثل ذلك عن المنذر بن ماء السماء ، وقالوا إنه لقى «عبيد بن الأبرص» فى يوم بؤسه فقتله . فقال له جملته التى صارت مثلا فيما بعد وهى قوله : « حال الجريض دون القريض » .

(٢) يقول : قد اجتمع هؤلاء الأعلام الذين أزدانت بهم السير فى شخص واحد هو الممدوح ، فاذا لم يكن أمة مجتمعة فيه صفاتهم ومزاياهم فهو يكاد أن يكون .

وقديماً قال القائل :

« ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد . »

فَــكَأَنَّنِي طَالَعْتُهُمْ بِوِفَادَةٍ لَمْ يَسْتَطِعْهَا « عُرْوَةُ » الْوَفَّادُ (١)

(١) عروة الوفاد

نلخص هنا طرفا من أخباره عن كتاب الأغانى فنقول :
هو عروة بن الورد بن زيد ، وقيل : ابن عمرو بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هرم بن لديم بن عود بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن الريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار ، شاعر من شعراء الجاهلية ، وفارس من فرسانها ، وجواد من أجوادها المقدمين ، وكان يجمع الصعاليك ويقوم بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم ولم يصيبوا معاشا ، ولذلك سمى عروة الصعاليك
ورووا عن عبد الملك بن مروان أنه قال : ما يسرنى أن أحدا من العرب ولدنى ممن لم يلدنى إلا عروة ابن الورد لقوله :

« إنى امرؤ عافى إنائى شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى بجسمى مس الحق والحق جاهد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد . »

ويقال أيضا : إن عبد الملك قال : من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد . قالوا : وكان إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمع هؤلاء وأشباههم ثم يحفر لهم الأسراب ، ويتخذ لهم حظائر يكنفها عليهم ويؤويهم إليها ، ومن قوى منهم بأن برئ من مرضه أو ثابت إليه قوته خرج به معه فأغار ، وجعل لأهل الضعف من أصحابه الباقين نصيبا ، وعن ابن الأعرابى قال : أجدب ناس من بنى عبس فى سنة أصابتهم فأهلكت أموالهم وأصابهم جوع شديد وبؤس ، فأتوا عروة بن الورد فجلسوا أمام بيته ، فلما بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك ، أغثنا ، فرق لهم وخرج ليغزو بهم ويصيب معاشا فنهته امرأته عن ذلك لخوفها عليه من الهلاك ، فعصاها وخرج غازيا ، فمر بمالك بن حمار الفزارى فنحر له جزورا فأكل منها هو وأصحابه ، وأشار عليه مالك أن يرجع فعصاه ، ومضى حتى انتهى إلى بلاد القين فأغار عليهم فأصاب هجمة عاد بها على نفسه وأصحابه
وقال فى ذلك :

« أرى أم حسان الغداة تلومنى تخوفنى الأعداء والنفس أخوف
تقول سليمى لو أقمت لسرنا ولم تدر أنى للمقام أطوف
لعل الذى خوفتنا من أمامنا يصادفه فى أهله المتخلف . »

وقال فى ذلك أيضا :

« أليس ورائى أن أدب على العصا فيشمت أعدائى ويسأمنى أهلى
رهينة قعر البيت كل عشية يطيف بى الولدان أهدج كالرأل
أقيموا بنى أمى صدور ركابكم فكل منايا النفس خير من الهزل
فانكم لن تبلغوا كل همتى ولا أربى حتى تروا منبت الأثل
لعل ارتيادى فى البلاد وحيلتى وشدى حيازيم المطية بالرحل
سيدفعنى يوما إلى رب هجمة يدافع عنها بالعقوق وبالبخل . »

فى قَصْرِ مَلْكٍ كَالسَّدِيرِ[1] أَوِ الَّذِى ناطَتْ بِهِ شُرُفَاتِهَا سِنْدَادُ[2]

---

(١) السـدير

« السـدير » قصر — وهو معرب — قالوا « وأصله بالفارسية « سه دل » أى قبة فيها ثلاث قباب متداخلة » فعربته العرب ، فقالوا : « سـدير » قالوا : « وهو موضع معروف بالحيرة » وقالوا : « هو قصر قريب من « الخورنق » كان النعمان الأكبر اتخذه لبعض ملوك العجم .

وسيأتى ذكره فى شعر الأسود بن يعفر عند الكلام على « سنداد » فى شرح هذه القصيدة .

وقد ذكره « عبد المسيح بن عمرو » عند غلبة « خالد بن الوليد » والمسلمين على « الحيرة » فى خلافة أبى بكر فقال :

« أبعد المنذرين أرى سواما تروّح بالخورنق والسـدير
تحاماه فوارس كل حى مخافة أغلب عالى الزئـير
فصرنا بعد ملك « أبى قبيس » كمثل الشاء فى اليوم المطـير
تقسمنا القبائل من « معد » كأنا بعض أعضاء الجزور »

وقال المخبل فى قصيدته المشهورة :

« فاذا سكرت ، فاننى رب الخورنق والسـدير
وإذا صحوت ، فاننى رب الشويهة والبعير . »

(٢) سـنداد

« سنداد » قصر بالعذيب وهو المقصود هنا ، وسنداد — فى رواية أبى الحسين الأدبى : نهر ، وقد استدلّ على ذلك بقول أبى دؤاد الايادى :

« أقفر الدير فالأجارع من قو مى ، فروق ، فرامح ، فخفيه
فتلاع الملا إلى جرف سـندا د ، فقوّ ، إلى لعاف طميه
موحشات من الأنيس — بها الوحـ ش خناطيل موطن أو بيه . »

قالوا : وسئل عنـه « أبو عمرو » أهو بفتح السين أو كسرها ، فقال : « بفتح السين » وعن صاحب التكملة : بفتح السين وسماعى بالكسر .

وفى رواية « السكونى » : « سنداد منازل لاياد نزلتها لما قاربت الريف ، بعد لصاف وشرج وناظرة ، وهو أسفل سواد الكوفة ، وراء نجران الكوفة .

قال حمزة فى تاريخه : « وكان قد تملك فى القديم من الفرس على مواضع متفرقة من أرض العرب سـتة عشر مرزبانا ، وقد ذكرهم صاحب معجم البلدان « ج ٥ ص ١٥٠ » إلى أن قال : « ثم تملك سنداد على عمل سحت ، وطال مكثه فى الريف حتى بنى فيه أبنية : وهو صاحب القصر ذى الشرفات من « سنداد » الذى يقول فيه « الأسود بن يعفر » « والقصر ذى الشرفات من سنداد »

تَتَوَهمُ الشَّهبَاءُ فِيــهِ كَتِيبَةً بِفِنَاءٍ ، الْيَحْمُومُ فِيــهِ جَوَادُ
يَخْتَالُ مِنْ سَيْرِ الْأَشَاهِبِ وَسْطَهُ بِيضٌ كَمُرْهَفَةِ السُّيُوفِ جِعَادُ (١)

***

فِى «آلِ عَبَّادٍ» حَطَطْتُ فَأَعْصَمَتْ هِمَمِي بِحَيْثُ أَنَافَتِ الْأَطْوَادُ
أَهْلُ الْمَنَاذِرَةِ الَّذِينَ هُمُ الرُّبَا فَوْقَ الْمُلُوكِ إِذِ الْمُلُوكُ وِهَادُ (٢)
قَوْمٌ إِذَا عَدَّتْ مَعَدٌّ عَقِيلَةً مَاءَ السَّمَاءِ ، فَهُمْ لَهَا أَوْلَادُ
بَيْتٌ تَوَدُّ الشُّهْبُ فى أَفْلَاكِهَا لَوْ أَنَّهَــا ـ لِبِنَائِهِ ـ أَوْتَادُ

قال ابن الكلبى :

وكانت « إياد » تنزل سنداد ـ وهو نهر فيما بين « الحيرة » إلى « الابلة » وكان عليه قصر تحج العرب إليه ، وهو القصر الذى ذكره الأسود بن يعفر .

قالوا : ومر « عمر بن عبد العزيز » بقصر لآل جفنة فتمثل « مزاحم » مولاه بقول « الأسود ابن يعفر النهشلى :

«ومن الحوادث ـ لاأبالك ـ أننى ضربت على الأرض بالأسداد
لا أهتدى فيها لمدفع تلعة بين العراق وبين أرض مراد
ماذا أؤمل ـ بعد آل محرق ـ تركوا منازلهم وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ـ ذى الشرفات ـ من سنداد
حلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجئ من أطواد
أرض تخيرها ـ لطيب مقيلها ـ كعب بن مامة وابن أم دؤاد
جرت الرياح على عراص ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأفضل عيشة فى ظل ملك ثابت الأوتاد
فإذا النعيم وكل ما يلهى به يوماً يصير إلى بلى ونفاد .»

فقال له عمر : ألا قرأت : «كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين »

(١) يقول يختال القصر من سير الجداول وسطه متجعدة كبيض السيوف المرهفة ، وفى الأصل :
«يختال من سير الأشاهب وسطه بيض كمرهفه السيوف جعاد .»

(٢) قريب من هذا المعنى قول ابن دريد :
« هم الشماريخ المنيفات الذرى والناس ضحضاح ثغاب وأضى . »

مَمْدُودَةٌ بِلُهَى (١) النَّدَى أَطْنَابهُ ... مَرْفُوعَةٌ - بِالْبِيضِ - مِنْهُ عِمَادُ
مُتَقَادِمٌ إِلاَّ تَكُنْ شَمْسُ الضُّحَا ... لِدَةً لَهُ ، فَنُجُومُهَا أَرْآدُ (٢)
نِيطَتْ «بِعَبَّادٍ» لآلِئُ مَجْدِهِمْ ... فَتَلألأَتْ - فِى تُومِهَا (٣) - الْأَفْرَادُ
مَلِكٌ إِذَا افْتُنَّتْ صِفَاتُ جَلاَلِهِ ... فَتَقَاصَرَتْ عَنْ بَعْضِهَا الْأَعْدَادُ
نَسِيَتْ زَبِيدٌ (٤) عَمْرَهَا بَلْ أَعْرَضَتْ ... .

---

(١) اللهى : العطايا :

(٢) أرآد — جمع رأد — يقال رأد الضحى : أى ارتفاعه ورأد الأرض : خلاؤها ، قال الطغرائى :
« مجدي أخيرا ومجدى أولا شرع ... والشمس رأد الضحى كالشمس فى الطفل.»

(٣) التوم : جمع تومة وهى اللؤلؤة ، وسميت تومة لانها توءمة نظيرتها فى العقد أو فى الأذن ، والافراد : جمع فرد وهو ما لا نظير له فى العقد يقال: فرد وفريد ، ويقال : تاءم أخاه أى ولد معه ، فهو تئمة ، وتوءمه.

(٤) عمرو بن معديكرب الزبيدى

ويضرب المثل باقدامه وشجاعته .

اقــدام عمر فى سماحة حاتم ... فى حلم أحنف فى ذكاء إياس. »

هو — كما فى سرح العيون — عمرو بن معديكرب بن عبد الله الزبيــدى ، وكنيته « أبو ثور » الفارس المشهور صاحب الغارات والوقائع المذكورة فى الجاهلية والاسلام ، وفد على رسول — صلى الله عليه وسلم — فى السنة العاشرة من الهجرة .

قال عمرو :

قدمت المدينة ، فرأيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قافلا من « تبوك » فأردت أن أدنو إليــه ، فنمنعى من حوله .

فقال : « دعوه » فدنوت منه ، فقلت :

« أنعم صباحا أبيت اللعن »

فقال : « ياعمرو أسلم تسلم ويؤمنك الله من الفزع الأكبر » فأسلمت

وعاش « عمرو » إلى أيام عثمان ، وأبلى فى وقائع الاسلام بلاء حسنا مثل وقعة القادسية ، وهو الذى ضرب خطم الفيل بالسـيف فانهزم وانهزمت الأعاجم ، وكان سبب الفتح ومثل وقعة اليرموك وغيرها ، قال الخثعمى ما رأيت أشرف من رجل يوم اليرموك خرج له علج فقتله ، ثم آخر فقتله ثم انهزموا فتبعهم وتبعته ، ثم انصرف إلى خباء له أسود فنزل فدعا بالجفان ودعا من حوله ، قلت من هذا ؟ قالوا عمرو بن معديكرب ، وحدث بن أبى حاتم . قال مررنا يوم القادسية بعمرو بن معديكرب وهو يحضّ الناس بين الصفين ويقول : أيها الناس كونوا أشد مناشا إنّ هذا الرجل من الأعاجم إذا لقى مزراقا فانما هو تيس ، فبينما هو كذلك يحرضنا إذ خرج رجل من الأعاجم فوقف بين الصفين فرماه بنشابة ، فما أخطأت سية قوس كان متنكبها فالتفت ، ثم حمل عليه فاعتنقه ، ثم أخذ بمنطقته فاحتمله فوضعه بين يديه وجاء حتى إذا دنا منا كسر عنقه ،

. . . .

ثم أمر الصمصامة على حلقه فذبحه ونزع سواريه ومنطقته وألقاه، وقال : « هكذا فاصنعوا بهم » فقلنا : « من يستطيع ياأبا ثور أن يصنع كما تصنع ؟ » وحكى أبو عبيدة قال : لما كان فتح القادسية أصاب المسلمون أموالا عظيمة فعزل سعد بن أبي وقاص الخمس ثم قسم البقية فأصاب الفارس ستة آلاف وبقي مال دثر ، فكتب إلى عمر بما فعل فكتب إليه أن رد على المسلمين الخمس وأعط من لحق بك ممن لم يشهد الوقعة ففعل ذلك ، ثم كتب إليه أن أعط ما بقي حملة القرآن ، فأتاه عمرو بن معديكرب ، فقال ما معك من حفظ القرآن ؟ قال : إني أسلمت ، ثم شغلت بالغزو عن حفظ القرآن ، وقبل أتاه بشر بن ربيعة ، فقال له ما معك من حفظ القرآن ؟ قال معي بسم الله الرحمن الرحيم ، فضحك القوم ، فقال سعد ما لك في هذا المال من شيء ولا من نصيب ؟ فقال عمرو منشداً :

« إذا قتلنا ولا يبكي لنا أحد   قالت قريش ألا تلك المقادير

نعطى السوية من طعن له نفذ   ولا سوية إذ تعطى الدنانير. »

وقال بشر أبياتا، وكتب سعد إلى عمر بما قالا ، فكتب إليه : « أعطهما على بلائهما » فأعطاهما أربعة آلاف درهم ، وحكى المدائني قال: كان عمرو بن معديكرب في سرية أميرها سلمان بن ربيعة فعرض الخيل ، فمر عمرو على فرس له ، فقال هذا هجين ، فقال عمرو عتيق . قال فأمر به فعطش ، ثم دعا بترس ، فقلب فيه ماء فدعا بخيل عتاق فشربت فجاء فرس عمرو ، فثنى يديه وشرب وهكذا يصنع الهجين ، فقال له ألا ترى ؟ فقال عمرو أجل الهجين يعرف الهجين ، فبلغ عمر ، فكتب إليه قد بلغني ما قلت لأميرك ، وبلغني أن لك سيفاً تسميه الصمصامة وعندي سيف مصمم فالله لئن وضعته على هامتك لا أقلع حتى أبلغ به شراسيفك فإن سرك أن تعلم أحق ما أقول فعد ، ويروى أن عمر رضي الله عنه سأله يوماً ، فقال ماتقول في الحرب ؟ قال مرة المذاق إذا كشفت عن ساق ، فمن صبر عرف ، ومن ضعف تلف . قال فما تقول في الرمح ؟ قال حليلك وربما خانك . قال فالنبل ؟ قال منايا تخطئ وتصيب . قال فالترس ؟ قال عليه تدور الدوائر . قال فالسيف ؟ قال عندك ثكلتك أمك . قال عمر بل أمك ، فقال الحمى أصرعتني ، فأغلظ له عمر في الكلام ، فقال :

« أتوعدني كأنك ذو رعين   بأنعم عيشة أو ذو نواس

فلا تفخر بملكك كل ملك   يصير لذلة بعد الشماس . »

فقال عمر صدقت فاقتص مني قال يا أمير المؤمنين لولا آية سمعتها منك لحللتك بالسيف أحد منك أم تركك ، قال وما هي ؟ قال سمعتك تقرأ أنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ، والله لو علمت انى إذا دخلتها مت لمت ، وحكى أن عيينة بن حصن لما قدم الكوفة أقام أياماً ، ثم قال : والله مالي بأبي ثور عهد ، ثم ركب فرساً وسأل عن محلة بني زبيد فأرشد إليها وسأل عن عمرو فوقف ببابه ، ثم قال : يا أبا ثور اخرج إلينا فخرج مؤتزراً كأنما كسر وجبر، فقال له انعم صباحاً أبا مالك ؟ فقال أوليس قد بدلنا الله تعالى بهذا السلام عليكم ، فقال دعنا مما لانعرف انزل فإن عندي كبشاً سمينا فنزل فعمد إلى الكبش فذبحه ثم ألقاه في قدر وطبخه ، وجلس يتحدث إلى أن أدرك فثرد في جفنة عظيمة وألقى القدر عليها وقعدا فأكلا منها ثم قال : أي الشراب أحب إليك اللبن أم ما كنا نتنادم عليه في الجاهلية ، فقال أو ليس حرمها الله تعالى في

. . . .

الاسلام ، فقال: أنت أقدم إسلاما أم أنا ؟ قال: أنت ، قال: فاني قد سمعت ما بين دفتي المصحف فوالله ماوجدت لها تحريماً إلا انه قال : فهل أنتم منتهون. فقلت: «لا» ثم جاء بنبيذ وجلسا يشربان ويتحدثان ويذكران أيام الجاهلية حتى أمسيا ، فلما أراد عيينة الانصراف . قال عمرو إن انصرف أبو مالك بغير حباء إنها لوصمة فأمر له بناقة أرحبية وحمله عليها ثم أتى ببرود فيه أربعة آلاف درهم فوضعه بين يديه ، فقال أما المال فوالله لا آخذه ولا ألمسه ، فانصرف وهو يقول :

« حريت أبا ثور جزاء كرامة فنعم الفتى أنت المزور المضيف . »

وقيل انه لم يكن في عمرو خصلة رديئة إلا الكذب ، حكى أبو عمرو بن العلاء ، قال: وقف عمرو يوماً بالمربد يتحدث — على عادتهم — فقال : « غزوت في الجاهلية على بني مالك فخرجوا مستدعين بخالد بن الصقعب فحملت عليه بالصمصامة فأخذت رأسه» وكان خالد بن الصقعب حاضراً، فقال من الجماعة : «مهلا أبا ثور قتيلك يسمع كلامك » وأشار إليه ، فقال اسكت إنما أنت محدث فاسمع أو قم ، ثم التفت إلى خالد وقال : « إنما نرهب هذه المعدية بهذه الأخبار » ومضى في حديثه فلم يقطعه ، فقال له رجل : « انك لشجاع في الحرب والكذب» فقال : « إني كذلك » وحكى أبو عمرو بن العلاء قال : جاء رجل إلى عمرو وهو واقف بالمربد على فرس له وقد أسن فقال لانظرن ما بقي من قوة أبي ثور فأدخل يده بين ساقه وحبب الفرس ففطن عمرو لذلك فضم رجله وحرك الفرس فجعل الرجل يعدو مع الفرس لايقدر أن ينزع يده حتى إذا بلغ منه صاح به فقال : « يا ابن أخي مالك ؟ » قال : « يدي تحت ساقك » فخلى عنه وقال : « إن في عمك بقية بعد » ومن كلامه حكي أنه أتى مجاشع بن مسعود فقال : أسألك حملان مثلي وسلاح مثلي فأمر له بفرس جواد وسيف صارم وعشرين ألف درهم فمر ببني حنظلة فقالوا: « يا أبا ثور كيف رأيت صاحبك ؟ » فقال: «لله بنو مجاشع ما أشد في الحروب لقاءها ، وأجزل في اللزبات عطاءها ، وأحسن في المكرمات بناءها ، والله لقد قاتلتها فما أجبنتها وسألتها فما أبخلتها ، وهاجيتها فما أفحمتها » ومن جيد شعره :

« ولما رأيت الخيل زوراً كأنها جداول ماء أرسلت فاسبطرت
فجاشت إلى النفس أول مرة فردت على مكروهها فاستقرت
ظللت كأني للرماح دريئة أقاتل عن أحساب جرم وفرت
ولو أن قومي أنطقتني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت . »

قوله أقاتل عن أحساب جرم من الهجاء الممض ، وذلك أنه ذكر أن قوما فروا وليس هو منهم غير أنه يقاتل غضباً لهم وعصبية ، وقوله ولو أن قومي أنطقتني ، يعني لو قاتلوا وطاعنوا نطقت بمدحهم ، ولكنهم فروا ، فأسكتوني عن المدح ، والأصل في الاجرار أن الفصيل إذا أرادوا فطامه شقوا لسانه فلم يقدر على الرضاع وفي القصيدة التي أولها : « أمن ريحانة الداعي السميع »

يقول :

« وقد عجبت أمامة أن رأتني تفرع لمتي شيب فظيع
أشاب الرأس أيام طوال وهم ما تبلغه الضلوع
وزحف كتيبة للقاء أخرى كأن زهاءها رأس صليع

. . . .

وإسناد الأسنة نحو نحرى وهز المشرفية والوقع
فإن تنب النوائب آل عصم تجد حكماءهم فيها دموع
إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع
وصله بالنزوع فكل شيء سما لك أو سموت له نزوع »

وقوله أيضاً :

« يا بيها المتاشا حهلا ما ولدت عبدا
ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا
أعددت للحدثان سا بغة وعداء علندى
نهدا وذا شطب يقد البيض والأبدان قدا
كل امرئ يجرى إلى يوم الهياج بما استعدا

☆☆☆

لما رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا
وبدت محاسنها التى تخفى ، وكان الأمر جدا
نازلت كبشهم ، ولم أر من نزال الكبش بدا
هم ينذرون دمى وأنـــذر إن لقيت بأن أشدا
كم من أخ لى صالح بوأته بيدى لحدا
ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا . »

قلت : « لو لم يكن له إلا هذه القصيدة لاستحق بها التقدم على كثير » وأما الصمصامة فهى سيفه المشهور . قال عبد الملك بن عمير أهدت بلقيس إلى سليمان خمسة أسياف ، وهى : ذو الفقار ، وذو النون ، ومخذوم ، ورسوب ، والصمصامة . وأما ذو الفقار : فكان لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — أخذه من منبه بن الحجاج يوم بدر ، ومخذوم ورسوب : للحرث بن جبلة الغسانى ، وذو النون والصمصامة : لعمرو بن معديكرب ، وحكى أن عمر بن الخطاب قال لعمرو : ابعث لى الصمصامة ، فبعث به إليه فلم يره كما بلغه ، فقال له فى ذلك ؟ فقال إنى بعثت إليك الصمصامة ولم أبعث لك باليد التى تضرب به ، وحكى أبو عبيدة أن الصمصامة انتقلت إلى سعيد بن العاص ، وذلك أن خالد بن الوليد لما غزا بنى زبيد ، وكان خالد بن سعيد من جملة أمرائه أوقع بهم وأسر ريحانة أخت عمرو بن معديكرب ففداها خالد وأثابه عمرو الصمصامة ، ثم فقد يوم الدار فى مقتل عثمان ووجد ، ولم يزل إلى أن صعد المهدى البصرة ، فلما كان بواسط أرسل إلى بنى العاص يطلب الصمصامة ، فقالوا إنه فى السبيل محبساً ، فقال خمسون سيفاً قاطعاً فى السبيل أغنى من سيف واحد وأعطاهم خمسين سيفا وأخذه ، فلما صار إلى الهادى أحضره وأمر الشعراء بوصفه ، فقال بعضهم من أبيات :

« حاز صمصامة الزبيدى عمرو من جميع الأنام موسى الأمين
ما يبالى من انتضاه لضرب أشمال سطت به أم يمين . »

ثم وصل إلى المتوكل فدفعه إلى غلامه «باغر» التركي فقتله به ، ومن عند «باغر» تقطع خبره .

. . . . عَنْ وَصْفِ « كَعْبٍ »[1] بِالسَّماحِ إِيادُ
فَضَحَ ٱلدُّهاةَ فَلَوْ تَقَدَّمَ عَهْدُهُ لَعَنَا « الْمُغِيرَةُ » أَوْ أَقَرَّ « زِيادُ »[2]

---

(١) كعب بن مامه

هو كعب بن مامة الايادى ، وكان أحد أجواد العرب يضرب به المثل فى الوفاء ، آثر على نفسه وكان مسافراً مع رفيقه فقل عليهما الماء فتصافناه ، والتصافن أن يوضع فى الماء مقلة أى حجر صغير يغمر بالماء لئلا يتغابنوا فى القسمة ، فجعل رفيقه يشرب نصيبه ، فاذا جاء دور كعب . قال له رفيقه وقد جهده العطش : « أسق أخاك » فيؤثره على نفسه حتى جهد كعب من العطش وأشرف على الهلاك ، ورفعت له أعلام الماء ، وقيل له رد كعب ولا ورود به فمات عطشاً ، وفى ذلك يقول أبو دواد الايادى :

« أوفى على الماء كعب ثم قيل له رد كعب إنك وراد فما وردا . »

ارجع إلى الكامل للمبرد « ص ١٣٦ »

(٢) زياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة

كانا من أفذاذ العرب وساستهم ودهاتهم وأخبارهما مستفيضة فى كتب التاريخ ، ولكنا نجتزئ القول اجتزاء فيما يلى :

قالوا :

وسمى « زياد ابن أبيه » أو « زياد بن سمية » لأن أمه كانت جارية للحارث بن كلدة الثقفى ، فزوجها بعبد له رومى يقال له : «عبيد» فولدت «سمية» زيادا على فراشه ، فهو ولد «عبيد» شرعا.

قالوا : وكان « أبو سفيان » قد سار فى الجاهلية إلى « الطائف » فنزل على بائع خمر يقال له : « أبو مريم » — وقد أسلم فيما بعد — فقال له « أبو سفيان » : « قد اشتهيت النساء » فقال أبو مريم : « هل لك فى سمية ؟ »

فقال أبو سفيان :

« هاتها على طول ثدييها وذفر بطنها »

فأتاه بها ، فوقع عليها ، فيقال إنها علقت منه بزياد ، ثم وضعته فى السنة التى هاجر فيها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ونشأ « زياد » فصيحا .

وحضر « زياد » يوما بمحضر جماعة من الصحابة فى خلافة « عمر » فقال « عمرو بن العاص لو كان أبو هذا الغلام من قريش ، لساق العرب بعصاه . »

فقال أبو سفيان لعلى بن أبى طالب :

« إنى لأعرف من وضعه فى رحم أمه »

فقال علىّ :

« فما يمنعك من استلحاقه »

قال :

« أخاف الأصلع (يعنى عمر) أن يقطع إهابى بالدرة »

لَا يَأْمَنُ الْأَعْدَاءُ رَجْمَ ظُنُونِهِ ... إِنَّ الْغُيُوبَ وَرَاءَهَا إِمْدَادُ

مَلِكٌ – إِذَا مَا اُخْتَالَ – غُرَّةُ فَيْلَقٍ ... قَدْ أُمْطِيَتْ عِقْبَانَهُ الْآسَادُ (١)

أُسْدٌ، فَرَائِسُهَا الْفَوَارِسُ فِى الْوَغَى، ... لَـكِنْ بَرَاثِنُهَا – هُنَاكَ – صِعَادُ (٢)

ولما كانت قضية شهادة الشهود على المغيرة بالزنا وحلدهم لعدم ثبوت الزنا عليه — ومنهم أبو بكرة أخو زياد لأمه — وامتناع « زياد » حين كان يؤدّى الشهادة عن التصريح ، وكان أحد الأربعة الذين شهدوا عليه — اتخذ المغيرة لذلك لزياد يدا .

ثم لما ولى « علىّ بن أبى طالب » الخلافة ، استعمل «زيادا» على فارس ، فقام بولايتها أحسن قيام ، ولما سلم « الحسن » الأمر إلى « معاوية » امتنع « زياد » بفارس ، ولم يدخل فى طاعة « معاوية » واهتمّ معاوية للأمر ، وخاف أن يدعو إلى أحد من بنى هاشم ويعيد الحرب ، وكان معاوية قد ولى « المغيرة بن شعبة » الكوفة ، فقدم « المغيرة » على « معاوية » سنة ٤٢ هـ فشكا إليه « معاوية » امتناع « زياد » بفارس ، فقال « المغيرة » :

« أتأذن لى فى المسير إليه ؟ »

فأذن له ، فكتب « معاوية » لزياد أمانا ، فتوجه « المغيرة » إليه — لما بينهما من المودّة — ومازال به حتى أحضره إلى « معاوية » وبايعه .

وفى سنة ٤٤ هـ استلحق « معاوية » « زياداً » فأحضر الناس ، وحضر من يشهد لزياد بالنسب ، وكان ممن حضر لذلك « أبو مريم » بائع الخمر الذى أسلفنا ذكره — وهو الذى أحضر « سمية » أم « زياد » إلى « أبى سفيان » بالطائف — فشهد بنسب « زياد » من « أبى سفيان » .

قالوا : « واستلحقه معاوية » وقد أعظم الناس ذلك وأنكروه لاسيما بنو أمية لأن زيادا ابن عبيد الرومى قد ألحق نسبه ببنى أمية بن عبد شمس ، وقد قال « عبد الرحمن الحكم » أخو « مروان » فى ذلك :

« ألا أبلغ «معاوية بن صخر» : « لقد ضاقت بما تأتى اليدان »

أتغضب أن يقال : « أبوك عف ؟» وترضى أن يقال : «أبوك زانى؟»

وأشهد أن رحمك — من زياد — كرحم الفيل من ولد الأتان . »

ثم ولى « معاوية » « زياداً » البصرة ، وأضاف إليه « خراسان » و « سجستان » ثم جمع له الهند والبحرين وعمان

(١) عقبان — جمع عقاب — وهو من سباع الطير التى تصيد . قال المتنبى :

« شكوى الجريح إلى العقبان والرخم »

وقال البحترى :

« ضاقت بسعد أرضها لما رمى ... ساحاتها بالخيل والفرسان

فوارس — مثل الصقور — وضمر ... مجدولة ، ككواسر العقبان . »

(٢) صعاد — جمع صعدة — وهى القناة التى تنبت مستقيمة لا تحتاج إلى التثقيف ، والصعدة — من النساء — المستقيمة القامة — على التشبيه — قال « كعب بن جعيل » يصف امرأة شبه قدها بالقناة :

« فإذا قامت إلى جاراتها ... لاحت الساق بخلخال زجل

صعدة نابتة فى حائر ... أينما الريح تميلها تمل . »

خِلْتَ اللِّوَاءَ غَمَامَةً فِى ظِلِّهَا ... قَمَرٌ ، بِغُرَّتِهِ السَّنَا الْوَقَّادُ

* * *

شَيْحَانُ مُنْغَمِسُ السِّنَانِ مِنَ الْعِدَا ... ـ فِى النَّقْعِ ـ حَيْثُ تَغَلْغَلَ الْأَحْقَادُ

تَشْكُو إِلَيْهِ الشَّمْسُ نَقْعَ كَتِيبَةٍ ... مَا زَالَ مِنْهُ لِعَيْنِهَا إِرْمَادُ (١)

جَيْشٌ ـ إِذَا مَا الْأُفْقُ سَافَرَ طَيْرُهُ ... مَعَهُ ـ فَفِى ذِمَمِ الصَّوَارِمِ زَادُ (٢)

مُسْتَطْرَفٌ لِلْمَجْدِ لَمْ يَكُ حَسْبُهُ ... مَجْدٌ ـ يَدُورُ مَعَ الزَّمَانِ ـ تِلَادُ (٣)

مَا كَانَ مِنْهُ إِلَى رَفَاهَةِ رَاحَةٍ ... حَتَّى يُخَلَّدَ مِثْلَهُ إِخْلَادُ

أَرِجُ النَّدِيِّ ، مَتَى تَفُزْ بِجِوَارِهِ ... يَطِبِ الْحَدِيثُ وَيَعْبَقِ «الْإِنْشَادُ» (٤)

لَوْ أَنَّ خَاطِرَهُ الْجَمِيعَ مُفَرَّقٌ ... فِى الْخَلْقِ أَوْشَكَ أَنْ يُحِسَّ جَمَادُ

* * *

نَفْسِى فِدَاؤُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِى ... زُهْرُ النُّجُومِ ـ لِوَجْهِهِ ـ حُسَّادُ

تَبْدُو عَلَيْكَ ـ مِنَ الْوَسَامَةِ ـ حُلَّةٌ ... يَهْفُو إِلَيْهَا ـ بِالنُّفُوسِ ـ وِدَادُ

لَمْ يَشْفِ مِنْكَ الْعَيْنَ أَوَّلُ نَظْرَةٍ ... لَوْلَا الْمَهَابَةُ رَاجَعَتْ تَزْدَادُ

---

(١) النقع : الغبار ، والكتيبة : الجيش ، يقول : «تشكو إليه الشمس سطوع الغبار ، والنقع المثار لأنه أرمد عينها فأعمصتها ولم تبصر . »

(٢) يقول : إن هـذا الجيش إذا سايرته فى الأفق عقبان الجو وجوارح الطير ، ففى ذمة الصـوارم من السيوف أن تضمن لها الزاد من قتلى الأعداء .

(٣) مستطرف : أى مستحدث لنفسـه مجدا طريفا أى حديداً مكسوبا غـير موروث ، والحسب : محركة وقد يسكن كما هنا مايعده الانسان من مفاخره ، والتلاد : القديم الموروث عن الآباء .

(٤) النـدى : المجلس ، يقول : هو أرج الندى أى عطر ماينبعث عن مجلسـه من طيب القول وعاطر الثناء ، إذا فزت بقربه ودنوت من مجلسـه ، يطيب الحديث ، ويعبق فى أرجاء المجلس عبير الانشاد ، وقد ورد هذا البيت فى الأصل هكذا :

« أرج الندى ، متى تفز بجواره ... يطب الحديث ويعبق . . . .

والتكملة يعطيها السياق

مَا كَانَ مِنْ خَلَلٍ فَأَنْتَ سِدَادُهُ ـفِي الدَّهْرِـ أَوْ أَوَدٍ فَأَنْتَ سَدَادُ (١)

الدِّينُ وَجْهٌ أَنْتَ فِيهِ غُرَّةٌ وَالْمُلْكُ جَفْنٌ أَنْتَ فِيهِ سَوَادُ

لِلَّهِ مِنْكَ يَدٌ عَلَتْ ، تُولِي بِهَا صَفَداً فَيُحْمَدُ ، أَوْ يُفَكُّ صِفَادُ (٢)

لَوْ أَنَّ أَفْوَاهَ الْمُلُوكِ تَوَافَقَتْ فِيهَا لَوَافَقَ حَظَّهَا الْإِسْعَادُ

نَفَعَ الْعُدَاةَ الْيَأْسُ (٣) مِنْكَ ، لِأَنَّهُ بَرَدَتْ عَلَيْهِ مِنْهُمُ الْأَكْبَادُ

يَنْصَاعُ مَنْ جَارَاكَ مَقْبُوضَ الْخُطَا فَكَأَنَّمَا عَضَّتْ بِهِ الْأَقْيَادُ (٤)

❊

قَدْ قُلْتُ لِلتَّالِي ثَنَاءَكَ سُورَةً مَا لِلْوَرَى فِي نَصِّهَا إِلْحَادُ :

« أَعِدِ الْحَدِيثَ عَنِ السِّيَادَةِ ، إِنَّهُ لَيْسَ الْحَدِيثُ يُمَلُّ حِينَ يُعَادُ . »

كَرَمٌ كَمَاءِ الْمُزْنِ رَاقَ خِلَالَهُ أَدَبٌ كَرَوْضِ الْحَزْنِ بَاتَ يُجَادُ (٥)

وَمَحَاسِنٌ زَهَرَ الزَّمَانُ بِزُهْرِهَا فَكَأَنَّمَا أَيَّامُهُ أَعْيَادُ (٦)

---

(١) يقول : ما كان من خلل فى الزمان فأنت سداده الذى يسدّ به ، أو كان من أود فيه واعوجاج فأنت سداد ، أى ملك سداده وصلاحه وتقويمه .

(٢) الصفد العطاء ، والصفاد : مايوثق به المقيد من قيد ونحوه ، يقول : لله منك يد تولى الجميل وتهب العطاء ، لانزال نحمدها ونشكرها لك إلى أن يفك ماقيدتنا به من أصفاد النعم ، وقد جانس بين الصفد بمعنى العطاء ، والصفاد بمعنى القيد ، وجعل الاحسان صفادا وقيداً مستفيض فى كلام الشعراء ، قال الشاعر :

« ومن وجد الاحسان قيد تقيداً . » ، وقال ابن الرومى :

« ما على الأحرار من رق إذا قيدوا شكرهم مولى أيادى
إنما النعمى صفاد فاذا لقيت شكراً فليست بصفاد . »

وقال ابن حيوس :

« عقلتهم بالجميل فانقلوا رب عناة أصفادها الصفد . »

أى قيودها العطاء ، وفى الأصل : « تولى بها ❊ صفد . »

(٣) فى الأصل : « البأس »

(٤) يقول : ينصاع ويرجع عن مجارته فى المجد كل من جاراه ، ويقف حيث ابتدأ مقبوض الخطا كأنما عضت بسيقانه القيود فمنعته من المضى .

(٥) المزن : السحاب ويجاد يمطر بالجود (بفتح فسكون) وهو المطر الغزير .

(٦) يقول : ويضاف إلى هذا الكرم الذى وصفه فى البيت السابق محاسن أضاء الزمان بزهر نجومها ، فكأنما كل يوم من أيامها عيد

*
* *

يَا أَيُّهَا المَلِكُ الَّذِي ـ فِي ظِلِّهِ ـ رِيضَ الزَّمَانُ فَذَلَّ مِنْهُ قِيَادُ

يَا خَيْرَ «مُعْتَضِدٍ» بِمَنْ أَقْدَارُهُ ـ فِي كُلِّ مُعْضِلَةٍ ـ لَهُ أَعْضَادُ

لَمَّا وَرَدْتُ ـ بِوِرْدِ حَضْرَتِكَ ـ الْمُنَى فَهَمَتْ لَدَيَّ جِمَامُهَا الْأَعْدَادُ (١)

فَاسْتَقْبَلَتْنِي الشَّمْسُ تَبْسُطُ رَاحَةً لِلْبَحْرِ ـ مِنْ نَفَحَاتِهَا ـ اسْتِمْدَادُ

فَلَئِنْ فَخَرْتُ ـ بِمَا بَلَغْتُ ـ لَقَلَّ لِي أَلَّا يَكُونَ مِنَ النُّجُومِ عِتَادُ

مَهْمَا امْتَدَحْتُ سِوَاكَ ـ قَبْلُ ـ فَإِنَّمَا مَدْحِي ـ إِلَى مَدْحِي ـ لَكَ اسْتِطْرَادُ

يَغْشَى المَيَادِينَ الْفَوَارِسُ ـ حِقْبَةً ـ كَيْمَا يُعَلِّمَهَا النِّزَالَ طِرَادُ (٢)

فَلَأَسْحَبَنَّ ذَيْلَ الْمُنَى فِي سَاحَةٍ ـ إِلَّا أُوَفَّ بِهَا الْمُنَى ـ فَأُزَادُ (٣)

وَلَيَسْتَفِيدَنَّ السَّنَاءَ مَعَ الْغِنَى عَبْدٌ يُفِيدُ النُّصْحَ حِينَ يُفَادُ

وَلَأَنْتَ أَنْفَسُ شِيمَةً مِنْ أَنْ يُرَى ـ لِنَفِيسِ أَعْلَاقِي لَدَيْكَ ـ كَسَادُ

هَيْهَاتَ قَدْ ضَمِنَ الصَّبَاحُ لِمَنْ سَرَى أَنْ يَسْتَتِبَّ لِسَعْيِهِ الْإِحْمَادُ (٤)

لَا تَعْدَمَنَّ ـ مِنَ الْحُظُوظِ ـ ذَخِيرَةً تَبْقَى فَلَا يَتْلُو الْبَقَاءَ نَفَادُ

---

(١) فهمت : جواب لما أى سالت ، وجمامها : جمع جم (بالفتح) وجمة (بالضم) وهو الماء الكثير والأعداد : جمع عد (بالكسر) ، وهو الماء الدائم الذى له مادة لا انقطاع لها كماء العيون ، يقول : حين وردت فى حضرتك ورد المنى ، همت حمامها ، وسال مياهها الأعداد ، يريد أنه رأى فيض المنى ينبثق من راحتيه ، وفى الأصل :

« لما وردت بورد حضرتك المنا وهقت لدى جمامها الأعداد . »

(٢) هو مطاردة الفرسان بعضهم بعضا للمران على الحرب .

(٣) ولأسحبن من المنى ذيلها فى ساحة جواد إن لم أوف بها ما تطمح إليه نفسى من الأمانى فأنا سأزاد عليها ، يقول : إن أمره دائر بين أن يفى له بما تسمو إليه نفسه من الأمانى ، أو يزيده عليها فوق ما يريد ويتمنى .

(٤) يشير إلى المثل المشهور : « عند الصباح يحمد القوم السرى . » وسيمر بك شرحه فى (٢١٧) من هذا الديوان .

في مدح المعتضد

« قال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد ، ويذكر بعض مواقف له مع خاصته من أصفيائه ، والمناوئين له من أعدائه . »

لِيَهْنِ الْهُدَى إِنْجَاحُ سَعْيِكَ فِى الْعِدَا ... وَأَنْ رَاحَ صُنْعُ اللهِ نَحْوَكَ وَاغْتَدَى [1]

وَنَهْجُكَ سُبْلَ الرُّشْدِ فِى قَمْعِ مَنْ غَوَى ... وَعَدْلُكَ فِى اسْتِئْصَالِ مَنْ جَارَ وَاعْتَدَى [2]

وَأَنْ بَاتَ مَنْ وَالاكَ فِى نَشْوَةِ الْغِنَى ... وَأَصْبَحَ مَنْ عَادَاكَ فِى غَمْرَةِ الرَّدَى [3]

وَبُشْرَاكَ دُنْيَا غَضَّةُ الْعَهْدِ طَلْقَةٌ ... كَمَا ابْتَسَمَ النُّوَّارُ عَنْ أَدْمُعِ النَّدَى [4]

وَدَوْلَةُ سَعْدٍ لاَ انْتِهَاءَ لِحَدِّهِ ... إِذَا قِيلَ فِيهِ قَدْ تَنَاهَى تَوَلَّدَا

دَعَوْتَ ، فَقَالَ النَّصْرُ : لَبَّيْكَ مَاثِلاً ... وَلَمْ تَكُ كَالدَّاعِى يُجَاوِبُهُ الصَّدَى

---

(١) السعى : التصرف فى كل عمل من خير أو شر ، أى أن سبيل الهدى وسبيل المؤمنين جديران بكل تهنئة وبشرى حيث أنجح الله سعيك فى مناجزة أعدائك ولم يزل يتعهدك بجميل صنعه ولطيف إحسانه فى الرواح والغدو ، والصباح والعشى .

(٢) وليهن الهدى أيضا سلوكك مناهج الرشد ، وإجراؤك سنة العدل فى قمع الغاوين المفسدين، واستئصال شأفة الجائرين المعتدين ، واقتلاعهم من أصولهم ، وتطهير المملكة من مفاسدهم وشرورهم .

(٣) والى : الموالاة ضد المعاداة ، وقد طابق فى البيت بين «بات» و «أصبح» و «والى» و «عادى» و «نشوة الغنى» و «غمرة الردى» .

(٤) النوار : بضم أوله وتشديد ثانيه النور ، واحدته نوارة وقد نور الشجر والنبات أى أزهر ، وفى البيت تشبيه النوار بالثغر الباسم عن لؤلؤ الطل

وَأَحْمَدْتَ عُقْبَى الصَّبْرِ فِى دَرْكِ الْمُنَى ... كَمَا بَلَغَ السَّارِى الصَّبَاحَ فَأَحْمَدَا (١)

❁

« أَعَبَّادُ » يَا أَوْفَى الْمُلُوكِ بِذِمَّةٍ ... وَأَرْعَاهُمُ عَهْدًا وَأَطْوَلَهُمْ يَدَا

تَبَايَنْتَ فِى حَالَيْكَ : غُرْتَ تَوَاضُعًا ... لِتَسْتَوْفِىَ الْعَلْيَا ، وَأَنْجَدْتَ سُودَدَا (٢)

---

(١) الدرك : محركا اللحاق والوصول إلى الشيء ، يقال أدركته إدراكا ودركا ومثله الدرك بالسكون . قال جحدر يخاطب الأسد :

« ليث وليث فى مكان ضنك ... كلاهما ذو أنف ومحك

وبطشـة وصـولة وفتك ... إن يكشف الله قناع الشك

بظفر من حاجتى ودرك ... فـذا أحق منزل بترك

الذئب يعوى والغراب يبكى »

والسارى : اسم فاعل من السرى وهو سير الليل وأصل المثل «عند الصباح يحمد القوم السرى» وأول من قال ذلك كما فى مجمع الأمثال عن «المفضل» الضبي هو «خالد بن الوليد» لما بعث إليه أبو بكر رضى الله عنهما وهو « باليمامة » أن سر إلى « العراق » فأراد سلوك المفازة ، فقال له «رافع» الطائى : قد سلكتها فى الجاهليـة ، هى خمس للابل الواردة ، ولا أظنك تقدر عليها إلا أن تحمل من الماء . فاشـترى مائة شارف فعطشها ، ثم سقاها الماء حتى رويت ، ثم كتبها وكعم أفواهها ، ثم سلك المفازة حتى إذا مضى يومان وخاف العطش على الناس والخيل وخشى أن يذهب ما فى بطون الابل ، نحر الابل ،واستخرج مافى بطونها من الماء وسقى الناس والخيل ومضى فلما كان فى الليلة الرابعة ، قال «رافع» : انظروا هل ترون سـدرا عظاما ؟ فان رأيتموها وإلا فهو الهلاك . فنظر الناس فرأوا السـدر فأخـبروه فكبر وكبر الناس ثم هجموا على الماء ، فقال خالد :

« لله در رافع أنى اهتـدى ... فوز من قراقر إلى سوى

خمسا إذا سار به الجيش بكى ... ماسارها من قبله إنس يرى

عند الصباح يحمدالقوم السرى ... وتنجلى عنهم غيابات الكرى . »

يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة .

(٢) غرت : من غار غوراً فهو غائر إذا أتى الغور وهو ما انحـدر مسيله ، ويقابله النجد : يقال : غار وأنجد وأغار وأنجد ، قال جرير .

« يا أم حزرة ما رأينا مثلـكم ... فى المنجدين ولا بغور الغائر . »

وقال الأعشى :

« نبى يرى مالا ترون وذكره ... أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا . »

وأنكر الجوهرى أغار ، وقال الأصمعى: أغار وأنجد فى بيت الأعشى بمعنى أسرع وارتفع ، على أن النصف الثانى من البيت روى مخزوما هكذا : « غار لعمرى فى البلاد وأنجدا » ، يقول : بين حاليك من التواضع والسمو إلى مراتب السيادة بون شاسع ، فقد انحدرت إلى غور التواضع فكانت عاقبة ذلك أن استوفيت حظك من العلياء وبلغت أسمى مراتب السودد والرفعة

وَلَمَّا اعْتَضَدْتَ اللهَ كُنْتَ مُؤَهَّلاً ... لَدَيْهِ لِأَنْ تُحْمَى وَتُكْفَى وَتُعْضَدَا

وَجَدْنَاكَ إِنْ أَلْقَحْتَ سَعْيًا نَتَجْتَهُ ... وَغَيْرُكَ شَاوٍ حِينَ أَنْضَجَ رَمَّدَا [(١)]

وَكَمْ سَاعَدَ الْأَعْدَاءَ أَوَّلَ مَطْمَعٍ ... رَأَوْكَ بِعُقْبَاهُ أَحَقَّ وَأَسْعَدَا

فَلَا ظَافِرٌ إِلَّا ـ إِلَى سَعْدِكَ ـ اعْتَزَى ... وَلَا سَائِسٌ إِلَّا بِتَدْبِيرِكَ اقْتَدَى

***

ضَلَالًا لِمَفْتُونٍ سَمَوْتَ بِحَالِهِ ... إِلَى أَنْ بَدَتْ ـ بَيْنَ الْفَرَاقِدِ ـ فَرْقَدَا

رَأَى حَطَّهَا أَوْلَى بِهِ ، فَأَحَلَّهَا ... حَضِيضًا بِكُفْرَانِ الصَّنِيعَةِ أَوْهَدَا [(٢)]

وَمَا زَادَ ـ لَمَّا لَجَّ فِي الْبَغْيِ ـ أَنَّهُ ... سَعَى لِلَّذِي أَصْلَحْتَ مِنْهَا فَأَفْسَدَا

فَزَلَّ وَقَدْ أَمْطَيْتَهُ ثَبَجَ السُّهَا ... وَضَلَّ وَقَدْ لَقَّيْتَهُ قَبَسَ الْهُدَى [(٣)]

طَوِيلُ عِثَارِ الْجُرْمِ قُلْتَ لَهُ: «لَعًا» [(٤)] ... بِحِلْمٍ تَلَقَّى جَهْلَهُ فَتَغَمَّدَا [(٥)]

---

(١) ألقحت من ألقح الفحل الناقة ، ولقحت هى ، قال الحرث بن عباد :

« قربا مربط النعامة منى لقحت حرب وائل عن حيال . »

والسعى : التصرف فى الأمور ، ونتجه : من قولهم نتج فلان الناقة إذا ولى نتاجها وهى ماخض حتى تضع ، وفى المثل : « هل تنتج الناقة إلا لمن لقحت له » ، وكتب عليه صاحب مجمع الأمثال ما نصه : يقال نتجت الناقة على ما لم يسم فاعله ، وأنتجتها إذا أعنتها على ذلك ، والناتج للنوق كالقابلة للانسان ، ولقحت تلقح لقحا ولقاحا والناقة لاقح واقوح ، ومعنى المثل : هل يكون الولد إلا لمن يكون له الماء ؟ يضرب فى التشبيه ، ويروى « لما لقحت له » أى لقاحها أى لقبول رحمها ماء الفحل ، يشير إلى صدق الشبه ، و « ما » مع « لقحت » للمصدر ، وغيرك شاو : أصل المثل « شوى أخوك حتى إذا أنضج رمد » والترميد القاء الشواء فى الرماد ، يضرب ـ كما فى مجمع الأمثال للميدانى ـ لمن يفسد اصطناعه بالمن ، ويردف صلاحه بما يورث سوء الظن ، ويروى عن أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه : أنه مرَّ بدار رجل عرف بالصلاح فسمع من داره صوت بعض الملاهى فقال : شوى أخوك حتى إذا أنضج رمد .

(٢) الحضيض : القرار من الأرض المنخفض عن سفح الجبل ، وأوهد : أفعل تفضيل من الوهدة وهى الهوة ، يقول : رأى ذلك المفتون انحطاط حاله أولى به فأنزله الممدوح من مستوى الفراقد إلى أحط قرار من الأرض بسبب كفران النعمة ونكران الجميل .

(٣) ثبج السها : أعلاه ، والسها : نجم صغير فى بنات نعش الكبرى يمتحنون به أبصارهم لخفائه ، وفى المثل « أريها السها وتريني القمر »

(٤) دعوت له بأن يقيمه الله من سقطته . (٥) غطى على جهله وستره .

تَجَنَّى فَأَهْدَيْتَ النَّصِيحَةَ مَحْضَـــةً ، وَلَجَّ فَوَالَيْتَ الْعِقَابَ مُرَدَّدَا (١)

وَلَمْ تَأْلُهُ بُقْيَا عَلَيْهِ تَنَظُّرًا لِفَيْئَةِ مَنْ أَكْرَمْتَهُ فَتَمَرَّدَا

فَمَا آثَرَ الْأُولَى ، وَلَا قَلَّدَ الْحِجَى ، وَلَا شَكَرَ النُّعْمَى ، وَلَا حَفِظَ الْيَدَا

كَأَنَّكَ أَهْدَيْتَ السَّوَابِحَ ضُمَّرًا لِيَرْكُضَهَا - فِيمَا كَرِهْتَ - فَيُجْهِدَا (٢)

وَأَجْرَرْتَهُ ذَيْلَ الْحَبِيرِ (٣) تَأَلُّفًا لِيَخْلُقَ - فِيمَا جَرَّ - حِقْدًا مُجَدَّدَا (٤)

سَلِ الْخَائِنَ الْمُعْتَرَّ : كَيْفَ احْتِقَابُهُ - مَعَ الدَّهْرِ - عَارًا بِالْعِرَارِ مُخَلَّدَا ؟ (٥)

رَأَى أَنَّهُ أَضْحَى هِزَبْرًا مُصَـــمِّمًا ، فَلَمْ يَعْدُ أَنْ أَمْسَى ظَلِيمًا مُشَرَّدَا (٦)

دَهَاهُ - إِذَا مَاجَنَّهُ اللَّيْلُ - أَنَّهُ أَقَامَ عَلَيْهِ - آخِرَ الدَّهْرِ - سَرْمَدَا (٧)

---

(١) يقول بدأ يتجنى عليك الذنوب ويختلقها خلقا ، وكان جزاؤه منك أن تمحضه النصح خالصا بريئا ، فلما لجّ فى غروره وعصيانه صببت عليه عقابك المتوالى لتزجره — على إساءته وتؤدبه .

(٢) كأنما أهديته الجياد الضمر ليحاربك بها ويجهد نفسه فى توخى أعدائك وتملى ما تكره .

كأن هذا الخائن ظن أنك أهديته الجياد الضمر السوابح ليجهدها ركضا فيما تكره من مناصرة أعدائك .

(٣) أجررته ذيل الحبير : جعلته يجر ذيل النعمة .

وكأنه ظن أنك تتألفه بما تخلع عليه من حبير أجررته ذيله ليخلق لك مشاكل ويجدد أحقادا بسبب ما جره من جرائر وجرائم . (٤) وفى الأصل : « للحقد مجددا »

(٥) الخائن : الأحمق ، والمعتر الفقير المعترض المعروف من غير أن يسأل ، والاحتقاب الادخار ، يقال : احتقب الشيء : ادخره ، واحتقب خيرا أو شرا واحتقبه : احتمله وجعله خلفه ، واحتقب الاثم : جمعه ، والعرار — جمع عرة وهى الخلة القبيحة .

(٦) المصمم : الماضى فى الأمر معتزما ، والظليم : الذكر من النعام ، قال تأبط شرا :

« أنا الذى نكح الغيلان فى بلد ما طل فيه سماكى ولا جادا

فى حيث لا يعمت العادى عمايته ولا الظليم به يبغى تهبادا

وقد لهوت بمصقول عوارضها بكر تنازعنى كأسا وعقادا

ثم انقضى عصرها عنى ، وأعقبه عصر المشيب ، فقل فى صالح بادا . »

أى نكح الغيلان فى بلد لم يظفر بالطل وهو الرذاذ « المطر الخفيف » ولم يظفر فيه الظليم — « فرخ النعام » — بالهبيد — وهو الحنظل — ليأكله ، وقد لها بفتاة من الأبكار مصقولة العارضين تنازعه كئوس الخمر وعناقيد العنب ، ثم انقضى ذلك العصر الصالح وأعقبه عصر المشيب .

(٧) يقول : وقد أصبح يترقب جزعا أن يكون حينه مرتبطا بيومه وصار يتوجس الشر خوفا من أن يكون ليله سرمدا إذا قتلته

يُحَاذِرُ أَنْ يُلْفَى قَتِيـــلاً مُعَفَّرًا ـ إِذَا الصُّبْحُ وَافَى ـ أَوْ أَسِيرًا مُقَيَّدَا

* * *

لَبِئْسَ الْوَفَاءُ اسْتَنَّ فِي « ابْنِ عَقِيدَةٍ » عَشِيَّةَ لَمْ يُصْدِرْهُ مِنْ حَيْثُ أَوْرَدَا

قَرِينٌ لَهُ أَغْوَاهُ حَتَّى ـ إِذَا هَوَى ـ تَبَرَّأَ يَعْتَدُّ الْبَرَاءَةَ أَرْشَدَا (١)

فَأَصْبَحَ يَبْكِيهِ الْمُصَابُ بِثُــكْلِهِ ، بُكَاءَ « لَبِيدٍ » حِينَ فَارَقَ « أَرْبَدَا »

فِدَاءٌ لِإِسْمَاعِيلَ كُلُّ مُرَشَّحٍ إِذَا جُشِّمَ الْأَمْرَ الْجَسِيمَ تَبَلَّدَا (٢)

* * *

أَفَادَ مِنَ الْأَمْلَاكِ حِدْثَانَ فَشْلِهِمْ مَوَالِيَ ، لَمْ يَشْكُ الصَّدَى مِنْهُمُ الصَّدَا (٣)

أَعَادَ الصَّبَاحَ الطَّلْقَ لَيْلاً عَلَيْهِمُ فَجَاءَ وَأَثْنَى نَاظِرَ الشَّمْسِ أَرْمَدَا

فَحَلَّ هِلَالاً ـ فِي ظَلَامِ عَجَاجَــةٍ ـ تُلَاحِظُهُ الْأَقْمَارُ ـ فِي الْأُفْقِ ـ حُسَّدَا

يُرَاجِمُ مِنْ « صِنْهَاجَةٍ » وَ « زَنَاتَةٍ » ـ بِمِثْلِ نُجُومِ الْقَذْفِ ـ مَثْنًى وَمَوْحَدَا (٤)

---

(١) يقول : أن قرينه زين له الضلال حتى إذا تردى فى سوء عمله تبرأ قرينه من عمله ورأى فى التخلى عنه وسيلة إلى نجاته .

(٢) المرشح : المؤهل .

(٣) يقول : إن توالى الأحداث والخطوب التى أنزلها جيشه بالملوك قد أفادته موالى عاية فى البسالة لايشكو العطشان منهم عطشاً لشدة ما أوتيه من صبر وجلد .

(٤) راجم عنه : ناضل ، وراجم فى الكلام والحرب بالغ بأشد مساجلة ، ونجوم القذف ، أو شهب القذف هى الرجوم ، قال الشاعر :

« كشهاب القذف يرميكم به فارس فى كفه للحرب نار . »

يقول : إنه يساجل بنصرة أهل زناته وصنهاجة ويقذف بهم الأعداء كما يقذف بالشهب ويرجم بها شانئيه ، وقد اشتهرت صنهاجة بتلك المذبحة الكبرى التى حدث فى القرن الخامس من الهجرة سنة ٤٥٩ هـ وقد ثارت صنهاجة على اليهود وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وفيهم الوزير يوسف بن نغرلة اليهودى ، وكان سبب هذه المذبحة أن ذلك الوزير — وكان قد استوزره باديس صاحب غرناطة — قد وشى بأبى إسحق الفقيه زاهد البيرة فأقصاه السلطان عن بلاده .

قالوا : « وكان ذلك الوزير قد تعرض لتسفيه بعض الآراء الدينية الاسلامية ، وكان عظيم الخطر واسع

النفود — فوجد أبو إسحق من ذلك حافزا إلى إنشاء قصيدته البليغة التى دفعه إلى قولها غيظه من عدوه — ذلك الوزير الخطير — فملأها تحريضا وأفعمها حججاً وبراهين، أفلح فى التأثير بها على العامة وحملهم على إنفاذ رغباته — وما زال يتفنن فى ضروب الاحتثاث والتهييج حتى اشتعل الجمهور حماسة وهجم على ذلك الوزير فقتله — فى قصر السلطان نفسه — وليس من شك فى أن أبا إسحق بذل كل مواهبه فى الضرب على النغمة الدينية وإظهار الفجع الشديد على ما انتاب الدين من التهاون به وعرف كيف يوالى فيها اطراد الأدلة واتساقها وتدفق المعانى وغزارتها مع دقة عجيبة فى التعبير عن أغراضه وحوالجه بكلام فخم ، يتطاير حماسة ويتأجج ناراً ، وشعر صارخ

« خارج من قلب قائله مثلما يزفر بركان . »

وبهذا استطاع أن يوهم سامعيها أن قتل أولئك اليهود — أخصامه — فرض لا مناص من أدائه وواجب حتم لا يصح السكوت عنه وأنهم — إن كانوا غفلوا عن القيام به فيما مضى — فهم خليقون أن يتداركوه فى الحال ، حتى لا تصبّ عليهم لعنة الله ، أو يحيق بهم غضبه ، فيخسف بهم الأرض ، أو ينزل عليهم السماء ، وكذلك لم يترك ناطما وسيلة من الوسائل التى تستفز أخفى العواطف الدينية الكامنة إلا استخدمها ، ولا نغمة من نغمات متعصب للعقيدة الدينية إلا ضرب على وتيراتها . كل ذلك بأسلوب سهل رشيق كاد يصل — لسهولته — إلى حدّ الركاكة فى بعض الأبيات مع أنه من أجمل الشعر وأبدعه ، وإن شئت فقل وأروعه ، وإليكم هذه القصيدة الفريدة فى مامها :

« ألا قل لصنهاجة أجمعين   بدور الزمان وأسد العرين
مقالة ذى مقة مشفق   يعد النصيحة زلفى ودين
لقد دلّ سيدكم ذلة   تقرّ بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا   ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به وانتخوا   وتاهوا، وكانوا من الأرذلين »

ومنها :

« فكم مسلم راغب راهب   لأرذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم   ولكن منا يقوم المعين
فهلا اقتدى فيهم بالألى   من القادة الخيرة المتقين

فى هذا البيت شىء كثير من الركاكة فى قوله « بالألى من القادة الخيرة المتقين » ولكنا نغتفرها لما فى ليبه من تتمة تلك الصورة الشعرية المتدفقة البديعة .

وأنزلهم حيث يستأهلون   وردهم أسفل السافلين
فلم يستخفوا بأعلامنا   ولم يستطيلوا على الصالحين »

ومنها يخاطب السلطان باديس :

« أبا ديس ! أنت امرؤ حاذق   تصيب بظنك نفس اليقين
فكيف خفى عنك ما يعبثون   وفى الأرض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الزنا   وقد بغضوك إلى العالمين

لَهُمْ كُلُّ مَيْمُونِ النَّقِيبَةِ بَازِلٍ[1] كَفِيلٍ بِأَنْ يَسْتَهْزِمَ الْجَمْعَ مُفْرَدَا
يَسُرُّكَ فِي الْهَيْجَا إِذَا جَرَّ لَامَةً وَيُرْضِيكَ فِي النَّادِي إِذَا اعْتَمَّ وَارْتَدَى[2]

* * *

كَرِهْتَ - لِسَيْفِ الْمُلْكِ - أُلْفَةَ غِمْدِهِ وَقَلَّ غَنَاءُ السَّيْفِ مَا كَانَ مُغْمَدَا
وَلَمْ تَرَ لِلشِّبْلِ الْإِقَامَةَ فِي الشَّرَى فَجَدَّ افْتِرَاساً حِينَ أَصْحَرَ لِلْعِدَا
هُمَامٌ - إِذَا حَارَبْتَ - فَارْفَعْ لِوَاءَهُ، فَمَا زَالَ مَنْصُورَ اللِّوَاءِ مُؤَيَّدَا
وَيَأْنَفُ مِنْ لِينِ الْمِهَادِ تَعَوُّضاً بِصَهْوَةِ طَيَّارٍ - إِلَى الرَّوْعِ - أَجْرَدَا
وَقِدْماً شَكَا حَبْلَ التَّمَائِمِ يَافِعاً لِيَحْمِلَ رَقْرَاقَ الْفِرِنْدِ مُهَنَّدَا
وَلَمْ تَرَ سَيْفاً - بَاتِكَ[3] الْحَدِّ قَبْلَهُ - تَنَاوَلَ سَيْفاً - دُونَهُ - فَتَقَلَّدَا

وكيف يتم لك المرتقى إذا كنت تدى وهم يهدمون
وكيف استنمت إلى فاسق وقارنته وهو بئس القرين ؟ »

ومنها :

« وإنى حللت بغرناطة فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها فمنهم بكل مكان لعين »

ومنها :

« وهم أمناكم على سركم وكيف يكون أمينا خؤون ؟
ويأكل غيرهم درهما فيقصى ويدنون إذ يأكلون
وقد نهضوكم إلى ربكم فما يمنعون وما يمكرون »

ومنها :

« ورخم قردهم داره وأجرى إليها نمير العيون
وصارت حوائجنا عنده ونحن - على بابه - قائمون
ويضحك منا ومن ديننا فانا إلى ربنا راجعون »

(١) البازل : الرجل الكامل ، والبازل أيضا الناقة فى عامها التاسع ، قال الشاعر :

«عذرت البزل إن هى خالبتنى فما بال وبال ابنى لبون »

(٢) أى تعجب بشجاعته إذا لبس لامة الحرب كما تعجب بسماحته التحف رداءه ولبس عمامته فى السلم .

(٣) باتك الحد : قاطعة مرهفة .

***

لَئِنْ أَنْجَزَتْ مِنْهُ الشَّمائِلُ آخِراً ... لَقَدْ قَدَّمَتْ مِنْهُ المَخايِلُ[١] مَوْعِدَا

قَرَرْتَ بِهِ عَيْنًا ، فَكَمْ سادَ عِتْرَةً ... وَكَمْ ساسَ سُلْطَانًا ، وَكَمْ زانَ مَشْهَدَا

وَأُعْطِيتُمَا ـ فِيما تُرِيغَانِهِ[٢] ـ الرِّضَى ، ... وَبُلِّغْتُمَا ـ مِمَّا تُرِيدَانِهِ ـ المَدَى

دولةُ عباد

كَمْ لِرِيحِ الْغَرْبِ مِنْ عَرْفٍ نَدِيّْ ... كَالشَّرابِ الْعَذْبِ فى نَفْسِ الصَّدِيّْ[٣]

حَيْثُ « عَبَّادٌ » فَتَى المَجْدِ الَّذِى ... نَصَّتِ الدُّنْيا بِهِ نَصَّ الْهَدِيّْ

مَلِكٌ رَاحَتُهُ بَحْرُ النَّدَى ... مِثْلَمَا غُرَّتُهُ بَدْرُ النَّدِيّْ

أَصْبَحَتْ دَوْلَتُهُ فى عَصْرِنَا ... كَفِرِنْدٍ عَادَ فى سَيْفٍ صَدِيّْ[٤]

إلى حبيب

يَا ظَبْيَةً لَطُفَتْ مِنِّى مَنَازِلُهَا ... فَالْقَلْبُ مِنْهُنَّ وَالْأَحْدَاقُ وَالْكَبِدُ

حُبِّى لَكِ النَّاسُ طُرًّا يَشْهَدُونَ بِهِ ... وَأَنْتِ شَاهِدَةٌ إِنْ يَمْنَهِمْ حَسَدُ

لَمْ يَعْزُبِ الْوَصْلُ فِيما بَيْنَنَا أَبَدًا ... لَوْ كُنْتِ وَاجِدَةً مِثْلَ الَّذِى أَجِدُ

---

(١) المخايل من السحب : المدرة بالمطر . قال مروان ابن أبى حفصية :

« إن أحلف العيث لم تخلف مخايله »

وهي هنا بمعى الدلائل التي تتوسم بها الشيء والشمائل : الصفات ، قال أبو تمام يرثى طفلين :

« لهى على تلك المخايل منهما ... لو أمهلت حتى تكون شمائلا

لعدا سكونهما حجا ، وصباهما ... عزما ، وتلك الأريحية نائلا . »

(٢) تريغانه : تطلبانه ، تقول : أراغ الشيء أى أراده وطلبه ، وقد جاء فى الأصل :

« وأعطيتما ـ فيما تريقاته ـ الرضى »

(٣) الصدى : الظمآن .

(٤) أعادت دولته إلى زماننا رونقه وبهاءه فصار كالسيف عاوده الصقل والرونق بعد أن علاه الصدأ .

فى مدح أبى المظفر

« وقال يمدح أبا المظفر سيف الدولة أبا بكر محمد
ابن مسلم صاحب بطليوس . »

هِيَ الشَّمْسُ مَغْرِبُهَا فِي الْكِلَلْ ... وَمَطْلَعُهَا مِنْ جُيُوبِ الْحُلَلْ [1]
وَغُصْنٌ تَرَشَّفَ مَاءَ الشَّبَابِ ... ثَرَاهُ الْهَوَى وَجَنَاهُ الْأَمَلْ [2]
تَهَادَى لَطِيفَةَ طَيِّ الْوِشَاحِ ... وَتَرْنُو ضَعِيفَةَ كَرِّ الْمُقَلْ [3]
وَتَبْرُزُ خَلْفَ حِجَابِ الْعَفَافِ ... وَتَسْفِرُ تَحْتَ نِقَابِ الْخَجَلْ [4]
بَدَتْ فِي لِدَاتٍ كَزُهْرِ النُّجُومِ ... حِسَانِ التَّحَلِّي مِلَاحِ الْعَطَلْ
مَشَيْنَ يُهَادِينَ رَوْضَ الرُّبَا ... بِيَانِعِ رَوْضِ الصِّبَا الْمُقْتَبَلْ
فَمِنْ قُضُبٍ تَنْثَنِّى بِرِيحٍ ... وَمِنْ قُضُبٍ تَنْثَنِى بِدَلّْ
وَمِنْ زَهَرَاتٍ تُنَدَّى بِمِسْكٍ ... وَمِنْ زَهَرَاتٍ تُنَدَّى بِطَلّْ
تَعَاهَدَ صَوْبُ الْعِهَادِ الْحِمَى ... وَلَا زَالَ مَرْبَعُهَا فِي مَلَلْ [5]

---

(١) الكلل : جمع كلة ، وهى ستر رقيق مربع يتوقى به من البعوض ونحوه ، والجيوب : جمع جيب ، وهو من القميص طوقه ، والحلل : جمع حلة بالضم وهى إزار ورداء (برد أو غيره) ولا تكون حله إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة ، والمعنى أن هذه الحسناء شمس تغرب فى الكلل كما تغيب الشمس فى مغربها ، وتشرق من جيوب الحلل كما تطلع الشمس من مشرقها .

(٢) وهى غصن غرس فى أرض الهوى وارتوى بماء الشباب لاماء السحاب فأجنانا ثمرة الأمل .

(٣) تهادى : تمشى مشية فى مهل وتثاقل ، وترنو : تنظر بمؤخر عينها ، يعنى أنها تهادى بين أترابها يكاد ينعدم ما انطوى عليه الوشاح من الحصر ، وتكر بسيف لحظها من جفون فاترة مريضة .

(٤) تسفر : مضارع سفرت المرأة سفورا كشفت النقاب عن وجهها ، يقول : إذا برزت للرجال برزت وراء حجاب يصونها من عفتها وإذا بدت لهم سافرة ستر وجهها نقاب من الحياء والخجل .

(٥) العهاد : المطر ، وصوبه نزوله ، والمربع : الموضع الذى ينزلون فيه أيام الربيع ، ولا زال مربعها فى ملل : أى ولا زال المطر يصوب فى مربعها حتى يمل لكثرة نزوله ، وفى الأصل :
« ولا مل مربعها فى ملل » وجاء فى ابن الأثير : فى حديث الاستسقاء فألف الله السحاب وملتنا ، كذا فى رواية مسلم ، قيل هى من الملل أى كثر مطرها حتى ملناها . انظر ج ٤ ص ١٠٩ من النهاية لابن الأثير

مَرَادٌ - مِنَ الْحُبِّ - غَضُّ الْجَنَى ، لَدَيْهِ - مِنَ الْوَصلِ - وِرْدٌ عَلَلْ
لَيَالِيَ مَا أنفَكَّ يُهْدِى السُّرُورَ حَبِيبٌ سَرَى ، وَرَقِيبٌ غَفَلْ
زَمَانٌ كَأَنَّ الْفَتَى الْمَسْـلَمِيَّ تَكَنَّفَهُ عَدْلُهُ فَاعْتَدَلْ
تَدَارَكَ (١) مِنْ حُكْمِهِ أَنْ يُعِيدَ بِهِ عِزَّةَ الدِّينِ أَيَّامَ ذَلّْ
وَيُوضِحَ رَسْمَ التُّقَى - إذْ عَفَا - وَيُطْلِعَ نَجْمَ الْهُدَى إذْ أَفَلْ

*

حَمِدْنَا « الْمظَفَّرَ » لَمَّا رَأَى « لِمَنْصُورِنَا » سِيرَةً فَامْتَثَلْ
مَلِيكٌ تَجَلَّى لَهُ غُرَّةً تَأَمَّلَهَا غِـرَّةً تُهْتَبَلْ
أَشَفُّ الْوَرَى - فِي النُّهَى - رُتْبَةً ، وَأَشْهَرُهُمْ - فِي المَعَالِي - مَثَلْ (٢)
وَأَحْرَى الْأَنَامِ بِأَمْرٍ وَنَهْيٍ وَأَدْرَى الْمُلوكِ بِعَقْدٍ وَحَلّْ
يَمَانٍ لَهُ التَّاجُ مِنْ يَنْيِمْ بِمَا أَوْرَثَ التُّبَّعُونَ الْأُوَلْ
سَنَامٌ - مِنَ الْمَجْدِ - عَالِى الذُّرَا يَظَلُّ الْعِدَا مِنْهُ تَحْتَ الْأَظَلّْ (٣)
تَقَيَّلَ - فِي المَهْـدِ - ظِلَّ اللِّوَاءِ وَسِيمَ النُّهُوضَ بِهِ فَاسْتَقَلّْ (٤)
وَنِيطَتْ حَمَـائِلُهُ الْوَافِيَاتُ - مَكَانَ تَمَائِمِـهِ - فَاحْتَمَلْ
وَمَا بَلَّتِ الْبُرْدَ تِلْكَ الدُّمُوعِ إلاَّ وَفِى الْبُرْدِ لَيْثٌ أَبَلّْ (٥)

(١) فى الأصل : « تبارك »

(٢) وقف على « مثل » بالسكون مع أنه منصوب لوقوعه تمييزا ، وربيعة يجرون المنصوب فى الوقف مجرى المرفوع والمجرور فيقفون عليه بالسكون ، وقد اضطرته القافية - فى غير ما موضع - أن يترك الاستعمال الفاشى من لغة العرب ويلجأ إلى هذه اللغة القليلة .

(٣) باطن منسم البعير .

(٤) تقيل : استظل ، وسيم : كلف ، بالغ إلى حد الأغراق لجعل الممدوح وهو فى المهد يقود الجيوش ويتقيل ظل اللواء ويكلف النهوض بهذا العبء فيستقل بحمل اللواء وحده .

(٥) الليث الأبل : الألد الشديد الخصومة .

عَهِدْنَا الْمَكَارِمَ فِيـــهِ مَعَانِى ... تُبَشِّرُنَا فيـــهِ مِنْهَا الْجُمَلْ

تُرَى بَعْدَ بِشْرٍ يُرِيكَ الْغَمَامَ ... تَهَلَّلَ بَارِقُهُ فَاسْــتَهَلّْ

يُصَـــدِّقُ مَا حَدَّثَتْنَا « عَسَى » ... بِهِ عَنْـــهُ ، أَوْ أَنْبَأَتْنَا « لَعَلّْ »

فَمَا وَعَدَ الظَّنُّ إِلاَّ وَفَى ... وَلاَ قَالَتِ النَّفْسُ إِلاَّ فَعَلْ

فَلَـــقِّيَ مُنَاوِئُهُ مَا اتَّقَى ... وَأَعْطَى مُؤَمِّـــلَهُ مَا سَأَلْ

⁂

كَمِ اسْتَوْفَتِ الشُّكْرَ نَعْمَاؤُهُ ... فَأَقْبَلَ يُنْعِمُ مِنْ ذِي قَبَلْ [(١)]

غَمَامٌ يُظِلُّ ، وَشَمْسٌ تُنِيرُ ، ... وَبَحْرٌ يَفِيضُ ، وَسَيْفٌ يُسَلّْ

قَسِـــيمُ الْمُحَيَّا ، ضَحُوكُ السَّمَاحِ ، ... لَطِيفُ الْحِوَارِ ، أَدِيبُ الْجَدَلْ

تُوَشِّى الْبَلاَغَـــةَ أَقْلاَمُهُ ... إِذَا مَا الضَّمِيرُ عَلَيْهَا أَمَلّْ [(٢)]

بَيَانٌ يُبَـــيِّنُ لِلسَّامِعِيـــنَ ... أَنَّ مِنَ السِّحْرِ مَا يُسْتَحَلّْ [(٣)]

أَلاَ هَلْ سَبِيلٌ إِلَى الْعَيْبِ فِيـــهِ ... فَكَمْ عِينَ مِنْ قَبْلِهِ مَنْ كَمَلْ [(٤)]

---

(١) يقال : لقيته من ذى قبل (بفتحتين وبكسر وفتح) أى فيما يستقبل .

(٢) يقال أمل عليه الكتاب أى أملاه ليكتبه ، وفى الكتاب العزيز : (فليكتب وليملل الذى عليه الحق) وفيه أيضا : (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تمل عليه)

(٣) السحر الذى يستحل هو سحر البيان ، وفيه الاشارة إلى المثل المشهور : إن من البيان لسحرا ، قاله النبى — صلى الله عليه وسلم — حين وفد عليه ، عمرو بن الأهتم ، والزبرقان بن بدر ، وقيس ابن عاصم ، فسأل عليه الصلاة والسلام عمرو بن الاهتم عن الزبرقان . فقال عمرو : « مطاع فى أدنيه ، شديد المعارضة ، مانع لما وراء ظهره » . فقال الزبرقان : « يا رسول الله ! إنه ليعلم منى أكثر من هذا ، ولكنه حسدنى » . فقال عمرو : « أما والله ! إنه لزمن المروءة ، ضيق العطن ، أحمق الوالد ، لئيم الخال ، والله يا رسول الله ما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الأخرى ، ولكنى رجل رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وسخطت فقلت أقبح ما وجدت » . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن من البيان لسحرا » ، إنما سمى البيان سحرا لتأثيره فى سامعه ، وسرعة قبول القلب له .

(٤) عين : أصيب بالعين ، من عان المحسود يعينه فهو عائن والمحسود معين أصابه بالعين ، يقول : هل من سبيل إلى وجود عيب واحد فيه يقيه شر أعين الحاسدين ، فكثيرا ما أصيب بالعين الكامل الذى لانقص فيه ولا عيب . وهذا قريب من قول القائل :

« ما كان أحوج ذا الكمال إلى ... عيب يُوَقِّيـــه من العين . »

***

لَئِنْ لَبِسَ الْمُلْكَ رَحْبَ الْمُلاَ ... فَاخْتَالَ مِنْهُ بِذَيْلٍ رَفَلْ

فَإِنَّ تَزَوُّدَهُ لِلْمَعَالِي ... وَإِنَّ تَأَهُّبَــــهُ لِلْأَجَلْ

فَأَخْــبَرُ سُوَّاسِ هٰذِي الْأُمُورِ ... وَنَاسِكُ أَرْبَابِ هٰذِي الدُّوَلْ

***

وَلِيتَ الثُّغُورَ فَلَمْ تَعْدُ أَنْ ... رَأَبْتَ الثَّأَى[1] وَسَدَدْتَ الْخَلَلْ

سِوَاكَ - إِذَا قُلِّدَ الْأَمْرَ - جَارَ ، ... وَغَيْرُكَ - إِنْ مُلِّكَ الْفَيْءَ - غَلّ[2]

تَمِي لاَ يَزَالُ لِمَنْ حَلَّهُ ... أَمَانَانِ : مِنْ عَدَمٍ ، أَوْ وَجَلْ[3]

فَأَنْجُمُ دَهْرِهِمُ سَــــعْدَةٌ ... وَشَمْسُ زَمَانِهِمُ فِي الْحَمَلْ[4]

***

« أَبَا بَكْرٍ » اسْمَعْ أَحَادِيثَ لَوْ ... تُبَثُّ بِسَـــمْعِ عَلِيلٍ أَبَلْ[5]

سَأَشْــكُرُ أَنَّكَ أَعْلَيْتَنِي ... بِأَحْظَى مَكَانٍ وَأَدْنَى مَحَـــلّ

وَأَنِّيَ إِنْ زُرْتُ لَمْ تَحْتَجِبْ ... وَإِنْ طَالَ بِي مَجْلِسٌ لَمْ تَمَلّ

---

(١) الثأى : الفساد ، ورأبته أصلحته .

(٢) الفيء : ما حصل للمسلمين من أموال الكفار عفوا بلا قتال ، وتقسيمه غير تقسيم الغنائم ، وغل : خان ، وخصه بعضهم بالغلول (أى الخيانة) فى الفيء والمغنم ، وهو من قول الله عزّ وجلّ : « وما كان لنبي أن يغل . »

(٣) عدم أو وجل : أى فقراً وخوف .

(٤) سـعدة : صفة الأنجم ، يقال : يوم سعد وليلة سـعدة ، وفى الأصل : « وأنجم دهرهم أسعد » وأسعد وصف للمذكر ، ولا يصح وصف الأنجم به ، وفى السماء كواكب يقال لكل منها : « سعد » وسعود النجوم عشرة وهى : « سعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد السعود ، وسعد الأخبية ، وسعد ناشرة ، وسعد الملك ، وسعد البهام ، وسعد الهمام ، وسعد البارع ، وسعد مطر . »

(٥) صح من مرضه

تَبَسَّـــمْتَ ثُمَّ ثَنَيْتَ الْوِسَادَ فَحَسْبِيَ مِنْ خَطَرٍ مَا أَجَلّْ [1]

فَلَوْ صَافَحَ التِّبْرَ خَدِّى لَهَانَ وَلَوْ كَاثَرَ الْقَطْرَ شُكْرِى لَقَلّْ

بِأَمْثَالِهَا يُسْـتَرَقُّ الْـكَرِيمُ إِذَا مَطْمَعٌ بِسِـوَاهُ أَخَلّْ

* * *

فَلاَ تَعْدَمَنْكَ الْمَسَاعِي الَّتِي لِأُمِّ الْمُنَاوِيكَ فِيهَا الْهَبَلْ [2]

فَأَنْتَ الْجَرِىءُ ـ إِذَا الشِّبْلُ هَابَ ـ وَأَنْتَ الدَّلِيـــلُ، إِذَا النَّجْمُ ضَلّْ

وَمَا أَنْتَ إِلاَّ جِلاَءُ الْعُيُونِ إِذَا نَاظِرٌ ـ بِسِوَاهُ ـ اكْتَحَلْ

رَبِيبُ السِّـــيَادَةِ ـ فِي حِجْرِهَا ـ تُدِرُّ لَهُ ثَدْيَهَا إِذْ حَفَلْ [3]

تَمَكَّنَ يَتْلُوكَ ـ فِي الصَّالِحَاتِ ـ فَلَمَّا تَفُتْـــهُ ، وَلَمَّا يَنَلْ

---

(١) ثنيت الوساد : الوساد المتكأ ، وثنيته أى رددت بعضه على بعض ، وذلك قلبه ، أو ثنيته جعلت له ثانيا وضعته عليـه ليحصل الارتفاق ، والاتكاء عليه عند الجلوس ، وهـذه الحفاوة إما أن تكون حصلت بفعل مباشر من الملك تواضعا منه ومبالغة فى إكرام ذى الوزارتين (ابن زيدون) ، وإما أن تكون حصلت من الخدم والاتباع بناء على أمر الملك ، يقول فى هذا البيت والبيتين قبله : سأشكر لك إنك أعليت مكانى ، وأدنيت محلى ، وإنى إن زرتك لم تحتجب وإن طال بى الجلوس فى مجلسك لم تسأم ولم تمل ، وأنى إن جئتك زائرا تبسمت وثنيت الوساد احتفاء بى ، فحسبي هذا من خطر عظيم وشرف ما أجله وما أعظمه .

(٢) يقال : هبلته أمه ثكلته ، ولأمه الهبل أى الثكل . قال الشاعر :

« والناس من يلق خيرا ، قائلون له ما يشتهى ، ولأم المخطئ الهبل . »

وقال البحترى :

« ولاكم البغى ، ثم انساب نحوكم بالمشرفية فيها الثكل والهبل . »

وقال المعرى :

« دع آدما ــ لاشفاه الله من هبل ــ يبكى على ولده المقتول هابيلا . »

(٣) حفل : امتلأ ، حفل اللبن فى الضرع يحفل حفلا وحفولا ، وتحفل واحتفل : اجتمع وهذا ضرع حفيل أى مملوء لبناً

موشح

ذكرى قرطبة وايام الصبا

تَنَشَّقَ - مِنْ عَرْفِ الصَّبَا [1] - مَاتَنَشَّقَا

وَعَاوَدَهُ ذِكْرُ الصِّبَا فَتَشَوَّقَا

وَمَا زَالَ لَمْعُ الْبَرْقِ - لَمَّا تَأَلَّقَا -

يُهِيبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ حَتَّى تَدَفَّقَا ، وَهَلْ يَمْلِكُ الدَّمْعَ الْمَشُوقُ الْمُصَبَّأُ؟ [2]

***

خَلِيلَيَّ - إِنْ أَجْزَعْ - فَقَدْ وَضَحَ الْعُذْرُ

وَإِنْ أَسْتَطِعْ صَبْرًا فَمِنْ شِيمَتِي الصَّبْرُ

وَإِنْ يَكُ رُزْءًا مَا أَصَابَ بِهِ الدَّهْرُ

فَفِي يَوْمِنَا خَمْرٌ ، وَفِي غَدِهِ أَمْرٌ [3] وَلَا عَجَبٌ ، إِنَّ الْكَرِيمَ مُرَزَّأُ

---

(١) الصبا : ريح الصبا أى ريح الشمال . والعرف : الطيب .

(٢) يهيب : مضارع أهاب بصاحبه دعاه ، أى يدعو الدمع ليتدفق ، والمصبأ : دو الصبوة ، والصبوة جهلة الفتوة يقال صبا صبوا وصبا وصباء . وصبي إليها -كرضي- حن ، وأصبته المرأة وتصبته : شاقته ودعته إلى الصبا فحن إليها .

(٣) فى المثل : « اليوم خمر وغدا أمر » وقد قاله امرؤ القيس حين بلغه قتل أبيه ، ومعناه : اليوم نلهو وننعم تاركين إلى الغد أداء ما علينا من الواجبات والفروض . ويروى ، وهو أيضاً لامرئ القيس : « اليوم قحاف ، وغدا نقاف » والقحاف جمع قحف ، وهو إناء يشرب فيه ، والنقاف : المناقفة من نقف الهامة شقها عن الدماغ .

***

رَمَتْنِي اللَّيَالِي عَنْ قِسِيِّ النَّوَائِبِ

فَمَا أَخْطَأَتْنِي مُرْسَلَاتُ المَصَائِبِ

أُقَضِّي نَهَارِي بِالأَمَانِي الكَوَاذِبِ

وَآوِي إِلَى لَيْلٍ بَطِيءِ الكَوَاكِبِ(١) وَأَبْطَأُ سَارٍ كَوْكَبٌ بَاتَ يُكْلَأُ

***

أَقُرْطُبَةَ الغَرَّاءُ! هَلْ فِيكِ مَطْمَعُ ؟

وَهَلْ كَبِدٌ حَرَّى لِبَيْنِكِ تَنْقَعُ ؟

وَهَلْ لِلَيَالِيكِ الحَمِيدَةِ مَرْجِعُ ؟

إِذِ الحُسْنُ مَرْأَى فِيكِ وَاللَّهْوُ مَسْمَعُ وَإِذْ كَنَفُ الدُّنْيَا لَدَيْكِ مُوَطَّأُ(٢)

---

(١) إشارة إلى البيت المشهور فى قصيدة النابغة الذبيانى :

« كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجوم بآئب
وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب . »

جعل صدره مألفاً للهموم وجعل الهموم كالإبل العازبة بالنهار حتى إذا أتى الليل أراحتها الرعاة فى أماكنها والنابغة أول من جعل الهموم تعزب بالنهار وتتزايد بالليل ، وتبعه الشعراء فى ذلك ، فقال مجنون ليلى :

« يضم إلى الليل أطفال حبكم كما ضم أزرار القميص البنائق . »

وقال ابن الدمينة :

« نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لى الليل هزتنى إليك المضاجع
أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهم بالليل جامع . »

ولهذا السبب تبرم الشعراء بطول الليل فقال :

« كواكب ليلة طالت وغمت فهذا الصبح راغمة فغورى »

وقال امرؤ القيس :

« فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل »

وقد أكثر الشعراء من أمثال هذه المعانى فلنجتزئ بهذه الأبيات .

(٢) موطأ : ميسر مذلل .

أَلَيْسَ عَجِيباً أَنْ تَشُطَّ النَّوَى بِكِ

فَأَحْيَا كَأَنْ لَمْ أَنْسَ نَفْحَ جَنَابِكِ

وَلَمْ يَلْتَثِمْ شَعْبِي خِلَالَ شِعَابِكِ

وَلَمْ يَكُ خَلْقِي بَدْؤُهُ مِنْ تُرَابِكِ وَلَمْ يَكْتَنِفْنِي - مِنْ نَوَاحِيكِ - مَنْشَأُ

⁂

نَهَارُكِ وَضَّاحٌ ، وَلَيْلُكِ ضَحْيَانُ

وَتُرْبُكِ مَصْبُوحٌ ، وَغُصْنُكِ نَشْوَانُ

وَأَرْضُكِ تُكْسَى ، حِينَ جَوُّكِ عُرْيَانُ

ورَيَّاكِ رَوْحٌ - لِلنُّفُوسِ - وَرَيْحَانُ وَحَسْبُ الْأَمَانِي ظِلُّكِ الْمُتَفَيَّأُ (١)

⁂

أَأَنْسَى زَمَاناً « بِالْعُقَابِ » مُرَفَّلَا

وَعَيْشاً بِأَكْنَافِ « الرُّصَافَةِ » دَغْفَلَا (٢)

وَمَغْنَى - إِزَاءَ « الْجَعْفَرِيَّةِ » - أَقْبَلَا

لَنِعْمَ مَرَادُ النَّفْسِ رَوْضاً وَجَدْوَلَا وَنِعْمَ مَحَلُّ الصَّبْوَةِ الْمُتَبَوَّأُ

⁂

وَيَارُبَّ مَلْهًى « بِالْعَقِيقِ » وَمَجْلِسِ

لَدَى تُرْعَةٍ ، تَرْنُو بِأَحْدَاقِ نَرْجِسِ

بِطَاحُ هَوَاءٍ مُطْمِعِ الْحَالِ مُؤْيِسِ

مَغِيمٍ وَلَكِنْ - مِنْ سَنَا الرَّاحِ - مُشْمِسِ إِذَا مَا بَدَتْ - فِي كَأْسِهَا - تَتَلَأْلَأُ

---

(١) ضحيان : أى بارز ظاهر لا يستره ظلام ، وذلك لكثرة ما يضاء فى قرطبة من المصابيح والسرج بالليل ، وعريان : صحو يريد أن أرضها مكسوة بالنبات وجوها صحو صافى الأديم ، المتفيأ : الذى يستظل به ويستريح فيه المقيل . (٢) الدغفل : العيش الواسع المخصب .

وَقَدْ ضَمَّنَا ـ مِنْ « عَيْنِ شُهْدَةَ » ـ مَشْهَدُ
بَدَأْنَا وَعُدْنَا فِيــــهِ ، وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ
يَزُفُّ عَرُوسَ اللَّهْوِ أَحْوَرُ أَغْيَدُ
لَهُ مَبْسِمٌ عَذْبٌ ، وَخَدٌّ مُوَرَّدُ ، وَكَفٌّ ـ بِحِنَّاءِ الْمُدَامِ ـ تُقَنَّأُ [1]

* * *

وَكَائِنْ عَدَوْنَا ـ مُصْعِدِينَ ـ عَلَى الْجِسْرِ [2]
إِلَى الْجَوْسَقِ [3] النَّصْرِيِّ بَيْنَ الرُّبَا الْعُفْرِ
وَرُحْنَا إِلَى الْوَعْسَاءِ [4] مِنْ شَاطِئِ النَّهْرِ
بِحَيْثُ هُبُوبُ الرِّيحِ عَاطِرَةِ النَّشْرِ عَلَا قُضُبَ النُّوَّارِ ، فَهِيَ تُكَفَّأُ

* * *

وَأَحْسِنْ بِأَيَّامٍ ـ خَلَوْنَ ـ صَوَالِحِ
بِضَيْعَةِ الدُّولَابِ ، أَوْ قَصْرِ نَاصِحِ
تَهُزُّ الصَّبَا ـ أَثْنَاءَ تِلْكَ الْأَبَاطِحِ ـ
صَفِيحَةَ سَلْسَالِ الْمَوَارِدِ سَائِحِ تَرَى الشَّمْسَ تَجْلُو نَصْلَهَا حِينَ يَصْدَأُ [5]

---

(١) تقنأ : تصبغ باللون الاحمر القانى ، وذلك حين تمسك بالكأس فينعكس عليها من لون الراح مايشبه الخضاب بالحناء . (٢) وكم جرينا صاعدين على الجسر .

(٣) الجوسق : القصر ، والربا : جمع ربوة ، وهى ما ارتفع من الأرض والعفر جمع عفراء — وهى أرض بيضاء لم توطأ .

(٤) الوعساء : رابية من رمل لينة تنبت أحرار البقول .

(٥) يقول : إن ريح الصبا تهز خلال تلك الأباطح صفيحة جدول سلسال الموارد سائح فى الأباطح ، والشمس تجلو نصل هذا الجدول الشبيه بصفيحة السيف حين يصدأ من الظل .

***

وَيَا حَبَّذَا « الزَّهْرَاءُ » بَهْجَةَ مَنْظَرٍ

وَرِقَّةَ أَنْفَاسٍ ، وَصِحَّـــةَ جَوْهَرِ

وَنَاهِيكَ مِنْ مَبْدَا جَمَالٍ وَمَحْضَرِ

وَجَنَّةِ عَدْنٍ تَطَّبِيكَ وَكَوْثَرِ بِمَرْأَى يَزِيدُ الْعُمْرَ - طِيباً - وَيَنْسَأُ [1]

***

مَعَاهِدُ - أَبْكِيهَا - لِعَهْدٍ تَصَرَّمَا [2]

أَغَضَّ - مِنَ الْوَرْدِ الْجَنِيِّ - وَأَنْعَمَا

لَبِسْنَا الصِّـــبَا فِيهَا حَبِيراً مُنَمْنَمَا [3]

وَقُدْنَا - إِلَى اللَّذَّاتِ - جَيْشاً عَرَمْرَمَا لَهُ الْأَمْنُ رِدْءٌ [4] وَالْغَدَاوَةُ مَرْبَأُ

***

كَسَاهَا الرَّبِيعُ الطَّلْقُ وَشْيَ الْخَمَائِلِ [5]

وَرَاحَتْ لَهَا مَرْضَى الرِّيَاحِ الْبَلَائِلِ

وَغَادَى بَنُوهَا الْعَيْشَ حُلْوَ الشَّمَائِلِ

وَلَا زَالَ مِنَّا بِالضُّحَا وَالْأَصَائِلِ سَلَامٌ - عَلَى تِلْكَ الْمَيَادِينِ - يُقْرَأُ

---

(١) تطبيك : تعجبك وتزدهيك ، ينسأ : يؤخر ، أى يطيل العمر ، وقد مر التعريف بالزهراء وغيرها من آثار « قرطبة » فى الحاشية ص (٥٤ ـ ٥٦) فارجع إليها إن شئت

(٢) تصرم : انقضى وفات :

(٣) الحبير : الناعم الجديد ، وضرب من برود اليمن والمنمنم : المنقوش الموشى

(٤) ردء : ظهير أومعين .

(٥) الخمائل ــ جمع خميلة ــ وهى الموضع الكثير الشجر

أَإِخْوَانَنَا ! لِلْوَارِدِينَ مَصَادِرُ
وَلاَ أَوَّلٌ إِلاَّ سَـيَتْلُوهُ آخِرُ
وَإِنِّى - لِإِعْتَابِ [1] الزَّمَانِ - لَنَاظِرُ
فَقَدْ يَسْتَقِيلُ الْجَدُّ - وَالْجَدُّ عَاثِرُ - وَتُحْمَدُ عُقْبَى الْأَمْرِ مَازَالَ يُشْنَأُ [2]

* * *

ظَعَنْتُ ، فَـكَانَ الْحُرُّ يُجْفَى فَيَظْعَنُ [3]
وَأَصْبَحْتُ أَسْلُو بِالْأُسَى [4] حِينَ أَحْزَنُ
وَقَرَّ - عَلَى الْيَأْسِ - الْفُؤَادُ الْمُوَطَّنُ
وَإِنَّ بِلاَدًا - هُنْتُ فِيهَا - لَأَهْوَنُ وَمَنْ رَامَ مِثْلِى بِالدَّنِيَّةِ أَدْنَأُ

* * *

وَلاَ يَغْبِطُ الْأَعْدَاءُ كَوْنِىَ فِى السِّجْنِ
فَإِنِّى رَأَيْتُ الشَّمْسَ تُحْصَنُ بِالدَّجْنِ [5]
وَمَا كُنْتُ إِلاَّ الصَّارِمَ الْعَضْبَ فِى جَفْنِ [6]
أَوِ اللَّيْثَ فِى غَابٍ، أَوِ الصَّقْرَ فِى وَكْنٍ [7] أَوِ الْعِلْقَ يُخْفَى - فِى الصِّوَارِ - وَيُخْبَأُ [8]

---

(١) الاعتاب : إرضاء العاتب .

(٢) يستقيل : ينهض ، والجد : الحظ . ويشأ : يمقص .

(٣) أى رحلت فكان رحيلى هذا لأنى لقيت جفاه فترحلت عن مكان الجفوة والحر إذا نبت به أرض هاجر إلى غيرها .

(٤) الأسى : جمع أسوة ، وهى التأسى والتجمل، قال ابن دريد :

« فان عثرت بعدها - إن وألت نفسى من هاتا - فقولا : لا لعا .

وإن تكن مدتها موصولة بالحتف سلطت الأسى على الأسى . »

أى سلطت الصبر والتجمل على الحزن .

(٥) الدجن : الغيم . (٦) جفن : غمد (٧) الوكن : عش الطائر ، لوكنة مثلة .

(٨) الصوار : وعاء المسك .

***

يَضِيقُ – بِأَنْوَاعِ الصَّبَابَةِ – مَذْهَبِي

إِلَى كُلِّ رَحْبِ الصَّدْرِ – مِنْكُمْ – مُهَذَّبِ

مُفَضَّضِ لَأْلَاءِ الْأَسَارِيرِ مُذْهَبِ (١)

يُنَافِسُ – مِنْهُ الْبَدْرُ – غُرَّةَ كَوْكَبِ   دَرَى أَنَّهَا أَبْهَى سَنَاءً وَأَضْوَأُ

***

أَسِفْتُ، فَمَا أَرْتَاحُ – وَالرَّاحُ تُثْمِلُ –

وَلَا أَسْعِفُ الْأَوْتَارَ – وَهِيَ تَرَسَّلُ –

وَلَا أَرْعَوِي عَنْ زَفْرَةٍ – حِينَ أُعْذَلُ –

وَلَا لِيَ – مُذْ فَارَقْتُكُمْ – مُتَعَلَّلُ   سِوَى خَبَرٍ مِنْكُمْ – عَلَى النَّأْيِ – يَطْرَأُ

***

حَمِدْتُمْ – مِنَ الْأَيَّامِ – لِينَ خِلَالِهَا

وَسَرَّتْكُمُ الدُّنْيَا بِحُسْنِ دَلَالِهَا

مُؤَمَّنَةً مِنْ عَتْبِهَا وَمَلَالِهَا

وَلَا زَالَ مِنْكُمْ لَابِسٌ مِنْ ظِلَالِهَا   يُسَوَّغُ أَبْكَارَ الْمُنَى وَيُهَنَّأُ

---

(١) أسارير الوجه : محاسنه، والأسارير – جمع أسرار والأسرار جمع سرار وهي خطوط الكف .

إلى ابن عبـــدوس (١)

« وكتب إلى الوزير الكاتب أبى علىّ
ابن عبدوس معاتبا . »

---

(١) كان بين ابن زيدون وابن عبدوس عداوة أصيلة ــ بعد صداقة أكيدة ــ وكان من أكبر أسباب تلك العداوة تنازعهما على «ولادة بنت المستكفى» وقد كانت هـذه العداوة حافزا لابن زيدون على إنشاء هذه القصيدة ، كما كانت حافزا له على إنشاء رسالته الهزلية المشهورة التى ستمر بك فى هذا الكتاب . وقد كتب ابن نباته فى مقدمة الرسالة كلمة تمهيدية علل بها أسباب هذه العداوة كما كتب صاحب نفح الطيب وغيره ونحن نجتزئ بما يلى :

كانت بقرطبة امرأة ظريفة من بنات خلفاء العرب الأمويين المنسوبين إلى عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالداخل ــ من بنى عبد الملك بن مروان تسمى : «ولادة بنت المستكفى بالله محمد بن المستظهر بالله عبد الرحمن» ابتذل حجابها ــ بعد نكبة أبيها وقتله وتغلب ملوك الطوائف ــ فى خبر طويل ــ ثم صارت تجلس للشعراء والكتاب وتعاشرهم وتحاضرهم ويتعشقها الكبراء منهم ، وكانت ذات خلق جميل وأدب غض ونوادر عجيبة ، ونظم جيد فمن ذلك ما كتبت به لابن زيدون وهى راضية عنه تقول :

« ترقب ــ إذا جن الظلام ــ زيارتى فإنى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك ما لو كان بالبدر لم يلح وبالليل لم يظلم ، وبالنجم لم يسر . »

وقولها فيه وهى عليه غضبى :

« إن ابن زيدون ــ على فضله ــ يلهج بى شتما ولا ذنب لى
يلحظنى شزرا إذا جئته كأنما جئت لأخصى على . »

تعنى غلاما له يسمى عليا . وكان سبب قولها فيه هذا الشعر أنه اتهمها بمواصلة الوزير «أبى عامر بن عبدوس» وكان يلقب بالفار ، فقال فيه وفيها :

« عيرتمونا بأن قد صار يخلفنا ــ فيمن نحب ــ وما فى ذاك من عار
أكل شهى ، أصبنا من أطايبه بعضا ، وبعضا صفحنا عنه للفار . »

ومن شعرها ما كتبت به على كمها وقيل : على تاجها :

« أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه تيها
وأمكن عاشقى من لثم ثغرى وأعطى قبلتى من يشتهيها . »

ومما ينسب إليها وهو عندى كثير على شعر امرأة :

« لحاظكم تجرحنا فى الحشى ولحظنا يجرحكم فى الخدود
جرح بجرح ، فاجعلوا ذا بذا فما الذى أوجب جرح الصدود . »

وكان ابن زيدون كثير الشغف بها ، والميل إليها ، وأكثر غزل شعره فيها وفى اسمها ، ثم إن الوزير «أبا عامر بن عبدوس» أيضاً هام بها وكلف بعشرتها ، وكان تصدمه الطرف والأدب ، وكانت «ولادة» كثيرة العبث به ، ولها معه نوادر ظريفة ، ومن نوادرها الطريفة أنها مرت يوما بدار «ابن عبدوس» وهو جالس بالباب وحوله جماعة من أصحابه ــ وأمامه بركة تتولد من مراحيض وأقذار ــ فوقفت عليه وقالت يا أبا عامر :

« أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحرُ . »

أَثَرْتَ هِزَبْرَ الشَّرَى إِذْ رَبَضْ ... وَنَبَّهْتَهُ إِذْ هَدَا فَاغْتَمَضْ (١)

وَمَا زِلْتَ تَبْسُطُ (٢) مُسْتَرْسِلاً ... إِلَيْهِ يَدَ الْبَغْيِ لَمَّا انْقَبَضْ

* * *

حَذَارِ حَذَارِ فَإِنَّ الْكَرِيمَ ... إِذَا سِيمَ خَسْفاً أَبَى فَامْتَعَضْ

فَإِنَّ سُكُونَ الشُّجَاعِ النَّهُوسِ (٣) ... لَيْسَ بِمَانِعِهِ أَنْ يَعَضّ

وَإِنَّ الْكَوَاكِبَ لاَ تُسْتَزَلُّ ... وَإِنَّ الْمَقَادِيرَ لاَ تُعْتَرَضْ

إِذَا رِيعَ فَلْيَقْتَصِدْ مُسْرِفٌ ... مَسَاعٍ يُقَصِّرُ عَنْهَا الْحَفَضْ (٤)

وَهَلْ وَارِدُ الْغَمْرِ مِنْ عِدِّهِ ... يُقَاسُ بِهِ مُسْتَشِفُّ الْبَرَضْ (٥)

فلم يحر جوابا، فصمت وحفظت هذه النادرة، واشتغل بها الناس، وهذا البيت لأبي نواس تمثلت به ونقلته هذا النقل الحسن من — المدح إلى الهجاء — وكان كثيرا ما يجددها ويبغي التفرد بها ، وفي ذلك يقول ابن زيدون:

« وغرك من عهد ولادة ... سراب تراءى وبرق ومض

هي الماء يأبى على قابض ... ويمنع زبدته من مخض . »

وكان أول أمرها معه والباعث لابن زيدون على إنشاء هذه الرسالة : أن «ابن عبدوس» لما سمع بها أرسل إليها امرأة من جهته تستميلها إليه وتذكر لها محاسنه ومناقبه وترغبها في التفرد بمواصلته ، فبلغ ابن زيدون ذلك ، فكتب هذه الرسالة البديعة جوابا له عن لسانها تتضمن هذه الغرائب من سب أبي عامر والتهكم له والهجاء له وجعلها جوابا له على لسان ولادة ، وأرسلها إليه عقيب رجوع المرأة فبلغت منه كل مبلغ، واشتهر ذكرها في الآفاق، وأمسك «ابن عبدوس» عن التعرض لولادة إلى أن انتقل «ابن زيدون» إلى «اشبيلية» وتوفي بها تغمده الله برحمته ، وغفر لنا ولهم بمنه وكرمه. هذا معنى ما ذكره ابن حيان وابن بسام وغيرهما من المؤرخين .

(١) أثرت : هجت ، والهزبر : من أسماء الأسد ، والشرى : موضع تكثر فيه الأسود ، وربض : آوى إلى عرينه ، وهدأ : نام .

(٢) يقول : وما زلت تبسط يد البطش والبغي على ذلك الأسد الرابض في مجثمه على حين أمست يده المنقبضة عنك .

(٣) النهوس : العضوض ، والشجاع الذكر من الحيات ، قال القائل :

« أتيح له — وكان أخا عيال — ... شجاع — في الحماطة — مستكن . »

(٤) الحفض : الجمل الضعيف .

(٥) العد : أراد به هنا معين الماء الذي له مادة لا تنقطع ، يقال ماء عد أي كثير دائم لا ينقطع ، البرض : القليل . قال ابن دريد :

« أرمق العيش على برض فإن ... رمت ارتشافا رمت صعب المنتسى . »

يقال ماء برض (بالسكون) أي قليل وهو خلاف الغمر، والمستشف : الذي يأتي على آخر ما في الإناء عند العرب.

إذا الشَّمْسُ قابَلْتَها ـ أرْمَدًا ـ فَحَظُّ جُفُونِكَ فى أنْ تُغَضّْ [١]

✡ ✡ ✡

أرَى كُلَّ مُجْرٍ « أبَا عَامِرٍ » يُسَرُّ إذَا فى خَلَاءٍ رَكَضْ

أُعِيذُكَ مِنْ أنْ تَرَى مِنْزَعِى [٢] إذَا وَتَرِى بِالْمَنَايَا انْقَبَضْ

فَإنِّى أَلِينُ لِمَنْ لَانَ لِى وَأتْرُكُ مَنْ رَامَ قَسْرِى حَرَضْ [٣]

وَكَمْ حَرَّكَ الْعُجْبُ مِنْ حَائِنٍ فَغَادَرْتَهُ ، مَابِهِ مِنْ حَبَضْ [٤]

✡ ✡ ✡

« أَبَا عَامِرٍ » أيْنَ ذَاكَ الْوَفَاءُ إذِ الدَّهْرُ وَسْنَانُ ، وَالْعَيْشُ غَضّْ ؟

وَأيْنَ الَّذِى كُنْتَ تَعْتَدُّ مِنْ مُصَادَقَتِى الْوَاجِبَ الْمُفْتَرَضْ ؟

تَشُوبُ وَأُمْحِضُ [٥] مُسْتَبْقِيًا وَهَيْهَاتَ مَنْ شَابَ مِمَّنْ مَحَضْ !

✡ ✡ ✡

أبِنْ لِى ، ألَمْ أضْطَلِعْ نَاهِضًا [٦] بِأعْبَاءِ بِرِّكَ ، فِيمَنْ نَهَضْ ؟

ألَمْ تَنْشَ مِنْ أدَبِى نَفْحَةً حَسِبْتَ بِهَا الْمِسْكَ طِيبًا يُفَضّْ ؟

---

(١) قال المتنبي :

« قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم . »

(٢) المنزع : السهم الذى يرمى به أبعد ما يقدر عليه لتقدر به الغلوة قال الأعشى :

فهو كالمنزع المريش من الشو حط غالت به يمين المغالى

(٣) حرض : ساقط لايقوى على النهوض .

(٤) الحبض : التحرك والصوت ، والقفزة وبقية الحياة ، يقول : كم دفع الغرور من قرب حينه إلى مناوأتى فتركته ميتا لاحراك به .

(٥) أى تمزج الصافى بالكدر وأصفيك الهوى خالصاً من كل شائبة

(٦) وفى رواية « : عاديا »

أَلَمْ تَكُ مِنْ شِيمَتِي غَادِيًا … إِلَى تُرَعٍ ضَاحَكَتْهَا فُرَضْ (١) ؟

وَلَوْلاَ اُخْتِصَاصُكَ لَمْ أَلْتَفِتْ … لِحَالَيْكَ مِنْ صِحَّةٍ أَوْ مَرَضْ

وَلاَ عَادَنِي ـ مِنْ وَفَاءٍ ـ سُرُورٌ … وَلاَ نَالَنِي ـ لِجَفَاءٍ ـ مَضَضْ

يَعِزُّ اُعْتِصَارُ الْفَتَى وَارِدًا … إِذَا الْبَارِدُ الْعَذْبُ أَهْدَى الْجَرَضْ (٢)

***

عَمَدْتَ لِشِعْرِي وَلَمْ تَنْدَّبْ (٣) … تُعَارِضُ جَوْهَرَهُ بِالْعَرَضْ

أَضَاقَتْ أَسَالِيبُ هٰذَا الْقَرِيضِ ؟ … أَمْ قَدْ عَفَا رَسْمُهُ فَانْقَرَضْ ؟

***

لَعَمْرِي لَفَوَّقْتَ سَهْمَ النِّضَالِ … وَأَرْسَلْتَهُ، لَوْ أَصَبْتَ الْغَرَضْ (٤)

وَشَمَّرْتَ لِلْخَوْضِ فِي لُجَّةٍ … ـ هِيَ الْبَحْرُ ـ سَاحِلُهَا لَمْ يُخَضْ

وَغَرَّكَ مِنْ عَهْدِ « وَلاَّدَةٍ » (٥) … سَرَابٌ تَرَاءَى وَبَرْقٌ وَمَضْ

تَظُنُّ الْوَفَاءَ بِهَا وَالظُّنُو … نُ فِيهَا تَقُولُ عَلَى مَنْ فَرَضْ :

« هِيَ الْمَاءُ يَأْبَى عَلَى قَابِضٍ (٦) … وَيَمْنَعُ زُبْدَتَهُ مَنْ مَخَضْ »

---

(١) الفرض ـ جمع فرضة ، والفرضة من النهر ثلمة يستقى منها ومن البحر محط السفن .

(٢) وفى الأصل : « ولكن يعز اعتصار الفتى واردا » ، والجرض معناه الغصص بالريق ، يقال جرض بريقه : ابتلعه بالجهد . والاعتصار : أن يغص الانسان بالطعام فيعتصر بالماء ، وهو أن يشربه قليلا قليلا ، قال عدى بن زيد :

« لو بغير الماء حلقى شرق كنت ـ كالغصان ـ بالماء اعتصارى . »

(٣) ولم تأل جهدا . (٤) الغرض : الهدف .

(٥) وفى الأصل : « وغرك من عهد ومالة » ولكنه فى بقية الروايات : « ولادة »

(٦) وفى رواية : « هى الماء يعز على قابض » .

وَنُبِّئْتُهَا بَعْدِىَ اسْتُحْمِدَتْ   بِسِرِّى إِلَيْكَ لِمَعْنًى غَمَضْ

***

« أَبَا عَامِرٍ » عَثْرَةً فَاسْتَقِلْ   لِتُبْرِمَ مِنْ وُدِّنَا مَا انْتَقَضْ

وَلَا تَعْتَصِمْ ضَلَّةً بِالْحِجَاجِ (١)   وَسَيِّمْ فَرُبَّ احْتِجَاجٍ دُحِضْ

وَإِلَّا انْتَحَتْكَ جُيُوشُ الْعِتَابِ   مُنَاجِزَةً فِى قَضِيضٍ وَقَضّْ

***

وَأَنْذِرْ خَلِيلَكَ مِنْ مَاهِرٍ   بِطِبِّ الْجُنُونِ إِذَا مَا عَرَضْ

كَفِيلٌ بِبَطِّ خِرَاجٍ قَسَا (٢)   جَرِىءٌ عَلَى شَقِّ عِرْقٍ نَبَضْ

يُبَادِرُ بِالْكَىِّ قَبْلَ الضِّمَادِ   وَيُسْعِطُ بِالسَّمِّ لَا بِالْحُضَضْ

وَأَشْعِرْهُ أَنِّى انْتَخَبْتُ الْبَدِيلَ   وَأَعْلِمْهُ أَنِّى اسْتَجَدْتُ الْعِوَضْ

فَلَا مَشْرَبِى — لِقِلَاهُ — أَمَرّْ   وَلَا مَضْجَعِى — لِنَوَاهُ — أَقَضّْ

وَإِنَّ يَدَ الْبَيْنِ مَشْكُورَةٌ   لِعَارٍ أَمَاطَ وَوَضْمٍ رَحَضْ (٣)

وَحَسْبِىَ أَنِّى أَطَبْتُ الْجَنَى   لِإِبَّانِهِ ، وَأَبَحْتُ النَّفَضْ (٤)

وَيَهْنِيكَ أَنَّكَ يَا سَيِّدِى   غَدَوْتَ مُقَارِنَ ذَاكَ الرَّبَضْ (٥)

---

(١) الحجاج : المحاجة والجدل .

(٢) وفى الأصل : « خراج حرى . »

(٣) رحض : غسل .

(٤) النفض : ماسقط من الورق والثمر وحب العنب حين يوجد بعضه فى بعض .

(٥) الربض : الأمعاء أو ما فى البطن سوى القلب ، ومأوى الغنم ، وقوتك الذى يكفيك من اللبن .

مدح ابن جهور وشكر باديس (١)

« وقال من قصيدة طويلة يمدح بها الوزير
الأجل محمد بن جهور . »

سَلِ المَعْشَرَ الأَعْدَاءَ ـ إِنْ رُمْتَ صَرْفَهُمْ ـ   عَنِ القَصْدِ إِنْ أَعْيَاكَ مِنْهُ مَرَامُ
أَتَوْكَ كَآسَادِ الشَّرَى فَرَدَدْتَهُمْ   كَمَا أَجْفَلَتْ وَسْطَ الفَلَاةِ نَعَامُ
مَضَوْا يَسْأَلُونَ النَّاسَ عَمَّا وَرَاءَهُمْ   فَيُخْبِرُهُمْ ـ بِالْمُبْكِيَاتِ ـ عِصَامُ (٢)

---

(١) سبق الكلام عن « باديس » وعن « صنهاجة » فى ص (٢٢٠ و ٢٢١) من هذا الديوان ، فليرجع إليها من شاء .

(٢) يقول المثل : « ما وراءك يا عصام ؟ » وجاء فى مجمع الأمثال عن المفضل الضبي أن أول من قال ذلك الحرث بن عمرو ملك كندة ، وذلك أنه لما بلغه جمال ابنة عوف بن محلم الشيبانى وكمالها وقوة عقلها ، دعا امرأة من كندة يقال لها « عصام » ذات عقل ولسان ، وأدب وبيان ، وقال لها : اذهبي حتى تعلمي لى علم ابنــة عوف ، فمضت حتى انتهت إلى أمها ، وهى « أمامة » بنت الحرث ، فأعلمتها ما قدمت له ، فأرسلت « أمامة » إلى ابنتها وقالت : أى بنية ! هذه خالتك أتت لتنظر إليك فلا تستري عنها شيئا إن أرادت النظر ، من وجه أو خلق ، وناطقيها إن استنطقتك ، فدخلت إليها ، فنظرت إلى مالم تر قط مثله ، فخرجت من عندها وهى تقول : « ترك الخداع ، من كشف القناع . » فأرسلتها مثلا ، ثم انطلقت إلى الحرث فلما رآها مقبلة ، قال لها : « ما وراءك يا عصام . » قالت : « صرح المخض عن الزبد . » رأيت جبهة كالمرآة المصقولة ، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل ، إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته قلت عناقيد جلاها الوابل ، وحاجبين كأنما خطا بقلم ، أو سوّدا بحمم ، تقوسا على مثل عين ظبية عبهرة ، بينهما أنف كحد السيف الصنيع ، حفت به وجنتان ، كالأرجوان ، فى بياض كالجمان ، شق فيــه فم كالخاتم لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غر ذات أشر ، تقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، بعقل وافر ، وجواب حاضر ، تلتقى فيه شفتان حمراوان ، فى رقبة بيضاء كالفضة ، ركبت فى صدر كصدر تمثال دمية ، وعضدان مدمجان ، يتصل بهما ذراعان ، ليس فيهما عظم يمس ، ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما ، لين عصبهما ، تعقد إن شئت منهما الأنامل ، نتأ فى ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها ، تحت ذلك بطن طوى طىّ القباطى المدمجة ، كسر عكنا كالقراطيس المدرجة ، تحيط بتلك العكن سرة كالمدهن المجلو ، خلف ذلك ظهر فيــه كالجدول ، ينتهى إلى خصر لولا رحمة الله لانبتر ، لها كفل يقعدها إذا نهضت ، وينهضها إذا قعدت ، كأنه دعص الرمل ، لبده سقوط الطل ، يحمله فخذان لفاوان ، تحتهما ساقان خدلجتان ،

وَمَا ضَاقَ عَنْهُمْ جَانِبُ الْعُذْرِ إِنَّهُمْ كَمِثْلِ الْقَطَا لَوْ يُتْرَكُونَ لَنَامُوا(١)

يحمل ذلك قدمان ، كحذو اللسان ، فتبارك الله مع صغرهما ، كيف تطيقان حمل ما فوقهما ؟ . فأرسل الملك إلى أبيها لخطبها فزوجها إياه وبعث بصداقها فجهزها إليه ، فلما أرادوا أن يحملوها إلى زوجها قالت لها أمها : أى بنية ! إن الوصية لو تركت لفضل أدب لتركت ذلك منك ، ولكنها تذكرة للعاقل ، ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها ، لكنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال ، أى بنية ! إنك إن فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا ، فكونى له أمة يكن لك عبدا وشيكا ، الى آخر ما جاء فى هذا الخبر ، قال فى مجمع الأمثال بعد سياقة هذا الخبر : وروى أبو عبيد ، ما وراءك على التذكير ، وقال : يقال إن المتكلم به النابغة الذبيانى قاله لعصام بن شهبر حاجب النعمان وكان النعمان مريضاً ، وقد أرجف بموته ، فسأله النابغة عن حال النعمان ، فقال : « ما وراءك يا عصام . » ومعناه ماخلفت من أمر العليل ، أو ما أمامك من حاله ، ووراء من الأضداد .

(١) يشير إلى المثل المشهور : « لو ترك القطا ليلا لنام » يضرب لمن حمل على مكروه من غير إرادته . وقد تمثل به الحسين بن على (رضى الله عنه) فى الليلة الأخيرة التى تلاها مصرعه ، قال علىّ ابنه :

انى لجالس فى تلك العشية — التى قتل أبى فى صبيحتها — وعمتى « زينب » عندى تمرضنى ، إذ اعتزل أبى بأصحابه — فى خباء له — وعنده « حوىّ » مولى « أبى ذر » — وهو يعالج سيفه ويصلحه — وأبى يقول :

« يادهر : أف لك من خليل
كم لك — بالاشراق والأصيل —
من صاحب ، أو طالب قتيل
والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل
وكل حىّ سالك السبيل . »

قال علىّ بن الحسين :

فأعادها أبى مرتين أو ثلاثاً — حتى فهمتها — فعرفت ما أراد ، فخنقتنى عبرتى ، فرددت دمعى ولزمت السكوت ، وعلمت أن البلاء قد نزل ، فأما عمتى فانها سمعت ما سمعت — وهى امرأة ، وفى النساء الرقة والجزع — فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها — وإنها لحاسرة — حتى انتهت إليه ، فقالت :

« واثكلاه ! ليت اليوم أعدمنى الحياة ! اليوم ماتت « فاطمة » أمى و « علىّ » أبى و « حسن » أخى . يا خليفة الماضى ، وثمال الباقى . » فنظر الحسين ، فقال :

« يا أخيه ! لايذهبن حلمك الشيطان ! »

قالت : « بأبى أنت وأمى ، يا أبا عبد الله استقتلت ، نفسى فداك ! » فردّ غصته ، وترقرقت عيناه ، وقال :

« لو ترك القطا ليلا لنام !

***

فِدَاءٌ « لِبَادِيسَ » النُّفُوسُ ، وَجَادَهُ مِنَ الشُّكْرِ ـ فِى أُفْقِ الْوَفَاءِ ـ غَمَامُ
فَمَا لَحِقَتْ تِلْكَ الْعُهُودَ مَلَامَةٌ وَلَا ذُمَّ ـ مِنْ ذَاكَ الْحِفَاظِ ـ ذِمَامُ (١)
وَمِثْلُكَ وَالَى مِثْلَهُ فَتَصَافِيَا كَمَا صَافَتِ ـ الْمَاءَ الْقَرَاحَ ـ مُدَامُ
رَسِيلُكَ ـ فِى شَأْوِ الْمَعَالِى ـ كِلَاكُمَا بَعِيدُ الْمَدَى صَعْبُ الْهُمُومِ هُمَامُ

***

لَعَمْرِى لَقَدْ أَحْظَيْتَهُ بِوِفَادَةٍ لِأَسْنَى كَرِيمٍ أَنْجَبَتْهُ كِرَامُ
فَمَا أَنْفَكَ إِلَّا عَدْلَ نَفْسِكَ إِنْ يَسِرْ فَلِلْجِسْمِ لَا لِلنَّفْسِ مِنْكَ مُقَامُ (٢)
حُسَامُكَ مَهْمَا تَخْتَرِطْهُ لِمِثْلِهَا فَقَلَّ غَنَاءُ السَّيْفِ حِينَ يُشَامُ

اسم من أحب

« وقال فى معشوقة يؤخذ اسمها بالتوالى من أرض وسماء وماء ، فيتكوّن من مجموعها « أسماء » . »

إِنَّ لِلْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَلِلْمَا ءِ عَلَيْنَا أَذِمَّةً لَا تُذَمُّ
هِىَ بَعْضُ اسْمِ مَنْ أُحِبُّ وِلَاءً وَبِتَكْرِيرِ بَعْضِهَا يَسْتَتِمُّ

قالت :

« يا ويلتا ! أفتغصب نفسك اغتصاباً ؟ فذلك أقرح لقلبى ، وأشد على نفسى ! » ولطمت وجهها ، وأهوت إلى جيبها وشقته ، وخرت مغشياً عليها .

فقام إليها الحسين فصبّ على وجهها الماء ، وعزّاها بكلام طويل يرجع إليه القارئ ـ إذا شاء فى كتابنا « مصارع الأعيان » من ص « ٢٥ إلى ٥٦ »

(١) عهد . (٢) وفى الأصل :

« فما ابنك إلا بعدل نفسك ، إن يسر فللجسم ـ لا للنفس منك ـ مقام . »

وقال

« كان أبو العطاف بن حي إذ ورد إشبيلية رسولا قد سأله أن يريه من شعره ، فمطله حتى كتب إليه شعرا يستمطئه فيه ، فجاوبه عليه فى عروضه وقافيته . »

أَفَدْتَنِي مِنْ نَفَائِسِ الدُّرَرِ — مَا أَبْرَزَتْهُ غَرَائِزُ الْفِكَرِ (١)

مِنْ لَفْظَةٍ قَارَنَتْ نَظِيرَتَهَا — قِرَانَ سُقْمِ الْجُفُونِ لِلْحَوَرِ (٢)

أَبْدَعَهَا خَاطِرٌ ، بَدَائِعُهُ — فِى النَّظْمِ حَازَتْ جَلَالَةَ الْخَطَرِ

الْعِطْرُ مِنْهَا سَرَى لَهُ نَفَسٌ ، — مِنْ نَفَسِ الرَّوْضِ رَقَّ فِى السَّحَرِ (٣)

***

يَا رَاقِمَ الْوَشْيِ — زَانَهُ ذَهَبٌ — رَقْرَقَ إِذْ رَفَّ مِنْهُ فِى الطُّرَرِ (٤)

---

(١) يقول : أفدتنى من نفائس كلمك الشبيهة بالدر انشقت عنه الأصداف ما أبرزته غرائز فكرك من مكنون روائع الكلم ، وبدائع الحكم .

(٢) سقم الجفون : فتورها ، والحور : فى العين شدة سواد المقلة فى شدة بياضها فى شدة بياض لون الجسد ، وقيل الحور أن تسود العين كلها كما فى أعين الظباء والبقر ، وهذا ليس بموجود فى الآدميين ، يقول : أكسبتنى من نفائس دررك كل لفظة وافقت قرينتها ، وقارنت نظيرتها ، قران سقم الجفون لحور العيون .

(٣) يقول : العطر من هذه الكلم البديعة التى أبدعها خاطرك سرى له نفس يحكى فى الأريج والرقة نفس الروض العطر ، سرى به النسيم وقت السحر ، وفى الأصل : « أعطر مهما سرى له نفس . » ، وما أثبتناه هنا هو ما يرشد إليه السياق .

(٤) الوشى : النقش ، ورقرق : تحرك ولمع وصار له بصيص وتلألؤ ، ورف يقال : رف اللون والذهب والبرق يرف (بالكسر) رفيفا برق وتلألأ ، ورفت الأسنان كذلك ، وفى الحديث أن « النابغة » الجعدى أنشد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

« ولا خير فى حلم إذا لم تكن له — بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له — حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا . »

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : لايفضض الله فاك . » فبقيت أسنانه ترف حتى مات ، يقول : يا كاتبا يرقم فى الكتاب ما يحكى البرد الموشى المذهب الطرر والحواشى ، والذى للونه رقراق وبصيص ، وفى الأصل « رقراق » وقد وضعنا بدلها « رقرق » ليستقيم المعنى والوزن .

وَنَاظِمَ الْعِقْدِ ـ نَظْمَ مُقْتَدِرٍ ـ يَفْصِلُ بَيْنَ الْعُيُونِ بِالْغُرَرِ (١)
لِى بِالنِّضَالِ الَّذِى نَشِطْتَ لَهُ عَهْدٌ قَدِيمٌ مُعَجَّمُ الْأَثَرِ (٢)
هَلْ أُنْصِلَ السَّهْمَ فِى الْجَفِيرِ وَقَدْ تَعَطَّلَتْ فُوقُهُ مِنَ الْوَتَرِ ؟ (٣)

* * *

مَا الشِّعْرُ إِلَّا لِمَنْ قَرِيحَتُهُ غَرِيضَةُ النَّوْرِ غَضَّةُ الثَّمَرِ (٤)
تَبْسِمُ عَنْ كُلِّ زَاهِرٍ أَرِجٍ مِثْلَ الْكِمَامِ ابْتَسَمْنَ عَنْ زَهَرِ
إِنَّ الشَّفِيعَ الْهُمَامَ سَوَّغَهُ اللهُ اتِّصَالَ التَّأْيِيـــدِ بِالظَّفَرِ
الْفَاضِلُ الْخُبْرِ فِى الْمُلُوكِ إِذَا أَقْصَرَ خُبْرٌ عَنْ غَايَةِ الْخَبَرِ (٥)
نَجْلُ الَّذِى نُصْحُهُ وَطَاعَتُهُ كَالْحَجِّ تَتْلُوهُ بَرَّةُ الْعُمَرِ (٦)

---

(١) العيون : الخيار المنتخب من حبات العقد ، والغرر البيض ، يقول : ويا ناظم الشعر نظم قدير يفصل بين أجزائه ، ويؤلف بين مواقع كلمه ، كما يؤلف ناظم العقد بين خرزه وحباته ، ويفصل بين الخيار المنتخب منها بدرر اللآلئ .

(٢) النضال : المراماة بالسهام وأراد به هنا المساجلة والمسابقة فى مجال القول ، ومعجم الأثر : مبهم مشكل قد انطمست معالمه وآثاره ، يقول : بعثت إلىّ بهذه الكلم الثمينة ، والنظم الرائع تريد بذلك أن تجدد عهد النضال الذى نشطت له أنت الآن بعد أن طال بى عهده ، وأبهم على أمره ، واستعجم أثره .

(٣) أنصل . مضارع أنصل السهم جعل له نصلا ، والجفير : جعبة السهام ، والفوق : موضع الوتر من السهم ، يقول : هل أجعل للسهم الذى فى الجفير نصلا ، وقد تعطلت فوقه أى مشق رأسه فلم تعد صالحة لأن يوضع الوتر فى موضعه منها ، يريد أن آلة النضال بطلت عنده وتعطلت أسبابها لطول العهد .

(٤) غريضة النور : الغريض ، والغض : كلاهما اللين الطرى الناضر من الزهر والنبات وغيرهما .

(٥) الخبر : (بضم وكسر أوله وسكون ثانيه) العلم بالشىء عن عيان وخبرة ، والخبر : النبأ الذى يأتيك عن طريق السماع ، يقول : هو الملك الذى يفضل ويزيد الخبر والعلم بصفاته وأحواله عن الخبر الذى يبلغك عنه فى حين أن غيره من الملوك يقصر الخبر والعلم بأحوالهم عن الخبر الذى يأتيك عنهم .

(٦) برة العمر : أى العمر المبرورة المقبولة جمع عمرة ، وهى فى الأصل الزيارة ، وتتحقق شرعا بالطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة ، والفرق بينها وبين الحج أن العمرة تطوع وأنه يجوز للانسان أن يعتمر فى السنة كلها بخلاف الحج فانه لا يجوز الاحرام به وأداء مناسكه إلا فى أشهر الحج المعلومة وهى شوال ، وذو القعدة ، وعشر ذى الحجة ، يعنى أن نصحه وطاعته من أعمال البر التى تقابل من الله بالثواب ، وهى لكونها من الطاعة والبر بمثابة الحج الذى تتلوه العمر المبرورة .

شَاهِدُ عَهْدِي لَكَ الصَّحِيحُ بِإِخْـــلَاصٍ نَأَى صَفْوُهُ عَنِ الْكَدَرِ

***

مَشَيْتُ فِي عَذْلِيَ الْبَرَازَ لِمَنْ   لَمْ يَرْضَ فِي الْعُذْرِ مِشْيَةَ الْخَمَرِ (١)

وَقُلْتُ: مَطْلُ الْغَنِيِّ وِرْدٌ مِنَ الظُّـــلْمِ، يُلَقِّي مَلَاوِمَ الصَّـــدَرِ (٢)

وَلِي مَعَاذِيرُ لَوْ تَطَلَّعُ فِي   لَيْلِ سِرَارٍ أَغْنَتْ عَنِ الْقَمَرِ

مِنْهَا اتِّقَائِي لِأَنْ أَكُونَ أَنَا الْـــجَالِبَ مَا قُلْتُهُ إِلَى هَجَرِ (٣)

لَـكِنْ سَـــيَأْتِيكَ مَا يُجَوِّزُهُ   سَرْوُكَ دَأْبَ الْمُسَامِحِ الْيَسَرِ

فَاكْتَفِ مِنْهُ بِنَظْرَةٍ عَنَنٍ (٤)   لَا حَظَّ فِيــهِ لِكَرَّةِ النَّظَرِ

---

(١) البراز: من الأرض الفضاء الواسع الذي ليس به خمر يستره من شجر أو غيره، والخمر: ما يستر الماشي ويواري الصيد من شجر أو جرف أو حبل من حبال الرمل أو غير ذلك، يقول: عذلتك ولمتك لوماً صريحاً لا مواربة فيه، فكنت فيه كمن يمشي البراز لا يواريه خمر، ولا يستره ساتر من مرتفع أو شجر، وهو عذل أعلنه لمن لم يرض قبول عذر أستتر وراءه تجري عن مجاراته، وأخفى في التماسه صفحاً عن مباراته وفي المثل: «مشى إليه البراز» و «مشى إليه الملا والبراح» أي مشى إليه ظاهراً غير مستتر، وجاء في ضد هذا المثل مثل آخر وهو: «مشى إليه الخمر، ودب له الضراء.»

(٢) المطل: المد يقال مطل الحبل وغيره يمطله مطلا، وفي الحديث: «مطل الغني ظلم.» والملاوم: جمع الملامة، والصدر: الانصراف والرجوع عن الشيء.

(٣) في المثل: «كمستبضع التمر إلى هجر.» و «ناقل التمر إلى هجر» وهو مثل قديم متداول: يضرب في الخطأ لأن ناقل الشيء إلى معدنه مخطئ ويقال أيضا كمستبضع التمر إلى خيبر. قال النابغة الجعدي:

« وإن امرأ أهدى إليك قصيدة   كمستبضع تمرا إلى أرض خيبرا.»

وقد ورد هذا المثل في كتاب لسيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه بعث به جوابا إلى معاوية رضي الله عنه وهو من محاسن كتبه، وذلك حيث يقول عليه السلام في صدر هذا الكتاب: —

« أما بعد » فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمدا صلى الله عليه وآله لدينه، وتأييده إياه بمن أيده من أصحابه، فلقد خبأ لنا الدهر منك عجبا إذ طفقت تخبرنا ببلاء الله عندنا ونعمته علينا في نبينا، فكنت في ذلك: «كناقل التمر إلى هجر، أو داعي مسدده إلى النضال.» إلى آخر ما جاء في هذا الكتاب الممتع، فارجع إليه في نهج البلاغة إن شئت.

(٤) أي تعترض لك من غير تعمل ولا قصد، يقول: سيأتيك نظمي هذا الذي يجيزه سروك وإغضاؤك عما فيه إغضاء المسامح السهل، فاكتف منه بنظرة عجلى، فإنه لا حظ فيه لمعاودة النظر كرة بعد كرة.

بين ابن زيدون والمعتمد

« وكتب إليه المعتمد على الله المؤيد بنصر الله وهو جالس فى فصيل من القصر تحت غرفة لزومه :

أيها المنحط عنى مجلسا
وله فى القلب أعلى مجلس
بفؤادى لك حب يقتضى
أن ترى تحمل فوق الأرؤس

فجاوبه ابن زيدون . »

أَسَقِيطُ الطَّلِّ فَوْقَ النَّرْجِسِ ... أَمْ نَسِيمُ الرَّوْضِ تَحْتَ الْحِنْدِسِ
أَمْ نِظَامٌ لِلآلٍ نَسَقٍ ... جَامِعٍ كُلَّ خَطِيرٍ مُنْفِسِ (١)
أَمْ قَرِيضٌ جَاءَنِي عَنْ مَلِكٍ ... مَالِكٍ بِالْبِرِّ رِقَّ الْأَنْفُسِ
دَلَّهَتْ فِكْرِيَ مِنْ إِبْدَاعِهِ ... حَيْرَةٌ فِي مَنْطِقٍ لِي مُخْرِسِ
بِتُّ مِنْهُ بَيْنَ سَهْلٍ مُطْمِعٍ ... خَادِعٍ يَتْلَى بِحَزْنٍ مُؤْيِسِ

* * *

يَانَدَى يُمْنَى « أَبِي الْقَاسِمِ » غِمْ ... يَا سَنَا شَمْسِ الْمُحَيَّا أَشْمِسِ
يَا بَهِيجَ الْخُلُقِ الْعَذْبِ ابْتَسِمْ ... يَا مُهِيجَ الْأَنِفِ الصَّعْبِ اعْبِسِ
يَا جَمَالَ الْمَوْكِبِ الْغَادِي ـ إِذَا ... سَارَ فِيهِ ـ يَا بَهَاءَ الْمَجْلِسِ
أَنْتَ لَمْ يُقْنِعْكَ أَنْ أَلْبَسْتَنِي ... نِعْمَةً تُذْكِرُ عَهْدَ السُّنْدُسِ
فَتَلَطَّفْتَ لِأَنْ حَلَّيْتَنِي ... مُولِيًا طُولَى مُحَلَّى مَلْبَسِ

(١) يقول : أم هى لآلئ منسقة فى نظام جامع أنفس الأعلاق وأجلها خطرا

ذَاكَ تَنْوِيهُ ثَنَائِى فَخْـــرُهُ ... سَامِىَ اللَّحْظِ أَشَمَّ المَعْطِسِ

شَرُفَتْ بِكْرَ المَعَالِى خِطْبَةٌ ... مِنْكَ، فَانْعَمْ بِسُرُورِ المُعْرِسِ

تُمْنَحِ التَّأْيِيدَ يُجْلَى لَكَ عَنْ ... ظَفَرٍ حُــلْوٍ وَعِزٍّ أَقْعَسِ

وَارْتَشِفْ مَعْسُولَ نَصْرٍ أَشْنَبٍ ... تَجْتَنِيهِ مِنْ مَجَاجٍ أَلْعَسِ

وَارْتَفِقْ بِالسَّعْدِ فِى دَسْتِ المُنَى ... تُصْبِحِ الصُّنْعَ دِهَاقَ الأَكْؤُسِ

فَاعْتِرَاضُ الدَّهْرِ ـ فِيمَا شِئْتَهُ ـ ... مُرْتَقًى فِى صَدْرِهِ لَمْ يَهْجِسِ

وقال

« وقد أمره بدخول حمام القصر و بعث إليه بحور وطيب . »

رِضَاكَ لَنَا ـ قَبْلَ الطَّهُورِ ـ مُطَهِّرٌ ... وَقُرْبُكَ ـ مِنْ دُونِ البَخُورِ ـ مُعَطِّرُ

فَلَوْ عَزَّ حَمَّامٌ لَأَدْفَأَنَا ذَرًى ... يَفِيضُ بِهِ مَاءُ النَّدَى المُتَفَجِّرُ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ طِيبٌ لَأَغْنَتْ حَفَاوَةٌ ... تُمَسِّكُ مِنْهَا حَالَنَا وَتُعَنْبِرُ (1)

فَلَا فَارَقَ الدُّنْيَا سَـــنَاءٌ مُقَدَّسٌ ... بِعَيْشِكَ فِيهَا أَوْ ثَنَاءٌ مُجَمَّرُ (2)

وَدُمْتَ مُلَقًّى ـ كُلَّ يَوْمٍ ـ صَبِيحَةً ... يُغَادِيكَ فِيهَا ـ بِالفُتُوحِ ـ مُبَشِّرُ

وقال

« مجاوبا له عن شعر خاطبه به . »

أَمَوْلَاىَ بُلِّغْتَ أَقْصَى الأَمَلْ ... وَسُوِّغْتَ دَأْبًا نَسَاءَ الأَجَلْ (3)

---

(1) لو لم نجد الطيب لأغنتنا عنه حفاوتك التى تعطرنا بالمسك والعنبر .

(2) السناء : الرفعة ، والثناء : المدح ، والمجمر العبق ، يقال : جمر ثوبه : بخره ، وجمر النار : هيأها .

(3) نساء الأجل : طول العمر .

وَعُمِّرْتَ مَاشِئْتَ فِي دَوْلَةٍ ... تُقَصِّرُ عَنْهَا طِوَالُ الدُّوَلْ
فَأَنْتَ الَّذِي غُرُّ أَفْعَالِهِ ... تَحَلَّى بِهَا الدَّهْرُ بَعْدَ الْعَطَلْ
يُشَرِّفُ مَمْلُوكَكَ الْمُسْتَرَقَّ ... نَظْمٌ مِنَ الْكَلِمِ الْمُنْتَخَلْ (١)
وَرَاحٌ تُعِيدُ إِلَى مَنْ أَسَنَّ ... طِيبَ زَمَانِ الصِّبَا الْمُقْتَبَلْ (٢)
فَأَخْجَلَنِي الْبِرُّ مِنْ فَرْطِهِ ... وَإِنَّ الْجَوَابَ لَيُبْدِي الْخَجَلْ
وَقَدْ يَقْبَلُ الدَّهْرَ مَوْلَى الْأَنَا ... مِ جُهْدَ الْعَبِيدِ إِذَا مَا أَقَلْ
سَعِدْتَ كَمَا سَعِدَ الْمُشْتَرِي ... وَنِلْتَ عُلاً لَمْ يَنَلْهَا زُحَلْ (٣)

جـــواب

« وقال مجاوباً له أيضا . »

هَلْ يَشْكُرَنَّ « أَبُو الْوَلِيدْ » (٤) ... إِدْنَاءَكَ الْأَمَلَ الْبَعِيدْ
أَوْ أَنْ تُسَوِّغَ نِعْمَةً ... لِلدَّهْرِ أَسْهَرَتِ الْحَسُودْ
إِنْ لَمْ يَدِنْ بِنَصِيحَةٍ ... تُرْضِيكَ فَهُوَ مِنَ الْيَهُودْ
لَا زِلْتَ رَافِعَ رَايَةٍ ... تُضْحِي، السُّعُودُ لَهَا جُنُودْ

وقال يستهديه خمرا

يَا بَانِيًا كُلَّ مَجْدٍ ... وَهَادِمًا كُلَّ وُجْدِ
جِسْمُ السُّرُورِ سَوِيٌّ ... مِنْ صَوْغِ نُعْمَاكَ عِنْدِي
فَهَبْ لَهُ رُوحَ رَاحٍ ... يَنْطِقْ بِأَحْفَلِ حَمْدِ

---

(١) المنتخل : المنقى المتخير . (٢) وقد جاء بعد هذا البيت قوله :

« أنت مع امراء ما يقتدى ... وأغرب بأكورة تلتقل . »

(٣) المشترى وزحل كوكبان معروفان . قال أبو العلاء :

« زحل أشرف الكواكب دارا ... من لقاء الردى على ميعاد . »

(٤) يعنى نفسه .

وقال مجاوباً المعتمد

أَفَاضَ سَمَاحُكَ بَحْرَ النَّدَى ... وَأَقْبَسَ هَدْيُكَ نُورَ الْهُدَى

وَرَدَّ الشَّبَابَ اعْتِلَاقُكَ بَعْدَ ... مُفَارَقَتِي ظِلَّهُ الْأَبْرَدَا [(١)]

وَمَا زَالَ رَأْيُكَ فِيَّ الْجَمِيلُ ... يُفَتِّحُ لِي الْأَمَلَ الْمُوصَدَا [(٢)]

وَحَسْبِيَ مِنْ خَالِدِ الْفَخْرِ أَنْ ... رَضِيتَ قَبُولِيَ مُسْتَعْبَدَا [(٣)]

وَيَا فَرْطَ مَا بِي [(٤)] إِذَا مَاطَلَمْتَ ... فَقُمْتُ أُقَبِّلُ تِلْكَ الْيَدَا

وَرَدَّدْتُ لَحْظِيَ فِي غُرَّةٍ ... إِذَا اجْتُلِيَتْ شَفَتِ الْأَرْمَدَا

وَطَاعَةُ أَمْرِكَ فَرْضٌ أَرَا ... هُ مِنْ كُلِّ مُفْتَرَضٍ أَوْكَدَا

هِيَ الشَّرْعُ أَصْبَحَ دِينَ الضَّمِيرِ ... فَلَوْ قَدْ عَصَاكَ لَقَدْ أَلْحَدَا

وَحَاشَايَ مِنْ أَنْ أَضِلَّ الصِّرَاطَ ... فَيَعْدُونِيَ الْكُفْرُ عَمَّا بَدَا [(٥)]

وَأُخْلِفَ مَوْعِدَ مَنْ لَا أَرَى ... لِدَهْرِيَ إِلَّا بِهِ مَوْعِدَا [(٦)]

---

(١) يقول : رد على شبابى بعد أن فارقت ظله الأبرد اعتلاقى بأسبابك واتصالى بدولتك .

(٢) وما زال جميل رأيك فى يفتح لى من الآمال كل باب مغلق .

(٣) وكفانى فخرا خالداً أنك رضيت قبولى ضمن من استعبدتهم بإحسانك ، ومددت عليهم ظل نعمتك الوارف . (٤) فى الأصل : « يا فرط ناوى . »

(٥) يقول : حشاى أن أضل الصراط وأرفض أول فرض على من طاعتك التى هى الشرع ، ومعتقد الضمير ، فيبعدنى الكفر عما بدا لى من صحة الايمان .

(٦) فى الأصل : « وأخلف بالوعد » وهو لايتعدى بالباء ، فأبدلناه بالموعد ليصح اللفظ ، والسبب فى أنه يتنصل هنا من خلف الموعد أن « المعتمد » كان قد عرض له سفر فجأة فكتب إلى « ابن زيدون » :

« العين بعدك تقذى بكلّ شىء تراه

فليحل شخصك عنها ما بالغيب جلاه . »

فعاقت « ابن زيدون » عن الجواب أشغال توالت عليه ، ثم استبطأه « المعتمد » فبعث إليه بالقصيدة التالية معاتباً :

وعدت وأخلفتنى الموعدا ... وخالفت بالمنتهى المبتدا

أَتَانِي عِتَابٌ مَتَى أَدَّكِرْ ... هُ فِي نَشَوَاتِ الْكَرَى أَسْهَدَا [١]

وَإِنْ كَانَ أَعْقَبَــهُ مَا اقْتَضَى ... شِفَاءَ السِّقَامِ وَنَقْعَ الصَّدَى [٢]

ثَنَاءٌ ثَنَى فِي سَنَــاءِ الْمَحَــلِّ زُهْرَ الْكَوَاكِبِ لِي حُسَّدَا [٣]

قَرِيضٌ مَتَى أَبْغِ لِلْقَرْضِ مِنْهُ ... أَدَاءً أَجِدْ شَــأْوَهُ أَبْعَدَا

لَوِ الشَّمْسُ مِنْ نَظْمِهِ حُلِّيَتْ ... أَوِ الْبَدْرُ قَامَ لَهُ مُنْشِــدَا

لَضَاعَفَ مِنْ شَرَفِ النَّيِّرَيْــنِ حَظًّا بِهِ قَارَنَ الْأَسْعَدَا

وأطمعنى ثم أيأستنى ... ويمنعنى الود أن أحقدا

وأضعفت بالمطل حبل الرجاء ... فرثّ وأعهده محصدا

وعاد ضياء ارتقابى ظلاما ... وأصبح مصباحه أرمدا

وكان فعالك قبل المقال ... فماذا عدا الآن فيما بدا

وقد كان طى فيما رأيت ... به أنه الشىء بلّ اليــدا

وكم قد توكفتها روضة ... تقرب لى الأمل الأبعدا

يفوّر علمك أرجاءها ... ويقطر طبعك فيها ندا

توكفها رمنا ناظرى ... إذا مر يوم تمادى غدا

على ذاك أفديك من ماجد ... تشبث بالطرف فيه الهدى

فحيناً أزور به روضــة ... وحينا أحيي به مسـجدا

لك العلم مهما أرد بحره ... لأروى به أحمد الموردا

وفيــك تجمعت المأثرا ... ت طرا قصرت بها مفردا

شمائل تنثر شمل الهمو ... م تترك بالرأى شمل العدا

فمتعنى الله بالحظ منك ... ولا زلت لى مؤنسا سرمدا

ودمت ودمت على حالنا ... كما يصحب الفرقد الفرقدا

فلولاك كانت ربوع السرو ... ر مى تجاوب فيها الصدى

(١) أتانى من قبل الممدوح عتاب تسبب لى ذكراه الأرق والسهد كلما رنحتنى نشوات الكرى وغشيتنى أوائل النوم .

(٢) يقول : أسهدنى وأرقنى ادكار هــذا العتاب ، وإن كان أعقبه ما اقتضى شفاء القلوب ، وإطفاء وحر الصدور .

(٣) ثناء ومديح رفعت به شأنى ، فأثنت زهر النجوم تحسدنى عليه .

فَدَيْتُكَ مَوْلًى: إِذَا مَا عَثَرْتُ   أَقَالَ ، وَمَهْمَا أَزِغْ أَرْشَدَا

رَكَنْتُ[1] إِلَى كَرَمِ الصَّفْحِ مِنْهُ   فَآمَنَنِي ذَاكَ أَنْ يَحْقِدَا

وَآنَسْتُ سُــوقَ احْتِمَالٍ أَبَى   لِمُسْتَبْضِعِ الْعُذْرِ أَنْ يَكْسَدَا[2]

شَفِيعِي إِلَيْهِ هَوَى مُخْلِصٍ   كَمَا أَخْلَصَ السَّابِكُ الْعَسْجَدَا

وَمِنْ وُصَلِي هِجْرَةٌ لَا أُعِدُّ   لِحَالِي سِوَى يَوْمِهَا مَوْلِدَا[3]

وَنُعْمَى تَفَيَّأْتُهَا أَيْكَةً   فَشُكْرِي حَمَامٌ بِهَا غَرَّدَا

تَبَارَكَ مَنْ جَمَعَ الْخَيْرَ فِيكَ   وَأَشْعَرَكَ الْخُلُقَ الْأَمْجَدَا

مَضَاءُ الْجَنَانِ وَطَرْفُ اللِّسَانِ   وَجُودُ الْبَنَانِ بِسَكْبِ الْجَدَا

رَأَى شِيمَتَيْكَ لِمَا تَسْتَحِقُّ   وَفِيٌّ فَأَظْفَرَ إِذْ أَيَّدَا

لِيَهْنِكَ أَنَّكَ أَزْكَى الْمُــلُوكِ   بِنَفْءٍ وَأَشْرَفُهُمْ سُــودَدَا

سِوَى نَاجِلٍ لَكَ سَامِي الْهُمُو   مِ دَانِي الْفَوَاضِلِ نَائِي الْمَدَى[4]

هُمَامٌ أَغَرُّ رَوَيْتَ الْفَخَارَ   حَدِيثًا إِلَى سَرْوِهِ مُسْنَدَا[5]

---

(١) فى الأصل « وكنت » وقد وضعنا بدلها « ركنت » التى هى كصورتها فى الخط ليستقيم المعنى .

(٢) المستبضع: اسم فاعل من استبضع الشىء جعله بضاعة ، والبضاعة طائفة من المال ترسل إلى الأسواق للتجارة ، يقول : إن احتماله وإغضاءه عن الهفوات بمثابة ســوق تأبى لمن اســتبضع إليها الأعذار أن تكسد بضاعته ، وهو مأخوذ من المثل : « كمستبضع التمر إلى هجر . »

(٣) الوصل : جمع وصلة بمعنى الاتصال والاسباب والذرائع ، يقول : ومن أسباب اتصالى به وذرائعى إليه هجرة فارقت فيها موطنى ، واتصلت على أثرها بدولته ، واعتلقت بحبله وذمته ، تلك الهجرة التى لا أعد أن حالى استقرت وولدت ، إلا يوم أن حصلت وتمت .

(٤) الناجل : الكريم النجل ، يقول : ليس فى الملوك أزكى منك سوى والدك الذى نجلك وأنجبك .

(٥) يقول : إن أباك همام أغر مشرق الوجه ، رويت عنه الفخار حديثاً مسنداً إلى سروه ومجده ونبله .

سَلَكْتَ إِلَى المَجْدِ مِنْهَاجَهُ   فَقَدْ طَابَقَ الْأَطْرَفُ الْأَتْلَدَا [١]

هُوَ اللَّيْثُ قَلَّدَ مِنْكَ النِّجَادَ   لِيَوْمِ الْوَغَى شِبْلَهُ الْأَنْجَدَا [٢]

يُعِدُّكَ صَارِمَ عَزْمٍ وَرَأْيٍ   فَتُرْضِيهِ جُرِّدَ أَوْ أُغْمِدَا [٣]

وَمَا اسْتَبْهَمَ الْقُفْلُ فِى الحَادِثَا   تِ إِلَّا رَآكَ لَهُ مِقْلَدَا [٤]

فَأَمْطَاكَ مَنْكِبَ طَرْفِ النُّجُومِ   وَأَوْطَأَ إِخْمَصَكَ الْفَرْقَدَا

فَلَا زِلْتُمَا يَرْفَعُ الْأَوْلِيَا   ءَ مُلْكُكُمَا وَيَحُطُّ الْعِدَا

وَنَفْسِى لِنَفْسَيْكُمَا الْبَرَّتَيْـ   ـنِ مِنْ كُلِّ مَا يُتَوَقَّى الْفِدَا

فَمَنْ قَالَ : أَنْ لَسْتُمَا أَوْحَدَيْـ   ـنِ فِى الصَّالِحَاتِ فَمَا وَحَّدَا [٥]

وقال

لَعَمْرِى لَئِنْ قَلَّتْ إِلَيْكَ رَسَائِلِى   لَأَنْتَ الَّذِى نَفْسِى عَلَيْهِ تَذُوبُ

فَلَا تَحْسَبُوا أَنِّى تَبَدَّلْتُ غَيْرَكُمْ   وَلَا أَنَّ قَلْبِى مِنْ هَوَاكِ يَتُوبُ

وقال

أَلَا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ أُصَادِفُ خَلْوَةً   لَدَيْكِ ، فَأَشْكُو بَعْضَ مَا أَنَا وَاجِدُ؟

رَعَى اللهُ يَوْمًا فِيهِ أَشْكُو صَبَابَتِى   وَأَجْفَانُ عَيْنِى - بِالدُّمُوعِ - شَوَاهِدُ

---

(١) الأطرف : الحديث ، والأتلد : القديم .

(٢) النجاد : حمائل السيف ، والأنجد : الشجاع دو النجدة والبأس ، يقول : هو أى والدك الملك ليث قلد شبله الأنجد الشجاع السيف ليوم الوغى والحرب .

(٣) يعدك صارم عزم وحزم فى الحرب والسياسة ، فترضيه فى الحالين : جرد السيف ، أو أغمد .

(٤) استبهم : استغلق ، والقفل : مايغلق به الباب ، والمقلد : المفتاح ، يقول : لاتستغلق الحادثات إلا رآك مفتاحاً لأقفالها المغلقة ، وفى الأصل : « الفعل » ووضعنا مكانها « القفل » ليناسب الاستبهام والمقلد .

(٥) يقول : أن من ينكر أنكما فى البر والصالحات أوحدين قد بلغ فى الجحد والانكار مبلغ من ينكر التوحيد ولا يقول بوحدانية الله

تهنئــــة

« وقال رحمه الله يهنيه أيده الله بالقدوم من سفر . »

أَيُّهَا الظَّافِرُ أَبْشِرْ بِالظَّفَرْ ... وَاجْتَلِ التَّأْيِيدَ فى أَبْهَى الصُّوَرْ

وَتَفَيَّأْ ظِلَّ سَــعْدٍ تَجْتَنِى ... فِيهِ مِنْ غَرْسِ الْمُنَى أَحْلَى الثَّمَرْ

وَرِدِ الصُّبْحَ فَكَمْ مُسْتَوْحِشٍ ... غَرِضٍ[1] مِنْكَ إِلَى أُنْسِ الصَّدَرْ

كَانَ مِنْ قُرْبِكَ فى عَيْشٍ نَدٍ ... عَطِرِ الآصَالِ وَضَّاحِ الْبُكَرْ

كُلَّمَا شَاءَ تَأَتَّى أَنْ يَرَى ... خُلُقَ الْبِرْجِيسِ[2] فى خَلْقِ الْقَمَرْ

---

(١) غرض : وصف من الغرض (محركة) وهو شــدة النزاع نحو الشيء والشوق إليــه يقال : غرض إلى لقائه فهو غرض اشتاق ، ومنه قول الشاعر :

فمن يك لم يغرض فإنى وناقتى ... بحجر إلى أهل الحمى غرضان

تحن فتبدى ما بها من صبابة ... وأخفى الذى لولا الأسى لقضانى

وفى الأصل : « عرض » .

(٢) البرجيس

البرجيس : المشترى وهو أحــد الدرارى الخمسة : المشترى ، وزحل ، والمريخ ، وعطارد ، والزهرة ، وهــذه الكواكب الخمسة هى الخنس الكنس المذكورة فى قوله تعالى : « فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس . » قالوا : وإنما وصفت بما ذكر فى الآية لأنها من الكواكب السيارة التى تجرى مع الشمس والقمر ، وخنوسها رجوعها مرهرة بعــد اختفائها فى ضوء الشمس ، ولذلك تسمى الرواجع ، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس من كنس الظبى والوحش إذا دخل كناسه ، وفى النهاية لابن الأثير من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، « أن النبى — صلى الله عليه وسلم — سئل عن الكواكب الخنس فقال هى البرجيس وزحل وعطارد وبهرام والزهرة ، البرجيس : المشترى ، وبهرام : المريخ . »

والبرجيس : لفظة فارســية تدلّ على « المشــترى » وهو كوكب معروف تطلق عليــه الفرنجة اسم « جوبيتر » « Jupiter » وهو — فى أساطير قدماء الرومان واليونان ، إله الآلهة ، المهيمن على كلّ الكائنات العلوية والسفلية ، قالوا : « وإنما سمى المشــترى — من الشراء ، وهو الوضوح لضياء لونه وصفائه . » قال الشاعر :

« يا ربّ ليل بت أرعى نجمه ... — حتى الصباح — بزفرة وهو

والمشترى — فى الأفق — يخفق لامعاً ... كفم الحبيب يشير بالتقبيل .

فَثَوَى دُونَكَ مَثْوَى قَلِقٍ ... يَشْتَكِي مِنْ لَيْلِهِ مَطْلَ السَّحَرْ

قُلْ لِسَاقِينَا : « يَحُزْ أَكْؤُسَهُ » ... وَلِشَادِينَا : « يَصِلْ قَطْعَ الْوَتَرْ »

حَسْبُنَا سُكْرٌ جَنَتْهُ ذِكَرٌ ... دُونَهُ السُّكْرُ الَّذِي يَجْنِي السَّكَرْ[1]

لَمْ يُغَادِرْ لِي سِقَامِي جَلَداً ... مَعَ أَنِّي لَمْ أَزَلْ ثَبْتَ الْمِرَرْ[2]

أَيُّهَا الْمَاشِي الْبَرَازَ الْمُنْبَرِي ... لِزَمَانِي إِنْ مَشَى نَحْوِي الْخَمَرْ[3]

وَالَّذِي إِنْ سِيمَ مَا فَوْقَ الرِّضَى ... وُجِدَ الْأَلْوَى الْبَعِيدَ الْمُسْتَمَرْ[4]

وَإِذَا أُعْتِبَ فِي مَعْتَبَةٍ ... لَانَ مِنْهُ جَانِبُ السَّمْحِ الْيَسَرْ

نَظْمِيَ الْمُهْدَى إِلَى أَبْرَعِ مَنْ ... نَظَمَ السِّحْرَ بَيَاناً أَوْ نَثَرْ

---

(١) السكر : الىء عير المطبوخ من ماء التمر المشتد ، والشراب المتخذ من التمر نوعان : ما يسيل من التمر حين يكون رطبا فاذا اشتد سمى سكرا ، وما يفضح أى يشق من التمر ثم يقع فى الماء ليستخرج الماء حلاوته ثم يترك حتى يشتد وتذهب حلاوته ويسمى فضيخا وكلاهما مسكر . وقد ورد ذكر السكر فى قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل و لأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا . » ، ومعنى هذا البيت والذى قبله : قل لساقينا : نح كؤوسك عنا فقد أغنانا السكر الذى تحدثه الذكر ، عن السكر الذى يجنيه السكر ، وقل لشادينا : صل قطع الوتر والغناء ، فيما حلا فى السمع من ذكراه الكفاية والغناء .

(٢) ثبت : ثابت ، والمرر : جمع مرة (بالكسر) وهى القوة والشدة أى لم يغادر لى السقام جلدا وصبرا مع أنى لم أزل ذا مرة قويا ، وورد هذا البيت فى الأصل هكذا :

لم يغادر لى شفا من جلد ... مع أنى لم أزل ثبت الغرر

وما أثبتناه من الاصلاح هو ما يرشد اليه السياق .

(٣) البراز : المتسع من الأرض الذى ليس به ما يستره من شجر أو غيره ، والخمر : ما يستر الماشى أو الصيد من شجر أو جرف أو حبل رمل أو غير ذلك ، يقول : يا من يدافع عنى إذا رأى زمانى مشى إلى متنكرا يريد ختلى وأخذى على غره . (٤) الألوى : الشديد الخصومة الجدل السليط ، والمستمر : من استمر استحكم مصدر ميمى يعنى أنه بعيد شأو الخصومة ، وفى المثل : « لتجدن فلاناً ألوى بعيد المستمر . » وقد جاء هذا المثل فى قول الراجز :

« إذا تخازرت وما بى من خزر ... ثم كسرت الطرف من غير عور

وجدتنى ألوى بعيد المستمر ... أحمل ما حملت من خير وشر . »

أى وجدتنى خصما سليط اللسان بعيد شأو الخصومة .

لِيَ فِيــهِ المَثَلُ السَّائِرُ عَنْ　　جَالِبِ التَّمْرِ إِلَى أَرْضِ هَجَرْ

غَيْرَ أَنَّ العُذْرَ رَسْمٌ وَاضِحٌ　　تُنْفَثُ الشَّكْوَى إِذَا الشَّوْقُ صَدَرْ[1]

ثُمَّ قَدْ وُفِّقَ عَبْدٌ عَظُمَتْ　　نِعْمَةُ المَوْلَى عَلَيْهِ فَشَكَرْ

لاَ عَدَا حَظَّكَ إِقْبَالٌ تُرَى　　قَاضِياً أَثْنَاءَهُ كُلَّ وَطَرْ

وَاصْطَبِحْ كَأْسَ الرِّضَى مِنْ مَلِكٍ　　سِرْتَ فِي إِرْضَائِهِ أَزْكَى السِّيَرْ

حِينَ صَمَّمْتَ إِلَى أَعْدَائِهِ　　فَانْتَحَتْهُمْ مِنْكَ صَمَّاءُ الْغِيَرْ

فَاضَ غَمْرٌ لِلنَّدَى مِنْ فَوْقِهِمْ　　كَانَ يُرْوِي شُرْبَهُمْ مِنْهُ الْغُمَرْ[2]

سَبَقَ النَّاسَ فَصَلَّى مِنْكَ مَنْ　　إِنْ رَأَى آثَارَهُ الزُّهْرَ اقْتَفَرْ[3]

زِنْتُمَا الْأَيَّامَ إِذْ مُلْـكُكُمَا　　سَالَ فِي أَوْجُهِهَا سَيْلَ الْغُرَرْ

فَابْقَيَا فِي دَوْلَةٍ قَادِرَةٍ　　بَعْضُ حُرَّاسِ نَوَاحِيهَا الْقَدَرْ

مُسْتَذِلَّيْ مَنْ طَغَى مُسْتَأْصِلَيْ　　شَأْفَةَ الْبَاغِي مُقِيلَيْ مَنْ عَثَرْ

عَلَمَيْ مَنْ ضَلَّ مُزْنَيْ مَنْ شَكَا　　خَلَّةَ الْإِمْحَالِ بَدْرَيْ مَنْ نَظَرْ

تَضْحَكُ الْأَزْمُنُ عَنْ عَلْيَاكُمَا　　ضَحِكَ الرَّوْضَةِ عَنْ ثَغْرِ الزَّهَرْ

---

(١) صدر : أصاب الصدر ، يقال : صدر فلان فلانا يصدره صدرا (من باب نصر) أصاب صدره .

(٢) الغمر : قدح صغير يتصافن به القوم فى السفر إذا قل الماء ولم يكن معهم منه إلا اليسير ، والتصافن أن يلقوا فيه حصاة ثم يصب فيه من الماء قدر ما يغمر الحصاة ، ثم يعطى الاناء كل رجل منهم بحسب دوره وجاء فى شعر أعشى باهله : —

« يكفيه حزة فلذ إن ألم بها　　من الشواء ويروى شربه الغمر »

(٣) اقتفر — من اقتفر الأثر — اقتفاه وتتبعه ، والمعنى : «سبق أبوك لجدك مصلياً وتالياً بعده أنت يامن يقتفى آثار أبيه الزهر

ذكرى ولادة

« كان يكلف بولادة بنت المهدى هذه ويهيم ، ويستضىء بنور تخيلها فى الليل البهيم ، وكانت من الأدب والظرف ، وتتيم المسمع والطرف ، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب الى أخلاق الشباب ، فلما حل بذلك القرب ، وانحل عقد صبره بيد الكرب ، كر إلى الزهراء ليتوارى فى نواحيها ، ويتسلى برؤية مافيها ، فوافاها والربيع قد خلع عليها برده ، ونثر سوسنه ووردة ، وأترع جداولها ، وأنطق بلابلها ، فارتاح ارتياح جميل بوادى القرى ، وراح بين روض يانع وريح طيبة السرى ، فتشوق إلى لقاء ولادة وحن ، وخاف تلك النوائب والمحن ، فكتب إليها يصف فرط قلقه ، وضيق أمده إليها وطلقه ، ويعاتبها على إغفال تعهده ، ويصف حسن محضره بها ومشهده (1) : »

إِنِّى ذَكَرْتُكِ « بِالزَّهْرَاء » مُشْتَاقَا ... وَالْأُفْقُ طَلْقٌ ، وَمَرْأَى الْأَرْضِ قَدْ رَاقَا (2)

وَلِلنَّسِيمِ اعْتِلَالٌ — فى أَصَائِلِهِ — ... كَأَنَّهُ رَقَّ لِى ، فَاعْتَلَّ إِشْفَاقَا

وَالرَّوْضُ — عَنْ مَائِهِ الْفِضِّىِّ — مُبْتَسِمٌ ، ... كَمَا شَقَقْتَ — عَنِ اللَّبَّاتِ — أَطْوَاقَا (3)

يَوْمٌ ، كَأَيَّامِ لَذَّاتٍ لَنَا انْصَرَمَتْ ، ... بِتْنَا لَهَا — حِينَ نَامَ الدَّهْرُ — سُرَّاقَا

نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهَرٍ ... — جَالَ النَّدَى فِيهِ — حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا

---

(1) قلائد العقيان . (2) وفى بعض الروايات : « ووجه الأرض قد راقا » .

(3) اللبات : جمع لبة ، وهى موضع القلادة من الصدر ، والأطواق : جمع طوق ، وأراد به ما يطيف بالعنق من الثوب ، ولاشك أن الهيئة الحاصلة من انسياب الماء الفضى فى الروض تشبه الهيئة الحاصلة من انشقاق طوق الثوب عند ترائب النحر والصدر ، وجاء فى بعض الروايات : « كما حللت عن اللبات أطواقا . »

كَأَنَّ أَعْيُنَهُ ـ إِذْ عَايَنَتْ أَرَقِي ـ بَكَتْ لِمَا بِي ، فَجَالَ الدَّمْعُ رَقْرَاقَا
وَرْدٌ تَأَلَّقَ ـ فِي ضَاحِي مَنَابِتِهِ ـ فَازْدَادَ مِنْهُ الضُّحَى ـ فِي الْعَيْنِ ـ إِشْرَاقَا
سَرَى يُنَافِحُـــهُ نَيْلُوفَرٌ عَبِقٌ وَسْنَانُ ، نَبَّهَ مِنْهُ الصُّبْحُ أَحْدَاقَا
كُلٌّ يَهِيجُ لَنَا ذِكْرَى تَشَوُّقِنَا إِلَيْكِ ، لَمْ يَعْدُ عَنْهَا الصَّدْرُ إِنْ ضَاقَا
لَا سَكَّنَ اللهُ قَلْبًا ، عَنَّ ذِكْرِكُمُ فَلَمْ يَطِرْ ـ بِجَنَاحِ الشَّوْقِ ـ خَفَّاقَا
لَوْ شَاءَ حَمْلِي نَسِيمُ الصُّبْحِ ـ حِينَ سَرَى ـ وَافَاكُمُ بِفَتًى أَضْنَـــاهُ مَا لَاقَى
لَوْ كَانَ وَفَّى الْمُنَى ـ فِي جَمْعِنَا بِكُمُ ـ لَـــكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْأَيَّامِ أَخْلَاقَا

* * *

يَا عِلْقِيَ الْأَخْطَرَ الْأَسْنَى الْحَبِيبَ إِلَى نَفْسِي ، إِذَا مَا اقْتَنَى الْأَحْبَابُ أَعْلَاقَا
كَانَ التَّجَارِي بِمَحْضِ الْوُدِّ ـ مُذْ زَمَنٍ ـ مَيْدَانَ أُنْسٍ ، جَرَيْنَا فِيـــهِ أَطْلَاقَا
فَالْآنَ ـ أَحْمَدَ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمُ ـ سَـــلَوْتُمُ ، وَبَقِينَا نَحْنُ عُشَّاقَا !

إلى ولادة

يَا نَازِحًا ـ وَضَمِيرُ الْقَلْبِ مَثْوَاهُ ـ أَنْسَتْكَ دُنْيَاكَ عَبْدًا أَنْتَ دُنْيَاهُ
أَلْهَتْكَ عَنْهُ فُـــكَاهَاتٌ تَلَذُّ بِهَا فَلَيْسَ يَجْرِي ـ بِبَالٍ مِنْكَ ـ ذِكْرَاهُ
عَلَّ اللَّيَالِيَ تُبْقِينِي إِلَى أَمَلٍ ، الدَّهْرُ يَعْلَمُ وَالْأَيَّامُ مَعْنَاهُ

إلى أبى حفص بن برد

قُلْ لِأَبِى حفصٍ ـ وَلَمْ تَكْذِبِ ـ يَا قَمَرَ الدِّيوَانِ وَالمَوْكِبِ

مَا لِأَبِى صَفْوَانَ ـ مَأْلُوفِنَا ـ أَبْرَقَ فى الْأُلْفَةِ عَنْ خُلَّبِ ؟

وَلَمْ يَعُدْ إِلَّا كَمَا يَتَّقِى مُسْتَرِقُ السمعِ مِنَ الْكَوْكَبِ ؟

***

عَنِّفْهُ بِاللّهِ عَلَى فِعْلِهِ ، وَاشْتِمْ ـ وَإِنْ لَمْ يَسْتَقِمْ ـ فَاضْرِبِ

وَعَاطِهِ صَهْبَاءَ مَشْمُولَةً يَرَى لَهَا المَشْرِقَ فى المَغْرِبِ

وَلْيَشْرَبِ الْأَكْثَرَ مِنْ كَأْسِهِ وَاعْمِدْ ـ إِلَى فَضْلَتِهِ ـ فَاشْرَبِ

عُقُوبَةٌ ، أَحْسِنْ بِهَا سُنَّةً ـ فى مِثْلِهِ ـ مِنْ حَسَنٍ مُذْنِبِ

وَبَاكِرَا الطِّيبَ ، وَرُوحَا لَهُ ، فَأَنْتُمَا فى زَمَنٍ طَيِّبِ

ليـــل انس

« وبات ليلة باحدى جنات اشبيلية فقال : »

وَلَيْلٍ أَدَمْنَا فِيهِ شُرْبَ مُدَامَةٍ إِلَى أَنْ بَدَا لِلصُّبْحِ ـ فى اللَّيْلِ ـ تَأْثِيرُ

وَجَاءَتْ نُجُومُ الصُّبْحِ ـ تَضْرِبُ فى الدُّجَا ـ فَوَلَّتْ نُجُومُ اللَّيْلِ ، وَاللَّيْلُ مَقْهُورُ

فَحُزْنَا مِنَ اللَّذَّاتِ أَطْيَبَ طِيبِهَا ، وَلَمْ يَعْرُنَا هَمٌّ وَلَا عَاقَ تَكْدِيرُ

خَلَا أَنَّهُ ـ لَوْ طَالَ ـ دَامَتْ مَسَرَّتِى ، وَلَكِنْ لَيَالِى الْوَصْلِ فِيهِنَّ تَقْصِيرُ

دواء

« وقد أهدى دواء »

قَدْ بَعَثْنَاهُ يَنْفَعُ الْأَعْضَاء　　حِينَ يَجْلُو بِلُطْفِهِ السَّخْنَاء[1]

جَاء يُزْهَى بِمُسْتَشَفٍّ رَقِيقٍ　　يَخْدَعُ الْعَيْنَ رِقَّةً وَصَفَاء[2]

تَنْفُذُ الْعَيْنُ مِنْهُ فِي ظَرْفِ نُورٍ　　مَلَأَتْهُ أَيْدِي الشُّمُوسِ ضِيَاء

أَكْسَبَتْهُ الْأَيَّامُ بَرْدَ هَوَاءٍ　　فَهْوَ جِسْمٌ قَدْ صِيغَ نَاراً وَمَاء

مَنْظَرٌ يُبْهِجُ الْقُلُوبَ ، وَطَعْمٌ　　تَشْكُرُ النَّفْسُ عَهْدَهُ اسْتِمْرَاء

لَذَّةُ الْوَصْلِ نَالَهُ - بَعْدَ يَأْسٍ -　　كَلِفٌ طَالَمَا تَشَكَّى الْجَفَاء[3]

يَفْضَحُ الشُّهْدَ طَعْمُهُ - كُلَّمَا قِيسَ - إِلَيْهِ　　وَيُخْجِلُ الصَّهْبَاء

فَضَلَ السَّابِقَ الْمُقَدَّمَ - فِي النُّضْجِ -　　فَأَزْرَى بِطَعْمِهِ إِزْرَاء

غَيْرَ أَنِّي بَعَثْتُ هٰذَا غِذَاءً　　- يَشْتَهِيهِ الْفَتَى - وَذَاكَ دَوَاء

مُلْطِفٌ يُبْرِدُ الْمِزَاجَ إِذَا جَاشَ الْتِهَاباً　　، وَيَقْمَعُ الصَّفْرَاء

---

(١) بعثناه : أي الدواء المعهود بينه وبين مخاطبه ، ومعلوم أن الطب وعلم الكيمياء وتركيب الأدوية والصيدلة والجراحة تقدمت في الأندلس وخاصة في القرون الوسطى وعند علماء الأندلس كابن رشد ، وأبي القاسم الزهراوي ، وابن زهر ، وأضرابهم من علماء المشرق ببغداد : كابن سينا والرازي ، وعلى ابن العباس أخذ علماء أوربا علومهم الطبية وغيرها ، وقد مرّ بك كثير من قصائد ابن زيدون التي تتعرض لذكر الطب والعلاج ، وأنت إذا تأملت فيما يمر بك من هذا النوع وأشباهه تقرأ فيه آيات الحضارة ، وتشعر بآثار المدنية . والسخناء : من قولهم: إني لأجد في نفسي سخناء — بالمد — وسخونة أي حرارة شديدة من وجع أو حمى .

(٢) يقول : إن هذا الدواء قد جاءك يزهى في رقته وسيولته بوعاء رقيق تستشف العين ما في داخله ، ويخدع الناظر فلا يكاد يراه لشدة رقته وصفائه .

(٣) يقول : إن متعاطيه يستمرئه ويجد فيه لذة كلذة الكلف المشوق ، ظفر بوصل الحبيب بعد يأس وطول جفاء .

وَمُعِينٌ لِوَاصِلِ الصَّوْمِ، يَسْرِى بَرْدُهُ ـ فِى الحَشَا ـ فَيُرْوِى الظِّمَاءَ

(فَتَقَبَّلْهُ) شَافِعًا لِأَيَادِيـــكَ الَّتِى بَعْضُهَا يَفُوتُ الثَّنَاءَ [1]

حسبي رضاك

إِلَيْكَ ـ مِنَ الْأَنَامِ ـ غَدَا ارْتِيَاحِى ، وَأَنْتِ ـ عَلَى الزَّمَانِ ـ مَدَى اقْتِرَاحِى

وَمَا اعْتَرَضَتْ هُمُومُ النَّفْسِ إِلَّا ـ وَمِنْ ذِكْرَاكِ ـ رَيْحَانِى وَرَاحِى

فَدَيْتُكِ : إِنَّ صَبْرِى عَنْكِ صَبْرِى ـ لَدَى عَطَشِى ـ عَلَى المَاءِ الْقَرَاحِ [2] ؟

وَلِى أَمَلٌ ـ لَوِ الْوَاشُونَ كَفُّوا ـ لَاطْلَعَ غَرْسُــهُ ثَمَرَ النَّجَاحِ

وَأَعْجَبُ كَيْفَ يَغْلِبُنِى عَدُوٌّ رِضَاكِ عَلَيْهِ مِنْ أَمْضَى سِلَاحِ

وَلَمَّا أَنْ جَلَتْكِ لِىَ ـ اخْتِلَاسًا ـ أَكُفُّ الدَّهْرِ لِلْحَيْنِ الْمُتَاحِ [3]

رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ نِقَابٍ ، وَغُصْنَ الْبَانِ يَرْفُلُ فِى وِشَاحِ

فَلَوْ أَسْطِيعُ طِرْتُ إِلَيْكِ ـ شَوْقًا ـ وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ ؟

عَلَى حَالَىْ وِصَالٍ وَاجْتِنَابٍ ، وَفِى يَوْمَىْ دُنُوٍّ وَانْتِزَاحِ

وَحَسْــبِىَ أَنْ تُطَالِعَكِ الْأَمَانِى بِأُفْقِكِ ـ فِى مَسَاءٍ أَوْ صَبَاحِ

---

(١) وجد هذا البيت فى الأصل ناقصاً هكذا :

« . . . . . . شافعا لأياديــك التى بعضها يفوت الثناء . »

والتكملة لا يأباها السياق .

(٢) يقول : إن صبرى عنك كصبرى على الماء القراح لدى عطشى وشدة ظمئى .

(٣) يقول فى هذا البيت والذى بعده : ولما أن جلتك وأبرزتك يد الدهر خلسة لحينى وهلاكى الذى أتيح وقدر لى ، طلعت مشادرة كما تطلع الشمس من نقاب ، وخطرت مائسة كما يرفل غصن البان فى وشاح

وَأَنْ تُهْدِي السَّلَامَ إِلَيَّ ـ غِبًّا ـ وَلَوْ فِي بَعْضِ أَنْفَاسِ الرِّيَاحِ (١)

فُؤَادِي ـ مِنْ أَسًى بِكِ ـ غَيْرُ خَالٍ وَقَلْبِي ـ عَنْ هَوًى لَكِ ـ غَيْرُ صَاحِ

عودى إلى الوصال

بَاعَدْتِ ـ بِالْإِعْرَاضِ ـ غَيْرَ مُبَاعِدٍ وَزَهِدْتِ فِيمَنْ لَيْسَ فِيكِ بِزَاهِدِ (٢)

وَسَقَيْتِنِي ـ مِنْ مَاءِ هَجْرِكِ ـ مَالَهُ أَصْبَحْتُ أَشْرَقُ بِالزُّلَالِ الْبَارِدِ

هَلَّا جَعَلْتِ ـ فَدَتْكِ نَفْسِي ـ غَايَةً لِلْعَتْبِ ، أَبْلُغُهَا بِجُهْدِ الْجَاهِدِ (٣)

لَا تُفْسِدَنْ ـ مَا قَدْ تَأَكَّدَ بَيْنَنَا مِنْ صَالِحٍ ـ خَطَرَاتُ ظَنٍّ فَاسِدِ

حَاشَاكِ مِنْ تَضْيِيعِ أَلْفِ وَسِيلَةٍ ـ شَجِيَ الْعَدُوُّ لَهَا ـ بِذَنْبٍ وَاحِدِ (٤)

إِنْ أَجْنِهِ خَطَأً ، فَقَدْ عَاقَبْتِنِي ظُلْمًا ، بِأَبْلَغَ مِنْ عِقَابِ الْعَامِدِ (٥)

* * *

عُودِي لِمَا أَصْفَيْتِنِيهِ مِنَ الْهَوَى بَدْءًا ، فَلَسْتُ ـ لِمَا كَرِهْتِ ـ بِعَائِدِ

وَضَعِي قِنَاعَ السُّخْطِ عَنْ وَجْهِ الرِّضَا كَيْمَا أَخِرَّ إِلَيْهِ أَوَّلَ سَاجِدِ (٦)

---

(١) وحسبي أن تمشي بالسلام غبا أي يوما بعد يوم ولو مع أنفاس الرياح التي تهب من ناحيتك ، وفى الأصل « وأن تبدى » وقد وضعنا بدلها « تهدى » التى هى كصورتها حتى لاتكون نابية فى موضعها ، وقد وجد هذا البيت بعد تاليه ، ولكنا آثرنا تقديمه عليه بحكم العطف على قوله :

« وحسبي أن تطالعك الأمانى . »

(٢) باعدت فتى غير مباعد وذلك باعراضك عنه ، وزهدت فى محب ليس فيك بزاهد .

(٣) يقول كان ينبغى أن تجعلى بينى و بينك نهاية للعتب وغاية أبلغ فيها رضاك بجهد الجاهد وشق النفس .

(٤) يقول : حاشاك أن تضيعى ألف وسيلة توسلت بها إلى رضاك يراها عدوى كالشجا معترضا فى حلقه بذنب واحد .

(٥) إن أجن ذلك الذنب خطأ فقد ظلمتنى بأن عاقبتنى عليه بأشد من عقوبة من أتى بالذنب عمدا .

(٦) أزيلى عن وجه الرضا ما يستره من قناع السخط كيما أكون أول ساجد على نعمة رضاك عنى .

أبو القاسم

« وأمره المعتضد أن يعارض قطعا من أشعار كان يستحسن ألحانها فعارضها رحمه الله بقطع وهى : »

يُقَصِّرُ قُرْبُكَ لَيْلِي[1] الطَّوِيلاَ ... وَيَشْفِي وِصَالُكَ قَلْبِي الْعَلِيلاَ
وَإِنْ عَصَفَتْ مِنْكَ رِيحُ الصُّدُودِ ... فَقَدْتُ نَسِيمَ الْحَيَاةِ الْبَلِيلاَ
كَمَا أَنَّنِي[2] إِنْ أَطَلْتُ الْعِثَارَ ... وَلَمْ يُبْدِ عُذْرِيَ وَجْهاً جَمِيلاَ
وَجَدْتُ « أَبَا الْقَاسِمِ الظَّافِرَ الْمُؤَيَّدَ بِاللهِ » مَوْلًى مُقِيلاَ
إِذَا مَا نَدَاهُ هَمَى وَالْحَيَا ... شَآهُ ، وَعُدَّ الْجَوَادُ الْبَخِيلاَ
وَأَقْلاَمُهُ وَفْقُ أَسْيَافِهِ ... يَظَلُّ الصَّرِيرُ يُبَارِى الصَّلِيلاَ

وقال

أَنْتَ الْمُسَبِّبُ لِلْوُلُوعِ ... وَمُثِيرُ كَامِنَةِ الدُّمُوعْ
يَتَمَنَّيَانِ لَوِ أَعْفِيَا ... مَهْمَا طَلَعْتَ مِنَ الطُّلُوعْ
وَالظَّافِرُ الْمَلِكُ الْمُؤَيَّدُ وَاحِدٌ عَدَلُ الْجُمُوعْ
الْبَدْرُ فِى سُحُبِ الْبُرُ ... ودِ اللَّيْثُ فِى لِبَدِ الدُّرُوعْ
عَنَتِ الْأُصُولُ لِأَصْلِهِ ... وَتَقَاصَرَتْ عَنْهُ الْفُرُوعْ

---

(١) فى الأصل : « الليل »

(٢) فى الأصل : « أنتى »

آلام المحب

مَتَى أَبُثُّكَ[1] مَابِي ؟ يَا رَاحَتِي وَعَذَابِي

مَتَى يَنُوبُ لِسَانِي ـ فِى شَرْحِهِ ـ عَنْ كِتَابِي ؟

أَللّٰهُ يَعْلَمُ أَنِّى أَصْبَحْتُ فِيكِ لِمَا بِي

فَلَا يَطِيبُ[2] مَنَامِي وَلَا يَسُوغُ شَرَابِي

* * *

يَا فِتْنَةَ الْمُتَعَزِّى[3] وَحُجَّةَ الْمُتَصَابِي :

الشَّمْسُ أَنْتِ، تَوَارَتْ ـ عَنْ نَاظِرِى ـ بِالْحِجَاب

* * *

مَا الْبَدْرُ ـ شَفَّ سَنَاهُ عَلَى رَقِيقِ السَّحَابِ ـ

إِلَّا كَوَجْهِكِ ، لَمَّا أَضَاءَ تَحْتَ النِّقَابِ

كيف السلو ؟

كَمْ ذَا أُرِيدُ وَلَا أُرَادُ ؟ يَا سُوءَ مَا لَقِيَ الْفُؤَادُ !

أُصْفِى الْوِدَادَ مُدَلَّلًا ، لَمْ يَصْفُ لِي مِنْهُ الْوِدَادُ

يَقْضِى عَلَيَّ دَلَالُهُ ـ فِى كُلِّ حِينٍ ـ أَوْ يَكَادُ

كَيْفَ السُّلُوُّ عَنِ الَّذِى مَثْوَاهُ ـ مِنْ قَلْبِي ـ السَّوَادُ ؟

---

(١) وفى بعض الروايات : « متى أنبيك . » .

(٢) وفى بعض الروايات : « لم يلذ منامى »

(٣) وفى الاصل : « يا فتنة المقرى »

مَلَكَ الْقُلُوبَ بِحُسْنِهِ ، فَلَهَا ـ إِذَا أَمَرَ ـ انْقِيَادُ

⁂

يَا هَاجِرِى كَمْ أَسْتَفِيدُ الصَّبْرَ عَنْكَ ، فَلاَ أُفَادُ
أَلاَّ (١) رَثَيْتَ لِمَنْ يَبِيتُ وَحَشْوُ مُقْلَتِهِ السُّهَادُ ؟
إِنْ أَجْنِ ذَنْباً فى الْهَوَى ـ خَطَأً ـ فَقَدْ يَكْبُو الْجَوَادُ
كَانَ الرِّضَى ـ وَأُعِيذُهُ ـ أَنْ يُعْقِبَ الْكَوْنَ الْفَسَادُ

قسمٌ

أَسْتَوْدِعُ اللّهَ مَنْ أَصْفَى الْوِدَادَ لَهُ مَحْضاً ، وَلاَمَ بِهِ الْوَاشِى فَلَمْ أُطِعِ
إِلْفٌ أَلَذُّ غُرُورَ الْوَعْدِ ، يَصْفَحُ لِى عَنْهُ ، وَيُقْنِعُنِى التَّعْلِيلُ بِالْخُدَعِ
تَجْلُو الْمُنَى شَخْصَهُ لِى ـ وَهْوَ مُحْتَجِبٌ عَنِّى ـ فَمَا شِئْتَ مِنْ مَرْأًى وَمُسْتَمَعِ
يَا بَدْرَ تِمٍّ بَدَا فى أُفْقِ مَمْلَكَةٍ ، فَرَاقَ مُطَّلِعاً مِنْ خَيْرِ مُطَّلَعِ
أَفْدِى بَدَائِعَ شَكْلٍ مِنْكِ مُضْمَرَةً لِقَتْلِ نَفْسِىَ ـ عَمْداً ـ أَشْنَعَ الْبِدَعِ

⁂

تَاللّهِ ـ أَكْرَمَ مَا أَمْضَى الْيَمِينَ بِهِ مَنْ دَانَ فى حُبِّهِ بِالصِّدْقِ وَالْوَرَعِ ـ
مَا لَذَّ لِى قُرْبُ أُنْسٍ أَنْتِ نَازِحَةٌ عَنْهُ ، وَلاَ سَاغَ عَيْشٌ لَسْتِ فِيهِ مَعِى

خداع الأمانى

وَلَقَدْ شَكَوْتُكَ بِالضَّمِيرِ إِلَى وَدَعَوْتُ ـ مِنْ حَنَقٍ ـ عَلَيْكَ فَأَمَّنَا
مَنَّيْتُ نَفْسِى ـ مِنْ صَفَائِكَ ـ ضَلَّةً وَلَقَدْ تَغُرُّ الْمَرْءَ بَارِقَةُ الْمُنَى

(١) ألا : هلا .

فى الغزل

« وله يتغزل و يعاتب من يستعطفه و يتنزل . »

يا مُسْتَخِفًّا بِعَاشِقِيهِ　　وَمُسْتَغِشًا لِنَاصِحِيهِ
وَمَنْ أَطَاعَ الْوُشَاةَ فِينَا　　حَتَّى أَطَعْنَا السُّلُوَّ فِيهِ
الحَمْدُ لِلّهِ إِذْ أَرَانِى　　تَكْذِيبَ مَا كُنْتَ تَدَّعِيهِ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يُهْزَمَ التَّسَلِّى　　وَيَغْلِبَ الشَّوْقُ مَا يَلِيهِ

إلى هاجر

أَأُسْلَبُ مِنْ وِصَالِكِ مَا كُسِبْتُ ؟　　وَأُعْزَلُ - عَنْ رِضَاكِ - وَقَدْ وَلِيتُ ؟
وَكَيْفَ - وَفِى سَبِيلِ هَوَاكِ طَوْعًا -　　لَقِيتُ مِنَ الْمَكَارِهِ مَا لَقِيتُ !
أُسِرُّ عَلَيْكِ عَتْبًا لَيْسَ يَبْقَى ،　　وَأُضْمِرُ فِيكِ غَيْظًا لَا يَبِيتُ
وَمَا رَدِّى عَلَى الْوَاشِينَ ، إِلَّا :　　« رَضِيتُ بِجَوْرِ مَالِكَتِى رَضِيتُ . »

دعاء محب

أَنَّى أُضَيِّعُ عَهْدَكْ ؟　　أَمْ كَيْفَ أُخْلِفُ وَعْدَكْ
وَقَدْ رَأَتْكَ الْأَمَانِى　　رِضًى ، فَلَمْ تَتَعَدَّكْ

***

يَا لَيْتَ مَالَكَ عِنْدِى !　　مِنَ الْهَوَى - لِىَ عِنْدَكْ[1]

---

(٢) وفى بعض الروايات :

« يا ليت شعرى ، وعندى　　ما لبس - فى الحب - عندك
ها . طال ليلك بعدى ؟　　كطول ليلى بعدك ؟ . »

فَطَالَ لَيْلُكَ بَعْدِي ... كَطُولِ لَيْلِي بَعْدَكْ

سَلْنِي حَيَاتِي أَهَبْهَا ، ... فَلَسْتُ أَمْلِكُ رَدَّكْ

أَلدَّهْرُ عَبْدِيَ ، لَمَّا ... أَصْبَحْتُ ـ فِي الْحُبِّ ـ عَبْدَكْ

أنت حسبى

يَامَنْ غَدَوْتُ بِهِ ـ فِي النَّاسِ ـ مُشْتَهِرًا ... قَلْبِي عَلَيْكَ يُقَاسِي الْهَمَّ وَالْفِكَرَا

إِنْ غِبْتَ لَمْ أَلْقَ إِنْسَانًا يُوَنِّسُنِي (١) ... وَإِنْ حَضَرْتَ، فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ حَضَرَا

ما الذى أنكروه ؟

قَالَ لِي : « اعْتَلَّ مَنْ هَوِيتَ » حَسُودٌ ... قُلْتُ: « أَنْتَ الْعَلِيلُ وَيْحَكَ لَا هُو »

مَا الَّذِي أَنْكَرُوهُ مِنْ بَثَرَاتٍ (٢) ... ضَاعَفَتْ حُسْنَهُ وَزَادَتْ حُلَاهُ

جِسْمُهُ ـ فِي الصَّفَاءِ وَالرِّقَّةِ ـ الْمَا ... ءُ ، فَلَا غَرْوَ أَنْ حُبَابٌ عَلَاهُ

شوق بعد سلوان

عَاوَدَتْ ذِكْرَى الْهَوَى ـ مِنْ بَعْدِ نِسْيَانِ ... وَاسْتَحْدَثَ الْقَلْبُ شَوْقًا بَعْدَ سُلْوَانِ

مِنْ حُبِّ جَارِيَةٍ ، يَبْدُو بِهَا صَنَمٌ ... مِنَ اللُّجَيْنِ ، عَلَيْهِ تَاجُ عِقْيَانِ

غَرِيرَةٌ ـ لَمْ تُفَارِقْهَا تَمَائِمُهَا ـ ... تَسْبِي الْعُقُولَ بِسَاجِي الطَّرْفِ وَسْنَانِ

لَاسْتَجِدَّنَ ـ فِي عِشْقِي لَهَا ـ زَمَنًا ... يُنْسِي سَوَالِفَ أَيَّامِي وَأَزْمَانِي

حَتَّى تَكُونَ لِمَنْ أَحْبَبْتُ خَاتِمَةً ، ... نَسَخْتُ ـ فِي حُبِّهَا ـ كُفْرًا بِإِيمَانِ

---

(١) فى الأصل « يوسى » بإبدال الهمزة واوا وهو إبدال مقيس كما يعلم من علم الصرف ، وهو مضارع أنسى (بالتصعيف) أى أزال وحشتى كآنسنى ، وجاء فى كلامهم :
« إذا جاء الليل استأنس كل وحشى ، واستوحش كل إنسى » .

(٢) البثرات : واحدتها بثرة كسجدة وسجدات ، وهى حراج صغار تظهر على الوجه ، فتنطف جلده ، وأغلب ما يكون ذلك فى أوان الشباب ، ولذلك يعرف عند العامة فى بلادنا (بحب الشباب) ، وقد علله فى البيت التالى تعليلا حسنا ، حيث شبهه بالحباب يطفو على وجه الماء الشبيه ببشرة وجه الحبيب فى الرقة والصفاء .

أسر الهوى

يَا سُؤْلَ نَفْسِيَ - إِنْ أُحَكَّمْ - وَاخْتِيَارِي إِنْ أُخَيَّرْ

كَمْ لَامَنِي فِيكَ الْحَسُو دُ، وَفَنَّدَ الْوَاشِي فَأَكْثَرْ

قَالُوا: «تَغَيَّرَ بِالسُّلُوِّ وَبِالْمَلَامَةِ قَدْ تَغَيَّرْ»

وَتَوَهَّمُوكَ جَنَيْتَ ذَنْباً بِالتَّجَنِّي لَيْسَ يُغْفَرْ

وَبِزَعْمِهِمْ أَنْ لَيْسَ مِثْلِي فِي الرِّضَى بِالدُّونِ يُعْذَرْ

لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْهَوَى رِقٌّ، وَأَنَّ الْحُسْنَ أَحْمَرْ(١)

معـــذرة

إِنْ تَكُنْ نَالَتْكَ - بِالضَّرْبِ يَدِي - وَأَصَابَتْكَ بِمَا لَمْ أُرِدِ

فَلَقَدْ كُنْتُ - لَعَمْرِي - فَادِيًا لَكَ بِالْمَالِ وَبَعْضِ الْوَلَدِ

فَثِقِي مِنِّي بِعَهْدٍ ثَابِتٍ وَضَمِيرٍ خَالِصِ الْمُعْتَقَدِ

وَلَئِنْ سَاءَكِ يَوْمٌ فَاعْلَمِي أَنْ سَيَتْلُوهُ سُرُورٌ بَعْدِ

وصف الكأس

أَنَا ظَرْفٌ لِلَّهْوِ كُلِّ ظَرِيفِ أَنَا مُسْتَوْدَعٌ لِعِلْقٍ شَرِيفِ

أَنَا كَالصَّدْرِ فِي الْإِحَاطَةِ بِالرَّا حِ إِذِ الرَّاحُ كَالضَّمِيرِ اللَّطِيفِ

سَلْ عَنِ الطَّيِّبَاتِ فَهْيَ فُنُونٌ أُلِّفَتْ فِيَّ أَحْسَنَ التَّأْلِيفِ

أَيُّ حُسْنٍ يَفِي بِحُسْنِيَ مَحْوُ لَا بِكَفَّيْ وَصِيفَةٍ أَوْ وَصِيفِ

---

(١) من قولهم « الحسن أحمر » أى ذو مشقة وبلاء يريدون أن من تعشق الحسن والجمال تحمل فى سبيله المشقة وصبر على الأذى ، وإنما يقال ذلك لمن يسترقه الهوى ، ويغلبه الحسن على أمره فيلقى فى سبيله الموت الأحمر .

غاية المحبين

لَئِنْ كُنْتَ — فى السِّنِّ — تِرْبَ الهِلَالِ ، لَقَدْ فُقْتَ — فى الحُسْنِ — بَدْرَ الكَمَالِ
أَمَا وَالَّذِى نَكَّدَ الحَظَّ فِيَّ دُنُوَّ المَكَانِ بِبُعْدِ المَنَالِ
لَقَدْ بَلَّغَتْنِى دَوَاعِى هَوَاكَ إِلَى غَايَةٍ مَا جَرَتْ لِى بِبَالِ
فَقُلْ لِلْهَوَى : « يَجْرِ مِلْءَ العِنَانِ » فَمَيْدَانُ قَلْبِى رَحِيبُ المَجَالِ

صفح المذنب

يَا قَمَرًا مَطْلَعُهُ المَغْرِبُ قَدْ ضَاقَ بِى — فى حُبِّكَ — المَذْهَبُ
أَعْتِبُ — مِنْ ظُلْمِكَ لِى — جَاهِدًا ، وَيَغْلِبُ الشَّوْقُ فَأَسْتَعْتِبُ
أَلْزَمْتَنِى الذَّنْبَ الَّذِى جِئْتَهُ ، صَدَقْتَ ، فَاصْفَحْ أَيُّهَا المُذْنِبُ

لا يأس

أَيُّهَا البَدْرُ الَّذِى يَمْلَأُ عَيْنَىْ مَنْ تَأَمَّلْ
حُمِّلَ القَلْبُ تَبَارِيحَ التَّجَنِّى فَتَحَمَّلْ
لَيْسَ لِى صَبْرٌ جَمِيلٌ ، غَيْرَ أَنِّى أَتَجَمَّلْ
ثُمَّ لَا يَأْسَ ، فَكَمْ قَدْ نِيلَ أَمْرٌ لَمْ يُؤَمَّلْ

عتب

أَوْجَفَى — بِلَا جُرْمٍ — وَأُقْصَى بِلَا ذَنْبِ ، سِوَى أَنَّنِى مَحْضُ الهَوَى صَادِقُ الحُبِّ
أُغَادِيكَ بِالشَّكْوَى ، فَأُضْحِى عَلَى القِلَى وَأَرْجُوكَ لِلْعُتْبَى ، فَأَظْفَرُ بِالعَتْبِ
فَدَيْتُكَ ، مَا لِلْمَاءِ — عَذْبًا عَلَى الصَّدَى — وَإِنْ سُمْتَنِى خَسْفًا ، مَحَلُّكَ مِنْ قَلْبِى
وَلَوْلَاكَ ، مَا ضَاقَتْ حَشَايَ — صَبَابَةً — جَعَلْتُ قِرَاهَا الدَّمْعَ سَكْبًا عَلَى سَكْبِ

تجنى الحبيب

ثِقِي بِي - يَا مُعَذِّبَتِي - فَإِنِّى سَأَحْفَظُ فِيكِ مَا ضَيَّعْتِ مِنِّى
وَإِنْ أَصْبَحْتِ قَدْ أَرْضَيْتِ قَوْمًا بِسُخْطِي، لَمْ يَكُنْ ذَا فِيكِ ظَنِّى
وَهَلْ قَلْبٌ كَقَلْبِكِ فِي ضُلُوعِي، فَأَسْلُو عَنْكِ حِينَ سَلَوْتِ عَنِّى
تَمَنَّتْ - أَنْ تَنَالَ رِضَاكِ - نَفْسِي، فَكَانَ مَنِيَّةً ذَاكَ التَّمَنِّى
وَلَمْ أَجْنِ[1] الذُّنُوبَ فَتَحْقِدِيهَا، وَلَكِنْ عَادَةٌ مِنْكِ التَّجَنِّى .

لا يأس فى الحب

أَنْتِ مَعْنَى الضَّنَى وَسِرُّ الدُّمُوعِ ، وَسَبِيلُ الْهَوَى ، وَقَصْدُ الْوُلُوعِ
أَنْتِ وَالشَّمْسُ ضَرَّتَانِ ، وَلَكِنْ لَكِ - عِنْدَ الْغُرُوبِ - فَضْلُ الطُّلُوعِ
لَيْسَ بِالْمُؤْيِسِي تَكَلُّفُكِ الْعَتْـ ـبَ - دَلَالًا - مِنَ الرِّضَى الْمَطْبُوعِ
إِنَّمَا أَنْتِ - وَالْحَسُودُ مُعَنًى - كَوْكَبٌ يَسْتَقِيمُ بَعْدَ الرُّجُوعِ

بقية المسواك

أَهْدِى إِلَىَّ بَقِيَّةَ الْمِسْوَاكِ لَا تُظْهِرِى بُخْلًا بِعُودِ أَرَاكِ
فَلَعَلَّ نَفْسِي ، أَنْ يُنَفِّسَ سَاعَةً عَنْهَا بِتَقْبِيلِ الْمُقَبَّلِ فَاكِ
يَا كَوْكَبًا - بَارِى سَنَاهُ سَنَاءَهُ - تَزْهَى الْقُصُورُ بِهِ عَلَى الْأَفْلَاكِ
قَرَّتْ وَفَازَتْ - بِالْخَطِيرِ مِنَ الْمُنَى - عَيْنٌ تُقَلِّبُ لَحْظَهَا فَتَرَاكِ

---

(١) وفى الأصل : « ولم أجز » .

غرور المنى

إنْ ساءَ فِعلُكِ بِي ، فَما ذَنْبِي أنا ؟ حَسْبُ المُتيَّمِ أنَّهُ قَدْ أحْسَنا
لَمْ أسْلُ حتَّى كانَ عُذْرُكِ - في الذِي أبْدَيْتِهِ - أخْفَى ، وعُذْرِي أبْيَنا
ولقَدْ شكَوْتُكِ - بالضَّمِيرِ - إلى الهَوَى ، ودَعَوْتُ - مِنْ حَنَقٍ - عَلَيْكِ فأمَّنا
منَّيْتُ نفسِي - مِنْ وَفائِكِ - ضَلَّةً ، ولقَدْ تَغُرُّ المَرْءَ بارِقَةُ المُنَى

صليني

أغائِبَةً عَنِّي ، وحاضِرَةً معي ، أُنادِيكِ - لَمَّا عِيلَ صَبْرِيَ - فاسْمَعِي
أفي الحَقِّ أنْ أشْقَى بحُبِّكِ ، أوْ أُرَى حَرِيقاً بأنْفاسِي ، غَرِيقاً بأدْمُعِي
ألاَ عَطْفَةٌ تَحْيا بها نفسُ عاشِقٍ ؟ جَعلْتِ الرَّدَى مِنْهُ بِمَرْأًى ومَسْمَعِ
صِلِينِيَ - بعْضَ الوَصْلِ - حتَّى تَبيَّنِي حقيقةَ حالِي ، ثُمَّ ما شئْتِ فاصْنَعِي

شكوى ضائعة

سأُحِبُّ أعْدائي لِأنَّكَ مِنْهُمُ [1] يا مَنْ يُصِحُّ - بِمُقْلَتَيْهِ - وَيُسْقِمُ
أصْبَحْتَ تُسْخِطُنِي فأمْنَحُكَ الرِّضَى - محْضاً - وتَظْلِمُنِي فلاَ أتَظَلَّمُ
يا مَنْ تألَّفَ لَيْلُهُ ونهارُهُ ، فالحُسْنُ بَيْنَهُما مُضِيءٌ مُظْلِمُ
قَدْ كانَ - في شَكْوَى الصَّبابَةِ - راحَةٌ ، لوْ أنَّنِي أشْكُو إلى مَنْ يَرْحَمُ

وفاء المحب

لَمَّا اتَّصَلْتِ اتِّصالَ الحُبِّ [2] بالْكَبِدِ ثُمَّ امْتَزَجْتِ امْتِزاجَ الرُّوحِ بِالجَسَدِ

---

(١) وهذا قريب من قول القائل :

« شابهت أعدائى فصرت أحبهم إذ كان حظى منك حظى منهم . »

(٢) وفى الأصل : « الحلب »

سَاءَ الْوُشَاةَ مَكَانِي مِنْكِ ، وَاتَّقَدَتْ ـ فِي صَدْرِ كُلِّ عَدُوٍّ ـ جَمْرَةُ الْحَسَدِ
فَلْيَسْخَطِ النَّاسُ لاَ أَهْدِ الرِّضَى لَهُمُ ، وَلاَ يَضِيعُ لَكِ عَهْدٌ آخِرَ الْأَبَدِ
لَوِ اسْتَطَعْتُ ـ إِذَا مَا كُنْتِ غَائِبَةً ـ غَضَضْتُ طَرْفِي ، فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدِ

غدر الحبيب

يَا لَيْلُ طُلْ ، لاَ أَشْتَهِي ـ إِلاَّ بِوَصْلٍ ـ قِصَرَكْ
لَوْ بَاتَ عِنْدِي قَمَرِي ، مَا بِتُّ أَرْعَى قَمَرَكْ
يَا لَيْلُ خَبِّرْ : أَنَّنِي أَلْتَذُّ عَنْهُ خَبَرَكْ
بِاللّٰهِ قُلْ لِي : هَلْ وَفَا ؟ فَقَالَ : « لاَ ، بَلْ غَدَرَكْ »

حذر العاشق

لَئِنْ فَاتَنِي مِنْكِ حَظُّ النَّظَرْ لَأَكْتَفِيَنْ بِسَمَاعِ الْخَبَرْ
وَإِنْ عَرَضَتْ غَفْلَةٌ لِلرَّقِيبِ ، فَحَسْبِيَ تَسْلِيمَةٌ تُخْتَصَرْ
أُحَاذِرُ أَنْ تَتَظَنَّى الْوُشَاةُ ، وَقَدْ يُسْتَدَامُ الْهَوَى بِالْحَذَرْ
وَأَصْبِرُ مُسْتَيْقِنًا : أَنَّهُ سَيَحْظَى ـ بِنَيْلِ الْمُنَى ـ مَنْ صَبَرْ

قناعة المحب

سَأَقْنَعُ مِنْكِ بِلَحْظِ الْبَصَرْ ، وَأَرْضَى بِتَسْلِيمِكِ الْمُخْتَصَرْ
وَلاَ أَتَخَطَّى الْتِمَاسَ الْمُنَى ، وَلاَ أَتَعَدَّى اخْتِلاَسَ النَّظَرْ
أَصُونُكِ ـ مِنْ لَحَظَاتِ الظُّنُونِ ـ وَأُعْلِيكِ عَنْ خَطَرَاتِ الْفِكَرْ
وَأَحْذَرُ ـ مِنْ لَحَظَاتِ الرَّقِيبِ ـ وَقَدْ يُسْتَدَامُ الْهَوَى بِالْحَذَرْ .

كيف السلو ؟

هَلْ لِدَاعِيكَ مُجِيبُ ؟ أَمْ لِشَاكِيكَ طَبِيبُ ؟
يَا قَرِيباً - حِينَ يَنْأَى - حَاضِراً - حِينَ يَغِيبُ - !
كَيْفَ يَسْلُوكَ مُحِبٌّ زَانَهُ مِنْكَ حَبِيبُ ؟
إِنَّمَا أَنْتَ نَسِيمٌ تَتَلَقَّاهُ الْقُلُوبُ
قَدْ عَلِمْنَا عِلْمَ ظَنٍّ ، هُوَ - لَا شَكَّ - مُصِيبُ
أَنَّ سِرَّ الْحُسْنِ مِمَّا أَضْمَرَتْ تِلْكَ الْجُيُوبُ

أنت المنى

أَرْخَصْتِنِي - مِنْ بَعْدِ مَا أَغْلَيْتِنِي - وَحَطَطْتِنِي ، وَلَطَالَمَا أَعْلَيْتِنِي
بَادَرْتِنِي بِالْعَزْلِ عَنْ خُطَطِ الرِّضَى ، وَلَقَدْ مَحَضْتُ النُّصْحَ إِذْ وَلَّيْتِنِي
هَلَّا - وَقَدْ أَعْلَقْتِنِي شَرَكَ الْهَوَى - عَلَّلْتِنِي بِالْوَصْلِ ، أَوْ سَلَّيْتِنِي
الصَّبْرُ شُهْدٌ - عِنْدَ مَا جَرَّعْتِنِي - وَالنَّارُ بَرْدٌ ، عِنْدَ مَا أَصْلَيْتِنِي
كُنْتِ الْمُنَى ، فَأَذَقْتِنِي غُصَصَ الْأَذَى ، يَا لَيْتَنِي مَا فُهْتُ فِيكِ : بِلَيْتَنِي

بقاء على العهد

جَازَيْتِنِي - عَنْ تَمَادِي الْوَصْلِ - هِجْرَانَا وَعَنْ تَمَادِي الْأَسَى وَالشَّوْقِ سُلْوَانَا
بِاللهِ هَلْ كَانَ قَتْلِي فِي الْهَوَى خَطَأً أَمْ جِئْتَهُ عَامِدًا ظُلْمًا وَعُدْوَانَا ؟
عَهْدِي كَعَهْدِكَ ، مَا الدُّنْيَا تُغَيِّرُهُ وَإِنْ تَغَيَّرَ مِنْكَ الْعَهْدُ أَلْوَانَا
مَا صَحَّ وُدِّي إِلَّا اعْتَلَّ وُدُّكِ لِي ، وَلَا أَطَعْتُكَ إِلَّا زِدْتَ عِصْيَانَا
يَا أَلْيَنَ النَّاسِ أَعْطَافًا ، وَأَفْتَنَهُمْ لَحْظًا ، وَأَعْطَرَ أَنْفَاسًا وَأَرْدَانَا
حَسُنْتَ خَلْقًا ، فَأَحْسِنْ لَا تَسُؤْ خُلُقًا ، مَا خَيْرُ ذِي الْحُسْنِ إِنْ لَمْ يُولِ إِحْسَانَا ؟

أين وفاؤك ؟

أَشْمَتَّ بِي فِيكَ الْعِدَا ... وَبَلَغْتَ مِنْ ظُلْمِي الْمَدَى

لَوْ كَانَ يَمْلِكُ فِدْيَةً ... مِنْ حُبِّكَ الْقَلْبُ افْتَدَى

كُنْتَ الْحَيَاةَ لِعَاشِقٍ ... مُذْ حُلْتَ أَيْقَنَ بِالرَّدَى

لَمْ يَسْلُ عَنْكَ ، وَلَوْ سَلَا ... لَعَذَرْتُهُ ، فَبِكَ اقْتَدَى

ضَيَّعْتَ عَهْدَ مَحَبَّةٍ ... كَالْوَرْدِ سَامَرَهُ النَّدَى

أَيْنَ ادِّعَاؤُكَ لِلْوَفَا ... ءِ ، وَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا (١)

صريع الحب

لَوْ كَانَ قَوْلُكَ «مُتْ» مَا كَانَ رَدِّيَ «لَا» ... يَا جَائِرَ الْحُكْمِ ، أَفْدِيهِ بِمَنْ عَدَلَا

أَبْدَيْتَ لِي مِنْ أَفَانِينِ الْقِلَى عِبَرًا ، ... أَرْسَلْنَنِي فِي أَحَادِيثِ الْهَوَى مَثَلَا

لَمْ تُبْقِ جَارِحَةً بِالْهَجْرِ مِنْ جَسَدِي ... إِلَّا خَلَعْتَ عَلَيْهَا بِالضَّنَى حُلَلَا

فَلْيُغْنِ كَفَّكَ أَنِّي بَعْضُ مَنْ مَلَكَتْ ، ... وَلْيَكْفِ طَرْفَكَ أَنِّي بَعْضُ مَنْ قَتَلَا

وَلْتَقْضِ مَا شِئْتَ مِنْ هَجْرٍ وَمِنْ صِلَةٍ ... لَا أَقْضِ مَا عِشْتُ سُلْوَانًا وَلَا مَلَلَا

سَقْيًا لِعَهْدِكَ وَالْأَيَّامُ تُقْبِلُنِي ... وَجْهَ السُّرُورِ بِهِ جَذْلَانَ مُقْتَبِلَا

إِذِ الزَّمَانُ بَلِيغٌ فِي مُسَاعَدَتِي ... يُهْدِي إِلَيَّ تَفَارِيقَ الْمُنَى جُمَلَا

إِنْ كَانَ لِي أَمَلٌ إِلَّا رِضَاكَ ، فَلَا ... بُلِّغْتُ يَا أَمَلِي مِنْ دَهْرِيَ الْأَمَلَا

---

(١) فى الأصل : « وما عدا ديما بدا . » وأصل المثل كما فى مجمع الأمثال للميدانى : « ما عدا مما بدا . » أى ما منعك مما ظهر لك أولا ، قاله على بن أبى طالب للزبير بن العوام رضى الله عنهما يوم الجمل يريد ما الذى صرفك عما كنت عليه من البيعة ، وهذا متصل بقوله : « عرفتنى بالحجاز ، وأنكرتنى بالعراق ، فما عدا مما بدا . »

وفاء المحب

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّيَ الْبَدْرَ الَّذِي كَمُلاَ ... في مَطْلَعِ الحُسْنِ، وَالْغُصْنَ الذي اعْتَدَلاَ
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي أَهْدَى مَوَدَّتَهُ ... إِلَيَّ مُرْتَهَنٌ شُكْرِي بِمَا فَعَلاَ
أَمَّا الحبِيبُ الَّذِي أَبْدَى الجَفَاء لنا، ... فَمَا رَأَيْنَا قِلاَهُ حَادِثًا جَلَلاَ
وَلَمْ نَزِدْ أَنْ ظَفِرْنَا مِلْءَ أَعْيُنِنَا ... بِالْمُشْتَرِي، فَتَجَنَّبْنَا لَهُ زُحَلاَ
أَنْتَ الحَبِيبِ الَّذِي مَا زِلْتُ أُلْحِفُهُ ... ظِلَّ الْهَوَى، وَأُسَقِّيهِ الرِّضَا عَلَلاَ
هٰذِي الحَقِيقَةُ، لاَ قَوْلِي مُخَادَعَةً: ... لَوْ كَانَ قَوْلُكَ «مُتْ» مَا كَانَ رَدِّيَ «لاَ»

انت حسبي

لَمْ يَكُنْ هَجْرِي حَبِيبِي عَنْ قِلَى ... لاَ وَلاَ ذَاكَ التَّجَنِّي مَلَلاَ
سَرَّهُ شُكْرِيَ إِذْ عَافَى، وَلَمْ ... يَدْرِ مَا غَايَةُ صَبْرِي فَابْتَلَى
أَنَا رَاضٍ بِالَّذِي يَرْضَى بِهِ ... لِيَ مَنْ لَوْ قَالَ «مُتْ» مَا قُلْتُ: «لاَ»
مَثَلٌ فِي كُلِّ حُسْنٍ مِثْلَمَا ... صَارَ ذُلِّي ـ فِي هَوَاهُ ـ مَثَلاَ
يَا فَتِيتَ المِسْكِ يَا شَمْسَ الضُّحَا ... يَا قَضِيبَ الْبَانِ يَا رِيمَ الْفَلاَ
إِنْ يَكُنْ لِي أَمَلٌ غَيْرَ الرِّضَا ... مِنْكَ، لاَ بُلِّغْتُ ذَاكَ الأَمَلاَ

إلى هاجر

أَتَهْجُرُنِي وَتَغْصِبُنِي كِتَابِي؟ ... وَمَا فِي الحَقِّ غَصْبِي وَاجْتِنَابِي
أَيَجْمُلُ أَنْ أُبِيحَكَ مَحْضَ وُدِّي؟ ... وَأَنْتَ تَسُومُنِي سُوءَ الْعَذَابِ
فَدَيْتُكَ، كَمْ تَغُضُّ الطَّرْفَ دُونِي ... وَكَمْ أَدْعُوكَ مِنْ خَلْفِ الْحِجَابِ
وَكَمْ لِي مِنْ فُؤَادِكَ ـ بَعْدَ قُرْبٍ ـ ... مَكَانَ الشَّيْبِ فِي نَفْسِ الْكَعَابِ

أَعِدْ ـ فى عَبْدِكَ المَظْلومِ ـ رَأْياً ... تَنَالُ بِهِ الجَزِيلَ مِنَ الثَّوَابِ [1]

وَإِنْ تَبْخَلْ عَلَيْهِ فَرُبَّ دَهْرٍ ... وَهَبْتَ لَهُ رِضَاكَ بِلاَ حِسَابِ

لاسبيل إلى السلو

أَذْكَرْتَنِي سَالِفَ الْعَيْشِ الَّذِى طَابَا ... يَا لَيْتَ غَائِبَ ذَاكَ الْعَهْدِ قَدْ آبَا

إِذْ نَحْنُ فى رَوْضَةٍ ـ لِلْوَصْلِ ـ نَعَمُهَا ... مِنَ السُّرُورِ غَمَامٌ فَوْقَهَا صَابَا

إِنِّى لَأَعْجَبُ مِنْ شَوْقٍ يُطَاوِلُنِى ... فَكُلَّمَا قِيلَ فِيهِ: «قَدْ قَضَى»، ثَابَا

كَمْ نَظْرَةٍ لَكَ فى عَيْنِى عَلِمْتَ بِهَا ... ـ يَوْمَ الزِّيَارَةِ ـ أَنَّ الْقَلْبَ قَدْ ذَابَا

قَلْبٌ يُطِيلُ مَقَامَاتِى لِطَاعَتِكُمْ، ... فَإِنْ أُكَلِّفْهُ عَنْكُمْ سَلْوَةً يَابَى

مَاتَوْبَتِى بِنَصُوحٍ ـ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ ـ ... لاَ عَذَّبَ اللَّهُ إِلاَّ عَاشِقاً تَابَا

انت الحياة

أَمَّا رِضَاكِ فَعِلْقٌ مَالَهُ ثَمَنُ ... لَوْ كَانَ سَامَحَنِى فى وَصْلِهِ الزَّمَنُ

تَبْكِى فِرَاقَكَ عَيْنٌ أَنْتَ نَاظِرُهَا ... قَدْ لَجَّ فى هَجْرِهَا عَنْ هَجْرِكَ الْوَسَنُ

إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِى عَهْدِى بِهِ حَسَنٌ ... قَدْ حَالَ مُذْ غَابَ عَنِّى وَجْهُكَ الْحَسَنُ

أَنْتَ الْحَيَاةُ فَإِنْ يُقْدَرْ فِرَاقُكَ لِى ... فَلْيُحْفَرِ الْقَبْرُ أَوْ فَلْيُحْضَرِ الْكَفَنُ

وَاللَّهِ مَا سَاءَنِى أَنِّى جُفِيتُ ضَنًى ... بَلْ سَاءَنِى أَنَّ سِرِّى ـ بِالضَّنَى ـ عَلَنُ

لَوْ كَانَ أَمْرِى ـ فى كَتْمِ الْهَوَى ـ بِيَدِى ... مَا كَانَ يَعْلَمُ ـ مَا فى قَلْبِىَ ـ الْبَدَنُ

ذكرى معاهد قرطبة

عَلَى الثَّغَبِ الشَّهْدِىِّ مِنِّى تَحِيَّةٌ ... زَكَتْ، وَعَلَى وَادِى الْعَقِيقِ سَلاَمُ

وَلاَ زَالَ نَوْرٌ فى الرُّصَافَةِ ضَاحِكٌ ... بِأَرْجَائِهَا يَبْكِى عَلَيْهِ غَمَامُ

---

(١) قريب من هذا قول البحترى :

« أصخ فى نظرة مستثيب توخى الأجر أو كره الأثاما »

مَعَاهِدُ لَهْوٍ لَمْ تَزَلْ فِى ظِلاَلِهَا تُدَارُ عَلَيْنَا ـ لِلْمُجُونِ ـ مُدَامُ

زَمَانٌ : رِيَاضُ الْعَيْشِ خُضْرٌ نَوَاضِرٌ تَرِفُّ ، وَأَمْوَاهُ السُّرُورِ جِمَامُ

فَإِنْ بَانَ مِنِّى عَهْدُهَا ، فَبِلَوْعَةٍ يَشُبُّ لَهَا ـ بَيْنَ الضُّلُوعِ ـ ضِرَامُ

تَذَكَّرْتُ أَيَّامِى بِهَا ، فَتَبَادَرَتْ دُمُوعٌ ، كَمَا خَانَ الْفَرِيدَ نِظَامُ

وَصُحْبَةَ قَوْمٍ كَالْمَصَابِيحِ ، كُلُّهُمْ ـ إِذَا هُزَّ لِلْخَطْبِ الْمُلِمِّ ـ حُسَامُ

إِذَا طَافَ بِالرَّاحِ الْمُدِيرُ عَلَيْهِمُ أَطَافَ بِهِ بِيضُ الْوُجُوهِ ، كِرَامُ

وَأَحْوَرُ سَاجِى الطَّرْفِ حَشْوُ جُفُونِهِ سَقَامٌ بَرَى الْأَجْسَامَ مِنْهُ سِقَامُ

تَخَالُ قَضِيبَ الْبَانِ ـ فِى طَىِّ بُرْدِهِ ـ إِذَا اهْتَزَّ مِنْهُ مَعْطِفٌ وَقَوَامُ

يُدِيرُ ـ عَلَى رَغْمِ الْعِدَا ـ مِنْ وِدَادِهِ سُلاَفًا ، كَأَنَّ الْمِسْكَ مِنْهُ خِتَامُ

فَمِنْ أَجْلِهِ أَدْعُو لِقُرْطُبَةِ الْمُنَى بِسُقْيَا ضَعِيفِ الطَّلِّ وَهُوَ رِهَامُ [1]

مَحَلٌّ غَنِينَا بِالتَّصَابِى خِلاَلَهُ فَأَسْعَدَنَا ، وَالْحَادِثَاتُ نِيَامُ

فَمَا لَحِقَتْ تِلْكَ اللَّيَالِى مَلاَمَةٌ ، وَلاَ ذُمَّ ـ مِنْ ذَاكَ الْحَبِيبِ ـ ذِمَامُ

غدر الحبيب

أَجِدُّ ، وَمَنْ أَهْوَاهُ ـ فِى الْحُبِّ ـ عَابِثُ وَأُوفِى لَهُ بِالْعَهْدِ ، إِذْ هُوَ نَاكِثُ

حَبِيبٌ نَأَى عَنِّى ـ مَعَ الْقُرْبِ وَالْأَسَى ـ مُقِيمٌ لَهُ ـ فِى مُضْمَرِ الْقَلْبِ ـ مَاكِثُ

جَفَانِى بِإِلْطَافِ الْعِدَا ، وَأَزَالَهُ ـ عَنِ الْوَصْلِ ـ رَأْىٌ فِى الْقَطِيعَةِ حَادِثُ

تَغَيَّرْتُ عَنْ عَهْدِى ، وَمَا زِلْتُ وَاثِقًا بِعَهْدِكَ ، لٰكِنْ غَيَّرَتْكَ الْحَوَادِثُ

وَمَا كُنْتُ ـ إِذْ مَلَّكْتُكَ الْقَلْبَ ـ عَالِمًا بِأَنِّىَ ـ عَنْ حَتْفِى ـ بِكَفِّىَ بَاحِثُ

فَدَيْتُكَ ، إِنَّ الشَّوْقَ لِى ـ مُذْ هَجَرْتَنِى ـ مُمِيتٌ فَهَلْ لِى ـ مِنْ وِصَالِكَ ـ بَاعِثُ ؟

---

(١) رهام ـ جمع رهمة ـ وهى المطر الضعيف الدائم

سَتَبْلَى اللَّيَالِي - وَالْوِدَادُ بِحَالِهِ - جَدِيدٌ ، وَتَفْنَى وَهْوَ لِلْأَرْضِ وَارِثُ
وَلَوْ أَنَّنِي أَقْسَمْتُ : أَنَّكَ قَاتِلِي وَأَنِّي مَقْتُولٌ ، لَمَا قِيلَ : « حَانِثُ . »

اصنع ماشئت

يَانَاسِياً لِي - عَلَى عِرْفَانِهِ - تَلَفِي ذِكْرُكَ مِنِّي بِالْأَنْفَاسِ مَوْصُولُ
وَقَاطِعاً صِلَتِي - مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبٍ - تَاللهِ : إِنَّكَ - عَنْ رُوحِي - لَمَسْئُولُ
مَاشِئْتَ فَاصْنَعْهُ ، كُلٌّ مِنْكَ مُحْتَمَلٌ ، وَالذَّنْبُ مُغْتَفَرٌ ، وَالْعُذْرُ مَقْبُولُ
لَوْ كُنْتَ حَظِّيَ ، لَمْ أَطْلُبْ بِهِ بَدَلاً ، أَوْ نِلْتُ مِنْكَ الرِّضَا ، لَمْ يَبْقَ مَأْمُولُ

أمنيـــة

يَا قَاطِعاً حَبْلَ وُدِّي وَوَاصِلاً حَبْلَ صَدِّي
وَسَالِياً ، لَيْسَ يَدْرِي بِطُولِ بَثِّي وَوَجْدِي
لَوْ كَانَ عِنْدَكَ مِنِّي مِثْلُ الَّذِي مِنْكَ عِنْدِي
لَبِتَّ - بَعْدِيَ - مِثْلِي ، وَبِتُّ - مِثْلَكَ - بَعْدِي

نفسي فداؤك

لَوْ تَرَكْنَا بِأَنْ نَعُودَكَ عُدْنَا وَقَضَيْنَا الَّذِي عَلَيْنَا وَزِدْنَا
غَيْرَ أَنَّ الْهَوَى اسْتَطَارَ حَدِيثاً ، فَانْتَحَتْنَا الْعُيُونُ لَمَّا حُسِدْنَا
فَلَوَ انَّ النُّفُوسَ تُقْبَلُ مِنَّا ، لَسَمَحْنَا بِهَا - فِدَاءً - وَجُدْنَا

دين الحب

يَا غَزَالاً جُمِعَتْ فِيـــهِ - مِنَ الْحُسْنِ - فُنُونُ
أَنْتَ فِي الْقُرْبِ وَفِي الْبُعْـــدِ - مِنَ النَّفْسِ - مَكِينُ
بِهَوَاكَ - الدَّهْرَ - أَلْهُو ، وَبِحُبِّيــــكَ ، أَدِينُ

مُنْيَةَ الصَّبِّ : أَغِثْنِي ، قَدْ دَنَتْ مِنِّي الْمَنُونُ
وَاحْفَظِ الْعَهْدَ ، فَإِنِّي لَسْتُ ـ وَاللّٰهِ ـ أَخُونُ
وَارْحَمَنْ صَبًّا شَجِيًّا قَدْ أَذَابَتْهُ الشُّجُونُ
لَيْلُهُ هَمٌّ وَغَمٌّ ، وَسَقَامٌ ، وَأَنِينُ
شَفَّهُ الْحُبُّ ، فَأَمْسَى ـ سَقَمًا ـ لاَ يَسْتَبِينُ
صَارَ ـ لِلأَشْوَاقِ ـ نَهْبًا ، فَنَبَتْ عَنْهُ الْعُيُونُ

وفاء

بَيْنِي وَ بَيْنَكَ مَالَوْ شِئْتَ لَمْ يَضِعِ سِرٌّ إِذَا ذَاعَتِ الأَسْرَارُ ـ لَمْ يَذِعِ
يَا بَائِعًا حَظَّهُ مِنِّي ، وَلَوْ بُذِلَتْ لِيَ الْحَيَاةُ ـ بِحَظِّي مِنْهُ ـ لَمْ أَبِعِ
يَكْفِيكَ أَنَّكَ ـ إِنْ حَمَّلْتَ قَلْبِي مَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ قُلُوبُ النَّاسِ ـ يَسْتَطِعِ
تِهْ أَحْتَمِلْ ، وَاسْتَطِلْ أَصْبِرْ ، وَعِزَّ أَهُنْ ، وَوَلِّ أُقْبِلْ ، وَقُلْ أَسْمَعْ ، وَمُرْ أُطِعِ

فى سبيل الهوى

قَدْ نَالَنِي مِنْكَ مَا حَسْبِي بِهِ وَكَفَى يَا مَنْ تَنَاهَيْتُ ـ فِى إِلْطَافِهِ فَجَفَا
عَلَّلْتَنِي بِالْمُنَى ـ حَتَّى إِذَا عَلِقَتْ بِالنَّفْسِ ـ لَمْ أُعْطَ مِنْ أَسْبَابِهَا طَرَفَا
غُيِّرْتَ عَنْ خُلُقٍ ـ قَدْ لاَنَ لِي زَمَنًا ـ لِينَ النَّسِيمِ ، فَلَمَّا لَذَّ لِي عَصَفَا
لاَ يَحْبَطَنْ عَمَلٌ ـ أَرْضَاكَ صَالِحُهُ ـ فَفِي سَبِيلِكَ أَنْفَقْتُ الْهَوَى سَرَفَا

صلة المحب

سِرِّي وَجَهْرِي أَنَّنِي هَائِمٌ ، قَامَ بِكَ الْعُذْرُ ، فَلاَ لاَئِمُ
لاَ يَنَمِ الْوَاشِي الَّذِي غَرَّنِي هَا أَنَا ـ فِى ظِلِّ الرِّضَى ـ نَائِمُ
عُدْتَ إِلَى الْوَصْلِ ـ كَمَا أَشْتَهِي ـ فَالْهَجْرُ بَاكٍ ، وَالرِّضَى بَاسِمُ

حَسْبِي ، أَنَا الْمَظْلُومُ - فِيمَا جَرَى ، وَإِنْ تَشَأْ قُلْتَ : «أَنَا الظَّالِمُ»
يَا سَائِلاً عَمَّا بِنَفْسِي لَهُ - تَجَنِّيًا - وَهْوَ بِهِ عَالِمُ
مَعْنَى الْهَوَى أَنْتَ وَشَخْصُ الْمُنَى ، دَعْنِي مِمَّا يَزْعُمُ الزَّاعِمُ

مقيم على العهد

عَذِيرِي مِنْ خَلِيلٍ يَسْتَطِيلُ يَمِيلُ - مَعَ الزَّمَانِ - كَمَا يَمِيلُ
وَيَرْضَى أَنْ تَضِيعَ سُدًى[1] حُقُوقِي ، وَبَاعِي فِي الْهَوَى بَاعٌ طَوِيلُ
أَشَمْسًا أَشْرَقَتْ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ ! أَمَالَكَ - فِي سِوَى قَلْبِي - أُفُولُ ؟
أَمَا يُمْحَى عِتَابُكَ كُلَّ يَوْمٍ ؟ أَمَا يُرْجَى - إِلَى وَصْلٍ - وُصُولُ ؟
وَلَوْ أَجِدُ السَّبِيلَ لَطِرْتُ وَجْدًا ، وَلٰكِنْ مَا إِلَى هٰذَا سَبِيلُ
كِتَابِي - عَنْ وِدَادِكَ - لَا يَزُولُ ، وَعَهْدِي - مِثْلَ عَهْدِكَ - لَا يَحُولُ

آلام المحب

يَا مُعْطِشِي - مِنْ وِصَالٍ كُنْتُ وَارِدَهُ - هَلْ مِنْكَ لِي غُلَّةٌ إِنْ صِحْتُ : «وَاعَطَشِي»
كَسَوْتَنِي - مِنْ ثِيَابِ السُّقْمِ أَسْبَغَهَا - ظُلْمًا - وَصَيَّرْتَ مِنْ لُحُفِ الضَّنَى فُرُشِي
إِنْ بَصُرْتُ الْهَوَى ، عَنْ مُقْلَةٍ كُحِلَتْ بِالسِّحْرِ مِنْكَ ، وَخَدٍّ بِالْجَمَالِ وُشِي
لَمَّا بَدَا الصُّدْغُ مُسْوَدًّا بِأَحْمَرِهِ أَرَى التَّسَالُمَ بَيْنَ الرُّومِ وَالْحَبَشِ
أَوْفَى إِلَى الْخَدِّ ، ثُمَّ انْصَاعَ مُنْعَطِفًا كَالْعَقْرُبَانِ انْثَنَى مِنْ خَوْفِ مُحْتَرِشِ
لَوْ شِئْتَ - زُرْتَ وَسِلْكُ النَّجْمِ مُنْتَظِمٌ ، وَالْأُفْقُ يَخْتَالُ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْغَبَشِ -
صَبًّا - إِذَا الْتَذَّتِ الْأَجْفَانُ طَعْمَ كَرًى جَفَا الْمَنَامَ ، وَصَاحَ اللَّيْلَ : «يَا قُرَشِي»
هٰذَا وَإِنْ تَلِفَتْ نَفْسِي ، فَلَا عَجَبٌ ، قَدْ كَانَ مَوْتِي - مِنْ تِلْكَ الْجُفُونِ - خُشِي

---

(١) وفى الأصل : « كذا » .

إلى المعتمـــد

أيُّهَا الظَّافِرُ لاَ زِلْـــتَ مَدَى الدُّنْيَا مُظَفَّرْ

(١) الأحاجى والألغاز والمعميات

افتن كثير من النظامين والكتاب فى طرق الالغاز والتعمية ليمتحنوا بها الذكاء والقـدرة على فك الطلاسم والمعميات ، ويزجوا بها أوقات فراغهـم الطويلة ، وهو عمل شاق مضن لا يقدم عليـه إلا من فرغ باله من مشكلات الحياة وجدها . وأكثر أنواعه تافه لا خطر له ، وسنلم بطائفة كبيرة منها . وثمة أنواع من التعمية تقوم عند الملوك والأمراء إلى ذلك العهد مقام الشفرة ، وتطيير الحمام الزاجل وما إلى ذلك من وسائل المخابرة السرية ، ومن يدرى ؟ فربما كان مادار بين (ابن زيدون) و (المعتمد) من هذا النوع لم يكن يقصـد به قتل الوقت والتسلية أو امتحان الذكاء فحسب ، وإنما كان يقصـد به فوق ذلك المران على بعض ضروب المخابرة السرية التى كانت تمس إليها حاجة الدولة ، ويستعملها أنصارها السياسيون للتعمية على غيرهم من خصومهم . وربما كان للتسلية وحدها وتزجية أوقات الفراغ الطويلة أيضا .

والطريقة التى تبعها المعتمد وابن زيدون هى إحدى هـذه الطرق العديدة ، ولم نعثر عليها — فيما قرأناه من كتب الألغاز على كثرتها — ولم تشر إليها المعاجم العربية ، ولـكننا استنتجناها من الأشعار التى دارت بينهما ، ومن قول « المقرى » صاحب « نفح الطيب » الذى عزز ما ذهبنا إليه .

وخلاصة هـذه الطريقة أن يطير أحد المتراسلين إلى الآخر بيتا شائعا فى قصـيدة أو بيتين ويرمز لـكل حرف من حروفهما باسم طائر بعينه .

قال المقرى :

« وكتب ابن زيدون إلى المعتمد :

« وافاك نظم لى فى طيه　　معنى معمى اللفظ مستور
مرامه يصعب ما لم يبح　　بالسر قمرى وشحرور . »

قال : « ثم ذكر أبياتاً ، فيها أسماء طيور ، عمى بها عن بيت طيره فيها ، والبيت المطير هو :

« أنت — إن تنز — ظافر　　فليطع من يناوى . »

ففكه « المعتمد » وجاوبه :

« جاءتنى الطير التى سرها　　نظم به قلبى مسرور » . اهـ .

وستمر بك هذه القصيدة فى « ص ٢٩٩ » من هذا الديوان .

ويؤيد هذا الاستنتاج قول المعتمد :

« أرسل طيور الشعر نحوى فقد　　بث فؤادى شرك الفهم . »

وقول ابن زيدون للمعتمد :

« وافاك للطير سرب　　لديه سر مكتم . »

ولا تكاد تخلو قصيدة — من هذا النوع — من ذكر الطيور كما يرى القارئ فى القصائد التالية ، وسنثبت القصيدة التى نحن بصددها فى الشرح ونتبعها بجدول نسرد فيه على الترتيب أسماء الطيور التى ذكرها فيها ، ونقرن كل طائر بحرف هجائه ليتسنى للقارئ استخراج البيت المطير بنفسه ، وهاهى الأبيات :

١ « فاسأل الشاهين ، والصقرين ، والعنقاء تخبر

أَنْتَ أَسْنَى ابْنٍ لِأَسْمَى وَالِدٍ فِي الدَّهْرِ فَافْخَرْ
إِنْ تُرِدْ شَرْحَ مُعَمًّى هُوَ فِي نَظْمِي مُضْمَرْ

ثم رال القفر ، والفـ ـياد ، والنسر المعمر
ثم بعـد الديك عد للـ ـسر ، والرال المقفر
ثم عـد للنسر والرا ل ، فكل قد تكرر
والحبارى ، والسمانى والشـقراق المحبر
ثم سائل بعـدها البا زى — إن حل فصرصر
معـه الطاوس والديـ ـك إذا بالصبح بشر
تـلوه القمرى مهما ردد السـجع فقرقر
ثم ناد الهيق والرأ ل ، لعل السر يظهر
وتعيف ما لدى القبـ ـجين من خاف سيظهر
ثم عـد للنسر والرا ل،هما — فى الأمر — أكثر
وارجر المقعق حق الرجـ ـر ، إن الطير يزجر
وليـل الرأل سمانى وشـقراق تأخر . »

فليس فيها إلا أسماء طيور بعينها ترمز إلى حروف بعينها ، ونحن نبينها للقارئ لتكون نموذجا — لمن يعنيه حل أمثال هذه المعميات ، والبيت المعمى الذى يستخرج من هذه الأبيات هو :

« صدق لنا فال السمه تظاهر على الكامه . »

وأنت إذا تتبعت ما فيها من أسماء الطيور تجد أن كل طائر فى مقابلة حرف من حروف هجاء البيت ونحن نضع حروف البيت وأمام كل حرف طائره الذى يدل عليـه فى الجدول الآتى ليتبين للقارئ طريقة الحل ، وهذا هو الجدول :

الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
ص	شاهين	ا	نسر	ع	هيق
د	صقرين	ل	رأل	ل	رأل
ق	عنقاء	س	حبارى	ى	قبجين
ل	رأل	م	سمانى	ا	نسر
ن	فياد	هـ	شقراق	ل	رأل
ا	نسر	ت	بازى	ك	عقعق
ف	ديك	ظ	طاوس	ل	رأل
ا	نسر	ف	ديك	م	سمانى
ل	رأل	ر	قمرى	هـ	شقراق

فَاسْأَلِ ـ الشَّاهِينَ ، وَالصَّقْرَيْنِ ، وَالْعَنْقَاءَ ـ تُخْبَرْ
ثُمَّ رَالَ الْقَفْرِ ، وَالْفَيَّادَ ، وَالنَّسْرَ الْمُعَمَّرْ

وإلى القارئ معانى هذه الكلمات :

الشاهين : ضرب من الصقور أكدر أبث أى رمادى اللون .

العنقاء : طائر خرافى لاوجود له إلا فى شعر الشعراء .

رأل : ولد النعام ، وسيمر بك فى « ص ٢٨٤ »

الفياد : ذكر البوم .

نسر : النسر طائر عظيم من جوارح الطير سمى بذلك لأنه ينسر الشىء ويقتلعه ويقتنصه والكثير الريش منه يسمى العداف .

ديك ـ الديك : ذكر الدجاج .

رال : ولد النعام .

حبارى ـ الحبارى : طائر فى حجم الديك الهندى كثيرة الريش ، ومنها بيضاء وكدراء .

سمانى : طائر معروف فوق العصفور ، ويجمع على سمانيات .

قالوا : وهو يعوص فى البحر بأحد جناحيه ويقيم الآخر كالقلع للسفينة ، فتدفعه الريح إلى ساحل البحر . وكثيراً ما يوجد ببلاد السواحل ، وله صوت حسن ومن شأنه أنه يسكت فى الشتاء ، فاذا أقبل الربيع صاح .

شقراق : طائر صغير بقدر الحمام أخضر مشبع الخضرة ، حسن المنظر ، فى جناحيه سواد وعده الجاحظ نوعا من الغربان . يألف الروابى ورءوس الجبال . وله مشتى ومصيف ، قال الجاحظ وهو كثير الاستغاثة ، إذا مر به طائر ضربه بجناحيه وهاج كأنه هو المضروب .

بازى ـ البازى : من الصقور الأزرق الأحوى ، والأرقط القصير الجناحين الغليظ .

طاوس : طائر فى نحو قدر الاوزة ، حسن اللون ، والذكر منه غاية فى الحسن له فى رأسه ذؤابة قائمة كالشربوش ، وفى ذنبه ريش أخضر طويل فى أحسن منظر ، وليس للأنثى مثل ذلك وفى طبعه الزهو بنفسه والاعجاب بريشه ، وفى الخريف يلقى ريشه كما يلقى الشجر ورقه ، فاذا بدا طلوع أوراق الأشجار طلع ريشه .

قمرى سيمر بك فى « ص ٣٠٤ »

هيق : ذكر النعام ، قال أبو العلاء على لسان جنى فى رسالة الغفران :

« وأركب الهيق ـ فى الظلماء ـ معتسفا أو لا ، فذب رياد بات مغرورا . »

قبجين : مثنى قبج وهو الكروان وسيمر بك فى « ص ٣٠٤ »

عقعق ـ العقعق طائر كالغراب ضخم طويل المنقار يحجل حجلانا ، وهو يدجن ولونه أبلق ببياض وسواد .

شقراق ـ الشقراق : طائر مرقط بخضرة وحمرة وبياض ويكون بأرض الحرم .

أصل اشتقاق اللغز

وأصل اشتقاق اللغز - كما يروى النويرى - من ألغز اليربوع ولغز ، إذا حفر لنفسه مستقيما ثم أخذ يمنة ويسرة ليوارى بذلك ويعمى على طالبه .

وللغز أسماء ، فمنها : المعاياة ، والعويص ، والرمز ، والمحاجاة ، وأبيات المعانى ، والملاحن ، والمرموس ، والتأويل ، والكناية ، والتعريض ، والاشارة ، والتوجيه ، والمعمى ، والممثل ، ومعنى الجميع واحد ، واختلافها بحسب اختلاف وجوه اعتباراته .

فانك إذا اعتبرته من حيث إن واضعه كأنه يعاييك - أى يظهر إعياءك وهو التعب - سميته : «معاياة»

وإذا اعتبرته - من حيث صعوبة فهمه واعتياص استخراجه - سميته : « عويصاً . »

وإذا اعتبرته - من حيث إنه قد عمل على وجوه وأبواب - سميته : « لغزا . » وفعلك له : « إلغازاً . »

وإذا اعتبرته - من حيث إن واضعه لم يفصح عنه - قلت : « رمز » وقريب منه الاشارة .

وإذا اعتبرته - من حيث إن غيرك حاجاك - أى استخرج مقدار عقلك - سميته : « محاجاة . »

وإذا اعتبرته - من حيث إنه استخرج كثرة معانيه - سميته : « أبيات المعانى . »

وإذا اعتبرته - من حيث إن قائله قد يوهمك شيئاً ويريد غيره - سميته : «لحنا» وسميت فعلك : «الملاحن»

وإذا اعتبرته - من حيث إنه ستر عنك ورمس - فهو « المرموس » ، والرمس القبر .

وإذا اعتبرته - من حيث أن معناه يؤول إليك - سميته : « مؤولا . » وسميت فعلك : «تأويلا.»

وإذا اعتبرته - من حيث إن صاحبه لم يصرح بغرضه - سميته « تعريضاً » ، و « كناية . »

وإذا اعتبرته - من حيث إنه ذو وجوه - سميته : « الموجه » وسميت فعلك : « التوجيه . »

وإذا اعتبرته - من حيث إنه معطى عليك - سميته : « معمى . »

طرق التعمية

ومن ضروب التعمية - ما ذكره القلقشندى - وهو أن يصطلح الانسان على إبدال حرف معين بحرف آخر معين - حيث وقع فى القلم المعروف بالمعمى - وهو أن جعلوا مكان كل حرف من حروف العربية حرفاً آخر من حروفها ، فجعلوا الكاف ميما وبالعكس ، والألف واوا وبالعكس ، والدال راء وبالعكس ، والسين عيناً وبالعكس ، والفاء ياء وبالعكس .

فيكتب « محمد » « كطكر » ، و « على » « سهف » ، و « مسعود » « كسار » وقس على ذلك .

وقد نظم بعضهم ذلك في بيت واحد ذكر فيه كل حرف تلو ما يبدل به ، وهو :

« كم أو حط صلاله درسع فى بز خش عض ثج تدقق . »

ومنهم من يعكس حروف الكلمة، فيكتب « محمد » « دمحم » ، و « على » «يلع » . ومنهم من يبدل الحرف الأول من الكلمة بثانيه مطلقا فى سائر الكلام ، فيكتب : « محمد أخو على » : حمدم خاوعل » .

إلى غير ذلك من التمييزات

ومنهم من يبدل الحروف بأعدادها فى الجمل فيكتب « محمد » « ٤٠ و ٨ و ٤٠ و ٤ » وتعمل التعمية صفة محاسبة .

ومنهم من يكتب ـ عوض عدد الحروف ـ حروفا ، وهو أبلغ فى التعمية ، فيكتب « محمد » « لى ، بو ، لى ، اج » لأن اللام والياء بأربعين ، وهى عدد ماللميم الأولى ، والباء والواو بثمانية ، وهى عدد ماللحاء ، واللام والياء أيضا بأربعين ، وهى عدد ما للميم الثانية ، والألف والجيم بأربعة وهى عدد ما للدال ، فكأنه قال : « م ح م د . »

وإن شاء أتى بغير هذه الحروف مما يتضمن غير هذه الأعداد .

ومنهم من يجعل لكل حرف اسم رجل أو غيره . ومنهم من يضع الحروف على منازل القمر الثمانية والعشرين ، على ترتيبها على حروف « أبجد » :

فيجعل الألف للشرطين ، والباء للبطين ، والجيم للثريا ، وهكذا إلى آخرها : فيكون بطن الحوت للغين من « ضظغ » .

وربما اصطلح على الترتيب على أسماء البلدان أو الفواكه أو الأشجار ، أو غير ذلك ، أو صور الطير وغيره من الحيوانات ، إلى غير ذلك من ضروب التعامى التى لا يأخذها حصر .

وأكثر أهل هذا الفن على أن يرسم الحروف أشكالا يخترعها قلما له مقطعة على ترتيب حروف المعجم ، والطريق فى ذلك أن يثبت حروف المعجم ، ثم يرتب تحت كل واحد شكلا لايماثل الآخر ، فكلما جاءه فى اللفظ ذلك الحرف كتبه بحيث لايقع عليه غلط . ثم يفصل بين كل كلمتين ، إما بخط أو بنقط ، أو بياض ، أو دائرة ، أو غير ذلك .

وأكثر المتقدمين يجعلون الحرف المشدد بحرفين ، والمتأخرون يجعلونه حرفا واحدا .

وقد ذكر القلقشندى ـ فى ذلك ـ فصلا طويلا فى الجزء التاسع من صبح الأعشى ، فليرجع إليه القارئ « من ص ٢٢٩ إلى ٢٤٩ » إذا شاء .

أمثلة من التعمية

ومن الأمثلة التى ذكرها النويرى قول الحكيم أمير الدولة ـ المعروف بابن التلميذ ـ ملغزا فى الميزان :

« ما واحد مختلف الأسماء   يعدل فى الأرض وفى السماء

يحكم بالقسط بلا رياء   أعمى يرى الرشاد كل رائى

أخرس ـ لا من علة وداء ـ   يغنى عن التصريح بالايماء

يجيب ـ إن ناداه ذوامتراء ـ   بالرفع والخفض عن النداء

يفصح إن علق فى الهواء . »

فهو بقوله : « مختلف الأسماء » يعنى : « ميزان » الشمس ، والاصطرلاب ، وسائر آلات الرصد » وهو معنى قوله : « يحكم فى السماء » . وميزان الكلام : « النحو » وميزان الشعر : «العروض» وميزان المعانى : « المنطق » وهذه الميزان والذراع والمكيال .

وقول آخر فى الميزان :

« ما تقولون : فيما نزل من السماء ، وعلق فى الهواء ، له عين عمياء ، وكف شلاء ، ليس له ـ إن عدل ـ

ثواب ، ولا عليه — إن جار — عقاب . خلق من ثلاثة أجناس ، تصعصعه الأنفاس . جسمه عار من غير لباس ، أخرس اللسان ، فى أذنه خرصان ، مكرر الذكر فى القرآن ، ينطوى — إذا نام — كالصل ، وفعله المستقبل معتل ، وله فى الآخرة أكبر محل . »

وقول ابن الرومى فى فتيلة السراج :

« ماجية فى رأسها درة تسبح فى بحر قليل المدى ؟
إن غيبت كان العمى حاضراً وإن بدت لاح طريق الهدى ! »

وقول السرى الرفاء فى شبكة الصياد :

« وكثيرة الأحداق ، إلا أنها عمياء ، ما لم تنغمس فى ماء
وإذا هى انغمست أفادت ربها ما لا ينال بأعين البصراء . »

وقول آخر فى النوم :

« وحامل يحملنى وما له شخص يرى !
إذا حصلت فوقه وهو لذيذ الممتطى
سريت لا أدرى أفى أرض سريت ؟ أم سما ؟ »

وقول المعرى فى ركابى السرج :

« خليلان نيطا فى جوانب مجلس حداراه قدام له ووراء
متى يصح الرحليين ماش عليهما يزل عنه — فى وشك — حفا وحفاء . »

قوله : « خليلان » لتشابههما ، والمجلس : « السرج » ، وحداراه : « قربوسه » و « رادفته » والحفا مقصور : « وجع الرحل » وممدود ، من مشى الرحل حافياً بغير نعل .

وقوله فى الملح :

« وبيضاء — من سر الملاح — ملكتها فلما قضت إربى حبوت بها صحبى
فباتوا بها مستمتعين ، ولم تزل تخمهم — بعد الطعام — على الشرب . »

قوله : سر أى : « خالصة » والملاح : جمع ملح ، والارب : الحاجة . وقول آخر فى الحرب .

« ما ذات شوك لها جناح يختطف الناس عن قريب
وهى عقيم ، ترى بنيها من بين مرد ، وبين شيب
يأكل بعض البنين بعضاً طلوع شمس إلى غروب
تصحيفها الداء — غير شك — قد يحسم الداء بالطبيب
والداء معكوسه مكان يصلح للطائر النجيب
يعرفها من يكون طبا بالشعر والنحو والغريب . »

فهذا لغز معمى فى الحرب ، وشوكها : « السلاح » ، وجناحاها : « جاباها » ، وعقم لأنها لا تلد ، وبنوها : « رجالها . » وأكلهم : « قتالهم . » ، وتصحيفها : « الجرب » وعكسه : « برج »

وقول آخر فى الثدى :

« وما أخوان مشتبهان جدا كما اشتبه الغرابة والغراب

يصـــمهما على مر الليالى ـ وماالحتمما ، ولا افترقا ـ إهاب
لذاك وذا ، دموع هاملات ، ولـكن كل دمعهما شراب
يصونهما عن الأبصار ـ دين ويضرب ـ دون نيلهما ـ حجاب .»

وهما ثديا المرأة ، ويضمهما إهاب ، وهو : « الجلد »

وقول آخر فى الفح :

« وما ميت كفنته ودفنته مقام إلى حى صحيح فأوثقه . »

وقول آخر فى الصدى :

« وساكن يسكن فى الفلاة ليس من الوحش ولا النبات
ولا من الجن ، ولا الحيات ، ولا الحيام الشـــعر والأبيات
ولا بذى جسم ولا حياة كلا ، ولا يدرك بالصـفات
بلى ، له صوت من الأصوات يسمع فى الأحيان والأوقات .»

وقد ذكر النويرى أمثلة كثيرة من هذه الأنواع وأشباهها ، ثم قال :

مسائل العويص

ومما يتصل بهذا الباب مسائل العويص .

فمن ذلك قولهم :

« امرأتان التقتا برجلين ، قالتا لهما : «مرحبا بابنينا وزوجينا ، وابنى زوجينا . »

وذلك أن كل واحد منهما تزوّج بأم الآخر ، فهما ابناهما وزوجاهما وابنا زوجيهما »

وقولهم :

« رجلان كل واحد منهما عم الآخر وابن أخيه . »

وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوّج بأم الآخر ، فرزق كل واحد منهما ولدا ، فـكل من الولدين عم الآخر وابن أخيه .

وقولهم :

« رجلان، كل واحد منهما خال الآخر وابن أخته »

وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوّج بابنة الآخر ، ورزق كل واحد منهما ولدا ، فـكل من ولديهما خال الآخر وابن اخته .

وقولهم :

« رجل وامرأتان ، هو خال إحداهما وهى خالته ، وعم الأخرى وهى عمته . »

وذلك : أن جدته أم أبيه تزوجت بأخيه لأمه ، وأخته لأبيه تزوجت بأب أمه ، فولدتا بنتين ، فبنت أخته خالته ، وهو خالها ، وبنت جدته عمته وهو عمها .

وهذا أصل الأبيات المنظومة فى ذلك :

« ولى خالة وأنا خالها ، ولى عمة وأنا عمها . »

وقوله :

« رجلان كل واحد منهما ابن خال الآخر وابن عمته »

وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بأخت الآخر ، ورزق كل منهما ولدا ، فكل من ولديهما ابن خال الآخر وابن عمته .

وقوله :

« رجلان كل واحد منهما عم والد الآخر . »

وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوّج بأم أب الآخر ، فكل من أولادهما عم أب الآخر . »

وقوله :

« رجلان كل واحد منهما عم أم الآخر . »

وذلك : أن كل واحد من أبويهما تزوج بابنة ابن الآخر ، فكل من أولادها عم أم الآخر .

وقوله :

« رجلان ، كل واحد منهما خال أم الآخر . »

وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بابنة بنت الآخر فكل من أولادهما خال أم الآخر .

وقوله :

« رجلان أحدهما عم الآخر ، والآخر خاله » وذلك أن رجلين تزوج أحدهما امرأة ، وتزوج الآخر ابنة ابنها ، وولد لكل منهما ولد فإن الأب عم ابن الابن ، وابن الابن من أم امرأة الأب هو أخوها وخال ابنها .

وقوله :

« رجلان ، أحدهما عم الآخر وخاله ، والآخر ابن أخيه وابن أخته »

وذلك : أن رجلا له أخ لأب ، وأخت لأم ، فزوج أخاه لأبيه ، بأخته لأمه ، فأولدها ولدا ، فهما كذلك .

وقد طلب الهمدانى من الخوارزمى — أثناء مناظرته المشهورة — أن يكتب كتابا خاليا من الحروف العواطل ، وآخر أوائل سطوره كلها ميم وآخرها كلها حم الخ » فسمى الخوارزمى ذلك شعبذة . وصدق فى تسميته كل الصدق .

وما أجدر هذا الوصف بأمثال هذه الألاعيب الكلامية .

ألغاز الحريرى

ومن ألغاز الحريرى الذى اقتفى أثر الخوارزمى فى مقاماته قوله فى المقامة الفرضية — وهى مقامته الخامسة عشرة :

« أيها العالم الفقيه الذى فا ق ذكاء ، فماله من شبيه
أفتنا فى قضية ، حاد عنها كل قاض ، وحار كل فقيه :
رجل مات عن أخ مسلم حرّ تقى من أمه وأبيـــه
وله زوجة ، لها — أيها الحبــر أخ خالص بلا تمـــويه
فحوت فرضها ، وحاز أخوها ما تبقى بالإرث دون أخيه
فأشفنا بالجواب عما سألنا فهو نص ، لا خلف يوجد فيه . »

ثم حل هذا اللغز بقوله :

« قل لمن يلغز المسائل : إني كاشف سرّها الذى تخفيه
إن ذا الميت الذى قدم الشر ع أخا عرسه عن ابن أبيه

تَلُوهُ القُمْرِىُّ مَهْمَا رَدَّدَ السَّجْعَ فَقَرْقَرْ

رجل زوج ابنه — عن رضاه — بحماة له ، ولا غرو فيه
ثم مات ابنه ، وقد علقت منـــه ، فجاءت بابن يسر ذويه
فهو ابن ابنه — بغير مراء — وأخو عرســـه ، بلا تمويه
وابن الابن الصريح أدنى إلى الجـــد ، وأولى بارثه من أخيه
فلذا — حين مات — أوجب للزو جة ، ثمن التراث تستوفيه
وحوى ابن ابنه الذى هو فى الأصل أخوها — من أمها باقيـه
وتخلى الأخ الشـفيق ، من الار ث ، وقلنا : يكفيك أن تبكيه
هاك من الفتيا التى يحتذيها كل قاض يقضى ، وكل فقيه .»

المقامة الشتوية

وقوله فى المقامة الشتوية .

«عندى أعاجيب أرويها ـ بلا كذب عن العيان ـ فكنونى : أبا العجب
رأيت يا قوم ، أقواما عداؤهم بول العجوز ، وما أعنى ابنة العنب.»

« بول العجوز » لبن البقرة ، والعجوز أيضاً من أسماء الخمر .

« ومستتين من الأعراب قوتهـم أن يشتووا حرقة تمى من السغب.»

« الحرقة » القطعة من الجراد .

« وقادرين — متى ما ساء صنعهم ، أوقصروا فيه — قالوا : الذنب للحطب.»

« القادر » الطابخ فى القدر والقدير المطبوخ فيها .

« وكاتبين وما خطت أناملهم حرفا ولا قرؤا ما خط فى الـكتب .»

« الـكاتبون » الخارزون يقال كتب السقاء والمزادة إذا خرزهما وكتب البغلة أو الناقة إذا جمع شفريها وخاطهما . قال الشاعر :

« لا تأمنن فزاريا خلوت به على قلوصك واكتبها بأسيار .»

« وتابعين عقابا فى مســـيرهم على تكميهم فى البيض واليلب . »

« العقاب » الراية وكانت راية النبىّ صلى الله عليه وسلم تسمى العقاب .

« ومنتدين ذوى نـبـل بدت لهـم نبيلة فانثنوا منها إلى الهرب . »

« النبيلة » الجيفة ومنه نبل البعير إذا مات وأروح يعنى نتن .

« وعصبة لم تر البيت العتيق وقد حجت جثيا بلا شكّ على الركب . »

معنى « حجت جثيا » أى غلبت بالحجة مجادلين جاثين على الركب وجثى جمع جاث .

« ونسوة بعـد ما أدلجن من حلب صبحن كاظمة من غير ما تعب . »

« كاظمة » فى هذا الموضع من كظم الغيظ .

« ومدلجين سروا من أرض كاظمة فأصبحوا حين لاح الصبح فى حلب .»

« فى حلب » أى أصبحوا يحلبون اللبن .

« وبادماً لم يلامس قط غانيـــة شاهدته وله نسل من العقب . »

« النسل » ههنا العدو . قال تعالى : — وهم من كل حدب ينسلون — « والعقب » مؤخر القدم

ثُمَّ نَادِ الْهَيَقَ وَالرَّا لَ ، لَعَلَّ السِّرَّ يَظْهَرْ

« وشائبا غير مخف للمشيب بدا في البدو وهو فتى السن لم يشب . »

« الشائب » ههنا مازج اللبن و « المشيب » اللبن الممزوج ويقال فيه مشيب ومشوب .

« ومرصعاً بلبات لم يفه فمه رأيته في شجار بين السبب . »

« الشجار » المحفة مالم تكن مظللة ، فان ظللت فهو الهودج ، والسبب ههنا الحبل ، ومنه قوله تعالى — فليمدد بسبب إلى السماء —

« وزارعا ذرة حتى إذا حصدت صارت غبيراء يهواها أخو الطرب . »

« الغبيراء » السكر المتخذ من الذرة يسمى أيضا السكركة ، وفي الحديث : إياكم والغبيراء فانها خمر العالم .

« وراكباً وهو مغلول على فرس قد غل أيضا ومايغلك من خبب . »

« المغلول » ههنا العطشان ، وغل أي عطش .

« وذا يد طلق يقتاد راحلة مستعجلا وهو مأسور أخو كرب . »

« المأسور » الذي يجد الأسر وهو احتباس البول .

وجالسا ماشيا تهوى مطيته به ، وما في الذي أوردت من ريب . »

« الجالس » الآتي نجداً والماشي الذي كثرت ماشيته ، وعليه فسر بعضهم قوله تعالى — أن امشوا كأنه دعاء لهم بكثرة الماشية والنماء والبركة .

« وحائكا أحدم الكفين ذا حرس فان عجبتم فكم في الخلق من عجب . »

« الحائك » ههنا الذي إذا مشى حرك منكبيه وفحج بين ركبتيه .

وذا شطاط — كصدر الرمح قامته — صادفته يتشكى من الحدب . »

« الحدب » ما ارتفع من الأرض .

« وساعيا في مسرات الأنام يرى إفراحهم مأثما ، كالظلم والكذب . »

« إفراحهم » إثقالهم بالدين ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « لايترك في الاسلام مفرح أي مثقل من الدين أو يقضى عنه دينه » .

« ومغرما بمناجاة الرجال له وماله في حديث الخلق من أرب . »

« الخلق » ههنا الكذب ، ومنه قوله تعالى — إن هذا إلا خلق الأولين .

« وذا ذمام وفت بالعهد ذمته ولاذمام له في مذهب العرب . »

« الذمام » الثاني جمع ذمة ، وهي البئر القليلة الماء وعنى بالمذهب المسلك أي ماله آبار قليلة الماء في البدو .

« وذا قوى ماستبانت قط لينته ولينه مستبين غير محتجب . »

« اللين » نخيل الدقل ، ومنه قوله تعالى — ما قطعتم من لينة —

« وساجداً فوق فحل غير مكترث بما أتى ، بل يراه أفضل القرب . »

« الفحل » الحصير المتخذ من فحال النخل .

« وعاذرا مؤلما من ظل يعذره مع التلطف — والمعذور في صخب . »

« العاذر » الخاتن « والمعذور » المختون .

« وبلدة ما بها ماء لمغترف ، والماء يجري عليها جرى منسرب . »

وَتعَيَّفْ مَا لَدَى الْقَبْـــجَيْنِ مِنْ خَافٍ سَيَظْهَرْ

« البلدة » الفرحة بين الحاجبين وتسمى أيضاً البلجة .

« وقرية ـ دون أفحوص القطا ـ شحنت بديلم عيشهم من خلسة السلب . »

« القرية » بيت النمل « والديلم » النمل الكثير « وخلسة السلب » لحاء الشجر .

« وكوكباً يتوارى عند رؤيته الانسان حتى يرى فى أسمع الحجب . »

« الكوكب » النكتة البيضاء التى تحدث فى العين « والانسان » ههنا إنسان العين .

« وروثة قومت مالا ـ له خطر ـ ونفس صاحبها بالمال لم تطب . »

« الروثة » مقدم الأنف .

وصحفة من نضار خالص ، شربت ـ بعد المكاس ـ بقيراط من الذهب . »

« النضار » هاهنا شجر النبع ، ومنه قول بعض التابعين : « لا بأس أن يشرب فى قدح النضار » عنى به هذا .

« ومستجيشاً بخشخاش ليدفع ما أظله من أعاديه فلم يجب . »

« الخشخاش » الجماعة عليهم دروع وأسلحة .

« وطالما مر بى كلب وفى فمه ثور ، ولكنه ثور بلا ذنب . »

« الثور » القطعة من الاقط (وهو نوع من الجبن)

« وكم رأى ناظرى فيلا على جمل وقد تورك فوق الرحل والقتب . »

« الفيل » الرجل الفائل الرأى .

« وكم لقيت ـ بعرض البيد ـ مشتكيا وما اشتكى قط فى جد ولا لعب . »

« المشتكى » المتخذ شكوة وهى القربة الصغيرة .

« وكنت أبصرت كراراً لراعية ـ الدو ـ ينظر من عينين كالشهب . »

« الكرار » كبش يحمل عليه الراعي أداته .

وكم رأت مقلتى عينين ـ ماؤهما يجرى من الغرب ـ والعينان فى حلب . »

« الغرب » مجرى الدمع « والعينان » المقلتان .

« وصادعاً بالقنا من غير أن عاقت كفاه يوماً برمح لا ولم يثب . »

« القنا » ارتفاع الأنف وتحدب وسطه « وصدع به » أى كشفه .

« وكم نزلت بأرض ـ لا نخيل بها ـ وبعد يوم رأيت البسر فى القلب . »

« البسر » جمع بسرة وهو الماء الحديث العهد بالمطر « والقلب » جمع قليب .

« وكم رأيت ـ بأقطار الفلا ـ طبقا يطير فى الجو منصباً إلى صبب . »

« الطبق » القطعة من الجراد .

« وكم مشايخ ـ فى الدنيا ـ رأيتهم مخلدين ، ومن ينجو من العطب ؟ »

« المخلد » الذى أبطأ شيبه .

« وكم بدا لى وحش ـ يشتكى سغبا ـ بمنطق ذلق أمضى من القضب . »

« الوحش » الرجل الجائع .

« وكم دعانى مستنج لحادثنى وما أخلـ ـ ولا أخلت ـ بالأدب . »

ثُمَّ عُدْ لِلنَّشْرِ وَالرَّا لِ هُمَا ـ فِى الأَمْرِ ـ أَكْثَرْ

« المستنحى » الجالس على نحوة وهو المكان المرتفع .

« وكم أنخت قلوصى ـ تحت جبذة ـ تطلّ ماشئت من عجم ومن عرب . »

« الجنبذة » القبة « والعرب » جمع عروب وهى المتحببة إلى زوجها من قوله تعالى ـ عرباً أتراباً ـ

وكم نظرت إلى من سرّ ساعته ودمعه مستهل القطر كالسحب . »

« سرّ » أى قطع سرره ويسمى ما يبقى بعد القطع السرة .

« وكم رأيت قميصاً ضرّ صاحبه حتى اشتكى واهى الأعضاء والعصب . »

« القميص » الدابة الكثيرة القموص وهو الوثوب والقفز .

« وكم إزار لو أن الدهر أتلفه لحفّ لبد حثيث السير مضطرب . »

« الازار » المرأة ، ومنه قول الشاعر : * فدى لك من أخى ثقة إزارى *

ثم يقول فى ختام قصيدته :

« هذا وكم من أفانين محجبة عندى ، ومن ملح تلهى ومن نخب
فان نظمتم لاحى القول بان لكم صدق ودلكم ظامى على رطب
وإن شدهتم ، فان العار ـ فيه ـ على من لا يميز بين النبع والغرب . »

المقامة النحرابية

وقوله ـ فى المقامة النحرابية ـ فى مروحة الخيش ، وهى ثياب خشنة من الكتان تستعمل فى العراق تكون شبه شراع السفينة ، تعلق فى سقف البيت ، ويعمل لها حبل منها ـ تجر به ـ وتبل بالماء ، وترش بماء الورد ، إذا أراد الرجل النوم ، جذب حبلها ، فيهب منها نسيم بارد طيب يذهب أذى الحر ، ويستطاب معها النوم ، وقد ألغز فيها الحريرى بقوله :

« وجارية فى سيرها ـ مشمعلة ولكن ـ على إثر المسير ـ قفولها
لها سائق ـ من جنسها ـ يستحثها على أنه ـ فى الاحتثاث ـ رسيلها
ترى ـ فى أوان القيظ ـ تنطف بالندى ، وتبدو ـ إذا ولى المصيف ـ قفولها . »

وقوله ملغزا فى حابول النخل ، وهو الحبل الذى يصعد به النخل ، ويتخذ من اللحاء أى ليف النخل .

« ومنتسب إلى أم تنشأ أصله منها
يعانقها ، وقد كانت بمته ـ برهة ـ عنها
به يتوصل الجانى ، ولا يلحى ، ولا ينهى . »

وقوله ـ ملغزا فى القلم : ـ

« ومأموم ، به عرف الامام كما باهت بصحبته الكرام
له ـ إذ يرتوى ـ طيشان صاد ، ويسكن حين يعروه الأوام
ويذرى ـ حين يستسقى ـ دموعا يرق ، كما يروق الابتسام . »

وقوله ملغزا فى المرود الذى يكتحل به :

« وما ناكح أختين جهراً وخفية ، وليس عليه ـ فى النكاح ـ سبيل ؟
متى يغش هذى يغش ـ فى الحال ـ هذه ، وإن مال بعل لم تجده يميل

وقوله ــ ملغزاً فى الدولاب : ـــ

«وجاف ، وهو موصول وصـول ليس بالجافى
غريق بارز ، فاعجب له ، من راسب طافى
يسح دموع مهضوم وهضم هضم متلاف
وتخفى منـه حدته ولـكن قلبه صافى . »

إلى آخر هذه الألغاز التى تراها فى هذه المقامة .

المقامة الملطية

وانظر قوله ــ فى مقامته الملطية :

«يامن ــ إذا ــ أشكل المعمى جلتـه أفكاره الطليقه
إن قال يوما لك المحاجى : «خذ تلك» ماثله حقيقه.»

وهو يعنى بذلك كلمة : « هاتيك » وها للتنبيه وبمعنى خذ ، وتيك أى تلك .

وقوله : ماذا مثال قولهم : « حمار وحش ربنا . »

يعنى كلمة « فرازين » والفرا حمار الوحش .

وقوله : ما مثل قولك للذى حاجاك : « أنفق تقمع »

يعنى كلمة « منتقم » من : الأمر من مان يمون ، تقم مضارع وقم ، من الوقم وهو الاذلال .

وقوله : مامثل قولك للذى أضحى يحاجى : « فط ملـكى »

ومثله : «صنبور » صن الأمر من الصون ، والبور : الهلـكى

وقوله : ماذا يماثل قولى : « استنشق ريح مدامه »

ومثله : « رحراح » رح استنشق الرائحة ، والراح : الخمر .

وقوله : « سار بالليل مدة » أى شىء مثاله ؟

ومثله : « سراحين » سرى سار ليلا ، وحين : مدة .

وقوله : لك البيان ، فبين ، ماذا مثل : «أحبب مروقه »

ومثله : « مقلاع » من : الأمر من ومق : أى أحب ، والقلاع : الجبان .

وقوله : مامثل قولك « أعط انــ ـريقا يلوح بغير عروة »

ومثله : « أسكوب » أس : الأمر من الأوس ، وهو الاعطاء ، والـكوب : الابريق بغير عروة

وقوله : ما مثل قولك للمحا جى ذى الذكاء : « الثور ملـكى »

ومثله « اللالى » واللأى : ثور الوحش .

وقوله : ماذا مثال : « صفير حفلة » بينه تدياناً يتم به .

ومثله « مكاشفة » والمكاء : الصفير .

وقوله « ماذا يماثل قولى : جوع أمد بزاد ؟ »

يعنى « طوامير » ، طوى : جوع ومير : من ماره الطعام ، وهو مثل قوله : أمد بزاد .

وقوله : ما مثل قول المحاجى : «وطهر أصابته عين ؟ »

يعنى : « مطاعين » جمع مطعون ، ومطا مثل ظهر ، وعين ــ من عانه أى أصابه بالعين .

وَلْيَلِ الرَّالَ سُمَانَى وَشِـــقِرَّاقٌ تَأَخَّرْ

وقوله :ما مثل قولك للدى حاحيت : صادف جائزه ؟ »

ومثله « الفاصــلة » وهى الحائلة بين الشيئين صد الواصــلة وكله ألى مثل صادف وتكتب بالياء إذا انفردت ، وصلة : جائزة أو عطية .

وقوله : ألا اكشف لى مامثل : « تناول ألف دينار »

ومثله : « هادية » تأنيث الهادى ، والعنق أيضا ، ومعنى ها : خد وتناول ، وديه هي ما يعطى لأهل القتيل ، وهى من الذهب ألف دينار . »

وقوله : مامثل : « أهمل حلية » بين هـ-يت ــ وعمل .

ومثله : « الماشــية » وهى اسم لمن يمشى الرحل من الأصياف ، وحاشية السرج ما يغطى به ومعنى الفى أعطل وشية : حلية »

وقوله : مامثل قولك ــ للدى أضحى يحاجيك : « اكفف اكفف . »

ومثله : « مهمه » وهو الصحراء ، ومعنى مه : اكفف وتكررها للتأكيد .

وقوله : بين ــ فما رلت دا بيان ــ مامثل قولى : « الشقيق أفلت »

ومثله : « أخطار » ــ جمع خطر ، وهو ما يؤدى الى الهلاك ، وإذا فصلته كان : « أخ » من معانيه الشقيق ، وطار : أفلت .

وقوله : مامثل قولك المحا حى دى الحجى : « ما اختار فضه »

ومثله « أبارقه » جمع ابريق ، وإذا فصلت كانت أنى أى ما احتار ، ورقة : اسم من أسماء الفضة .

وقوله : أوضح لنا ما مثل قو لك المحاجى : « دس جماعه »

ومثله : « طافية » وهى مايطفو على الماء ، وطأ : أمر من وطئ ، والفئة : الجماعة .

وقوله أنت المبين ، فقل لنا ما مثل قولى : « خالى اسكت . »

ومثله : « خالصة » أى خال صه ، ومعناها خالى اسكت .

وقوله فى مقامته الطيبة فى حوار طويل بين فقيهين .

ــ ما تقول فيمن توضأ ثم لمس ظهر نعله ؟

ــ انتقض وضوءه بفعله .

يعنى من لمس زوجته.

ــ فإن توضأ ثم أنكأه البرد ؟

ــ يجدد الوضوء من بعد ؟

يعنى بالبرد : النوم

ــ أيمسح المتوضئ أنثييه ؟

ــ قد ندب إليه ، ولم يوجب عليه .

يعنى : الأذنين .

ــ أيجوز الوضوء مما يقذفه الثعبان

ــ وهل أنظف منه للعريان

يعنى : جمع ثعب ، وهو مسيل الوادى .

ــ أيستباح ماء الضرير ؟

ــ نعم ، ويجتنب ماء البصير .

يعنى بالضرير : حرف الوادى ، وبالبصير : الكلب .

ــ أيحل التطوف فى الربيع ؟

ــ يكره ذاك للحدث الشنيع

يعنى بالتطوف : التغوط ، وبالربيع : النهر الصغير .

ــ أيجب الغسل على من أمنى ؟

ــ لا ، ولو ثنى .

يعنى : من نزل « منى »

ــ هل يجب على الجنب غسل فروته ؟

ــ أجل ، وغسل ابرته .

يعنى بالفروة جلدة الرأس ، وبالابرة عظم المرفق .

وهكذا إلى أن استوفى مائة مسألة من هذا النوع .

المقامة النحوية

وقوله فى المقامة الرابعة والعشرين :

فما كلمة هى ــ إن شئتم ــ حرف محبوب ، أو اسم لما فيه حرف حلوب ، وأى اسم يتردد بين فرد حازم وجمع ملازم ، وأية هاء ــ إذا التحقت أماطت الثقل ، وأطلقت المعتقل ، وأين تدخل السين فتعزل العامل من غير أن تجامل ، وما منصوب أبداً على الظرف ، لايخفضه سوى حرف ، وأى مضاف أخل من عرى الاضافة بعروة ، واختلف حكمه بين مساء وغدوة ، وما العامل الذى يتصل آخره بأوله ، ويعمل معكوسه مثل عمله ، وأى عامل نائبه أرحب منه وكراً ، وأعظم مكراً ، وأكثر لله ــ تعالى ــ ذكراً ؟ وفى أى موطن تلبس الذكران ، براقع النسوان ؟ وتبرز ربات الحجال ، بعمائم الرجال ؟ وأين يجب حفظ المراتب ، على المضروب والضارب ؟ وما اسم لايعرف إلا باستضافة كلمتين ، أوالاقتصار منه على حرفين ، وفى وضعه التزام ، وفى الثانى إلزام ؟ وما وصف ــ إذا أردت بالنون ــ نقص صاحبه فى العيون ، وقوم بالدون ، وخرج من الزبون وتعرض للهون .

وقد فسره بقوله :

« أما الكلمة التى هى حرف محبوب ، أو اسم لما فيه حرف حلوب » فهى نعم . إلخ .

(وأما الكلمة التى هى حرف محبوب أو اسم لما فيه حرف حلوب) فهى نعم إن اردت بها تصديق الأخبار أو العدة عند السؤال فهى حرف وإن عنيت بها الابل فهى اسم والنعم تذكر وتؤنث ، وتطلق على الابل وعلى كل ماشية فيها إبل ، وفى الابل الحرف وهى الناقة الضامرة سميت حرفا لتشبيها لها بحرف السيف ، وقيل أنها الضخمة تشبيها لها بحرف الجبل (وأما الاسم المتردد بين فرد حازم وجمع ملازم) فهو سراويل . قال بعضهم هو واحد وجمعه سراويلات ، فعلى هذا القول هو فرد وكنى عن ضمه الخصر بأنه حازم ، وقال آخرون بل هو جمع واحده سروال مثل شملال وشماليل ، وسربال وسرابيل ، فهو على

هذا القول جمع ، ومعنى قوله ملازم أى لاينصرف وإنما لم ينصرف هذا النوع من الجمع وهو كل جمع ثالثه ألف وبعدها حرف مشدد أو حرفان أو ثلاثة أوسطها ساكن لثقله وتفرده دون غيره من الجموع بأن لا نظير له فى الأسماء الآحاد ، وقد كنى فى هذه الأحجية عمالا ينصرف بالملازم كما كنى فى التى قبلها عما ينصرف باللازم (وأما الهاء التى إذا التحقت أماطت الثقل وأطلقت المعتقل) فهى الهاء اللاحقة بالجمع المقدم ذكره كقولك صيارفة وصياقلة فينصرف هذا الجمع عند الحاق الهاء به لأنها قد أصارته إلى أمثال الآحاد نحو رفاهية وكراهية فخف بهذا السبب وصرف لهذه العلة ، وقد كنى هذه الأحجية عما لاينصرف بالمعتقل كما كنى فى التى قبلها عما لاينصرف بالملازم (وأما السبب التى تعزل العامل من غير أن تحامل) فهى التى تدخل على الفعل المستقبل وتفصل بينه وبين أن التى كانت قبل دخولها من أدوات النصب فيرتفع حينئذ الفعل وتنتقل أن عن كونها الناصبة للفعل إلى أن تصير المخففة من الثقيلة ، وذلك كقوله تعالى — علم أن سيكون منكم مرضى وتقديره علم أنه سيكون (وأما المنصوب على الظرف الذى لا يخفضه سوى حرف) فهو عند إذ لايجره غير من خاصة وقول العامة ذهبت إلى عنده لحن (وأما المضاف الذى أخل من عرى الاضافة بعروة واختلف حكمه بين مساء وغدوة) فهو لدن ولدن من الأسماء الملازمة للاضافة وكل مايأتى بعدها مجرور بها إلا غدوة ، فان العرب نصبتها بلدن لكثرة استعمالهم إياها فى الكلام ، ثم نونتها أيضا ليتبين بذلك أنها منصوبة لأنها من نوع المجرورات التى لاتنصرف ، وعند بعض النحويين أن لدن بمعنى عند والصحيح أن بينهما فرقا لطيفا وهو أن عند يشتمل معناها على ماهو فى ملكك ومكنتك مما دنا منك وبعد عنك ولدن يختص معناها بما حضرك وقرب منك (وأما العامل الذى يتصل آخره بأوله ويعمل معكوسه مثل عمله) فهو يا ومعكوسها أى وكلاهما من حروف النداء وعملهما ما فى الاسم المنادى سيان وإن كانت يا أجول فى الكلام وأكثر فى الاستعمال وقد اختار بعضهم أن ينادى بأى القريب فقط كالهمزة (وأما العامل الذى نائبه أرحب منه وكرا ، وأعظم مكرا ، وأكثر لله تعالى ذكراً) فهو باء القسم وهذه الباء هى أصل حروف القسم بدلالة استعمالها مع ظهور فعل القسم فى قولك : أقسم بالله ، ولدخولها أيضا على المضمر كقولك بك لأفعلنّ ، وإنما أبدلت الواو منها فى القسم لأنهما من حروف الشفه ، ثم لتقارب معانيهما لأن الواو تفيد الجمع والباء تفيد الالصاق ، وكلاهما متفق والمعنيان متقاربان ، ثم صارت الواو المبدلة من الباء أدور فى الكلام وأعلق بالأقسام ، ولهذا ألغز بأنها أكثر لله تعالى ذكرا . ثم إن الواو أكثر موطنا من الباء لأن الباء لا تدخل إلا على الاسم ولا تعمل غير الجر والواو تدخل على الاسم والفعل والحرف وتجر تارة بالقسم وتارة باضمار رب وتنتظم أيضا مع نواصب الفعل وأدوات العطف ، فلهذا وصفها برحب الوكر وعظم المكر (وأما الموطن الذى يلبس فيه الذكر أن براقع النسوان وتبرز فيه ربات الحجال بعمائم الرجال) فهو مراتب العدد المضاف ، وذلك ما بين الثلاثة إلى العشرة فانه يكون مع المذكر بالهاء ومع المؤنث بحذفها كقوله تعالى — سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام — والهاء فى غير هذا الموطن من خصائص المؤنث كقولك قائم وقائمة ، وظالم وظالمة ، فقد رأيت كيف انعكس فى هذا الموطن حكم المذكر والمؤنث حتى انقلب كل منهما فى ضد قالبه وبرز فى بزّة صاحبه (وأما الموضع الذى يجب فيه حفظ المراتب على المضروب والضارب) فهو حيث يشتبه الفاعل بالمفعول لتعذر ظهور علامة الاعراب فيهما أو فى إحداهما ، وذلك إذا كانا مقصورين مثل موسى وعيسى أو من أسماء الاشارة نحو ذاك ، وهذا فيجب حينئذ لازالة اللبس إقرار

كل منهما فى رتبته ليعرف الفاعل منهما بتقدمه والمفعول بتأخره (وأما الاسم الذى لايفهم إلا باستضافة كلتين أو بالاقتصار منه على حرفين) فهو مهما وفيها قولان أحدهما أنها مركبة من مه التى هى بمعنى أكفف ومن ما ، والقول الثانى وهو الصحيح أن الأصل فيها ما زيدت عليها ما أخرى كما تزداد ما على أنّ ، فصار لفظهما ما ما ، فثقل عليهم توالى كلتين بلفظ واحد وأبدلوا من ألف ما الأولى هاء فصارتا مهما ، ومهما من أدوات الشرط والجزاء ومتى لفظت بها لم يتم الكلام ولا عقل المعنى إلا بإيراد كلتين بعدها كقولك مهما تفعل أفعل وتكون حينئذ ملتزما للفعل ، وإن اقتصرت منها على حرفين وهما مه التى بمعنى اكفف فهم المعنى وكنت ملزما من خاطبته أن يكف (وأما الوصف الذى أردف بالنون نقص صاحبه فى العيون وقوم بالدون وحرج من الربون وتعرض للهون) فهو ضيف إذا لحقته النون استحال إلى ضيفن وهو الذى يتبع الضيف ويتنزل فى النقد منزلة الزيف .

ومن ألاعيب الحريرى قوله فى مقامة أخرى — مما يقرأ طردا وعكسا فى مقامته المغربية :

« لم أخا مل ، كبر رجاء أجر ربك ، من يرب إذا بر ينم ، سكت كل من نمّ لك تكس » وقوله :

« أس أرملا — إذا عرا وارع إذا المرء أسا
أسند أخا نباهة أبن إخاء دنسا
أسل جناب غاشم مشاغب إن جلسا
أسر إذا هب مرا وارم به ، إذا رسا
اسكن تقو ، فعسى يسعف وقت نكسا . »

المقامة القهقرية

وقوله فى مقامته القهقرية :

« أتعرفون رسالة أرضها سماؤها ، وصبحها مساؤها ، نسجت على منوالين ، وتجلت فى لونين ، ووصلت إلى جهتين ، وبدت ذات وجهين .

إن نزعت من مشرقها ، فناهيك برونقها ، وإن طلعت من مغربها ، فيا لعجبها »

وهذه الرسالة التى تقرأ من أولها كما تقرأ من آخرها هى :

« الانسان صنيعة الأحسان ، ورب الجميل فعل الندب ، وشيمة الحر ذخيرة الحمد ، وكسب الشكر استثمار السعادة ، وعنوان الكرم تباشير البشر ، واستعمال المداراة يوجب المصافاة ، وعقد المحبة يقتضى النصح وصدق الحديث حلية اللسان ، وفصاحة المنطق سحر الألباب ، وشرك الهوى آفة النفوس ، وملل الخلائق شين الخلائق ، وسوء الطمع يباين الورع ، والتزام الحزامة زمام السلامة ، وتطلب المثالب شر المعايب ، وتتبع العثرات يدحض المودات ، وخلوص النية خلاصة العطية ، وتهنئة النوال ثمن السؤال ، وتكلف الكلف يسهل الخلف ، وتيقن المعونة يسنى المؤونة ، وفضل الصدر ، سعة الصدر ، وزينة الرعاة مقت السعاة ، وجزاء المدائح بث المنائح ، ومهر الوسائل ، تشفيع المسائل ، ومجلبة الغواية استغراق الغاية ، وتجاوز الحد ، يكل الجد ، وتعدى الأدب ، يحبط القرب ، وتناسى الحقوق ، ينشى ء العقوق ، وتحاشى الريب ، يرفع الرتب ، وارتفاع الأخطار ، لاقتحام الأخطار ، وتنوّه الأقدار بمواتاة الأقدار ، وشرف الأعمال ، فى تقصير الآمال ، وإطالة الفكرة ، تنقيح الحكمة ، ورأس الرياسة ، تهذيب السياسة ، ومع اللجاجة ، تلغى الحاجة ، وعند الأوجال تتفاضل الرجال ، وبتفاضل الهمم تتفاوت القيم ، وبتمهيد السفير ، يهن التدبير ، وبخلل الأحوال تتبين الأهوال ، وبموجب الصبر ثمرة النصر ، واستحقاقه الاحماد بحسب الاجتهاد ، ووجوب الملاحظة ، كفاء المحافظة ،

وصفاء الموالى ، بتعهد الموالى ، وتحلى المروءات بحفظ الأمانات ، واختبار الاخوان بتخفيف الأحزان ، ووقع الأعداء بكف الأوداء ، وامتحان العقلاء بمقارنة الجهلاء ، وتبصر العواقب بؤمن المعاطب ، واتقاء الشنعة بنشر السمعة ، وقبح السمعة ، وقبح الجفاء ينافى الوفاء ، وجوهر الأحرار عند الأسرار . »

وقوله من خطبة لانقط فيها ولا إعجام — فى مقامته السمرقندية : —

«الحمد لله الممدوح الأسماء المحمود الآلاء الواسع العطاء المدعو لحسم اللأواء ، مالك الأمم ، ومصور الرمم ، وأهل السماح والكرم ، ومهلك عاد وإرم ، أدرك كل سر علمه ، ووسع كل مصر حلمه ، وعم كل عالم طوله ، وهد كل مارد حوله ، أحمده حمد موحد مسلم ، وأدعوه دعاء مؤمل مسلم ، وهو الله لا إله إلا هو الواحد الأحد ، العادل الصمد ، لا ولد له ولا والد ، ولا ردء معه ولا مساعد ، أرسل محمداً للاسلام ممهدا الخ »

وفى مقامته المراغية — رسالة ، « حروف إحدى كلمتيها يعمها النقط وحروف الأخرى — كما يقول — لم يعجمن قط » وهى :

« الكرم — ثبت الله جيش سعودك — يزين ، واللؤم — غض الله جفن حسودك — يشين . والأروع يثيب ، والمعور يخيب ، والحلاحل يضيف ، والماحل يخيف ، والسمح يغذى ، والمحك يقذى ، والعطاء ينجى ، والمطال يشجى ، والدعاء تقى ، والمدح ينقى ، والحر يجزى ، والالطاط يخزى ، واطراح ذى الحرمة غى ، ومحرمة بنى الآمال بغى ، وما ضن إلا غبين ، ولا غبن إلا ضنين ، ولا خزن إلا شقى ، ولا قبض راحه تقى ، وما فتئ وعدك يفى ، وآراؤك تشفى ، وهلالك يضى ، وحلمك يغضى ، وآلاؤك تفى ، وأعداؤك تفى ، وحسامك يفنى الخ الخ . »

وله رسالة سينية كتبها — على لسان بعض الأمراء — إلى بعض أصدقائه عتاباً :

باسم السميع القدوس أستفتح ، وباسعاده أستنجح ، سيرة سيدنا الأسفهسلار ، السيد النفيس ، سيد الرؤساء ، سيف السلاطين ، حرست نفسه ، واستنارت شمسه ، واتسق أنسه ، وبسق غرسه .

إلى أن يقول :

« وسيف السلاطين مستأثر بأنس السماع وحسو الكؤوس
سلاني ، وليس لناس السلو يناسب حسن سمات النفيس
وسن تناسى حلاسه وأسوا السجايا تناسى الجليس
وسر حسودى بطمس الرسوم ، وطمس الرسوم كرمس النفوس
وساق الحسام بكأس السلاف ، وأسهى بعبوس وبوس . »

إلى آخر القصيدة .

ورسالة شينية ، وهى التى كتبها لأحد أصدقائه يمدحه فيها ، وفيها يقول :

« بارشاد المنشى أنشى ، شغفى بالشيخ شمس الشعراء ، رش معاشه ، وفشا رياشه ، وأشرق شهابه ، واعشوشبت شعابه ، يشاكل شغف المنتشى بالنشوى ، والمرتشى بالرشوى ، والشادن بمرخ الشباب ، والعطشان إلى شيم الشراب ، وشكرى لتحشمه ومشقته ، وشواهد شفقته ، يشاكل شكر الناشد للمنشد ، والمسترشد للمرشد ، والمستبشر للمبشر ، والمستجيش للجيش المشمر ، وشمارى إنشاد شعره ، وإشجاء الكاشح والمكاشر بنشره »

وهكذا إلى أن قال :

« فأشعاره مشهورة ، ومشاعره وعشرته مشكورة ، وعشائره
شأى الشعراء المشمعلين شعره وشانيه مشجو الحشا ، ومشاعره
وشوه ترقيش المرقش رقشه ، فأشياعه يشكونه ، ومعاشره

إلى المعتمد على الله

« وكتب أيضا رحمه الله إليه أيده الله . »

يـٰأَيُّهَا الظَّافِرُ نِلْتَ الْمُنَى ... وَلاَ يَنَلْنَا فِيكَ مَحْذُورُ

إِنَّ الْخِلاَلَ الزُّهْرَ قَدْ ضَمَّهَا ... ثَوْبٌ عَلَيْكَ الدَّهْرَ مَزْرُورُ

لاَ زَالَ لِلْمَجْدِ الَّذِي شِدْتَهُ ... رَبْعٌ - بِتَعْمِيرِكَ - مَعْمُورُ

حَتَّى يُوَفَّى فِيكَ مَا يَبْتَغِي ... مُعْتَضِــدٌ بِاللهِ مَنْصُورُ

* * *

وَافَاكَ نَظْمٌ - لِيَ فِي طَيِّهِ - ... مَعْنًى مُعَمًّى اللَّفْظِ مَسْتُورُ

مَرَامُهُ يَصْعُبُ ، مَا لَمْ يَبُحْ ... - بِالسِّرِّ - قُمْرِيٌّ(١) وَعُصْفُورُ

وَبُلْبُلٌ ، ثُمَّ يَكُرُّ الَّذَا ... تَقَدَّمَا ، فَاللَّفْظُ مَكْرُورُ

ثُمَّ تَرَى الْبُلْبُلَ قَدْ حَثَّهُ ... نَسْرٌ ، بِهِ الشُّفْنِينُ(٢) مَنْسُورُ

ثُمَّ الْغُرَابُ الْجَوْنُ ، يَتْلُوهُ قُمْـــرِيٌّ ... وَدَرَّاجٌ وَزَرْزُورُ

وشاق الشباب الشم والشيب وشيه ، ... فمنشوره بهرى المشوق ، وناشره

شمائله معشوقة — كشموله — ... وشريبه مستبشر ، ومعاشره . »

إلى آخر القصيدة .

(١) القمرى : طائر حسن الصوت — ويجمع على قمارى — ويقال للذكر منه : الورشان .

قال ابن سيده : « القمرى طير صغير » وعده — فى المحكم — من الحمام .

وقد زعموا أن القمارىّ — إذا ماتت ذكورها — لم تتزاوج إناثها .

والورشان — الذى هو ذكر القمرى — يوصف بالحنوّ على أولاده ، حتى أنه ربما قتل نفسه إذا رآها فى يد القانص ، وقد مرّ بك فى « ص ١٠٧ » قول ابن زيدون :

« إن تمنى البلبل اهتاج غناء الورشان »

(٢) الشفنين — كما فى حياة الحيوان وابن البيطار — نوع من الحمام ، قالوا : « وهو الذى تسميه العامة باليمام » وجمعه شفانين

ثُمَّ يَلِي الدُّرَّاجُ (١) ـ مِنْ بَعْدُ غِرْ نِيقٌ (٢) ـ وَمُكَّاءٌ (٣) وَشُرْشُورُ (٤)
وَبَاشِقٌ ، ثُم إِذَا حَلَّقَ الشَّاهِينُ ـ وَالْعُصْفُورُ مَذْعُورُ ـ
ثُمَّ سَلِ الْمُكَّاءَ يَصْدُقْكَ، وَالْـــعُصْفُورَ ، وَالْقُمْرِيُّ مَزْجُورُ
وَإِنْ جَرَى الدُّرَّاجُ ـ فِي إِثْرِهِ الـــزَّرْزُورُ ـ فَالْمَطْوِيُّ مَنْشُورُ
وَثَمَّ فَاعْلَمْ أَنَّ مَوْضُوعَهَا حَرْفٌ ، لِفَصْلِ اللَّفْظِ مَقْدُورُ
وَفِي الَّذِي عَمَّسْتُ نُصْحٌ ، لِمَنْ جَدَّ ـ مِنَ الْأَعْدَاءِ ـ مَشْكُورُ (٥)

---

(١) الدراج ــ ضم الدال ــ طائر ظاهر جناحيه أغبر ، وباطنهما أسود ــ فى حجم القطا إلا أنه ألطف . والجاحظ يعده من جنس الحمام ، لأنه يجمع بيضه تحت جناحه كما يفعل الحمام .

قالوا : وهو كثير النتاج يبشر ، بقدوم الربيع ، وهو يصلح بهبوب الشمال وصفاء الهواء ، ويسوء حاله بهبوب الجنوب ، حتى لا يقدر على الطيران .

(٢) الغرنيق أو الغرنوق : طائر مائى ، وقيل هو الكركي أو طائر يشبهه .

قالوا :

وهو دون الحمام ــ فى المقدار ــ ولونه الحمرة مع كمورة ، وفى صوته ترجيع وتحزن .

ومن شأنها أنها تحرس أصواتها ــ إذا اختلطت ــ ومن طبعه أنه إذا فقد أنثاه لم يزل ــ فيما يزعمون ــ أعزب إلى أن يموت ، وكذلك الأنثى إذا فقدت ذكرها .

قالوا :

وهو شديد الاحتراس ، وفيه ألفة للبيوت .

(٣) المكاء : طائر . (٤) الشرشور : طائر يسمى : « البرنش » وجمعه شراشير .

(٥) والبيت المطير فى هذه القصيدة هو :

« أنت ــ إن تعز ــ طافر فليطع من يناظر . »

ولنضع فى الجدول التالى أمام كل حرف طائرة على الترتيب الذى ذكره فى القصيدة هكذا : ــ

الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
أ	قرى	ع	نسر	ف	دراج	ن	عصفور
ن	عصفور	ز	شفنين	ل	غرنيق	ى	مكاء
ت	بلبل	ط	غراب	ى	مكاء	ن	عصفور
ا	قرى	ا	قرى	ط	شرشور	ا	قرى
ن	عصفور	ف	دراج	ع	باشق	ف	دراج
ت	بلبل	ر	زرزور	م	شاهين	ر	زرزور

جـــواب (١)

« فجاوبه ذو الوزارتين رحمه الله . »

حَظِّيَ ـ مِنْ نُعْماكَ ـ مَوْفُورُ   وَذَنْبُ دَهْرِي بِكَ مَغْفُورُ

وَجَانِبِي ـ إِنْ زَمَنِي رَامَهُ ـ   حَجْرٌ (٢) لَدَى ظِلِّكَ مَحْجُورُ

***

يَا ابْنَ الَّذِي سِرْبُ الْهُدَى آمِنٌ   مُنْذُ أُنْبَرَى يَحْمِيهِ مَوْفُورُ

وليعلم القارئ أن الشاهين فى قوله : « ثم إذا حلق الشاهين . » ساقط ليس له حرف هجاء كغيره من طيور القصيدة ، وقد أشار إليه بقوله :

« وثم فاعلم أن موضوعها   حرف لفصل اللفظ مقدور . »

وقد وصله المعتمد ، وجاوبه بالقصيدة التالية :

« يا خير من يلحظه ناظرى ،   شهادة ما شابها زور

ومن إذا ما ليل خطب دجا   لاح به ـ من رأيه ـ نور

رأيك ـ إما شمته ـ صارم   عضب على الأعداء مشهور

جاءتنى الطير التى سرّها   نظم به قلبى مسرور

شعر هو السحر ولا تنكروا   أنى به ـ ماعشت ـ مسحور

اللفظ والقرطاس ـ إن شمها ـ   قيل هما مسك وكافور

وإنه لما اعتدى خاطرى   مسائلا جاوب عصـــفور

هوى لجيش الطير من فكرتى   صـقر فولى وهو مقهور

ولاح لى بيت فؤادى له   دأبا على ودك مقصـور

حسبك من شكرى يا سيدى   بما بدا لى منك موفور

قصرت فى نظمى فاعذر فمن   ضاهاك فى التقصير معذور

فأنت إن تنظم وتنثر فقد   أعوز منظوم ومنثور

لا يعدكم روض من الحظ فى ال   إكرام والترفيع ممطور . »

(١) بعث ابن زيدون بهذه القصيدة للمعتمد ردا على قصيدته التى ذكرناها فى هذه الصفحة .

(٢) الحجر الكنف أو الحرام ، يقال : « هذا حجر عليك » أى حرام و « نشأت فى حجر فلان » أى فى كنفه ومنعته وحفظه وستره .

أَجبْتَ أَمْرِي بِالَّذِي لَمْ يَزَلْ   يُصْغِي إِلَيْهِ مِنْهُ مَأْمُورُ
أُلْبِسَ مِنْكَ الْمُلْكُ أَسْنَى الْحُلَى   بِظَافِرٍ يَنْمِيهِ مَنْصُــور

***

يَا مُرْوِيَ الْمَأْثُورِ ، يَا مَنْ لَهُ   مَجْدٌ – مَعَ الْأَيَّامِ – مَأْثُورُ
عَبْدُكَ – إِنْ أَكْثَرَ مِنْ شُكْرِهِ –   فَهْوَ بِمَا تُولِيهِ مَشْكُورُ
إِنْ تَعْفُ عَنْ تَقْصِيرِهِ مُنْعِماً   فَالسَّرْوُ[1] أَنْ يُقْبَلَ مَيْسُورُ
إِنَّ حَلَالَ السِّحْرِ – إِنْ صُغْتَهُ –   فِي صُحُفِ الْأَنْفُسِ مَسْطُورُ
نَظْمٌ زَهَانِي مِنْهُ إِذْ جَاءَنِي   عِلْقٌ عَظِيمُ الْقَدْرِ مَذْخُورُ
هَوَى إِلَيْهِ طَرَبًا خَاطِرِي   كَمَا تَلَقَّى الْوَصْلَ مَهْجُورُ
لَا غَرْوَ أَنْ أُفْتَنَ إِذْ لَاحَظَتْ   فِكْرِيَ مِنْهُ أَعْيُنٌ حُورُ
تَشِفُّ عَنْ مَعْنَاهُ أَلْفَاظُهُ   كَمَا وَشَى بِالرَّاحِ بَلُّورُ
جَهِلْتُ – إِذْ عَارَضْتُهُ – غَيْرَ أَنْ   لَا بُدَّ أَنْ يَنْفُثَ مَصْدُورُ

***

يَا آلَ «عَبَّادٍ» مُوَالَاتُكُمْ ،   زَاكٍ – مِنَ الْأَعْمَالِ – مَبْرُورُ
إِنَّ الَّذِي يَرْجُو مُوَاذَاتَكُمْ   – مِنَ الْمُنَاوِينَ – لَمَغْرُورُ
مَكَانُهُمْ مِنْكُمْ كَمَا انْحَطَّ عَنْ   مَنْزِلَةِ الْمَرْفُوعِ – مَجْرُورُ
يَدْنُو إِلَيْكُمْ مَا نَأَى عَنْكُمُ   إِنَّ الْعُلَى مِنْ أُنْسِهِ نُورُ
لَا زِلْتُمُ تَشْأَوْنَهُمْ مَا انْجَلَى   – عَنْ فَلَقِ الْإِصْبَاحِ – دَيْجُورُ
وَلَا يَزَلْ يَجْرِي – بِإِيرَائِكُمْ   أَعْمَارَهُمْ – لِلَّهِ مَقْدُورُ

---

(١) السّرو : المروءة والشرف .

إلى المعتمد

« وكتب أيضا رحمه الله إليه أيده الله

يَا مُرْضِياً كُلَّ مَخْدَمْ   وَمُرْوِيًا كُلَّ لَهْذَمْ
وَيَا سَمِيَّ المصَلَّى   عَلَى اسْمِهِ وَالمُسَلَّمْ
وَيَا ابْنَ أَعْظَمِ مَنْ هَا   بَهُ المُلُوكُ وَأَكْرَمْ
وَافَاكَ لِلطَّيْرِ سِرْبٌ   لَدَيْهِ سِرٌّ مُكَتَّمْ
إِنْ تَسْأَلِ الطَّيْرَ عَنْهَا   مُسْتَعْلِمًا مِنْهُ تَعْلَمْ
وَالنَّسْرُ وَالرَّهْوُ (١) يُنْبِيكَ وَالظَّلِيمُ (٢) المُصَلَّمْ

---

(١) الرهو : الكركي ، وهو — كما جاء في صبح الأعشى — طائر أغبر طويل الساقين في قدر الأوزة ، ويجمع على كراكيّ ، وفي طبعه خور يحمله على المحارس ، حتى إنه إذا — اجتمع جماعة من الكراكيّ — يحرسها بالنوبة بعضها ، ومن شأن الذي يحرس منها ، أن يهتف بصوت خفي ، كأنه ينذر بأنه حارس .
فإذا قضى نوبته قام واحد ممن كان نائما يحرس مكانه حتى يقضي كل منها نوبته من الحراسة ، ولا تطير متفرقة بل صفا واحدا يقدمها واحد منها — كالرئيس لها — وهي تتبعه ، يكون ذلك حينا ، ثم يخلفه آخر منها مقدما حتى يصير الذي كان مقدما مؤخرا ، وفي طبعها التناصر والتعاضد ، ومن خاصتها أن أنثاها لاتقعد للسفاد بل يسفدها — وهي قائمة — ويكون سفاده سريعا كالعصفور .
وقال القزويني — في عجائب المخلوقات :
والكركي لا يمشي على الأرض إلا بإحدى رجليه ، ويعلق الأخرى ، أو يضعها وضعاً خفيفاً مخافة أن تخسف به الأرض .
قال — في « المصايد والمطارد » :
وهو من أبعد الطير صوتا يسمع على أميال .
قالوا : وكانت الكراكي تأتي إلى مصر من بلاد الترك ، وفي طلبها وصيدها كانت تتغالى ملوك مصر تغاليا لايدرك حده ، وتنفق في ذلك الأموال الجمة .
(٢) الظليم — ذكر النعام — وقد جاء في صبح الأعشى — في معرض الكلام عن النعام — قوله :
« هو طائر معروف ، مركب من صورتي جمل وطائر ، ولذلك تسميه الترك « دوانش » بمعنى « طير جمل » وتسميه الفرس « اشتر مرك » ومعناه « جمل طائر » ويسمى ذكر النعامة : الظليم . قالوا : ومساكنها الرمل ، وتضع بيضها بسطراً مستطيلا ، بحيث لو مد عليها خيط لم تخرج واحدة منها عن الأخرى ، ثم تعطي كل بيضة منها نصيبها من الحضن ، لأنها لاتستطيع ضم جميع البيض تحتها » .

ثمَّ الْهَدِيلُ [١] تَلِيهِ حَمَامَــةٌ تَتَرَنَّمْ

إِلَى عُقَابَيْنِ تَدْعُو هُمَا الظَّلِيمَ فَيَفْهَمْ

ثُمَّ الْعُقَابُ [٢] مَعَ الصَّقْــرِ، فَهْوَ بِالشَّرْحِ أَنْعَمْ

وَالرَّالُ [٣] وَالرَّهْوُ وَالْقَبْــجُ [٤] فَالثَّلاثَةُ حُوَّمْ

ثمَّ الْعُقَابُ فَسَــلْهُ وَالصَّقْرُ لاَ يَتَلَعْثَمْ

وإذا خرجت للطعم ، فوجدت بيض نعامة أخرى حضنته وسيت بيضها فربما حضنت هذه بيض هذه . ولذلك توصف — فى الطير — بالحمق .

ويقال : إنها تقسم بيضها أثلاثا ، فمنه ماتحضنه ، ومنه ماتجعله غذاء لها ، ومنه ما تفتحه وتجعله فى الهواء حتى يتولد فيه الدود فتغذى به أفراخها إذا خرجت . قالوا :

« وليس للنعام حاسة سمع ، ولكنه قوى الشم ، يستغنى بشمه عن سماعه . حتى يقال : إنه يشم رائحة القانص من بعد . وفى أساطير العرب :

أن النعامة ذهبت تطلب قرنين فقطعوا أذنيها .

ومن خصائصها أنها تبتلع العظم الصلب والحجر فتذيبه معدتها .

(١) الهديل ذكر الحمام ، قال أبو العلاء فى داليته المشهورة :

« يابنات الهديل : أسعدن أوعد ن قليل البكاء بالاسعاد . »

(٢) العقاب : طائر من الجوارح تسميها العرب بالكاسر ، قيل العقاب سيد الطيور والنسر عريفها »

وتقول العرب : « أبصر من عقاب » قال ابن دريد فى مقصورته الرائعة :

«فاستنزل الزباء — قسرا — وهى من عقاب لوح الجو أعلى منتمى . »

وقد جاء فى صبح الأعشى : أن العقاب مؤنثة لا تذكر ، وتجمع على عقبان وأعقب .

وجاء فى « المصايد والمطارد » قوله :

« وهى من أعظم الجوارح ، وليس بعد النسر فى الطير — أعظم منها وأصل لونها السواد . »

فمنها سوداء دجوجية ، وحدارية — وهى التى لابياض فيها — ومنها الفقعاء — وهى التى يخالط سوادها بياض — ، ومنها الشقراء وهى التى فى رأسها نقط بياض — قال « أبو عبيدة » و « يونس » :

« ويقال لذكر العقاب « الغرن » ويقال إن ذكور العقبان من طير آخر لطاف الجرم لاتساوى شيئا ، تلعب بها الصبيان » والعقاب من أسرع الطير طيرانا . (ارجع إلى صبح الأعشى ج ٢ ص ٥٣)

(٣) الرأل : ولد النعام ، قال أبو العلاء :

« قد كنت قلت — فى كلام لى قديم — إننى قد هجرت الشعر هجر الرأل تركته . »

(٤) القبج : والكروان ، معرب « كبج » بالفارسية وهو طائر فى قدر الدجاجة طويل الرجلين حسن الصوت لاينام الليل .

إِلَى حُبَارَى (١) وَبَازٍ   وَحَالِكِ اللَّوْنِ أَعْصَمْ (٢)

ثُمَّ السَّمَامُ (٣) مَعَ الرَّا   لِ كَىْ يَبُوحَ الْمُجَمْجَمْ (٤)

إِلَى عُقَابٍ وَرَهْوٍ   يُفْصِحْ بِمَا شِئْتَ أَسْحَمْ

وَمَا الظَّلِيمُ بِآلٍ   فَلَوْ زَجَرْتَ لَتَرْجَمْ

ثُمَّ الْعُقَابُ سَيُوحِى   لِلصَّقْرِ لَا تَتَكَلَّمْ

وَعَقْعَقٌ وَهَدِيلٌ   وَالْقَبْجُ فِى ذَاكَ مُلْثَمْ

وَثَمَّ فَصْلٌ كَمَا قَدْ   عَهِدْتَ فِيمَا تَقَدَّمْ

يَا مُلْبِسَ الدَّهْرِ وَشْيًا   مِنَ الْجَمَالِ مُنَمْنَمْ

اِسْلَمْ سَنِىَّ الْأَمَانِى   مُؤَزَّرَ النَّصْرِ مُطْعَمْ (٥)

---

(١) الحبارى : طائر — يقع على الذكر والأنثى — قالوا : « ويضرب به المثل — فى البلاهة والحمق يقال : « هو أبله من الحبارى » قيل ذلك لأنها إذا غيرت عشها ذهلته وحضنت بيض غيرها .

(٢) الأعصم : الظبى . قال ابن دريد :

« لو ناحت الأعصم لانحط لها — طوع القياد فى شماريخ الذرى . »

وجمعه عصم ، قال الشاعر :

« وادنيتنى حتى — إذا ما فتنتنى   بقول يحل العصم سهل الأباطح

تناءيت عنى حين — لالى حيلة —   وغادرت ماغادرت بين الجوانح . »

(٣) السمام : ضرب من الطير ، واحدته سمامة .

(٤) المجمجم : الذى لايفهم ، قال المعرى :

« جمجم هذا الزمان قولا   وكلنا يرتجى بيانه . »

(٥) والبيت المطير — فى هذا الشعر — هو :

« أهلك عدوك ، واحلم ،   واظفر بسؤلك — وأنعم . »

وقد فتكه المعتمد

بيت مطير

« وكتب اليه المعتمد أيده الله

يا سيدى يامعدن العلم … يا آلة للحرب والسلم

وجه طيور الشعر نحوى فقد … بث فؤادى شرك الفهم

فبعث اليه ببيت مطير وجاوبه رحمه الله .

أَلْحَقَنِي بِرُّكَ بِالنَّجْمِ … يَا ابْنَ الْبُدُورِ الزُّهْرِ مِنْ لَخْمِ

يَا لَابِسَ الْمَجْدِ الَّذِي زَانَهُ … بِالْعِلْمِ زَيْنَ الْبُرْدِ بِالرَّقْمِ

قَدْ لَثِمَتْ كَفِّي الدَّرَارِيَّ مُذْ … شَافَهْتُ تِلْكَ الْكَفَّ بِاللَّثْمِ

قُلِّدَ مِنْكَ الْمُلْكُ عَضْبَ الظُّبَا … يَمْضِي مَضَاءَ الْقَدَرِ الْحَتْمِ

فِرِنْدُهُ الرَّقْرَاقُ مِنْ بِشْرِهِ … وَحَدُّهُ مِنْ نَافِذِ الْعَزْمِ

***

قَدْ جَاءَنِي النَّظْمُ الَّذِي خِلْتُهُ … مُؤَلَّفَ اللُّؤْلُؤِ فِي النَّظْمِ

حَلَّيْتَنِي مِنْهُ بِفَخْرٍ يُرَى … فِي غُفْلِ حَالِي رَائِقَ الْوَسْمِ

مُسْتَدْعِيًا طَيْرَ الْمُعَمَّى لِكَيْ … يَصِيدَهَا فِي شَرَكِ الْفَهْمِ

فَهَاكَهَا تُهْدَى إِلَى خَاطِرٍ … يَسْتَخْرِجُ الْإِفْصَاحَ مِنْ عُجْمِ (١)

---

(١) البيت المطير فى هذه القصيدة هو :

« أنت – إن سر ظافر فليطع من ينافر . »

والبيت المطير

اِظْفر كَمَا أَنْتَ ظَافِرْ بِكُلِّ غَاوٍ مُنَافِرْ

وطير له أيده الله بيتين وهما

«شعر من محض ودّه
لك فى علم طيره
فهى مهما زجرتها
لم تخبر بغيره .»

ففكهما وجاوبه رحمه الله

أَيُّهَا المَاجِدُ الَّذِى خِيرُهُ وَفْقُ خَيْرِهِ

وَالَّذِى سَيْرُ مُشْتَرِى أُفْقِنَا دُونَ سَيْرِهِ

مَلِكٌ صَحَّ - مِنْ أَدِيمِ الْهُدَى - قَدُّ سَيْرِهِ

فَهُوَ - الدَّهْرَ - نَفْعُهُ حَاضِرٌ ، دُونَ ضَيْرِهِ

***

يَا لِلَيْلِي سَئِمْتُ مِنْ سَهَرِى فِى قُمَيْرِهِ ؟

عَزَّ - فِى وَهْنِهِ - مَرَا مٌ عَنَا فِى سُحَيْرِهِ

«شِعْرُ مَنْ مَحْضُ وُدِّهِ لَكَ فِى عِلْمِ صَيْرِهِ

فَهْىَ - مَهْمَا زَجَرْتَهَا - لَمْ تُخَبِّرْ بِغَيْرِهِ .»

جواب على بيت مطير

« قال يمدح المعتمد على الله أبا القاسم محمد بن المعتضد بالله وعباد بن محمد بن عباد ، أدام الله تأييده ، فى حياة أبيه ـ وكان قد عمى له بيتا :

« الحاجب الأعلى العضد قرّة عين المعتمد »

ففكه ـ أيده الله ـ وجاوبه بأربعة أبيات ، وهى:

يا سيدى ، الأعلى ومن
أعددته أقوى العدد

حلت طيورك بى ، وقد
قرّبت منها ما بعد

كاشفتنا عن سرّها
فوشى إلىّ بها الصرد

بيتا يدلّ على اعتقا
دك ياجميل المعتقد

الحاجب الأعلى العضد
قرة عين المعتضد

فجاوبه ذو الوزارتين بقصيدة ، وهى : »

لَوْ أَنَّ مَنْ جَارَ قَصَدْ لَمْ يَجْزِ ـ عَنْ وَصْلِي ـ بِصَدّْ

سَيِّئُ عَهْدٍ ـ أَرْخَصَتْ عَيْنَاهُ فى قَتْلِي الْعَمَدْ

مَالِكُ سُلْطَانِ الْهَوَى أَمَّنَهُ مِنَ الْقَوَدْ (١)

مُخَلَّدُ خَلَّدَ ـ بَرْ حَ الشَّوْقِ ـ فى كُلِّ خَلَدْ

وَعِزُّ الرِّضَى ، لِحُبِّهِ نَهْجٌ ـ إِلَى قَلْبٍ ـ جَدَدْ

قَاسٍ إِذا مَا قِيــلَ : « أَبْــلَى حُلَّةَ الْهَجْــرِ » أَجَدّْ
أَوْ قُلْتُ : « قَدْ هَبَّ نَسِــيمُ الْوَصْلِ لِى مِنْهُ » رَكَدْ
مَا كُنْتُ آبَى صَــدَّهُ لَوْ أَنَّ سُــلْوَانِىَ صَدّْ

***

فِتْنَةُ وَجْدٍ ، هِىَ كَالْــفِتْنَةِ فى الْعِجْلِ الْجَسَدْ
غَــيْرُ مُبِينٍ ، طَرْفُهُ يَعْصِفُ بِالْخَصْمِ الْأَلَدّْ
عَصْفَ « أَبِى الْقَاسِمِ » بِالْــقَتْلِ إِذَا الْقَتْلُ مَرَدْ
الْحَاجِبُ الْأَعْلَى الَّذِى لَوْ مَاجَدَ الشَّمْسَ مَجَدْ
مَحْضُ التُّقى ، عَفُّ الْهَوَى غَمْرُ النَّدَى ، صَدْقُ الْجَلَدْ
رَكِينُ طَوْدِ الْحِــلْمِ إِنْ حُبَاهُ فى النَّادِى عَقَــدْ
مُوَفَّقُ الْأَنْحَاءِ عَا دَ فى أَسَالِيبِ الرَّشَــدْ
لَوْ قَصَّ كُنْهَ جُودِهِ لِلْبَحْرِ وَافَى ، فَاسْــتَمَدّْ
مُؤَمَّلٌ - مَعَ الرِّضَا - يُهَابُ فى حِينِ الْبُعُدْ
إِنْ قُــلِّدَ الْأَمْرَ كَفَى وَإِنْ تَوَلَّى الثَّغْرَ سَــدّْ
مَاءُ سَمَاحٍ فَاضَ فى جَمْــرِ ذَكَاءٍ فَاتَّقَــدْ
يَا عَضُــدَ الدَّوْلَةِ ، يَا مَوْلَى بِبَارِيهِ اعْتَضَدْ ! (١)
وَمَنْ - بِفَضْلِ اللهِ - حَا زَ النَّصْرَ فى جِدٍّ وَجَدّْ

---

(١) وفى الأصل
« يا عضــــد الدولة يا من ببْاريه اعتضد . »

أَصْبَحَ أَعْلَى وَالِدٍ فَاوَقَهُ أَسْنَى وَلَدْ
حَدَّثْتَنَا عَنْ سَرْوِهِ (١) نَاهِيكَ مِنْ قُرْبِ سَنَدْ

***

مَلْكٌ - إِذَا نَحْنُ اعْتَمَدْ نَا مِنْهُ أَوْفَى مُعْتَمَدْ -
تَهَلَّلَتْ شَمْسُ جَبِينٍ وَاسْتَهَلَّتْ مُزْنُ يَدْ
مُمَحِّصُ الدَّهْرِ الَّذِي أَصْلَحَ مِنْهُ مَا فَسَدْ
وَعَاضِدُ الدِّينِ الَّذِي قَدْ كَانَ - قَبْلُ - يُضْطَهَدْ
وَنَاصِرُ الْعِلْمِ الَّذِي نَفَّقَهُ لَمَّا كَسَدْ
مَنْ لَمْ يَعِدْ إِلاَّ وَفَى، وَلاَ وَفَى إِلاَّ وَعَدْ
شَاوَرَنِي - فِي أَمْرِهِ - شَيْحَانُ لَوْ شَاءَ اسْتَبَدّْ
يَخْشَى الْعَدُوُّ مِنْهُ عَزْ مَ قَسْوَرٍ شَاكِي اللِّبَدْ
سَمْحٌ لَهُ - مَهْمَا عَنَا - فَظٌّ عَلَيْهِ إِنْ عَنَدْ
كَالسَّيْفِ - فِي حَالَيْهِ - إِنْ رَاقَ فِرِنْدٌ رَاعَ حَدّْ
يَا مُهْدِيَ السِّمْطِ الَّذِي قُلِّدْتُهُ فَخْرَ الأَبَدْ
أَحْسَنُ مِنْ رَقْمِ عِذَا رٍ سَائِلٍ فِي وَشْيِ خَدّْ
أَوْ مَبْسِمٍ حُلْوِ اللَّمَا يَفْتَرُّ عَنْ عَذْبِ بَرَدْ

---

(١) السرو : المُروءة : والشرف ، وفى الأصل : « حدثنا عن سروة »

إلى المعتمد

قَدْ قُلْتُ ـ لَمَّا هزَّنِى ـ مِنْهُ الْبَدِيعُ الْمُفْتَقَدْ ـ
« نَسِيمُ أَيلولٍ سَرَى ـ أَمْ وَرْدُ نَيْسَانٍ وَرَدْ »
خَاطِرِىَ السَّهْمُ وَشَى ـ بِسِرِّ طَيْرِى لاَ الصُّرَدْ
وَفِطْنَــــةٌ تَأَلَّفَتْ ـ ـ مِنَ الْمُعَمَّى ـ مَا شَرَدْ
شِنْشِــــنَةٌ أَعْرِفُهَا ـ فى شِبْلِ مَلْكٍ مِنْ أَسَدْ

⁂

يَا آلَ « عَبَّادٍ » مِنَاً ـ لٌ لَيْسَ يَعْدُوهُ السَّدَدْ
مَنْ لِى بِشُكْرِ نِعْمَةٍ ، ـ الْحُرُّ عَنْهَا مُعْتَبَـــدْ
سُوِّغْتُ مِنْهَا الْعِزَّةَ الْـ ـ ـقَعْسَاءَ فى الْعَيْشِ الرَّغَدْ
حَيْثُ أُسْتُضِيفَ مَنْهَلٌ ـ صَـــفَا إِلَى ظِلٍّ بَرَدْ
كَأَنَّهَا لِى جَنَّـــةٌ ـ حُفَّتْ بِمَكْرُوهِ الْحَسَدْ
يَحْمِلُهَا مِـــنِّىَ وَا ـ فِى الشُّكْرِ صَافِى الْمُعْتَقَدْ
كَمْ قَامَ بِالشُّكْرِ إِلَى ـ أَنْ أَثْقَلَتْهُ فَقَعَدْ
قَصَّرَ ، لَـكِنْ لَمْ يُقَصِّـــرْ مُبْلِغُ الْعُذْرِ اجْتَهَدْ
وُقِيتُ بَطْشَ الْعَيْنِ فِيـــكُمْ بِالْعَمَى لاَ بِالرَّمَدْ

صرعى الحب [1]

أَخَذْتَ ثُلْثَ الْهَوَى غَصْباً، وَلِى ثُلُثٌ ـ وَ الْمُحِبِّينَ ـ فِيما بَيْنَهُمْ ـ ثُلُثُ
تَاللهِ ، لَوْ حَلَفَ الْعُشَّاقُ : أَنَّهُــمُ ـ مَوْتَى مِنَ الْوَجْدِ ـ يَوْمَ الْبَيْنِ ـ مَاحَنِثُوا

(١) من شعر ابن زيدون الذى قاله فى معة صباه ، وقد أورده المراكشى صاحب كتاب المعجب فى تاريخ أخبار المغرب ، ولم يرد فى ديوان ابن زيدون

قَوْمٌ ـ إِذَا هُجِرُوا مِنْ بَعْدِ مَاوُصِلوا ـ مَاتُوا ، فَإِنْ عَادَ مَنْ يَهْوَوْنَهُ بُعِثُوا
تَرَى الْمُحِبِّينَ صَرْعَى ـ فى عِرَاصِهِم ـ كَفِتْيَةِ الْكَهْفِ ، مَايَدْرُونَ مَالَبِثُوا

ذكرى قرطبة

« ومما قاله يتشوّق ابنة المهدى ومعاهده بقرطبة ، وضمنها بيت أبى الطيب ـ فى أوّل قصيدته الكافورية :

« بم التعلل ؟ لا أهل ، ولا وطن ،
ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكن ؟ »

قصيدة أوّلها (١) : »

هَلْ تَذْكُرُونَ غَرِيباً عَادَهُ شَجَنُ ـ مِنْ ذِكْرِكُمْ ـ وَجَفَا أَجْفَانَهُ الْوَسَنُ
يُخْفِى لَوَاعِجَهُ ـ وَالشَّوْقُ يَفْضَحُهُ ـ فَقَدْ تَسَاوَى ـ لَدَيْهِ ـ السِّرُّ وَالْعَلَنُ
يَا وَيْلَتَاهُ ، أَيَبْقَى ـ فى جَوَانِحِهِ ـ فُؤَادُهُ ، وَهْوَ بِالْأَطْلَالِ مُرْتَهَنُ
وَأَرَّقَ الْعَيْنَ ـ وَالظَّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ ـ وَرْقَاءُ قَدْ شَفَّهَا ـ إِذْ شَفَّنِى ـ حَزَنُ
فَبِتُّ أَشْكُو وَتَشْكُو ـ فَوْقَ أَيْكَتِهَا ـ وَبَاتَ يَهْفُو ارْتِيَاحاً بَيْنَنَا الْغُصُنُ

***

يَا هَلْ أُجَالِسُ أَقْوَاماً أُحِبُّهُمُ كُنَّا وَكَانُوا ـ عَلَى عَهْدٍ ـ فَقَدْ ظَعَنُوا
أَوْ تَحْفَظُونَ عُهُوداً لَا أُضَيِّعُهَا إِنَّ الْكِرَامَ ـ بِحِفْظِ الْعَهْدِ ـ تُمْتَحَنُ

وَمِنْهَا :

إِنْ كَانَ عَادَكُمُ عِيدٌ ، فَرُبَّ فَتًى بِالشَّوْقِ قَدْ عَادَهُ ـ مِنْ ذِكْرِكُمْ ـ حَزَنُ
وَأَفْرَدَتْهُ اللَّيَالِى ـ مِنْ أَحِبَّتِهِ ـ فَبَاتَ يُنْشِدُهَا ـ مِمَّا جَنَى الزَّمَنُ ـ :
« بِمَ التَّعَلُّلُ ؟ لَا أَهْلٌ ، وَلَا وَطَنٌ ؟ وَلَا نَدِيمٌ ، وَلَا كَأْسٌ ، وَلَا سَكَنُ ؟ »

---

(١) ذكرها « كتاب المعجب فى تاريخ أخبار المغرب » ، ولم ترد فى ديوان ابن زيدون .

رسائل ابن زيدون وأخباره

وشعر الملكين

واخبارهما

الرسالة الهزليـــة [١]

أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا الْمُصَابُ بِعَقْلِهِ ، الْمُوَرَّطُ بِجَهْلِهِ ، الْبَيِّنُ سَقَطُهُ ، الْفَاحِشُ غَلَطُهُ ، الْعَاثِرُ فِى ذَيْلِ اغْتِرَارِهِ ، الْأَعْمَى عَنْ شَمْسِ نَهَارِهِ ، السَّاقِطُ ـ سُقُوطَ الذُّبَابِ ـ عَلَى الشَّرَابِ ، الْمُتَهَافِتُ ـ تَهَافُتَ الْفَرَاشِ [٢] ـ فِى الشِّهَابِ ، فَإِنَّ الْعُجْبَ أَكْذَبُ ، وَمَعْرِفَةَ الْمَرْءِ نَفْسَهُ أَصْوَبُ ، وَإِنَّكَ رَاسَلْتَنِى مُسْتَهْدِيًا ـ مِنْ صِلَتِى ـ مَا صَفِرَتْ مِنْهُ أَيْدِى أَمْثَالِكَ ، مُتَصَدِّيًا ـ مِنْ خُلَّتِى ـ لِمَا قُرِعَتْ دُونَهُ أُنُوفُ [٣] أَشْكَالِكَ ، مُرْسِلاً خَلِيلَتَكَ مُرْتَادَةً ، مُسْتَعْمِلاً عَشِيقَتَكَ قَوَّادَةً ، كَاذِبًا نَفْسَكَ أَنَّكَ سَتَنْزِلُ عَنْهَا إِلَىَّ ، وَتَخْلُفُ ـ بَعْدَهَا ـ عَلَىَّ :

« وَلَسْتَ بِأَوَّلِ ذِى هِمَّةٍ دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ [٤] »

* * *

وَلاَ شَكَّ أَنَّهَا قَلَتْكَ إِذْ لَمْ تَضَنَّ بِكَ ، وَمَلَّتْكَ إِذْ لَمْ تَغَرْ عَلَيْكَ ، فَإِنَّهَا أَعْذَرَتْ فِى السِّفَارَةِ لَكَ ، وَمَا قَصَّرَتْ فِى النِّيَابَةِ عَنْكَ ، زَاعِمَةً أَنَّ الْمُرُوءَةَ لَفْظٌ أَنْتَ مَعْنَاهُ ، وَالْإِنْسَانِيَّةَ اسْمٌ أَنْتَ جِسْمُهُ وَهَيُولَاهُ [٥] ، قَاطِعَةً أَنَّكَ انْفَرَدْتَ

---

(١) انظر ص « ٢٣٧ »

(٢) الفراش مشهور بأنه يطرح نفسه فى النار فيحترق ، قال الشاعر :

« هل أنتم إلا الفرا ش رأى الشهاب وقد توقد
فدنا ، فأحرق نفسـه ولو اهتدى رشد الأبعد . »

(٣) قرع الأنف أى العجز والذلة ، والعرب تقول للكفء : « هو الفحل لا يقرع أنفه » وقد قال ابن زيدون فى إحدى قصائده فى « ص ٦٧ » : « وأنف الفحل لا يقرع . »

(٤) البيت للمتنبي ، وهو من قصيدته المشهورة :

« إلام طماعيـة العاذل ولا رأى فى الحب للعاقل
يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل »

والقصيدة مشهورة فليرجع إليها القارئ فى ديوانه إن شاء .

(٥) أصله وحقيقته .

بِالْجَمَالِ، وَاُسْتَأْثَرْتَ بِالْـكَمَالِ ، وَاُسْتَعْلَيْتَ فى مَرَاتِبِ الجَلَالِ ، وَاُسْتَوْلَيْتَ عَلَى مَحَاسِنِ الْخِلَالِ ، حَتَّى خَيَّلْتَ أَنَّ يُوسُفَ ـ عَلَيْهِ اُلسَّلَامُ ـ حَاسَنَكَ فَغَضَضْتَ مِنْهُ ، وَأَنَّ اُمْرَأَةَ الْعَزِيزِ [1] رَأَتْكَ فَسَلَتْ عَنْهُ ، وَأَنَّ قَارُونَ [2] أَصَابَ بَعْضَ مَا كَنَزْتَ ، وَالنَّطِفَ [3] عَثَرَ عَلَى فَضْلِ مَا رَكَزْتَ ، وَكِسْرَى [4] حَمَلَ غَاشِيَتَكَ ، وَقَيْصَرَ [5] رَعَى مَاشِيَتَكَ، وَالْإِسْكَنْدَرَ قَتَلَ دَارَا [6] فى طَاعَتِكَ ، وَأَرْدَشِيرَ [7] جَاهَدَ مُلُوكَ الطَّوَائِفِ بِخُرُوجِهِمْ عَنْ جَمَاعَتِكَ، وَالضَّحَّاكَ [8] اُسْتَدْعَى مُسَالَمَتَكَ، وَجَذِيمَةَ

---

(١) امرأة العزيز مشهورة بحبها يوسف الصديق وقصتها معروفة .

(٢) قارون : يضرب به المثل فى الثراء والغنى ، وقد جاء فى الكتاب الكريم : « وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . »

(٣) قالوا : إنما هو النطف بن حبير بن حنظلة اليربوعي ، وقد كان مقيما بالبادية مع بنى تميم ، وقد نهب أموالا كان أرسلها كسرى إلى عامله وذهباً ومسكا ولآلئ ، فضرب به المثل بما أصاب من ثروة طائلة ، قال بعض ولده :

« أبى النطف المبارى الشمس، إنى عريق فى السماحة والمعالى . »

(٤) كسرى : اسم يطلق على كل ملك من ملوك الفرس .

(٥) قيصر : اسم يطلق على كل ملك من ملوك الروم .

(٦) يعنى الاسكندر الأكبر المقدونى وتاريخه مشهور ، و « دارا » هو ملك الفرس الذى انتصر عليه الاسكندر وقتله . (٧) اسم ملك من ملوك الفرس .

(٨) الضحاك يزعمون أنه قتل « جمشيد » ـ سيد الشعاع ، وملك الأقاليم السبعة وأول من عمل السلاح واستخرج الابريسم ، والقز ، وألزم أهل الفساد الأعمال الشاقة فى قطع الصخور ، واستخراج المعادن . قالوا : وطال عمر « جمشيد » وتجبر ، وادّعى الربوبية ، فخرج عليه الضحاك ، وتبعه خلق كثير من أعداء « جمشيد » فظفر به الضحاك ، فهرب « جمشيد » بين يديه فظفر به الضحاك وأمر بنشره بمنشار ، وقال له : « إن كنت إلها فادفع عن نفسك »

ثم ملك الضحاك ـ فيما يزعمون ـ وطغى وتجبر وفجر ودان بدين البراهمة ، وكان ـ فيما يقولون ـ أول من غنى له ، وضرب الدنانير والدراهم ، ولبس التاج ، ووضع العشور ، إلى آخر ما زعموه » .

الأَبْرَشَ (١) تَمَنَّى مُنَادَمَتَكَ ، وَشِيرِينَ قَدْنَافَسَتْ بُورَانَ فِيكَ (٢) ، وَبَلْقِيسَ (٣) فَايَرَتِ الزَّبَّاءِ عَلَيْكَ ، وَأَنَّ مَالِكَ بْنَ نُوَيْرَةَ (٤) إِنَّمَا أَرْدَفَ لَكَ ، وَعُرْوَةَ بْنَ جَعْفَرٍ (٥) إِنَّمَا رَحَلَ إِلَيْكَ ، وَكُلَيْبَ (٦) بْنَ رَبِيعَةَ إِنَّمَا حَمَى الْمَرْعَى بِعِزَّتِكَ ، وَجَسَّاساً إِنَّمَا قَتَلَهُ

---

(١) جذيمة الأبرش ، قد سبقت الاشارة إليه فى «ص ٢٠٢» فليرجع إليها من شاء .

(٢) شيرين : هى زوجة كسرى أبرويز ، وبوران هى ابنته ، وقد أشار المعرى إلى شيرين إشارة طريفة فى رسالة الغفران فقال :

ولو قالت شيرين الملكة لكسرى: « جعلنى الله فداءك » لخالفته ـ فى ذلك ـ ونافقته ، وإن راقته ووافقته ، على أنه أخذها من حال دنية ، فجعلها فى النعمة السنية ، وعتبه ـ فى ذلك ـ الأحباء ، وجرت لهم ـ فى ذلك ـ قصص وأنباء ، وقيل له ـ فيما ذكر ـ :

« كيف تطيب نفس الملك لهذه المومس ؟ »

فضرب لهم المثل بالقدح ، جعل فى الاناء الشعر والدم ، وقال للحاضر :

« تجيب نفسك لشرب ما فيه ؟ » فقال : « إنها لا تطيب وهى بالأنجاس قطيب . »

فأراق ذلك الشيء وغسله وهذب وعاءه ، وجعل فيه ـ من بعد ـ مداما . وعرضه على الندامى ، فكلهم بهش أن يشرب ، فقال : « هذا مثل شيرين » .

(٣) بلقيس هى ملك بلاد سبأ ، والزباء هى التى قتلها عمرو بن عدى وقتل أباها جذيمة بن الأبرش ، وقد مر ذكره .

(٤) مالك بن نويرة : من مشهورى فرسان العرب وشجعانهم فى الجاهلية ، وقد أدرك الاسلام . قالوا وارتد وبعث أبو بكر خالد بن الوليد لقتال أهل الردة ، وكان إذا صبح قوماً تسمع الآذان فان سمعهم كف عنهم ، وإن لم يسمعهم قاتلهم إلى أن مر بالبطاح وبه مالك وأصحابه ، فقيل إنهم لم يستمعوا أذاناً فقاتلهم ، وأتى بمالك بن نويرة أسيراً فأمر خالد بقتله . قالوا : واحتج قوم لخالد فى قتله ، وطعن عليه آخرون فى كلام طويل مشهور ، وقد رثاه أخوه متمم رثاءه الرائع ، وقد سمعه عمر فقال له : وددت لو رثيت أخى زيداً بمثل مارثيت به أخاك ، فقال له متمم : والله لو علمت أن أخى صار إلى ماصار إليه أخوك لم أرثه ولم أحزن عليه ، ومن أبيات متمم التى سارت فى رثائه مسير الأمثال قوله :

« وقالوا أتبكى كل قبر رأيته   لقبر ثوى بين اللوى ، فالدكادك

فقلت لهم : « إن الأسى يبعث الأسى   دعونى فهذا كله قبر مالك »

(٥) عروة بن جعفر ـ كان ينتسب إلى جعفر هو وأهل بيته ، وكان يعرف بعروة الرحال لرحلته إلى الملوك ، وكان هو السبب فى حرب الفجار المشهورة .

(٦) كليب بن ربيعة ـ هو رئيس الحيين من بكر وتغلب ، وقد بلغ من جبروته وبغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماه ويقول وحش كذا وكذا فى جوارى فلا تهاج ولا يورد أحد مع أبله ولا توقد نار مع ناره ، ولا يحتبى فى مجلسه ، ولا يتكلم إلا باذنه كما يدلك على ذلك قول أخيه مهلهل فى رثائه :

« نبئت أن النار ـ بعدك ـ أوقدت   واستب ـ بعدك ـ يا كليب المجلس

بِأَنْفَتِكَ ، وَمُهَلْهِلاً[1] إِنَّمَا طَلَبَ ثَأْرَهُ بِهِمَّتِكَ ، وَالسَّمَوْءَلَ[2] إِنَّمَا وَفَى عَنْ عَهْدِكَ ، وَالْأَحْنَفَ[3] إِنَّمَا احْتَبَى فِي بُرْدَتِكَ ، وَحَاتِمًا[4] إِنَّمَا جَادَ بِوَفْرِكَ ، وَأَقْرَى الْأَضْيَافَ

وتكلموا فى — أمر كل عظيمة — لو كنت حاضر أمرهم لم ينبسوا . »

وقد قتله جساس بن مرّة زوج أخت كليب ، وكان ذلك سبباً فى حرب البسوس .

(١) مهلهل بن ربيعة — هو أخو كليب والآخذ بثأره فى حرب طويلة تغنينا شهرتها عن ذكرها .

(٢) السموءل — هو السموءل بن عاديا ، وهو من يهودى يثرب ، ويضرب به المثل — فى الوفاء — بعد حادثته المشهورة مع امرئ القيس الذى أودع عنده وديعة ومضى ، وحاول الحارث بن ظالم أن يأخذها من السموءل فأبى ، ثم ظفر الحارث بابنه ، فقال للسموءل : إن لم تعطنى وديعة امرئ القيس قتلت ابنك فأبى . فقتل الحارث ابن السموءل وانصرف ، والسموءل هو صاحب اللامية المشهورة التى يقول فى أولها :

« إذا المرء لم يدنس — من اللؤم — عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل — على النفس — ضيمها ... فليس — إلى حسن الثناء — سبيل . »

(٣) الأحنف — هو الأحنف بن قيس ويضرب به المثل فى الحلم .

(٤) حاتم — هو حاتم الطائى وهو أشهر من ضرب به المثل فى الجود .

قالوا : — « وأجواد العرب فى الجاهلية ثلاثة :

« حاتم الطائى ، هرم بن سنان ، كعب بن مامه »

قالوا « وحاتم أشهرهم ذكراً » .

وقد أدرك مولد النبىّ — صلى الله عليه وسلم — ومات قبل بعثه ، ومن مختار شعره قوله : —

« أعاذل إن المال غير مخلد ... وإن الغنى عارية فتزود

وكم من جواد يفسد اليوم جوده ... وساوى قد ذكرنه الفقر فى غد

وكم لى آباء ، فما كف جودهم ... ملام ، ومن أيديهم خلقت يدى . »

وقوله :

« لحا الله صعلوكا مناه وهمه ... — من العيش — أن يلقى لبوسا ومطعما

ولله صعلوك يساور همه ... ويمضى — على الأحداث — والهول — مقدما

إذا ما رأى يوماً مكارم أعرضت ... تيمم كبراهن ، ثمت صمما . »

وقوله :

« أماوى إن المال غاد ورائح ... ويبقى — من المال — الأحاديث والذكر

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق به الصدر

أماوى إن يصبح صداى بقفرة ... — من الأرض — لا ماء لدى ولا خمر

ترى أن ما أهلكت لم يك ضرنى ... وأن يدى — مما بخلت — به صفر

وقد علم الأقوام لو أن حاتما ... أراد ثراء المال كان له وفر

وأنى لا آلو — بمالى — صنيعة ... فأوله زاد وآخره ذخر

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى ... وكلا سقاناه — بكأسيهما — الدهر

فما زادنا بغياً — على ذى قرابة — ... غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر . »

بِبِشْرِكَ ، وَزَيْدَ(١) بْنَ مُهَلْهِلٍ إِنَّمَا رَكِبَ بِفَخِذَيْكَ ، وَالسُّلَيْكَ(٢) بْنَ السُّلَكَةِ إِنَّمَا عَدَا عَلَى رِجْلَيْكَ ، وَعَامِرَ بْنَ مَالِكٍ(٣) إِنَّمَا لَاعَبَ الْأَسِنَّةَ بِيَدَيْكَ ، وَقَيْسَ(٤) بْنَ زُهَيْرٍ إِنَّمَا اسْتَعَانَ بِدَهَائِكَ ، وَإِيَاسَ بْنَ مُعَاوِيَةَ(٥) إِنَّمَا اسْتَضَاءَ بِمِصْبَاحِ ذَكَائِكَ ،

---

(١) زيد بن مهلهل — أدرك الاسلام ، وكان فارساً مشهوراً ، بعيد الصيت ، وشاعراً نابهاً ، وكان يسمى زيد الخيل لكثرة ماعنده من الخيل ، فلما أسلم سماه النبىّ — صلى الله عليه وسلم — زيد الخير .

(٢) السليك بن السلكة جاهلى تميم ، وهو أحد صعاليك العرب وأحد لصوصهم العدائين الذين كانوا لايلحقون ، قال ابن الرومى فى وصف شهر رمضان :

« يمشى الهوينا ، وأما حين يطلبنا فلا السليك يدانيه ولا السلكة . »

(٣) عامر بن مالك — المشهور بملاعب الأسنة ، وأمه أم البنين المشهورة التى افتخر بها لبيد عند النعمان فى قوله :

« نحن بنى أم البنين الأربعه . »

(٤) قيس بن زهير — هو صاحب الحروب المشهورة بين عبس وذبيان بسبب الفرسين (داحس والغبراء) وكان يضرب به المثل فى الدهاء ، فيقال : « أدهى من قيس . »

(٥) إياس بن معاوية — هو صاحب الفراسة والأجوبة السديدة الرائعة ، وكان قاضى البصرة ، ويضرب به المثل فى الذكاء . قال أبو تمام :

« إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس . »

قالوا : وكان سبب ولايته القضاء أن عمر بن عبد العزيز أرسل رجلا من أهل الشام وأمره أن يجمع بين إياس والقاسم بن أبى ربيعة ويولى القضاء أنفذهما ، فجمع بينهما ، فكان كل منهما يمتنع من الولاية ، فقال إياس للشآمى : « سل الحسن البصرى عنى وعن القاسم ، وسل بن سيرين . » فعلم القاسم أنه إن سأل عنهما أشارا به ، فقال للشآمى : « لا تسأل عنه ، فوالله الذى لا إله إلا هو إن إياساً لأفضل منى وأعلم بالقضاء ، فإن كنت ممن يصدق ، فينبغى لك أن تصدق قولى ، وإن كنت كاذباً فما يحل لك أن أن توليني القضاء وأنا كذاب » ، فقال إياس للشآمى : «إنك جئت برجل فأقمته على شفير جهنم فافتدى نفسه من النار بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو من النار » فقال الشآمى : « أما إذ فطنت لها فانى أريدك » فاستقضاه ، فلم يزل على القضاء مدة ثم هرب . قالوا : « ولما ولى القضاء دخل عليه الحسن البصرى فبكى إياس وقال له : « بلغنى أن القضاة ثلاثة : رجل مال به الهوى فهو فى النار ، ورجل اجتهد فأخطأ فهو فى النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو فى الجنة » فقال الحسن « إنّ فيما قص الله تعالى فى النبى داود مايرد قول مولاى . » ثم قرأ قوله تعالى « ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً »

فحمد سليمان ولم يذم داود ، وأخباره كثيرة مشهورة فى كتب الأدب ، فلا حاجة بنا إلى الافاضة .

وَسَحْبَانَ[1] إِنَّمَا تَكَلَّمَ بِلِسَانِكَ ، وَعَمْرَو[2] بْنَ الْأَهْتَمِ إِنَّمَا سَحَرَ بِبَيَانِكَ ، وَأَنَّ الصُّلْحَ ـ بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ ـ تَمَّ بِرِسَالَتِكَ[3] ، وَالْحَمَالَاتِ ـ بَيْنَ عَبْسٍ وَذُبْيَانَ ـ أُسْنِدَتْ إِلَى كَفَالَتِكَ ، وَأَنَّ احْتِيَالَ هَرِمٍ ـ لِعَلْقَمَةَ وَعَامِرٍ حَتَّى رَضِيَا ـ كَانَ ذَاكَ عَنْ

---

(١) سحبان وائل ـ يضرب به المثل فى الفصاحة والبيان والقدرة على الخطابة ، أدرك الاسلام ومات سنة أربع وخمسين . قال الأصمعى « وكان إذا خطب يسيل عرقاً ، ولا يعيد كلمة ، ولا يتوقف ، ولا يقعد حتى يفرغ » قالوا : « وقدم على معاوية وفد من خراسان فيهم ـ سعيد بن عثمان ـ فطلب سحبان فلم يوجد فى منزله فاقتضب ـ من ناحيته ـ اقتضاباً وأدخل عليه فقال : « تكلم » فقال : « انظروا لى عصا تقوّم من أودى » قالوا : « وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين . » قال : « ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه وعصاه فى يده . » فضحك معاوية وقال : « هاتوا عصا فجاءوا بها إليه فركلها برجله ولم يرضها . » وقال : « هاتوا عصاى » فأتوا بها فأخذها ، ثم قام وتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ما تنحنح ، ولا سعل ، ولا توقف ، ولا ابتدأ فى معنى فخرج منه وقد بقى عليه منه شىء ، فما زالت تلك حاله حتى أشار معاوية بيده ، فأشار إليه سحبان : ألا تقطع على كلامى ، فقال معاوية « الصلاة » قال : « هى أمامك ، ونحن فى صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد » ، فقال معاوية : «أنت أخطب العرب . » فقال سحبان : « والعجم والجنّ والانس »

(٢) عمرو بن الأهتم ـ من سادات بنى تميم وخطبائهم فى الجاهلية والاسلام ، وكان ـ لجماله ـ يدعونه : «المكحل» قالوا : « ووفد على النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو والزبرقان بن بدر فأسلما وأكرمهما النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ » فسأل النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر بحضوره فقال عمرو : « مطاع فى أدنيه ، شديد العارضة فى قومه ، مانع لما وراء ظهره » .

فقال الزبرقان : « يارسول الله إنه ليعلم منى أكثر مما قال ، ولكنه حسدنى . » فقال عمرو : «أما والله لئن علمت ما قد علمت ، إنه لزمن المروءة ، أحمق الأب ، لئيم الخال ، ضيق العطن ، حديث الغنى .» ورأى تغير النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما اختلف قوله ، فقال : « يارسول الله لا تعجب ، لما رضيت قلت أحسن ما علمت ، ولما غضبت قلت أقبح ما علمت ، فوالله ما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الثانية . » فقال النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنّ من البيان لسحرا . » وتوفى سنة ٥٧ هـ ـ ومن مأثور حكمه قوله :

« أشجع الناس من رد جهله بحلمه . » وقوله « أفّ للخمر لو كان شىء يشترى ما كان شىء أنفس من العقل ، فالعجب لمن يشترى الحمق بماله فيدخله فى رأسه فيقئُ فى جيبه ويسلح فى ذيله . » وكان ممن حرّم الخمر ـ على نفسه ـ فى الجاهلية .

(٣) بكر وتغلب ابنا وائل ـ هم الذين أشعلوا حرب البسوس ، وقد دامت سنين طويلة قتل فيها عظماء الحيين وأخبارها مشهورة .

إِشَارَتِكَ، وَجَوَابُهُ لِعُمَرَ - وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ أَيِّهِمَا كَانَ يَنْفِرُ - وَقَعَ عَنْ إِرَادَتِكَ[١]، وَأَنَّ الْحَجَّاجَ[٢] تَقَلَّدَ وِلَايَةَ الْعِرَاقِ بِجَدِّكَ، وَقُتَيْبَةَ[٣] فَتَحَ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ بِسَعْدِكَ، وَالْمُهَلَّبَ[٤] أَوْهَنَ شَوْكَةَ الْأَزَارِقَةِ بِيَدِكَ، وَفَرَّقَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ بِكَيْدِكَ، وَأَنَّ هُرْمُسَ[٥] أَعْطَى بَلِينُوسَ[٦] مَا أَخَذَ مِنْكَ، وَأَفْلَاطُونَ[٧] أَوْرَدَ عَلَى إِرِسْطَاطَالِيسَ[٨] مَا نَقَلَ عَنْكَ، وَبَطْلَيْمُوسَ[٩] سَوَّى الْإِصْطِرْلَابَ بِتَدْبِيرِكَ، وَصَوَّرَ الْكُرَةَ عَلَى تَقْدِيرِكَ،

---

(١) يشير بذلك إلى عمر بن الخطاب حين قال لهرم بن قطبة بعد أن أسلم: « أيهما كان الأفضل عندك يعني عامراً وعلقمة » فقال: « لو قلت الآن فيهما كلمة لعادت الحرب بين الحيين. » فأعجب بذلك القول عمر وسرّ من سياسته وبعد نظره وقال له: « بحقّ حكمتك العرب »

(٢) الحجاج ــ هو الحجاج بن يوسف الثقفي ولد سنة ٤١ ونشأ بالطائف، وولي الكوفة، واشتهر بسفك الدماء، وهو الذي حاصر مكة وفيها عبد الله بن الزبير وضربها بالمنجنيق (انظر ص ١٦ من كتاب مصارع الأعيان) وحروبه مع شبيب، وعبد الرحمن بن الأشعث مشهورة، وقد ذكرناها في مصارع الأعيان من «ص٥٧ إلى ص١١٥» فليرجع إليها من شاء، وكان يعجب بسرعة الجواب، وله نوادر كثيرة في ذلك، قالوا: إنه قال ذات يوم لأحمد بن يونس « فكرت في أمرك فوجدت دمك وما لك حلالا » فقال: « أيها الأمير أشدّ ما في القضية أن هذا الرأي بعد الفكر » فضحك وعفا عنه، وقالوا إنه أتي بقوم من أصحاب ابن الأشعث فأمر بضرب أعناقهم، فقام رجل فقال: « أيها الأمير إن لي عندك يدا » فقال « وما هي؟ » قال « شتمك رجل بحضرة ابن الأشعث فرددت عنك » فقال: « من يشهد لك؟ » فأشار: «هذا» وأشار بيده إلى رجل منهم، فقال: « صدق أيها الأمير» فقال « ما منعك أن تفعل كما فعل؟» قال « بغضي لك » ، فقال الحجاج « أطلقوا هذا ليده عندنا، وهذا لصدقه في مثل هذا الوقت » قال مالك ابن دينار: « والله لربما رأيت الحجاج يتكلم على المنبر ويذكر حسن صنعه إلى العراق وسوء صنعهم له حتى يخيل إلى أنه مظلوم » وقال الحسن البصري « لقد وقذتني كلمة سمعتها من الحجاج « إن امرءا ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لجدير أن تطول حسرته . »

(٣) قتيبة ــ هو قتيبة بن مسلم الباهلي نشأ في المروانية وولي الأمارة، وكان شجاعاً فطناً .

(٤) المهلب ــ هو المهلب بن أبي صفرة وهو الذي يعزى إليه الفضل في القضاء على الخوارج (انظر ص ٩٢ : ٩٧ من كتاب مصارع الأعيان)

(٥) هرمس ــ هو الذي يزعم نفر من الصابئة أنه نبيّ مرسل وأنه إدريس عليه السلام ويسندون إليه شرائعهم في تعظيم الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر والتقرّب إليها بالذبائح وغيرها .

(٦) بلينوس ــ هو الذي تزعم الصابئة أن رسالة هرمس انتقلت من بعده إليه .

(٧ ، ٨) أفلاطون وإرسطاطاليس ــ علمان من أعلام فلاسفة اليونان وقادة الفكر الممتازين .

(٩) بطليموس ــ هو صاحب كتاب المجسطي، والجغرافيا، والاسطرلاب وغير ذلك، وهو أول من لعرض الفلك والهندسة .

وَبقْرَاطَ (١) عَلِمَ الْعِلَلَ وَالأَمْرَاضَ بِلُطْفِ حِسِّكَ ، وَجَالِينُوسَ (٢) عَرَفَ طَبَائِعَ الْحَشَائِشِ بِدِقَّةِ حَدْسِكَ ، وَكِلَاهُمَا قَلَّدَكَ فِي الْعِلَاجِ ، وَسَأَلَكَ عَنِ الْمِزَاجِ ، وَاسْتَوْصَفَكَ تَرْكِيبَ الْأَعْضَاءِ ، وَاسْتَشَارَكَ فِي الدَّاءِ وَالدَّوَاءِ ، وَأَنَّكَ نَهَجْتَ لِأَبِي مَعْشَرٍ (٣) طَرِيقَ الْقَضَاءِ ، وَأَظْهَرْتَ جَابِرَ بْنَ حَيَّانَ (٤) عَلَى سِرِّ الْكِيمِيَاءِ ، وَأَعْطَيْتَ النَّظَّامَ (٥) أَصْلاً أَدْرَكَ بِهِ الحَقَائِقَ ، وَجَعَلْتَ لِلْكِنْدِيِّ (٦) رَسْماً اسْتَخْرَجَ

---

(١) بقراط — علم من أعلام الطب واليونان .

(٢) جالينوس — من العلماء الممتازين الذين كان لهم الفضل في ترقية فن الطبّ ، وقد عرف خواص الحشائش ، وقاس أمزجتها وطبائعها ، وشرّح الأعضاء ، ووضع الكتب النفيسة في الطب .

(٣) أبو معشر : كان في أول أمره من أصحاب الحديث ببغداد ، وكان يشنع على الكندي الفيلسوف المعروف ويغري العامة به — قالوا « فدس له الكندي من حسن له النظر في علم الحساب والهندسة فأحبهما ثم عدل إلى أحكام النجوم فتمعن ومهر وانقطع بذلك شرّه عن الكندي لأنه من جنس علومه .

(٤) جابر بن حيان — من أعلام العلماء العرب في الكيمياء .

(٥) النظام — إمام من أئمة المعتزلة ، وكان آية في الذكاء من صغره . قالوا : إنه جاء إلى الخليل بن أحمد ليعلمه ، فقال له الخليل يمتحنه وفي يده قدح زجاج : « يا بني صف لي هذه الزجاجة » فقال : « أبمدح أم بذمّ » قال « بمدح » قال « تريك القذى، ولا تقبل الأذى، ولا تستر ما وراءها » قال « فذمها » قال « يسرع إليها الكسر ، ولا تقبل الجبر » قال « صف لي هذه النخلة » وأومأ إلى نخلة في داره . قال « بمدح أم ذمّ ؟ » قال « بمدح » قال « حلو جناها، باسق منتهاها، ناضر أعلاها » قال « فذمها » قال « صعبة المرتقى، بعيدة المجتنى، محفوفة بالأذى » فقال الخليل « يا بني نحن إلى التعلم منك أحوج » ثم اشتغل على أبي الهذيل العلاف بمذهب الكلام إلى أن برع وظهر في أيام المعتصم وتبعه خلق كثير — وحكي عنه قال « مات لصالح بن عبد القدوس ولد ، فمضى إليه أبو الهذيل والنظام معه وهو غلام حدث كالتبع له فرآه محترقاً ، فقال أبو الهذيل « لا أعرف لجزعك وجهاً إذا كان الناس عندك كالزرع » فقال صالح « يا أبا الهذيل إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك » فقال أبو الهذيل « وما كتاب الشكوك ؟ » قال « كتاب وضعته من قرأه شكّ فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان » فقال له النظام « فشك أنت في موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت وإن مات ، وشك أيضاً في أنه قد قرأ هذا الكتاب وإن لم يكن قرأه » فحصر صالح وكان مذهبه مذهب السوفسطائية فإنهم يزعمون أن الأشياء لا حقيقة لها ، وإن ما نستبعده يجوز أن يكون على ما نشاهده ، ويجوز أن يكون على غير ما نشاهده ، وأن حال اليقظان كحال النائم ، وتوفي سنة ٢٢١ هـ وسنه ست وثلاثون سنه .

(٦) الكندي — يعقوب الكندي من كبار فلاسفة الاسلام — انتقل إلى بغداد واشتغل بفنّ الأدب ، ثم بعلوم الفلسفة — وحل مشكلات الأوائل وله مؤلفات بارعة — وهو مشهور بالبخل ، وكان يقول : من شرف البخل أنك تقول للسائل « لا » ورأسك مرفوع إلى فوق ، ومن ذل العطاء أنك تقول « نعم »

بِهِ الدَّقائِقَ ، وَأَنَّ صِناعَةَ الْأَلْحَانِ اخْتِراعُكَ ، وَتَأْلِيفَ الْأَوْتارِ وَالْأَنْقارِ تَوْلِيدُكَ وَابْتِداعُكَ ، وَأَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ بْنَ يَحْيَى[١] بارِي أَقْلامِكَ ، وَسَهْلَ[٢] بْنَ هارُونَ مُدَوِّنُ كَلامِكَ ، وَعَمْرَو بْنَ بَحْرٍ[٣] مُسْتَمْلِيكَ ، وَمالِكَ بْنَ أَنَسٍ[٤] مُسْتَفْتِيكَ ، وَأَنَّكَ الَّذِي أَقامَ الْبَراهِينَ ، وَوَضَعَ الْقَوانِينَ ، وَحَدَّ الْماهِيَّةَ ، وَبَيَّنَ الْكَيْفِيَّةَ وَالْكَمِّيَّةَ[٥] ،

وأنت مشير برأسك إلى أسفل ، ومؤلفاته كثيرة منها (أقسام العقل الانسي) وكتاب (الجوامع الفكرية) وكتاب (الفلسفة الأولى) وغيرها .

(١) عبد الحميد بن يحيى — هو عبد الحميد بن سعيد الكاتب المشهور ، وكان يقال « بدأت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد ، وكان في أول نشأته معلم صبيان بالكوفة ، فلما اتصل بمروان الحمدي قبل أن يصل إلى الخلافة صحبه وانقطع إليه فلما جاء الأمر بالخلافة سجد مروان وأصحابه إلا عبدالحميد ، فقال له مروان « لم لم تسجد ؟ » فقال « ولم أسجد على أن كنت معنا فطرت عنا يعني بالخلافة » فقال « إذن تطير معي » قال « الآن طاب السجود » وسجد وظل كاتب مروان طول خلافته .

(٢) سهل بن هارون — من أهل نيسابور — رحل إلى البصرة فنسب اليها وكان شعوبياً ، واشتهر بالبخل . قال الجاحظ : نزل رجل بسهل بن هارون فقال : « هب لي ما لا ضرر به عليك » فقال : « وما هو يا أخي ؟ » فقال : « درهم » قال : « لقد هونت الدرهم وهو طابع الله في أرضه لا يعصى ، وهو عشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف عشر دية المسلم ، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذي هونته ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم » قال : « فانصرف الرجل ولولا انصرافه لم يسكت » وحكى دعبل الخزاعي قال : « أتينا يوماً عند سهل بن هارون وأطلنا الحديث حتى أضر به الجوع فدعا بغدائه فأتى بصحفة فيها مرق تحته ديك هرم فأخذ كسرة وتفقد ما في الصحفة فلم يجد رأس الديك فبقي مطرقاً ثم قال للغلام : « أين الرأس ؟ » قال : « رميت به » قال : « ولم ؟ » قال : « لم أظنك تأكله » قال . « ولم ظننت ذلك ؟ فوالله إني لأمقت من يرمي برجله ، فكيف برأسه ؟ والرأس رئيس يتفاءل به ، وفيه الحواس الخمسة ، ومنه صياح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فرقه الذي يتبرك به ، وعينه التي يضرب بصفائها المثل ، ودماغه عجيب لوجع الكلية ، ولم أر عظما قط أهش من رأسه فإن كان بلغ من جهلك أن لا تأكله فعندنا من يأكله ، أما علمت أنه خير من طرف الجناح والساق ، انظر أين رميته فقال : « والله ما أدري » قال : « لكني أدري أنك رميته في بطنك » .

(٣) عمرو بن بحر — هو الكاتب المشهور ويكنى بأبي عثمان ويعرف بالجاحظ وهو ممن يفخر به البيان العربي حتى قيل : « مما فضل الله به أمة محمد — صلى الله عليه وسلم — على غيرها من الأمم : عمر بن الخطاب في سياسته ، والحسن البصري في علمه ، والجاحظ في بيانه » — نشأ ببغداد وتتلمذ على النظام وانفرد بحسن البيان والفصاحة ، وأخباره مشهورة في كتب الأدب فلا داعي للافاضة فيها —

(٤) مالك بن أنس — هو صاحب المذهب المشهور .

(٥) الماهية — ماهية الشيء ما يحصل في الذهن من صورة كلية مطابقة له بعد حذف المشخصات عنه إن كان جزئياً . قالوا : وهي أحد حدود العلم عند الحكماء فان العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام . علم (ما) وعلم

وَنَاظَرَ فِي الْجَوْهَرِ وَالْعَرَضِ (١)، وَمَيَّزَ الصِّحَّةَ مِنَ الْمَرَضِ ، وَفَكَّ الْمُعَمَّى (٢) ، وَفَصَلَ بَيْنَ الِاسْمِ وَالْمُسَمَّى، وَصَرَّفَ وَقَسَّمَ ، وَعَدَّلَ وَقَوَّمَ ، وَصَنَّفَ الْأَسْمَاءَ وَالْأَفْعَالَ، وَبَوَّبَ الظَّرْفَ وَالْحَالَ ، وَبَنَى وَأَعْرَبَ ، وَنَفَى وَتَعَجَّبَ ، وَوَصَلَ وَقَطَعَ ، وَثَنَّى وَجَمَعَ ، وَأَظْهَرَ وَأَضْمَرَ ، وَاسْتَفْهَمَ وَأَخْبَرَ ، وَأَهْمَلَ وَقَيَّدَ ، وَأَرْسَلَ وَأَسْنَدَ ، وَبَحَثَ وَنَظَرَ ،وَتَصَفَّحَ الْأَدْيَانَ ، وَرَجَّحَ بَيْنَ مَذْهَبَيْ مَانِي وَغَيْلَانَ (٣) ، وَأَشَارَ بِذَبْحِ الْجَعْدِ (٤) ، وَقَتْلِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ ، وَأَنَّكَ لَوْ شِئْتَ خَرَقْتَ الْعَادَاتِ ، وَخَالَفْتَ الْمَعْهُودَاتِ، فَأَحَلْتَ الْبِحَارَ عَذْبَةً ، وَأَعَدْتَ السِّلَامَ رَطْبَةً (٥)، وَنَقَلْتَ غَدًا فَصَارَ

(كيف) وعلم (كم) . فالعلم الذي يطلب منه ماهيات الأشياء هو العلم الالهي ، والذي يطلب منه كيفيات الاشياء هو الطبيعي ، والذي يطلب منه كميات الأشياء هو الرياضي .

(١) الجوهر والعرض : الجوهر — فيما يقولون — هو الجسم ، كالانسان والفرس والحجر ونحو ذلك . والعرض الحال في الجسم المتعاقب عليه كالألوان من بياض ، وسواد وحمرة، والحركات المختلفة من قيام وقعود واضطجاع ، وجميع ماعدا الجوهر فاسم العرض واقع عليه .

(٢) وفك المعمى — وهو اللغز ، ارجع إلى « ص ٢٨٤ »

وكان الجاحظ يقول « ليس المعمى بشيء قد كان كيسان مستملي أبي عبيدة يسمع خلاف ما يقال ، ويكتب خلاف ما يسمع ، ويقرأ خلاف ما يكتب، وكان أعلم الناس باستخراج المعمى — قالوا : « وكان النظام — على قدرته على أصناف العلوم — لايقدر على استخراج أخف ما يكون من المعمى .

(٣) ماني وغيلان — ماني هو الذي تنسب إليه المانوية وهو ثنوي — نسبة إلى الاثنين — لزعمه أن صانع العالم اثنان ، أحدهما فاعل الخير وهو النور ، والآخر فاعل الشر وهو الظلمة ، وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا حساسين سميعين بصيرين وهما مختلفان في النفس والصورة ، متضادان في الفعل والتدبير ، فجوهر النور فاضل حسن نير ونفسه خيرة قديمة نافعة . منها الخير والسرور والصلاح وليس منها من الشرّ شيء ، وجوهر الظلمة على ضد ذلك جميعه ، وقد أشار المتنبي إلى هذا المذهب بقوله :

« وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب . »

وكان ماني راهباً بحران. قالوا : «وكان مؤمنا بالمسيح معظماً من أساقفة النصارى ، ثم وشى به حاسدوه فأحدث ديناً ودعا إليه وتبعه كثير من المجوس .

وغيلان هو ابن يونس القدري الدمشقي . قالوا كان أبوه مولى لعثمان بن عفان ، وكان غيلان أول من تكلم في القدر ، وخلق القرآن في الاسلام في رأى بعض المؤرّخين .

(٤) الجعد — هو مولى بني الحكم وكان يعلم مروان بن محمد الجعدي ويقطن دمشق وينسب اليه بعض المؤرخين أنه أول من تكلم بخلق القرآن .

(٥) السلام: الحجارة الصلبة .

أَمْسًا ، وَزِدْتَ فى الْعَنَاصِرِ فَكَانَتْ خَمْساً [١] ، وَأَنْتَ الْمَقُولُ فِيهِ :

« كُلُّ الصَّيْدِ [٢] فى جَوْفِ الْفَرَا . » وَ

« لَيْسَ عَلَى اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ   أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فى وَاحِدِ [٣] . »

وَالْمَعْنِيُّ بِقَوْلِ أَبِى تَمَّام :

« فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا   عَلَى مَا فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطِّبَاعِ . »

وَالْمُرَادُ بِقَوْلِ أَبِى الطَّيِّبِ :

« ذُكِرَ الْأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً   كُنْتَ الْبَدِيعَ الْفَرْدَ مِنْ أَبْيَاتِهَا . »

فَكَدَمْتَ فى غَيْرِ مَكْدَمٍ [٤] ، وَاسْتَسْمَنْتَ ذَا وَرَمٍ [٥] ، وَنَفَخْتَ فى غَيْرِ ضَرَمٍ [٦] ، وَلَمْ تَجِدْ لِرِيحٍ مَهَزًّا ، وَلَا لِشَفْرَةٍ مَحَزًّا ، بَلْ رَضِيتَ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ ،

---

(١) العناصر : هى فى رأى القدماء أربعة : النار ، والهواء ، والماء ، والتراب .

(٢) كل الصيد فى جوف الفرا — مثل يضرب فى وصف الشيء المربى على غيره قالوا : « وأصله أن قوماً خرجوا للصيد فصاد أحدهم ظبياً وآخر أرنباً وآخر فرا ، وهو الحمار الوحشى ، فقال لأصحابه : كل الصيد فى جوف الفرا — يعنى أن جميع صيدكم يسير فى جنب ما صدته ، وزعم بعضهم أن الفرا اسم واد كثير الصيد وهو قول مردود ، وأما قول الشاعر :   « وواد كجوف العير قفر قطعته »

فليس من هذا وإنما أراد الوادى المعروف بجوف حمار ، وحمار اسم رجل قديم كان فى واد خصيب فظلم عشيرته ، فأرسل الله عليه ناراً فأحرقته وأحرقت الوادى فخلا وسكنته الجن فقيل : أخلى من جوف حمار ، وحجب يوماً أبو سفيان بن حرب عن النبى — صلى الله عليه وسلم — ثم أذن له فقال : « يا رسول الله ما كدت تأذن لى حتى تأذن لحجارة الجلهتين » فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « يا أبا سفيان كل الصيد فى جوف الفرا » .   (٣) هذا البيت من قصيدة لأبى نواس فى مدح الفضل بن يحيى .

(٤) كدمت فى غير مكدم — عضضت فى غير موضع للعض ، وهذا المثل يضرب لمن يطلب ما يعجز عنه

(٥) فى هذا إشارة إلى قول الشاعر :

« فلو ناراً نفخت بها أضاءت   ولكن أنت تنفخ فى رماد
لقد أسمعت — لو ناديت حيا —   ولكن لا حياة لمن تنادى . »

(٦) يشير إلى قول المتنبى لسيف الدولة معرضاً بأبى فراس :

« أعيذها نظرات منك صادقة   أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم . »

وَتَمَنَّيْتَ الرُّجُوعَ بِخُفَّىْ حُنَيْنٍ[1] ، لِأَنِّى قُلْتُ :

« لَقَدْ هَانَ[2] مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ . » وَأَنْشَدْتُ :

« عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا ... عَجَائِبَ، حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ[3] »

وَنَخَرْتُ[4] وَبَسَرْتُ[5] ، وَعَبَسْتُ فَكَفَرْتُ ، وَأَبْدَأْتُ وَأَعَدْتُ ، وَأَبْرَقْتُ وَأَرْعَدْتُ[6] وَهَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِى ، وَلَوْلَا أَنَّ لِلْجِوَارِ ذِمَّةً ، وَلِلضِّيَافَةِ حُرْمَةً ، لَكَانَ الْجَوَابُ فِى قَذَالِ[7] الدُّمُسْتُقِ ، وَالنَّعْلُ[8]

---

(١) حنى حنين — مثل يضرب لمن يرجع بالخيبة — وكان حنين فيما يقولون إسكافا من أهل الحيرة ساومه أعرابى بخفين ولم يشتر منه شيئاً فغاظه ذلك فخرج عليه وعلق أحد الخفين على شجرة فى طريقه وتقدم قليلا وطرح الآخر وكمن ، فجاء الأعرابى فرأى أحد الخفين فوق الشجرة ، فقال « ما أشبه هذا بخف حنين لو كان معه آخر لتكلف أخذه » ثم تقدم قليلا فرأى الخف الآخر مطروحا فنزل وعقل بعيره فأخذه ورجع ليأخذ الأول فخرج حنين من المكمن وأخذ بعيره وذهب ورجع الأعرابى إلى أهله بخفى حنين .

(٢) لقد هان من بالت عليه الثعالب — شطر بيت هو :

« أرب يبول الثعلبان برأسه ... لقد هان من بالت عليه الثعالب . »

قاله رجل من بنى سليم كان يعبد صنماً ، فرأى ذات يوم ثعلباً يبول على الصنم فكسره وأنشد هذا البيت وذهب إلى النبىّ — صلى الله عليه وسلم — فأسلم .

(٣) البيت لأبى تمام من قصيدة رثاء ، منها قوله :

وقلت : « أخى » قالوا « أخ ذو قرابة » ؟ ... فقلت لهم : « إن الشكول أقارب »
صديقى فى رأيى وعزمى ومذهبى ... وإن باعدتنا فى الأصول المناسب
عجبت لصبرى بعده — وهو ميت — ... وكنت امرءاً أبكى دماً وهو غائب
على أنها الأيام قد صرن كلها ... عجائب حتى ليس فيها عجائب . »

(٤) نخرت — النخير صوت الأنف عند الغضب .

(٥) والبسر — الاستعجال بالشىء قبل أوانه . وهو فى قوله تعالى : « عبس وبسر » معناه أظهر العبوس قبل أوانه . (٦) الابراق والارعاد — كناية عن التهديد وأصلها من البرق والرعد. قال الشاعر:

«فقل للسماء : ارعدى وابرقى ... فاما وصلنا إلى المنزل . »

(٧) أى لفعلت بهذه المرأة التى أرسلتها رسولا من قبلك — لولا حرمة الضيافة — فعل سيف الدولة بالدمستق ، وهو لقب يطلق على كل قائد من قواد جيش الروم ، وقد هزمه سيف الدولة وأشار المتنبى إلى ذلك بقوله :

« وكنت إذا كاتبته قبل هذه ... كتبت إليه فى قذال الدمستق . »

(٨) مثل تضربه العرب وقد ضمنه أحد الشعراء قوله :

« إن عادت العقرب عدنا لها ... وكانت النعل لها حاضرة

حَاضِرَةٌ إنْ عَادَتِ الْعَقْرَبُ ، وَالْعُقُوبَةُ مُمْكِنَةٌ إِنْ أَصَرَّ الْمُذْنِبُ ، وَهَبْهَا لَمْ تُلَاحِظْكَ بِعَيْنِ كَلِيلَةٍ عَنْ عُيُوبِكَ ، مِلْؤُهَا حَبِيبُهَا [١] ، حَسَنٌ فِيهَا [٢] مَنْ تَوَدُّ وَكَانَتْ إِنَّمَا حَلَّتْكَ بِحُلَاكَ ، وَوَسَمَتْكَ بِسِيمَاكَ ، وَلَمْ تُعِرْكَ شَهَادَةً ، وَلَا تَـكَلَّفَتْ لَكَ زِيَادَةً ، بَلْ صَدَقَتْ سِنَّ بِكْرِهَا فِيمَا ذَكَرَتْهُ عَنْكَ ، وَوَضَعَتِ الْهِنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقَبِ [٣] بِمَا نَسَبَتْهُ إِلَيْكَ ، وَلَمْ تَـكُنْ كَاذِبَةً فِيمَا أَثْنَتْ بِهِ عَلَيْكَ ، فَالْمُعَيْدِيُّ [٤] تَسْمَعُ بِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ :

هَجِينُ الْقَذَالِ [٥] ، أَرْعَنُ [٦] السِّبَالِ ، طَوِيلُ الْعُنُقِ وَالْعِلَاوَةِ [٧] ، مُفْرِطُ الْحُمْقِ وَالْغَبَاوَةِ ، جَافِي الطَّبْعِ ، سَيِّئُ الْجَابَةِ وَالسَّمْعِ ، بَغِيضُ الْهَيْئَةِ ، سَخِيفُ الذَّهَابِ وَالْجِيئَةِ ، ظَاهِرُ الْوَسْوَاسِ ، مُنْتِنُ الْأَنْفَاسِ ، كَثِيرُ الْمَعَايِبِ ، مَشْهُورُ الْمَثَالِبِ :

---

(١) إشارة إلى قول المجنون :

« أهابك إجلالا ، ومابك قدرة علىّ ، ولكن ملء عين حبيبها. »

(٢) فى هذا إشارة إلى قول عمر بن أبى ربيعة :

ولقد قالت لجارات لها وتعرت — ذات يوم — تبترد
أكما ينعتنى تبصرننى — عمركن الله — أم لم يقتصد؟
فتضاحكن وقد قلن لها : « حسن فى كل عين من تود. »

(٣) الهناء : القطران ، والنقب : الجرب ، وهذا المثل يضرب لمن يضع الأمور فى مواضعها ، وهو نصف بيت لدريد بن الصمة فى الخنساء وهو :

« متبذلا تبدو محاسنه يضع الهناء مواضع النقب. »

(٤) مثل يضرب لمن يكون مخبره خيراً من منظره . قاله النعمان لشقة بن ضمرة ، وكان يعجبه مايسمع عنه ، فلما رآه استزرى منظره ، فقال النعمان : لأن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه .

فقال له : « أبيت اللعن إن الرجال ليسوا بجزر ، وإنما يعيش المرء بأصغريه قلبه ولسانه . »

(٥) القذال — جماع مؤخر الرأس ، وهجين القذال : أى خسيس الأصل . قالوا : « لأن الذى يعرف لؤم نسبه إذا ولى طأطأ رأسه حياء وذلا ، فكأن اللؤم يتبين من قذاله » وقيل « بل لكثرة انهزامه فى الحروب . »

(٦) أرعن : أحمق ، والسبال : جمع سبلة وهى شعرة الشفة العليا وخصت الرعونة بها لأنها علامة الرجل.

(٧) العلاوة : الرأس مادام على العنق ، وفى الفراسة أن طول العنق والرأس من دلائل الحماقة .

كَلامُكَ تَمْتَمَةٌ ، وَحَدِيثُكَ غَمْغَمَةٌ ، وَبَيَانُكَ فَهْفَهَةٌ ، وَضَحِكُكَ قَهْقَهَةٌ[1] ، وَمَشْيُكَ هَرْوَلَةٌ ، وَغِنَاكَ مَسْأَلَةٌ ، وَدِينُكَ زَنْدَقَةٌ ، وَعِلْمُكَ مَخْرَقَةٌ[2] :

«مَسَاوٍ لَوْ قُسِمْنَ عَلَى الْغَوَانِي ـ لَمَا أُمْهِرْنَ إِلاَّ بِالطَّلاَقِ[3] »

حَتَّى إِنَّ بَاقِلاً[4] مَوْصُوفٌ بِالْبَلاَغَةِ إِذَا قُرِنَ بِكَ ، وَهَبَنَّقَةَ[5] مُسْتَوْجِبٌ لِاسْمِ الْعَقْلِ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْكَ ، وَطُوَيْساً[6] مَأْثُورٌ عَنْهُ يُمْنُ الطَّائِرِ إِذَا قِيسَ عَلَيْكَ ، فَوُجُودُكَ عَدَمٌ ، وَالِاغْتِبَاطُ بِكَ نَدَمٌ ، وَالْخَيْبَةُ مِنْكَ ظَفَرٌ ، وَالْجَنَّةُ مَعَكَ سَقَرٌ ، كَيْفَ رَأَيْتَ لُؤْمَكَ لِكَرَمِي كِفَاءً ، وَضَعَتَكَ لِشَرَفِي وَفَاءً ، وَأَنَّى جَهِلْتَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ إِنَّمَا تَنْجَذِبُ إِلَى أَشْكَالِهَا ، وَالطَّيْرَ إِنَّمَا تَقَعُ عَلَى أُلاَّفِهَا ، وَهَلاَّ عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ لاَ يَجْتَمِعَانِ ، وَشَعَرْتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ

---

(١) قال الجاحظ ــ التمتمة : التردد فى التاء ، والفأفأة : التردد فى الفاء ، والعقلة : التواء اللسان عند إرادة الكلام ، والحبسة تعذر الكلام ، واللفف : إدخال حرف فى حرف ، والرتة تمنع الكلام ، فاذا جاء منه شىء اتصل ، وقيل العجمة فيه ، واللثغة أن يعدل من حرف إلى حرف ، والغنة أن يشرب الحرف صوت الخيشوم والخنة أشد منها ، واللكنة أن يعترض الكلام حرف أعجمى ، والطمطمة أن يكون الكلام شبيها بالعجمى .

وأما الغمغمة فهى أن يسمع الصوت ولا يبين تقطيع الحروف ــ والفهفهة : العى فى النطق ، والقهقهة : الضحك الشديد يستدلون به على قلة العقل .

(٢) الهرولة : بين المشى والعدو ، والمسألة : الفقر ، والمخرقة : نوع من الخرق، الذى هو ضد الرفق ، ومنه يقال : المخراق وهو شىء يلعب به كأنه يخرج لاظهار الشىء بخلافه .

(٣) البيت لأبى تمام . (٤) باقل : مضرب المثل فى العى .

(٥) هبنقة : مضرب المثل فى الحمق وضعف العقل ــ قالوا : ووضع عقداً فى عنقه علامة لنفسه لئلا يضيع قالوا : وراقبه أخوه إلى أن نام ، وأخذ العقد من عنقه وجعله فى عنق نفسه ، فلما انتبه هبنقة ورأى أخاه ، قال « أنت أنا ، فأنا يا ترى ، من هو أنا » وهو جاهلى .

(٦) المغنى الماجن المشهور ، وكان يسكن المدينة ، وهو أول من غنى بها على الدف بالعربية ، ويضرب به المثل فى الشؤم ، لأنه ولد يوم مات النبىّ ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وفطم يوم مات أبو بكر ، وختن يوم قتل عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان ، وكانت أمه تمشى بالنميمة بين نساء الأنصار ، ونوادر شؤمه كثيرة مشهورة فى كتب الأدب

لاَ يَتَمَارَيَانِ ، وَقُلْتَ : « الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ لاَ يَسْتَوِيَانِ » وَتَمَثَّلْتَ [١] :

« أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً   عَمْرَكَ اللهَ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ ؟ »

وَذَكَرْتَ أَنِّي عِلْقٌ لاَ يُبَاعُ [٢] مِمَّنْ زَادَ ، وَطَائِرٌ لاَ يَصِيدُهُ مَنْ أَرَادَ ، وَغَرَضٌ لاَ يُصِيبُهُ إِلاَّ مَنْ أَجَادَ . مَا أَحْسَبُكَ إِلاَّ كُنْتَ قَدْ تَهَيَّأْتَ لِلتَّهْنِيَةِ ، وَتَرَشَّحْتَ لِلتَّرْفِيَةِ ! وَلَوْلاَ أَنَّ جُرْحَ الْعَجْمَاءِ جُبَارٌ [٣] ، لَلَقِيتَ مِنَ الْكَوَاعِبِ مَا لاَقَى يَسَارٌ [٤] ، فَمَا هَمَّ إِلاَّ بِبَعْضِ مَا بِهِ هَمَمْتَ ، وَلاَ تَعَرَّضَ إِلاَّ لِأَيْسَرِ مَا لَهُ تَعَرَّضْتَ ، أَيْنَ ادِّعَاؤُكَ رِوَايَةَ الْأَشْعَارِ ، وَتَعَاطِيكَ حِفْظَ السِّيَرِ وَالْأَخْبَارِ ؟ أَمَا ثَابَ إِلَيْكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

« بَنُو دَارِمٍ أَكْفَاؤُهُمْ آلُ مِسْمَعٍ   وَتُنْكَحُ فِي أَكْفَائِهَا الْحَبِطَاتُ ؟ »

---

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة ، وعمرك الله بالنصب فيهما لأنه لم يرد القسم ، وإنما أراد سألت الله أن يطيل عمرك (بالفتح) أي حياتك ، وبعده قوله :

« هي شامية إذا ما استقلت   وسهيل إذا استقل يمانى . »

(٢) العلق : النفيس وهو من قصيدة للحريث بن محطان التميمي كانت له فرس اسمها — سكاب — فأراد بعض ملوك اليمن أخذها منه فهرب بها وقال :

« أبيت اللعن إن سكاب علق   نفيس لا تعار ولا تباع
مفـــداة مكرمة علينا   تجاع لها العيال ، ولا تجاع
ولا تطمع أبيت اللعن فيها   ومنعكها بشيء يستطاع . »

(٣) العجماء : البهيمة ، والجبار : الهدر ، والمعنى : أن البهيمة إذا جرحت لادية لها ولا قصاص ، وهو مثل يضرب ، لمن يستهان به .

(٤) يسار : اسم عبد دميم أسود كان النساء يرينه فيضحكن منه لقبحه ويحسبهن لغفلته معجبات به حتى نظرت إليه بنت مولاه فضحكت فظن أنها رضيت له ، فقال لصاحب له أسود : « قد والله عشقتني مولاتي ، فلأزورنها الليلة » فقال له صاحبه « يا يسار ، اشرب لبن العشار ، وكل لحم الحوار وإياك وبنات الاحرار » فقال له « والله مارأتني حرّة إلا عشقتني » فلما أمسى قال لصاحبه « احفظ على الابل حتى أنصرف ، وأعود إليك » فنهاه فلم ينته حتى دخل على بنت مولاه يراودها عن نفسها ، فقالت له « مكانك فان للحرائر طيبا ، أشمك إياه » فقال لها « هاتيه » فأتته بطيب وموسى قاطعة ، فأشمته الطيب ، ثم أنحت بالموسى على هنه فقطعته ، فخرج هارباً حتى أتى صاحبه ودمه يسيل ، فضرب به المثل .

وَهَلاَّ عَشِيتَ وَلَمْ تَغْتَرَّ ؟ وَمَا أَشُكُّ أَنَّكَ تَكُونُ وَافِدَ الْبَرَاجِمِ [1]، أَوْ تَرْجِعُ بِصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ [2] ، أَوْ أَفْعَلُ بِكَ مَافَعَلَهُ عَقِيلُ بْنُ عُلْفَةَ بِالْجُهَنِيِّ ، إِذْ جَاءَهُ خَاطِباً فَدَهَنَ أَسْتَهُ بِزَيْتٍ وَأَدْنَاهُ مِنْ قَرْيَةِ النَّمْلِ ، وَمَتَى كَثُرَ تَلاَقِينَا وَاتَّصَلَ تَرَائِينَا ، فَيَدْعُونِي إِلَيْكَ مَادَعَا ابْنَةَ الْخُسِّ إِلَى عَبْدِهَا مِنْ طُولِ السَّوَادِ [3] ، وَقُرْبِ الْوِسَادِ ؟ وَهَلْ فَقَدَتْ الْأَرَاقِمَ [4] فَأَنْكِحَ فِي جَنْبٍ [5] ؟ أَوْ عَضَلَنِي هَمَّامُ بْنُ مُرَّةَ فَأَقُولَ : « زَوْجٌ مِنْ عُودٍ ، خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ ؟ »

وَلَعَمْرِي لَوْ بَلَغْتُ هٰذَا الْمَبْلَغَ لَارْتَفَعْتُ عَنْ هٰذِهِ الْخُطَّةِ ، وَلَا رَضِيتُ بِهٰذِهِ الْخُطَّةِ ، فَالنَّارُ ، وَلَا الْعَارُ ، وَالْمَنِيَّةُ ، وَلَا الدَّنِيَّةُ ، وَالْحُرَّةُ تَجُوعُ وَلَا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا [6] :

---

(١) وافد البراجم : هو رجل من بنى تميم — والبراجم خمسة من أولاد حنظلة — والعرب تضرب المثل بوافد البراجم لأن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين رجلا من بنى تميم لثأر له عندهم ، وكان قد آلى أن يحرق منهم مائة فبينما هو يلتمس بقية المائة إذ مر رجل اسمه عمار فاشتم رائحة القتار فظن أن الملك اتخذ طعاماً فعدل إليه فقيل له « من أنت » فقال : « أنا وافد البراجم » فألقى فى النار .

(٢) شاعر جاهلى وفد هو وابن أخته طرفة بن العبد على عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة فنادماه وبينما طرفة يشرب يوما معه وفى يده جام من ذهب فيه شراب أشرفت أخت عمرو ، فرآها طرفة فقال : «ألا بأبى الظبى الذى تبرق شفتاه ، ولولا الملك القاعد ألثمنى فاه » فسمعها عمرو وأسرها فى نفسه وهم بقتله ، ولكنه خاف من هجاء المتلمس ، فكتب لهما كتابين إلى عامل البحرين ، وقال : « إنى كتبت لكما بصلة فاقبضاها من عامل البحرين » فخرجا من عنده بالكتابين ، ومر المتلمس بغلام من أهل الحيرة ، فطلب إليه أن يقرأ كتابه فاذا فيه « إذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه واصلبه » وأقبل على طرفة فقال « والله لقد كتب لك بمثل هذا ، فادفع كتابك إلى الغلام يقرؤه » فقال : « كلا ما كان ليجترئ على قومى بمثل هذا » فألقى المتلمس صحيفته فى نهر الحيرة وذهب طرفة فقتل .

(٣) ابنة الخس امرأة جاهلية زنت بعبد لها، فلما قرعوها وعيروها بفعلتها ولاموها عليها قالت لهم معتذرة : « لقد حملنى على ذلك قرب الوساد ، وطول السواد » وهى تعنى بطول السواد : طول السرار، وفى الحديث : « السواد من السحر » تقول : ساودته أى ساررته ، أنظر « ص ١٩٨ » (٤) حى من تغلب .

(٥) حىّ من اليمن ، وهو من شعر مهلهل التغلبى حين هرب وطالت عليه حرب البسوس فنزل فى طريقه على حىّ من اليمن فخطبوا إليه ابنته فساقوا المهر وهو جلود من أدم وغصبوه على الزواج فقال :

« أعزز على تغلب بما لقيت أخت بنى الأكرمين من جشم
أنكحها فقدها الأراقم من جنـ ـب وكان الحباء من أدم
لو بأبانين جاء خاطبها ضرج ماأنف خاطب بدم . »

(٦) هذه أمثلة لمن يفضل الهلاك على قبح الاحدوثة

فَكَيْفَ وَفِى أَبْنَاءِ قَوْمِىَ مَنْكَحٌ　　وَفِتْيَانِ هِزَّانَ الطِّوَالِ الْغَرَانِقَهْ(١)

❊

مَا كُنْتُ لَأَتَخَطَّى الْمِسْكَ إِلَى الرَّمَادِ ، وَلَا أَمْتَطِى الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوَادِ ، فَإِنَّمَا يَتَيَمَّمُ مَنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً ، وَيَرْعَى الْهَشِيمَ ، مَنْ عَدِمَ الْجَمِيمَ ، وَيَرْكَبُ الصَّعْبَ مَنْ لَا ذَلُولَ لَهُ ، وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا غَرَّكَ مَنْ عَلِمْتَ صَبْوَتِى إِلَيْهِ ، وَشَهِدْتَ مُسَاعَفَتِى لَهُ ، مِنْ أَقْمَارِ الْعَصْرِ ، وَرَيْحَانِ الْمِصْرِ ، الَّذِينَ هُمُ الْكَوَاكِبُ عُلُوَّ هِمَمٍ ، وَالرِّيَاضُ طِيبَ شِيَمٍ :

«مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ　　مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِى يَسْرِى بِهَا السَّارِى(٢)»

حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا ، مَا أَنْتَ وَهُمْ ، وَأَنَّى تَقَعُ مِنْهُمْ ، وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا وَاوُ عَمْرٍو فِيهِمْ ، وَكَالْوَشِيظَةِ(٣) فِى الْعَظْمِ بَيْنَهُمْ ، وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا بَلَغْتَ قَعْرَ تَابُوتِكَ ، وَتَجَافَيْتَ عَنْ بَعْضِ قُوتِكَ ، وَعَطَّرْتَ أَرْدَانَكَ ، وَجَرَرْتَ هِمْيَانَكَ ، وَاخْتَلْتَ فِى مِشْيَتِكَ ، وَحَذَفْتَ فُضُولَ لِحْيَتِكَ ، وَأَصْلَحْتَ شَارِبَكَ ، وَمَطَطْتَ حَاجِبَكَ ، وَرَقَّقْتَ خَطَّ عِذَارِكَ ، وَاسْتَأْنَفْتَ عَقْدَ إِزَارِكَ ، رَجَاءَ الْاكْتِنَانِ فِيهِمْ ، وَطَمَعاً فِى الِاعْتِدَادِ مِنْهُمْ ، فَظَنَنْتَ عَجْزاً ، وَأَخْطَأَتِ اسْتُكَ الْحُفْرَةَ(٤) ، وَاللّٰهِ لَوْ كَسَاكَ مُحَرِّقٌ الْبُرْدَيْنِ(٥) ، وَحَلَّتْكَ مَارِيَةُ(٦) بِالْقُرْطَيْنِ وَقَلَّدَكَ عَمْرٌو الصَّمْصَامَةَ(٧) ، وَحَمَلَكَ الْحَارِثُ عَلَى النَّعَامَةِ(٨) ، مَا شَكَكْتُ فِيكَ ،

---

(١) اسم قبيلة — والغرانقة الشباب ، والبيت للأعشى .

(٢) البيت للعرندس أحد بنى بكر بن كلاب .

(٣) قطعة العظم تكون زيادة فى العظم الصميم — يقال فلان وشيظة فى قومه أى حشو فيهم .

(٤) مثل يضرب لمن يطلب أمرا فيخطئه ولا يناله .　　(٥) انظر ص « ٢٠٠ »

(٦) ابنة ظالم زوج الحارث الأكبر الغسانى — وقد أهدت قرطيها إلى الكعبة .

(٧) انظر ص « ٢٠٧ — ٢١٠ »

(٨) فرس الحارث بن عباد التغلبى من سادات بنى وائل

وَلاَ سَتَرْتَ أَبَاكَ ، وَلاَ كُنْتَ إِلاَّ ذَاكَ ، وَهَبْكَ سَامَيْتَهُمْ فِى ذِرْوَةِ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ ، وَجَارَيْتَهُمْ فِى غَايَةِ الظَّرْفِ وَالْأَدَبِ ، أَلَسْتَ تَأْوِى إِلَى بَيْتٍ قَعِيدَتُهُ لَكَاعِ (١) ؟ إِذْ كُلُّهُمْ عَزَبٌ خَالِى الذِّرَاعِ ، وَأَيْنَ مَنْ أَنْفَرِدُ بِهِ مِمَّنْ لاغَلَبَ إِلاَّ عَلَى الْأَقَلِّ الْأَخَسِّ مِنْهُ ، وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يَعْتَمِدُنِى بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ ، والشَّهْوَةِ الْوَافِرَةِ ، وَالنَّفْسِ الْمَصْرُوفَةِ إِلَىَّ ، وَاللَّذَّةِ الْمَوْقُوفَةِ عَلَىَّ ، وَبَيْنَ آخَرَ قَدْ نَضَبَ غَدِيرُهُ ، وَنَزَحَتْ بِيرُهُ ، وَذَهَبَ نَشَاطُهُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ ضُرَاطُهُ ، وَهلْ يَجْتَمِعُ لِى فِيكَ إِلاَّ الْحَشَفُ وَسُوءُ الْكِيلَةِ (٢) ، وَيَقْتَرِنُ عَلَىَّ بِكَ إِلاَّ الْغُدَّةُ وَالْمَوْتُ فِى بَيْتٍ سَلُولِيَّه (٣) :

تَعَالَى اللهُ يَا سَلْمُ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ الْحِرْصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ (٤)

مَا كَانَ أَخْلَقَكَ بِأَنْ تَقْدِرَ بِذَرْعِكَ ، وَتَرْبَعَ بِذَلْكَ عَلَى ظَلْعِكَ ، وَلاَ تَكُنْ بَرَاقِشَ (٥) الدَّالَّةَ عَلَى أَهْلِهَا ، وَعَنْزَ السُّوءِ الْمُسْتَثِيرَةَ لِحَتْفِهَا ، فَمَا أَرَاكَ إِلاَّ سَقَطَ بِكَ الْعَشَاءُ عَلَى سِرْحَانٍ (٦) ، وَبِكَ لاَ بِظَبْيٍ أَعْفَرَ (٧) ، أَعْذَرْتَ إِنْ أَغْنَيْتَ شَيْئًا ، وَأَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا (٨) .

---

(١) القعيدة : الزوجة ، واللكاع : اللئيمة ، والبيت للحطيئة يقول :

« أطوّف ما أطوف ثم آوى إلى بيت قعيدته لكاع . »

(٢) مثل يضرب فى الخلتين السيئتين يجتمعان . قالوا أنه لعمرو بن معديكرب ، والحشف أردأ التمر ، والكيلة مصدر يدل على الهيئة .

(٣) وهى امرأة من سلول ، وهو مثل قاله عامر بن الطفيل عند ماتوعد النبىّ — صلى الله عليه وسلم — فدعا عليه وقال : اللهم اكفنى عامرا بما شئت ، فظهر فى رقبته غدة مات منها وجعل يقول : « غدة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلولية . »

(٤) البيت لأبى العتاهية .

(٥) يشير إلى المثل (جنت على أهلها براقش)

(٦) الذئب .

(٧) مثل يضرب للشماتة بالرجل — أى نزل بك المكروه ولا نزل بظبى ، والأعفر الذى لونه لون التراب .

(٨) يشير إلى قول المعرى :

«لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى
ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ فى رماد.»

ولعله اقتبسها فى قصيدته من شعر عمرو بن معد

إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِذِى الْحِلْمِ   وَالشَّىْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْمِى (١)

وَإِنْ بَادَرْتَ بِالنَّدَامَةِ ، وَرَجَعْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِالْمَلَامَةِ ، كُنْتَ قَدِ اشْتَرَيْتَ الْعَافِيَةَ لَكَ بِالْعَافِيَةِ مِنْكَ ، وَإِنْ قُلْتَ جَعْجَعَةٌ وَلَا طِحْن ، وَرُبَّ صَلَفٍ تَحْتَ (٢) الرَّاعِدَةِ ، وَأَنْشَدْتَ :

« لَا يُؤْيِسَنَّكَ مِنْ مُخَدَّرَةٍ   قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ وَإِنْ جَرَحَا (٣) . »

فَعُدْتَ لِمَا نُهِيتَ عَنْهُ ، وَرَاجَعْتَ مَا اسْتُعْفِيتَ مِنْهُ ، بَعَثْتُ مَنْ يُزْعِجُكَ إِلَى الْخَضْرَاءِ (٤) دَفْعًا ، وَيَسْتَحِثُّكَ نَحْوَهَا وَكْزًا وَصَفْعًا ، فَإِذَا صِرْتَ إِلَيْهَا عَبَثَ أَكَّارُوهَا (٥) بِكَ ، وَتَسَلَّطَ نَوَاطِيرُهَا عَلَيْكَ ، فَمِنْ قَرْعَةٍ مُعْوَجَةٍ تُقَوَّمُ فِى قَفَاكَ ، وَمِنْ فُجْلَةٍ مُنْتِنَةٍ يُرْمَى بِهَا تَحْتَ خُصَاكَ ، ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ، لِتَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِكَ ، وَتَرَى مِيزَانَ قَدْرِكَ :

فَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ   رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى (٦)

---

(١) وهما مثلان يضربان فى التحذير ، وقد نظمهما الحارث بن وعلة اليشكرى ، وقد قتل بعض سادات قومه أخاه فقال :

«أقتلت سادتنا بلا ترة   إلا لتوهن قوة العظم
ووطئتنا وطئا على حنق   وطء المقيد نابت الهرم
وزعمت أنا لا حلوم لنا   ان العصا قرعت لذى الحلم
لا تأمنن قوما ظلمتهم   وبدأتهم بالشر والظلم
ان يأبروا نخلا لغيرهم   والشىء تحقره وقد ينمى
الآن لما ابيض مسربتى   وعضضت من نابى على جذم
ترجو الأعادى أن أصالحها   جهلا توهم صاحب الحلم
قومى هم قتلوا أميم أخى   فاذا رميت يصيبنى سهمى
فلئن عفوت لأعفون جللا   ولئن أصبت لأوهنن عظمى .»

(٢) الجعجعة : صوت الرحى ، والطحن : الدقيق ، والصلف : قلة الخير والبركة ، وسحاب صلف : أى قليل الماء كثير الرعد ، وهما مثلان يضربان لمن يتوعد من غير أن يعمل . (٣) هذا البيت لبشار بن برد — وبعده قوله :

«عسر النساء إلى مياسرة   والصعب يركب بعدما جمحا .»

(٤) الناحية : المزروعة من البلد ، والوكز : ضرب الظهر مع الدفع أو الضرب بمجتمع اليد على الذقن
(٥) الأكارون : الزارعون . (٦) البيت للمتنبى — من قصيدة فى ذم كافور الاخشيدى بعد هجرانه ، ومنها قوله :

«وقد كنت أحسب قبل الخصـ   ـى أن الرؤوس محل النهى
فلما نظرت إلى عقله   وجدت النهى كلها فى الخصى
وقد ضل قوم بأصنامهم   فأما بزق رياح فلا .»

الرسالة الجدية لابن زيدون [١]

« كتبها لابن جهور

يَا مَوْلاَيَ وَسَيِّدِي الَّذِي وِدَادِي لَهُ ، وَٱعْتِمَادِي عَلَيْهِ ، وَٱعْتِدَادِي بِهِ ، وَٱمْتِدَادِي مِنْهُ ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللهُ مَاضِيَ حَدِّ الْعَزْمِ ، وَارِيَ زَنْدِ [٢] الْأَمَلِ ، ثَابِتَ عَهْدِ النِّعْمَةِ ، إِنْ سَلَبْتَنِي - أَعَزَّكَ اللهُ - لِبَاسَ نَعْمَائِكَ ، وَعَطَّلْتَنِي مِنْ حُلَى إِينَاسِكَ ، وَأَظْمَأْتَنِي إِلَى بَرُودِ [٣] إِسْعَافِكَ ، وَنَفَضْتَ بِي كَفَّ حِيَاطَتِكَ ، وَغَضَضْتَ [٤] عَنِّي طَرْفَ [٥] حِمَايَتِكَ ، بَعْدَ أَنْ نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى تَأْمِيلِي لَكَ ، وَسَمِعَ الْأَصَمُّ ثَنَائِي عَلَيْكَ [٦] ، وَأَحَسَّ الجَمَادُ بِٱسْتِحْمَادِي إِلَيْكَ - فَلَا غَرْوَ قَدْ يَغَصُّ بِالْمَاءِ شَارِبُهُ ، وَيَقْتُلُ الدَّوَاءُ الْمُسْتَشْفِيَ بِهِ ، وَيُؤْتَى الْحَذِرُ مِنْ مَأْمَنِهِ ، وَتَكُونُ مَنِيَّةُ الْمُتَمَنِّي فِي أُمْنِيَّتِهِ [٧] ، وَالْحَيْنُ قَدْ يَسْبِقُ جَهْدَ الْحَرِيصِ [٨] :

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمُرُّ عَلَى الْفَتَى ... وَتَهُونُ غَيْرَ شَمَاتَةِ الْحُسَّادِ

وَإِنِّي لَأَتَجَلَّدُ ، وَأُرِي الشَّامِتِينَ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ [٩] ، فَأَقُولُ :

---

(١) ارجع إلى « ص ٤٩ » (٢) الزند : الزناد ، ووري الزند هو اقتداحه وخروج النار منه .

(٣) برود : بارد . (٤) غضضت : خفضت .

(٥) طرف : عين . (٦) يشير إلى قول المتنبي :

«أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صمم . »

(٧) فيما يؤمله ويتمناه .

(٨) الحين : الهلاك ، والجهد : الطاقة ، وهذا مثل من أمثال العرب مشهور . قال عدي بن زيد :

« قد يدرك المبطئ من حظه ... والحين قد يسبق جهد الحريص .»

(٩) يشير إلى قول أبي ذؤيب الهذلي :

« وتجلدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهر لا أتضعضع .

وقد تمثل به معاوية قبيل وفاته .

هَلْ أَنَا إِلَّا يَدٌ أَدْمَاهَا سِوَارُهَا [١]، وَجَبِينٌ عَضَّ بِهِ إِكْلِيلُهُ [٢]، وَمَشْرَفِيٌّ [٣] أَلْصَقَهُ بِالْأَرْضِ صَاقِلُهُ، وَسَمْهَرِيٌّ [٤] عَرَضَهُ عَلَى النَّارِ مُثَقِّفُهُ، وَعَبْدٌ ذَهَبَ بِهِ سَيِّدُهُ مَذْهَبَ الَّذِي يَقُولُ:

« فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ [٥] »

هٰذَا الْعَتْبُ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ، وَهٰذِهِ النَّبْوَةُ [٦] غَمْرَةٌ [٧] ثُمَّ تَنْجَلِي، وَهٰذِهِ النَّكْبَةُ سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ [٨]، وَلَنْ يَرِيبَنِي مِنْ سَيِّدِي أَنْ أَبْطَأَ سَيْبُهُ [٩]، أَوْ تَأَخَّرَ - غَيْرَ ضَنِينٍ - غَنَاؤُهُ [١٠]، فَأَبْطَأُ الدِّلَاءِ فَيْضًا أَمْلَؤُهَا [١١]، وَأَثْقَلُ السَّحَائِبِ مَشْيًا أَحْفَلُهَا [١٢]، وَأَنْفَعُ الْحَيَا مَا صَادَفَ [١٣] جَدْبًا، وَأَلَذُّ الشَّرَابِ مَا أَصَابَ غَلِيلًا [١٤]، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ

---

(١) السوار : نوع من الحلي يلبس في الساعد ، وقريب من هذا قول المتنبي :

« ومن كفت - وما أثرت فيهم - يد لم يدمها إلا السوار
له - من قدامه - ألم ومغص ، وفيها - من حلاله - افتخار . »

(٢) الأكاليل : التاج . (٣) المشرفي : السيف .

(٤) السمهري : الرمح .

(٥) البيت لأبي تمام ، وقريب من هذا المعنى قول المعري :

« اضرب وليدك - تأديبا على رشد - ولا تقل هو طفل غير محتلم
ورب شق برأس جر منفعة ، وقس على شق رأس السيف والقلم . »

(٦) النبوة : الجفوة . (٧) الغمرة : الشدة . قال الشاعر :

« وما هي إلا غمرة ثم تنجلي سريعا وإلا نبوة تتصرم . »

(٨) مثل عربي : يشير إلى أن العسر سيتبعه اليسر بعد قليل .

(٩) سيبه : جوده أو عطاؤه . (١٠) غناؤه : خيره أو نفعه .

(١١) مثل عربي ، يقولون : « لعل أبطأ الدلاء أملؤها » وقد استشهد به الحريري في إحدى مقاماته ، ومعناه إن أبطأ الدلاء في الصعود هي الدلاء الممتلئة بالماء .

(١٢) أحفلها : أكثرها ماء .

(١٣) الحيا : الغيث أو المطر .

(١٤) الغليل : شدة العطش .

كِتَابٌ ، لَهُ الحَمْدُ عَلَى اهْتِبَالِهِ [١] ، وَلَا عَتْبَ عَلَيْهِ فِي إِغْفَالِهِ [٢] :

« فَإِنْ يَكُنِ الفِعْلُ ـ الَّذِي سَاءَ ـ وَاحِدًا ، فَأَفْعَالُهُ ـ اللَّاتِي سَرَرْنَ ـ أُلُوفُ . »

* * *

وَأَعُودُ فَأَقُولُ :

« مَا هٰذَا الذَّنْبُ الَّذِي لَمْ يَسَعْهُ عَفْوُكَ ، وَالجَهْلُ الَّذِي لَمْ يَأْتِ مِنْ وَرَائِهِ حِلْمُكَ ، وَالتَّطَاوُلُ [٣] الَّذِي لَمْ يَسْتَغْرِقْهُ تَطَوُّلُكَ ، وَالتَّحَامُلُ الَّذِي لَمْ يَفِ بِهِ احْتِمَالُكَ ، وَلَا أَخْلُو مِنْ أَنْ أَكُونَ بَرِيئًا ، فَأَيْنَ العَدْلُ ؟ أَوْ مُسِيئًا ، فَأَيْنَ الفَضْلُ ؟ »

إِلَّا يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ وَاسِعٌ أَوْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَفَضْلُكَ أَوْسَعُ [٤]

حَنَانَيْكَ [٥] قَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى [٦] ، وَنَالَنِي مَا حَسْبِي بِهِ وَكَفَى ، وَمَا أُرَانِي إِلَّا أُمِرْتُ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ [٧] فَأَبَيْتُ وَاسْتَكْبَرْتُ ، وَقَالَ لِي نُوحٌ [٨] : « ارْكَبْ مَعَنَا » فَقُلْتُ : « سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ » وَأُمِرْتُ

---

(١) اهتباله : اغتنامه .

(٢) اغفاله : تغاضيه وتغافله .

(٣) التطاول : التكبر ، والتطول : التفضل ، والتحامل : التكليف بما لا يطاق ، والاحتمال : هو القدرة على الحمل .

(٤) البيت الأول للبحترى ، والثانى مأخوذ من قول الشاعر :

«هبني طلوماً ملتــــه بساءة قصاصاً وأين الأحديا عزبالفضل؟ .»

(٥) حنانيك : رحمتك وهو مثنى كلمة حنان .

(٦) الزبى : جمع زبية وهى الحفرة فى مكان مرتفع لا يعلوه الماء تحفر لصيد الأسد ، فاذا وصل اليها السيل كان سيلا عظيما لاعهد للناس به ، وهو مثل يضرب للشىء يربى على غايته .

(٧) يشير الى استكبار ابليس عن السجود لآدم حين أمره الله بذلك فعصاه وحقت عليه اللعنة ، ففضل نفسه عليه لأنه من نار وآدم من طين ، وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك فى قوله تعالى : « فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

(٨) يشير إلى قصة نوح حين فاض الطوفان ، وركب السفينة هو ومن معه وخالفه ابنه وعصاه فهلك ، وقد أشار الكتاب الكريم إلى ذلك فى قول نوح : « يا بنى اركب معنا ولا تكن من الكافرين » وقول ابنه : « سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء » .

بِبِنَاءِ الصَّرْحِ (١) لَعَلِّى أَطَّلِعُ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى ، وَعَكَفْتُ عَلَى الْعِجْلِ (٢)، وَاُعْتَدَيْتُ فِى السَّبْتِ (٣) ، وَتَعَاطَيْتُ (٤) فَعَقَرْتُ (٥) ، وَشَرِبْتُ مِنَ النَّهْرِ الذِى ابْتُلِىَ بِهِ جُيُوشُ « طَالُوتَ » (٦) ، وَقُدْتُ الْفِيلَ لِأَبْرَهَةَ (٧) ، وَعَاهَدْتُ قُرَيْشاً عَلَى مَا فِى الصَّحِيفَةِ (٨) ، وَتَأَوَّلْتُ فِى بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ (٩) ، وَنَفَرْتُ إِلَى الْعِيرِ بِبَدْرٍ ، وَانْخَذَلْتُ بِثُلُثِ النَّاسِ يَوْمَ أُحُدٍ (١٠) ، وَتَخَلَّفْتُ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ فِى

---

(١) الصرح : القصر — يشير إلى قصة فرعون وهى مذكورة فى الكتاب الكريم حين قال : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحاً » .

(٢) يشير إلى عجل بنى إسرائيل الذى عبدوه .

(٣) يشير إلى قصة بنى إسرائيل حين نهوا عن الصيد فى يوم السبت فخالفوا ما نهوا عنه، فحق بهم العذاب

(٤) تعاطيت : أى قمت على أطراف أصابع رجلى ورفعت يدى وضربت .

(٥) عقرت : قتلت يقال عقر البعير بالسيف أى ضربت قوائمه به وهو يشير بذلك إلى ناقة صالح وذنب من عقرها ، وإلى الآية الكريمة: « فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها»

(٦) يشير الى الذنب الذى اقترفه جيش « طالوت » عليه السلام ، وإلى الآية : « إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى إلا من اغترف غرفة بيده » ولكن أكثرهم خالفه وشرب منه فوقعوا فى الاثم ، قال أبو العلاء :

« سقيا لدجلة والدنيا مفرقة حتى يعود اجتماع النجم تشتيتا
وبعدها لا أريد الشرب من نهر كأنما أنا من أصحاب طالوتا»

(٧) يشير إلى قصة أبرهة عامل اليمن من قبل النجاشى حين ذهب لهدم الكعبة ومعه الفيلة لغضبه عليها إذ بنى كنيسة فى صنعاء اليمن ليحجّ إليها الناس بدل الكعبة فلم يعنوا بها وتغوط رجل فيها وأحرقها بعض تجار اليمن ، وغضب النجاشى من ذلك ، وأمر أبرهة عامل اليمن بهدمها والقصة مذكورة فى الكتاب الكريم « ألم تر إلى ربك كيف فعل بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم فى تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول . » وقد أشار المعرى إلى هذه القصة فى لزومياته بقوله :

« حديث جاء عن قابيل — فى الدهر — وهابيلا
وطير عكفت يوماً على الجيش أبابيلا
متى نرحل عن دنيا تزيد العقل تخبيلا . »

(٨) يشير إلى الصحيفة التى كتبتها قريش وعلقوها فى الكعبة يقررون فيها مقاطعة النبىّ — صلى الله عليه وسلم — ومحاربة الاسلام بعد أن رأوا إسلام عمر وحمزة الذى اعتزّ بهما الدين .

(٩) نقض بيعة العقبة : مخالفة الاجماع والشذوذ عن جهة الصواب .

(١٠) يشير إلى واقعة « أحد » حين انخذل ابن سلول هو ومن معه من المنافقين ورجعوا بثلث الجيش .

بَنِي قُرَيْظَةَ (١) ، وَجِئْتُ بِالإِفْكِ (٢) عَلَى عَائِشَةَ الصِّدِّيقَةِ ، وَأَنِفْتُ مِنْ إِمَارَةِ أُسَامَةَ (٣) ، وَزَعَمْتُ أَنَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ (٤) كَانَتْ فَلْتَةً ، وَرَوَّيْتُ رُمْحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ (٥) ، وَمَزَّقْتُ الأَدِيمَ (٦) الَّذِي بَارَكَتْ يَدُ اللهِ عَلَيْهِ ، وَضَحَّيْتُ بِالأَشْمَطِ (٧) الَّذِي عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ، وَبَذَلْتُ لِقَطَامِ (٨) .

« ثَلاَثَةَ آلاَفٍ وَعَبْداً وَقَيْنَةً وَضَرْبَ عَلِيٍّ بِالْحُسَامِ الْمُسَمَّمِ »

---

(١) بنو قريظة : طائفة من اليهود وقد أمر النبيّ — صلى الله عليه وسلم — أصحابه بعد عودته من غزوة الخندق أن يصلوا العصر فى بنى قريظة يعنى بذلك أن يسرعوا فى الذهاب إليهم .

(٢) يشير إلى جريمة مسطح وحسان فى حادثة الافك ، وهى اتهام عائشة زوج النبيّ — صلى الله عليه وسلم — حين كانت عائدة من غزوة بنى المصطلق ونزلت من الهودج لقضاء حاجتها وسار أصحاب الرسول — صلى الله عليه وسلم — من غير أن يتفقدوا عائشة ، وكانت قد تخلفت عن الركب ، ومرّ بها صفوان وكان متخلفاً عن الركب فأركبها على جمله ، ولما وصلا أشاع أعوان السوء عنها ما أشاعوه ، ثم برأها القرآن ، وأظهر طهارتها ، وألجم أهل الافك والبهتان .

(٣) يشير إلى تولية النبيّ — صلى الله عليه وسلم — أسامة بن حارثة قيادة الجيش الذى ذهب إلى الشام وإلى تعالى بعض المهاجرين ، وأنفتهم من إمارته ، وغضب الرسول — صلى الله عليه وسلم — عليهم وتقريعه إياهم ، وصعوده المنبر وهو عاصب رأسه لمرضه .

(٤) يشير إلى رأى الشيعة فى أن علىّ بن أبى طالب كان أجدر بالخلافة من أبى بكر وعمر ، وأن أبا بكر قد اختلسها لنفسه اختلاساً .

(٥) يشير إلى فتك أبى شجرة السلمى فى بعض حروب الرّدّة بجيش خالد بن الوليد .

(٦) يشير إلى أديم «عمر» أى جلده الذى مزّقه أبو لؤلؤة المجوسى حين قتله ، ويشير إلى قول الشاعر فى رثائه :

«جزى الله خيراً من إمام ، وباركت يد الله فى ذاك الأديم الممزّق .»

(٧) يعنى بالأشمط : عثمان بن عفان ، وهو يشير إلى قول حسان بن ثابت فى رثائه :

«ضحوا بأشمط ، عنوان السجود به ، يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا .»

(٨) قطام : اسم امرأة أغرت عبد الرحمن بن ملجم بقتل علىّ وفرضته مهراً لها ، فأجابها إلى ما طلبت ، ويلى هذا البيت قوله :

«فلا مهر أغلى من علىّ — وإن غلا — ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم »

وقد أشار البحترى إلى ذلك أبدع إشارة حين قال :

« ولا عجب للأسد إن ظفرت بها كلاب الأعادى من فصيح وأعجم

فحربة وحشى سقت حمزة الردى ، وموت علىّ من حسام ابن ملجم .»

وَكَتَبْتَ إِلَى عَمْرِو بْنِ سَعْدٍ : « أَنْ جَعْجِعْ[١] بِالْحُسَيْنِ » وَتَمَثَّلْتُ عِنْدَ مَا بَلَغَنِي مِنْ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ[٢] :

« لَيْتَ أَشْيَاخِي - بِبَدْرٍ - عَلِمُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسَلْ »

وَرَجَمْتُ الْكَعْبَةَ ، وَصَلَبْتُ الْعَائِذَ عَلَى الثَّنِيَّةِ[٣] ، لَكَانَ - فِيمَا جَرَى عَلَيَّ - مَا يَحْتَمِلُ أَنْ يُسَمَّى نَكَالاً ، وَيُدْعَى - وَلَوْ عَلَى الْمَجَازِ - عِقَاباً .

« وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بِامْرِئٍ تَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَا ! »

***

فَكَيْفَ وَلاَ ذَنْبَ إِلاَّ نَمِيمَةٌ أَهْدَاهَا كَاشِحٌ[٤] ، وَنَبَأٌ جَاءَ بِهِ فَاسِقٌ .

وَهُمُ الْهَمَّازُونَ الْمَشَّاءُونَ[٥] بِنَمِيمٍ ، وَالْوَاشُونَ الَّذِينَ لاَ يَلْبَثُونَ أَنْ يَصْدَعُوا الْعَصَا ، وَالْغُوَاةُ[٦] الَّذِينَ لاَ يَتْرُكُونَ أَدِيماً[٧] صَحِيحاً ، وَالسُّعَاةُ[٨] الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ : « مَا ظَنُّكَ بِقَوْمٍ ، الصِّدْقُ مَحْمُودٌ إِلاَّ مِنْهُمْ »

« حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ، وَلَيْسَ - وَرَاءَ اللهِ - لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ »

وَاللهِ ، مَا غَشَشْتُكَ بَعْدَ النَّصِيحَةِ ، وَلاَ انْحَرَفْتُ عَنْكَ بَعْدَ الصَّاغِيَةِ[٩] ، وَلاَ نَصَبْتُ لَكَ[١٠] بَعْدَ التَّشَيُّعِ ، وَلاَ أَزْمَعْتُ يَأْساً مِنْكَ مَعَ ضَمَانٍ تَكَفَّلْتَ بِهِ

---

(١) يشير إلى تحريص عبيد الله بن زياد على قتل الحسين حين أرسل عمر بن سعد لقتاله وأعقبه شمر وأمر عبيد الله عمرو بن سعد أن يجعجع بالحسين أى يضيق عليه الخناق .

(٢) وقعة الحرّة - يشير إلى مافعله يزيد بن معاوية حين أرسل عقبة بن مسلم لمحاربة أهل المدينة وإباحتها ثلاثة أيام ، ولما تمّ ليزيد ذلك تمثل بقول ابن الزبعرى : « ليت أشياخى . . . . الخ . »

(٣) يشير إلى رجم الحجاج الكعبة بالمنجنيق وصلبه عبد الله بن الزبير وهو يعنيه بالعائذ أى الملتجئ ، والثنية : طريق العقبة . (٤) الكاشح : العدوّ .

(٥) الهمازون : الذين يكثرون الهمز وهو الغيبة ، والمشاءون : الذين يكثرون السعى بين الناس بالنميمة .

(٦) الغواة : جمع غاو وهو الضال . (٧) الأديم الجلد .

(٨) السعاة : الذين يسعون بين الناس بالفساد . (٩) الصاغية : صاغية الرجل خاصته الذين يصغون إليه ويغشون مجلسه . (١٠) ولا نصبت لك : عاديتك

الثِّقَةُ عنكَ ، وَعَهْدٍ أَخَذَهُ حُسْنُ الظَّنِّ عليكَ . فَفِيمَ عَبَثَ الجَفَاءُ بِأَذِمَّتِي (١) ، وَعَاثَ العُقُوقُ فى مَوَاتَاتِي ، وَتَمَكَّنَ الضَّيَاعُ مِنْ وَسَائِلِي ؟ وَلِمَ ضَاقَتْ مَذَاهِبِي ، وَأَكْدَتْ مَطَالِبِي ؟ وَعَلَامَ رَضِيتُ مِنَ المَرْكَبِ بِالتَّعْلِيقِ . بَلْ مِنَ الغَنِيمَةِ بِالإِيَابِ (٢) ؟ وَبِأَنْ غَلَبَنِي المُغَلَّبُ (٣) ، وَفَخَرَ عَلَيَّ العَاجِزُ الضَّعِيفُ ، وَلَطَمَتْنِي غَيْرُ ذَاتِ سِوَارٍ (٤) ؟ وَمَا لَكَ لَمْ تَمْنَعْ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُفْتَرَسَ ، وَتُدْرِكْنِي وَلَمَّا أُمَزَّقْ (٥) ؟ أَمْ كَيْفَ لَا تَتَضَرَّمُ جَوَانِحُ الأَكْفَاءِ (٦) حَسَداً لِي عَلَى الخُصُوصِ بِكَ ؟ وَتَتَقَطَّعُ أَنْفَاسُ النُّظَرَاءِ مُنَافَسَةً فى الكَرَامَةِ عَلَيْكَ ، فَكَيْفَ وَقَدْ زَانَنِي قَدِيمُ خِدْمَتِكَ ، وَزَهَانِي وَسْمُ نِعْمَتِكَ ، وَأَبْلَيْتُ البَلَاءَ الجَمِيلَ فى سِمَاطِكَ (٧) ، وَقُمْتُ المَقَامَ المَحْمُودَ عَلَى بِسَاطِكَ ؟

« أَلَسْتُ المُوَالِي فِيكَ غُرَّ قَصَائِدٍ   هِيَ الأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمَا
ثَنَاءٌ يَظُنُّ الرَّوْضُ مِنْهُ مُنَوَّرًا   ضُحًا ، وَيُخَالُ الوَشْيُ فِيهِ مُنَمْنَمَا »

---

(١) الأذمة : العهود والحرمات .   (٢) رضيت من الغنيمة بالإياب : مثل يضرب فى القناعة بالسلامة قال امرؤ القيس :

« لقد طوفت فى الآفاق حتى   رضيت من الغنيمة بالإياب . »

(٣) المغلب : أى الضعيف . قال الشاعر :

« فإنك لم يفخر عليك كفاخر   ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب . »

(٤) فى المثل « لو ذات سوار لطمتنى » ، يشير إلى ضعف المعتدى وحقارته والعادة أن السوار لا تلبسه إلا الحرّة . قال الشاعر :

« بلاء ليس يعدله بلاء   عداوة غير ذى حسب ودين
يبيحك منه عرضاً لم يصنه   ويرتع منك فى عرض مصون . »

وقال المعرى : « خف يا كريم على عرض تعرضه   لعائب ، فلئيم لا يقاس بكا
إن الزجاجة لما حطمت سبكت   وكم تحطم من در فما سبكا . »

(٥) وتدركنى ولما أمزق : يشير إلى قول الممزق العبدى ، وقد استشهد به عثمان بن عفان فى كتابه إلى على :

« فإن كنت مأكولا فكن أنت آكلى   وإلا فأدركنى ولما أمزق . »

(٦) الأكفاء : جمع كفء وهو الند أى المثيل .

(٧) السماط : الصف ، وقد مرّ بك قول ابن زيدون فى ص « ١٤٤ »

« إذا ما استوى فى الدست عاقد حبوة ، وقام سماطا حفله فلى الصدر
أى صفا حفله .

وَهَلْ لَبِسَ الصَّبَاحُ إلاَّ بُرْداً طَرَّزْتَهُ بِفَضَائِلِكَ ، وَتَقَلَّدَتِ الجَوْزَاءُ إلاَّ عِقْداً فَصَّلْتَهُ بِمَآثِرِكَ ، وَاسْتَمْلَى الرَّبِيعُ إلاَّ ثَنَاءً مَلأْتَهُ بِمَحَاسِنِكَ ، وَبَثَّ (١) المِسْكُ إلاَّ حَدِيثاً أَذَعْتَهُ فِى مَحَامِدِكَ ؟ مَا يَوْمُ «حَلِيمَةَ» بِسِرٍّ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَكْسُكَ سَلِيباً (٢) ، وَلاَ حَلَّيْتُكَ عُطْلاً (٣) ، وَلاَ وَسَمْتُكَ غُفْلاً ، بَلْ وَجَدْتُ آجُرًّا وَجِصًّا (٤) فَبَنَيْتُ ، وَمَكَانَ القَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَقُلْتُ ، حَاشَ لَكَ أَنْ أُعَدَّ مِنَ العَامِلَةِ النَّاصِبَةِ (٥) وَأَكُونَ كَالذُّبَالَةِ (٦) المَنْصُوبَةِ تُضِىءُ لِلنَّاسِ وَتَحْتَرِقُ ، فَلَكَ المَثَلُ الأَعْلَى ، وَهُوَ – بِكَ وَبِى – فِيكَ أَوْلَى ، وَلَعَمْرِى إِنَّ صَرِيحَ الرَّأْىِ أَنْ أَتَحَوَّلَ (٧) إِذَا بَلَغَتْنِى الشَّمْسُ وَنَبَا بِىَ المَنْزِلُ ، وَأَصْفَحَ عَنِ المَطَامِعِ الَّتِى تَقْطَعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ .

فَلاَ أَسْتَوْطِنُ العَجْزَ ، وَلاَ أَطْمَئِنُّ إِلَى الغُرُورِ . وَمِنَ الأَمْثَالِ المَضْرُوبَةِ : «خَامِرِى أُمَّ عَامِرٍ (٨)» وَإِنِّى مَعَ المَعْرِفَةِ أَنَّ الجَلاَءَ (٩) سِبَاءٌ (١٠) وَالنُّقْلَةَ مُثْلَةٌ (١١) :

---

(١) بثّ : نشر ، وقوله « مايوم حليمة بسر » مثل يضرب فى كل أمر متعالم مشهور ، وأصله أن الحارث بن أبى شمر وجه جيشاً إلى المنذر بن ماء السماء فى الغزوة التى قتل فيها ، وأمر ابنته حليمة فأخرجت لهم مركناً فيه خلوق أى طيب ، فقال خلقيهم فخرجت إليهم ، فجعلت تخلقهم وهى من أجمل نساء عصرها ، ومضى القوم حتى أتوا المنذر ، فقالوا أتيناك من عند صاحبنا وهو يدين لك بالطاعة ويعطيك حاجتك ، فتباشر المنذر بذلك ، وغفل المنذر وعسكره بعض الغفلة فحملوا عليه فقتلوه ، وكان الحارث قد أوصاهم بذلك قبل أن يوجههم إليه ، فقيل : مايوم حليمة بسر فذهبت مثلا .

(٢) السليب : المسلوب (٣) العطل : العاطل . قال الطغرائى :

« أصالة الرأى صانتنى عن الخطل وحلية الفضل زانتنى لدى العطل . »

(٤) الآجر : الطين ، والجص : الجير . وقد تناول الكتاب والشعراء هذا المعنى ، ولكنا لم نقرأ أبدع من قول أمير الشعراء فى قصة قمبيز على لسان وصيفة ملكة فارس :

« إنى وضعت ذهباً فى بوتقه ولم أصف – بالطيب – إلا زنبقه
وقلت عن شمس النهار : مشرقه . »

(٥) يشير إلى قوله تعالى : « وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية . »

(٦) يشير إلى قول عباس بن الأحنف :

« صرت كأنى ذبالة نصبت تضىء للناس وهى تحترق . »

(٧) فى المثل « إذا بلغتك الشمس فتحول » (٨) خامرى أم عامر : مثل يضرب لمن عرف الدنيا وتقلباتها ولم تمنعه معرفته أن يميل إليها ويغتر بها . قال البهاء زهير :

« خدعوك بالقول المحال فصحت أنك أم عامر . »

(٩) الجلاء : النزوح عن الوطن . (١٠) السباء : الأسر . (١١) والمثلة : النكال .

«وَمَنْ يَغْتَرِبْ عَنْ قَوْمِهِ لَمْ يَزَلْ يَرَى   مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجَرّاً وَمَسْحَبَا
وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ، وَإِنْ يُسِئْ   يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارَ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا[1]»

عَارِفٌ أَنَّ الْأَدَبَ الْوَطَنُ لاَ يُخْشَى فِرَاقُهُ، وَالْخَلِيطُ لاَ يُتَوَقَّعُ زِيَالُهُ[2]، وَالنَّسِيبُ لاَ يُجْفَى، وَالْجَمَالُ لاَ يَخْفَى، ثُمَّ مَا قِرَانُ السَّعْدِ بِالْكَوَاكِبِ أَبْهَى أَثَراً، وَلاَ أَسْنَى خَطَراً، مِنَ اقْتِرَانِ غِنَى النَّفْسِ بِهِ، وَانْتِظَامِهَا نَسَقاً[3] مَعَهُ، فَإِنَّ الْحَائِزَ لَهُمَا، الضَّارِبَ بِسَهْمٍ فِيهِمَا - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ - أَيْنَمَا تَوَجَّهَ وَرَدَ مَنْهَلَ بِرٍّ، وَحَطَّ فِي جَنَابِ قَبُولٍ، وَضُوحِكَ قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ، وَأُعْطِيَ حُكْمَ الصَّبِيِّ عَلَى أَهْلِهِ.

وَقِيلَ لَهُ: «أَهْلاً وَسَهْلاً وَمَرْحَباً   فَهَذَا مَبِيتٌ صَالِحٌ وَمَقِيلُ»

غَيْرَ أَنَّ الْوَطَنَ مَحْبُوبٌ، وَالْمَنْشَأَ مَأْلُوفٌ، وَاللَّبِيبُ يَحِنُّ إِلَى وَطَنِهِ، حَنِينَ النَّجِيبِ[4] إِلَى عَطَنِهِ[5]، وَالْكَرِيمُ لاَ يَجْفُو أَرْضاً فِيهَا قَوَابِلُهُ[6]، وَلاَ يَنْسَى بَلَداً فِيهَا مَرَاضِعُهُ، قَالَ الْأَوَّلُ:

«أَحَبُّ بِلاَدِ اللهِ مَا بَيْنَ مَنْعِجٍ   إِلَيَّ وَسَلْمَى - أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا
بِلاَدٌ بِهَا حَلَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي[7]   وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا»

هَذَا إِلَى مُغَالاَتِي بِعَقْدِ جِوَارِكَ، وَمُنَافَسَتِي بِلَحْظَةٍ مِنْ قُرْبِكَ، وَاعْتِقَادِي

---

(١) كبكب: الجبل. (٢) الزيال: المفارقة.
(٣) النسق: ما كان على نظام واحد. (٤) النجيب: الفحل الكريم من الابل.
(٥) العطن: مبرك الابل حول الماء.
(٦) القوابل: جمع قابلة وهى التى تتلقى المولود عند خروجه (الداية).
(٧) وفى رواية: «عق الباب.» وفى أخرى: «شق الشباب» وفى رواية السام: «نيطت على تمائمى» والتمائم: ما يعلق للطفل ليقيه شر الحسد. قال الشاعر:
«وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع»

أَنَّ الطَّمَعَ - فى غَيْرِكَ - طَبَعٌ ، وَالْغِنَى - مِنْ سِوَاكَ - عَنَاءٌ ، وَالْبَدَلَ مِنْكَ أَعْوَرُ ، وَالْعِوَضَ لَفَاءٌ [1] :

« وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَمِيرِى زَادَنِى   ضَنًّا بِهِ ـ نَظَرِى إِلَى الْأُمَرَاءِ »

وَكُلُّ الصَّيْدِ فى جَوْفِ الْفَرَا [2] ، وَفِى كُلِّ شَجَرَةٍ نَارٌ ، وَاسْتَمْجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفَارُ [3] ، فَمَا هٰذِهِ الْبَرَاءَةُ مِمَّنْ يَتَوَلَّاكَ ، وَالْمَيْلُ عَمَّنْ لَا يَمِيلُ عَنْكَ ، وَهَلَّا كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاهُ فِيكَ ، وَرِضَاكَ لِمَنْ رِضَاهُ لَكَ :

« يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ   وِجْدَانُنَا كُلَّ شَىْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ »

أُعِيذُكَ وَنَفْسِى مِنْ أَنْ أَشِيمَ [4] خُلَّبًا [5] ، وَأَسْتَمْطِرَ جَهَامًا [6] ، وَأَكْدِمَ [7] فى غَيْرِ مَكْدَمٍ ، وَأَشْكُوَ شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْعِقْبَانِ [8] وَالرَّخَمِ ، فَمَا أَبْسَسْتُ [9] لَكَ إِلَّا لِتَدِرَّ ، وَمَا حَرَّكْتُ لَكَ الْحُوَارَ [10] إِلَّا لِتَحِنَّ ، وَمَا نَبَّهْتُكَ إِلَّا لِأَنَامَ [11] ، وَمَا سَرَيْتُ إِلَيْكَ ، إِلَّا لِأَحْمَدَ السُّرَى [12] لَدَيْكَ . وَإِنَّكَ

---

(١) لفاء : خسيس . قال الشاعر :

« وما أنا بالضعيف فتظلمونى   ولا حظى اللفاء ولا الخسيس »

(٢) كل الصيد فى جوف الفرا : انظر « ص   »

(٣) المرخ والعفار : نوعان من الشجر سريعا الاتقاد ، وقريب من هذا قول المعرى :

« وأبغضت فيك النخل والنخل مثمر   وأحببت من حبك الطلح والضال . »

(٤) أشيم : أراقب السحاب لأرى أين يمطر .   (٥) الخلب : البرق الذى لا يصحبه غيث .

(٦) الجهام : السحاب الذى لا ماء فيه .

(٧) أكدم : أعض ـ والمثل العربى : « كدمت فى غير مكدم » ـ وهو يضرب لمن يريد الشىء من غير أهله .   (٨) يشير إلى قول المتنبى :

« ولا تشك إلى قوم فتشمتهم   شكوى الجريح إلى العقبان والرخم . »

(٩) أبسست : رفقت من الرفق . (١٠) الحوار : ولد الناقة . (١١) يشير إلى قول بشار بن برد :

« إذا أيقظتك حروب العدا   فنبه لها عمراً ، ثم نم

فتى لا ينام على غـرة   ولا يشرب الماء إلا بدم . »

(١٢) يشير إلى المثل المشهور : « عند الصباح يحمد القوم السرى » يشير إلى قرب الفرج بعد الضيق .

إنْ سَنيْتَ (١) عقْدَ أمْرِى تيَسَّرَ ، وَمَتَى أعْذَرْتَ (٢) فى فَكِّ أسْرِى لَمْ يَتَعَذَّرْ ، وَعِلْمُكَ مُحِيط بِأنَّ المعْرُوف ثَمَرَةُ النِّعْمَةِ ، وَالشَّفَاعَةَ زَكَاةُ المَرُوءةِ ، وَفَضْلَ الجاهِ - تَعُودُ بِهِ - صَدَقَةٌ :

« وَإذَا امْرُؤٌ أَهْدَى إلَيْكَ صَنِيعَةً — مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّهَا مِنْ مَالِهِ (٣) »

لَعَلِّى أُلْقِى العَصَا بِذَرَاكَ (٤) ، وَتَسْتَقِرُّ بِىَ النَّوَى فِى ظِلِّكَ ، وَأَسْتَأْنِفُ التَّأَدُّبَ بِأَدَبِكَ ، وَالاحْتِمَالَ عَلَى مَذْهَبِكَ ، فَلاَ أُوجِدَ لِلْحَاسِدِ مَجَالَ لَحْظَةٍ (٥) ، وَلاَ أَدَعَ لِلْقَادِحِ مَسَاغَ لَفْظَةٍ ، وَاللهُ مُبَشِّرُكَ مِنْ إطْلاَبِى بِهٰذِهِ الطَّلِبَةِ (٦) ، وَإشْكَائِى (٧) مِنْ هٰذِهِ الشَّكْوَى ، بِصَنِيعَةٍ تُصِيبُ مِنْهَا مَكَانَ المَصْنَعِ ، وَتَسْتَوْدِعُهَا أحْفَظَ مُسْتَوْدَعٍ ، حَسْبَمَا أنْتَ خَلِيقٌ لَهُ ، وَأنَا مِنْكَ حَرِىٌّ بِهِ ، وَذٰلِكَ بِيَدِهِ وَهَيِّنٌ عَلَيْهِ .

⁂

وَلَمَّا تَوَالَتْ عِذَرُ هٰذَا النَّثْرِ ، وَاتَّسَقَتْ دُرَرُهُ ، فَهَزَّ عِطْفَ غُلَوَائِهِ ، وَجَرَّ ذَيْلَ خُيَلاَئِهِ ، عَارَضَهُ النَّظْمُ مُبَاهِياً ، بَلْ كَايَدَهُ مُدَاهِياً ، حِينَ أشْفَقَ أنْ يَسْتَعْطِفَكَ اسْتِعْطَافُهُ ، وَتَمِيلَ بِنَفْسِكَ أَلْطَافُهُ (٨) : فَاسْتَحْسَنَ العَائِدَةَ (٩) مِنْهُ ، وَاعْتَدَّ بِالفَائِدَةِ لَه ، فَمَا زَالَ يَسْتَكِدُّ الذِّهْنَ العَلِيلَ ، وَالخَاطِرَ الكَلِيلَ ، حَتَّى زَفَّ إلَيْكَ عَرُوساً مَجْلُوَّةً ، فى أثْوَابِهَا ، مَنْصُوصَةً (١٠) ، بِحَلْيِهَا وَمَلاَبِهَا (١١) :

---

(١) سنيت : يسرت وسهلت .
(٢) أعذرت : طلبت العذر .
(٣) البيت لأبى تمام . (٤) ذراك : كنفك وظلك .
(٥) لحظه : نظره .
(٦) الطلبة : المطلوب . (٧) إشكائى : إزالة شكواى .
(٨) ألطافه : حيره وبره .
(٩) العائدة : الجميل أو الصنيع .
(١٠) منصوصة : مرفوعة على المنصة ليلة الزفاف . (١١) الملاب : الزعفران .

فالهَوَى فى طُلُوعِ تِلْكَ النُّجُومِ   وَالمُنَى فى هُبُوبِ ذَاكَ النَّسِيمِ(١)
سَرَّنَا عَيْشُنَا الرَّقِيقُ الْحَوَاشِى   لَوْ يَدُومُ السُّرُورُ لِلْمُسْتَدِيمِ
وَطَرٌ مَا انْقَضَى إِلَى أَنْ تَقَضَّى   زَمَنٌ ، مَا ذِمَامُهُ بِالذَّمِيمِ
إِذْ خِتَامُ الرِّضَا المُسَوِّغِ مِسْكٌ   وَمِزَاجُ الْوِصَالِ مِنْ تَسْنِيمِ
وَغَرِيضُ الدَّلاَلِ غَضٌّ جَنَى الصَّبْـ   ـوَةِ ، نَشْوَانُ مِنْ سُلاَفِ النَّعِيمِ
طَالَمَا نَافَرَ الْهَوَى - مِنْهُ - غِرٌّ   لَمْ يَطُلْ عَهْدُ جِيدِهِ بِالتَّمِيمِ

* * *

أَيُّهَا المؤْذِنِى بِظُـلْمِ اللَّيَالِى   لَيْسَ يَوْمِى بِوَاجِدٍ مِنْ ظَلُومِ
قَمَرُ الْأُفْقِ - إِنْ تَأَمَّلْتَ - وَالشَّمْسُ   هُمَا يُكْسَفَانِ دُونَ النُّجُومِ
وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُّ يَنْحُو   - بِالمُصَابِ الْعَظِيمِ - نَحْوَ الْعَظِيمِ

* * *

بَوَّأَ اللهُ « جَهْوَراً » شَرَفَ السُّؤْ   دَدِ فى السَّرْوِ وَاللُّبَابِ الصَّمِيمِ
وَاحِدٌ سَلَّمَ الجَمِيعُ لَهُ الْأَمْـ   ـرَ ، فَكَانَ الخُصُوصُ وَفْقَ الْعُمُومِ
قَلَّدَ الْعُمْرُ ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ ،   وَاكْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ الْعَلِيمِ
خَطَرٌ يَقْتَضِى الْكَمَالَ ، بِنَوْعَىْ   خُلُقٍ بَارِعٍ وَخَلْقٍ وَسِيمِ

* * *

أَيُّهَا ذَا الْوَزِيرُ : هَا أَنَا أَشْكُو ،   وَالْعَصَا بَدْء قَرْعِهَا لِلْحَلِيمِ
مَا عَنَانَا أَنْ يَأْنَفَ السَّابِقُ المَرْ   بَطَ فى الْعِتْقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ
وَبَقَاء الحُسَامِ - فى الجَفْنِ - يَثْنِى   مِنْهُ بَعْدَ المَضَاءِ وَالتَّصْمِيمِ

---

(١) انظر شرح هذه القصيدة فى « ص ٥٠ » من هذا الديوان

أفَصَبْرٌ مِئِينَ خَمْساً مِنَ الأَيَّا ... مِ ؟ نَاهِيكَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمِ !

وَمُعَنًّى — مِنَ الضَّنَى — بِهَنَاتٍ ... نَكَأَتْ بِالْكُلُومِ قَرْحَ الْكُلُومِ

سَقَمٌ لاَ أُعَادُ فِيهِ، وَفِى الْعَا ... ئِدِ أُنْسٌ يَفِى بِبُرْءِ السَّقِيمِ

نَارُ بَغْيٍ، سَرَى — إِلَى جَنَّةِ الأَمْـ ... ـنِ لَظَاهَا، فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ

بِأَبِى أَنْتَ — إِنْ تَشَأْ — تَكُ بَرْداً ... وَسَلاَمًا، كَنَارِ إِبْرَاهِيمِ

لِلشَّفِيعِ الثَّنَاءُ، وَالْحَمْدُ — فِى صَوْ ... بِ الْحَيَا — لِلرِّيَاحِ، لاَ لِلْغُيُومِ

وَزَعِيمٌ بِأَنْ يُذَلِّلَ — لِى الصَّعْـ ... ـبَ — مَثَابِى إِلَى الْهُمَامِ الزَّعِيمِ

وَوِدَادٌ — يُغَيِّرُ الدَّهْرُ مَا شَا ... ءَ — وَيَبْقَى بَقَاءَ عَهْدِ الْكَرِيمِ

وَثَنَاءٌ أَرْسَلْتُهُ سَلْوَةَ الظَّا ... عِنِ عَنْ شَوْقِهِ، وَلَهْوَ الْمُقِيمِ

فَهْوَ رَيْحَانَةُ الْجَلِيسِ — وَلاَ فَخْـ ... ـرَ — وَفِيهِ مِزَاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ

لَمْ يَزَلْ مُغْضِياً — عَلَى هَفْوَةِ الْجَا ... نِى — مُصِيخاً إِلَى اعْتِذَارِ الْكَرِيمِ

وَمَتَى تَبْدَإِ الصَّنِيعَةَ يُولِـ ... ـكَ تَمَامُ الْخِصَالِ بِالتَّتْمِيمِ

وَقَالَ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ :

« لَيْسَ دَهْرِى بِوَاجِدٍ مِنْ ظَلُومِ ... وَبَلاَءٌ مِنْ حَادِثٍ وَقَدِيمِ

لَيْسَ يُسْتَنْكَرُ النُّحُولُ لِمِثْلِى، ... جَسَدِى مُبْتَلًى بِقَلْبٍ مَشُومِ . »

* * *

هَا كَهَا — أَعَزَّكَ اللهُ — يَبْسُطُهَا الأَمَلُ، وَيَقْبِضُهَا الْخَجَلُ، لَهَا ذَنْبُ التَّقْصِيرِ، وَحُرْمَةُ الإِخْلاَصِ، فَهَبْ ذَنْباً لِحُرْمَةٍ، وَاشْفَعْ نِعْمَةً بِنِعْمَةٍ، لِيَتَأَتَّى لَكَ الإِحْسَانُ مِنْ جِهَاتِهِ، وَتَسْلُكَ إِلَى الْفَضْلِ مِنْ طُرُقَاتِهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

إلى المظفـــــر (١)

« وكتب إلى المظفر سيف الدولة أبى بكر بن الأفطس ،
صاحب بطليوس ، وضمنها قصيدة أوّلها .
لبيض الطلى ، ولسود اللمم
بعقلى — مد بن عنى — لمم »

لَمَّا لَبِسَ الحَاجِبُ — أعَزَّهُ اللهُ — رِدَاءَ المَجْدِ مُعْلَمًا ، وَحَمَلَ لِوَاءَ الحَمْ

---

(١) كان المظفر من أعظم ملوك الطوائف . وكان أحرص الناس — كما يقولون — على جمع علوم الأدب ونوادر الأخبار وعيون التاريخ ، وقد ألف كتاباً كبيراً — فى الأدب — فى عشرة أجزاء ضخمة ، وقد ولى « بطليوس » بعد موت أبيه « عبد الله بن مسلمة » المعروف بابن الأفطس وقد استبد « عبد الله » هذا بالملك سنة ٤٣١ هـ — بعد فتنة بنى أمية بالأندلس — فلما مات أعقبه ابنه « أبو بكر المظفر » وضبط أمره وتبه شأنه ، ومازال بها حتى مات سنة ٤٦١ هـ . وخلفه عليها ابنه المتوكل حتى قتله يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٥ هـ وقد كان ابن عباد يغريه بقتله — فيما يقولون — وكان المتوكل قدم راسخة فى صناعة النظم والنثر مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة ، وقد رثاه ابن عبدون بقصيدته المشهورة ، وهى :

« الدهر يفجع — بعد العين — بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب — وإن أبدى مسالمة — والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس — تأخذه يد الضراب — وبين الصارم الذكر
فلا تغرّنك — من دنياك — نومتها فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالى — أقال الله عثرتنا من الليالى ، وخانتها يد الغير —
فى كلّ حين لها — فى كل جارحة منا — جراح ، وإن زاغت عن النظر
تسرّ بالشىء ، لكن كى تغر به كالأيم ثار إلى الجانى من الزهر
كم دولة — قد مضت والنصر يخدمها — لم تبق منها ، وسل ذكراك من خبر
هوت بدارا ، وفلت غرب قاتله ، وكان عضباً — على الأملاك — ذا أثر
واسترجعت — من بنى ساسان — ما وهبت ، ولم تدع — لبنى يونان — من أثر
وأتبعت أختها طسما ، وعاد على عاد وجرهم منها ناقض المرر
وما أقالت ذوى الهات — من يمن — ولا أجارت ذوى الغايات من مضر
ومزقت سبأ — فى كلّ قاصية — ، فما التقى رائح منهم بمبتكر
وأنفذت — فى كليب — حكمها ، ورمت مهلهلا بين سمع الأرض والبصر

مُعْلَنًا ، فَاسْتَطَارَ بَارِقُ فَخْرِهِ ، وَاسْتَضَاءَ فَائِحُ ذِكْرِهِ ، وَشُهِرَتْ مَحَاسِنُهُ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ ، وَسَارَتْ مَآثِرُهُ مَسِيرَ الشَّمْسِ بِكُلِّ مَكَانٍ ، لِمَا سَوَّغَ مِنْ كَرَمِهِ ،

ولم ترد — على الصليل — صحته ... ولا ثنت أسداً عن ربها حجر

ودوخت آل ذبيان وإخوتهم ... عبساً ، وغصت بنى بدر على النهر

وألحقت بعدى — بالعراق — على ... يد ابنه أحمر العينين والشعر

وأهلكت «أبرويزا» بابنه ، ورمت ... بيزد جرد إلى « مرو » فلم يحر

وبلغت «يزد جرد» الصين واختزلت ... عنه — سوى الفرس — جمع الترك والخزر

ولم ترد مواضى « رستم » وقنا ... «ذى حاجب» عنه سعداً فى ابنة الغير

يوم القليب بنو بدر فنوا وسعى ... قليب بدر — بمن فيه — إلى سقر

ومزقت «جعفراً» بالبيض ، واختلست ... — من غيله — «حمزة» الظلام للجزر

وأشرفت بخبيب — فوق فارعة — ... وألصقت « طلحة » الفياض بالعفر

وخضبت شيب عثمان دما ، وخطت ... إلى الزبير ، ولم تستحى من عمر

وما رعت — لأبى اليقظان — صحبته ... ولم تزوده إلا الضيح فى العمر

وأجزرت سيف أشقاها أبا حسن ، ... وأمكنت — من حسين — راحتى شمر

وليتها — إذ فدت عمراً بخارجة — ... فدت علياً بمن شاءت من البشر

وفى ابن هند وفى ابن المصطفى « حسن » ... أتت بمعضلة الألباب والفكر

فبعضنا قائل : « ما اغتاله أحد » ... وبعضنا ساكت لم يؤت من حصر

وأردت ابن زياد بالحسين ، فلم ... يبؤ بشسع له — قد طاح — أو ظفر

وعممت — بالظبى — فودى أبى أنس ، ... ولم ترد الردى عنه قنا « زفر »

وأنزلت مصعباً — من رأس شاهقة — ... كانت بها مهجة المختار فى وزر

ولم تراقب مكان ابن الزبير ، ولا ... راعت عياذته بالبيت والحجر

وأعملت — فى لطيم الجن — حيلتها ، ... واستوسقت لأبى الذبان ذى البخر

ولم تدع — لأبى الذبان — قاضبه ، ... ليس اللطيم لها « عمرو » بمنتصر

وأحرقت شلو «زيد» بعد ما احترقت ... — عليه وجداً — قلوب الآى والسور

وأظفرت بالوليد — بن اليزيد — ولم ... تبق الخلافة بين الكأس والوتر

« حبابة » حب رمان أتيح لها ، ... و « أحمد » قطرته نفحة القطر

ولم تعد قضب السفاح نابية ... عن رأس مروان أو أشياعه الفجر

وأسبلت دمعة الروح الأمين على ... دم بفخ لآل المصطفى هدر

وأشرقت جعفراً — والفضل ينظره — ... والشيخ يحيى بريق الصارم الذكر

وأخفرت — فى الأمين — العهد ، وانتدبت ... لجعفر بابنه والأعبد الغدر

وما وفت بعهود المستعين ، ولا ... بما تأكد للمعتز من مرر

وأوثقت فى — عراها — كل معتمد ، ... وأشرقت — بقذاها — كل مقتدر

وَأَسْبَغَ مِنْ نِعَمِهِ ، وَوَطَّأَ ـ لِلْآمِلِينَ ـ مِنْ أَكْنَافِهِ ، وَهَزَّ ـ إِلَى الرَّاغِبِينَ ـ مِنْ أَعْطَافِهِ ، وَرَفْرَفَتْ أَجْنِحَةُ الْأَهْوَاءِ إِلَيْهِ ، وَاهْتَزَّتْ جَوَانِحُ الْآمَالِ إِلَيْهِ ،

وروعت كل مأمون ومؤتمن ، وأســلمت كل منصور ومنتصر

وأعــثرت آل عباد ــ لعا لهــم ــ بذيل زباء لم تنفر من القصر

⁂

بني المظفر ــ والأيام ما برحت مراحلا ــ والورى منها على سفر

سحقا ليومكم يوماً ، ولا حملت ــ بمثــله ــ ليلة في مقبل العمر

من للأسرة ؟ أو من للأعنة ؟ أو من للأســنة ؟ يهديها إلى الثغر

من للظبى ؟ وعوالي الخط قد عقدت ــ أطراف ألسنها ــ بالعي والحصر

وطوّقت ــ بالمنايا السود ــ بيضهم فاعجب بذاك ، وما منها سوى الذكر

من للبراعة ؟ أو من لليراعة ؟ أو من للسماحة ؟ أو للنفع والضرر ؟

أو دفع كارثة ؟ أو ردع آزفة ؟ أو قمع حادثة تعيي على القــدر ؟

ويح السماح وويح البأس ــ لو سلما ــ وحسرة الدين والدنيا على عمر

ســقت ثرى الفضل والعباس هامية تعزى إليهم ــ سماحا ــ لا إلى المطر

ثلاثة ما رأى العصران مثلهم فضـــلا ولو عززا بالشمس والقمر

ثلاثة ما ارتقى النسران حيث رقوا وكل ما طار ــ من نسر ــ ولم يطر

ثلاثة كذوات الدهر ــ منذ نأوا عني ــ مضى الدهر لم يربع ولم يحر

ومر ــ من كل شيء ــ فيه أطيبه حتى التمتع بالآصال والبكر

أين الجلال الذي غضت مهابتــه قــلوبنا وعيون الأنجم الزهر ؟

أين الإباء الذي أرســوا قواعده على دعائم من عزّ ومن ظفر

أين الوفاء الذي أصــفوا شرائعه فلم يرد أحد منها على كدر

كانوا رواسي أرض الله ــ منذ نأوا عنها ــ استطارت بمن فيها ولم تقر

كانوا مصابيحها ، فمذ خبوا عثرت هذي الخليقة ــ يا لله ــ في سدر

كانوا شجى الدهر ، فاستهوتهم خدع منه بأحلام عاد في خطى الحضر

ويل امه من طلوب الثأر مدركه منهم بأســد سراة في الوغى صــبر

من لي ــ ولا من بهم ــ إن أظلمت نوب ولم يكن ليلها يفضي إلى ســحر ؟

من لي ومن بهم إن عطلت ســنن وأخفيت ألسن الآثار والســير ؟

من لي ومن بهم إن طبقت محن ولم يكن وردها يفضي إلى صدر ؟

على الفضائل ــ إلا الصبر ــ بعدهم ســلام مرتقب للأجر منتظر

يرجو عسى ، وله ــ في أختها ــ أمل والدهر ذو عقب شتى وذو غــير

قرطت آذان من فيها بفاضحة على الحسان حصى الياقوت والدرر . »

وَكَثُرَ التَّغَايُرُ عَلَى تفيُّؤ ظِلِه ، وَالتَّنَافُسُ فى الِاعْتِلَاقِ بِحَبْلِهِ ، وَكُلٌّ اسْتَفْرَغَ جُهْدَهُ ، وَتَرَسَّلَ عَلَى حَسَبِ مَا عِنْدَهُ ، وَلاَ غَرْوَ أَنْ يُسْتَمْطَرَ الْغَمَامُ ، وَيَكْثُرَ - فى الْمَشْرَبِ الْعَذْبِ - الزِّحَامُ (١) .

وَمَا زِلْتُ - أَبْقَى اللهُ الْحَاجِبَ - أَتلَقَّى مِنْ مَسَاعِيهِ الْمَشْكُورَةِ ، وَيَقْرَعُ سَمْعِي بِمآثِرِهِ الْمَأْثُورَةِ ، مَا هُوَ أَنْدَى مِنْ بُلُوغِ الْأَمَلِ ، وَأَشْهَى مِنِ اخْتِلَاسِ الْقُبَلِ ، وَأَغَضُّ مِنْ جَنِيِّ الزَّهَرِ ، وَمَاهُوَ أَلْطَفُ مِنْ نَسِيمِ السَّحَرِ ، حَتَّى انْقَادَتْ نَفْسِي فِي زِمَامِ التَّأْمِيلِ وَالْمَوَدَّةِ ، وَنَازَعَتْ إِلَى الْأَخْذِ بِحَظٍّ مِنَ الِاعْتِلَاقِ وَالْمُمَازَجَةِ ، وَنَظَرْتُ إِلَى مَا دُونَ ذٰلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الْبُعْدِ الْمَانِعَةِ ، وَامْتِدَادِ التَّأَنِّي الْمُعْتَرِضَةِ ، فَغَضَضْتُ طَرْفَ الْخَيْبَةِ ، وَطَوَيْتُ كَشْحاً عَلَى الْيَأْسِ مِنْ دَرْكِ الْأُمْنِيَّهِ ، إِلَى أَنْ نَدَبَنِي الْأَدِيبُ « أَبُو فُلَانٍ » إِلَى مُخَاطَبَتِهِ ، وَحَرَّضَنِي عَلَى مُكَاتَبَتِهِ ، وَنَبَّهَنِي عَلَى مَا فِي التَّثَاقُلِ - عَنْ مُدَاخَلَتِهِ - مِنَ التَّضْيِيعِ الصَّرِيحِ ، وَالتَّقْصِيرِ الْبَيِّنِ الصَّحِيحِ ، إِذْ هُوَ أَسْنَى عِلْقٍ غُولِيَ فِيهِ ، وَأَنْفَسُ ذُخْرٍ نُوفِسَ فِيهِ ، فَطَرِبْتُ - إِلَى ذٰلِكَ - كَمَا طَرِبَ النَّشْوَانُ مَالَتْ بِهِ الْخَمْرُ ، وَاهْتَزَزْتُ كَمَا اهْتَزَّ - تَحْتَ الْبَارِحِ (٢) - الْغُصْنُ الرَّطْبُ ، وَرَأَيْتُ شُكْرَ يَدِ الْعَلْيَاءِ فِيمَا حَثَّنِي إِلَيْهِ ، وَحَضَّنِي عَلَيْهِ ، مِمَّا فِيهِ حِلْيَةُ الْفَخْرِ ، وَمَكْرُمَةُ الدَّهْرِ ، أَنْ أَسْتَفْتِحَ بَابَ الْمُكَاتَبَةِ بِالشَّفَاعَةِ ، وَأَنْهَجَ طَرِيقَ الْمُخَاطَبَةِ فِي الْعِنَايَةِ بِهِ ، وَتَبَيَّنْتُ - بَعْدَ ذِمَامِ الطَّلَبِ ، وَحُرْمَةِ الْوُدِّ وَالْأَدَبِ - مَا أَسْتَقْصِرُ نَفْسِي مَعَهُ أَنْ أَتَقَدَّمَ فى

---

(١) يشير إلى المثل المشهور : « المورد العذب كثير الزحام »

(٢) ريح بارح - ريح شديدة .

خِدْمَةِ رَغْبَتِهِ قَلَمِى ، وَقَدْ تَأَخَّرَ قَدَمِى ، وَ بَعْدَ الِاقْتِصَارِ بِغَيْبَةِ كِتَابِى ، دُونَ أَنْ أَزُمَّ إِلَيْهِ رِكَابِى، وَهُوَ فَتًى نَامَ جَدُّهُ ، وَاسْتَيْقَظَ حَدُّهُ ، فَتَنَكَّرَ الزَّمَانُ لَهُ، وَاعْتَرَتِ الْأَيَّامُ لَهُ ، بَيْنَ ذِئَابِ سِعَايَةٍ عَوَتْ عَلَيْهِ ، وَعَقَارِبِ وِشَايَةٍ دَبَّتْ إِلَيْهِ ، وَأُصْلِيَ بِنَارِ حَرْبٍ لَمْ يَجْنِهَا ، وَآلَ بِهِ الْأَمْرُ إِلَى فِرَاقِ أَحِبَّتِهِ ، وَالْبُعْدِ عَنْ مَسْقَطِ رَأْسِهِ ، وَمَمْلَقِ تَمَائِمِهِ ، عَلَى ضِيقِ حَالِهِ ، وَضَعْفِ إِحْسَانِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ ذٰلِكَ لَمْ يَزِدِ الْحَاجِبَ إِلَّا وَلَاءً ، وَعَلَيْهِ إِلَّا ثَنَاءً، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ يُعِيدُ شُكْرَهُ وَيُبْدِيهِ ، وَيَنْشُرُ حَمْدَهُ وَيَطْوِيهِ ، وَالْحَاجِبُ ـ أَدَامَ اللهُ إِعْزَازَهُ ـ وَلِىُّ بِأَعْدَائِهِ عَلَى زَمَانِهِ الْغَشُومِ ، وَأَمَلِى بِإِنْصَافِهِ مِنْ دَهْرِهِ الظَّلُومِ ، بِإِلْبَاسِهِ مِنْ جَمِيلِ رَأْيِهِ مَا عَرِىَ مِنْهُ ، وَإِيرَادِهِ مِنْ شَرِيعَةِ رِضَاهُ مَا حُلِّئَ عَنْهُ ، وَالتَّخْلِيَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأُفُقِ الَّذِى لَمْ يَرَ كَوْكَبَ سَعْدٍ إِلَّا فِيهِ ، وَلَا تَلَقَّى نَسِيمَ حَيَاةٍ إِلَّا مِنْهُ، فَإِنَّهُ مِمَّا يُؤَلِّفُهُ مِنْ إِحْسَانِهِ ، وَيَأْتِيهِ مِنَ الْفَضْلِ فِى شَانِهِ ، مُسْتَجْزِلَ شُكْرِ مَنْ أَنْهَضَهُ لِسَانٌ ، وَاسْتَقَلَّ بِهِ بَيَانٌ ، وَهُوَ أَهْلُ الْفَضْلِ ، وَالْمَعْهُودُ مِنْهُ كَرَمُ الْفِعْلِ ، وَاللهُ يُبْقِيهِ وَيُعْلِيهِ ، وَهُوَ حَسْبُهُ وَحَسْبِى فِيهِ .

وَلَمَّا اطَّرَدَ هٰذَا النَّثْرُ بِحُسْنِ اتِّسَاقِهِ ، وَلَذِيذِ مَذَاقِهِ ، هَزَّتِ النَّظْمَ أَرْيَحِيَّةٌ جُذِبَ لَهَا بِعِنَانِهِ ، وَعَارَضَهُ بِهَا فِى مَيْدَانِهِ ، وَأَبَتْ أَنْ يَنْفَرِدَ النَّثْرُ بِلِقَاءِ الْحَاجِبِ وَمُشَافَهَتِهِ ، وَتَسْتَبِدَّ بِأَنْ تَلْمَحَ غُرَّتَهُ ، وَتَخْدُمَ بِالْحُضُورِ حَضْرَتَهُ ، فَأَثْبَتُّ مِنْهُ مَا إِنْ أَنْعَمَ عِنْدَ تَصَفُّحِهِ بِالصَّفْحِ عَنِ الزَّلَلِ الَّذِى يَعْرِضُ فِيهِ ، وَالْخَلَلِ الَّذِى يَبْدُو مِنْهُ ، وَصَلَ النِّعْمَةَ بِمِثْلِهَا ، وَقَرَنَ الْعَارِفَةَ بِشَكْلِهَا .

لِبِيضِ الطُّلَى وَلِسُودِ اللِّمَمْ ... بِعَقْلِيَ ـ مُذْ بِنَّ عَنِّى ـ لَمَمْ [1]

---

(١) ارجع الى هذه القصيدة فى « ص ١٢٦ »

فَفِي نَاظِرِي - عَنْ رَشَادٍ - عَمًى، وَفِي أُذُنِي - عَنْ مَلَامٍ - صَمَمْ[1]
قَضَتْ بِشِمَاسِي - عَلَى الْعَاذِلِينَ - شُمُوسٌ مُكَلَّلَةٌ بِالظُّلَمْ
فَمَا سَقِمَتْ لَحَظَاتُ الْعُيُونِ إِلَّا لِتُغْرِيَنِي بِالسَّقَمْ
يَلُومُ الْخَلِيُّ عَلَى أَنْ أُجَنَّ وَقَدْ مَزَجَ الشَّوْقُ دَمْعِي بِدَمْ
وَمَا ذُو التَّذَكُّرِ مِمَّنْ يُلَامُ وَلَا كَرَمُ الْعَهْدِ مِمَّا يُذَمْ

⁂

وَإِنِّي أُرَاحُ إِذَا مَا الْجَنُوبُ رَاحَتْ بِرَيَّا جَنُوبِ الْعَلَمْ
وَأَصْبُو لِعِرْفَانِ عَرْفِ الصَّبَا وَأُهْدِي السَّلَامَ إِلَى «ذِي سَلَمْ»
وَمِنْ طَرَبٍ عَادَ نَحْوَ «الْبُرُوقِ» أَجْهَشْتُ لِلْبَرْقِ حِينَ ابْتَسَمْ
أَمَا وَزَمَانٍ - مَضَى عَهْدُهُ حَمِيداً - لَقَدْ جَارَ لَمَّا حَكَمْ
قَضَى بِالصَّبَابَةِ ثُمَّ انْقَضَى وَمَا اتَّصَلَ الْأُنْسُ حَتَّى انْصَرَمْ
لَيَالِيَ نَامَتْ عُيُونُ الْوُشَاةِ عَنَّا، وَعَيْنُ الرِّضَى لَمْ تَنَمْ
وَمَالَتْ عَلَيْنَا غُصُونُ الْهَوَى فَأَجْنَتْ ثِمَارَ الْمُنَى مِنْ أَمَمْ
وَأَيَّامُنَا مُذْهَبَاتُ الْبُرُودِ رِقَاقُ الْحَوَاشِي صَوَافِي الْأَدَمْ
كَأَنَّ «أَبَا بَكْرٍ» الْأَسْلَمِيَّ أَجْرَى عَلَيْهَا فِرِنْدَ الْكَرَمْ
وَوَشَّحَ زَهْرَةَ ذَاكَ الزَّمَانِ بِمَا حَازَ مِنْ زُهْرِ تِلْكَ الشِّيَمْ
هُوَ الْحَاجِبُ الْمُعْتَلِي لِلْعُلَا شَمَارِيخَ كُلِّ مُنِيفٍ أَشَمّْ
مَلِيكٌ - إِذَا سَابَقَتْهُ الْمُلُوكُ - حَوَى الْخَصْلَ أَوْ سَاهَمَتْهُ سَهَمْ
فَأَطْوَلُهُمْ - بِالْأَيَادِي - يَداً، وَأَثْبَتُهُمْ - فِي الْمَعَالِي - قَدَمْ

---

(١) قال ابن هانئ الأندلسي :
« وفي بصري - عن سواكم - عمى ، وفي أذني - عن سواكم - صمم .

* * *

وَأَرْوَعَ، لاَ مُمْتَنِي رِفْدِهِ يَخِيبُ، وَلاَ جَارُهُ يُهْتَضَمْ

ذَلُولُ الدَّمَاثَةِ صَعْبُ الإِبَاءِ ثَقِيفُ الْعَزِيمِ إِذَا مَا اعْتَزَمْ

سَمَا لِلْمَجَرَّةِ - فِي أُفْقِهَا - فَجَرَّ عَلَيْهَا ذُيُولَ الْهِمَمْ

وَنَاصَتْ مَسَاعِيهِ زُهْرَ النُّجُومِ وَبَارَتْ عَطَايَاهُ وُطْفَ الدِّيَمْ

نَهِيكٌ - إِذَا جَنَّ لَيْلُ الْعَجَاجِ - سَرَى مِنْهُ فِي جُنْحِهِ بَدْرُ تِمْ

فَشَامَ السُّيُوفَ بِهَامِ الْكُمَاةِ وَرَوَّى الْقَنَا فِي نُحُورِ الْبُهَمْ

جَوَادٌ ذَرَاهُ مَطَافُ الْعُفَاةِ وَيُمْنَاهُ رُكْنُ النَّدَى الْمُسْتَلَمْ

يَهِيجُ النِّزَالُ بِهِ وَالسُّؤَا لُ لَيْثاً هَصُوراً وَبَحْراً خِضَمْ

شَهِدْنَا، لأُوتِيَ فَصْلَ الْخِطَابِ وَخُصَّ بِفَضْلِ النُّهَى وَالْحِكَمْ

وَهَلْ فَاتَ شَيْءٌ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ جَرَى السَّيْفُ يَطْلُبُهُ وَالْقَلَمْ

* * *

وَمُسْتَحْمَدٍ بِكَرِيمِ الْفَعَا لِ - عَفْواً - إِذَا مَا اللَّئِيمُ اسْتَذَمْ

شَمَائِلُ تُهْجَرُ عَنْهَا الشَّمُولُ وَتُجْفَى لَهَا مُشْجِيَاتُ النَّغَمْ

عَلَى الرَّوْضِ مِنْهَا رُوَاءٌ يَرُوقُ وَفِي الْمِسْكِ طِيبُ أَرِيجٍ يُشَمْ

* * *

أَبُوهُ الَّذِي فَلَّ غَرْبَ الضَّلاَلِ وَلاَءَمَ شَعْبَ الْهُدَى فَالْتَأَمْ

وَلاَذَ بِهِ الدِّينُ مُسْتَعْصِماً بِذِمَّةِ أَبْلَجَ وَافِي الذِّمَمْ

وَجَاهَدَ - فِي اللهِ - حَقَّ الْجِهَا دِ مَنْ دَانَ - مِنْ دُونِهِ - بِالصَّنَمْ

فلاَ سَامِيَ الطَّرْفِ إلاَّ أَذَلَّ ... وَلاَ شَامِخَ الْأَنفِ إلاَّ رَغَمْ

تَقَيَّلَ فى الْعِزِّ ـ مِنْ حِمْيَرٍ ـ ... مَقَاوِلَ عَزُّوا جَمِيعَ الْأُمَمْ

هُمُ نَعَشُوا الْمُلْكَ حَتَّى اسْتَقَلَّ ... وَهُمْ أَظْلَمُوا الْخَطْبَ حَتَّى اظْلَمْ

نُجُومُ هُدًى ـ وَالمَعَالِى بُرُوجٌ ـ ... وَأُسْدُ وَغًى وَالْعَوَالِى أَجَمْ

***

« أَبَا بَكْرٍ » اسْلَمْ عَلَى الْحَادِثَاتِ ، ... وَلاَ زِلْتَ ـ مِنْ رَيْبِهَا ـ فى حَرَمْ

أُنَادِيكَ ـ عَنْ مِقَةٍ ـ عَهْدُهَا ... كَمَا وَشَّتِ الرَّوْضَ أَيْدِى الرِّهَمْ

وَإِنْ يَعْدُنِى عَنْكَ شَحْطُ النَّوَى ... فَحَظِّى أَخَسُّ وَنَفْسِى ظَلَمْ

وَإِنِّى لَأُصْفِيكَ مَحْضَ الْهَوَى ... وَأُخْفِى ـ لِبُعْدِكَ ـ بَرْحَ الْأَلَمْ

وَغَيْرُكَ أَخْفَرَ عَهْدَ الذِّمَامِ ... إِذَا حُسْنَ ظَنِّى عَلَيْهِ أَذَمْ

***

وَمُسْتَشْفِعٍ بِىَ ، بَشَّرْتَهُ ... ـ عَلَى ثِقَةٍ ـ بِالنَّجَاحِ الْأَتَمْ

وَقِدْمًا أَقَلْتَ الْمُسِىءَ الْعِثَارَ ... وَأَحْسَنْتَ ـ بِالصَّفْحِ ـ عَمَّا اجْتَرَمْ

وَعِنْدِى ـ لِشُكْرِكَ ـ نَظْمُ الْعُقُودِ ... تَنَاسَقُ فِيهَا اللآلِى التُّوَمْ

تُجِدُّ لِفَخْرِكَ بُرْدَ الشَّبَابِ ... إِذَا لَبِسَ الدَّهْرُ بُرْدَ الْهَرَمْ

فَعِشْ مُعْصَمًا بِيَفَاعِ السُّعُودِ ... وَدُمْ نَاعِمًا فى ظِلاَلِ النِّعَمْ

وَلاَ يَزَلِ الدَّهْرُ ، أَيَّامُهُ ... لَكُمْ حَشَمٌ ، وَاللَّيَالِى خَدَمْ

***

هٰذَا أعزّ اللهُ الحَاجِبَ مَا اقْتَنَصَتْهُ القَرِيحَةُ مَعَ اقْتِضَائِهَا، وَأَجَابَتْهَا بِهِ البَدِيهَةُ عِنْدَ اسْتِدْعَائِهَا، وَالذِّهْنُ[1] عَلِيلٌ، وَالطَّبْعُ كَلِيلٌ، وَالرَّوِيَّةُ فَاسِدَةٌ، وَسُوقُ الأَدَبِ - إِلاَّ عِنْدَهُ - كَاسِدَةٌ، وَلَوْ أَنِّي أُوتِيتُ - فِي النَّثْرِ - غَزَارَةَ عَمْرٍو، وَبَرَاعَةَ ابْنِ سَهْلٍ، وَأُمْدِدْتُ - فِي النَّظْمِ - بِنَظْمِ البُحْتُرِيِّ، وَصِنَاعَةِ الطَّائِيِّ[2] لَمَا رَدَدْتُ - إِلَى الحَاجِبِ - إِلاَّ مَا أَخَذْتُ مِنْهُ، وَلاَ أَوْرَدْتُ عَلَيْهِ غَيْرَ مَا صَدَرَ عَنْهُ، وَلاَ أَنْفَذْتُ مَا أَنْفَذْتُ إِلاَّ بَيْنَ أَمَلٍ يَبْسُطُ، وَخَجَلٍ يَقْبِضُ، فَرَأْيُهُ مُوَفَّقٌ فِي أَنْ يَمْنَحَ مَا بَعَثَ الأَمَلُ إِسْعَافًا، وَمَا أَوْجَبَ الخَجَلُ إِغْضَاءً، لِيَأْتِيَ الإِحْسَانَ مِنْ جِهَاتِهِ، وَيَسْلُكَ - إِلَى الفَضْلِ - طُرُقَاتِهِ. وَمُرَاجَعَتُهُ لِي عَنْ كِتَابِي بِعَهْدٍ كَرِيمٍ يَكُونُ كُحْلاً لِعَيْنِ الرِّضَا بِوَحْيَةِ القَوْلِ، أَقِفُ بِهِ مِنْ تَوَالِي النِّعَمِ عَلَيْهِ، وَانْتِظَامِ الأَحْوَالِ - بِالصَّلاَحِ لَدَيْهِ - عَلَى مَا تَبْتَهِجُ لَهُ نَفْسِي، وَيَنْتَظِمُ مَعَهُ عِقْدُ أُنْسِي، يَدٌ عِنْدِي جَنَاهَا شَهْدٌ، وَشَذَاهَا عَنْبَرٌ وَوَرْدٌ، وَرِدَاؤُهَا الشُّكْرُ الجَزِيلُ، وَأُتْبِعُهَا الثَّنَاءَ الجَمِيلَ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَلْيُبْلَغْ مِنِّي سَلاَمًا يُهْدِي إِلَيهِ نَدَّهُ[3]، وَتَحِيَّةً أَوَّلُهَا عِنْدِي وَآخِرُهَا عِنْدَهُ.

---

(١) وفي الأصل: « والدهر ».

(٢) يعني أبا تمام.

(٣) الند (بالفتح) ويكسر: الطيب أو العنبر، وفي الأصل: « يهدى إليه نه ».

إلى ابن مسلمة

« وكتب من قرطبة إلى ابن مسلمة باشبيلية
قبل تحوله إليها : »

يَا سَيِّدِي وَأَرْفَعَ عُدَدِي ، وَأَوَّلَ الذَّخَائِرِ فِي عَدَدِي ، وَأَخْطَرَ عِلْقٍ مَلأَتْ مِنِ اقْتِنَائِهِ يَدِي ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللهُ فِي عِيشَةٍ بَارِدَةِ الظِّلاَلِ ، وَنِعْمَةٍ سَابِغَةِ الأَذْيَالِ ، قَدْ تَقَاصَرَ الثَّنَاءُ عَلَيْكَ ، وَتَوَالَى الحَدِيثُ الحَسَنُ عَنْكَ ، حَتَّى حَلَلْتَ مَحَلَّ الأَمَانَةِ ، وَكُنْتَ مَوْضِعَ تَقْلِيدِ الوَطَنِ ، وَثَبَاتِ الطَّوِيَّةِ ، وَاللهُ يُمَتِّعُكَ بِمَا حَازَهُ لَكَ مِنَ الخَيْرِ ، وَوَفَّرَهُ عَلَيْكَ مِنْ طِيبِ الذِّكْرِ .

فِي عِلْمِكَ ـ أَعَزَّكَ اللهُ ـ مَا تَقْتَضِيهِ العُطْلَةُ مِنْ إِظْلاَمِ الخَاطِرِ ، وَصَدَإِ النَّفْسِ ، وَيَجْنِيهِ طُولُ المُقَامِ مِنْ إِخْلاَقِ الدِّيبَاجَةِ وَإِرْخَاصِ القَدْرِ ، وَقَدْ آنَ أَنْ أَجْتَنِيَ ثَمَرَةً مِنْ آدَابٍ أَطَلْتُ الاعْتِنَاءَ بِهَا ، وَأَخْلاَقٍ أَدَمْتُ رِيَاضَةَ النَّفْسِ عَلَيْهَا ، وَلَمَّا مَخَضْتُ المُلُوكَ وَجَدْتُ عَبِيرَهُمُ الَّذِي أَنْسَى[1] السَّالِفَ قَبْلَهُ ، وَتَقَدَّمَ الدَّاهِرَ مَعَهُ ، وَأَتْعَبَ الغَابِرَ بَعْدَهُ ، الحَاجِبَ فَخْرَ الدَّوْلَةِ مَوْلاَيَ أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ ، وَكَبَتَ أَعْدَاءَهُ ، مَا خَصَّهُ اللهُ بِهِ مِنْ سَنِيِّ الهِمَمِ ، وَسَمَاحَةِ الشِّيَمِ ، وَانْتِظَامِ أَسْبَابِ الرِّيَاسَةِ ، وَكَمَالِ آلاَتِ السِّيَاسَةِ ، وَاجْتِمَاعِ المَنَاقِبِ الَّتِي أَفْرَدَتْهُ عَنِ النُّظَرَاءِ ، وَأَعْلَتْهُ عَنْ مَرَاتِبِ الأَكْفَاءِ ، فَرَأَيْتُ ـ قَبْلَ أَنْ أَحْتَمِلَ لِغَيْرِهِ نِعْمَةً ، أَوْ أُوسَمَ مِمَّنْ سِوَاهُ بِصَنِيعَةٍ ـ أَنْ أَعْرِضَ نَفْسِي مَمْلُوكَةً عَلَيْهِ ، عَرْضَ مَنْ لاَ يُؤَمِّلُهَا ـ لِإِجَارَتِهِ ـ إِلاَّ بِالاسْتِجَارَةِ ، وَلاَ يَطْمَعُ لَهَا ـ فِي قَبُولِهِ ـ إِلاَّ بِالمُسَامَحَةِ ، فَلَوْ كُنْتُ الوَلِيدَ بْنَ عُبَيْدٍ بَرَاعَةَ نَظْمٍ ، وَجَعْفَرَ ابْنَ يَحْيَى بَلاَغَةَ نَثْرٍ ، وَإِبْرَاهِيمَ

(١) وفى الأصل : « أطلب

أَبْنَ بَهْدِيّ طِيبَ مُجَالَسَةِ ، وَإِمْتَاعَ مُشَاهَدَةِ ، ثُمَّ حَضَرَتْ مَجْلِسَهُ الْعَالِي ، لَمَا كُنْتُ - بِسَعَةِ إِحَاطَتِهِ - إِلاَّ فِي جَانِبِ التَّقْصِيرِ ، وَتَحْتَ غَمْرَةِ النُّقْصَانِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَعْدَمْ فِي نَجَابَةِ غَرْسِ الْيَدِ ، وَإِصَابَةِ طَرِيقِ الْمَصْنَعِ ، مِنْ وِلاَيَةٍ أُخْلِصُهَا وَنَصِيحَةٍ أُمْحِضُهَا ، وَشُكْرٍ أُجْنِيهِ الْغَضَّ مِنْ زَهَرَاتِهِ ، وَثَنَاءٍ أُهْدِي إِلَيْهِ الْعَطِرَ مِنْ نَفَحَاتِهِ ، مِنْهَا مَا سَوَّغَكَ اللهُ مِنَ الْمَوْهِبَةِ فِي ذَلِكَ ، وَأَنْهَضَكَ بِأَعْبَاءِ الشُّكْرِ لَهَا ، وَمِنْهَا شَرَفُ مَذْهَبِكَ ، وَكَرَمُ سَجِيَّتِكَ ، وَصِحَّةُ مُشَارَكَتِكَ لِمَنْ لَمْ يَسْتَوْجِبْهَا اسْتِيجَابِي ، وَلاَ اسْتَدْعَاهَا بِمِثْلِ أَسْبَابِي ، مِنْ تَدَانِي الْجِدَارِ وَتَصَافِي السَّلَفِ ، وَالاِنْتِمَاءِ إِلَى أُسْرَةِ الْأَدَبِ ، فَإِنْ وَافَقَتِ الْمُسَاعَفَةُ الْإِرَادَةَ فَحَظٌّ أَقْبَلَ ، وَعَبْدٌ بَلَغَ مِنْ قَبُولِ سَيِّدِهِ مَا أَمَّلَ

وَلَمْ أَقُلْ - عَمْرَكَ اللهَ - كَمَا قِيلَ فِي النَّجْمَيْنِ ، بَلْ قُلْتُ : « وَقَدْ يَجْمَعُ اللهُ الشَّتِيتَيْنِ » وَإِنْ عَاقَ حِرْمَانٌ عَادَتُهُ أَنْ يُعَوِّقَ عَنِ الظَّفَرِ ، وَيَعْتَرِضَ دُونَ الْأَمَلِ ، فَأُعْلِمُهُ - أَيَّدَهُ اللهُ - أَنِّي فِي حَالَيِ الْمُطْلَقَةِ مَعَ غَيْرِهِ وَالتَّصَرُّفِ - وَيَوْمَيِ الاِنْقِطَاعِ وَالتَّصَوُّفِ[1] ، كَالْمُهْتَدِي بِالنَّجْمِ حِينَ عَدِمَ ذُكَاءَ ، وَمُتَيَمِّمِ الصَّعِيدِ حِينَ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ .

فَإِنْ أَغْشَ قَوْمًا غَيْرَهُ أَوْ أَزُرْهُمُ ... فَكَالْوَحْشِ يُدْنِيهِ مِنَ الْأَنَسِ الْمَحْلُ

وَاللهُ يَتَوَلاَّهُ بِالْفُسْحَةِ فِي عُمُرِهِ ، وَالْإِعْلاَءِ لِأَمْرِهِ ، وَيَصْرِفُ الْأَقْدَارَ مَعَ إِيثَارِهِ ، وَيُصَرِّفُ وُجُوهَ التَّوْفِيقِ إِلَى اخْتِيَارِهِ ، وَلَكَ - يَا سَيِّدِي - فِي انْتِدَابِكَ مَا انْتَدَبْتُكَ لَهُ مَا لِلسَّاعِي الْمُنْجِحِ مِنَ الشُّكْرِ ، وَلِلْمُجْتَهِدِ الْبَالِغِ مِنَ الْعُذْرِ ، مِلاَكُ الْأَمْرِ بِتَقْدِيمِ الْمُرَاجَعَةِ بِالْجَوَابِ ، فَأَسْكُنُ إِلَيْهِ ، وَالْجَنَابِ فَأَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ، وَأُهْدِي إِلَيْكَ نَدِيَّ الْغَضِّ النَّاضِرِ مِنْ سَلاَمِي ، وَالْأَرِجَ الْعَاطِرَ مِنْ تَحِيَّتِي .

(١) التصوف : بالواو والياء العدول والانصراف . وفى الأصل « ويومى الأيقظان » .

رسالة إلى المعتضد

« وكتب إثر ذلك إلى المعتضد رقعة يقول فيها :

أَطَالَ اللهُ بَقَاء الْحَاجِبِ فَخْرِ الدَّوْلَةِ ـ مَوْلاَىَ وَسَيِّدِى وَمَوْلَى الْمَنَاقِبِ الْجَلِيلَةِ ، وَالضَّرَائِبِ النَّفِيسَةِ ـ فى أَكْمَلِ مَا تَكَفَّلَ لَهُ بِهِ مِنْ عُلُوِّ الْقَدْرِ ، وَنَفَاذِ الْأَمْرِ ، وَأَحْظَاهُ مِنَ النِّعَمِ بِأَسْبَغِهَا سِرْبَالاً ، وَأَبْرَدِهَا ظِلاَلاً ، وَأَحْمَدِهَا مَآلاً .

كُنْتُ ـ أَعَزَّ اللهُ الْحَاجِبَ ـ مَوْلاَىَ قَدْ كَتَبْتُ إِلَى الْوَزِيرِ أَبِى عَامِرٍ عَبْدِهِ بِمَا أَيْقَنْتُ أَنَّهُ انْتَهَى إِلَيْهِ ، وَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ ، فَكَتَبَ الْوَزِيرُ إِلَى بَعْضِ أَسْبَابِهِ بِمَا يَقُومُ مَقَامَ الْمُرَاجَعَةِ لِى بِمَا يَرْتَفِعُ عَنْ قَدْرِى ، وَلا تَتَّسِعُ لَهُ سَاحَةُ شُكْرِى ، لِعِلْمِى أَنَّهُ مِنَ الْحَاجِبِ ـ أَيَّدَهُ اللهُ ـ صَدَرَ ، وَبَعْدَ إِذْنِهِ[1] نَفَذَ ، وَالَّذِى عَدَانِى عَنْ أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ فى ذَلِكَ إِلَى الْحَاجِبِ ـ أَبْقَاهُ اللهُ ـ التَّأَدُّبُ بِآدَابِ خِصْيَانِ الْعَبِيدِ فى الْإِجْلاَلِ وَالْإِعْظَامِ ، وَتَرْكِ التَّبَسُّطِ وَالْإِقْدَامِ ، وَقَلَّمَا اسْتَغْنَتْ أَوَائِلُ مَطَالِبِ الْأَتْبَاعِ لِحَضْرَةِ الْمُلُوكِ عَنْ وَسَائِطَ تُمَهِّدُ لَهَا وَتَعْتَمِدُ أَوْقَاتَ الْإِمْكَانِ بِهَا ، لِأَنِّى مَا اتَّخَذْتُ إِلَى الْحَاجِبِ ـ أَدَامَ اللهُ عُلُوَّهُ ـ غَيْرَ سِيَادَتِهِ ذَرِيعَةً ، أَوِ الْتَمَسْتُ إِلَيْهِ إِلاَّ مِنْ نَفَاسَةِ نَفْسِهِ شَفَاعَةً ، وَأَىُّ مَعْدًى لِمِثْلِى عَنْ تَفَيُّؤِ ظِلاَلِهِ ، وَالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ . وَصِنَاعَةُ الْآدَابِ كَاسِدَةٌ إِلاَّ عَلَيْهِ ، وَطَرِيقُ الْأَمَلِ مُوحِشَةٌ إِلاَّ إِلَيْهِ ، وَلاَ يَدْعُنِى إِلَى اسْتِطْلاَعِ مَا قِبَلَهُ شَكٌّ فى كَرَمِهِ ، وَلاَ سُوءُ ظَنٍّ بِسَمَاحَةِ شِيَمِهِ ، بَلْ لُزُومُ الطَّرِيقَةِ فى التَّوْطِئَةِ لِلْمَطْلَبِ ، وَالتَّدَرُّجِ إِلَى إِحْرَازِ الْأَدَبِ ، وَحَسْبِى أَنَّ أَمَلِى قَدِ ارْتَادَ الْجَنَابَ

---

(١) فى الأصل : « وبغير إذنه »

الرَّحْبَ ، وَالْمَشْرَبَ الْعَذْبَ ، وَلَعَلَّ الْحُظُوظَ سَتُكْشَفُ ، وَالنَّوَائِبَ سَتُصْرَفُ ، إِلَى أَنْ أَبْعَدَ إِلَى أَبْعَدِ غَايَاتِ الْأَمَلِ مِنْ مُشَاهَدَةِ حَضْرَتِهِ الْعَلْيَاءِ ، وَالنَّظَرِ إِلَى غُرَّتِهِ الزَّهْرَاءِ ، فَوَاللهِ مَا يَنْصَرِفُ فِكْرِى ، وَلَا يَنْصَرِمُ حِينٌ مِنْ عُمْرِى ، إِلَّا فِى الذِّكْرِ لَهُ ، وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ ، وَالْمُثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنَا أُقَدِّمُ الْاعْتِذَارَ مِنْ مَهَابَةٍ تَتَمَلَّكُ جَنَانِى ، وَحَصَرٍ يَكَادُ يَقْطَعُ فِى أَوَّلِ الْمُشَافَهَةِ لِسَانِى ، فَإِنْ حَدَثَ ذَلِكَ فَعُذْرِى عُذْرُ (١) الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ وَقَدِ انْقَطَعَ بَيْنَ يَدَىِ الرَّشِيدِ ، فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! مِنْ فَرَاهَةِ الْعَبْدِ أَنْ تَمْلِكَ قَلْبَهُ هَيْبَةُ سَيِّدِهِ » .

وَسَيُفْضِى - بِمَشِيئَةِ اللهِ - إِلَى مَا يَسْتَجِيزُهُ الْحَاجِبُ مَوْلَاىَ مِنْ إِمْتَاعِ مَنْ شَاهَدَ ، وَيَسْتَطْرِفُهُ مِنْ أَدَبٍ يَسْتَطْلِعُهُ مِنْ إِجْمَالِ طَلَبٍ ، وَجَمَالِ مَذْهَبٍ ، كَمَا أَنِّى أَعْلَمُ أَنِّى سَأَصِلُ إِلَى مَا لَمْ أَعْهَدْ مِثْلَهُ مِنْ بَهَاءِ مَنْظَرٍ ، وَسَنَاءِ مَخْبَرٍ ، وَرِفْعَةِ شَانٍ ، وَعِظَمِ سُلْطَانٍ ، وَلَعَلَّ السَّعَادَةَ تُهَيِّئُ لِى مِنَ الْحَظِّ مَا أُثْبِتُ بِهِ مَا ادَّعَيْتُهُ لِنَفْسِى مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ ، وَأُنْجِزُ مَعَهُ مَا قَدَّمْتُ عَنْهَا مِنْ هَذِهِ الْعِدَاتِ ، فَحَوْلُ اللهِ فِى ذَلِكَ كَفِيلٌ ، وَهُوَ حَسْبِى وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، زَادَ اللهُ الْحَاجِبَ مَوْلَاىَ مِنْ سَنِىِّ قِسَمِهِ ، وَهَنِىِّ نِعَمِهِ ، وَبَلَّغَهُ النِّهَايَةَ مِنْ آمَالِهِ .

رسالة من قرطبة

« وكتب إليه بعد أن صدر من حضرته إلى قرطبة رسالة يقول فيها : »

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ مَوْلَاىَ لِلنِّعَمِ يُطَوِّقُهَا ، وَالْآمَالِ يُصَرِّفُهَا (٢) ، وَالْمِنَنِ يُقَلِّدُهَا وَالْأَحْرَارِ يَسْتَعْبِدُهَا .

---

(١) فى الأصل : « فعذرى عند الفضل . »

(٢) وفى نسخة الذخيرة المنقولة عن النسخة المنقولة عن النسخة المغربية : « يصدقها » .

يَعلَمُ الذى أسألُهُ إعزازَ مولاىَ وإعلاءَ أمرِهِ ، وَصِلةَ تأييدِهِ ، وَتمكينَ نصْرِهِ، أنِّى ـ لمْ أزلْ مُنذُ فارقتُ حضرتَهُ الجليلةَ حضرةَ المجدِ والسِّيادةِ ، ومحلَّ الإقبالِ والسَّعادةِ ـ لهِجَ اللِّسانِ بِما حبانِى مِنْ ثِمارِ الحِكْمةِ والنِّعْمةِ ، وأفادَنِى مِنْ عقْدِ الأدبِ والنَّسبِ ، فَمِنْ كبِدِ حاسِدٍ تصدَّعتْ ، وأنفاسِ مُنافسٍ تقطَّعتْ ، وَناعِمِ البالِ أكسفتُ بالَهُ ، ومُتمَنٍّ لِحالِى طالَما تمنَّيتُ حالَهُ ، وقلَّما أنالُ أدنَى مكانةٍ مِنْهُ ، وأرقَى أوَّلَ درجةٍ مِنَ الخصُوصِ بِهِ ، تحسُدُهُ الكواكِبُ فى إشراقِها ، وتنحَشِدُ إليْهِ الأمانِى مِنْ أطرافِها ، لِعبيدِهِ الذينَ أنا آخِرُهُمْ فى الخِدْمةِ ، وأوَّلُهُمْ فى شُكْرِ النِّعْمةِ ، ويرْفعُ مِنْ هِمَمِهِمْ ما انخفَضَ ، ويَبْسُطُ مِنْ آمالِهِمْ ما انْقبضَ ، ولا يُعْدِمُهُمُ التَّقلُّبَ فى نِعْمَتِهِ ، والاعْتِلاقَ بِأسْبابِ ذِمَّتِهِ ، بِمَجْدِهِ وكرَمِهِ ، وكانتْ مِنْ مولاىَ ـ أعزَّهُ اللهُ ـ إشارةٌ بلْ عِبارةٌ أعدَدْتُها طَليعةً لِسُعُودٍ تتوافَى طلقاً ، ومُقدِّماتٍ لِمسرَّاتٍ تتوالَى نسقاً ، فلمَّا لحِقَ الجِسْمُ بعْدَ تركِهِ النفْسَ لديْهِ ، والبَراءةَ مِنْها إليْهِ ، بالوطنِ الذى أسلانِى عنْهُ ، وأسنَى لِى العِوضَ مِنْهُ ، تأنَّيتُ مِنْ طاعتِهِ المُقترِنةِ بِطاعةِ اللهِ فى نفسِى ممْلُوكتِهِ لِما أنا مُهنّأٌ بِهِ مُنافسٌ فيهِ ، فساعفتِ المآرِبُ ، وأسمحتِ المطالِبُ ، ولمْ يربْنِى تعذُّرُ وجْهٍ حاولْتُهُ ، ولا عدانِى تيسُّرُ أمْرٍ تناولْتُهُ ، ولمْ تبقَ عِلّةٌ تُسوِّغُ بِاعْتِراضِها الاعْتِذارَ إلاَّ ما يتراخَى ما يُعاوِدُ أمْرَهُ ، ويتجدَّدُ فى الحركةِ إذْنُهُ ، ولمْ أستأذِنْ لأنَّ الإذْنَ بعُدَ عهْدُهُ ، ولأنَّ المِيعادَ لمْ يُحْكَمْ عقْدُهُ ، بلْ تجنَّبْتُ أنْ أدِلَّ بِترْكِ المُشاورةِ ، أوْ أخِلَّ بِرسْمِ المُؤامرةِ، فلِمولاىَ الطَّوْلُ فى أمْرِ الوساطةِ عِنْدَهُ بِمُراجعةٍ أعْتمِدُ عليْها،وأجْتهِدُ فى الانْتِهاءِ إليْها ، واللهُ يُبلِّغُنِى الآمالَ مِنْ وقْفةٍ بِحضْرتِهِ ، ونظْرةٍ إلى غُرَّتِهِ ، وتقْبيلٍ لِراحتِهِ ، وتصرُّفٍ فى ساحتِهِ ، فهُوَ المالِكُ لِذلِكَ ، القادِرُ عليْهِ .

من رسالة

« وله من رسالة حذف أبو الحسن هنا أكثرها ولم يذكر إلا قطرة من وابل ، أو نفثة من سحر بابل ، وها أنا مثبتها على تواليها ، إشارة لحسن معانيها، واستفادة من سنى أدبه فيها ، وهى[1] : »

يَا سَيِّدِى الَّذِى كُنْتُ أَرَاهُ أَعَدَّ عُدَدِى ، وَأَخصَّ جُنَنِى ، مِنْ زَمَنِى ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللّٰهُ فى أَصْلَحِ الْأَحْوَالِ ، وَأَفْسَحِ الآمَالِ .

أُبْدِئُ جَرْىَ كِتَابِى إِلَيْكَ بِشَرْحِ الضَّرُورَةِ الْحَافِزَةِ إِلَى مَا صَنَعْتَ مِمَّا بَلَغَنِى أَنَّكَ صَدَّكَ اللَّائِمَانِ بِى عَلَيْهِ ، وَأَوَّلَ السَّفِيهَانِ الرَّأْىَ فِيهِ ، وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ وَيْلٌ لِلشَّجِىِّ مِنَ الْخَلِىِّ ، وَهَانَ عَلَى الْأَمْلَسِ مَا لَاقَى الْدَّبِرُ .

وَأُوَسِّطُهُ بِمُعَاتَبَتِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنِ انْفِصَالِكَ عَنِّى ، وَبَرَاءَتِكَ مِنْ آكَدِ الْمِحْنَةِ مِنِّى ، وَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ فى وِرْدٍ وَلَا صَدَرٍ مِنْ مُشَارَكَتِى فِيهَا ، وَلَا كَانَتْ لَكَ نَاقَةٌ وَلَا جَمَلٌ فى مُظَاهَرَتِكَ لِى عَلَيْهَا ، مَعَ الْقُدْرَةِ لَكَ عَلَى تَهْوِينِ خَطْبِهَا ، وَتَذْلِيلِ صَعْبِهَا ، وَتَلْيِينِ شَدِيدِهَا ، وَتَقْرِيبِ بَعِيدِهَا ، فَأَرَى صِدْقَكَ الْحَدِيثَ وَمَا ذَاكَ بُخْلاً مِنِّى لِبُخْلِى عَلَيْكَ بِالْإِغْضَاءِ أَنْتَ عَيْنِى (وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ عَيْنِى) غَضُّ أَجْفَانِهَا عَلَى الْقَذَى[2] وَإِنَّمَا يُعَاتَبُ الْأَدِيمُ ذُو الْبَشَرَةِ[3] ، وَالْمَثَلُ السَّائِرُ : يَبْقَى الْوُدُّ مَا بَقِىَ الْعِتَابُ ، وَقَالَ الآخَرُ :

---

(١) ابن بسام . (٢) جملة «وليس من حق عينى» ساقطة من الأصل ، وقد أثبتناها لأن السياق يقتضيها ، وهو يشير إلى قول ابن الرومى :

« أنت عينى ، وليس من حق عينى غض أجفانها على الأقذاء . »

(٣) المعاتبة : المعاودة وبشرة الأديم : ظاهره الذى عليه الشعر ، أى إنما يعاد إلى الدباغ من الأديم ما سلمت بشرته ، وهو مثل يضرب فى إمكان المراجعة والاستعتاب، وفى الأصل «وإنما يعاتب الأديم على البشرة . »

أَبْلِغْ أَبَا مِسْمَعٍ عَنِّى مُغَلْغَلَةً ... وَفِى الْعِتَابِ حَيَاةٌ بَيْنَ أَقْوَامِ

وَأَخْتِمُهُ بِتَكْلِيفِكَ مَا كَانَ سَبَبَ الْكِتَابِ ، وَالدَّاعِيَ إِلَى الْخِطَابِ ، عَسَاكَ أَنْ تَتَلَافَى عَوْدًا ، مَا ضَيَّعْتَ بَدْءًا ، وَتَهْتَبِلَ آخِراً ، مَا أَغْفَلْتَ أَوَّلاً ، فَيَعُودَ عَيْثُ مَا أَفْسَدْتَ ، وَإِنْ كُنْتَ فِى ذٰلِكَ : « كَدَابِغَةٍ وَقَدْ حَلِمَ الأَدِيمُ » (١) فَمَنَعْتَهُ الْفَوْتَ قَبْلَ الْعَطَبِ .

وَخَيْرُ الأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ ... وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَبَّعَهُ اتِّبَاعَا

فِى عِلْمِكَ أَنِّى سُجِنْتُ مُغَالَبَةً بِالْهَوَى ، وَهُوَ أَخُو الْعَمَى ، وَقَدْ نَهَى اللّٰهُ عَنِ اتِّبَاعِهِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ إِذْ يَقُولُ : « وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ . » وَقَالَ الشَّاعِرُ :

« إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى ... إِلَى بَعْضِ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ . »

دُونَ تَأَنٍّ تُدْرِكُ بَعْضُ الْحَاجَةِ بِهِ ، أَوِ اسْتِثْبَاتٍ تُؤْمَنُ مُوَاقَعَةُ الزَّلَلِ مَعَهُ ، بَلْ : « أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمِلْ . » وَشَهِدَ ابْنُ الْعَشَّارِ الْعَارِى عَنِ الثِّقَةِ وَالأَمَانَةِ ، الْبَعِيدُ مِنَ الرِّعْيَةِ وَالصِّيَانَةِ ، النَّاشِرُ لأُذُنَيْهِ طَمَعاً ، الآكِلُ بِيَدَيْهِ جَشَعاً ، فَكَانَ : « الْقَوْلُ مَا قَالَتْ حَذَامِ » . وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى أَنْ أُلْحِقَ بِالشُّهُودِ ، وَهْوَ وَاوُ عَمْرٍو فِيهِمْ ، وَنُونُ الْجَمْعِ الْمُضَافِ مَعَهُمْ ، دُونَ أَنْ يُلْحَقَ بِخُزَيْمَةَ ذِى الشَّهَادَتَيْنِ ، وَيَنُوبَ مُنْفَرِداً عَنِ اثْنَيْنِ .

« لَيْسَ عَلَى اللّٰهِ بِمُسْتَنْكَرٍ ... أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِى وَاحِدِ . »

---

(١) يضرب للأمر الذى انتهى فساده ، وذلك أن الجلد إذا حلم أى فسد إهابه ووقع فيه دود فتنقب لم يرج له إصلاح ، ويروى عن الوليد بن عتبة أنه كتب إلى معاوية :

« فإنك والكتاب إلى على ... كدابغة وقد حلم الأديم .

وَلَيْتَنِي مَعَ مَنْ لاَ يَحِلُّ قَوْلُهُ عَلَيَّ ، أُعْذَرُ فِى شَهَادَتِهِ إِلَيَّ ، وَلَمْ يَقْتَرِنِ الْحَشَفُ مَعَ سُوءِ الْكِيلَةِ ، وَيَسْتَضِيفُ لِى الْغُدَّةَ إِلَى الْمَوْتِ فِى بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ ، خُطَّتَا خَسْفٍ لَمْ أَرَ النَّجَاءَ مِنْهُمَا إِلاَّ أَنْ رَكِبْتُ الْحَوْلِيَّ الْأَشْهَبَ ، وَرَأَيْتُ خُرَاسَانَ مَكَانَ السُّوقِ أَوْ هِيَ أَقْرَبُ ، وَكَانَ الْمُتَوَلِّى سِجْنِى بَعْدَ شَهْرٍ مِنْ إِنْفَاذِهِ ، لَهُ مَجْلِسٌ حَضَرَهُ فُقَهَاءُ الْحَضْرَةِ وَمَنْ أُعْلِمَ بِسِيمَاهُمْ ، وَجَرَى فِى غِشْيَانِ الْحُكَّامِ مَجْرَاهُمْ ، فَذَكَرَ لَهُ أَنَّهُ اتَّهَمَنِى بِالْمُغَيَّبِ عَلَى عَهْدِ الْمُتَوَفَّى مَوْلاَيَ - كَانَ - نَقَعَ اللَّهُ صَدَاهُ ، وَبَلَّ ثَرَاهُ ، وَثَبَتَ عِنْدَهُ مَعَ ذَلِكَ أَنِّى مِمَّنْ تُعَامِلُهُ الْهِمَمُ ، وَلاَ تَرْتَفِعُ عَنْهُ الظِّنَنُ ، فَكُلُّهُمْ أَفْتَى بِالْإِعْذَارِ إِلَيَّ ، فِيمَا شَهِدَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ عَلَيَّ ، ثُمَّ سَجَنَنِى أَنْ لَمْ آتِ بِمَدْفَعٍ ، أَوْ أَصْدَعْ مِنَ الْحُجَّةِ بِمَقْنَعٍ ، فَاحْتَاطَ وَاجْتَهَدَ ، وَتَحَرَّى وَاقْتَصَدَ ، وَصَالَحَنِى مِنْ هَذِهِ الْفُتْيَا عَلَى النِّصْفِ بِتَأْخِيرِ الْإِعْذَارِ ، وَتَقْدِيمِ الصُّلْحِ ، وَالصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ[1] ، ثُمَّ أَظْهَرْتُ إِلَيْهِ عَقْدًا كَانَ الْمُتَوَفَّى قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ ، وَنَوَّرَ ضَرِيحَهُ ، قَدْ أَشْهَدَ فِيهِ أَنْ لاَ مَالَ لَهُ ، وَأَنَّ جَمِيعَ مَا تُحِيطُ بِهِ الدَّارُ الَّتِى تُوُفِّىَ بَعْدَ هَذَا الْإِشْهَادِ فِيهَا ، إِنَّمَا هُوَ لِلْغَانِيَةِ الَّتِى فِى عِصْمَتِهِ ، حَاشَا دَقَائِقَ بَيَّنَهَا ، وَمُحَقَّرَاتٍ عَيَّنَهَا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ أَشْهَدَ بِهَذَا عَلَى نَفْسِهِ ، وَتَقَيَّدَ مِثْلُهُ مِنْ لَفْظِهِ ، فَمُحَالٌ أَنْ يُخَلِّفَ عَهْدًا ، وَيَهْلِكَ مِنْ وَصِيَّةٍ ، وَسَأَلْتُهُ الشُّورَى فِيمَا أَثْبَتُّهُ مِنْ هَذَا الْعَهْدِ ، فَلَمْ يُجِبْنِى إِلَى ذَلِكَ ، وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الشُّورَى مِنْ أَدَبِ اللَّهِ إِذْ يَقُولُ : « وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ فَإِذَا

---

(١) جاء فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجامعة لأحكام القضاء التى أرسلها إلى أبى موسى الأشعرى قوله : « والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراما أو حرم حلالا . » وفى الأصل : « والسجن جائز بين المسلمين ».

عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ » . لَوَجَبَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهَا لَقَاحُ الْعَقْلِ ، وَرَائِدُ الصَّوَابِ ، وَأَنَّ لِلْمُشَاوِرِ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ، صَوَابًا يَفُوزُ بِمَحْمَدَتِهِ ، أَوْ خَطَأً يُشَارَكُ فِى مَذَمَّتِهِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

«وَلاَ تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً مَكَانُ الْخَوَافِى عُدَّةٌ لِلْقَوَادِمِ[1] . »

قَدْ قَرَعْتُ لَهُ الْعَصَا وَنَبَّهْتُهُ عَلَى أَنَّ الَّذِى دَعَوْتُهُ إِلَيْهِ ، لاَ يَسُوغُ دَفْعِى عَنْهُ ، وَلاَ يَجُوزُ مَنْعِى مِنْهُ[2] ، فَحِينَئِذٍ عَلَّلَنِى بِمَوَاعِيدَ : كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلاً ، إِذَا قَطَعْنَا مِنْهُ عَلَماً بَدَا عَلَمٌ ، وَكَانَ آخِرَهَا ـ الَّذِى نَسَخَ بِهِ مَا قَبْلَهُ ـ أَنْ تُدْرَجَ الشُّورَى إِلَى أَبْنَاءِ الشُّورَى لِلْوَرَثَةِ ، فَتَوَيْتُ أَرْقُبُ هٰذَا الْحِينَ ، وَأَرْجُو أَنْ يَحِينَ ، كَمَا يَرْجُو أَخُو السَّنَةِ الرَّبِيعَ : وَكَمَا فِى بُطُونِ الْحَامِلاَتِ رَجَاءٌ .

« فَكُنْتُ وَإِيَّاهُ سَحَابَةَ مُمْحِلٍ رَجَاهَا ، فَلَمَّا جَاوَزَتْهُ اسْتَهَلَّتِ »

وفى فصل منها :

وَلَمْ أَقُصَّ عَلَيْكَ يَا سَيِّدِى مِمَّا أَجْلَبْتُهُ إِلاَّ مَا شُهِرَ شُهْرَةَ الْإِسْمِ ، وَعُرِفَ مَعْرِفَةَ النَّسَبِ ، وَمَا يَوْمُ حَلِيمَةَ بِسِرٍّ ، وَكُنْتُ أَوَّلَ حَبْسِى قَدْ وُضِعْتُ مِنَ السِّجْنِ فِى مَوْضِعٍ قَدْ جَرَتِ الْعَادَةُ بِوَضْعِ مَسْتُورِى النَّاسِ ، وَذَوِى الْهَيْئَاتِ مِنْهُمْ فِيهِ ، وَفِى الشَّرِّ خِيَارٌ ، وَبَعْضُهُ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ ، فَمُنِيتُ ـ مِنْ مُطَالَبَةٍ بِعَضِ مَا يَهْتَمُّ النَّاظِرُونَ فِى السِّجْنِ لَهُ وَيَسْعَوْنَ إِلَيْهِ ـ بِمَا اقْتَضَى نَقْلِى إِلَى حَيْثُ الْجُنَاةُ الْمُفْسِدُونَ ، وَاللُّصُوصُ الْمُقَيَّدُونَ ، وَشَكَوْتُ ذٰلِكَ إِلَى الْحَكَمِ الْحَابِسِ لِى فِى الْيَوْمِ الَّذِى مَضَى ذِكْرُهُ بِمَشْهَدِ مَنْ تَقَدَّمَ

---

(١) البيت لبشار بن برد .

(٢) فى الأصل : « ونبه على الذى دعوته إليه ، لا يسوغ لى دفعه عنه ، ولا يجوز معى منه . » وما أثبتناه هنا هو ما يمكن أن يستقيم به المعنى .

وَصْفُهُ ، فَانْتَفَى مِنَ الرِّضَا بِهِ ، وَأَظْهَرَ الِامْتِعَاضَ مِنْهُ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْمُوَكَّلِ بِالسِّجْنِ فِى اخْتِيَارِ مَجْلِسٍ أُبَايِنُ فِيهِ مَنْ لَا تَلِيقُ بِى مُلَابَسَتُهُ ، وَأَنْتَبِذُ مِمَّنْ لَا تُرْضَى لِى مُجَالَسَتُهُ ، ثُمَّ لَمْ أَلْبَثْ أَنْ أَحْضَرَهُ مَجْلِسَ نَظَرِهِ ، وَأَمَرَ بِتَأْدِيبِهِ ، عَلَى امْتِثَالِهِ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ ، وَانْتِهَائِهِ إِلَى مَا حَدَّ لَهُ ، وَاسْتَأْنَفَ الْعَهْدَ فِى التَّضْيِيقِ عَلَىَّ ، وَمَنَعَ مَنِ اعْتَادَ صِلَتِى مِنَ الْوُصُولِ إِلَىَّ ، فَأُصْعِدْتُ إِلَى غُرْفَةٍ فِى السِّجْنِ أَقْنَعَنِى بِهَا مَعَ خَسَاسَتِهَا ، وَأَسْلَانِى عَنِ الْمُصِيبَةِ بِالْكَوْنِ فِيهَا — عَلَى مَضَاضَتِهَا — انْفِرَادِى مِنْ لَفِيفِ الْأَخْلَاطِ ، وَمَنْ ضَمَّهُ السِّجْنُ مِنَ السِّفْلَةِ وَالسُّقَّاطِ ، فَحِينَ اسْتِوَائِى إِلَيْهَا عَهِدَ بِحَطِّى إِلَيْهِمْ ، وَخَلْطِى بِهِمْ ، وَوَضْعِى بَيْنَهُمْ ، فَنُقِلْتُ وَدَخَلَ إِلَىَّ فِى هٰذِهِ الْحَالِ مَنْ أَبْلَغَ إِلَىَّ عَنِ ابْنِ أَخِى الْحَكَمِ رِسَالَةً جَامِعَةً مِنَ السَّبِّ الْفَاحِشِ فُنُونَهُ ، مُشْتَمِلَةً مِنَ الْوَعِيدِ الْمُرْهِبِ عَلَى ضُرُوبِهِ . فَلَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِى .

« وَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ ، وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ »

فَلَمْ أَسْتَطِعْ صَبْرًا ، وَعَلِمْتُ أَنِّى قَدْ أَبْلَيْتُ عُذْرًا ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُعْذِرَ لِى لَبِيدٌ وَكَادَ[1] ، وَرَأَيْتُ أَنَّ الْعَاجِزَ مَنْ لَا يَسْتَبِدُّ . فَالْمَرْءُ يَعْجِزُ لَا مَحَالَهْ ، وَلَمْ أَسْتَجِزْ أَنْ أَكُونَ ثَالِثَ الْأَذَلَّيْنِ الْعَيْرِ وَالْوَتِدِ ، وَذَكَرْتُ أَنَّ الْفِرَارَ مِنَ الظُّلْمِ

---

(١) يشير الى قول لبيد يخاطب بنتيه :

فقوما فقولا بالذى قد علمتما ولا تخمشا وجها ، ولا تحلقا الشعر
وقولا : « هو المرء الذى لا خليله أضاع ولا خان الصديق ولا غدر »
إلى الحول ، ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

واعتذر كأعذر أى أتى بعذر ، فهما بعد تمام الحول اذا أمسكتا عن النوح والبكاء على أبيهما فلهما العذر .

وَالْهَرَبَ مِمَّا لاَ يُطَاقُ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ . قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ : « فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ » . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

« لاَ عَارَ لاَ عَارَ فِي الْفِرَارِ، فَقَدْ   فَرَّ نَبِيُّ الْهُدَى إِلَى الْغَارِ »

وَنَظَرْتُ فِي مُفَارَقَةِ الْوَطَنِ ، وَالْبَيْنِ عَنِ الْأَحِبَّةِ، فَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ إِيحَاشَ نَفْسِي بِإِينَاسِ أَهْلِي ، وَقَطْعَهَا فِي مُوَاصَلَةِ وَطَنِي ، غَبْنٌ فِي الرَّأْيِ ، وَخَوَرٌ فِي الْعَزْمِ ، وَوَجَدْتُ الْحُرَّ يَنَامُ عَلَى الثُّكْلِ ، وَلاَ يَنَامُ عَلَى الذُّلِّ، وَأَذِنْتُ إِلَى قَوْلِهِمْ : لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْبِلاَدِ نَسَبٌ ، وَإِذَا نَبَا بِكَ مَنْزِلٌ فَتَحَوَّلِ ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُحْدَثِينَ :

« أَرَى النَّاسَ أُحْدُوثَةً   فَكُونِي حَدِيثاً حَسَنْ
كَأَنْ لَمْ يَزَلْ مَا أَتَى   وَمَا قَدْ مَضَى لَمْ يَكُنْ
إِذَا وَطَنٌ رَابَنِي   فَكُلُّ مَكَانٍ وَطَنَ »

وَلَمْ أَسْتَغْرِبْ أَنْ أُسَامَ بِمِثْلِ هٰذَا الْخَسْفِ فِي مَسْقَطِ رَأْسِي ، وَمَعَقِّ(١) تَمَائِمِي ، وَأَوَّلِ أَرْضٍ مَسَّ تُرَابُهَا جِلْدِي ، فَقَدِيماً ضَاعَ الْمَرْءُ الْفَاضِلُ فِي وَطَنِهِ ، وَكَسَدَ الْعِلْقُ النَّفِيسُ فِي مَعْدِنِهِ . قَالَ بَعْضُهُمْ :

« أُضِيعُ فِي مَعْشَرِي، وَكَمْ بَلَدٍ   يَعُودُ عُودُ الْكِبَاءِ مِنْ حَطَبِهْ »

فَاسْتَخَرْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاضِحَ وَجْهِ الْعُذْرِ ، ثَابِتَ قَائِمِ الْحُجَّةِ ، عِنْدَ مَنْ غَضَّ عَيْنَ الْهَوَى ، وَخَزَنَ لِسَانَ التَّعَسُّفِ ، وَاللهُ يُصِيبُ غَرَضَ الصَّوَابِ بِرَأْيِي ، وَيُقَرِّبُ غَايَةَ النَّجَاحِ عَلَى سَعْيِي، حَسْبُمَا ذٰلِكَ فِي عِلْمِهِ أَنِّي مَظْلُومٌ مَبْغِيٌّ

---

(١) المعق : الموضع الذى تعق أى تشق فيه عن الصبي التمائم ، ومنه قوله :
« بلاد بها عق الشباب تمائمي   وأول أرض مس جلدى ترابها. »

عَلَىَّ، مَنْسُوبٌ مَا لَمْ آتِهِ إِلَىَّ، فَهُوَ الْمُؤَمَّلُ لِذَلِكَ، وَالْمَرْجُوُّ لَهُ، وَلَعَمْرُكَ يَاسَيِّدِى إِنَّ سَاحَةَ[1] الْعُذْرِ لَتَضِيقُ عَنْكَ، وَمَا تَكَادُ تَتَّسِعُ لَكَ، فِى إِسْلَامِكَ تِلْمِيذَكَ وَابْنَ جَارِكَ وَشَيْخِكَ الَّذِى لَمْ تَزَلْ مُثَابِرًا عَلَيْهِ آخِذًا عَنْهُ مُقْتَبِسًا مِنْهُ مَعَ إِكْثَارِكَ مِنْ ذِكْرِ هٰذَا، وَالِاعْتِدَادِ بِهِ، وَادِّعَاءِ الْحِفْظِ لَهُ، وَقَدْ رَوَيْتَ أَنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَسَمِعْتَ الْمَثَلَ: « أُنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. » فَالْمَرْءُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ، وَلَا أَقَلَّ مِنَ اسْتِعْمَالِ الْجِدِّ، وَاسْتِغْرَاقِ الْجَهْدِ، فَمُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحٍ، وَلَا لَوْمَ فِى امْرِئٍ بَلَغَ الْعُذْرَ، وَلٰكِنْ مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلِّهِ، وَمَا حُمَّ وَاقِعٌ، وَلَا حَذَرَ مِنْ قَدَرٍ، وَقَدْ سَبَقَ السَّيْفُ الْعَذَلَ، وَتَقَدَّمَ مِنْ فِعْلِى مَا جَفَّ بِهِ الْقَلَمُ، وَأَنَا الْآنَ بِحَيْثُ أَمِنْتُ بَعْضَ الْأَمْنِ، إِلَّا أَنَّ رِزًّا[2] مِنْ وَعِيدٍ سَقَطَ إِلَىَّ بِأَنَّ السَّعْىَ لَمْ يَرْتَفِعْ، وَأَنَّ مَادَّةَ الْبَغْىِ لَمْ تَنْقَطِعْ، وَأَنَّ الْبَصِيرَةَ مُسْتَحْكِمَةٌ فِى اسْتِرْجَاعِى مِنَ الْأُفُقِ الَّذِى أَحُلُّ بِهِ، وَالْجَنَابِ الَّذِى أَحُطُّ فِيهِ، وَأَكَّدَ ذٰلِكَ فِى ظَنِّى مَا كَانَ أَشَارَ لِى إِلَيْهِ بَعْضُ مَنْ كُنْتُ آوِى إِلَى الثِّقَةِ بِعَهْدِهِ، وَأَبْنِى عَلَى الْوَثَاقَةِ مِنْ عَقْدِهِ، مِنَ الْفُقَهَاءِ الْمَوْسُومِينَ بِالْأَثَرَةِ عِنْدَ الْحَكَمِ الْمَذْكُورِ وَالْمَكَانَةِ مِنْهُ، وَقَدْ عَاتَبْتُهُ عَلَى تَأَخُّرِهِ عَنْ مُظَافَرَتِى وَتَقْصِيرِهِ فِى مُؤَازَرَتِى، فَاعْتَذَرَ بِأَنَّ ذٰلِكَ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ، وَلَا مَنْفَذَ لِلْحِيلَةِ فِيهِ، إِذِ الْمُحَرِّضُ عَلَىَّ لَا تَتَأَتَّى مُمَارَضَتُهُ، وَلَا يَتَهَيَّأُ الِاسْتِبْدَادُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ وَصَفَنِى بِالْبَذَاءِ وَمَا بِى بِالتَّسَلُّطِ عَلَى الْأَعْرَاضِ، وَوَاللّٰهِ مَا اسْتَجَزْتُ هٰذَا بَعْدَ أَنْ هَتَكَ

---

(١) فى الأصل: « ان ساعة العذر . » وفى هامش الأصل « لعلها سعه » وقد أثبتنا مكانها « ساحة » التى هى على صورتها فى الخط ليستقيم المعنى .

(٢) الرز والركز الصوت الخفى تسمعه من بعيد .

مِنْ سِتْرِى مَا هَتَكَ ، وَأَنْتَهِكَ مَا أَنْتَهَكَ ، إِنْ كُنْتُ أَقُولُ مَعْذُوراً ، وَأَنْفُثُ مَصْدُوراً. فَكَيْفَ قَبْلَ ذٰلِكَ إِذْ لَمْ يَحْدُثْ سَبَبٌ ، وَلاَ عَرَضَ مُوجِبٌ ، وَمَالِى وَهٰذَا الْمُجْتَنَى ثُمَّ مَالِيَا ، وَ « سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ » وَلَيْسَتْ هٰذِهِ بِبِكْرٍ مِنَ النَّمَائِمِ الَّتِي دَخَلَ بِهَا بَيْنَ الْعَصَا وَلِحَائِهَا :

« فَإِنِّى رَأَيْتُ غُوَاةَ الرِّجَا لِ لاَ يَتْرُكُونَ أَدِيماً صَحِيحَا »

⁂

وَمَنْ يَأْذَنْ إِلَى الْوَاشِينَ تُسْلَقْ مَسَامِعُهُ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادِ

وَيَا سَيِّدِى :

لَوْ بِغَيْرِ الْمَاءِ حَلْقِى شَرِقٌ كُنْتُ كَالْغَصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارِى

وَوَاللهِ مَا تَوَهَّمْتُ أَنِّى أُوتَى مِمَّنْ أُوتِيتُ مِنْهُ مَعَ اتِّصَالِى بِهِ ، وَانْقِطَاعِى إِلَيْهِ ، وَاتِّسَامِى بِالتَّأْمِيلِ لَهُ ، وَالتَّعْوِيلِ عَلَيْهِ . إِنَّ الْمَعَارِفَ فِى أَهْلِ النُّهَى ذِمَمُ . وَلٰكِنْ :

إِذَا كَانَ غَيْرُ اللهِ ـ لِلْمَرْءِ ـ عُدَّةً أَتَتْهُ الرَّزَايَا مِنْ وُجُوهِ الْفَوَائِدِ

لَقَدْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ الشِّيَمِ ، وَشُرُوطِ الْمُرُوءَةِ وَالْكَرَمِ ، أَنْ يَهَبَ لِى مَا أَنْكَرَ لِمَا عَرَفَ ، وَيَغْفِرَ مَا سَخِطَ لِمَا رَضِيَ ، وَيَدْفَعَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، وَيُؤْثِرَ الَّذِى هُوَ أَجْمَلُ وَأَرْفَقُ ، وَيَتَوَقَّفَ عِنْدَ مَا نُصَّ لَهُ مِنْ سِعَايَةٍ ، وَزُفَّ إِلَيْهِ مِنْ وِشَايَةٍ ، فَإِنْ كَانَ بَاطِلاً أَلْقَاهُ ، وَفَضَحَ الْمُخْبِرَ الْمُتَقَرِّبَ بِهِ وَأَقْصَاهُ ، وَإِنْ كَانَ حَقّاً صَبَرَ صَبْرَ الْحَلِيمِ ، وَأَغْضَى إِغْضَاءَ الْكَرِيمِ ، وَقَبِلَ إِنَابَةَ الْمُعْتِبِ ، وَاقْتَصَدَ فِى مُؤَاخَذَةِ الْمُذْنِبِ ، فَقَدَّمَ التَّوْقِيفَ ، قَبْلَ التَّثْقِيفِ ، وَالتَّأْنِيبَ ، قَبْلَ التَّأْدِيبِ فَإِنَّ الرِّفْقَ بِالْجَانِى عِتَابٌ ؛ وَالْحُرُّ يُلْحَى وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لاَ تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ، أَىُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ ؟

وَهُوَ يَرَى وَيَسْمَعُ أَنَّ بِالْحَضْرَةِ قَوْماً لاَ يَحْصُرُهُمُ الْعَدُّ تُحْتَمَلُ سَقَطَاتُهُمْ ، وَتُغْتَفَرُ هَفَوَاتُهُمْ ، وَتُقَالُ عَثَرَاتُهُمْ :

وَمَا شَرُّ الثَّلاَثَةِ أُمَّ عَمْرٍو بِصَاحِبِكِ الَّذِى لاَتَصْبَحِينَا[1]

وَمَا أَعْلَمُ أَنَّهُمْ يُدْلُونَ بِوَسِيلَةٍ إِلاَّ شَارَكْتُهُمْ فِيهَا ، وَلاَ يَمُتُّونَ بِذَرِيعَةٍ يَنْفَرِدُونَ دُونِى بِهَا :

هُوَ الْجَدُّ حَتَّى تَفْضُلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا وَحَتَّى يَصِيرَ الْيَوْمُ لِلْيَوْمِ سَيِّدَا

فَإِنْ كَانَتْ مُسَامَحَتُهُمْ لِسَابِقَةٍ سَلَفَتْ فَقَدْ أَحْرَزْتُ مِنْهَا الْحَظَّ الْأَعْلَى، أَوْ لِكَمَالِ أَدَبٍ فَقَدْ ضَرَبْتُ فِيهِ بِالْقِدْحِ الْمُعَلَّى ، أَوْ لِلُطْفِ تَوَدُّدٍ فَمَا قَصَّرْتُ فِى الاِجْتِهَادِ غَيْرَ أَنِّى حُرِمْتُ التَّوْفِيقَ ، وَالْأَمْرُ لِلّٰهِ ، رُبَّ مُجْتَهِدٍ مَا خَابَ إِلاَّ لِأَنَّهُ جَاهَدَ .

فَإِنْ كَانَ ذَنْبِى أَنَّ أَحْسَنَ مَطْلَبِى أَسَاءَ فَفِى سُوءِ الْقَضَاءِ لِىَ الْعُذْرُ

وَاللهِ لَقَدْ أَظْهَرْتُ مَدْحَهُ ، وَأَضْمَرْتُ نُصْحَهُ ، وَتَمَمْتُ عَلَى الصَّاغِيَةِ لَهُ ، وجَرَيْتُ مِلْءَ الْعِنَانِ إِلَى الاِعْتِلاَقِ بِهِ ، أَسْقِيهِ السَّائِغَ مِنْ مِيَاهِ وُدِّى، وَأَكْسِيهِ السَّابِغَ مِنْ بُرُودِ حَمْدِى ، وَأُجْنِيهِ الْغَضَّ مِنْ ثَمَرَاتِ شُكْرِى ، وَأُهْدِى إِلَيْهِ الْعَطِرَ مِنْ نَفَحَاتِ ذِكْرِى لاَ يُفِيدُنِى التَّحَبُّبُ إِلَيْهِ ، إِلاَّ ضَيَاعًا لَدَيْهِ ، ولاَ يَزِيدُنِى التَّقَرُّبُ مِنْهُ ، إِلاَّ بُعْدًا عَنْهُ :

كَأَنِّى أَسْتَدْنِى بِهِ ابْنَ حَنِيَّةٍ إِذَا النَّزْعُ أَدْنَاهُ مِنَ الصَّدْرِ أَبْعَدَا

وَالَّذِى أُحِبُّهُ مِنْكَ ، وَأَثِقُ فِى الْمُسَارَعَةِ إِلَيْهِ بِكَ لِقَاءَهُ مُجَارِيًا ذِكْرِى ، مُفَاوِضًا

---

(١) أى ليس شرّ الثلاثة يا أم عمر الذى لاتسقينه الصبوح بصاحبك ، وفى الأصل :
« وما شرّ الثلاثة — أم عمرو — لصاحبك الذى لا تصحبينا . »

فى أمْرِى ، مُعْلِمًا لَهُ بِالَّذِى لاَ يَذْهَبُ عَنْهُ - مِنْ أَنَّ الَّذِى اخْتَرْتُهُ لِنَفْسِى فَايَةُ مَايُسِىءُ الْعَدُوَّ بِهِ ، وَيُسَاءُ الْمَوْلَى مِنْهُ - فَالْجَلاَءُ أَخُو الْقَتْلِ ، وَالْغُرْبَةُ أَحَدُ السِّبَاءَيْنِ قالَ اللهُ تعالَى : « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ . » وَقالَ الشَّاعِرُ :

«وَمَنْ يَغْتَرِبْ عَنْ قَوْمِهِ لاَ يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجَرًّا وَمَسْحَبَا
وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ، وَإِنْ يُسِئْ يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارَ فِى رَأْسِ كَبْكَبَا»

وقَدْ هجَرْتُ الْأَرْضَ الَّتِى هِىَ ظِئْرِى ، وَالدَّارَ الَّتِى كَانَتْ مِهَادِى ، وَغِبْتُ عَنْ أُمٍّ أَنَا وَاحِدُهَا ، تَمْتَدُّ أَنْفَاسُهَا شَوْقًا إِلَىَّ ، وَتَغُضُّ أَجْفَانَهَا حُزْنًا عَلَىَّ ، وَاللهُ يَرَى بُكَاءَهَا ، وَيَسْمَعُ لِى - عَلَى مَنْ ظَلَمَنِى - نِدَاءَهَا ، فَالِاسْتِجَابَةُ مَضْمُونَةٌ لِلْمُخْلِصِ وَالْمَظْلُومِ ، وَقَدْ حَمَلْتُ السِّمَتَيْنِ ، وَاسْتَوْجَبْتُ الصِّفَتَيْنِ ، وَلْتَكُنْ بُغْيَتُكَ الَّتِى تَدَّخِرُهَا عَلَيْهَا كَلِمَةَ تَأْمِينٍ ، وَإِشَارَةً إِلَى تَأْنِيسٍ وَتَسْكِينٍ ، تُرَاجِعُنِى بِهَا فَأَظْهَرُ بِحَيْثُ أَنَا آمِنًا ، وَأُلْقِى الْعَصَا مُطْمَئِنًّا ، فَإِنْ وَجَدْتَ مَحَزَّ الشَّفْرَةِ ، فَالْعَوَانُ لاَ تُعَلَّمُ الْخِمْرَةَ[1] ، فَإِنْ أَشْبَهَتِ اللَّيْلَةُ الْبَارِحَةَ ، أَعْلَمْتَنِى بِذَلِكَ ، فَطَلَبْتُ الْأَمْنَ فِى مَظَانِّهِ ، وَتَقَرَّيْتُ السَّلاَمَةَ فِى مَوَاطِنِهَا ، وَصَبَرْتُ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ ، وَلِكُلِّ حَالٍ مُعَقِّبٌ ، وَلَرُبَّمَا أَجْلَى لَكَ الْمَكْرُوهُ عَمَّا تَحْمَدُ ، وَلَكَ يَا سَيِّدِى فِى انْتِدَابِكَ لِمَا نَدَبْتُكَ إِلَيْهِ الْفَضْلُ ، وَالْأَيَادِى قُرُوضٌ ، وَالصَّنَائِعُ وَدَائِعُ :

« لاَ يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ . »

وَالتَّحِيَّةُ الطَّيِّبَةُ وَالسَّلاَمُ الْمُرَدَّدُ عَلَى سَيِّدِى .

---

(١) الخمرة : اسم للهيئة من الاختمار أى وضع الخمار على الرأس ، وهو مثل يضرب لمن حذق الأشياء وجرب الأمور .

شعر الملكين

(١)

شعر المعتضد

« قال المعتضد بالله المنصور بفضل الله أبو عمرو

عباد بن محمد بن عباد رحمه الله . »

« لقد بسط الله المكارم من كفى
فلست — على العلات منها — أخا كف
تنادى بيوت المال — من فرط بذلها —
يمينى : « قد أسرفت ظالمق كفى »
أتغرى يمينى بالسماح فتنهى
ولا ترتضى خلا يقول لها : يكفى
لعمرك ، ما الاسراف فىّ طبيعة ،
ولكن طبع البخل عندى كالحتف . »

(وقال)

«من للشجاعة والكرم | إلا الطلوم المطلم
من لست تعدم عنده | غير التدلل والعدم
أحيا المكارم والعلا | وأقام مناّد الهمم
بلقى العداة ، وسيفه | قد قط هامات البهم . »

(وقال)

« لعمرك إنى — بالمدامة — قوال ،
وإنى — لما يهوى الندامى — لفعال
وإنى — للحل الحليل — لناعش ،
وإنى — للقتل المناوى — لقتال
قسمت زمانى — بين كدّ وراحة —
فللرأى أسحار ، وللطيب آصال
فأمسى — على اللذات واللهو — عاكفا
وأضحى — بساحات الرياسة — أختال
ولست — على الإدمان — أغفل بغيق
من المجد ، إنى — فى المعالى — لمحتال

إذا نام أقوام عن المجد — صلة —
أسهد عينى أن تنام بى الحال
وإن راق أقواماً — من الناس — منطق
يروق ، بدا منى مقال وأفعال . »

(وقال)

« أقوم — على الأيام — خير مقام،
وأوقد — فى الأعداء — شر ضرام
وأنفق — فى كسب المحامد — مهجتى،
ولو كان — فى الذكر الجميل — حمامى
وأبلغ — من دنياى — نفسى سؤلها،
وأضرب — فى كل العلا — بسهام
إذا مصح الأملاك نقص ، فإنه
يبينه — عند الأنام — تمامى . »

(وقال)

« من كان يسلو عن نوال | فأنا الذى لست بسال
البخل عين نقيصة ، | والجود عين للكمال
أبصرت رشدى فى الندى، | فالبخل — عندى — كالضلال
هذا زعاف طعمه، | والجود حلو كالزلال . »

(وقال)

«لو كان قلبى — عن الاشغال — منتزحاً،
نادى لفقد حبيب النفس : واحربا
لكنما شغله بالمجد — مجتهداً —
يلهيه عن حبه إن بان أو قربا . »

(وقال)

« هذى السعادة قد قامت على قدم
وقد خلفت لها فى مجلس الكرم
فان أردت — إلهى — بالورى حسناً
فلكنى زمام الدهر والأمم
فاننى لا عدلت الدهر عن حسن ،
ولا عدلت بهم عن أكرم الشيم
أقارع — الدهر — عنهم كل ذى طلب
وأطرد — الدهر — عنهم كل ذى عدم . »

(وقال)

« عن القصد قد جاروا ، وما جرت عن قصد
إذا حميت طرق العرائس عن أسد
إذا اعترضوا للبخل أعرضت عنهم ،
وإن من أقوام كتمت الذى أسدى
لله ما أخلى من العدل والندى ،
ولله ما أبدى من الفصل والمجد
ولا ألتقى ضيفى بغير بشاشة
إذن فجحدت الله معروفه عندى . »

(وقال)

« ألام ، ومالوى — على الحب — واجب ،
وقد صادنى طرف كحيل وحاجب
أنحب عنى — والفؤاد يحبها —
لقد عز محجوب تماه حاجب
أروم فؤادى — فى الغرام — ليبتنى
وكيف وما دون الأبية حاجب . »

(وقال)

« زهر الأسنة — فى الهيجا — غدت زهرى
غرست أشجارها مستحزل الثمر
ما إن ذكرت لها من معرك جلل
إلا تحللته بالصارم الذكر
حتى غدوت وأعدائى تخاطبنى
يا قاتل الناس بالأجناد والفكر . »

(وقال)

« وإذا توعرت المسالك لم أرد
فيها السرى إلا برأى مقمر
وإذا طلبت عزيمة فمفاتحى
فيها العزيمة والسنان السمهرى . »

(وقال)

« كلام — كمثل الدر — تنثره نثراً
ووصل — كطل الروض — تعطيكه نزراً
ولو لم تشب وصلى بهجر لخلتنى
أشاهد منها الشمس أو النثم البدرا . »

(وقال)

« أتاك الليل مفتكراً يناقصه سنا البدر
ذر الساعات تدسطه ستقبضه يد الفجر . »

(وقال فى القاضى أبى القاسم أبيه) .

« ألا يا مليكا يرتجى ويهاب
وبحراً له — فى المكرمات — عباب
ومولى عدتنى — مذ نشأت — مكارم ،
يصوب بها — من راحتيه — سحاب
أطعتك — فى سرى وجهرى — جاهداً ،
فلم يك لى — إلا الملام — ثواب
وأعملت جهدى فى رضاك مشمرا
ومن دون أن أقصى إليه حجاب
ولما كبا حدى إليك ولم يسغ
لنفسى — على سوء المقام — شراب
وقل اصطبارى ، حين لاقى عندكم
— من العطف — إلاقسوة وتباب
فررت بنفسى أبتغى فرجة لها
على أن حلو العيش بعدك صاب
وما هزنى إلا رسولك أن جرت
إلى به صم الهضاب وكاب
فقال مقالا لم أحد عن مقاله
مآباً ، وعن بعض الأمور مناب
دعاك أمير المؤمنين مثوباً
فقلت : « أمير المؤمنين مجاب »
فجئت أغذ السير ، حتى كأنما
يطير بسيرى — فى الفلاة — عقاب
وما كنت — بعد الدين — الأمو طناً
بعزمى على ألا يكون إياب

ولكنك الدنيا إلى حبيبة
فما عنك لى – إلا إليك – ذهاب
وعضك فى ترك الملام ، فانه
– وحقك – فى قلبي ظماً وحراب
إذا كانت النعمى تكدر بالأذى
فما هى إلا محنة وعذاب
ولا تقضن بالمنع كى فانه
– وحدك – نقص للعلا وخراب
فوالله ما أبغى بدلك غير أن
تحلى بحدوى راحتيك رقاب
ويهدى إليك الناس دون تصنع
ثمة صدق لم يشبه كذاب
فكل نوال لى ، إليك انتسابه ،
وأنت عليه – بالثناء – مثاب
بقيت مكين الأمر ، مادر شارق ،
وما لاح فى أفق السماء شهاب . »

(وقال)

« يا قاتل العبد ولا واق
لا ترث بالله بانعاق
عيناك قد قادت إلى الردى
فالقلب محتاج إلى راق
لولاك – والرحمن – ما كنت من
يحسب فى جملة عشاق
قد لدغت صدغاك قلبى فهل
تنعم للدغ بدرياق . »

(وقال)

« رعي الله من يصلى فؤادى بحبه
سعيراً ، وعيني منه فى جنة الخلد
غزالية العينين شمسية السنا
كثيبية الردفين غصنية القد
شكوت إليها حبها بمدامعى
وأعلمتها ما قد لقيت من الوجد
فصادف قلبى قلبها – وهو سالم –
فأعدى ، وذو الشوق المبرح قد يعدى

فجادت – وما كادت – على بجدها
وقد ينبع الماء النمير من الصلد
فقلت لها : « هاتى ثناياك إننى
أفضل نوار الأقاحى على الورد
وميلى على حسمى بحسمك » فانثنت
تعيد الذى أملت منها كما تبدى
عناقاً ولثما أرويا الشوق بيننا
– مرادى ومثى – كالشرار من الزند
فياساعة – ما كان أقصر وقتها
لدى – تقضت غير مذمومة العهد . »

(وقال)

« ينادون قلبي ، والغرام يجيب ،
وللقلب – فى حين النداء – وجيب
مشوق دعاه الشوق والوجد والهوى
يجيب نداء الحب وهو يجيب
يقاسى فؤادى الوجد والحب واصل –
فكيف تراه إن جفاه حبيب ؟
إذا أخطأ الأحباب ترتيب حالهم
فان فؤادى – دائماً – ليصيب
عليم بأسرار الغرام ، لأنه
بصير – بأدواء الحسان – طبيب
يواصلى سراً ، ويصرم ظاهراً ،
وذلك – من أفعالهن – عجيب . »

(وقال)

« بيض الهند والأسل الحداد
أرجى أن يتم لى مرادى
فأبلغ بغيتى ، وأريح نفسى ،
وتحمد حالتى فى كل نادى
ففنى الدهر فى قتل الأعادى ،
وحسم رقابهم فى كل وادى
فذاك الفرض – والرحمن – عندى
كمثل الفرض فى حال الجهاد . »

(وقال)

« وليل ظللنا فيه نعمل كأسنا
إلى أن بدت للصبح – فى الليل – أعمال

وولت نجوم الليل تجرى هزيمة
وجاء — مع الاصباح — نصرو إقبال
فقضيت — من هذا وذاك — لبانة
وتمّ لنا فتح مبين وآمال . »

(وقال)

« وليل أدمنا فيه شرب مدامة
إلى أن بدا للصبح فى الليل تأثير(١)
وجاءت نجوم الصبح تضرب فى الدجى
فولت نجوم الليل والليل مقهور
فحزنا — من اللذات — أطيب طيبها
ولم يعدنا همّ ولا عاق تكدير
خلا أنه — لو طال — دامت مسرة
ولكن ليالى الوصل فيهن تقصير . »

(وقال)

« أتعلم أن قلبى غير صاح ؟
وأنى — من سلوّك — فى انتزاح
وكنت — الدهر — أصطاد المعالى
فقد أصبحت من صيد الملاح
تسقينى البخيلة كأس صد
وتمزجها — لتعليلى — براح
ولو شاءت حياتى — الدهر — سقت
حرور القلب من شبم قراح
وكانت تصنع الحسنى جميلا
ولكن ليس تلقى غير لاح
فسقينى — فديتك — من عقار
ونادينى : هلمّ إلى اصطباح . »

(وقال)

« يطول علىّ الدهر إن لم ألاقها ،
ويقصر — إن لاقيتها — أطول الدهر
لها غرّة كالبدر — عند تمامه —
وصدغا عبير نمقا صفحة البدر
وقد كمثل الغصن — مالت به الصبا —
ولفظ كما انحلّ النظام من الدرّ

(وقال)

« ذكراك فى فيّ قد شيبت بتسبيحى
أفديك يا فتنة الجثمان والروح
الله يعلم أنى لست أمحركم
دهرى ولا تنقضى فيكم تباريحى
إن كنت أشرح معى حكم شغفاً
فإنّ سرّك عندى غير مشروح . »

(وقال)

« ياجاهل الحبّ إنّ الحبّ ذو سند
مهما أحزعنه يوماً سوف أعتمد
أيجهل الحب من أضحى به حرق
تكاد من حرّها الأحشاء تتقد
الله يعلم أنى شيق أبدا
لا ينقضى الشوق حتى ينقضى الأبد
إن يشرب الجسم برد الوصل منتعشاً
يهدى إليه فؤادى حر ما يجد . »

(وقال)

« لله درّ الحبّ ماذا يصنع
يعنو له ملك الزمان ويخضع
للحب سلطان عظيم شأنه
مهما يقل قولا فقلبى يسمع
إن يغر بالهجران مالك مهجتى
أقبل إليه بحالتى أتضرّع
ماذا انتفعت بحالتى عند الهوى
حال الهوى أبداً أحل وأرفع . »

(وقال)

« لله ما حلد الأخماص فى خلدى
لمن غدا والندى كالروح والجسد
للأوحدى أبى الجيش الذى ظفرت
منه بأنفس علق فى الأنام يدى
موفق الرأى فى الرايات لدته
فى الجدّ والجود لا فى العيشة الرغد
إذا رأته العلا نادته مفصحة
ياقرّة العين بل يا فلذة الكبد . »

---

(١) هذه المقطوعة أدرجت سهواً ضمن شعر ابن زيدون

(وقال)

« أترى اللقاء كما نحبّ يوفق
فنظلّ نصبح بالسرور ونغبق

حتام تمطلني الليالي قرب من
قلبي له متشوّف متشوّق

ملك أغرّ أغار أن تحظى به
لسواي ألحاظ ولحظى مملق

أعنى أبا الجيش الموفق أنه
للمكرمات ميسر وموفق

ماهى به الزمن البهى كأنه
بشر على وجه الزمان ورونق

ملك إذا فهنا بطيب ثنائه
طلت به أفواهنا تتمطق

حسب الرياسة أن غدت مرادنة
نساه فهو التاج وهي المفرق . »

(وقال)

« عرفت عرف الصبا إذهب عاطره
من أفق من أنا في قلبي أشاطره

أراد تجديد ذكراه على شحط
وما تيقن أنى الدهر ذاكره

ينأى المزار به والدار دانية
يا حبذا الفال لو صحت زواجره

ذكرى أبا الجيش هل يقضى اللقاء لنا
فيشتفى منك حصن أنت ناظره

قصاره قيصر إن قام مفتخراً
لله أوله مجـــد وآخره . »

(وقال)

« كأنما ياسميننا الغضّ
كواكب في السماء تبيضّ

والطرف الحمر في جوانبه
تخدّ عذراء ناله العضّ . »

(وقال)

« تنام ومدنفها يسهر وتصبر عنه ولا يصبر
لئن دام هذا وهذا به سيهلك وجداً ولا يشعر . »

(وقال)

« أنام وما قلبي عن المجد نائم
وإنّ فؤادي بالمعالي لهائم

وإن قعدت بي علة عن طلابها
فإن اجتهادي في الطلاب لقائم

يعزّ على نفسي إذا رمت راحة
براح مثنيى الطباع الكرائم

وأسهر ليلى مفكراً غير طاعم
وغيرى على العلات شبعان نائم

ينادي اجتهادي إن أحس بفترة
ألا أين يا عباد تلك العزائم

فتهتزّ آمالي وتقوى عزائمي
وتذكرني لذاتهن الهزائم . »

(وقال)

« أنا في الحب مغرم مستميل
كل نيل أناله لي قليل

لي جثمان من يظنّ صحيحاً
وفؤادي من الغرام عليل

(١) أعطى محق
إنّ صبرى - على التجنى - جميل
لى ذهن — مثل الحسام — صقيل
هو من كثرة التجنى فليل . »

(وقال)

« إنى على ألفتى بالسهد والكمد
أدعوك يا ممضى الأجسام بالسهد

قطعت قلبي الذى أعطاك جوهره
إنى وهبتك محض النفس والكبد

يا درّة لم تلج في كف غائصها
إلا أهـــل إليها آخر الأبد

قلبي بكفك لا أرجو الفكاك له
مثل الفريسة حلت في يدى أسد . »

---

(١) هكذا وجد ناقصاً بالأصل.

(وقال)

« يا غرة تسخر بالبدر
ومقلة تنفث بالسحر
ومبسما نظم من جوهر
وماؤه من أعطر الخمر
ومنطقاً أوتيت من سحره
أحرّ فى قلبي من الجمر
وشادنا تيمنى شخصه
ووكل الأجفان بالسهر
تاجر بى الله تفز بالرضى
وتربح الجنة فى التجر . »

(وقال)

« يا درّة قلبي بها مفتون
يسلو،وإن سئل السلو صنين
الله يعلم أن قلبي مغرم
من كان داصبر فليس يكون
أو أن من يشرى رضاك بعوزه
بالخلد قلنا: إنه المغبون . »

(وقال)

« يا قمرا أصبح لى مالكا
لا تتركى هكذا هالكا
ولمذة الكبد التى ضمها
مبيتها الدهر بأوجالكا
رق على قلب العميد الذى
يود أن يجرى على بالكا
حسنت فى خلق وخلق فلم
رضيت بالقبح لأعمالكا .»

(وقال)

« يصبرنى أهل المودة دائما
. وإن فؤادى والاله صبور
أغار على معنى الرئاسة إننى
على كل حسن فى الزمان غيور
أصرف ذهنى فى أمور كثيرة
وأعلم أن الدائرات تدور . »

(وقال)

«غصن من التبر فوقه ورق
كأنه الصبح تحته شفق
يا أبدع الناس فى محاسنه
رق على من أذابه الأرق
مددت كفى رجاء رأفتكم
لا تتركونى ينالنى الغرق
بحر دموعي مغرق جسدى
تداركوا مهجتى وبى رمق.»

(وقال)

« رعى الله حاليا حديثاً وماضيا
وإن كنت قد جردت عزمى ماضيا
فما لليالى لا تزال ترومنى
ويرمين منى صائب السهم قاضيا
وقد علمت أن الخطوب تطيعنى
وما زلت من لبس الدنيات عاريا
أجدد فى الدنيا ثيابا جديدة
يجدد منها الجود ما كان باليا
فما مر لى بخل بخاطر مهجتى
ولا مر بخل الناس قط بباليا
ألا حبذا فى الحمد إتلاف طارفى
وبذلى عند الحمد نفسى وماليا . »

(وقال)

« يجور على قلبي هوى ويجير
ويأمرنى إن الحبيب أمير
أطوع لأمر الحب طوع مسلم
وإن كان من شأنى إباً ونفور
أغار عليه من لحاظى صيانة
وأكرمه إن المحب غيور
أخف إلى لقيا الحبيب وإننى
لعمرك فى كل الأمور وقور . »

(وقال)

« أطلت لخار المجد بالبيض والسمر
وقصرت أعمار العداة على قسر
ووسعت سبل الجود طبعاً وصنعة
لأشياء — فى العلياء — صاوبها صدرى
ملا مجد للانسان ما كان صده
يشاركه فى الدهر بالنهى والأمر . »

(وقال)

« كان عشى القطر فى شاطئ النهر
وقد رهرت فيـه الأزاهر كالزهر
ترشّ بماء الورد رشا وتنثى
لتغليف أفواه بطيبـة الخمر . »

(وقال حين دخل على المعتمد مالقه)

« أرية أت فائدة الزمان
فقد فقت الممالك فى معانى
وقد رمناك من بلد بعيد
فأدناك الاله بلا توان
بذلنا جهدنا عزما وحزما
ووطنا الكماة على الطعان
وأجهـدنا العزائم والمساعي
وأعملنا الحسام مع السنان
ليهنىء أهل مالقة انتصارى
وإعزازى لهم بعـد الهوان
سـيـيقذهم وينميهم جميعا
رضاع الخير إن درت لبانى
وأرقيهم ذرا درج المعالى
فكما أجنيهم عر الأمانى
وأصعاف الذى يبدى لسانى
. إليهم ما يجن لهم جنانى
لحق عليهم شكر امتماضى
وما خلق امتنان بامتنان
ولـكن الحقائق مخبرات
وكم خبر ينوب عن العيان
ألم أعتقهم من دل كفر
جرى فى ضيمهم ملء العنان
وتوراة محـرفة أعرّت
مطالت دلة السبع المثانى
إلى أن ثار بى عرم يمان
فأدرك سؤله العصب اليمانى
وأنصيت الصوارمَ خاطبات
فكان قصاؤها سحر البيان
فعاد البرّ معمور المغانى
وآب الفسق مهدوم المبانى
وقام إمام جامعهم يصـلى
وآنسـت المسامع بالأذان
وكان دوو الهدى مابين ثاو
قتيل أو فقيد العقل فانى
مذ اقترنت ببربرهم يهود
أباح حسامهم حسن القران
فنادِ جر ما أوليت فيهـم
- من الفتكات - بكر أو عوان
وحسبي فى سبيل الله موت
يكون ثوابه خلد الجنان . »

(٢)

شعر المعتمد

(قال رحمه الله حين خرج من مالقة مستعتباً لأبيه :)

« سكن فؤادك لا تذهب به الفكر
ماذا يعيد عليك البث والحذر
وازجر جفونك لا ترضى البكاء لها
واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر
وإن يكن قدر قد عاق عن وطر
فلا مردّ لما يأتي به القدر
وإن تكن خيبة في الدهر واحدة
فكم غدوت ومن أشياعك الظفر
إن كنت في حيرة من جرم مجترم
فإن عذرك — في ظلمائها — قمر
كم زفرة — في شغاف القلب — صاعدة
وعبرة من شئون العين تنحدر
فوض إلى الله مما أنت خائفه
وثق بمعتصد بالله يغتفر
ولا تروعك خطوب إن عدا زمن
فالله يدفع والمنصور ينتصر
واصبر، فإنك من قوم أولي جلد
— إذا أصابتهم مكروهة — صبروا
من مثل قومك — والملك الهمام أبو
عمرو أبوك — له مجد ومفتخر
سميدع يهب الآلاف مقتدراً
ويستقل عطاياه ويحتقر
له يد كل جبار يقبلها
لولا نداه لقلنا إنها « الحجر »
يا ضيغما يقتل الأبطال مفترسا
لا توهنني فإني الناب والظفر
وفارسا تحذر الأقران صولته
صن عبدك القن فهو الصارم الذكر
هو الذي لم تشم يمناك صفحته
إلا تأتى مراد وانقضى وطر
قد أخلقتني صروف — أنت تعلمها —
وقال موردها: « مالي بها صدر »
فالنفس جازعة، والعين دامعة،
والصوت مرتفع، والسر منتشر
وزاد همي ما بالجسم من سقم
وشبت رأساً، ولم يبلغني الكبر
وذبت إلا دماء فيّ يمسكها
أني عهدتك تعفو حين تقتدر
لم يأت عبدك ذنباً يستحق به
عتباً، وها هو قد ناداك يعتذر
ما الذنب إلا على قوم ذوي دغل
وفى لهم عهدك المعهود إذ غدروا
قوم نصيحتهم غشّ، وصدقهم
مين، ونفعهم — إن صرفوا — ضرر
يميز البغض في الألفاظ إن نطقوا
ويعرف الحقد في الألحاظ إن نظروا
إن يحرق القلب نفث من مقالهم
فإنما ذاك من نار القلى شرر
مولاي دعوة مملوك به ظمأ
برح وفي راحتيك السلسل الخصر
أجب نداء أخي قلب تملكه
أسى وذي مقلة أودى بها السهر
لم أوت من زمني شيئاً أسر به
فلست أعهد ما كاس ولا وتر
ولا تملكني دل ولا خفر
ولا سبى خلدي غنج ولا حور

رصاله راحة نفسي لا لجمت به
فهو العتاد الذي للدهر أدخر
هو المدام التي أسلو بها فإذا
عدمتها عبثت في قلبي الفكر
ما تركي الخمر من زهد ولا ورع
فلم يفارق لعمري سني الصغر
وإنما أنا ساع في رصاك فإن
أحققت فيه فلا يفسح لي العمر
ما سرني وأحاشي عصر عطفكم
يوم أخل به في عيني القصر
أحل ولي راحة أخرى علقت بها
نظم الكلي في القنا والهام تنتثر
كم راحة لي في الأعداء واضحة
تفنى الليالي وما يفنى لها الخبر
سارت بها العيس في الآفاق فانتشرت
فليس في كل حي غيرها سمر
لا زلت ذا عزة قعساء شامخة
لا يبلغ الوهم أدناها ولا النصر
ولا يزل وزرمن حسن رأيك لي
آوى إليه فنعم الكهف والوزر
أليك روضة فكرى جاء منتها
ندى يميني لا طل ولا مطر
حملت ذكراك في أرجائها شجرا
فكل أوقاتها للمجتنى ثمر . »

(وله إليه)

«أيا ملكا يحل عن الضريب
ومن يلتذ غفران الذنوب
ومن في كفه بؤسي ونعمى
تصرف في العدو والحبيب
تسحطك الممض أعل نفسي
ومالي غير عفوك من طبيب
ولست بمنكر ذنبي ولكـ
ـني قد جئت في حال المريب
فان عاقبتني بجزاء مثلي
وإن تصفح فليس من الغريب .

بقيت مؤيدا ما لاح برق
وماغنى الحمام على قضيب . »

(وله إليه)

« ألا يا مليكا طل في الخطب مفزعا
ويا واحداً فاق الخلائق أجمعا
ترفق بعبد وده لك شيمة
إذا كان ذو ود سواه تصنعا
لئن كنت عن جهل حديثك عاثرا
فكم عاثر قالت علاك له : «لعا»
أقلني تقل عبدا شكورا وصارماً
يحز من الأعداء لينا وأخدعا
علتني من السخط الأليم سحابة
فأعر بهاريح الرضى كي تقشعا . »

(وله إليه)

«مولاي أشكو إليك داء أصبح قلبي به قريحا
إن لم توجه رصاك عني فلست أدرى له مريحا
سخطك قد زادني سقاما
فابعث إلى الرضى مسيحا . »

(وله إليه)

«ياليث حرب داق الأعادي
طعمين منه أريا وسما
هذا إذا ناشوه حربا
وذا إذا استوهبوه سلما
لا غرو أن حم منك جسم
فعادة الأسد أن تحما
وليهنني أن طلعت بدراً
لأعين الخلق مستتما
لا زلت تلق العداة بؤسى
منك وتلقى الولاة نعمى
ولتخز من قال من حسود
إن يكن المحق قد ألما . »

(وله)

« يا بدر تم تجلى فالأرض تشرق منه
العجز خلق ذميم فلا تحدث عنه . »

ابن عمار (١)

« وكتب ذو الوزارتين أبو بكر بن عمار
إلى المعتمد على الله حين تقبض النصراني
على الرشيد ابنه إذ حاول أسر مرسيه . »

« أصدق ظنى أم أصيخ إلى صحبي فأمضى عزمى أم أعوج مع الركب

---

(١) ابن عمار

الوزير أبو بكر « محمد بن عمار » ذو النفس العصامية — كما يقول المراكشي — كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبي القاسم « محمد بن هانئ الأندلسي » وربما كان أحلى منزعا منه — في كثير من شعره . ولشعره ديوان يدور بين أيدي أهل الأندلس ولم أر أحدا ممن أدركته سنى من أهل الآداب الذين أخذت عنهم إلا رأيته مقدما له مؤثرا لشعره ، وربما تعالى بعضهم فشبهه بأبي الطيب وهيهات . فمن قصائده المشهورة التي أجاد فيها ما أراد ، قصيدته التي كتب بها من سرقسطة حين فرق المعتضد بالله بينه وبين المعتمد لأنه شغله عن كثير من أمره فنفاه وهي : —

« على وإلا ما بكاء الغمائم وفى وإلا ما نواح الحمائم
وعنى أثار الرعد صرخة طالب لثأر ، وهز البرق صفحة صارم
وما لبست زهر النجوم حدادها لغيرى ، ولا قامت له فى مآتم . »

وفى هذه القصيدة يقول يمدح المعتضد بالله :

« أبى أن يراه الله إلا مقلدا حميلة (١) سيف أو حمالة غارم . »

ومن جيد نسيبه قوله فى قصيدة يمدح بها المعتضد بالله :

« حاء الهوى فاستشعروه عاره وبعينه فاستعذبوه أواره
لا تطلبوا فى الحب عزا ، إنما عبدانه فى حكمه أحراره
قالوا أضر بك الهوى فأجبتهم : يا حبذاه وحبذا اضراره
قلبى هو اختار السقام لجسمه زيا ، فخلوه وما يختاره
عيرتمونى بالنحول ، وإنما شرف المهند أن ترق شفاره
وشمتم لفراق من آلفته ولربما حجب الهلال سراره
أحسبتم السلوان هب نسيمه ؟ أو أن ذاك النوم عاد غراره ؟
إن كان أعيا القلب من حرب الهوى خذلته من دمعى إذن أنصاره . »

ولابن عمار هذا مع المعتمد أخبار عجيبة عنى بجمعها أهل الأندلس ، وأنا — إن شاء الله — مورد منها ما لا يخل بالشرط الذى التزمته ، ولا يخرج عن الحد الذى رسمته ، حسب ما بقى على خاطرى من ذلك ، لأنى كنت فى

---

(١) الحميلة والحمالة : علاقة السيف

وإني لتهفو بي إليك مودة يعثرها ما قد تعرض من ذنبي
إذا انقدت في رأي مشيت مع الهوى وإن أعقه نكصت على عقبي

حداثة سني قد صرفت عنايتي الى أخبار ابن عمار هذا مع المعتمد لما تضمنته من الآداب . وقد فتشت خزانة حفظي فلم ألف فيها إلا نبذة يسيرة وأنا موردها إن شاء الله عزّ وجلّ :

فابن عمار هذا هو محمد بن عمار يكنى أبا بكر أصله من «شلب» من قرية من أعمالها يقال لها : «شنبوس» مولده ومولد آبائه بها، كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه في الرياسة — في قديم الدهر ولا حديثه — حظ، ولا زكا منهم بها أحد . ورد مدينة شلب طفلا فنشأ بها وتعلم علم الأدب على جماعة منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم ، ثم رحل الى قرطبة وتأدب بها ومهر في صناعة الشعر فكان قصاراه التكسب به فلم يزل يجول الأندلس مسترفدا لايخص بمدحه الملوك دون غيرهم بل لايبالي ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أو سوقه ، وله في ذلك خبر ظريف ، وذلك أنه ورد في بعض سفراته شلب لا يملك إلا دابة لا يجد علفها فكتب بشعر الى رجل من وجوه أهل السوق وكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيرا ووجه بها إليه، فرآها ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز — ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به البخت وانتهى أمره أن ولاه المعتمد على الله مدينة شلب وأعمالها أول ما أفضى الأمر إليه فدخلها ابن عمار في موكب ضخم وجملة عبيد وحشم وأظهر نخوة لم يظهرها المعتمد على الله حين وليها أيام أبيه المعتضد بالله ، فكان أول شيء سأل عنه الرجل صاحبه صاحب الشعير ، فقال : ما صنع فلان أهو حي ؟ قالوا : نعم فأرسل إليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله : « قل له لو ملأتها برا لملأناها تبرا » ولم يزل ابن عمار على الحال التي ذكرناها من التقلب في بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف إلى أن ورد على المعتضد بالله أبي عمرو فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها :

« أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليل منا العنبرا

وفيها يقول بمدح المعتضد :

« عباد المخضر نائل كفه والجو قد لبس الرداء الأغبرا
قداح زند المجد ، لا ينفك من نار الوغى إلا الى نار القرى
يختار إذ يهب الخريدة كاعبا ، والطرف أجرد، والحسام مجوهرا»

وفي هذه القصيدة يقول في وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر :

« شقيت سيفك أمة لم تعتقد إلا اليهود ، وإن تسموا بربرا
أثمرت رمحك من رؤوس كماتهم لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وخضبت سيفك من دماء نحورهم لما عهدت الحسن يلبس أحمرا.»

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لمتقدم ولا متأخر بمثله وهو قوله :

«السيف أفصح من «زياد» خطبة في الحرب إن كانت يمينك منبرا. »

ولما أنشد المعتضد هذه القصيدة استحسنها، وأمر له بمال وثياب ومركب ، وأمر أن يكتب في ديوان الشعراء فكان كذلك، ثم تعلق بالمعتمد على الله — وهو إذ ذاك شاب — فلم تزل حاله معه تتزيد ومواتّ خدمته له تقوى

وما أغرب الأيام فيما قضت به   تريني بعدى عنك آنس من قربى
أهابك للحق الذى لك فى دمى   وأرجوك للحب الذى لك فى قلبى

وتأكد إلى أن صار ابن عمار ألصق بالمعتمد من شعرات قصه(١) ، وأدنى إليه من حبل وريده. كان المعتمد لايستغنى عنه ساعة من ليل ولا نهار ، ثم اتفق أن ولى المعتمد على الله شلب من قبل أبيه فاستوزر بن عمار هذا فى تلك الولاية وسلم إليه جميع أموره فملك عليه ابن عمار غلبة شديدة ، وساءت السمعة عنهما ، فاقتضى نظر المعتضد التفريق بينهما ونفى ابن عمار عن بلاده حسب ماتقدم الايماء إليه ، فلم يزل ابن عمار مغتربا فى أقاصى بلاد الأندلس إلى أن توفى المعتضد بالله، فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب حتى كان يشاركه فيما لايشارك الرجل فيه أخاه ولا أباه . وله معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب ، وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه على ماكانت العادة جارية به إلا أنه فى تلك الليلة زاد فى التحفى به والبر له على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه : « لتضعن رأسك معى على وساد واحد » فكان ذلك . قال ابن عمار : فهتف بى هاتف فى النوم يقول : « لاتغترّ أيها المسكين إنه سيقتلك ولو بعد حين » قال : « فانتبهت من نومى فزعا وتعوذت ثم عدت » فهتف بى الهاتف على حالته الأولى فانتبهت ، ثم عدت فسمعته ثالثة فانتبهت متجردت من أثوابى ، والتففت فى بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مستخفيا به ، وقد أزمعت على أنى اذا أصبحت مستخفيا حتى آتى البحر فأركبه وأقصد بلاد العدوة فأكون فى بعض جبال البربر حتى أموت ، فانتبه المعتمد فافتقدنى فلم يجدنى فأمر بطلبى فطلبت له فى نواحى القصر وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه ، وكان هو الذى وقع على فكانت منى حركة فأحس بى وقال : « ما هذا يتحرك فى هذا الحصير ؟ » ثم أمر به فنفض ، فخرجت عريانا ليس على الا السراويل . فلما رآنى فاضت عيناه دموعا وقال: « يا أبا بكر ما الذى حملك على هذا ؟ » فلم أر بدا من أن صدقته ، فقصصت عليه قصتى من أولها إلى آخرها ، فضحك وقال : « يا أبا بكر ، أضغاث أحلام هذه آثار الخمار » ثم قال لى « وكيف أقتلك ، أرأيت أحداً يقتل نفسه ؟ماأنت إلا كنفسى» فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء ، وتناسى الأمر فنسيه ، ومرت على ذلك الأيام والليالى إلى أن كان من أمره ما سيأتى الايماء إليه ، فصدقت رؤيا بن عمار وقتل المعتمد نفسه كما قال .

ولما أفضى الأمر إلى المعتمد سأله ابن عمار ولاية شلب وهى كانت بلده ومنشأه كما تقدم ، فأجابه المعتمد إلى ذلك وولاه إياها أنبه ولاية جعل إليه جميع أمورها خارجها وداخلها ، فاستمرّت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد إليه وضعف عن احتمال الصبر عنه ، فاستدعاه وعزله عنها واستوزره ، فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد ولم يزل المعتمد يعده لكل أمر جليل ويؤهله لكل رتبة عالية ، وكان ابن عمار مع هذا لاينماط به أمر إلااضطلع به ، وكان فيه كالسكة المحماة ، واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الاذفنش إذا ذكر عنده ابن عمار . قال هو رجل الجزيرة ، وكان ابن عمار هو الذى رده عن قصد اشبيلية وقرطبة وأعمالها ، وذلك أنه خرج فى جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعاً فيها ، فخافه الناس ، وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعباً منه ، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه. فتولى ابن عمار ردّه بألطف حيلة وأيسر تدبير ، وذلك أنه قام سفرة شطرنج فى غاية الإتقان والابداع لم يكن عند ملك مثلها ، جعل صورها من الأبنوس والعود الرطب والصندل ، وحلاها بالذهب ، وجعل أرضها غاية فى الاتقان فخرج من عند المعتمد رسولا إلى للاذفنش فلقيه فى أوّل بلادهالمسلمين فأعظم الأدفنش قدره وبالغ

(١) القصُّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه أراد به رأس الصدر وهى العظام التى تتلاقى فى وسط الصَّدر حيث ينبت الشعر.

ولى حسـنات لوأمت ببعضها إلى الدهر لم يرتع لنائبة سربى

فى إكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسارعة فى حوائجه فأظهر ابن عمار تلك السـفرة فرآها بعض خواص الأذفنش فنقل خبرها إليه وكان العلج (الأذفنش) مولعا بالشطرنج فلما لقى ابن عمار سأله « كيف أنت فى الشطرنج ؟ » وكان ابن عمار فيه طبقة عالية فأخبره بمكانه منه ، فقال له بلغنى أن عنـدك سفرة فى غاية الاتقان ، قال ابن عمار نعم ، فقال كيف السبيل إلى رؤيتها ؟ فقال ابن عمار لترجمانه قل له أما اتيك بها على أن ألعب معك عليها ، فان غلبتنى فهى لك ، وإن غلبتك فلى حكمى ، فقال له الأذفنش هاتها لننظر إليها ، فأمر ابن عمار من جاء بها ، فلما وضعت بين يدى العلج صلب وقال ماظننت أن اتقان الشطرنج يبلغ الى هذا الحد ، ثم قال لابن عمار كيف قلت فأعاد عليه الكلام الأول ، فقال له الأذفنش لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدرى ماهو ، ولعله شىء لا يمكنى ، فقال ابن عمار لا ألعب الا على هـذا الوجه وأمر بالسفرة فطويت وكشف ابن عمار سرّ ما أراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة الأذفنش وجعل لهم أموالا عظيمة على أن يوازروه على أمره ففعلوه فتعلقت نفس العلج بالسـفرة وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار فهونوا عليه ، فقالوا له : « إن غلبته كان عندك سفرة ليس عند ملك مثلها وإن غلبك فما عساه أن يحتكم وقبحوا عنـده إظهار الملك العجز عن شىء يطلب منه ، وقالوا إن طلب ابن عمار مالم يمكن فنحن لك برده عن ذلك ، ولم يزالوا به حتى أجاب ، وأرسـل إلى ابن عمار ، فجاء ومعه السـفرة ، فقال له : « قد قبلت ما رسـمته . » فقال له ابن عمار : « فاجعل بينى وبينك شهوداً سماهم له ، فأمر الأذفنش بهم فحضروا وافتتحا يلعبان ، وكان ابن عمار كما ذكرنا طبقة فى الأندلس لايقوم له أحـد فيها ، فغلب الأذفنش غلبـة ظاهرة لجميع الحاضرين لم يكن للعلج فيها مطمع . فلما حققت الغلبـة . قال له ابن عمار : « هل صح أن لى حكمى ؟ » قال « نعم » قال : « أن ترجع من هاهنا إلى بلادك » فاسـودّ وجه العلج وقام وقعد وقال لخواصه « قد كنت أخاف من هذا حتى هوّنتموه علىّ فى أمثال لهذا القول» وهم بالنكث والتمادى لوجهه . فقبحوا ذلك عليه وقالوا له : «كيف يحمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى فى وقتك» فلم يزالوا به حتى سكن وقال : « لا أرجع حتى آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة ، فقال ابن عمار « هذا كله لك » وجاءه بما أراد فرجع ، وكفّ الله بأسـه ، ودفعه بحوله وحسن دفاعه عن المسلمين ، ورجع ابن عمار إلى إشبيلية ، وقد امتـلأت نفس المعتمد سروراً به ، ثم إن المعتمد حدث له أمل فى التغلب على مرسية وأعمالها ، وهى التى تعرف بتدمير ، وكانت بيد أبى عبد الرحمن محمد بن طاهر كان هو المتغلب عليها والمدبر لأمرها ، فجهز المعتمد جيوشا عظيمة ، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسية ببنى عبـد العزيز ببلنسـية ، فكان بها إلى أن مات رحمه الله ، ولما تغلب ابن عمار على مرسية دار ملك بنى طاهر كما ذكرنا حدثته نفسه ، وسوّل له سوء رأيه أن يستبدّ بأمره ، وأن يضبط تلك البلاد لنفسـه ، فلم يزل يصرف الحيلة فى ذلك إلى أن تمّ له بعضـه ، ودانت له مرسـيه وأعمالها ، وطمع فى ملك بلنسية إلى أن قام عليه رجل من أهل مرسية ، يقال له ابن رشيق كان أبوه من من عرفاء الجند بها ، وكان ابن عمار قد خرج لبعض أمره فدعا ابن رشيق هـذا إلى نفسـه ، وقامت معه العامة وبعض الجند ، فجاء يركض حتى المدينـة ، وقد غلقت أبوابها دونه فحاصروها بمن معه أياماً ، فامتنعت

عليه ولم يقدر على دخولها ، فبقى حائرا لايدرى ما يصنع ولا أين يتوجه ، وقد كان بلغ المعتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته ، فلم ير إلا الهروب ملجأ فهرب حتى لحق ببنى هود بسرقطة فأقام عندهم حتى تقل عليهم وخافوا غائلته ، وبغضه فى عيونهم مافعل مع صاحبه وولى نعمته، فأخرجوه عن بلادهم ولم تزل البلاد تتقاذفه وملوكها تشناه، إلى أن وقع فى حصن من حصون الأندلس فى عاية المنعة يدعى شقورة،كان المتغلب عليه رجلا يقال له ابن مبارك فأكرم وفادته، وأحسن نزله، ثم بداله بعد أيام فقبض عليه وقيده وحمله فى سجنه . فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال له لاعليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكونى عندك ، وتعرضنى عليهم فما منهم إلا من يرغب فىّ ، فمن كان أشدهم رغبة حمل لك مالا ووجهت بى إليه،ففعل ابن مبارك ذلك فما عرضه على أحد من ملوك الأندلس إلا رغب فيه ، وكتب فيمن كتب إلى المعتمد ، وفى ذلك يقول ابن عمار :

«أصبحت فى السوق ينادى على رأسى بأنواع من المال
والله ما جار على ماله من ضمى بالثمن العالى . »

وفى هذا السجن يقول ابن عمار وقد استدعي نورة يستنظف بها فتعذرت عليه فاستدعي موسى فأتى بها ، فقال فى ذلك :

« بوسى شقورة عندى أربت على كل بوسى
فقــدت هارون فيها فظلت أطلب موسى . »

وبعث المعتمد على الله من رجاله من تسلم ابن عمار من يد ابنى مبارك بعد أن بعث إليه بمال وخيل ، وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن يزيدوا فى الاحتياط عليه وتقييده ، فخرجوا به حتى وافوا قرطبة، ووافق ذلك كون المعتمد بها ، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه على بغل بين عدلى تبن وقيوده ظاهرة للناس ، وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصتهم وعامتهم حتى ينظروا إليه على تلك الحال ، وقد كان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم ، فالسـعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام وغيرهم،لايصل إلى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر إليه على بعـد لايستطيع الوصول إليـه ، فسبحان محيل الأحوال ، ومديل الدول ، فدخل ابن عمار قرطبـة كما ذكرنا بعد العزّة القعساء ، والملك الشامخ ، والرياسة الفارعة ، ذليلا ، جائعاً فقيراً ، لايملك إلا ثوبه الذى عليه ، فسبحان من سلبه ماوهبه ، ومعه ما كان به أمتعه ، وأخبر بعض الموكلين به ماتفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنتـه قال : « لما قربنا من قرطبـة بحيث يرانا الناس ، خرج فارس من البلد يركض يقصدنا ، فلما رآه ابن عمار وكان معتما أزال العمامة عن رأســه ، فجاء الفارس حتى وصل إلينا ، فنظر إلى ابن عمار ودخل معنا فى الصف فمشى ، فسألناه فيم جاء فقال « الذى جئت فيه صنعه هـذا الرجل قبل أن أصل إليه » فعلمنا أنه أرســل ليزيل عمامته ، فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التى ذكرت يرســف فى قيوده ، فجعل المعتمد يعــدد عليه أياديه ونعمه ، وابن عمار فى ذلك كله مطرق الرأس لا ينبس إلى أن انقضى كلام المعتمد ، فكان من جواب ابن عمار أن قال : «ما أنكر شيئا مما يذكره مولانا ـ أبقاه الله ـ ولو أنكرته لشهدت علىّ به الجمادات فضـلا عمن ينطق ، ولـكن عثرت فأقل ، وزللت فاصفح » فقال المعتمد : « هيهات إنها عثرة لاتقال » وأمر به فاحدر فى النهر إلى إشبيلية فدخل به إشبيلية على الحال التى دخل عليها قرطبـة وجعل ، فى غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك وهو باق إلى وقتنا

ولا بد ما بيني وبينك من نثا يطبقها مابين شرق الى غرب

هذا مطال سجنه هناك . كتبت عنه فى هذا السجن قصائد لو توسل بها الى الدهر لنزع عن جوره ، أو الى الفلك لكف عن دوره ، فكانت رقى لم تنجح ، ودعوات لم تسمع ، وتمائم لم تنفع ، فمنها قوله :

«سجاياك - إن عافيت - أندى وأسجح وعذرك - إن عاقبت - أجلى وأوضح
وإن كان - بين الخطتين - مزية فأنت - إلى الأدنى من الله - تجنح
حنانيك فى أخذى برأيك، لا تطع عداى ولو أثنوا عليك وأفصحوا
فإن رجائى أن عندك غير ما يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة يكران فى ليل الخطايا فيصبح
وهبنى قد أعقبت أعمال مفسد أما تفسد الأعمال ثمت تصلح
أقلنى بما بينى وبينك من رضى له - نحو روح الله - باب مفتح
وعف على آثار جرم سلكتها بهبة رحمى منك تمحو وتصفح
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم فكل إناء بالذى فيه يرشح
سيأتيك فى أمرى حديث وقد أتى برور بنى عبد العزيز موشح
وما ذاك إلا ما علمت فإننى إذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح
كأنى بهم - لا در لله درهم - أشاروا تجاهى بالشمات وصرحوا
وقالوا: «سيجزيه فلان بفعله» فقلت: «وقد يعفو فلان ويصفح»
ألا إن بطشاً للمؤيد يرتمى ولكن حلما للمؤيد يرجح
وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا سوى أن ذنبى واضح متصحح
نعم لى ذنب غير أن لحلمه صفاة يزل الذنب عنها فيسفح
عليه سلام كيف دار به الهوى إلى فيدنوا أو على فينزح
ويهنيه إن مت السلو فإننى أموت ولى شوق إليه مبرح
وبين ضلوعى من هواه تميمة ستنفع لو أن الحمام يجلح .»

ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه كان بحضرته رجل من البغداديين ، فجعل يزرى على البيت وبين ضلوعى ويقول ماأراد بهذا المعنى ، فكان من جواب المعتمد رحمه الله أن قال : أما انه سلبه الله المروءة والوفاء ، لما أعدمه الفطنة والذكاء انما نظر الى بيت الهذلى من طرف خفى وهو -

« وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع . »

ولم يزل ابن عمار هذا بسجن المعتمد إلى أن قتله صبرا فى شهور سنة ٤٧٩ وتلخيص خبر قتله أنه لما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التى تقدم إنشادها، فأدركت المعتمد بعض الرقة ، فوجه إليه ليلا وهو فى بعض مجالس أنسه فأتى به يرسف فى قيوده ، فجعل المعتمد يعدد منته عليه ، وأياديه قبله ، فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر غير أنه أخذ فى البكاء ، وجعل يترفق للمعتمد ، ويمسح عطفيه ، ويستجلب من الألفاظ كل مايقدر أنه يزرع له الرأفة فى قلب المعتمد فتم له بعض ما أراد من ذلك ، وعطفت المعتمد سابقته وقديم حرمته ، بحبسه ، فكتب ابن عمار من فوره بما دار له المعتمد إلى ابنه الراضى بالله ، فوافاه الكتاب - وبحضرته قوم كانت بينهم وبين ابن عمار أحن قديمة - فلما قرأ الراضى الكتاب قال لهم : «ما أرى ابن عمار الاسيتخلص» فقالوا له « ومن أين علم مولانا ذلك » فقال : « هذا كتاب ابن عمار يخبرنى فيه أن مولانا المعتمد قد

ولاشك أن العفو منك سجية ... فلم يبق إلا أن تخفف من عتبي . »

(فجاوبه المعتمد على الله)

« تقدم إلى ما اعتدت عندى من الرحب ... ورد تلقك العتبى حجابا من العتب
متى تلقنى تلق الذى قد بلوته ... صفوحا عن الجانى رءوفا على الصحب
سأوليك منى ما عهدت من الرضى ... وأعرض عما كان إن كان من ذنب
فما أشعر الرحمن قلبي قسوة ... ولا صار نسيان الأذمة من شعبي
تكافئه أنى به لك سلوة ... فليس يعانى الشعر منفترك اللب . »

(وللمعتمد على الله إلى ذى الوزارتين أبى بكر)

« قد زارنا النرجس الذكيّ ... وقد عطشنا وثم ريّ
ونحن فى مجلس ندىّ ... وإن من يومنا العشىّ
ولى حبيب غداً سمي ... يا ليته ساعد السمىّ . »

(وللمعتمد إلى الوزير أبى عمر بن عطمش)

« فديت أبا عمر من فتى ... متى يختبر غيبه يحمد
وداد صحيح ، وخلق مليح ... ونطق فصيح ، لدى المشهد
أتتنى البديهة تهدى بديعا ... وأبدع ما فى الرياض الندى
أزاهر : لم تنتشق بالأنو ... ف لطفا ، ولا جنيت باليد
خجلت لشكواك فى طيها ... فما كدت أسمع للمنشد
وقد عبرت لك تلك الرؤى ... ليشبع طاو ويروى صدى
فهون عليك من النائبات ... إذا كان نصرى بالمرصد
وكن مخبرى أنى سائل ... سؤال مدلّ على مسعد
فجاءتك صفراء عند المنا ... م تسرى من الأفق الأبعد
فحيتك بالمس النرجسى ... ولاقتك بالملبس السجدى
وعلتك بالريق لو أنه ... أبيح لذى الزهد لم يزهد . »

وعده بالخلاص « فأظهر القوم الفرح وهم يظنون غيره ، فلما قاموا من مجلس الراضى نشروا حديث ابن عمار أقبح نشر ، وزادوا فيه زيادات قبيحة صنت هذا الكتاب عن ذكرها فبلغ المعتمد ذلك فأرسل إلى ابن عمار ، وقال له : « هل أخبرت أحداً بما كان بينى وبينك البارحة » فأنكر ابن عمار كل الأنكار ، فقال المعتمد للرسول « قل له الورقتان اللتان استدعيتهما كتبت فى إحداهما القصيدة ، فما فعلت بالأخرى ؟ » فادعى أنه بيض فيها القصيدة فقال المعتمد « فلم المسودة » فلم يحر جوابا ، فخرج المعتمد حنقا وبيده الطبرزين حتى صعد الغرفة التى فيها ابن عمار ، فلما رآه علم أنه قاتله ، فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تثقله حتى انكب على قدمى المعتمد يقبلهما والمعتمد لا يثنيه شىء فعلاه بالطبرزين الذى فى يده ولم يزل يضربه به حتى برد ، ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك ، فهذا ما انتهى إلينا من خبر ابن عمار ملخصا حسب ما بقى على خاطرى » « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب »

(وله رحمه الله)

« كتابى وعندى من فراقك ماعندى وفى خلدى ما فيـه من لوعة الوجد
وما خطت الأقلام إلا وأدمعى تخط كتاب الشـوق فى صفحة الخد
ولولا طلاب المجد زرتك طيـه عميدا كما زار الندى ورق الورد
فقبلت ما تحت اللثام من اللما وعانقت ما فوق الوشاح إلى العقد
أغائبـة عنى وحاضرة معى لئن غبت عن عينى فإنك فى كبدى
أقيمى على العهد الذى كان بيننا فإنى على ماتعلمين من العهد . »

(وللوزير الكاتب أبى الوليد بن المعلم)

« أيدك الله إنه يوم تحجب فيه الصلاة والصوم
وتحفر الراح غير وانية لاعار فى حفرها ولا لوم
فانشط إليه فانه أمل يبلغه فى نديك القوم
لازلت مستيقظ السعود لنا وعنك فى أعين الردى نوم . »

(فأجابه أيده الله)

« حمت بخفاقة الجناح وقد أمكن ورد فلا يطل حوم
وسمت فى الطيب والسرور فتى لم يزر يوما بطيبه سوم
وهاهو المجلس المعد لكم فادخل إليه وليدخل القوم
الى كؤس لو شاء شاربها يعوم فيها لأمكن العوم . »

(فجاوبه رحمه الله)

« لبيك لبيك من مناد له الندى الرحب والندىّ
ها أنا بالباب عبد قن قبلتـه وجهك السـنىّ
شرفـه والداه باسم شرفتـه أنت والنبي . »

(وقال)

« سلى تعلمى إن كنت غير عليمة بأن ليس فى حبى لغيرك مطمع
وأن لى القلب الذى ليس خاليا من الوجد والجفن الذى ليس يهجع
بذكرنيك الغصن يهتز عند ما يهب نسـيم ، والغزالة تطلع
فوالله لا أنفك أذكر موضعى لديك ولا أنفك نحوك أنزع . »

(وقال)

« ألكم إلى الصب الشجى معاد منعتك عنـه للأسى أصفاد
رحل اصطبارى إذ رحلتم قائلا أوب الأحبـة بيننا الميعاد
يا من تشكت دنوهم ووصالهم فبدا دعلىّ من الشحوب حداد
كم بت منكم بين غصنى بانة كالسيف تضغط متنه الأغماد . »

(وقال فى معشوقة اسمها « اعتماد » تؤخذ حروف اسمها من أوائل هذه الأبيات .

«أغائبة الشخص عن ناظرى وحاضرة فى صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون ودمع الشئون وقدر السهاد
تملكت منى صعب المرام وصادفت ودّى سهل القياد
مرادى لقياك فى كل حين ويا ليت أنى أعطى مرادى
أقيمى على العهد ما بيننا ولا تستحيلى لطول البعاد
دسست اسمك الحلو فى طى شعرى وألفت فيه حروف اعتماد .»

(وقال)

« قلبى موال لمعاديه وعاشق من لا يباليه
خلى الظلوم كلما زدته مودة زاد تجنيـــه
يا غفر الله له ذنبه فى ظلم صب هائم فيه
ياحسن الوجه بحق الهوى لاترض قبح الهجر والتيه .»

(وقال)

إنى رأيتك فى المنام ضجيعتى وكأن ساعدك الوثير وسادى
وكأنما عانقتنى وشكوت ما أشكوه من وجدى وطول سهادى
وكأننى قبلت ثغرك والطلى والوجنتين ونلت منك مرادى
وهواك لولا أن طيفك زائر فى الغب لى ما ذقت طعم رقاد .»

(وقال يستدعي الوزير المصرى الحكيم)

« أيها الصاحب الذى فارقت عيـ ـنى ونفسى منه السنا والسناء
نحن فى المجلس الذى يهب الرا حة والمســمع الغنى والغناء
نتعاطى التى تنسيك فى اللـ ذة والرقــة الهوى والهواء
فأته تلف راحــــة ومحيا قد أعــدا لك الحيا والحياء . »

(وله)

«لما نأت نأى الكرى عن ناظرى وصرفتــه لما انصرفت عليـــه
طلب البشـير بشارة يجرى بها فوهبت قلبى واعتذرت إليه . »

(وله)

« الجود أحلى على قلبى من الظفر ومن منال قصى السـؤل والوطر
ومن غناء أريوى فى الصبوح لنا يا طلعة الشـمس فى الآصال والبكر
وقد حننت إلى ما اعتدت من كرم حنين لأرض إلى مســتأخر المطر
وقد تناهت يدى عن كأسها غضبا ومجت الأذن أيضاً نغمة الوتر
حتى أملك هــذبى ما تجود به وأسمع الحمد بالأخرى على الأثر
فيها تها خلعا أرضى السماح بها محفوفة فى أكف الضرب بالبدر .»

(وله)

« من للملوك بشأو الأصيد البطل هيهات جاءتكم مهدية الدول
خطبت قرطبة الحسناء إذ منعت من جاء يخطبها بالبيض والأسل
وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها فأصبحت فى سرى الحلىّ والحلل
عرس الملوك لنا فى قصرها عرس كل الملوك به فى مأتم الوجل
فراقبوا عن قريب لا أبا لكم هجوم ليث بدرع الباس مشتمل . »

(وله إلى المعتصد بالله)

« مولاى ياذا الأيادى كواكفات الغوادى
أما عبيد معدّ لحسم داء الأعادى
واعتادت النفس منى تصيد الآساد
إنى عليها مقيم لرائح أو لغاد
أكر بالضرب فيها والطعن عند الجلاد
حتى أبحث حماها بمرهفات حداد
إن لم تكن أسد غيل تكن حمادر واد
بحق لخم وطىّ وكندة ومراد
ملكت من أرض حمص إلى قرى سنداد . »

(وله رحمه الله)

« تطن بنا أم الربيع سآمة ألا غفر الرحمن ذنباً تواقعه
أأسام طيبا فى ضلوعى كماسه وبدر تمام فى فؤادى مطالعه
وروضة حسن أجتنى من ثمارها وبارد ظلم لم تكدر شرائعه
إذا شئت كفى نوالا تفيضه على معتفيها أو عدواً تقارعه . »

(وله)

« أمطلع زهر نجوم الكلام ومشرقه من خلال الحلك
أتانا قريضك والهم حىّ لدينا وأمسى به قد هلك
فهاك موارد ود صفت يعلك فيها الذى أنهلك . »

(وله)

« درا بعثت مفصلا بجمان أو روضة مسكية الريحان
لا بل عروساً قد زففت تولدت ما بين فكرنا قد وبنان
سمعاً لأمرك إذ دعوت إلى التى تدع القلوب قليلة الأحزان
أما الكؤس فقد جرت مابيننا بيدى غزال ساحر الأجفان
حث يسقينى المدام بطرفه وبكفه ومتى أشا غنانى
فلا لعمرك لم أكن لأضيعه لاتحسبنا من بنى سهوان . »

(وله)

« إن كان تضريداً لغير تعمد فلأجعلن مكانه ورداً
من قهوة ضمنت أكؤسها ناراً تكون على الحشا برداً . »

(وله)

« اشرب الكأس في وداد ودادك وتأنس بذكرها في انفرادك
قمر غاب عن جفونك مرآ ه وسكناه في سواد فؤادك . »

(وله)

« حسدت كتابي على فوزه بإبصاره الغرّة الزاهره
فياليت شعري يكون الكتاب فتلحظه المقلة الساحره . »

(وله في اعتماد أيضاً)

« بكرت تلوم وفي الفؤاد بلابل سفهاً وهل يثني الحليم الجاهل
يا هـــذه كفي فإني عاشق من لا يرد هواي عنها عاذل
حب « اعتماد » في الجوانح ساكن لا القلب ضاق به ولا هو راحل
يا ظبيـــة سلبت فؤاد محمد أو لم يروّعك الهزبر الباسل
من شك أني هائم بك مغرم فعـــلي هواك له على دلائل
لون كسته صـــفرة ومدامع هطلت سحائبها وجسم ناحل . »

(وله في اعتماد أيضا)

« أدار النوى كم دار فيك تلددي وكم عقني عن دار أهيف أغيد
حلفت به لو قد تعرض دونه كماة الأعادي في النسيج المسرّد
لجردت للضرب المهنـــد فانقضى مرادي وعزماً مثل حد المهند
فما حل خل من فؤاد خليله محل « اعتماد » من فؤاد محمد
ولكنها الأقدار تردي بلا ظبا وتصمي بلا قتل وترمي بلا يد . »

(وله)

« مشـــمك أفوح في معطسي ووجهك أملح في ناظري
ظفرت بقربك بعـــد امتناع فمن ذاك سميت بالظافر . »

(وله)

« يأيها الشمس التي قلبي لها أحد البروج
لولاك لم أك مؤثراً فرش الحرير على السروج . »

(وله)

« أباح لطيفي طيفها في الكرى الخدا فعض به تفاحة واجتنى وردا
وأثمني ثغراً شـــعمت لشـــبيه تخيل لي أني شـــممت به ندا
ولو قدرت زارت على حال يقظة ولكن حجاب البين ما بيننا مدا

أما وجدت عنا الشئون معرجا ولا وجدت منا خطوب النوى بدا
سقى الله صوب القطر أم عبيدة كما قد سقت قلبي على حره بردا
هي الظبي جيداً ، والغزالة مقلة وروض الربا فوحاً، وغصن النقا قدا.»

(وله)

« من عاشق يشكو صباباته إلى محب هائم مثله
كلاهما صب إلى إلفه حران ظمآن إلى وصله
يا رب عجل جمع هذا بذا وقرب الشكل إلى شكله . »

(وله)

« قلبي لبعدك عنى عليل فشوق صحيح وجسمي عليل
وودي على حسب ما تعلمين تزول الجبال وما إن يزول
فلا تستحيلي لبعد الديار فإني مع البعد لا أستحيل . »

(وله)

« القلب قد لج فما يقصر والوجد قد جل فما يستر
والدمع جار قطره وابل والجسم بال ثوبه أصفر
هذا ومن أعشقه واصل كيف به
لكن عدتني نائبات النوى ودوحه
والكوكب الوقاد تحت الدجى في أفقه و
والنرجس الفواح غب الندى في روضه
قد خبرت عني أني امرؤ في شحوب
وأبدت الإشفاق من حالتي ومثل ما ت
واستفهمت أن كنت داعلة أو دا اشتياق
سيدتي ! لم تصغي عاشقا أضحى كما أ
إذ قلت : هل من ألم طائف ما بك أو شوق فما تصبر
ظلمت بالشك هواي الذي يعرفه الغيب والمحضر
والله ما سقمي إلا هوى كل هوى في جنبه يصغر
غير جسمي فاعلمي أنني أروم لقياك ولا أقدر
فاستغفري الله من الظلم لي فإن من يظلم يستغفر . »

(وقال)

« يا طيبة لطفت مني منازلها فالقلب منهن والأحداق والكبد (١)
حبي لك الناس طرا يشهدون به وأنت شاهدة إن ينفهم حسد
لم يعرب الوصل فيما بيننا أبداً لو كنت واحدة مثل الذي أجد.»

---

(١) نسبت هذه الأبيات خطأ لابن زيدون انظر « ص ٢٢٣ »

(وقال)

« هل راكب ذاهب عنهم يحييني إذ لا كتاب يوافيني فيحييني (١)
قد مت إلا ذماء فى يمسكه أن الفؤاد بلقياهم يرجيني
ما سرح الدمع من عيني وأطلقه إلا اعتياد أسى فى القلب مسحون
صبراً لعل الذى بالبعد أمرضني بالقرب يوما يداويني فيشفيني
كيف اصطبارى وفى كانون فارقنى قلبي وها نحن فى أعقاب تشرين
شخص يذكرنى فاه وغرته شمس النهار وأنفاس الرياحين
انى عطشت إلى ذاك الرضاب لكم قد بات منه يسقيني فيرويني
وإن أفاض دموعي نوح باكية فكم أراه يغنيني فيشجيني
وإن بعدت وأضنتنى الهموم لقد عهدته وهو يدنيني فيسليني
أوحل عقد عزائى بأيه ملكم حلات عن خصره عقد الثمانين
ياحسن إشراق ساعات الدنو بدت كواكبا فى ليالى بعده الجون
والله ما فارقوني باختيارهم وإنما الدهر بالمكروه يرميني
وما تبدلت حبا غير حبهم إذن تبدلت دين الكفر من ديني
أفدى الحبيب الذى لوكان مقتدراً لكان بالنفس والأهلين يفديني
يارب قرب — على خير — تلاقينا بالطالع السعد والطير الميامين . »

(وقال)

« ولما التقينا للوداع غدية وقد خفقت فى ساحة القصر رايات (٢)
وقربت الجرد العتاق وصفقت طبول ولاحت للفراق علامات
بكينا دما حتى كأن عيوننا لجرى الدموع الحمر فيها جراحات
وكنا نرجى الأوب بعد ثلاثة فكيف وقد كانت عليها زيادات»

(وقال)

« أهلا بكم صحبتكم — نحوى — الديم وحان أن يتسنى لى بكم حلم
حثو المطى ولو ليلا بعجلة فلن تضلوا ومن بشراكم علم
لانتم القوم إن خطوا بجد فلم وأن يقولوا يصب فصل الخطاب فلم
لا خرق — إن رقموا كتباً — ولا حصر إذ ينتدون ولا جور إذا حكموا
اقدم أبا الأصبغ المحبوب تلق فتى هش المودة لا يزرى به سأم
هذا فؤادى قد طار السرور به إذ كنت تنقلك الوخادة الرسم
سأكتم الليل ما أشكوه من بعد واسأل الصبح عنكم حين يبتسم.»

---

(١) وردت هذه القصيدة فى « ص ٦١ » وقد نسبت خطأ لابن زيدون .
(٢) وردت هذه القصيدة فى « ص ١٠٩ » وقد نسبت خطأ لابن زيدون .

(وقال)

«الشمس تخجل من جمالك فتغيب مسرعة لذلك
والغيث يحي أن يصوب لما يراه من نوالك
والبـدر يطلع ناقصاً حتى يتمم من كمالك .»

(وقال)

« وشادن أسأله قهوة فجاد بالقهوة والورد (١)
فبت أسقى الراح من ريقه وأجتنى الورد من الخد.»

(وله)

« يا هلالا إذا بدا لى تجلت عن فؤادى دجنة الكربات
وغزالا لمقلتيـه بقلبي فتكات كأنها فتكاتى
تهت إذ حزت بالوصال وبالهـجر حياتى تملكا ومماتى
مترفق بموقف أنت منـه فى سواد القلوب والحدقات
أنا أخشى عليك ياساكن القلـب المملى بالصد من نفرات »

(وله)

« أنا فى عذاب من فراقك سكران من خمر اشتياقك
صب الفـؤاد إلى اعتنا قك وارتشافك واعتناقك
لا تحسـبى أنى سـلو ت لما توالى من فراقك
هـدى جفونى أقسمت لا تلتقى ما لم تلاقـك
فصـلى جميل الظن بى وثقى بقلبي فى وثاقك . »

(وقال)

« وشمعة تنفى ظلام الدجى تفني للعـدم عن الناس
قد جعل الرحمن من لطفه حياتها فى القطع للراس
ساعدتها والكأس يسعى بها من ريقه أشهى من الكاس
ضياؤها لاشك من وجهه وحرها من حر أنفاسى »

(وله)

« يابديع الحسن والإحسـان يا بدر الدياجى
يا غزالا صاد مـنى بالطـلى ليث الهياج
قـد غنينا بسنا وجـهك عن ضوء السراج »

(وله)

« تم له الحسن بالعذار واقترن الليـل بالنهار
أخضر فى أبيض تبـدّى ذلك آسى وذا بهارى

---

(١) انظر « ص ٦٠ »

فقد حوى مجلسي تماماً   إن يك من ريقه عقارى . »

(وله)

« لله در أبي السنان   من فارس شهم الجنان
تخشاه آساد الرجا   ل كما تهيم به القيان
فببأسه يفنى العدا   وبحسنه يصبي الحسان . »

(وله)

« يقاتل باللحظ محبوبنا   وبالسيف والرمح أمضى قتال
فطورا يصيد ظباء النساء   وطورا يصيد أسود الرجال . »

(وله)

« إذا ما اقتحمت الوغى دارعا   وقنعت وجهك بالمغفر
حسبنا محياك شمس الضحى   عليها سحاب من العنبر . »

(وله)

« يا قمرا قلبي له مطلع   وشادنا في مهجتي يرتع
والله ما أطمع في العيش مذ   أصبحت في وصلك لا أطمع
ليت كما يرتع في مهجتي   أني في ريقته أكرع . »

(وله)

« وأغن يلعب بالهموم كما غدت   أرماح قومي بالعداة لواعبا
ذي نغمة يسبي العقول بها رشاً   من عند رضوان أتانا هاربا . »

(وله)

« مجس حكى صانعوه السما   لتقصر عنه طوال الرماح
وصاغوا مثال الثريا عليه   كواكب تقضي لنا بالنجاح
وتزدان أطواقه بالنجوم   كما لبس الأفق ثوب الصباح . »

(وله)

« أيا نفس لا تجزعي واصبري   فإن الهوى ما به منصف
حبيب جفاك وقلب عصا   ك ولاح لحاك ولا ملطف
شجون منعن الجفون الكرى   وعوضنها أدمعا تنزف . »

(وله)

« أبصرت طرفك عند منتحر القنا   فبدا لطرفي أنه ملك
أو ليس وجهك فوقه قمرا   يجلى بنير نوره الحلك . »

(وله)

« فتكت مقلتاه بالقلب مني   وبكت مقلتاي شوقاً إليه

لحكى لحظه لنا سيف عبا د ودمعى له سحاب بديه .»

(وله)

« يا قمرا أفقه فؤادى مقالة لم تشب بإفك
ومن غدا مسترق حر الكلام قد حازه بملك
نثرت در القريض نثرا يقوم دهى له بسلك
فقلت لله در ذهن يخرج دررا من بحر فلك
وجاءت الطير مودعات سرك يا سر كل ملك
بيتان دلا على وداد محضته لى بغير شك . »

(وله)

« بعثت بالمرسل انبساطاً منى على خلقك الجميل
نزراً حقيراً ففيه يأتى فضلك فى العذر والقبول
لو أنه مهجتى لكانت تصغر فى قدرك الجليل . »

(وله)

« ترفقاً يا أبا يحيي ومن ظفرت كفى به فدعانى فضله الظافر
إن حال ما بيننا ريحاننا الناضر فناظر القلب حقا نحوكم ناظر
أحمى مكانك من قلبى وأمنعه كما حمى الحاجب الإسلام بالناصر . »

(وله)

« أحلفتنى وعدك لى ومحلفاً أعهدكا
بعد بأن تهجرنى واحر على عادتكا.»

(وله)

« وردت أبا الفتح ياسيدى ورود الكرى بعد طول السهاد
ولما احتللت بنا لم تحل من العين والقلب غير السواد
ودونك منا طيوراً غدت تطير إليك بريش الوداد . »

(وله)

« أبا الوليد تجاوز وهب لنا التغميضا
واقبل جواباً على نظمك الصحيح مريضاً
زففت نحوى عروساً تجتاب روضاً أريضا
حلوتها فى سواد تجلو المعانى بيضا
وقد منحتك نزراً لا حقك المفروضا
وسوف أرفع جهدى من قدرك المخفوضا . »

(وله إلى أبيه رحمه الله)

« يا متبع الإكرام إنعاما ومتبـع الإنعام إتماما
وعادلا فى الناس لكنه أصبح للأموال ظلاما
قرنت فى كفك بحر الندى بصارم أسكنته الهاما
وجمت فيك خصال الورى وحزت آراء وإقـداما
فالموت والعيش بيمناك قد صرمن أسيافا وأقلاما
أثقلت بالإنعام ظهرى ، فقد ألجمت عن شكرك إلجاما
سفكت إفضالا دمى كي ترى تزيد فى عمرك أعـواما
فاسلم لاهراق دماء العدا ما طرد الإصباح إظلاما . »

(وله إليه يطلب مجنا)

« أيا ماجدا لم يرم شامخاً من المجد فاحتل غير القنن
سألتك صفراء بكراً لجد على بها شائعاً للـمنن
ترد السـنان إذا أمها شبا حده من قويم السنن
وإن كنت من معشر فى الوغى أقاموا القلوب مقام الجنن . »

(وله إليه يطلب عوادا)

« ألا يا غرّة السعد وقرّة نظر الحـمد
ومولاى الذى ما زا ل يسحب حلة الحمد
لعبدك همة هامت بركض الضمر الجرد
ويرغب ضارعا منها إلى علياك فى الورد
وإن تقبضه من عبد تمنّ به على عبد . »

(وبعث إليه مسرجا وكتب إليه)

« خلعت ثوب الصبىّ على العبـد الوفىّ
يا مسـترقا بنعما ء كل حر سرىّ
أنى على الورد سرج كالهدى فوق الهدىّ
فسوف أورد رمحى عليه قلب الكمىّ . »

(وله إليه)

« يا أيها الملك الذى كفاه بخلت السحاب
أنعمت بالبيض الكعا ب على والخيل العراب
وغدوت تخشى للعتا ب كما ترجى للثواب
برضاك أبصر نائى ال آمال منى ذا اقتراب
وبطيب أيامى لديـك عرفت أيام الشباب
فشكرت منه أو ليثنيـه من أياديك العذاب
بشبا سنانى فى الطعا ن وحد سيفى فى الضراب

وشبا لسانى فى الهجا ... فل بالتعثر لا يشاب
لازلت تنتعل النجو ... م وخد شانئك فى التراب»

(وله إليه)

« يا أيها الملك الذى لم يزل ... يسرى إلى غرته السارى
وجامعا فى كفه بالندى ... والبأس بين الماء والنار
اهنأ فقد نلت الذى تشتهى ... نفسك واشكر نعم البارى .»

(وله إليه يطلب الإذن بالصيد)

« امنن على عبد رجاك بساعة ... يرتاح فيها باصطياد أرانب
حتى يصيد بسعدك الأبطال فى ... يوم الوغى بأسنة وقواضب .»

(وله إليه)

« وساعة للرماك مسعفة ... قنصت فيها أرانبا وحجل
فلا أرانى الإله فيك رضى ... إن لم أصد من عداك كل بطل .»

(وله إليه)

«أيا بدرا البدر يشرق فى الظلام ... وستر الله مد على الأنام
وليث الغاب إقداما وبأسا ... ورب الفضل والنعم الجسام
عبيدك مولع بالصيد قدما ... وحب الصيد من شيم الكرام
فإذنك فيه واسلم للأعادى ... تدير عليهم كأس الحمام .»

(وله إليه)

« أيا ملكا عمنى فضله ... ولم ألف فى بحر نعماه زجرا
عهدت البحار لجزر ومد ... وتأبى بحار أياديك جزرا
دعونا الأمانى لما رضيت ... فجاءت توالى علينا وتترى
فلم يبق لى أمل أرتجيه ... سوى أن أقوم بنعماك شكرا
بقيت ولا ملك إلا غدا ... غدا ملك كفك قهراً وقسرا

(وقال)

أمعتمـــداً بالله دعوة آمل ... رجاك على بعد فأصبح ذاقرب
فأمم مأمـــولا وأم ميمما ... وحامت أمانيه على مورد عذب
موارد ما حلأن عنهن حائما ... ولا غادرته غير مستعذب الشرب
وها أنا ظمآن لمنهل وردكم ... وحسى موقوف على وردكم حسبى
أقر بالذى أملت مذ كنت آملا ... وتحتل من علياه فى المنزل الرحب
فجئت أغذ السير حتى كأننى ... لإفراط إغذاذى على ظهر النجب
فألفيت أعلى الناس قدرا وسؤددا ... وعدلا فدته النفس صدقا بلا كذب
يحن إلى راجيه كالوامق الصب ... ويهتز للمعروف كالصارم العضب
وإنى لما تولى وأوليت شاكر ... فمن شكر النعماء نال رضى الرب .»

وقال (١)

« لما تماسكت الدموع وتنهنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو ع على فمى السم النقيع
إن تستلب عنى الدنا ملكى وتسلمنى الجموع

---

(١) جاء فى كتاب المراكشى قبل هذه الأبيات الرائعة مايلى :

قال يوسف بن تاشفين لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : « كنت أظن أنى ملكت شيئاً ، فلما رأيت تلك البلاد صغرت فى عينى مملكتى ، فكيف الحيلة فى تحصيلها ؟ » فاتفق رأيه ورأى أصحابه على أن يراسلوا المعتمد يستأذنونه فى رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا فى الرباط بالأندلس ، ومجاهدة العدو والسكون ببعض الحصون المصاقبة للروم إلى أن يموتوا ففعلوا ، وكتبوا إلى المعتمد بذلك ، فأذن لهم بعد أن وافق على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحب الثغور ، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة فى بلادها ، فاذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو إظهار لمملكتهم وجدوا فى كل بلد أعواناً ، وقد كانت قلوب أهل الأندلس كما ذكرنا قد أشربت حب يوسف وأصحابه ، فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالا انتخبهم ، وأمر عليهم رجلا من قرابته يسمى « بلجين » وأسرّ إليه ما أراده ، فجاز بلجين المذكور وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة ، فقال : « أين تأمرنى بالسكون ؟ » فوجه معه المعتمد من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التى اختارها لهم فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه ، وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد ، وكان مبدؤها فى شوال من سنة ٤٨٣ بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة من العدوة دون مقدمة ظاهرة توجب ذلك ، فتشعبت جموعه وأهواؤها ملتئمة ، وانتثرت بلاده وقلوب أهلها على محبته منتظمة ، ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المؤمنين انتشر ذلك فى الأندلس ، وزحف القوم الذين قدمنا ذكرهم الكائنون فى الحصون إلى قرطبة فحاصروها وفيها عباد بن المعتمد الملقب بالمأمون ، وقد تقدم ذكره ، وهو من أكبر ولده ، فدخلوا البلد وقتل عباد هذا بعد أن أبلى عذراً ، وأظهر فى الدفاع عن نفسه جلدا وصبرا ، وذلك فى مستهل صفر الكائن فى سنة ٤٨٤ فزادت الإحنة والمحنة ، واستمرّت فى علوائها الفتنة . وأجمعت على الثورة بحضرة اشبيلية طائفة ، فأعلم المعتمد بما اعتقدته الطائفة المذكورة وكشف له عن مرادها ، وأثبت عنده سوء اعتقادها ، وأغرى بتمزيق أديمها ، وسفك دمها ، وحض على هتك حريمها ، وكشف حرمها ، فأبى له ذلك مجده الأثيل ، ورأيه الأصيل ، ومذهبه الجليل ، وما حباه الله من حسن اليقين ، وصحة العقل والدين ، إلى أن أمكنتهم الفرة يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة فقاموا بجيش غير مستنصر ، واستنفروا بغاثا غير مستنسر ، فبرز هو من قصره ، سيفه بيديه ، وغلالته ترف على جسده لادرقة له ولا درع عليه ، فلقى على باب من أبواب المدينة يسمى باب الفرج فارساً من الداخلين مشهور النجدة شاكي السلاح ، فرماه الفارس برمح قصير أنابيب القناة ، طويل شفرة السنان ، فالتوى الرمح بغلالته وخرج تحت إبطه ، وعصمه الله منه ودفعه بفضله عنه ، وصب هو سيفه على عاتق الفارس فشقه إلى أضلاعه ، فخرّ صريعاً ، وانهزمت تلك الجموع ، ونزل المتسنمون للأسوار عنها ، وظن أهل اشبيلية أن الخناق قد تنفس ، فلما كان عصر ذلك اليوم ، عاودهم القوم ، فظهروا على البلد من واديه ،

فالقلب بين ضـــلوعه | لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا | ع أيسلب الشرف الرفيع ؟
قد رمت يوم نزالهـم | إلا تحصـنى الدروع
وبرزت ليس سوى القميـ | ـص عن الحشى شىء دفوع
وبذلت نفسى كى تسيـ | ـل إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخر لم يكن | بهواى ذلى والخشـوع
ما سرت قط إلى القتا | ل وكان من أملى الرجوع
شـيم الألى أنا منهم | والأصل تتبعه الفروع .»

ويئس من سكن ناديه ، وبلغ فيه الأمل حاسده وشانيه ، وشبت النار فى شـوانيه ، فانقطع عندها العمل والقول ، وذهبت القوة من أيدى أهلها والحول ، وكان الذى ظهر عليها من جهة البر رجل من أصحاب يوسف أمير المسلمين والتوت الحال أياما يسيره إلى أن ورد الأميرسير ابن أبى بكر بن تاشفين وهو ابن أخى أمير المسلمين بعساكره متظاهرة ، وحشـود من الرعية وافرة ، والناس فى خلال هـذه الأيام قد خامرهم الجزع ، وخالط قلوبهم الهلع ، يقطعون السبل سباحة ، ويعبرون النهر سباحة ، ويتولهون مجارى الأقذار ، ويترامون من شرفات الأسوار : حرصاً على الحياة والموفون بالعهد ، المقيمون على صريح الود ، ثابتون إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين خلت من رجب من السنة المذكورة ، وهذا يوم الكائنة العظمى والطامة الكبرى فيه حم الأمر الواقع ، واتسع الخرق على الراقع ، ودخل البلد من واديه ، وأصاب حاضره وباديه ، بعد أن جد الفريقان فى القتال ، واجتهدت الفئتان فى النزال ، وظهر من دفاع المعتمد — رحمه الله — وبأسه ، وترامية على الموت بنفسه ، ما لا مزيد عليه ، ولا تناه لخلق إليه ، وفى ذلك يقول المعتمد بعد ما نزل بالعدوة أسيراً حسيراً :

« لما تماسكت الصـــلوع | وتنهنه القلب الصديع » .... الخ

فشنت الغارة فى البلد ولم يترك البربر لأحد من أهلها سـبدا ولا لبدا ، وانتهبت قصور المعتمد نهباً قبيحا ، وأخذ هو قبضا باليد ، وأجبر على مخاطبة ابنيه المعتمد بالله والراضى بالله ، وكانا بمعقلين من معاقل الأندلس المشهورة لو شاء أن يمتنعا بهما لم يصـل أحد إليهما . أحد الحصنين يسمى رندة ، والآخر مارتلة ، فكتب رحمه الله ، وكتبت السيدة الكبرى أمهما مستعطفين مسترحمين معلمين أن دم الكل منهم مسترهن بثبوتهما فأنفا من الذل وأبيا وضع يديهما فى يد أحد من الناس بعد أبيهما ، ثم عطفتهما عواطف الرحمة ، ونظرا فى حقوق أبويهما المقترنة بحق الله عزّ وجلّ ، فتمسك كل منهما بدينه ، ونبذ دنياه ، ونزلا عن الحصنين بعد عهود مبرمة ومواثيق محكمة . فأما المعتمد بالله فان القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه وأما الراضى بالله فعند خروجه من قصره قتل غيلة وأخفى جسده ، ورحل المعتمد وآله بعد استئصال جميع أحواله ، ولم يصـحب من ذلك كله بلغة زاد ، فركب بالسفين وحل بالعدوة محل الدفين ، وكان نزوله من العدوة بطنجة ..

(وقال)

«قل لمن قد جمع العلـ ـم وما أحصى صوابه(١)

---

(١) قال المراكشي في كتاب المعجب :

« أقام المعتمد بطنجة أياماً ، ولقيه بها الحصرى الشاعر ، فجرى معه على سوء عادته من قبح الكدية وإفراط الالحاف، ورفع إليه أشعاراً قديمة كان قد مدحه بها، وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدها عند وصوله إليه ولم يكن عند المعتمد في ذلك اليوم مما زود به فيما بلغني أكثر من ستة وثلاثين مثقالا فطبع عليها ، وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها سقطت من حفظي ووجه بها إليه فلم يجاوبه عن القطعة على سهولة الشعر على خاطره وخفته عليه كان هذا الرجل أعني الحصرى الأعمى أسرع الناس في الشعر خاطرا إلا أنه كان قليل الجيد منه ، فحركه المعتمد على الله على الجواب بقطعة أولها : قل لمن قد جمع الخ »

وأقام المعتمد بطنجة رحمه الله أياما على الحال التي تقدم ذكرها ، ثم انتقل إلى مدينة مكناسة ، فأقام بها أشهرا إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة اغمات ، فأقاموا بها إلى أن توفي المعتمد رحمه الله ودفن بها فقبره معروف هناك ، وكانت وفاته في شهور سنة ٨٧ وقيل سنة ٨ فالله أعلم ، توفي وسنه إحدى وخمسون سنة ، فمن أحسن ما سمعت مما رثي به المعتمد على الله مقطوعة من شعر ابن اللبانة أولها :

«لكل شيء من الأشياء ميقات ... وللمنى من مناياهن غايات

والدهر في صبغة الحرباء منغمس ... ألوان حالاته فيها استحالات

ونحن من لعب الشطرنج في يده ... وربما قمرت بالبيدق الشاة

فانفض يديك من الدنيا وساكنها ... فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

وقل لعالمها الأرضي قد كتمت ... سريرة العالم العلوي « اغمات »

طوت مظلتها لا بل مذلتها ... من لم تزل فوقه للعز رايات

من كان بين الندى والبأس أنصله ... هندية وعطاياه هنيدات

أنكرت إلا التواء القيود به ... وكيف تنكر في الروضات حيات

وقلت هن ذؤابات فلم عكست ... من رأسه نحو رجليه الذؤابات

رأوه ليثاً فخافوا منه عادية ... عذرتهم فلعدوى الليث عادات.»

وله من قصيدة يرثيهم بها وهي كثيرة الجيد أولها :

« عريسة دخلتها النائبات على ... أساود لهم فيها وآساد

وكعبة كانت الآمال تعمرها ... فاليوم لا عاكف فيها ولا باد

تلك الرماح رماح الخط ثقفها ... خطب الزمان ثقافا غير معتاد

والبيض بيض الظبا فلت مضاربها ... أيدي الردى وثنتها دون إغماد

لما دنا الوقت لم تخلف له عدة ... وكل شيء لميقات وميعاد

كم من دراري سعد قد هوت ووهت ... هناك من درر للمجد افراد

نور ونور فهذا بعد نعمته ... ذوى وذاك خبا من بعد إيقاد

ياضيف اقفر بيت المكرمات فخذ ... في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

كان فى الصرة شعر فتنظرنا جـــوابه
قد أثبناك فهـــلا جلب الشعر ثوابه .»

ويا مؤمل واديهم ليسكنه خف القطين، وجف الزرع بالوادى
ضلت سبيل الندى بابن السبيل، فسر لغير قصد ، فما يهديك من هاد .»

وفيها يقول :

« نسيت ـ الاغداة النهر ـ كونهم فى المنشـــئات كأموات بألحاد
والناس قد ملئوا العبرين، واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
حط القناع ، فلم تستر مخدرة ومزقت أوجـــه تمزيق أبراد
تفرقوا حيرة، من بعد ما نشأوا أهلا بأهل ، وأولاداً بأولاد
حان الوداع فضجت كل صارخة وصارخ من مفداة ومن فاد
سارت سفائنهم ـ والنوح يتبعها ـ كأنها إبل يحدو بها الحادى
كم سال فى الماء من دمع، وكم حملت تلك القطائع من قطعات أكباد
من لى بكم ـ يابنى ماء السماء ـ إذا ماء السماء أبى سقيا حشا الصادى .»

وهى طويلة جدا هذا ما اخترت له منها .

« ولما اتصل برعاية الشعراء وملحق أهل الكديه ماصنع المعتمد رحمه الله مع الحصرى تعرضوا له بكل طريق ، وقصدوه من كل فج عميق ، فقال فى ذلك رحمه الله .

« شعراء طنجة كلهم والمغرب ، ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب
سألوا العسير ـ من الأسير ـ وإنه بسؤالهم لأحق ، فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزة لخميـــة ـ طى الحشا ـ ساواهم فى المطلب
قد كان ـ إن سئل الندى ـ يجزل، وإن نادى الصريخ ببابه اركب يركب »

وله فى هذا المعنى رحمه الله :

« قبح الدهر ، فماذا صـــنعا كلما أعطى نفيسا نزعا
قد هوى ـ ظلماً ـ بمن عادته أن ينادى كل من يهوى لعا
من إذا الغيث همى منهمراً أخجلتها كفــــه فانقطعا
من غمام الجود من راحته عصفت ريح به فانقشـــعا
من إذا قيل الخناصم وإن نطق العافون همسا ســـمعا
قل لمن يطمع فى نائـــله قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك إلا دعـــوة جبر الله العفاة الضـــيعا . »

معارضات الشعراء لابن زيدون (١)

« أولع كثير من الشعراء من قدماء ومحدثين بمعارضات ابن زيدون ، ولو أردنا أن نثبت معارضاتهم الكثيرة لقصائده المشهورة لاحتجنا إلى سفر ضخم ، فلنجتزئ بقصيدة « أبي بكر بن الملح » التي ذكرها « ابن بسام » في كتاب الذخيرة من القدماء ، وقصائد أمير الشعراء أحمد شوقي بك التي عارض بها ابن زيدون . »

معارضة أبي بكر

قال ابن بسام بعد أن ذكر نونية ابن زيدون التي أولها :
« أضحى التنائي بديلا من تدانينا » (٢)

« وهذه القصيدة بجملتها فريدة ، وقد عارضه فيها جماعة قصروا عنه منهم « أبو بكر بن الملح » نازعه فيها الراية ، فقصر عن الغاية حيث يقول من قصيدة أولها . »

هل يسمع الربع شكوانا فيشكينا
أو يرجع القول مغناه فيغنينا

ثم استمرَّ في غزلها إلى أن قال :

يا باخلين علينا أن نودعكم
وقد بعدتم عن اللقيا فحيونا
قفوا نزركم وإن كانت فرائدكم
نزراً ، ومنكم بالوصل ممنونا
سركم الوصل ظنًّا لا فقدتكم
فكان بالوهم موجوداً ومظنونا
سرى من المسك عن مسراكم خبر
بُعَيْدَ عهد هواكم سَيْرُهُ فينا
أيَّام بدركم يجلو لياليا
نوراً وطيبكم يرعى بوادينا
مهلا فلم نعتقد دين الهوى تبعاً
ولا قرأنا بصحف المس تلقينا
قد نصرف العذل يغوينا ويرشدنا
ونترك الدار تسلينا وتشجينا
ونتبع الحيَّ والأشواق محرقة
تحوم بالماء والأرحام تحمينا
كواكب بسماء النقع قد جعلت
لنا رجومًا وما كنا شياطينا

معارضات أمير الشعراء

اندلسية

« نظم أمير الشعراء هذه القصيدة الرائعة وهو في منفاه باسبانيا وفيها يحن للوطن العزيز ويصف كثيراً من مشاهده ومعاهده

(١) انظر « ص ٤١٢ » (٢) انظر « ص ٤ »

يانائح «الطلح» أشباه عوادينا
نشجى لواديك أم نأسى لوادينا ؟
ماذا تقصُّ علينا غير أن يداً
قصت جناحك جالت فى حواشينا !
رمى بنا البين أيكاً غير سامرنا
أخا الغريب : وظلاًّ غير نادينا
كل رمته النوى ! ريش الفراق لنا
سهماً ، وسلّ عليك البين سكينا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع
من الجناحين عىّ لا يلبينا
فإن يك الجنس — يابن الطلح — فرّقنا
إن المصائب يجمعن المصابينا
لم تأل ماءك تحناناً ولا ظمأ
ولا ادّكاراً ، ولا شجواً أفانينا
تجرّ من فنن ساقاً إلى فنن
وتسحب الذيل ترتاد المؤاسينا
أُساة جسمك شتى حين تطلبهم
فمن لروحك بالنطس المداوينا !

*

آهاً لنا ! نازحى أيك بأندلس
وإن حللنا رفيفاً من روابينا
رسم وقفنا عَلَى رسم الوفاء له
نجيش بالدمع ، والإجلال يثنينا
لفتية لا تنال الأرض أدمعهم
ولا مفارقهم إلا مصلينا
لو لم يسودوا بدين فيه منبهة
للناس ، كانت لهم أخلاقهم دينا
لم نسر من حرم إلا إلى حرم
كالخمر من «بابل» سارت «لدارينا»
لما نبا الخلد نابت عنه نسخته
تماثل الورد «خيريا» و «نسرينا»
نسقى ثراهم ثناء ، كلما نثرت
دموعنا نظمت منها مراثينا
كادت عيون قوافينا تحركه
وكدن يوقظن فى الترب السلاطينا
لكنّ مصر وإن أغضت عَلَى مقة
عين من الخلد بالكافور تسقينا
عَلَى حوانبها رفّت تمائمنا
وحول حافاتها قامت رواقينا
ملاعب مرحت فيها مآربنا
وأربع أنست فيها أمانينا
ومطلع لسعود من أواخرنا
ومغرب لجدود من أوالينا
بنا فلم نخل من روح يراوحنا
من برّ مصر وريحان يغادينا
كأمّ موسى ، عَلَى اسم الله تكفلنا
وباسمه ذهبت فى اليمّ تلقينا

ومصر كالكرم ذى الإحسان : فاكهة
لحاضرين ، وأكواب لبادينا

⁂

ياسارى البرق يرمي عن جوانحنا
بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا
لما ترقرق فى دمع السماء دماً
هاج البكا فخضبنا الارض باكينا
الليل يشهد لم تهتك دياجيه
عَلَى نيام ولم تهتف بسالينا
والنجم لم يرنا إلا عَلَى قدم
قيام ليل الهوى للعهد راعينا
كزفرة فى سماء الليــل حائرة
مما تردد فيه حــين يضوينا
بالله إن جبت ظلماء العباب عَلَى
نجائب النور محدوًا (بجرينا)
ترد عنك يداه كل عادية
إنساً يعثن فساداً أو شياطينا
حتى حوتك سماء النيل عالية
عَلَى الغيوث وإن كانت ميامينا
واحرزتك شفوف اللازورد عَلَى
وشىْ الزبرجد من أفواف وادينا
وحازك الريف أرجاء مورجة
ربت خمائل ، وآهتزت بساتينا

فقف إلى النيل واهتف فى خمائله
وانزل كما نزل الطل الرياحينا
وآس ما بات يذوى من منازلنا
بالحادثات وَيضوى من مغانينا

⁂

ويامعطرة الوادى سرت سحراً
فطاب كل طروح من مرامينا
ذكية الذيل لو خلنا غلالتها
قميص يوسف لم نحسب مغالينا
جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا
بالورد كتباً ، وبالريا عناوينا
فلو جزيناك بالأرواح غالية
عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا
هل من ذيولك مسكى نحمله
غرائب الشوق وشياً من أمالينا
إلى الذين وجدنا ود غــيرهم
دنيا وودهمو الصافى هو الدينا

⁂

يا من نغار عليهم من ضمائرنا
ومن مَصون هواهم فى تناجينا
ناب الحنين إليكم ـ فى خواطرنا ـ
عن الدلال عليكم فى أمانينا
جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا
ـ فى النائبات ـ فلم يأخذ بأيدينا

وما غلبنا على دمع ولا جلد
حتى أتتنا نواكم من صياصينا

ونابغى كأن الحشر آخره
تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا

نطوى دجاه بجرح من فراقكمو
يكاد ـ فى غلس الأسحار ـ يطوينا

إذا رسا النجم لم ترقأ محاجرنا
حتى يزول ، ولم تهدأ تراقينا

بتنا نقاسى الدواهى من كواكبه
حتى قعدنا بها : حسرى تُقاسينا

يبدو النهار فيخفيه تجلدنا
للشامتين ، ويأسوه تأسينا

✲

سُقياً لعهد ـ كأكناف الربى ـ رِفةً
أنّى ذهبنا ، وأعطاف الصّبا لينا

إذ الزمان بنا غيناء راهيةٌ
ترف أوقاتنا فيها رياحينا

الوصل صافية ، والعيش ناغية
والسعد حاشية ، والدهر ماشينا

والشمس تختال فى العقيان تحسبها
« بلقيس» ترفل فى وشى اليمانينا

والنيل يقبل كالدنيا إذا احتفلت
لو كان فيها وفاء للمصافينا

والسعد لو دام ، والنعمى لو اطردت ،
والسيل لو عف ، والمقدار لو دينا

ألقى على الأرض حتى ردها ذهبا
ماء ـ لمسنا به الإكسير ـ أوطينا

أعداه من يمنه «التابوت» وارتسمت
ـ على جوانبه ـ الأنوار من سينا

له مبالغ ما فى الخلق من كرم
عهد الكرام وميثاق الوفيينا

لم يجر للدهر إعذار ولا عرس
إلا بأيمنا أو فى ليالينا

ولا حوى السعد أطغى فى أعنته
منا جياداً ، ولا أرخى ميادينا

نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا
ولم يهن بيد التشتيت غالينا

ولا يحول لنا صِبغٌ ولا خلق
إذا تلوّن كالحرباء شانينا

لم تنزل الشمس ميزاناً ولا صعدت
فى ملكها الضخم عرشاً مثل وادينا

ألم تؤله على حافاته ، ورأت
عليه أبناءها الغر الميامينا ؟

إن غازلت شاطئيه فى الضحى لبسا
خمائل السندس الموشية الغينا

وبات كل مجاج الواد من شجر
لوافظ القز بالخيطان ترمينا

وهذه الأرض من سهل ومن جبل .
قبل (القياصر) دِنّاها (فراعينا)

ولم يضع حجراً بان على حجر
فى الأرض إلا على آثار بانينا

كأن أهرام مصر حائط نهضت
به يد الدهر لا بنيان فانينا

إيوانه الفخم من عليا مقاصره
يفنى الملوك ولا يبقى الأواوينا

كأنها ورمالا حولها التطمت
سفينة غرقت إلا أساطينا

كأنها تحت لألاء الضحى ذهباً
كنوز (فرعون) عطين الموازينا

⁂

أرض الأبوة والميلاد ، طيبها
مر الصبا فى ذيول من تصابينا

كانت محجلة فيها مواقفنا
غرا مسلسلة المجرى قوافينا

فآب ــ من كُرَةِ الأيام ــ لاعبنا،
وثاب ــ من سنة الأحلام ــ لاهينا

ولم ندع لليالى صافياً ، فدعت
«بأن نغص فقال الدهر : آمينا»

لو آستطعنا : لخضنا الجوّ صاعقة
والبرّ نار وغى ، والبحر غسلينا

سعيا إلى مصر نقضى حق ذاكرنا
فيها إذا نسى الوافى وباكينا

كَنْزٌ (بحلوان) عند الله نطلبه
خير الودائع من خير المؤدينا

لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا
لم يأته الشوق إلا من نواحينا

إذا حملنا لمصر أوله شجناً
لم ندر أى هوى الأمين شاجينا

زحلة

« وقال معارضاً قصيدة ابن زيدون التى أولها :
« ما للمدام تديرها عيناك »

شيعت أحلامى بقلب باك
ولمحت من طرق الملاح شباكى

ورجعت أدراج الشباب ووردُه
أمشى مكانهما على الأشواك

وبجانبى واهٍ كأن خفوقه
لما تلفت جهشة المتباكى

شاكى السلاح إذا خلا بضلوعه
فإذا أهيب به فليس بشاك

قد راعه أنى طويت حبائلى
من بعد طول تناول وفكاك

ويح ابن جنبى كل غاية لذة
بعد الشباب عزيزة الإدراك

لم تبقَ منا يا فؤاد بقيــةٌ
لفتوَّة أو فضــلة لعراك
كنا إذا صفقت نستبق الهوى
ونشد شــد العصبة الفُتاك
واليوم تبعث فىَّ حين تهزنى
ما يبعث الناقوس فى النساك

⁂

يا جارة الوادى طربت وعادنى
ما يشبهُ الأحلامَ من ذكراك
مثَّلْتُ فى الذكرى هواكِ وَفى الكرى
والذكرياتُ صدى السنينَ الحاكى
ولقد مررت عَلَى الرِّياض بربوة
غناء كنت حِيالَها ألقاك
ضحِكَتْ إلىَّ وجوهها وعيونُهَا
ووجــدت فى أنفاسها ريَّاك
فذهبت فى الأيام أذكر رفرفا
بين الجداول والعيون حواك
أذكرت هرولة الصبابة والهوى
لما خطرت يقبـلان خطاك
لم أدر ماطيبُ العناق عَلَى الهوى
حتى ترفَّق ساعدى فطواك
وتأوَّدت أعطاف بانك فى يدى
واحمرَّ من خفرَيهما خــداك
ودخلت فى ليلين فرعِك والدُّجى
ولثمتُ كالصــبح المنوَّر فاك
ووجدت فى كنه الجوانح نشوةً
من طيب فيك ومن سلاف لَمَاك
وتعطلت لغة الــكلام وخاطبت
عينىَّ فى لغــة الهوى عيناك
ومحوت كل لُبانة من خاطرى
ونَسِيت كل تعاتب وتشاكى
لا أمسِ من عمر الزمان ولا غدٌ
جُمِـعَ الزمان فكان يوم رضاك

⁂

لُبنان ردَّتنى إليكَ من النوى
أقدار سَــيرٍ للحياة دراك
جمعت نزيلَىْ ظَهرها من فرقة
كرةٌ وراء صوالج الأفلاك
نمشى عليها فوق كل فجاءة
كالطير فوق مكامن الأشراك
وَلَوَ أنَّ بالشوق المزار وجدتنى
ملقى الرحال عَلَى ثراك الذاكى

⁂

بنت البقاع وأم بِرْدَوْنِيِّهَا
طيبى كجلق واسكنى برداك
ودمشق جنات النعيم وإنما
ألفيت ســدة عدنهنَّ رباك

قسما لو انتمت الجداول والربا
لتهلل الفردوس ثم نماك
مرآك مرآه وعينك عينه
لم يا زحيلة لا يكون أباك
تلك الكروم بقية من بابل
هيهات نسّى البابلى جناك
تبدى كوشى الفرس أفتن صَبغةٍ
للناظرين إلى ألذ جِياك
خرزات مسك أوعقود الكهربا
أُودعن كافوراً من الأسلاك
فكرتُ فى لَبن الجنان وخمرها
لما رأيت الماء مس طلاك
لم أنس من هبة الزمان عشية
سلفت بظلك وانقضت بذراك
كنت العروس عَلَى مَنَصة جنحها
لُبنان فى الوشى الكريم جلاك
يمشى إليك اللحظ فى الديباج أو
فى العاج من أى الشعاب أتاك
ضمت ذراعيها الطبيعة رقة
«صِنّين» و «الحرمون» فاحتضناك
والبدر فى ثَبَج السماء منوّر
سالت حُلاه على الثرى وحلاك
والنيرات من السحاب مطلة
كالغيد من ستر ومن شباك
وكأن كل ذؤابة من شاهق
ركن المجرة أو جدار سماك
سكنت نواحى الليل إلا أنة
فى الأيك أو وتراً شجىٌّ حراك
شرفاً عروس الأرز كل خريدة
تحت السماء من البلاد فداك
ركز البيان على ذراك لواءه
ومشى ملوك الشعر فى مغناك
أدباؤك الزهر الشموس ولا أرى
أرضا تمخض بالشموس سواك
من كل أروع علمه فى شعره
ويراعه من خلقه بملاك
جمع القصائد من رباك وربما
سرق الشمائل من نسيم صباك
(موسى) ببابك فى المكارم والعلا
وعصاه فى سحر البيان عصاك
أحللت شعرى منك فى عليا الذرا
وجمعته برواية الأملاك
إن تكرمى يا زحل شعرى إننى
أنكرت كل قصيدة إلاك
أنت الخيال بديعهُ وغريبه
الله صاغك والزمان رواك

وقال

« وقال معارضاً كافية ابن زيدون التى أولها :

« ودع الصبر محب ودعك (١) »

ردت الروح عَلَى المضنى معك
أحسن الأيام يوم أرجعك

مرّ من بعدك ما روعنى
أترى يا حلو بعدى روعك

كم شكوت البين بالليل إلى
مطلع الفجر عسى أن يطلعك

و بعثت الشوق فى ريح الصبا
فشكا الحرقة مما آستودعك

يا نعيمى وعذابى فى الهوى
بعذولى فى الهوى ما جمعك

أنت روحى ظلم الواشى الذى
زعم القلب سلا أو ضيعك

موقعى عنــدك لا أعلمه
آه لو تعلم عنــدى موقعك

أرجفوا أنك شاك موجع
ليت لى فوق الضنا ما أوجعك

نامت الأعــين ، إلا مقلة
تسكب الدمع وترعى مضجعك



صفحات من كتاب الذخيرة لابن بسام

فصل فى ذكر ذى الوزارتين الكاتب أبى الوليد ابن زيدون واجتلاب عيون أخباره، ونصوص رسائله وأشعاره .

قال أبو الحسن كان أبو الوليد غاية منثور ومنظوم وخاتمة شعراء مخزوم، أحد من خبر الأيام خبراً، وفاق الأنام طرا، وصرّف السلطان نفعا وضرا، ووسع البيان نظماً ونثرا، إلى أدب ليس للبحر تدفقه، ولا للبدر تألقه، وشعر ليس للسحر بيانه، ولا للنجوم الزهر اقترانه، وحظ من النثر غريب المبانى، شعرى الألفاظ والمعانى أخبرنى غير واحد من وزراء اشبيلية قال: خلص ابن عبد العزيز من يد عباد، خلوص الفرزدق من يد زياد، وبقيت حضرته من أهل هذا الشان، أعرى من ظهر الأفعوان وأخلى من صدر الجبان، فهمّ باستجلاب (محمد بن الباجى) المشهور أمره، الآتى فى القسم الثانى من هذا الديوان ذكره، وكأنّ أبا الوليد غص بذلك وواطأ أبا محمد بن الجد على الاشارة بالاستغناء عما هنالك، وكانت الكتب تنفذ من إنشاء أبى الوليد إلى شرق الأندلس، فيقال تأتى باشبيلية كتب هى بالنظم الخطير، أشبه منها بالمنثور

حظوته عند ابن جهور

وقد أجرى ذكره أبو مروان بن حيان فى وصف من كان اصطنع ابن جهور من رجال دولته، فقال «ونوه بفتى الآداب، وعمدة الظرف، والشاعر البديع الوصف، أبى الوليد أحمد بن زيدون ذى الأبوّة السنية بقرطبة، والوسامة، والدراية، وحلاوة المنظوم، والسلاطة، وقوّة العارضة، والافتنان فى المعرفة، وقدمه للنظر على أهل الذمة لبعض الأمور المعترضة وقصره بعد مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء، فأحسن التصرف فى ذلك، وغلب على قلوب الملوك» قال أبو مروان وكان أبو الوليد من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة فى أيام الجماعة والفتنة وبرع أدبه، وجاد شعره، وعلا شأنه، وانطلق لسانه، فذهب به العجب كل مذهب وهون عنده كل مطلب، وكان علقه من عبد الله بن أحمد بن المكرى أحد حكام قرطبة ظفر أخجن، أداه إلى السجن، فألقى نفسه يومئذ على أبى الوليد بن جهور فى حياة والده أبى الحزم فشفع له وانتشله من نكبته وصيره فى صنائعه، ولما ولى الأمر بعد والده نوه به وأسنى حظته وقدمه فى الذين اصطنع لدولته، وأوسع راتبه وحلاه كرامة لم تقنعه فيما زعموا، واتفق أن عن له مطلب بحضرة إدريس الحسنى بمالقة، فأطال الثواء هنالك، واقترب من إدريس، وخف على نفسه، وأحضره مجالس أنسه، فعتب عليه ابن جهور، وصرفه فى السفارة بينه وبين أمراء الأندلس فيما يجرى بينهم من التراسل والمداخلة، فاستقل بذلك لفضل ما أوتيه من اللسن والعارضة، فاكتسب الجاه والمنفعة ولم يبعده ذلك من التهافت فى الترقى لبعد الهمة، فهوى عما قليل إلى عباد صاحب إشبيلية احتذبه إلى ذلك فهاجر عن وطنه إليه، ونزل على كنفه، وصار من خواصه وصحابته، يجالسه فى خلواته، ويراسل له فى مهم رسائله على حال من التوسعة، وكان ذهابه لعباد سنة ٤٤١ هـ إحدى وأربعين وأربعمائه. قال أبو الحسن: «فأما سعة ذرعه، وتدفق طبعه، وغزارة بيانه، ورقة حاشية لسانه، فالصبح الذى لاينكر ولا يرد، والرمل الذى لايحصى ولا يعد.»

بداهته وتصرفه بفنون القول

أخبرنى من لاأدفع خبره من وزراء إشبيلية قال: «عهدى بأبى الوليد قائما على جنازة بعض حرمه والناس يعزّونه على اختلاف طبقاتهم، فما سمع يجيب بما أجاب به غيره لسعة ميدانه، وحضور جنانه.» وقد أخرجت من أشعاره التى هى حجول وغرر ونوادر أخباره التى هى مآثر وأثر، ورسائله

التى أخرست الحفل ، واستوت أمد المطلق الجرل.

. . . .

. . . .

. . . .

وله فى ابن جهور ، وكتب بها من السجن :

« ماجال بعدك لحظى فى سنا القمر
إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر . » الخ

وله أيضاً قصيدة فريدة خاطب بها ابن جهور وهو فى تلك الحال من الاعتقال أوّلها :

« ألم يأن أن يبكى الغمام على مثلى
ويطلب ثارى البرق منصلت النصل . »

وفى بنى جهور يقول :

« بنى جهور أحرقتم بجفائكم
جنانى ، فما بال المدائح تعبق
تعدوننى كالعنبر الورد إنما
تطيب لكم أنفاسه حين يحرق . »

وأراه توارد فى هذين البيتين مع أبى على بن رشيق القيروانى حيث يقول :

« أراك اتهمت أخاك الثقه
وعندك مقت وعندى مقه
وأثنى عليك وقد سؤتنى
كما طيب العود من أحرقه . »

وأخذاه معاً من قول أبى تمام :

« لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يعرف فضل طيب العود . »

***

وأنشدنى بعض أهل وقتنا ، وهو أبو مروان بن شماخ لنفسه :

« نوائب غالتنى ، فأبدت فضائلى
وكانت وكنت النار والعنبر الوردا . »

ولغيره :

« إن مسّ النار جسمى
أبديت طيب نسيم

كالدهر إن عض يوما
أبان فضل الكريم . »

***

وأبو الوليد بن زيدون ـ على كثرة إحسانه ـ كثير الاهتدام فى النثر والنظام ، وكتب إلى أبى بكر مسلم وهو مختف بقرطبة بعد فراره من السجن ، فصلا من رقعة :

« وبلغنى أنك أحد اللائمين ومن أمثالهم ويل للشجىّ من الخلىّ ، وهان على الأملس مالاقى الدبر واعتدك على انفصالك عنى وترى أنك أحد الحمة منى فلم أستطع صبراً ، وعلمت أن العاجز من لايستبدّ فالمرء يعجز لامحالة ، ولم أستجر أن أكون ثالث الأذلين العير والوتد ، وتذكرت أن الفرار من الظلم والهرب مما لايطاق من سنن المرسلين ، وقد قال تعالى على لسان موسى : ففررت منكم لما خفتكم . فنظرت فى مفارقة الوطن فقديما ضاع الفاضل فى وطنه ، وكسد العلق النفيس فى معدنه كما قال :

« أصبح فى معشرى وكم بلد
يكون عود الكباء من حطبه »

فاستخرت الله فى إنفاذ العزم ، وأنا الآن حيث أمنت بعض الأمن إلا أن السعى لم يرتفع ومادة البغى لم تنقطع ، وختم رسالته بهذا النظم :

« شحطنا وما بالدار نأى ولا شحط
وشط ـ عن نهوى ـ المزار وما شطوا . »

***

. . . .

كأن أوّل هذه القصيدة ناظر إلى قول راشد أبى حكيمة حيث يقول :

«ومستوحش لم يمش فى أرض غربة
ولكنه ممن يحبّ غريب . »

ويناسبه أيضا قول المتنبي :

« إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
أن لا تفارقهم فالراحلون هم . »

قوله هرمت وما للشيب البيت ناقص من قول المتنبي :

« إن لا يشب فلقد شابت له كبدى
شيب إذا خضبته سلوة نصلا . »

وقد كرّر هـذا المعنى أبو الطيب فى مواضع من شعره وكلف به وشعب الكلام فيه وتصرف ، وقد تقدّم إنشاده ، ومنه أيضاً قول عبد الجليل المرسى المعتمد ابن عباد :

***

« أتتك على حلائقها حيادى
وإن كان الصياع لها شكالا . »

وكتب أيضاً أبو الوليد بن زيدون من محبسه ذلك إلى أبى حفص بن برد بهذه الأبيات :

« ماعلى ظبيىَ باس يجرح الدهر ويأسو (١)
ربما أشرف بالمر ء على الآمال ياس
ولقد ينجيك إغفا ل، ويرديك احتراس
والمحاذير سهام والمقادير قياس
يا أبا حفص وما سا واك فى فهم إياس
من سنا رأيك لى فى غسق الخطب اقتباس
وودادى لك نص لم يخالفـه القياس
أذؤب هامت بلحمى فانتهاب وانتهاس
يلبد الورد السبنتى وله بعــد افتراس
إن أكن أصبحت بخو ساً فللمبيث احتباس
فتأمل كيف يغشى مقلة المجـد النعاس
ويفت المسك فى التر ب فيوطا ويداس
لا يكن عهدك ورداً إن عهدى لك آس
وأدر ذكرىَ كأساً ما امتطت كفك كاس
فعسى أن يسمح الدهر فقد طال الشماس . »

قوله يلبد الورد السبنتى البيت كقول النابغة :

« وقلت يا قوم إن الليث منقبض
على براثنـه للوثبـة الضارى . »

وأخذه ابن الرومى فقال :

« سكنت سكوناً كان رهناً بوثبـة
عماس كذاك الليث للوثب يلبد . »

وقوله لا يكن عهدك ورداً من قول العباس بن الأحنف :

« لا تجعلى وصلنا كالورد حين مضى
ذا طلعة وأديمى الورد كالآس . »

كرّره العباس فى موضع آخر ، فقال :

« ولكننى شبهت بالورد عهدها
وليس يدوم الورد والآس دائم . »

***

ما أخرجتـه من شـعر ابن زيدون فى النسيب وما يناسبه من قصيدة :

« بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا (١)
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
رأياً ولم نتقلد غـيره دينا
تكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغـدت
سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا
ومورد اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا غصون الأنس دانية
قطوفها فجنينا مـنه ما شينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما
كنتم لأيامنا إلا رياحينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
إذ طالما غـير النأى المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا
منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ياسارى البرق غاد القصر فاسق به
من كان صرف الهوى والود يسقينا
ويا نسيم الصـبا بلغ تحيتنا
من لو على البعد حيا كان يحيينا
ربيب ملك كأن الله أنشأه
مسكا وقدر إنشاء الورى طيناً

(١) أثبتنا هذه الأبيات هنا لاختلاف روايتها عن رواية الديوان .

(١) أثبتنا هذه الأبيات لاختلاف روايتها عن رواية الديوان .

إذا تأوّد آدته ـ رفاهية ـ
توم العقود وأدمته البرى لينا
كانت له الشمس ظئرا فى أكلته
بل ما تجلى لنا إلا أحايينا
يا روضة طال ما أجنت لواحظنا
وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها
منى ضروبا ولذات أفانينا
لسنا نسميك إجلالا وتكرمة
وقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها
والكوثر العذب زقوما وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
والسعد قد غض من أجفان واشينا
سران فى خاطر الظلماء يكتمنا
حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
إنا قرأنا الأسى عند النوى سورا
مكتوبة ، وأخذنا الصبر تلقينا
أما هواك فلم نعدل بمنهله
شربا وإن كان يروينا فيظمينا
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه
ـ سالين عنه ـ ولم نهجره قالينا
ولا اختيارا تجنبناك عن كثب
لكن عدتنا ـ على كره ـ عوادينا
نأسى عليك وقد حثت مشعشعة
فينا الشمول ، وغنانا مغنينا
لا أكؤس الراح تبدى من شمائلنا
سيما ارتياح ، ولا الأوتار تلهينا
دومى على الوصل ما دمنا محافظة
فالحر من دان إنصافا كما دينا
فما استفدنا خليلا عنك يصرفنا
ولا استفدنا حبيباً عنك يسلينا
ولو صبا نحونا من علو مطلعه
بدر الدجى لم يكن ـ حاشاك ـ يصبينا
أبدى وفاء ، وإن لم تبذلى صلة
فالذكر يقنعنا ، والطيف يكفينا
وفى الجواب متاع إن شفعت به
بيض الأيادى التى ما زلت تولينا
عليك منى سلام الله ما بقيت
صبابة بك نخفيها فتخفينا . »

وهذه القصيدة تحملها مريدة وقد عارضه فيها جماعة قصروا عنه (۱) . . . .

وله من أخرى أثر نزهة كانت له بمنية الزهراء :

« إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا . »

وله من أخرى ، وكتب بها من بطليوس أيام تكرره عليها وهى من غرر نظامه وحر كلامه :

« يا دمع صب ما شئت أن تصوبا
ويا فؤادى آن أن تذوبا . »

وله :

« وضح الحق المبين ونفى الشك اليقين . »

وقال :

« صحت فصح بها السقيم ريح ممطرة النسيم . »

وقوله :

« يا ليل طل لا أشتهى إلا بوصل قصرك
لو بات عندى قمرى ما بت أرعى قمرك . »

وقوله :

« ودع الصبر محب ودعك
ذائع من سره ما استودعك . »

وقال :

« بينى وبينك ما لو شئت لم يضع
سرّ إذا ذاعت الأشياء لم يذع . »

وفيها يقول :

ته أحتمل واستطل أصبر وعزّ أهن
وول أقبل وقل اسمع ومر أطع . »

أراه احتذى بهذا البيت مذهب أبى العميثل الأعرابى :

«فاصدق وعف وبر وانصف واحتمل
واصفح ودار وكاف واحلم واسجح
والطف ولن وتأن وارفق واتئد
واحزم وجد وحام واحمل وادفع . »

كقول ديك الجن :

«أحل وامرر وضر وانفع ولن واخشن
ورش وابر وانتدب للمعالى . »

وهذا البيت صنعه المولدون وعدوه تقسيما

---

(۱) وقد أثبتنا بعض هذه المعارضات فى ص « ۱۰٤ »

وتقطيعاً وتبعهم المتنبي فقال :

« اقل انل اقطع احمل عل سل أعد
زد هش بش تفضل ادن سرصل . »

ثم زاد المتنبيُ من هذا وبي حق قال :

« عش ابق اسم اسر قد جد
مرانه جد رف اسربل . »

بيته المعروف . وأحسن لعمرى ابن زيدون فى هذا القسيم، ودافع بالحديث فى صدر القديم، ولو قرع سمع أبى منصور بهذا الشذوذ لما كان عند ابن وسكبير بمذكور ،ولا أعرب بغرائب الصاحب ولا بدائع البديع . ومن شعر أبى الوليد فى النسيب السائر الغريب الطيار المليح الخفيف الروح قوله :

« أما رضاك فشيء ماله ثمن
لو كان ساحبى فى ملكه الزمن . »

وقال من أخرى :

« أنت معنى الضنى وسر الضلوع
وسبيل الهوى وقصد الدموع . »

وقال :

« غريب بأرض الشرق يشكر للصبا
تحملها منى السلام إلى الغرب
وما ضر أنفاس الصبا فى احتمالها
سلام فتى يهديه جسم إلى قلب . »

وهذا منقول من قول العباس بن الأحنف حيث يقول :

« تالله ما شطت نوى ظاعن
سار من العين إلى القلب . »

وقال أبو الوليد من أخرى :

« سأحب أعدائى لأنك منهم
يا من يصح بمقلتيه ويسقم . »

وقال من قصيدة :

« أما فى نسيم الريح عرف معرف
لنا هل لذات الوقف بالجزع موقف . »

وقال أيضاً أبو الوليد من جملة قصيدة :

« يا أيها الملك الذى تدبيره
أضحى لملكة الزمان ملاكا . »

وله من أخرى فى ابن جهور :

« هـذا الصباح على سراك رقيبا
فصلى بفرعك ليلك الغربيبا . »

وقال ابن زيدون أيضاً :

« أما وألحاظ مراض صحاح
تصبى وأعطاف نشاوى صواح . »

وفى بنى جهور يقول عند نكبة بنى ذكوان :

« لولا بنو جهور ما أشرقت همم
عند السوالف فى أجيادها تلع . »

قوله فى هـذه القصيدة إن السيوف إذا ما طاب جوهرها فى أول الطبع لم يعلق بها الطبع ، ينظر بلحظ مريب إلى قول حبيب :

« والسيف مالم يلف فيه صيقل
من سنخه لم ينتفع بصقال . »

وله من أخرى يهنئُ المعتضد بن عباد بهزيمة ابنه اسماعيل لابن الأفطس وقتل ولد إسحاق بن عبدالله فى تلك الحرب :

« ليهن الهدى إنجاح سعيك فى العدا
وإن راح صنع الله نحوك واغتدى . »

وفاة ابن زيدون

ومما يتعلق بذكر وفاة ذى الوزارتين رحمة الله عليه فصل من تاريخ الشيخ أبى مروان بن حيان رأيت إثباته لنبل مساقه ، وحسن اتساقه . يقول فيه ، وفى يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة اثنين وستين وأربعمائة سار الحاجب سراج الدولة عباد بن محمد إلى إشبيلية الحضرة الأثيرة لمطالعتها ، وتأنيس أهلها من وحشة خامرت عامتهم من أهل عدوان رحل منهم على يهودى جاه(١) لأمر جهة السوق عنـدهم ، فزعم أنه سب الشريعة فطش به المسلم وسط السوق وجرحه وحرك عليه العامة ، فقبض عليه صاحب المدينة بها عبد الله بن سلام واعتقله فكان لعامة الناس فى حبسه كلام وإكثار خشن ناله ، فخاطب السلطان بقرطبة يعرفه ما كان منه ويستأمره فى شأنه ، فجعل إنفاذ ولده الحاجب سراج الدولة إلى اشبيلية فى جيش

(١) فى القطعة التالية كثير من الاضطراب وقد أثبتناها كما

كثيف من نخبة غلمانه ووجوه رجاله لمشارفة القصة والاحتياط على العامة، فغدوا معه وسط هذا اليوم وأنفذ معه ذا الوزارتين أبا الوليد بن زيدون أحد الثلاثة أكابر وزرائه المتناة وزارتهم عمد دولته ألزمه النفوذ مع الحاجب على بقية وعك متألماً منه ولم يعذره فى التوقف لأجله ، فمضى لطيته مساقا إلى منيته وخلف ولده أبا بكر الفذ الوزارة المرتسمة بالكتابة ، ورآه سادا مكانه بالحضرة ، فأقر فيها أياما ، ثم أمر بالمسير وراء والده لأمر كلفه أعجل بالانطلاق له ، فقضى نحبه غداة يوم السبت لثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وستين بعدها ، فخلت منهم منازلهم بقرطبة وصيرت إلى سواهم ، فتحدث الناس بسبق مكان الأدب ابن زيدون لدى السلطان وإن استمساكه لعلى مرتبة بعدمختصه المعتمد بالله . كان من المعتمد على الله رعاية لخصوصية أبيه به يعص باستمرارها تقناه المختصان به الحظيان لديه المستهمان لخاصته ابن مرتين وابن عمار إلى أن عملا فى إبعاده وإبعاد ابنه الرقيب بعده وأمضى حلمه ، فعندها استساغا غصته ، واستهملا مكانه ، واحتويا على خاصة السلطان ، وتدبير دولته ، ولكل دولة رجال ، ولكل مكتسب إبدال ، ولم يطل الأمد لابن زيدون بعد لحاق ابنه به ، ووحدانه إياه متزايدا فى مرضه ، نازعا عن الآفة على جهده فى استدعائها على انتهاء المدة ، وانتهاك القوة ، فاستقر به وجعه إلى أن قضى نحبه ، وهلك بدار هجرته اشبيلية صدر رجب سنة ثلاث وستين ، ودفن بها مشهودا مفتقدا ، واحتوى ترابها عليه ، فيابعد ما بين قبره وقبرأبيه لديها رحمة الله عليهما فقدتولى من أبى الوليد كهل لن يخلف الدهر مثله جمالاو بيانا وبراعة وسلطانا وظرفا وحلولا من مراتب البلاغة نظما ونثرا بمرقبة لم يخلف لها بعده عاطيا بقرانه بين الكلامين وبراعة فى الفنين إلا أن يكون عند أولى التحقيق والتحصيل فى النظم أمد طلفاء، واحث عنقاء، فلا يلحقه فيه تقصير ولا يخشى رهقا شهوده فى الفنين عدول مقانع حضور عند أهل المعرفة ، ولما اتصل خبر هلكه بعشيرته أهل قرطبة شيعوه وبكوا لفقده وحزنوا عليه، إذ كان منهم متعصبا له، هاويا إليهم، حدبا عليهم وليجة خير بينهم وبين سلطانهم الحديث الولاية ، فصار مصابه كفا فيه من تأميلهم والبقاء لمن تمرد به وحده لارب غيره ولاحرم إذا أعز الله إخوانه بابتدار بقاء فتاه الندب أبى بكر ولده ساد أمثله ساميا مسماه عائطا عداه عاطيا منتهاه بأبوة صدق يجرى إلى العلى بضيفه من سماحة ودماثة وحصافة ونزاهة ومعرفة ووفور حظ من أدب بلاغة وكتابة وشركة فى التعاليم العلمية واشتداد فى رعاية متقادم الذمة لم يفقد إخوان أبيه معها إلا غيبته خلال حركى حاله عما قليل بعد أبيه عند سلطانه قسطاس السياسة فاستبصر فى استحصاره وأدناه من احتبائه ورقاه فى مراتب والده منقلا له فى درجاتها راضيا بلاءه فيما ناطه به منها حتى فرع دروتها عما قليل فأحظاه بالوزارة وصيره وزيرا لحضرته الأثيرة اشبيلية، وحمله أعاظم خططها العلية معاطس التناوس من قوام المملكة خطة ولاية المدينة وواتاه الزمان ، والله يؤتى فضله من يشاء له الفضل والامتنان .

وقال :

« لا طار لى حظ إلى غاية
إن لم أكن منك مريش الجناح
وعتباك بعد العتب أمنية
مالى على الدهر سواها اقتراح
لم يثنى عن أمل ما جرى
قد يرتع الخرق وتؤسى الجراح
فاحهد بحمى الرأى عمن يريح
منه العدا بكل شاكي السلاح
واشفع فللشافع نعمى بما
تمر من عقد وثيق النواح
إن سحاب الأفق منها الحيا
والحمد فى تأليفها للرياح . »

وكان القاضى أبو بكر بن ذكوان أجل من اشتمل عليه أوان مجدا وشرفا ونفساً فى العلم وتطرفا مع دعابة حين خلواته تحل حبى المحتبى ورفاقه عند نشواته كالتنوخى والمهلبى، فإذا أصبحوا بكر أبوبكر إلى مصادرة ما يتجه عليه الحكم ومواجهته وأذكر

ما كان عليه من فكاهته فكأنه فى بردية الامام وكأنه وقار بديل أوشهام مع عدله فى قضائه وإنفاذ الحكم بمقتضى الحق وإمضائه حتى إذا راح الرواح عادوا إلى القصف وتجاروا فى ميدانهم كل وصف إلى أن اختلس أبو بكر منها وتقلص ذيل مؤانسته عنها ، فاعتاض عنه بسواه وأفاضا فيما كانوا فيه وما تمدياه ، واتفق أن مر يوما بقبره فى لمة من إخوانه وجماعة من عمار ميدانه فعطفوا عليه مسلمين ووقفوا عليه متألمين ، فقال أبو الوليد :

« يا قبره العطر الثرى لا سعدن
حلو من الفتيان فيك حلال »

وله :

« على داره الشرق منى تحية
ركت وعلى وادى العقيق سلام »

وله :

« خليلى لافطر يسر ولا أضحى
فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى »

وله يرثى :

« أعباد يا أوفى الملوك لقد عدا
عليك زمان من سجيته الغدر . »

ونلمع من خبر هذه الواقعة بلمحة . قال أبو مروان فى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة أوقع ابن عباد بابن الأفطس إلى جنب يابرة ، وكان سبب هذه الحرب أن فتح ابن يحيى صاحب لبلة يومئذ خليفة ابن الأفطس والى آل عباد للضرورة وكاشعه ابن الأفطس وخانه فيما كان ائتمنه عليه من ماله الصامت عند ما حمله إليه وديعة عند تورطه فى حرب ابن عباد قبل فانبثت بينهما العصمة ، وأرسل ابن الأفطس فى ذلك الوقت خيله للضرب على ابن يحيى فاستغاث عباد فأرسل إليه خيلا منتقاة فلحقت الخيل الأفطسية وهى قد شنت الغارة على لبلة ، فكرت عليهم إذ كانوا ضعفهم واسترسلوا فى اتباع العباديين ولا يشعرون ، فإذا بعباد بحملته فى كمين قد خرج أثرهم فدهشوا وولوا الأدبار ، فركبهم السيف ، وبذل عباد المال فى رؤوسهم ، وكانت ثقاة خيل ابن الأفطس وأبطال رجاله فخر لعباد من رؤوسهم مائة وخمسين رأساً ومن خيلهم مثلها فقص جناح قرنه وأفنى حماة رجاله ثم إن عباد أثر ذلك جمع حلفاء خيله وقود عليها ابنه إسماعيل مع وزيره ابن سلام ، وخرج نحو بلاد ابن الأفطس يابرة وقد واستدعى أيضاً ابن الأفطس حليفته إسحاق بن عبد الله فلحقت به خيله مع ابنه أبى العر سد أن جمع ابن الأفطس بقايا جيشه من هزيمتهم المتقدمة الذكر ، وأخرج كل من قدر على ركوب دابة من البياض ببلده وحشد من رجال البوادى بعمله خلقاً كثيراً وأقبل بجمعه هذا المنحوب ليدفع خيل ابن عباد عن بلده يابرة ، وقد كان برابرة خليفته إسحاق فى عسكره قالوا له لا تلقهم فلست تعرف قدر من زحف نحوك ونحن رأيناهم وسمعنا بجمعهم بإشبيلية فلم يسمع منهم ومضى ، فالتقى الفريقان من غير نزول ولا تعبئة فاختلطوا واجتلدوا مليا فخفق العاديون الضراب ، وتاهوا الشدات فحاد البرابرة عند أصحاب اسحاق ، وانهزم ابن الأفطس وحمل السيف على جميع من معه ، فاستأصلهم القتل وقتل ولد اسحاق وحز رأسه وبعث إلى إشبيلية مع رأس ابن عم ابن الأفطس صاحب يابرة يدعى عبيد الله الحرار ونجا ابن الأفطس فى خيله إلى يابرة . قال أبو مروان وأقل ما سمعت فى إحصاء قتلى هذه الوقيعة ثلاثة آلاف فأزيد وأخبرنى من أثق به أن بطليوس بقيت خالية الدكاكين والأسواق من استئصال القتل لأهلها فى وقعة ابن عباد هذه بفتيان أعمار الناء الشيوخ الكهول الذين أصيبوا يومئذ فاستدلت على بشو المصيبة ، وجزع إسحاق بن عبد الله بمصاب ابنه ولم يستحر لصده عباد فى طلب رأس ابنه ، فإن عباداً أضافه إلى رأس جده محمد بن عبد الله بإشبيلية انتهى كلام ابن حيان .

قال ابن بسام ولم يزل الرأسان عند آل عباد مع عدة رؤوس أهدتها الفتنة المبيرة حتى فتحت إشبيلية على الأمير الأجل سير بن أبى بكر فجىء بجوالق مقفل مختوم عليه، فأمر بفتحه، لايشك أنه مال أو ذخيرة فاذا هو مملوء

من الرؤوس فأعظم ذلك وهاله ، وأمر برفع كل رأس منها إلى من بقي من عقبه بالحضرة . حدثني من رأى رأس يحيى بن علي الحمودي ثابت الرسم غير متكلم الشكل فدفع إلى بعض ولده فدفنه .

وقال ابن زيدون في ابن جهور من قصيدة أولها :

«أجل إن ليلى حيث أحياؤها الأزد
مهاة حمتها في مرابضها الأسد »

وكان ابن جهور يومئذ كسر دنان الخمر ، وكان أيضاً يومئذ لمثل ذلك عبد الرحمن بن سعد المصفر بشعر أوله :

«كسرت لجبر الدين أوعيــة الخمر
فأحرزت حصل السبق في الكسر والجبر
عمدت إلى الشر الذي جمعوا
ففرقت منه فاسترحنا من الشر .»

في أبيات غير هــذه استبردت جملتها وإنما ذهب إلى عكس قول من تقدم من أعيان الشعراء من ذم صب الشراب ، ومن أشهره قول بكر بن حارثة الكوفي وقد رأى من سلطان وقته مثل ذلك فقال :

« يا لقومي لقد جنى السلطان
لا بكر للذي أهان الهوان .» الخ

وبلغني أن الجاحظ أنشد هذه الأبيات ، فقال المنشد من حق الفتوة أن أكتبها قائماً وما أقدر إلا أن يعمدني للعرس به ، قال المحدث فأعمـدته ، وقام يكتبها ، وكان بكر بن حارثة هـذا مولى بني أسد طيب الشعر خليعا ماجنا ، وكان يألف هدهداً يأتيه كل يوم في موضع يعينه شرابا فلا يزال يشرب على صــــوته إلى أن يسكر ، وكان أيضاً يهوى غلاما نصرانيا وهو القائل :

« زناره في خصره معقود
كأنه من كبدي مقدود . »

وبكر القائل :

« قلبي إلى ما ضرني داعي
يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا
كان عدوي بين أضلاعي . »

ولصالح ابن عبيد في ذلك :

« ليس همي ولا طويل انتحابي
لمشيب أزال عني شــبابي . »

رحم وقال ابن زيدون يرثي :

« انظر لحال السرو كيف تحال
ولدولة العلياء كيف تدال . »

وله من أخرى مما وجدته بخط ابن حيان يرثي أبا الحزم ابن جهور :

« ألم تر أن الشمس قد ضمها القبر
وإن قد كفانا فقدنا القمر البدر . »

وله من أخرى في هذا المعروض ، وقد تكرر فيها بعض أبيات القصيدة الأولى ورثى بها أم أبي الوليد ابن جهور يقول فيها :

«هو الدهر ، فاصبر للذي أحدث الدهر
فمن شيم الأحرار ـ في مثلها ـ الصبر .»

إلى أبيات غير هذه من سائر أبيات القصيدة استمر فيها بالتقديم والتأخير والتأنيث والتـذكير رثى بها آخرا عبادا المعتضد ، وجعل أول قصيدته قوله :

«هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهر . »

ثم أتبعه بقوله :

« حياة الورى نهج إلى الموت مهيع
لهم فيه إيضاع كما يوضع السفر .»

يتلاعب أبو الوليد بهذه القصيدة تلاعب الحطيئة بنفسه ، ويتصرف تصرف أبي حنيفة في مذهبه ، فأنث وذكر وقدم فيه وأخر . قال أبو العلاء :

« رب لحد قد صار لحدا مرارا
ضاحكا من تزاحم الأضداد . »

وبلغني أنه وجد لابن زيدون إثر موت عباد شعر يقول فيه :

« لقـــد سرنا أن النعي موكل
بطاغيـــة قد حم منــــه حمام
تجانب صوب المزن عن ذلك الصدى
ومر عليه الغيث وهو جهام . »

وقال يخاطب الوزير أبا عامر بن عبـدوس من قصيدة ...

« أثرت هزبر الشرى إذ ربض
ونبهته إذ هدا فاغتمض . »

ومما أغفله ابن بسام من نسيب أبى الوليد الصحيح الأقسام ، النازح عن الاطماع والأوهام ، المصدق قول الجفرية فيما يعص من الإلهام قوله :

« لئن قصر اليأس فيك الأمل
وحال تجنيك دون الحيل . »

وقوله أيضاً :

« فديتك ليس لى قلب فأسلو
ولا نفس فآنف إن جفيت . »

وقوله :

« أنى أضيع عهدك
أم كيف أخلف وعدك ؟ »

ولأبى بكر بن عمار يخاطب أبا الوليد بن زيدون رحمهما الله :

« كيف اعتززت على الدليل
وقطعت أسباب الوصول
وقتلتنى ، وزعمت أن
الذنب منى للقتيل
وعليك عاهدت العدا
وإليك ملت عن العذول
يا ماثلى ومدامعى
فى صفحتى أهدى دليل
ما أليق الفعل الجميـ
ـل بذلك الوجه الجميل
فبرزت فى خلق الكريـ
ـم وراءه خلق البخيل
ودعوتنى حق أجبـ
ـتك ثمّ حدت عن السبيل
جد بالقليل فإن نفـ
ـسى منك تقنع بالقليل
واذكر حلى زمن قطعنا
بصافية شمول
إذ نسحب الأذيال ما
بين الخليج إلى النخيل
ونحل من سيف الغدير
بفيئة الظل الظليل
والروض ممطور تنم
(م) عليه أنفاس القبول
والشمس ترمقها خلا
ل الغيم عن طرف كليل
اذان يحدو الرعد من
ورق السحائب كالحمول
ويهز كف البرق فى الـ
آفاق مرهفة النصول
زمن ستذكيه الحما
م منى وتذهل عن هديل
يا برق أودية المنى (١)
تفديك نفسى من رسول
عرج بشلب محييا
ما شئت من تلك الطلول
والمع على شرفات حمـ
ـص قرارة الشرف الأثيل
فإذا جلاك أبو الوليـ
ـد بناظر اليقظ النبيل .
فاقرأه من قبلى سلا
ما يقتضى حسن القبول
يا غرّة الزمن البهيـ
(م) وعزّة الأدب الذليل
ومحكم العلم القصـ
ـير على شبا الرمح الطويل
أعلمت أنى خادم
ذكراك بالشكر الجميل
لم أستحل عما عهد
ت مع الزمان المستحيل
شفع عنايتك الجليـ
ـلة بى لدى الملك الجليل

(١) وفى الأصل : أودية الهوى

ولئن أجبت لراغب
وأقلت عثرة مستقيل
يا أنس بدر فى الظلا
م وبدر ظل فى المقيل
فلكم أتيت بمثلها
وهى الصنيعة فى مثيل.»

ولابن زيدون يتغزل فى ولادة :

« يا نازحا وضمير القلب مثواه
أنستك دنياك عبداً أنت مولاه . »

وله يتشوق إليها :

«غريب بأرض الشرق يشكر للصبا
تحملها منه السلام إلى الغرب
وما ضر أنفاس الصبا فى احتمالها
سلام فتى يهديه جسم إلى قلب . »

وله :

« أيوحشنى الزمان وأنت أنسى
ويظلمنى النهار وأنت شمسى . »

وله :

« ولقد شكوتك بالضمير إلى الهوى
ودعوت من حنق عليك وأمنا . »

وله يتغزل ويعاتب ويستعطف ويستنزل :

« يا مستخفاً بعاشقيه ومستغشا لنا محبيه . »

وكتب عن المعتضد إلى صهره الموفق أبى الجيوش ابن مجاهد :

«عرفت عرف الصبا إذ هب عاطره
من أفق من أنا فى قلبي أشاطره
أراد تجديد ذكراه على شحط
وما تيقن أن الدهر ذاكره
ناى المزار به والدار دانية
يا حبذا الفال لو صحت زواجره
خلى أبا الجيش هل يقضى اللقاء لنا
فيشتفى منك قلب أنت هاجره . »

قال ابن بسام : وأما ولادة التى ذكرها ابن زيدون فى شعره فإنها بنت محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله الناصرى ، وكانت فى نساء زمانها واحدة أو أنها حضورشاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء على حلاوة عشرتها ، إلى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم انساب ، وطهارة أثواب ، على أنها سمح الله لها ، وتغمد زللها، طرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، لقلة مبالاتها، ومجاهرتها بلذاتها، كتبت — زعموا — على أحد عاتقى ثوبها :

« أنا والله أصلح للمعالى
وأمشى مشيتى وأتيه تيها . »

وكتبت على الآخر :

« أمكن عاشقى من لثم خدى
وأعطى قبلتى ، من يشتهيها . »

هكذا وجدت هذا الخبر ، وابرأ إلى الله من عهدة ناقليه ، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه، ولها مع أبى الوليد أخبار طوال وقصار يفوت إحصاؤها ويشق استقصاؤها — وأما ذكاء خاطرها ، وغرارة نوادرها ، فآية من آيات فاطرها — مرت بالوزير أبى عامر بن عبدوس المتقدم الذكر ، وكان بقرطبة أحد أعيان المصر ، ويعص من هذى باسمها ، وقصر على حكمها ، وأمام داره بركة تتولد على كثرة الأمطار، وربما استمدت بشىء مما هنالك من الأقذار وقد نشر أبو عامر كميه ، ونظر فى عطفيه ، وحشر أعوانه إليه ، فقالت له أبا عامر :

« أنت الخصيب وهذه مصر
فتدفقا ، فكلاكما بحر . »

فتركته لا يحير حرفا ، ولا يرد طرفا ، وطال عمرها وعمر أبى عامر حتى أربيا على الثمانين وهو لا يدع مراسلتها ، ولا يغفل مواصلتها — وتحيف هذا الدهر المستطيل حال ولادة ، فكان يحمل كلها ، ويرفع ظلها ، على خوف واديه ، وخمود روائحه وغواديه ، أثراجيلا أبقاه، وطلقا من الظرف جرى إليه حتى استوفاه — وكانت — زعموا — تعرض أبياتا من الشعر ، وقد قرأت أشياء منه فى بعض التعاليق أضربت عن ذكره ، وطويته بأسره ، لأن أكثره

ليس له عنــدى إعادة ولا إبداء ، ولا من كتابى فى أرض ولا سماء . ونشــير هنا بشىء من أخبار أبيها المستكفى مدا لأطناب الآداب ، ووفاء بشرط الكتاب ، ننسخته من كتاب ابن حيان :
هو محمد بن عبد الرحمن بن عبيدالناصرى ، بويع يوم قتل عبد الرحمن المستظهر يوم السبت لثلاث خلون من ذى القعدة ســنة أربع عشرة وأربعمائة ، فتسمى بالمستكفى بالله ، اسما ذكر له فاختاره لنفسه ، وحكم سوء الاتفاق به لمشاكلته لعبد الله المستكفى العباسى أول من تسمى به فى اســمه ووهنه وتخلفه وضعفه بل كان هــذا زائداً عليه مقصراً عن خلال ملوكية كانت فى المستكفى سميه لم يحسنها محمد هــذا لفرط تخلفه على اشتباههما فى سائر ذلك كله من نوبتهما بالفتنة ، واستظهارهما بالفسقة ، واعتداء كل منهما على ابن عم ذى رحم ماســة ، وتوسط كل منهما فى شأنه بامرأة خبيثة ، فلذلك حسناء الشيرازية ، ولهذا ابنة عسكرى المروزية ، فأصبحا فى ذلك على فرط التباين عبرة ، وقال صاحب سقط العروس : ومن عجب اتفاقهما فى الأخلاق ، وفى العمر واللقب وأن كل واحد منهما خلع عن الأمر ، وكل واحد منهما تركه أبوه صغيراً ، ولم يكن محمد من هــذا الأمر فى ورد ولا صدر ، إنما أرسله الله على الأمة محنة وبلية ، إذ كان منذ عرف غفلا عطلا منقطعاً إلى البطالة ، مجبولا على الجهالة ، عاطلا عن كل خلة تدل على فضيلة ، عضته الفتنة فأملق حتى اســتجاز طلب الصدقة ، وهان حتى أهانه أهله على ما لهم من الهمة وأبته — أيام الحسف بأهل بيته فى الدولة الحمودية ، ولم يكن ممن لحقه الاعتقال منهم لركاكته — يقصد أهل الفلاحة يومئذ بقرطبــة أوان ضمهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تكايا ومخاطبــة ، وبالجملــة فى تلخيص التعريف بأمره أن أجمع أهل التحصيل أنه لم يجلس فى الإمارة منذ تلك الفتنة أسقط منه ولا أنقص إذ لم يزل معروفاً بالتخلف والركاكة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سقيم السر والعلانية ، أسير الشهوة ، عاهر الخلوة ضــد القتيله عبد الرحمن المســتظهر فى الأدب والمعرفة ، وكان افتتح هــذه السنة المؤرّخة القاسم بن حمود بخلافته وآخرها محمد هذا المذكور وكان بينهما عبد الرحمن المستظهر فتصرمت تلك السنة المنكرة على ثلاثة خلفاء ، وهذا من غريب الأنباء ولله البقاء السرمدى ، وقلد محمد هذا الأمر ولم يكن من أهله ، فتاق جميع الناس بالإيباس واستمالهم بالأهوية ، ورأى أن المال عزيز ، وأن البشر رخيص يقوم مقامه ، وينوب منابه ، وكان يقول للناس أجمعين ، ارتعوا كيف شئتم ، وارتسموا بما أحببتم من الخطط فتسمى بالوزارة فى أيامه مفردة ومثناة أراذل الدائرة ، وأخابث النظار فضلا عن زعانف الكتاب والخدمة ، وأما الشرطة العليا ومادونها من رفيع المنازل ، فحملها كثير من التجار والعامة ، واشال الناس على ابتغاء هذه المنازل عند السلطان بالطماعية فى كرة الدولة فغشوا بابه ، وعمروا فناءه ، وتعللوا بالمنى ، فلما استبانوا ضعفه رفضوا خططهم ، وتبرأ كثير منهم منها ، وأقسم أنه لم يتقلدها ولا سيما عند تكرر التقسيط عليهم للغرامة عند إلحاح الإضافة ، فجرت لبعضهم عند الانتفاء عن تلك الخطط نوادر ظريفة مضــحكة وانتهى هــذا التنويه العام بهــذا المسلك الهمام إلى أن فصله أيضاً فى طبقات أهل العلم فأسهم متهم الفقهاء فآثر العلية منهم المشاورين أصحاب الصون بالارقاء إلى خطة الوزارة خالطاً لهم فيها بما ذكرناه من زعانف الخدمة وكبار الدائرة ، وجاء فى ذلك بطامة لم تسمع فى الأعصر الخالية فأخطأوا وألحقوا بالدين وصحته ، وطلبوا زيادة المعتلى على العامة ، فافتتنوا بهــذه الخطه وشدوا أيديهم عليها ، وهجروا من خطوتهم فى الخطاب عنها مفرطين بما يعاب من ذلك إلى أن مضوا لسبيلهم ، وارتقى للمســتكفى أيضاً بكثير ممن يحمل المحابر ، ويدرس مسائل الدفاتر ، من أصاغر الطبقة الفقهية إلى ما بلغت عليهم من منزلة الشورى ، فوسم كافتهم بوسم الفتوى فأسرف فى ذلك حتى بلغ عددهم

بقرطبة يومئذ الأربعين ، وذلك مما لم يعهد فى الغابرين ، وكثر الإرجاف بتغير رجال الدائرة ، فاضطربت قرطبة لكثرة ما فيها من المردة ، فقبض على جماعة من بنى عمه وحاشيته منهم علىّ بن أحمد ابن حزم وابن عمه عبد الوهاب المتقدمى الذكر سجنوا بالمطبق ، ثم عاجل المستكفى ابن عمه عبدالعزيز العراقى فخنق وأمسى ميتاً ونعاه إلى الناس فلم يسهل عليهم اغتياله ، وفى أيام المستكفى هذا استؤصل بقية قصور جده الناصر بالخراب ، وطمست أعلام قصور الزهراء ، واقتلع نحاس الأبواب ورصاص القنى وغير ذلك من الآلات ، وطوى بخرابها بساط الدنيا ، وتغير حسنها إذ كانت له جنة الأرض فعدا عليها قبل تمام المدة من كان أضعف قوة من فارة المسك ، وأوهن بيتا من بقة النمرود ، والله يسلط جنوده على من يشاء له العزّة والجبروت ، فلما كانت سنة ست عشرة وتحرك يحيى بن حمود إلى قرطبة ، وضعف أمر المستكفى ، اتفق الملأ على خلعه ودخلوا عليه وقالوا : لقد علم الله اجتهادنا فى تثبيتك ، فاعتاص ذلك علينا ، واضطررنا إلى مقاربة عدونا وهانحن خارجون إليه ، ولا ندرى ما يحدث علينا بعدنا فإن تك لك الكرة فلا تيأس ، فمع اليوم غد ، فأجمل الرد ، واستشعر الذلّ ، واهتبل الفرة ، وعزم على الهرب ، فخرج على وجهه وقد لبس ثياب الغانيات ، متنقباً بين امرأتين لم يميز منهن لمراسه على التخنيث ، وخرج عن قرطبة ، فمات بإقليش ، فكانت دولته تسعة عشر شهراً صعاباً نكدات سوداً مشوّهات مشئومات انتهى ما لخصته من كلام ابن حيان . قال أبو الوليد : كنت فى أيام الشباب ، وغمرة التصابى هائماً بغادة تسمى ولادة ، فلما قدم اللقاء ، وساعد القضاء كتبت إلىّ :

« ترقب إذا جن الظلام زيارتى
فإنى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك مالو كان بالبدر مابدا
وبالشمس لم تطلع وبالنجم لم يسر »

فلما طوى النهار كافوره ، ونشر عنبره ، أقبلت بقد كالقضيب ، وردف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الخجل ، فملنا إلى روض مدبج ، وماء سجسج ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودرّ الطلّ منثور ، وجيب الراح مزرور فلما شببنا نارها ، وأدركت فينا ثارها ، باح كل منا بحبه ، وشكا إليه ما نقلبه ، وبتنا بليلة نجنى أقحوان الثغور ، ونقطف رمان الصدور ، فلما انفصلنا صباحاً ، أنشدتها ارتياحاً :

« ودع الصبر محب ودعك
ذائعاً من سرّه ما استودعك . »

قال أبو الوليد وكانت عتبة قد غنتنا :

« أحبتنا إنى بلغت مؤملى
وساعدنى دهرى وواصلنى حبى
وجاء يهنينى البشير بقربه
فأعطيته نفسى ، وزدت له قلبى . »

سألها الإعادة بغير أمر ولادة ، فخفا منها برق التبسم ، وبدا عارض التجهم ، وعاتبت عتبة :

« وما ضربت عتبى لذنب أتت به
ولكنما ولادة اشتهت ضربى
فقامت تجر الذيل عاثرة به
وتمسح طل الدمع بالعنم الرطب . »

فبتنا على العتاب ، من غير اصطحاب ، ودم المدام مسفوك ، وما بدا للهو متروك ، فلما قامت خطباء الأطيار ، على منابر الأشجار ، وانفت من الاعتراف وباكرت إلى الانصراف ، وشت بمسك الأنقاس على كافور الاطراس :

« لو كنت تنصف فى الهوى مابيننا
لم تهو جاريتى ولم تتخير
وتركت غصناً مثمراً بجماله
وجنحت للغصن الذى لم يثمر
ولقد علمت بأننى بدر السما
لكن دهيت لشقوتى بالمشترى . »

صفحات من كتاب نفح الطيب

وقد صنف أبو الوليد بن زيدون كتاب (التبيين) فى خلفاء بنى أمية بالأندلس على منزع كتاب (اليقين) فى خلفاء الشرق للمسعودى .

ومثل ابن زيدون فى قصيدته التى لم يقل مع طولها فى النسيب أرق منها وهى التى يقول فيها :

« كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
والسعد قدغض من أجفان واشينا
سران فى خاطر الظلماء يكتمنا
حتى يكاد لسان الصبح يفشينا . »

وهل نشأ عندكم من النساء مثل ولادة المروانية التى تقول مداعبة للوزير ابن زيدون ، وكان له غلام اسمه علىّ :

« ما لابن زيدون على فضله
يعتابنى ظلماً ولا ذنب لى
يلحظنى شزراً إذا جئته
كأنما جئت لأخصى علىّ . »

ومن حكايات أهل الأندلس فى خلع العذار والطرب والطرف وغير ذلك كسرعة الارتجال ما حكاه صاحب (بدائع البدائه) قال :

أخبرنى من أثق به بما هذا معناه —

قال : « خرج الوزير أبو بكر بن عمار والوزير أبو الوليد بن زيدون ، ومعهما الوزير ابن خلدون من إشبيلية إلى منظرة لبنى عباد لموضع يقال له (الفنت) تحف به مروج مشرقة الأنوار ، متنسمة الأنجاد والأغوار ، متبسمة عن ثغور النوار ، فى زمان ربيع سقت الأرض السحب فيه بوسميها ووليها وجلتها فى زاهر ملبسها وباهر حليها ، وأرداف الربى قد تأزرت بالأزر الخضر من نباتها وأجياد الجداول قد نظم النوار قلائده حول لباتها ، ومجامر الزهر تعطر أردية النسائم عند هباتها ، وهنالك من البهار مايزرى على مداهن النضار ، ومن النرجس الريان ، مايهزأ بنواعس الأجفان ، وقد نووا الانفراد للهو والطرب والتنزه فى روضى النبات والأدب ، وبعثوا صاحباً لهم يسمى (خليفة) هو قوام لذتهم ونظام مسرتهم ليأتيهم بنبيذ يذهبون الهم بذهبه فى لجين زجاجه ، ويرمونه منها بما يقتضى بتحريكه للهرب عن القلوب وإزعاجه ، وجلسوا لانتظاره ، وترقب عوده على آثاره ، فلما بصروا به مقبلا من أول الفج بادروا إلى لقائه ، وسارعوا إلى نحوه وتلقائه ، واتفق أن فارساً من الجند ركض فرسه فصدمه ، ووطأ عليه فهشم عظمه ، وأجرى دمه وكسر قمقام النبيذ الذى كان معه ، وفرق من شملهم ما كان الدهر جمعه ، ومضى على غلوائه راكضاً حتى خفى عن العين خائفاً من متعلق به يحين بتلفه الحين ، وحين وصل الوزراء إليه تأسفوا عليه ، وأفاضوا فى ذكر الزمان وعدوانه والخطب وألوانه ، ودخوله بطوارق المضرات على تمام المسرات وتكديره الأوقات المنعمات بالآفات المؤلمات ، فقال ابن زيدون :

« ألهو والحتوف بنا مطيفه
وتأمن والمنون لنا مخيفه . »

فقال ابن خلدون :

« وفى يوم وما أدراك يوم
مضى قمقامنا ومضى خليفه . »

فقال ابن عمار :

« هما غاراتنا راح وروح
تكسرتا فاشقاق وخيفه . »

وكتب الوزير الشهير أبو خالد ابن زيدون إلى الوزير أبى عبد الله بن عبد العزيز أثر صدوره عن بلنسية .

« راحت فصح بها السقيم . . . . . » الأبيات

ولما ورد إشبيلية نزل بدار الوزير الكاتب ذى

الوزارتين .أبي عامر بن مسلمة ، وهو يبني مجلساً ، وصنع أبياتاً كتبت فيه :

« عمر من يعمر دا المجلسا . . . . . . » الأبيات

وقال فيه أيضاً :

« ادوها فقد حسن المجلس . . . . » الأبيات

وكتب إلى الوزير أبي المعالي المهلب بن عامر يستدعيه :

«طابت لنا ليلتنا الخالية . . . . . » الأبيات

وكتب إليه ذو الوزارتين أبو عامر المذكور معاتباً :

« تباعدنا على قرب الجوار
كأنا صدنا شحط المرار
تطلع لى هلال الهجر بدرا
وصار هلال وصلك فى سرار
وشاع شنيع قطعك لى بوصلى
فهلا كان ذلك فى استتار
أيجمل أن ترى عنى صدورا
فأصبح مولعا دون اصطبار
وكنت أريد سمعك من عتابى
ولكن عاقنى فرط الحمار
فراع مودتى واحفظ جوارى
فإن الله أوصى بالجوار
وزدنى منعما من غير أمر
وآنس موحشاً من عقر دار . »

وكتب إليه ابن زيدون :

«هواى وإن تناءت عنك دارى . . . » الأبيات

وكان أبو المطاف إد ورد إشبيلية رسولا قد سأله أن يريه شيئاً من شعره فمطله به حتى كتب إليه شعراً يستبطئه ، فأجابه ابن زيدون فى العروض والقافية :

« أفدتنى من نفائس الدرر . . . . . . » الأبيات

وهى أكثر مما ذكر . وكتب (أعنى ذا الوزارتين ابن زيدون) إلى ولادة :

«أضحى التنائى بديلا من تدانينا . . . . » الأبيات

وإنما ذكرت هذه القصيدة مع طولها لبراعتها ، ولأن كثيراً من الناس لايذكر جملتها ، ويظن أن ما فى القلائد وغيرها منها هو جميعها وليس كذلك

فهى وإن اشتهرت بالمشرق والمغرب لم يذكر جملتها إلا القليل ، وقد كنت وقفت بالمغرب على تسديس لها لبعض علماء المغرب ولم يحضرنى منها الآن إلا قوله فى المطلع :

« ما للعيون بسهم الغنج تصمينا
وعن قطاف جنى الأعطاف تحمينا
تألف كان يحيينا ويضنيا
تمزق عاث فى شمل المحبينا
أضحى الفراق بديلا . . . . » الخ

وما أحسن قوله فى هذا التسديس :

« ما للأحبة دانوا بالنوى ورأوا
تعويض عهد اللقا بالبعد حين نأوا
رعاهم الله كانوا للعهود رعوا
فغيرتهم وشاة بالفساد سعوا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا
بأن نغص فقال الدهر آمينا . »

وقد ذكرنا فى الباب الرابع موشحة ابن الوكيل التى وطأ فيها لنونية ابن زيدون هذه فلتراجع — وقال ذو الوزارتين ابن زيدون يتغزل :

« وضح الصبح المبين . . . . » الأبيات

ومحاسن ابن زيدون كثيرة وقد ذكرنا منها فى غير هذا المحل جملة . وسألت جارية من جوارى الأندلس ذا الوزارتين أبا الوليد بن زيدون أن يزيد على بيت أنشدته إياه وهو :

« يامعطشى عن وصال كنت وارده
هل منك لى غلة أن صحت واعطشى . »

وكانت الجارية المذكورة تتعشق فتى قرشياً والوزير يعلم ذلك وهى لاتعلم أنه يعلم ، فقال :

« كسوتنى من ثياب السقم أسبغها ظلما
وصيرت من لحف الضنا فرشى
. . . . » الأبيات

وحكى أن الوزير أبا الوليد بن زيدون توفيت ابنته وبعد الفراغ من دفنها وقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليتشكر لهم ، فقيل إنه ما أعاد فى ذلك الوقت عبارة قالها لأحد .

ابن جهـــور

قال فى المطمح :

الوزير الأجلّ أبو الحزم جهور بن محمد ابن جهور ، و بنو جهور أهل بيت وزارة اشتهروا كاشتهار ابن هبيرة فى فزاره ، وأبو الحزم هـذا أمجدهم فى المكرمات ، وأنجدهم فى الملمات ــ ركب متون الفنون فراضها ، ووقع فى بحور المحن فخاضها ، منبسط غير منكمش ، لا طائش اللسان ولا رعش ، وقد كان وزّر فى الدولة العامرية فشرفت بجلاله ، واعترفت باستقلاله ، فلما انقرضت ،وعاقت الفتن واعترضت ، تحيز من التدبير مدّتها ، وخلى لأخلافه تدبير الرياسة وشدّتها ، وجعل يقبل مع أولئك الوزراء ويدير غير مظهر للانفراد ، ولا متصرف فى ميدان ذلك الطراد ، إلى أن بلغت الفتنة مداها ، وسوّغت ما شاءت رداها ، وذهب من كان يجد فى الرياسة ويخب ويسعى فى الفتنة، ولما ارتفع الوبال ، وأدبر ذلك الاقبال راسل مستمدّا بهم ومعتمدا على بعضهم تخييلا منه وتمويها وتداهيا على أهل الخلافة وذويها وعرض عليهم تقديم المعتمد هشام وأومض منه لأهل قرطبة برق خلبه يشام ثقة بسرعة التياثها ، وتعجيل انتكاثها ، وأنابوا إلى دعائه ، وأجابوا إلى استدعائه ، وتوجهوا مع ذلك الامام ، وألموا بقرطبة أحسن المام ، فدخلوها بعد فتن كثيرة ، واضطرابات مستثيرة والبلد مقفر ، والجلد مسفر ، فلم يبق غير يسير حتى نبذ واضطرب أمره فخلع ، واختطف من الملك وانتزع ، وانقضت الدولة الأموية، وارتفعت الدولة العلوية ، واستولى على قرطبة عند ذلك أبو الحزم ، ودبرها بالجدّ والعزم ، وضبطها ضبطا آمن حائفها ، ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها ، وخلا له الجوّ فطار ، واقتضى اللبانات والأوطار ، فعادت له قرطبة على أكمل حالتها ،وانجلى به نور جلالتها ، ولم تزل به مشرقة ، وغصون الآمال فيها مورقة الى أن توفى سنة ٤٣٥ فانتقل الأمر الى ابنه أبى الوليد ، واشتمل منه على طارف وتليد ، وكان لأبى الحرم أدب ووقار وحلم سارت بها الأمثال وعلم المثال ، وقد أثبت من شعره ماهو لائق ، وذلك قوله فى تفضيل الورد . .

« الورد أحسن ما رأت عينى وأذ
كى ما سقى ماء السحاب الجائد
خضعت نواوير الرياض لحسنه .
فتذللت تنقاد وهى شواهد
واذا تبدّى الورد فى أغصانه
يزهو فذا ميت وهذا حاسد
وإذا أتى وفد الربيع مبشرا
لطلوع صفحته فنعم الوافد

ليس المبشر كالمبشر باسمه
خبر عليه من النبوّة شاهد
وإذا تعرى الورد من أوراقه
بقيت عوارفه فهنّ خوالد . »

⁂

وقال صاحب كتاب المعجب :

ولما انقطعت دعوة بنى أمية كما ذ كرنا بالأندلس ، ولم يبق من عقبهم من يصلح للامارة ، ولا من تليق به الرياسة استولى على تدبير ملك قرطبة جهور بن محمد بن جهور ، ويكنى أبا الحزم ، وقد تقدّم ذكر نسبه فى ترجمة هشام ، وأبو الحزم هذا قديم الرياسة شريف البيت كان آباؤه وزراء الدولة الحكمية والعامرية ، وهو موصوف بالدهاء ، وبعد الغور ، وحصافة العقل ، وحسن التدبير، ولم يدخل من دهائه فى الفتن الكائنة قبل ذلك وكان يتصاون عنها، ويظهر النزاهة والتدين والعفاف ، فلما خلا له الجوّ وأصفر الفناء ، وأقفر النادى من الرؤساء وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى أمرها ، واضطلع بحمايتها ، ولم ينتقل إلى رتبة الامارة ظاهرا جريا على ما قدّمنا من إظهار سنن العفاف بل دبرها تدبيرا لم يسبق إليه ، وذلك أنه جعل نفسه ممسكا للموضع إلى أن يجىء من يتفق الناس على إمارته فيسلم إليه ذلك ورتب البوّابين والحشم على تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ولم يتحوّل عن داره إليها ، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدى رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم ، وصير أهل الأسواق جندا له وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها ورؤوس الأموال باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون فى كل وقت كيف حفظهم لها ، وفرّق السلاح عليهم، وأمرهم بتفرقته فى الدكاكين والبيوت حتى إذا دهمهم أمر فى ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو دكانه ، وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز ، ويعود المرضى جاريا على طريقة الصالحين ، وهو مع ذلك يدبر الأمور تدبير الملوك المتغلبين ، وكان آمنا وادعا وقرطبة فى أيامه حرما يأمن فيه كل خائف ، واستمرّ أمره على ذلك إلى أن مات فى غرّة صفر سنة ٤٣٥ فكانت مدّة تدبيره منذ استولى إلى أن مات أربع عشرة سنة وأشهرا ، ثم ولى ما كان يتولى من أمر قرطبة بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور ، فجرى فى السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه غير مخل بشىء من ذلك إلى أن مات أبو الوليد المذكور فى سلخ شوّال من سنة ٤٤٣ فغلب عليها بعد أمور جرت — الأمير الملقب بالمأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة فدبرها مدّة يسيرة إلى أن مات ، وخلف فيها بعده من البربر رجل يعرف بابن عكاشة أظن اسمه موسى ، فكان بها إلى أن غلبه عليها وأخرجه منها الأمير الظافر بحول الله أبو القاسم محمد بن

عباد على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .
فهذا آخر أخبار قرطبة وكونها دارا للملك
وبعدغلبة المعتمد عليها صارت تبعا لاشبيلية.

جهور (١)

جهور بن محمد بن جهور بن عبد الله
ابن محمد بن العمر بن يحي بن عبد الغافر بن
أبي عبدة رئيس قرطبة ، يكنى أبا الحزم .
روى عن أبي بكر عباس بن الهمدانى ،
وأبي محمد الأصيلى ، والقاضي أبي عبد الله بن
مفرّج ، وأبي القاسم خلف بن القاسم ،
وأبي يحي زكريا بن الأشج وغيرهم . وسمع
منهم وأخذ العلم عنهم ، وقد أخذ عنه
أبو عبد الله محمد بن عتاب الفقيه ، فقال
حدّثنا ثقة من الشيوخ الأكابر ، وهو يعنى
أبا الحزم هذا ، ثم صار تدبير أهل قرطبة إلى
أبي الحزم هذا فأنفها بالرياسة فيها ، إلى أن
توفى يوم الخميس لسبع بقين من المحرّم من
سنة ٤٣٥ ودفن بداره ، وصلى عليه ابنه
أبو الوليد محمد بن جهور متولى الأمر من
بعده ، وكان سنه يوم وفاته إحدى وسبعين
سنة ، وكان مولده أوّل المحرم سنة ٣٦٤ .

أما قرطبة فاستولى عليها أبو الحسن
جهور بن محمد بن جهور ، وكان من وزراء
الدولة العامرية ، موصوف بالدهاء والعقل ، ولم
يدخل فى شيء من الفتن قبل هذا بل كان
يتصاون عنها ، فلما خلا الجوّ وأمكنته الفرصة
وثب عليها فتولى وقام بحمايتها ، ولم ينتقل
إلى رتبة الأمارة ظاهرا بل رتبها ودبرها تدبيرا
لم يسبق إليه ، وأظهر أنه حام للبلد إلى أن
يجيء من يستحقه ، ورتب البوّابين والحشم
على أبواب قصور الامارة ولم يتحوّل عن
داره إليها ، ودعا ما يتحصل من الأموال
السلطانية بايدى رجال رتبهم له .
وكان جهور يشهد الجنازة ، ويعود المرضى ،
ويحضر الأفراح على طريق الصالحين ، وهو
مع ذلك يدبر الأمور تدبير الملوك ، وكان
مأمون الجانب فأمن الناس فى أيامه ، وبقى
كذلك إلى أن مات سنة خمس وثلاثين
وأربعمائة ، وقام بأمرها بعده أبو الوليد
محمد بن جهور على هذا التدبير إلى أن مات .

بنو عباد

أما أحوال إشبيلية فانها كانت فى طاعة
الفاطميين أعنى علىّ بن حمود ، والقاسم بن
حمود ، ويحي بن علىّ بن حمود أيام كان
الأمر دائرا بينهم على ما تقدّم ذكره . فلما
زحف يحي بن علىّ بالبربر إلى قرطبة وهرب
القاسم بن حمود منها ، وقصد اشبيلية ، وقد
كان ابناه محمد والحسن مقيمين بها أجمع أمر
أهل إشبيلية ، واتفق رأيهم على إخراج محمد
والحسن عنها قبل وصول القاسم أبيهما
فأخرجوهما ، وجاء القاسم فمنعوه دخول البلد
أيضا ، واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع
إليه أمرهم ، وتجتمع به كلمتهم . فتوارد

(١) من كتاب الصلة لابن بشكوال .

اختيارهم بعد محض الرأى وتنقيح التدبير على القاضى أبى القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى لما كانوا يعلمونه من حصافة عقله ، وسعة صدره ، وعلوّ همته ، وحسن تدبيره ، فعرضوا عليه ما رأوه من ذلك ، فتهيب الاستبداد ، وخاف عاقبة الانفراد أوّلا وأبى ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجالا سماهم لهم يكونون له أعوانا ووزراء وشركاء لايقطع أمرا دونهم ، ولا يحدث حدثا إلا بمشورتهم ، وهؤلاء المسمون هم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى ، ومحمد بن يريم الالهانى ، وأبو الأصبغ عيسى حجاج الحضرمى ، وأبو محمد عبد الله بن علىّ الهوزنى و رجال آخرون ذهبت عنى أسماؤهم ولا أعرف قبائلهم و بيوتهم ، ففعلوا ذلك وأجابوه إلى ما أراد ، ولم يزل يدبر أمر إشبيلية ، وهؤلاء المذكورون من وزرائه ، وكان له من الولد إسماعيل وهو الأكبر يكنى أبا الوليد وعباد يكنى أبا عمرو ، فأمّا إسماعيل فخرج إلى لقاء البربر بعد أن حدث لأبيه أمل فى التغلب على ما كان البربر يملكونه من الحصون القريبة من إشبيلية بعسكر من جند إشبيلية ، فالتقى هو وصاحب صنهاجة ، فأسلمت إسماعيل عساكره ، وكان أوّل قتيل وقطع رأسه وسير به إلى مالقة إلى إدريس ابن علىّ الفاطمى كما تقدّم ، وبقى الأمر كذلك ، والقاضى أبو القاسم يدبر الأمور أحسن تدبير ، وكان صالحا مصلحا إلى أن مات فى شهورسنة ٤٣٩ .

صفحات من كتاب العينى (١)

وأما إشبيلية فاستولى عليها قاضيها محمد ابن إسماعيل بن عباد اللخمى ، وهو من ولد النعمان بن المندر ، وفى هذا الوقت ظهر أمر المؤيد هشام بن الحكم ، وكان قد اختفى وانقطع خبره ، وكان ظهوره بمالقه ثم سار منها إلى المريه ، فخافه صاحبها زهير العامرى وأخرجه منها ، وقصد قلعة رباح فأطاعه أهلها ، فسار إليهم صاحبها أوّل إسماعيل ذى النون ، فحاربهم وضعفوا عن مقاومته فأخرجوه ، فاستدعاه القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد إليه باشبيلية ، وأذاع أمره ، وقام بنصره ، فسار إليه وقام بواجبه ، وكتب بظهوره إلى ملوك الأندلس فأجاب أكثرهم وخطبوا له ، وجرت بيعته فى المحرّم سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، ثم إن عباد سير جيشا إلى زهير العامرى بأنه يخطب للمؤيد فاستنجد زهير حيوس بن ماكر الصنهاجى

(١) كتاب عقد الجمان للعينى ، القسم الرابع

صاحب غرناطة ، فسار إليه بجيشه فعادت عساكر ابن عباد ، ولم يكن بين العسكرين قتال ، وأقام زهير ببأسه ، وجاء حيوس إلى مالقة فمات وولى بعده ابنه باديس ، واجتمع هو وزهير ليتفقا كما كان زهير وحيوس فلم يستقر بينهما قاعدة واقتتلا فقتل زهير ، وجمع كثير من أصحابه ، والتقى عسكر ابن عباد وابنه إسماعيل مع باديس بن حيوس ، وعسكر إدريس العلوى صاحب سبتة بطنجة واقتتلوا قتالا شديدا فقتل إسماعيل ثم مات بعده القاضى أبو القاسم بن عباد وولى بعده ابنه أبو عمرو ، ولقب المعتضد بالله فضبط ما ولى وأظهر وفاة المؤيد ، واشتمل بأمر إشبيلية وبقى كذلك إلى أن مات وولى بعده ابنه أبو القاسم محمد ولقب بالمعتمد على الله ، فاتسع فى ملكه ، وشمخ سلطانه ، وملك كثيرا من الأندلس ، وملك قرطبة أيضا ، وولى عليها ابنه الظافر بالله فبلغ خبر ملكه لها إلى يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة فحسده عليهما فضمن له جرير بن عكاشة ، وسار إلى قرطبة ، فأقام يسعى فى ذلك وهو ينتظر الفرصة ، فاتفق أن فى بعض الليالى جاء مطر عظيم ومعه ريح شديدة ورعد وبرق فثار جرير فخرج الظافر فيمن معه من العبيد والحرس ، وكان صغير السن فحمل عليهم ودفعهم عن الباب ، ثم إنه عثر فى بعض كرانه فسقط فوثب عليه شخص فقتله ولم يبلغ الخبر إلى الأجناد وأهل البلد إلا والقصر قد ملك

وتلاحق بجرير أصحابه وأشياعه ، وترك الظافر ملقى على الأرض ، فمر عليه بعض أهل قرطبة فأبصره على تلك الحالة فنزع رداءه وألقاه عليه ، وكان أبوه إذا ذكره يتمثل بهذا البيت :

« ولم أدر من ألقى عليه رداءه
سوى أنه قد سل عن ماجد محض. »

ولم يزل المعتمد يسعى فى أخذها حتى عاد ملكها إليه وترك ولده المأمون فيها فأقام بها حتى أخذها يوسف بن تاشفين وقتل فيها بعد حروب كثيرة يأتى ذكرها إن شاء الله تعالى وأخذت إشبيلية من أبيه المعتمد ، وبقى مسجونا فى أغمات إلى أن مات بها ، وكان هذا وأولاده جميعهم — الرشيد ، والمأمون ، والراضى ، والمعتمد ، وأبوه ، وجده علماء شعراء —

ملوك الطوائف [1]

بقلم الأستاذ نيكلسون

تفرقت امبراطورية عبد الرحمن الثالث العظيمة ، وظهر على أنقاضها عدة ممالك صغيرة « دويلات » أنشأتها الظروف والمصادفات ، وكان يحكمها بعض القادة المظفرين .

وقد أحسن نيكلسون فى تشبيه تاريخ إسبانيا فى القرن الحادى عشر الميلادى

(١) فصل مختار من كتاب نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى للشارح

بتاريخ إيطاليا فى القرن الخامس عشر ، فقد كان وجه الشبه – كما يقول – كبيرا جدا بينهما .

وكان هؤلاء القادة الذين اقتسموا بلاد الأندلس أشبه بأولئك القادة الذين كان يطلق عليهم فى إيطاليا اسم : «Condottieri» وكان من بينهم ملوك العبادية الذين قطنوا إشبيلية ، وهم أقوى ملوك ، وقد أطلق عليهم كتاب المسلمين اسم : « ملوك الطوائف »

وعلى الرغم من أن ذلك كان عصر تدهور سياسى ، وعلى الرغم من أن إسبانيا تشكو عجز مواردها الاقتصادية ، فقد وصل المجتمع فى تلك الأيام الى مستوى لم يصل الى مثله من قبل .

وهنا يجدر بنا أن نقف لحظة علنا نستطيع أن نستعرض فيها أمامنا الشوط البعيد المدى الذى قطعته الآداب والعلوم فى طريق النجاح فى ذلك العصر الذى يعد أزهى عصور الاحتلال الاسلامى فى أوروبا .

***

فبينما ترى العرب الفاتحين فى آسيا – كما بينا ذلك – قد سحرتهم حضارة قديمة تفوق حضارتهم بما لا نهاية له وأذعنوا لها وظهر أثرها فيهم إذ تراهم لم يكادوا يعبرون مضيق جبل طارق – فى الغرب – حتى انعكست الآية تماما .

وذلك أنهم بعد أن تغلبوا على شبه الجزيرة وقع فى أيديهم آلاف المسيحيين من كل جهة فتحوها فعاش أولئك المسيحيون فى كنف المسلمين ، وأحسنت الحكومة معاملتهم ، ومنحتهم الحرية الدينية وكثيرا ما رفعتهم إلى مناصب عالية فى الجيش وفى بلاط الملك . فاعتنق كثير منهم الحضارة الاسلامية وافتتن بها افتتانا .

حتى رأينا « القارد » كاهن قرطبة فى أواسط القرن التاسع للميلاد يولول فى أوائل ذلك العصر شاكيا من أبناء دينه انصرافهم إلى مطالعة أشعار العرب وأساطيرهم وهيامهم بدراسة كتابات لاهوتيى المسلمين وفلاسفتهم لا يقصدون بذلك إلى تفنيدها بل يقصدون إلى التعبير عن خوالجهم بأسلوب عربى رائع صحيح .

وكان القارد يتساءل .

أنى يتاح لانسان فى هذه الأيام أن يقابل واحدا من أبناء جنسنا يقرأ التفاسير اللاتينية للكتب المقدسة ؟ ومن ذا الذى يدرس منهم فصول الأناجيل وسير الأنبياء والحواريين ؟ واحسرتاه :

إن كل الشبان المسيحيين ذوى المواهب لا يعرفون الا العربية والا كتابات العرب فهم يقرءونها و يدرسونها بحماسة بالغة منتهاها كما أنهم ينفقون المال الطائل لا قتنائها فى مكاتبهم وتراهم أنى وجدوا يذيعون أن تلك الآداب جديرة بالاعجاب .

فاذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية أزورجانبهم وأجابوك

بازدراء أنها أسفار تافهة لاخطر لها .

واحسرتاه عليهم ! لقد نسى المسيحيون أنفسهم حتى ليندرالعثور بين آلاف منا على على فرد يستطيع أن يحرر الى أحد أصدقائه رسالة لاتينية بأسلوب لا بأس به على حين ترى جهرتهم قادرة على الابانة عما فى نفوسهم بأسلوب عربى رائع ، وعلى حين ترى حذقهم فى قرض الشعر العربى قد وصل الى حدّ فاقوا معه العرب أنفسهم .

ومهما يكن فى كلام هذا الكاهن من اغراق فما يترفع عن الجدل والتشكك أن الثقافة الاسلامية قد أخذت بألباب المسيحيين الاسبان ، كما افتتن بها اليهود الذين خدموا الشعر والفلسفة بمساعداتهم العديدة وكتاباتهم التى أنشئوها بلغتهم و بلغة أبناء عمهم العرب .

أما المولدون والصابئون من الاسبانيين الذين لانوا بالاسلام فقد استعربوا تماما بعد أجيال قليلة ، ومن هؤلاء نبغ أشهر من ازدان بهم الأدب العربى .

***

وقد كان للشعر العربى ـ فى أوروبا ـ على الاجمال الخصائص التى رأيناها فى الشعر المعاصر له فى الشرق .

فان الأوزان المصطلح عليها والقيود التى لم يستطع أساطين بغداد أن يحرّروا أنفسهم من ربقتها ظلت بحذافيرها فى قرطبة واشبيلية . وكما تأثر الشعر العربى فى الشرق بالآداب الفارسية ، فقد تأثر فى اسبانيا كذلك باتحاد الآريين والساميين واندماجهم شيئا فشيئا .

فكان ذلك سببا فى ادخال عناصر جديدة ظهرت فى آدابها ، ولعل أمتع ميزات الشعر الأندلسى هى ذلك الوجدان العاطفى الرقيق الذى يندر وجود مثله فى النسيب والذى ظهر كثيرا فى أغانيهم عن الحب وهو وجدان لايقتصر على تصوير فروسية القرون الوسطى بل يتخطى ذلك إلى حد أن تحسبه إحساسا جديدا بمحاسن الطبيعة التى جلته .

ولهذه الميزة سهل فهم ذلك الشعر على الكثيرين من الآريين الذين قد لايسهل عليهم تفهم روح المعلقات أو قصائد المتنبى

دراسات الكتاب لابن زيدون

« أثبتنا فى هذه الصفحات أهمّ الدراسات التى كتبت ـ فى العصر الحديث ـ عن ابن زيدون إتماما للفائدة . »

١ — دراسة الدكتور أحمد ضيف (١)

اقترنت الوزارة فى الأندلس بالأدب ، فكان الوزير كاتباً وشاعراً ، وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء ، وكانت الشهرة بالكتابة والشعر ، وفنون الأدب ، وفروع العلوم من وسائل الوصول إلى امتلاك الوزارة ، فكان للوزراء أثر عظيم فى سير البلاغة والأدب ، وأصبحت منزلة الأدب كمنزلة الوزراء أنفسهم فى الدولة ، وظهر فى الأندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا فى مناصب الملك ، وتقلبوا فى مراكز الدولة ، وتغلبوا على شئونها ، وهم جميعا من الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء وأصحاب الشورى ، وأعلام الحياة العقلية .

ومن أشهر هؤلاء الوزراء الأدباء والشعراء المجيدين ، أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب ابن زيدون المخزومى الأندلسى القرطبى ، أشهر من عرف فى حلبة الأدباء ، وأظهرهم ميزة فى فنون الكلام وأساليب الشعر والبيان ، لأنه صورة من صور الأدب فى الأندلس ، وصحيفة من صحف البلاغة هناك ، وثمرة من ثمار غرس العرب فى بلاد المغرب .

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة فى سنة ٣٩٤ ﻫ وتوفى بإشبيلية سنة ٤٦٣ ﻫ وهو ثالث ثلاثة تسموا بابن زيدون : أحدهم أبو بكر عبد الله بن أحمد بن غالب والده ، والثانى أبو بكر ابنه وكان وزيراً للمعتمد بن عباد ومات مقتولا ، وهم من أصل عربى كما أشرنا إلى ذلك فى كلامنا على القبائل التى نزلت الأندلس من العرب . كان أبوه قاضياً مشهوراً بين قضاة قرطبة ، وعالما وأديباً . مات سنة ٤٠٥ فكان عمر ابنه إذ ذاك إحدى عشرة سنة ، وكان أبو الوليد منذ حداثته ميالا إلى العلم والتعليم ، فاندفع يطلب لنفسه الكمال العقلى ، وكانت نشأته فى قرطبة ساحة العلوم والآداب ، فانكب على الدرس والبحث ، وأخذ الأدب عن رجاله المعروفين ، وكان له ميل شديد لعلوم العرب وفنون اللغة فحفظ منها شيئاً كثيراً ، كما وعي كثيراً من أخبار الأدباء والشعراء ، وأمثال العرب وحوادثها ، ومسائل اللغة ، حتى أصبح فى مقدمة الشعراء والأدباء ، واندمج فى مجالس الأدب ، فصار علماً من أعلامها ودعامة من دعائمها ، وكانت قرطبة لاتزال فى أوج علا عزها على الرغم من أفول شمس بنى أمية بها ، وأهلها فى رخاء من العيش ، أكثرهم يميل إلى العلم والأدب ومجالسة الأدباء ، فامتلأت المحافل والمجامع بضروب اللهو والطرب ، وكان لابن زيدون خفة روح ودعابة وميل إلى المجون ، ساعده ذلك على أن يسبق غيره ، وأن ينال شهرة

---

(١) من كتاب بلاغة العرب فى الأندلس للدكتور أحمد ضيف

واسعة بين أترابه . وكان للنساء أثر عظيم فى هـذه المجالس ، فاتجه الناس إلى الاندماج فيها واستعذبوا هـذا المورد ، وانصرفت همم الأدباء إلى التفوق فى هذا الميدان ، فكان لذلك أثر عظيم فى أخلاق الأدباء وصورة البلاغة من نظم ونثر ، وكأنما ضاعت كل صبغة جدية فى المجامع الأدبية لجرؤ الوزراء على المجاهرة بالمجون ، وكان ابن زيدون أحد أبطال هؤلاء لجذب إليه الأنظار .

وكان لولادة بنت المستكفي الخليفة الأموى شهرة عظيمة فى قرطبة لجمالها وعلمها وأدبها ، فوقع ابن زيدون فى شركها ووقعت فى شركه ، واشتمل كل منهما على صاحبه ، حتى حسد عليها وحسدها الناس عليه ، وكان من بين هؤلاء الحساد الوزير أبو عامر بن عبدوس وهو كبير الحول والطول ، فتقرب إلى ولادة حتى أمالها إليه ، وكانت ولادة ملت صداقة ابن زيدون واتهمته كما اتهمها بذلك أيضا ، فهبت عاصفة من الجفاء بينهما شتتت من شملهما وحالت بين قلوبهما ، لذلك غلب ابن عبدوس ابن زيدون على أمره ، واستولى على قلب ولادة ، ثم حدث أن رجعت إلى ابن زيدون فكتب عن لسانها لابن عبدوس رسالته الشهيرة الهزلية ، ثم استأثر بها ثانية ابن عبدوس ، فكانت هـذه الحال سبب اضطراب فى حياة ابن زيدون العقلية والسياسية وهكذا كانت حال الوزراء وأرباب الدولة وعقول الأدباء وأصحاب الأقلام والمفكرين ، وهـذه الحادثة من أكبر الحوادث فى حياة ابن زيدون . عاش ابن زيدون فى بيئة كلها اضطراب ودسائس ، وترقى ودرج فى ذلك وتقلد الوزارة فيها ، لأنه اشترك فى حوادث الاضطراب التى كانت على أثر زوال دولة بنى أمية ، فكان من أشياع ابن جهور أحد ملوك الطوائف الذى ادعى لنفسه الملك فى قرطبة بعد انحلال الدولة الأموية سنة ٤٢٣ وعلت منزلة ابن زيدون هناك ، فاتخذه ابن جهور وزيراً له فملك أزمة الأمور ، وكان أقرب الناس إلى سيده الذى استعان به كثيراً فى المسائل السياسية ، وتأمين الصلة بينه وبين الأمراء الآخرين لذكائه ودهائه ، فكانوا يحسدون ابن جهور على الاختصاص به ، وحدثت حوادث أوغرت عليه صدور كثير من منافسيه والحاسدين على فضله ومنزلته ، فحملوا عليه عند ابن جهور حتى أمر بسجنه فسجنه طويلا ، فاستعفر واستعطف بما يلين من أجله الحديد ، فلم يفلح فى إرضاء الأمير فعزم على إعمال الحيلة والهرب من السجن . واختفى بقرطبة إلى أن استشفع بأبى الوليد بن جهور عند أبيه أبى الحزم حتى شفع له ، وجعله أبو الوليد بعد موت أبيه من المقدمين فى دولته ، ولكن ابن زيدون لم يأمن على نفسه من بقائه فى قرطبة ، فهاجر إلى إشبيلية سنة ٤٤١ ودخل فى حاشية المعتضد بن عباد وصار وزيراً لابنه المعتمد وبقى هناك إلى آخر عمره . هـذه حياته وأخلاقه ، وقد ذكرها فى شعره ونثره ومنها يرى أن حركات عقله كانت تقفو ذلك خطوة بخطوة ، فكانت حياته العقلية نتيجة هذه الحياة ، لذلك يمكن أن تقسم آثاره الأدبية إلى أقسام ثلاثة : عشقه لولادة وأثر ذلك فى نفسه وما كتبه فى هذا ، ثم مدحه لابن جهور وابن عباد ثم أثر السجن فى حياته العقلية .

شعر ابن زيدون

كان لأخلاق ابن زيدون والبيئة التى عاش فيها وميول الناس إلى اللهو أثر عظيم فى شعره ، فقد كان للمجون مسحة خاصة فى النظم والنثر ، فبرع ابن زيدون فى الغزل ، وكثير من شعره فى ذلك كان منبعثا عن ثوران فى نفسه وغليان فى ميوله وأهوائه ، أذكى ذلك كله حبه لولادة ، فإن عشقه هذا فتح له بابا واسعاً

من الخيال قال فيه ما شاء وشاءت عواطفه أن توحى إليه ، كذلك كانت آلامه وما لاقاه فى السجن باعثاً من بواعث استنهاض ملكة الشعر فيه وإلهاما من إلهاماته الفنية .

وشى به أعداؤه وحاسدوه إلى ابن جهور ، وكاد له منافسوه فى حبّ ولادة حتى نالوا منه ، وشفوا غلتهم بحمل ابن جهور على سجنه بعد أن أحله منزلة الوزير يدبر ملكه ، وبعد أن ائتمنه وعرف له رأيه السديد وبراعته فى إدارة الأمور وسلمه زمام الدولة ، ولم يكن لابن جهور أن يخطئ فى نظره لما اشتهر به نفسه من سداد الرأى وصحته ، فإذا نال ابن زيدون مكانة فى نفس ابن جهور ، فقد كان ذلك عن جدارة واستحقاق ، ولكن أعداؤه تمكنوا من ابن جهور فغضب عليه وأمر بسجنه ، فأثار هذا السجن من نفس ابن زيدون عاصفة فنية جديدة رقت من خياله الشعرى أثارتها آلامه فأخذ يئن أنيناً جميلا ، ويفتن فى آلامه ووصفها والتعبير عنها مرّة شعراً ومرّة نثراً . . . والفنى يمزج فنه دائما بكل ما يرى ويسمع ويشعر ، ولقد كانت نفس ابن زيدون من النفوس الدقيقة الادراك ، التى إذا أنت تئن أنين الموسيقى ، وإذا شكت تشكو شكاة القلوب المملوءة شعوراً الواسعة التصوّر والإدراك الدقيق ، الذى يجعل الشكوى جميلة والكلام فيها جميلا . كتب ابن زيدون من السجن إلى صديقه أبى حفص بن برد يشكو ويئن من بلواه وهو ينهضه الأمل مرة ويقعده اليأس أخرى ، ولا يترك شاردة تمرّ بخاطره إلا هدأ بها نفسه ، وتسلى بها عن آلامه . يستسلم أحياناً إلى القضاء فيشعر فى نفسه براحة واطمئنان ، ويقلب أمامه صفحات الأيام فلا يجد من الحوادث التى ألمت به ، ويرجع إلى صديقه فيسليه هو نفسه ، ويسأله ألا يكف عن مجونه وتسليته ، لأن السعادة خلسة ، ثم يعود فيذكر أعداءه ونيلهم منه ويبين أن ذلك ليس بالعجب لأنه :

إن قسا الدهر فللماء من الصخر انبجاس

ويرى أنه حسد لمكانته ، ويمزج ذلك بالعبر والحكم والسخرية والتهكم من أحوال العالم وحوادث الحياة ، ويرجع أنينه وألمه وحقده على الناس ، ولا سيما حاسديه ، ويضرب المثل كى يسكن من نفسه ، وهو فى ذلك كعادته فى الشكوى : يهبط مرّة إلى الدرك الأسفل من اليأس ، ويترفع أخرى إلى ذروة الرجاء ، وكأنه فى شجار مستمرّ بينه وبين نفسه وشعوره ، كل هذه المعانى فى أبيات قليلة بأسلوب جميل رقيق ، يكاد يلمح الإنسان فيها خاطره المضطرب المتماوج . حيث يقول :

« ما على ظنىَ باس يجرح الدهر ويأسو » الخ

هذه نفحات القلوب ، وهذا هو الشعر الذى يستولى على النفس ويلهمها الحكمة والعبرة ، وهذا هو جمال القول ، ليس ذلك لأنه مطرب مرقص بوزنه وقافيته ، بل لأنه ساحر بمعانيه وجماله ، كل معنى فيه تحتاج إليه النفس فى مثل هذه المواقف ، ولقد كانت هذه المعانى سائغة للنفس لأن الشاعر صادق فى قوله ، معبر عن شعوره يرسم صوره من نفسه الحزينة المتألمة ، لهذا كان الشعر جميلا .

وقد بدأ قصيدة من قصائده فى هذا بالفخر بنفسه ، وأمعن فى ذلك ، وكأنما كان يبكى حظه ويندبه بهذا الأسلوب الفخرى ، أو كأنما كل معنى من هذه المعانى كانت تهدئ خاطره وتريح نفسه ، فلما مدح ابن جهور مدحه فى قالب استعطاف ، وتوسط بين المدح الخالص والعتب الجدى ، وقد ظهر بنفس كبيرة وأنف أشم حتى أنه مدح نفسه أكثر من ابن جهور ، فكان مادحا أشدّ منه عاتباً ، لأنه كثيراً ما كان فى مثل هذا الموقف لاينسى الفخر بنفسه ، ولا يريد أن يعلى عليها ولو همسا أنه فى موقف مذلة ، وكأنه كان يتسلى بهذا ، لأنه يرى أن أعداءه لم ينالوا منه إلا لأنه فاتهم بعلمه وفضله حتى إنه قال متهكما:

« ولو أننى أسـتطيع كي أرضى العـدا   شريت ببعض الحلم حظا من الجهل .

وكل قصائده التى أرسلها يستعطف بها ابن جهور هى أثر ذلك الشقاء الذى لقيه فى سجنه ، وصورة من صور البؤس الذى حرّك شعوره وفتق منْ لسانه ، وأثار فى نفسه عواطفه الشعرية المدلهة المملوءة هماً وغماً .

ولـكن أسلوبه فى الشكوى والاستعطاف واحد فى نظمه ونثره ، وما أشبه قصائده فى ذلك وما فيها من من المعانى برسالته الجدية ، وكأنما كان فكره سجيناً مثله من شـدّة تألمه فى السجن ، فانه لم يخرج عن عادته فى ضرب الأمثال والفخر بنفسه ، وأنه أفضل إنسان وأكرم من دبّ على وجه الأرض .

غـير أن كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشـية ، جذاب خلاب ، تظهر عليه سيما الابتكار والصدق فى التعبير ، فانه ليس من الخيالات الشـعرية الصرفة ، بل به كثير من الحقائق التى كان يمليها عليه شعوره كما قال :

« ما جال بعـدك لحظى فى سنا القمر   إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر . »

وكتب إلى أحد أصدقائه وهو مختف بقرطبة بعد فراره من السجن ، فقال :

« . . . وبلغنى أنك أحد اللائمين لى الخ »

إلى أن قال :

« شحطنا وما بالدار نأى ولا شحط   وشط بمن نهوى المزار وما شطوا . »

إلى آخر ماقال فى هذه القصيدة التى هى من أبدع قصائد الشكوى وأجمعها لذكر الماضى والحاضر والاستغفار والاستعطاف ، والسرور بذكر ما انقضى والبكاء على الحاضر ، وهى أيضاً أظهر فى لهجتها الجدية من كثير من شعره ، ولذلك كانت أخف فى أسلوبها ومعانيها ، ليس بها تلك الرقة المعهودة فى كلامه ، كل ذلك هاجه السجن وماتذوقه من الآلام ، فرسمه فى شعره ، لأنه رجل فنى يعرف كيف يصوّر مايشعر به ويعبر عما يجول بخاطره . ولقد يلاحظ الانسان أن آراء ابن زيدون آراء عامة ليست ناشـئة عن تفكير طويل أو علم واسع ، وإنما هو خيالى أكثر منه مفكراً ، وشاعر أكثر منه عالما ، وهذه كل حال شعره ونثره .

أما مدحه ورثاؤه فهما فى المرتبة الأخيرة من شعره ، لأنه على جمال أسلوبه فى ذلك ، وحسن تصرفه فى المعانى لا يكاد يعثر الانسان فيه على معنى جديد ولا رأى خاص ، بل يكاد يكون كل ما جاء من المعانى من قبيل معارضة غيره من الشعراء والأخذ بمعانيهم ممزوجاً ذلك بما له من البراعة والصناعة والافتنان .

ومن أجمل قصائده كلامه فى المعتضد بن عباد وابنـه المعتمد ، ومن أرقّ كلامه فى الشكوى ، وأقرب عباراته وصولا إلى القلوب بكاؤه على الماضى ، والتلذذ بذكره وما كان فيه من النعيم كقوله :

« الهوى فى طلوع تلك النجوم   والمنى فى هبوب ذاك النسيم . »

ولقد كان ينظر إلى أيامه الماضية فيحن إليها حنيناً مؤلماً ، فاذا قرأت شـعره فى ذلك رأيت نفسـك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية ، فبكى وبكيت معه ، كما قال :

« ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح   تقضت مبانيها مدامعه نزحا .

الغزل فى شعر ابن زيدون

يتبين من أحوال الاجتماع فى الأندلس ، وميول النفوس ، واختلاط النساء بالرجال ، واندماج كثير من الأديبات فى مجالس اللهو والطرب ، أن المرأة شغلت جزءاً عظيما منْ أوقات الرجال المفكرين ، وملأت

رءوسهم ، كما أن مجالس الشرب كان لها سلطان عظيم على نفوسهم ، فكانت المرأة تحرك العواطف والشعور ، والخمر تدر العقول ، وتملى عليها القول ، وتفتح أمامها طرق التصور والخيال ، والعقول ثملة بنشوة الغرام والرءوس مثقلة بحرارة المدام ، والناس لا يفوتهم الطرب ، ولا يريدون أن يتواروا عنه لعلقته بنفوسهم ، حتى فى أشدّ المحن ، فقد رأينا أن ابن زيدون كتب وهو فى سجنه لصديقه أبى حفص بن برد يقول :

« وأدر ذكرى كأساً ما امتطت كفك كاس
واغتنم صفو الليالى إنما العيش اختلاس . »

وقع ابن زيدون فى شرك ولادة بنت المستكفى بالله ، وكانت حليلة ماجنة بارعة رويعة بين الأدباء « تناصل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء . . . خرجت على نهاية فى الأدب والطرف ، حضور شاهد ، وغزارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، وسهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلوّ نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ، على أنها أوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها . . . » وقالوا « إنها كانت بالمغرب كعلية بالمشرق ، إلا أن هذه تزيد الحسن ، وأما الأدب والشعر والنادرة وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها ، وكان لها صنعة فى الغناء ، وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها ، فيمرّ فيه النادر وإنشاد كثير مما اقتضاه عصرها . . . . . وكانت من الأدب والظرف ، وتتميع السمع والطرف ، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب » فنال ابن زيدون رضاها ، ووقع من نفسها كما وقعت هى من نفسه ، حتى كتبت إليه تضرب له موعدا فقالت :

« ترقب إذا جنّ الظلام زيارتى فإنى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر . »

قال أبوالوليد : « فلما طوى النهار نوره ، ونشر الليل ديجوره ، أقبلت بقد كالقضيب ، وردف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الخجل ، فملنا إلى روض مدبج ، وظل سجسج ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودرّ الطل منثور ، وجيب الراح مزرور . فلما شببنا نارها ، وأدركت منا ثأرها ، صرح كل منا بحبه وشكا مابقلبه . . . وأنشدتنا :

« ودع الصبر محب ودعك ذائع من سرّه ما استودعك . »

وكتبت إليه بعد ذلك تقول :

« ألاهل لنا من بعد هذا التفرّق سبيل فيشكو كل صب بما لقى . »

إلى أن قالت :

« تمرّ الليالى لا أرى البين ينقضى ولا الصبر من رق التشوق معتقى
سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلا بكل سكوب هاطل الوبل مغدق . »

ولا نريد الآن أن نتكلم فى العشق وأثره فى النفس ، وما يوحيه من روائع القول وجمال الفكر حتى عند عامة الناس ، فإن تاريخ الإنسانية حافل بحوادثه . ولكنا نقول : إن العشق فى كلام العرب أو شعر الغزل كما يسمونه ، ليس من المسائل الهزلية . لأن الشعر الذى هو وحى النفوس وجمال الإدراك الإنسانى ، أكثر [illegible]

أكبر مظاهر الجمال فى الحياة ، ومن لم يفتح له قلبه يوماً ما ، لم ير غير ظواهرها ولم يتسرب إلى نفسه بصيص ضوء من جمال مظاهر الحياة وأسرار النفوس فى التآلف ، وكثير من آمال الناس فى تلك الصلة النفسية ، والعشق وما فيه من سعادة وجمال سر كامن فى الشعر ، لأنه مصدر الشعر الخيالى الجميل . لذلك كان أجمل الشعر ما يكشف عن سرّ من أسرار النفوس ، ويفتح القلوب . ويظهر مكنونات الإنسان وأخلاقه وآلامه وآماله . إن النساء منبع من منابع الشـعر ، والشعراء مدينون لهنّ بأفضل الصـفات لديهم وهى وصف شعور الناس ، والشاعر الذى يشـعر بالحب لايتكلم عن نفسـه فحسب ، وإنما يجمع آلام العشاق وأنينهم فيتألم ويئن معهم ، وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحب للنفس من سماع هذا الأنين . إن الشاعر يصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ورنات مايجول من المعانى ويدفعها إلى النفوس فتصـبو إليها ، ويذيعها بين العشاق فيرى كلّ قلبه وكأنه ينظر فى مرآة يرى فيها صورته ، وذلك لا يكون إلا فى الشعر .

فإذا أخطأ العرب فى إمعانهم فى هذا النوع والإكثار منه ، فقد أخطأوا من جهة واحدة : وهى تكرار المعانى وتقليد بعضهم بعضاً فى ذلك ، وظنهم أن كل قلب يحب بشكل واحد ، وإن صلة الحب بمظاهر الجسم قوية متينة ، وأن المعانى محصورة فى ذلك . ولـكن ابن زيدون ليس من هؤلاء المقلدين ، بل من الذين كانوا يجولون جولات واسعة فى الخيال ، فـكان فنياً مبدعاً . أرأيت شعراء العرب كيف يطنبون فى وصف الأمكنة التى اجتمعوا فيها مع صـديقاتهم ، وهم يتخذون ذلك وسـيلة لأمرين : الأول إحياء ذكرى تلك الأيام والأمكنة وما فيها ، إذ كل شىء هناك كان يشهد حبهم ويعطف على عشقهم ، وتلك الأمكنة جميلة لأنها احتوت عليهم ، والأضواء التى تسطع عليهم والأشجار التى كانت تظللهم ، والـكواكب التى كانت تتجسس أخبارهم ، جديرة بأن لاتنسى ، لأنها أثر من آثار العشـق . الثانى أن الشاعر الفنى يمل من التكرار ، ويعرف أن معانى العشق والحب سرعان ماتنفد ، فهو يتحايل على شتّ شىء من المعانى الأخرى التى لها صلة بذلك ، كي يتسـنى له أن يجول فى ميدان أوسع ليصل إلى التعبير عن مراده ، أو يمنع العقول من أن يدركها الملل . فهو يستعين بذلك كما يسـتعين المصور الماهر بالألوان لإظهار الصـورة التى يريد أن يبرزها . كذلك كان ابن زيدون من هؤلاء الفنيين أو قريباً منهم . فقد التجأ إلى مدينة الزهراء الجميلة فى أيام الربيع ، يريد أن يسلى نفسـه ويخفف عنها من أثر حبه ولادة ، فذكر فى شعر أرسله إليها كل ما كان يحيط به إذ ذاك وأبدع أيما إبداع ، وافتن افتناناً عظيماً فى ذلك ، فقال :

« إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا »

وإذا كان لابن زيدون ميزة فى شعره الغزلى فليس ذلك فى ابتكار المعانى التى لم يسبق إليها ، وإنما هى فى طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولى على القلوب وكأن الانسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان فى التعبير والاسلوب . كما فى قوله :

« إليك من الأنام غدا ارتياحى وأنت من الزمان مدى اقتراحى . »

ولقد يسمع الانسان أنينه فى شعره ، ويرى أنته الحزينة من خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسى اللذين يملآن نفوس العشاق ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها . على أنه يلتذ لذكر محبوبته ويذوق الآلام بسببها . فيقول :

« متى أنبيك ما بى ياراحتى وعذابى . »

ولقد بلغ درجة من التعبير يحمل بها القارئ على الاعتقاد بأنه مخلص كل الإخلاص في حبه ، وأن حبه هذا هو كل أمنيته ، وأنه يرى في سبيل العشق ما لا يراه غيره ، ويهون عليه كل شيء في سبيل إرضاء حبيبه حتى حياته ، وهو فخور بهذا كما قال :

« أنى تضيع عهدك أم كيف تخلف وعدك . »

على أننا لا نبرئ ابن زيدون من التصنع أحياناً فيما يقول لأنه كان كغيره من الشعراء يعبر عن غير شعور ، فإن تمكنه من الصناعة كان يفتق لسانه بقول الشعر ، كما قالوا إن السلطان أمره أن يعارض قطعاً كان يغني بها ، واستحسن ألحانها ، فأنشأ أبياتاً كأنها صادرة من عاشق متيم ، وضمنها مدح السلطان ، فقال :

« يقصر قربك ليلى الطويلا ويشفى وصالك قلبى العليلا . »

وفي بعض كلامه ، ما يدل على أنه كان يتصيد الألفاظ والمعاني التي قيلت في العشق ، فيلطفها ويلبسها ثوباً جديداً وكأنها له ، وقد برع براعة عظيمة في ذلك كما قال :

« يا غزالا أصارنى موثقاً في يد المحن . »

وهو في كل كلامه مبدع مجيد متفوق على غيره ، خفيف الروح ، عذب الألفاظ ، سهل الأسلوب .

أما نونيته التي أرسل بها إلى ولادة وبثها كثيراً من شعوره وآرائه المختلفة . فهي على شهرتها وجمالها كسائر شعره ولذلك لم نذكرها .

نثر ابن زيدون

اشتهر ابن زيدون برسالتيه الجدية والهزلية . أما الأولى فهي التي كتبها في سجنه يستعطف بها ابن جهور وأما الرسالة الهزلية فكتبها على لسان ولادة يتهكم على ابن عبدوس ويهزأ منه لمشاركته في غرامه .

اشتهر ابن زيدون بهاتين الرسالتين لجودة أسلوبهما النادر المثال ، ولاحتوائهما على كثير من الأسماء التاريخية والأمثال العربية ، واقتباس أبيات من الشعر معروفة وقعت في موضع الكلام وكأنها جملت من أجله ، أو قيست على سمته ، وليس من السهل اقتباس المثل في أمكنته ، ولا من الهين أن يخوض الإنسان غمار الأدب الواسع ويسهل عليه الاختيار منه ، ويحفظ نفسه من الضلال في نواحيه ، ويميز بين الجيد وغيره ، ويختار ما يناسب المقام ، ويكون ذلك مقبولا لدى النفس ، ثم يصوغ ذلك كله في قالب واحد ويضم بعض أجزائه إلى بعضها ، ويمحصه كما يمحص الزبد ، فلا يتنافر منه جزء مع آخر .

إن الكلام على هذا النحو أصعب من الابتكار في التأليف المبتدأ ، وكلما قرب إلى القارئ الأسلوب وصعب عليه معرفة تأليفه ، شعر بسعة اطلاع الكاتب ، وأعجب به وكبرت في نفسه منزلته ، وكلما فاجأه اسم لم يكن يخطر له ببال ، أو رأى ما غاب عن ذهنه ، أو تلميح إلى قصة لا يفطن أن تذكر في مثل هذا الكلام ، أو عبارة تحرك من نفسه حب الاستطلاع ، أو مثل اتعظ به ، أو ذكر رجل شهير يمجده ، أو نكتة تسر بها نفسه ، أو مسألة فنية يرتاح لها ويلتذ بذكرها ، زاد أعجابه بالكاتب وما كتب ، ورأى أن كل إنسان غير قادر على ذلك ، وأن هذه صفة يمتاز بها الكاتب عن سواه . كل ذلك في نثر ابن زيدون وهو من دواعي الإعجاب بأسلوبه في رسائله ، فقد عرف كيف يأتي في كتاباته بالتناسق في المعاني والألفاظ ، بل عرف أن يأتي بهذا التناسق في التأليف والجمع ، وكيف يتصيد كلام غيره ويرصفه رصفاً جميلا ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه كل معلوماته ، واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه ، فكانت رسائله أنيقة

جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذى يعرف كيف يجمع بين الحجر والحجر ، والمصور الفنان الذي يؤلف بين اللون واللون . ولقد حاول ابن زيدون فى رسالتيه الوصول إلى غرضه ، فلم يدع وسيلة مايجسم بها المعنى فى نفس القارئ لتنهال عليه المعانى ويكون غرضه أوضح ، ورأيه أظهر ، إلا فعلها ، فكل ما ذكره من الأمثلة المقتبسة والمعانى المختارة قصد به توضيح ما يريد .

فى رسالته الجدية أراد أن يستعطف ابن جهور ، ويبرئ نفسه مما اتهم به ويكل بأعدائه ، فبدأ رسالته بالاستعطاف وهو يستذل نفسه تارة ، ويمدح ابن جهور ويظهر إخلاصه له ويتملق إليه أخرى ، ويعتذر عنه فيما وقع منه فى حقه ، ثم يبين له شدة ألمه من شماتة أعدائه ، فقال :

« يا مولاى وسيدى الذى ودادى له . الخ . »

ثم أخذ يتعلل بالآمال ، ويضرب فى ذلك الأمثال ، ليسلى نفسه ويهدئ منها بعبارات شعرية يريد أن يؤثر بها فى نفس المرجو ويحمده على كل شيء ، كما يحمد الله على السراء والضراء ، فقال :

« هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلى . »

ثم وقف موقف المذلة وكأنما يسمع الإنسان بكاءه فى كلامه ، واستصغر ذنبه فى ساحة عفو سيده ، وفى جوار ما ارتكبه غيره من الذنوب الكبيرة ، فقال :

« وأعود فأقول : ماهذا الذنب الذى لم يسعه عفوك . الخ »

والعجب فى ذلك من حضور ذهنه وحدته مما يدل على تيقظه الشديد ، ثم أخذ بعد ذلك يبرئ نفسه ، ويعجب من سيده الذى يصغى إلى أعدائه ، على ما كان له من المنزلة التى لم تدفع عنه ذلك ، وأخذ يلوم ابن جهور لو ما لا يظهر إلا من خلال عباراته ، لشدة تمكنه من تصرف الكلام واحتراسه فيما يقول :

« فكيف ولا ذنب إلا نميمة أهداها كاشح . الخ »

ثم ذكره بإخلاصه له ، ومدحه إياه ، وأخذ يرجع إلى استعطافه وتملقه ، فقال :

« وقد زانني رسم خدمتك . الخ »

ثم جاءته عزة نفسه فانتقل نقلة أخرى ، وبين له أن مثله لا يصبر على الهوان وأنه يستطيع فراقه وهجر بلده إلى مكان آخر ، ويخاطر فى هجرته هذه بما عسى أن يلاقى من الآلام مستأنساً بأدبه وفضله ، فقال :

« ولعمرك ماجهلت أن صريح الرأى أن أتحول إذا بلغتنى الشمس الخ . »

وكأنه شعر بأن هذا يدعو ابن جهور إلى أن ينسى استعطافه لما يظن فى هذا الكلام من عجب ابن زيدون بنفسه ، فأخذ يلطف من حدته ، ويسكن من هياجه ، ويظهر تمسكه بجوار سيده لأنه أفضل شيء لديه فى الحياة ، فقال :

« غير أن الوطن محبوب ، والمنشأ مألوف . الخ »

ثم أخذ يقوى أمله فى إجابة طلبه ، ويضرب الأمثال فى ذلك ، ويمدح البقاء فى جوار سيده بقوله

« أعيذك ونفسى من أن أشيم خلبا وأستمطر جهاما . الخ »

هذا أكثر ما فى هذه الرسالة الجدية ، وأعظم ما فيها تأليفها الذى يرى من خلاله تلك النفس الحائرة المضطربة التى تهيج مرة وتجمد أحياناً ثم ترجع وتلين ، وكأنما الكاتب فى نزاع مستمر بين نفسه وأهوائه ، أو كأنه هو ونفسه قرنان يشتد كل منهما عند ملم يخاف قوة صاحبه .

هذه صورة نفس ابن زيدون يراها القارئ إذا وقف عن كثب ونظر إلى حركات نفسه وهو يكتب أو

يمكر في هذه الرسالة . يرى نفسه الأبية وهو يفخر بها ويظن أنه من أهل الفضل ، ويرى نفسه المتهكمة ، وهو يحسب ويعد الذنوب الكبيرة التي تستحق مثل عقوبته ، لايريد أن يقول هذا ظلم ، ولكن يريد أن يقول هذا حمق وخرق في الرأي ، ويرى نفسه الكئيبة التي أحدثتها الأكدار فذلت وأخذت تستعطف وتستشفع وتتملق ، يرى الإنسان كل ذلك في هذه الرسالة ، ومن هنا جمالها وإبداعها . لامابها من الأسلوب البليغ أو العبارات المختارة لا غير .

أما رسالته الثانية التي كتبها لابن عبدوس عن لسان ولادة ، فقد دل فيها على اطلاع واسع بالأمثال والأخبار ، وعلى باع أوسع في الهجاء ، لأنه أقذع في ذم ابن عبدوس إقذاعا ، وتهكم به تهكماً لا مثيل له حتى إنه ليخيل إلى الإنسان أنه جمع كل ما يمكن أن يقال في الذم والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس واستعمل أسلوباً جميلا خلاباً يدل على تمكنه من التصرف في الكلام ومعرفة امتلاكه عقول القراء ، لأن هذه الرسالة على طولها وكثرة الاقتباس فيها الذي يستغرق أربعة أخماسها أو أكثر ، وعلى ما فيها من الأمثال المعروفة والأبيات المشهورة ، والإطناب في ذكر الأسماء التي يكفي منها القليل ، ليس فيها مايدعو إلى الملل ، ولا مايشعر بالاستهجان والابتذال . على أن بها شيئاً كثيراً من تلك العيوب ، فقد ذكر أكثر من خمسين اسما لمشهوري الرجال ، سردها سرداً ، وكان يكفي عشرها ، وأكثر أيضاً من صفات الذم مما كاد يكون ثرثرة ولغواً ، ولكنه ستر كل ذلك ببراعته في الصناعة ، وليس أدل على جفاء الطبع وغلظه من هذه الرسالة ، فقد ابتدأها بسفاهة نادرة ، ولكنها سفاهة أديب فنيه فقال :

« أما بعد أيها المصاب بعقله الخ »

وسار على هذا النحو وأكثر من ذكر هذه الأسماء ، ثم أقذع في الذم والفحش في صفاته فقال :

« وهبها لم تلاحظك بعين كالئة عن عيوبك ملؤها حبيبها حسن فيها من تود . الخ »

واستمر على هذا النحو إلى آخر الرسالة يضرب الأمثال للاستهزاء والتهكم ، ولقد كشف ابن زيدون في هذه الرسالة عن نفس حقودة محبة للانتقام وأنه شديد الحفيظة ، ودل على غلظة في طبعه ، وخشونة في أخلاقه مع ذلك فهي رسالة تمتاز بأسلوبها ، وتناسق عباراتها ، ولعل ابن زيدون أخذ هذا الأسلوب عن الجاحظ في بعض رسائله ، كما في رسالة التربيع والتدوير .

٢ — دراسة الأستاذ السكندري[1]

علمه وأدبه وبديهته :

نشأ ابن زيدون في عصر اختل فيه نظام ملك بني أمية لجفأة ثورة البربر المشؤومة ، وقامت هذه الثورة وآثار الحضارة في كل شيء من علم وأدب ودور ضاربة بجرانها في قرطبة ، فكانت غنية بالعلماء والفقهاء واللغويين والشعراء والمحسنين في كل صناعة ممن نبتوا في عصر المنصور الهي ، فصادف ابن زيدون من نيل من علمهم وكرع من أدبهم ، وكان أبوه وعشيرته من أهل الفقه والأدب فلم يكن إقباله على ما أخذ به أهلوه أنفسهم بدعاً من نفسه ، وإنما جرى في مضمارهم فبزهم علماً وأدباً ، وبعد صيت وعلو همة .

كتابة ابن زيدون

(أ) طريقته فيها :

كانت طريقة كتابة الأندلسيين منذ عصر الناصر والمستنصر جارية على أسلوب ابن العميد وحلبته من أمثال الصاحب بن عباد والبديع والخوارزمى والصابى ومن تابعهم من أمثال الحريرى والعماد والاصفهانى ، وكان الكاتب الأندلسى الذى ينسج على منوالها ، وإن حلّ المأثور من النظم وضمن بعض القرآن والحديث لايغلب ذلك على قوله فتفقد فيه صورة نفسه وخاصة طبعه ، بل كانت تكون له التشبيهات الرائعة والتعليلات الحسنة ثم هو لا يخرج عن التزام السجع غالباً . وابن زيدون رعى هذه الطريقة من بعض الوجوه وخالفها من بعض ، فأما ما رعاه فى كتابته منها فهو :

١ ــ حل المنظوم من مشهور الأبيات .

٢ ــ الاحتجاج والاستشهاد بكثير من هذه الأبيات مستعملا لها استعمال الأمثال فلا ينسبها إلى قائلها .

٣ ــ الاقتباس من القرآن الكريم أو الحديث بلفظهما أو تغيير بعض نظمهما .

٤ ــ تضمين الحكم والأمثال بلفظ أصحابها أو تغيير فى نظمها .

وأما ماخالف فيه فهو :

١ ــ عدم التزام السجع

٢ ــ الاستكثار من أمثال العرب القديمة استكثاراً كاد يعد قوله الخاص بجانبه ضائعاً وبخاصة الغريب من هذه الأمثال .

٣ ــ الاستكثار جداً من ذكر أسماء رجال التاريخ المشهورين .

٤ ــ الاستكثار جداً من أسماء الوقائع الشهيرة فى التاريخ .

٥ ــ الاستكثار من الحمل المترادفة على مثال واحد فى المعنى الواحد حتى يتكوّن منها فصل طويل يشغل فراغاً كثيراً من الرسالة لو اقتصر على فقرة واحدة من الفقر المتكرّرة فى المعنى لنزلت الرسالة إلى خمسها أو سدسها . وهذه الطريقة غلبت على كتابته وهى على رسالتيه الجدية والهزلية أغلب ولاسيما الهزلية .

(ب) منزلته فيها :

اشتهر ابن زيدون عند المغاربة والمشارقة بأنه من بلغاء الكتاب والشعراء ، فأما الشعر فلا جدال فى استحلاله ، فلاستحقاقة ذلك الصيت الذائع فيها تأويل وتعليل يخرجان عن حدّ بلاغة الكتابة فى ذاتها إلى أمور خارجة عن جوهر الاجادة ، وذلك أن كتابته اشتهرت بين الناس لأمرين :

أوّلا : أنها ليست على منوال كتابة الأندلسيين فى عصره بل هى مخالفة لها فى بعض الصور ، وصدور العمل المخالف لعمل الناس من رجل متوسط فى الحال لافت بداته للأنظار ، باهر للنفوس ، فكيف به لو صدر عن ذى شأن نبيه بمنصب رفيع ونسب عريق ، وصيت ذائع فى السياسة والأدب والشعر وحسن المحاضرة والمنادمة .

وثانياً : أنها باهرة لامعانيها وروعة أساليبها وشدة حوكها فى نفس قارئها بل بما اشتملت عليه من وفرة التضمين والاستشهاد والوقائع وأسماء الرجال ، مما يكبر من شأن كاتبها فى الصدور ، ويشهد له

بطول الباع ، وسعة الاطلاع ، ويكبر من شأنها هى ، إذ تكون بمثابة مجموعة أدبية حافلة بمأثور الأقوال ، معرّفة بكثير من حوادث التاريخ وأسماء الأبطال ، بحيث إذا حفظ ناشئٌ متأدب الرسالة منها أودعت صدره زبدة اطلاع كثير وبحث طويل ، فكأن شهرته آتية من طريق التثقيف والتعليم ، فتكون فى الأدب أشبه بمتن من متون العلم كثير المسائل والاحكام وجيز العبارة ، وهذا السبب بعينه هو سبب شهرة مقامات الحريرى ، وبعض القصائد المحتوية على كثير من أسماء الرجال وحوادث التاريخ والحكم والأمثال ، كمقصورة ابن دريد ورائية ابن عبدون فى رثاء دولة بنى الأفطس ، ونونية الرندى ، ولامية ابن الوردى ، ونونية البستى ونحوها ، وكلها عظيمة الأثر فى التعليم والتأديب وسرعة التوقيف على أكثر مالا يسع الأديب جهله فى لفظ يسير وزمن قصير ، لافى بلاغتها ذاتها وحسن تأثيرها فى النفس حتى تستجيب النفس لداعيها ، وتقبل على قائلها ، ولذلك تجد رسالة ابن زيدون الجدية التى استعطف بها جهوراً لم تؤد ما وضعت له . ولا نعنى بكلامنا هذا أن الرجل كان قليل الخاطر ، أو ضعيف الارتجال ، فكل من تعرض لذكر أخباره يصفه بقوّة العارضة ، وسرعة البديهة والارتجال ، وأنه كان فى مجلس ولادة يرتجلّ المقطعات الشعرية المليحة ، ويحاضر بالنكت النادرة والأجوبة المسكتة ، ودون بعض حرمه موقف الناس يعرّونه على اختلاف طبقاتهم فما أجاب أحداً بما أجاب به غيره ، وتلك غاية لاتدرك .

وإنما خلق الرجل شاعراً مطبوعاً ، واضطرته الوزارة إلى الترسل والكتابة فكانت كتابته بالشعر أشبه منها بالنثر ، وأكثر المغاربة لايتحدثون إلا فى شعره على عكس المشارقة .

رسالته الجدية

هذه الرسالة أشهر رسائله وأبلغها ، وأكثرها عائدة على المتعلمين الذين يحفظونها لتنوّع فصولها وتعدد الأغراض التى رمت إليها ، والمعانى التى لوحت بها على ما أبانته من أمل كاتبها ، وما حوته من روعة التأثير فى النفس . وهذه الرسالة بعث بها من السجن إلى جهور يستعطفه بها ولكنه مزج الاستعطاف بكثير من الزهو والامتنان ، واستقطاع العقاب على ذنب متوهم على طريقته الكتابية التى وصفناها آنفا .

وإذا حللنا هذه الرسالة إلى عناصر الأغراض التى تألفت منها وجدنا أنها لاتعدو عشرة أغراض تؤدى فى عشرة أسطر إلا أن كثرة الجمل المترادفة الأسلوب والصورة زادت فى ذرعها طولا .

وذلك أنه ناداه بألفاظ السيادة أولا ، ثم اعتذر له عن نكبته إياه بعد ما أحس الجاد بله الإنسان بصدق خدمته له وثنائه عليه ، بأن عمل الخير قد يعود على صاحبه بالشرّ ، وأوّل هذه المقابلة بأنها صادرة عن حسن نية وقصد تأديب ، ثم أخذ يستريث العفو ، ويستقطع هذا العقاب الذى كان بعضه كافياً لردع الأبالسة وكبار الفتاك والخارجين على الأنبياء والأئمة والدين ، مع إن المسألة لاتخرج عن وشاية حساد سمع جهور لهم فنكب وليه الذى نوه بذكره ، ثم أخذه الزهو فذكر أنه كان فى مكنته أن يستبدل بخدمته خدمة من يرحب بمن الملوك ، غير أنه عز عليه مفارقة وطنه ومولاه القديم ، ثم عوذنفسه من أن يكون معه كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وناشده المتنى حتى توقع الفكاك ، ثم استملح نثر هذه الرسالة ورأى أن يستلحقها بقصيدة ، فكانت هذه فى رأينا آنق لفظاً ، وأعذب مورداً ، وأطبع الساقا .

« ثم أورد القصيدة وقال : »

محاسن هذه الرسالة ومعايبها

لا ريب أن مكان هـذه الرسالة من الأدب العربى مكان المشهور المأثور المحفوظ فى الصدور المخلد فى السطور وذلك لأمور :

الأول : أنها جراب أدب حاو لجملة نماذج مختلفة من عيون مواد الأدب بما ضمنت من اقتباس القرآن والحديث ، والأمثال ، والحكم ، والأبيات المشهورة ، وحلّ نظم الكثير منها والإشارة إلى ما فيها من وقائع التاريخ الشهيرة التى يجدر بالأديب معرفتها والاستشهاد بها .

الثانى : حسن ملاءمتها بين هذه الصنوف وحودة رصفها وجمع شتاتها فى موضوع واحد مما يعسر على غير حاذق التوفيق بين متباينه ، ويجعل نمطها غريباً ونسجها وحيداً .

الثالث : حصافة عبارتها وجزالة لفظها فى كثير من مواضعها وخاصة ما استقل به كاتبها معنى وإنشاء .

ولكننا إذا نظرنا إليها بعين الناقد وأنعمنا البحث فى بلاغتها أى مطابقتها فى معانيها ومبانيها لمقتضى الغرض الذى وضعت له ، وهو الاستعطاف ، وجدنا أنها تقصر دون بلوغه لجملة أمور :

الأول : كثرة ما ردّده كاتبها فيها من عبارات الامتنان على مولاه بطول ثنائه عليه وحسن سابقته عنده وعظيم بلائه فى إقامة دولته مما يعده الرئيس عادة تعييراً وتجبيهاً .

الثانى : تهديد مولاه بأنه لولا حب الوطن لكان له أرفع مقام فى خدمة غيره من الملوك الذين يتسارعون إلى الترحيب به ، ويتنافسون فى استخدام أمثاله .

الثالث : أن وضعها بهـذه الصورة يجعلها غير كفيلة بانجاح الغرض الذى وضعت له (وهو تحريك عاطفة الرحمة والعفو) بما يصرف نفس قارئها عن أن يتأثر ببلاغتها ويشغلها بتذكر الحوادث والقصص التى أتت عليها ، وأسماء الناس ، ومضرب الأمثال ، فلا يفرغ القارئ من تعرّف اسم رجل حتى يقع فى مضرب مثل ، ولا يخلص من تفهم شاهد حتى يتقحم فى أوعر منـه ، فيتقسم فهمه ، ويتشتت تأثره ، وإنما يأتى التأثر من انصباب غمرة من الانحداعات المتكررة ، بتكرّر العبارات البليغة المؤثرة ، فتحدث بمجموعها أثراً كلياً فى النفس ، فتجيش بالشفقة ، وتهش للعفو ، ومثل ذلك كان الإنشاء المبرقش بكثير من أنواع البديع غير مؤثر ببلاغته ، لشغله الذهن عن التأثر ، وصرفه إلى تفهم البديعية .

ومن هذه الوجهة نرى أن رسالة ابن زيدون ليست مثالا يحتذى للإنشاء البليغ المؤثر فى النفس .

الرابع : وقوع بعض هفوات له ذكرها الصفدى كاحتياج فقارها إلى ذكر فقار بعـد تتمم معناها وتلتئم بها مع ما بعدها (وهـذه نضرب صفحاً عن ذكرها) وكبعض أخطاء فى المعنى والوقائع (وهـذه نشير إلى بعضها ، ومن أراد مراجعة الجميع فعليه بشرح الصفدى) .

فمن هذه قوله (وتأولت فى بيعة العقبة) وسياق كلامه فى هذا الفصل يقتضى ذكر أسماء أناس منكرات يبرأ هو أن يكون مثلهم ، ولم ينقل أحد من أهل الأثر أن أحداً ممن بايع فيها تأوّلها أو نكثها .

ومنها قوله « وتخلفت عن الصـلاة فى بنى قريظة » ولم يعلم أن رسـول الله — صلى الله عليه وسلم — أنكر على من تخلف عن صـلاة العصر فى بنى قريظة وصـلاها فى الطريق بل أقرّ الجميع على عملها وعد ذلك من اجتهاد الصحابة .

ومنها قوله « وزعمت أن بيعة أبى بكر كانت فلتـة » مع أن قائل هـذه الكلمة عمر بن الخطاب ، ولم يقلها عن إرادة سوء فلا ينبغى أن يتمثل به فى أعمال الجناة .

ومنها قوله « وكتبت إلى عمرو بن سعد أن جعجع بالحسين » مع أن المكتوب إليه الحرث بن يزيد التميمي لا عمر بن سعد .

وقد أتى الصفدي على عيوب آتية من تصحيف أو سوء تأويل منه هو ، أعرضنا عنها خوف التطويل .

رسالته الهزلية

كان الوزير أبو عامر بن عبدوس ينافس ابن زيدون في حب ولادة ، فاتفق أن حدثت مودة بينهما ، فأرسل ابن عبدوس إليها امرأة من صواحباته تستميلها إليه ، وتذكرها بفضله وأدبه ، فردت ولادة المرأة بالخيبة ، وكتب ابن زيدون إلى ابن عبدوس عقب رجوع المرأة هذه الرسالة على لسان ولادة ، يرد عليه ويتهكم ويهجوه ويتوعده . وفي ظننا أن ابن زيدون كتبها من نفسه تشفياً من ابن عبدوس لا عن رأي ولادة ورضاها عما أفحش فيها وأقذع .

والرسالة كسابقتها في قلة أعراضها وتكرار أساليب فصولها ، وذلك أنه بدأها بوصف ابن عبدوس بأوصاف الحمقى والجهلاء منكراً عليه إرسال خليلته إلى ولادة ، مثنية عليه ومرغبة فيه ، واصفة له بأوصاف أعيان الزمان من العلماء ، والأدباء ، والأطباء ، والفلاسفة ، والشجعان من فلان وفلان ، وإن ولادة طردتها أشنع طردة ، ثم أخذ يهجوه بأوصاف في الخلق والخلق ، وإن ولادة لو أرادت الرجال لكان لها من الاكفاء من قومها وأعيان زمانها من يفضله سناً وشرفاً وجمالا الخ .

٣ - دراسة الأستاذ علام سلامه[1]

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي القرطبي كان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة وبرع في الأداب والفنون ، فنم عليه فضله ، وذاع صيته ، وارتفعت مكانته ، واختص به أبو الوليد ابن جهور أحد ملوك الطوائف واتخذه وزيراً واعتمد عليه في السفارات بينه وبين ملوك الأندلس ، فأعجب القوم به ، وتمنوا ميله إليهم لبراعته ، وحسن سيرته ، واتفق أن نقم عليه ابن جهور وحبسه ، فاستعطفه برسالته السابقة وبأمثالها فلم يغن ذلك عنه شيئاً فتحيل لنفسه حتى تسلل من حبسه واتصل بالمعتضد بن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٤١ فحل منه محل السويداء من الفؤاد ، واستخلصه استخلاص المعتصم لابن أبي دؤاد يجالسه في خلواته ، ويركن إلى إشارته ، ولم يزل عنده وعند ابنه المعتمد قائم الجاه وافر الحرمة حتى توفي سنة ٤٦٣ وكان له ابن يقال له أبو بكر تولى وزارة المعتمد ، وقتل يوم أخذ يوسف بن تاشفين قرطبة سنة ٤٨٤ وقد أثنى عليه ابن بسام في الذخيرة بقوله : كان أبو الوليد غاية منثور ومنظوم ، وخاتمة شعراء بني مخزوم ، فاق الأنام طرا ، ووسع البيان نظماً ونثراً ، إلى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقترانه ، وحظ من النثر غريب المباني ، شعري الألفاظ والمعاني .

ومما يحكى عنه في سعة البيان والقدرة على التفنن في أساليب الكلام أن ابنته توفيت فوقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليتشكر لهم ، فما أعاد عبارة قالها لأحد ، وهذا عجيب للغاية ، ولا سيما من محزون فقد قطعة من كبده :

« ولكنه صوب العقول إذا انبرت سحائب منه أعقبت بسحاب . »

كتابته

كان ابن زيدون مع صفاء قريحته ، وقوة سليقته فى البيان يؤثر الرواية والتأنى لفسح القول . وكان مع سعة روايته لفنون الأدب عليما بأخبار العجم والعرب ، متمسكا من كل ما يعوز الأديب بسبب ، فليس بدعاً أن يكون لكل أولئك آثار فى كتابته ، وليس بدعاً أن لم تكن كتابته عفو الخاطر السانح ، ولا وحى البديهة البادهة ، ولا عصارة عصر الجبين ووليدة التكلف ، فقد جاءت خلاصة الرواية الحصيفة تؤيدها قوة الطبع ومصاصة التنقيح السديد، يؤازره لطف الذوق ، كما جاءت سبيكة رائعة صاغها صنع من مبتكر المعانى الساحرة ، ومستلب الأمثال السائرة ، ومقتبس الأبيات النادرة ، ورصعها بفرائد من أخبار الناس ونوادر الحوادث .

ولئن كان البديع قد فاقه فى استرسال الطبع ، ولطف الخيال ، ورشاقة المعانى ، لقد فاق هو البديع فى متانة المبانى ، والتغلغل فى نواحى المعانى ، والبصر بمواضع الاقتباس ، وتوشية الرسائل بأخبار الناس .

أما أوضح مميزاته ففخامة الألفاظ فى غير كزازة ، وعلو الأسلوب فى غير اعتساف ، ورصانة المعانى فى غير جفاف ، والتأليف بين جمال الخيال وجلال الحقيقة .

ومن محاسن رسائله رسالتاه الجدية والهزلية وكلتاهما غرة فى جبين الآداب العربية ، وقد عنى بشرحهما كثير من الأدباء . أما شعره فله ديباجة رائعة ، وصياغة بارعة كأنما هو سبائك النضار ، أو حدائق الأزهار ، إذا نسب أنساك صاحب بثينة ، وإن مدح حلته شاعر مزينة ، ومن مقطعاته التى تشهد له بجودة الطبع ، وإتقان الصنعة قوله :

« بينى وبينك مالو شئت لم يضع سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع . »

ومن شعره الذى يختلط بالروح رقة ، وبالهواء لطافة قصيدته التى كتبها إلى ولادة التى كان شديد الكلف بها والهيام بحبها يستديم عهدها ، ويؤكد ودها ، وفيها يقول :

« أضحى التنائى بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا . » الخ

وقد سقنا أكثر هذه القصيدة لنزاعتها ، وقد ضمن بعض شطورها ابن الوكيل فى موشحة ، وسدسها بعض أدباء المغرب .

٤ - دراسة الأستاذ أحمد زكى باشا

أولية ابن زيدون

كان فى جملة القبائل التى ذهبت إلى الأندلس رهط من بنى مخزوم توطنوا فى جهات قرطبة وما إليها ، وناهيك بهذه القبيلة ذات الشرف الصميم ، واللسان القويم .

فكان بنو زيدون من رجالاتهم المعدودين ، خصوصاً فى الفقه والأدب ، واشتهر منهم ثلاثة حفظ لنا التاريخ أسماءهم ، وهم :

(١) أبو بكر غالب بن زيدون
(٢) أبو الوليد أحمد بن زيدون
(٣) أبو بكر بن زيدون

كان مولد الأول فى سنة ٣٠٤ ومات سنة ٤٠٥ بعد أن بلغ من العمر مائة سنة . توفى فى ضيعة له . ثم نقلوا تابوته إلى قرطبة ، ودفن بالربض (أى الضاحية) .

وهنالك رثاه أبو بكر عبادة الشاعر الأندلسى بما يعرونا بمقامه فى قوله :

«أى ركن من الرياسة هيضا وجموم من المكارم غيضا
حملوه من بلدة نحو أخرى كي يوافوا به ثراه الأريضا
مثل حمل السحاب ماء طيبا لتداوى به مكاناً مريضا . »

وأما ثانيهم فهو واسطة العقد ، والذى يدور عليه كلامنا . والثالث هو الذى تقلد بعد أبيه (أبى الوليد) وزارة المعتمد بن عباد ، وانتقم لأبيه من ذى الوزارتين ابن عمار ، وكان أبو بكر هذا هو الذى تولى السفارة عن ابن عباد إلى يوسف بن تاشفين صاحب المغرب الأقصى حينما تنمر الاسبانيون مع ملكهم الإدفونش (الفونس السادس) لملوك الطوائف ، وخصوصاً لبنى عباد فى خطب يطول شرحه ، ولا يسع المقام تلخيصه .

من هو ابن زيدون ؟

هو ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومى الأندلسى . كان مولده بقرطبة فى سنة ٣٩٤ أعنى فى الوقت الذى سرى فيه الانحلال فى جسم الخلافة المروانية بالأندلس بعد أن بلغت من المجد نهاية النهايات ، وأدركت من الفخامة مالاتصدق معه الروايات . فى ذلك الوقت تحللت عرى الدولة ، فانقسم المسلمون على أنفسهم ، وتخاذلوا ، واستنصروا أعداءهم على بعضهم بعضا ، وسلموا البلاد والقلاع والحصون واحداً تلو الآخر إلى أعدائهم وأمدوهم بالمعونة على إخوانهم ، وهكذا حتى أودت تلك الفوادح بذلك الملك الكبير ، ثم أتت على القوم بأكلهم فأصبحوا خبراً بعد عين . نتساءل عنهم بقولنا كيف وأين ؟ فى تلك الأيام استظهروا على شهواتهم بجر ذيولها ، وامتروا بطالاتها من أخلاف أباطيلها . حتى انشقت عصاهم ، ودارت بدائرة السوء على الجهالة رحاهم .

كان ابتداء الاضمحلال والانحلال من أول يوم جلس فيه المستعين على عرش الخلافة فى منتصف ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ

فقد كانت أيامه كلها كما وصفها ابن حيان الأندلسى « شداداً نكرات ، صعاباً مشئومات ، كريهات المبدأ والفاتحة ، قبيحات المنتهى والخاتمة ، مافقد فيها حيف ، ولا ورق خوف ، ولانم سرور ، ولا فقد محذور مع تغير السيرة ، وخرق الهيبة ، واشتعال الفتنة ، واعتلاء العصبية ، وظمس الأمن وطول المخافة ، دولة كفاها ذما أنها تمخضت عن الفاقرة الكبرى ، وآلت من التى بعدها إلى ما كان أعضل وأدهى . مما طوى بساط الدنيا ، وعفا رسمها وأهلك أهلها ، وإذا أراد الله شيئا أمضاه . »

وكذلك لم يكن فى المستكفى أدنى كفاية للخلافة . وإنما أرسله الله على الأمة محنة وبلية . إذ كان منذ عرف منقطعاً إلى البطالة ، مجبولا على الجهالة ، عاطلا عن كل حلية تدل على فضله ، عصته الفتنة فأملق ، وهان حتى أهانه أهله ، ولقد رآه أبو حيان مؤرخ الأندلس المشهور أيام الخسف بأهل بيته فى الدولة الحمودية ولم يكن ممن لحقه الاعتقال منهم لركاكته . كان يقصد أهل الفلاحة يومئذ بقرطبة أوان ضمهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها . قال « وقد أجمع أهل التحصيل أنه لم يجلس فى الامارة منذ تلك الفتنة أسقط منه ،

ولا أنقص . إذ لم يزل معروفاً بالتخلف والركاكة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سقيم السر والعلانية ، أسير الشهوة ، عامل الحلوة . »

ذلك الوقت هو الذى أشار إليه ابن حزم بقوله :

« فضيحة لم يقع فى الدهر مثلها ، أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، يسمى كل واحد منهم بأمير المؤمنين ، ويخطب له فى زمن واحد : أحدهم خلف الحصرى بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم المؤيد . والثانى محمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء ، والثالث محمد بن على بن حمود بمدينة مالقة ، والرابع إدريس بن يحيى بن على بسبتة ، تلك هى الأيام التى دبى العرب والبربر فيها فى خصام مستديم ، وكان كل من الفريقين منقسما على نفسه ، وكان الجميع فى خلاف مع أهل المغرب الأقصى من الجنوب ، وفى حروب وخطوب مع بقايا الأمم الاسبانية من الشمال والغرب . فى ذلك الوقت العصيب تفرق أهل الأندلس فرقاً . وتغلب فى كل جهة منها متغلب . وهم الذين عرفهم التاريخ باسم ــ ملوك الطوائف ــ وقد أرادوا أن يفخموا أنفسهم وممالكهم فتقسموا ألقاب الخلافة ، كما تناهبوا أشلاءها . فكان منهم المعتضد ، والمأمون ، والمؤتمن والمستعين ، والمقتدر ، والمعتصم ، والمعتمد ، والموفق ، والمتوكل . إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية . حتى قال فى ذلك أبو علىّ الحسن بن رشيق بيتين سارا سير الشمس ، وبقيا بقاء الدهر ، وهما :

« مما يزهدنى فى أرض أندلس   سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها   كالهر يحكى انتفاخاً صولة الاسد . »

فكانت طرطوش ، وسرقسطة ، وافراغه ، ولاردة ، وقلعة أيوب فى يد بنى هود . وكانت بلنسية فى يد عبد الملك بن عبد العزيز ، وكان الثغر أى مافوق طليطلة فى يد بنى ذى النون وكانت قرطبة فى يد أبناء جهور ، وكانت اشبيلية فى يد بنى عباد ، وكانت مالقة والجزيرة الخضراء وغرناطة فى يد بنى برزال من البربر ، وأما المرية فكانت فى يد زهير العامرى الخادم ، ثم خيران العامرى الخادم ، ثم ابن صمادح وكانت دانية وأعمالها والجزائر الشرقية (الباليار) فى يد مجاهد العامرى ، وكانت بطليوس ويابرة وشنترين فى يد بنى الأفطس ، فلا عجب إذا كثر الوزراء فى تلك الأيام ، ولا عجب إذا كثر أيضاً ذوو الوزارتين ، فالناس على دين ملوكهم ، فكان كل من امتلك مائة كيلو مترامربعاً فى مثلها يعد نفسه سلطاناً كبيرا . ويتخذ من الحاشية مايضارع به أبهة الخلافة وقد كان عهدهم بها قريباً ــ فكثر عندهم الوزراء ، وكثر بينهم الذين يلقبون أنفسهم بذى الوزارتين .

ومن الطبيعى أن الرياسة إذا انحطت عن حلالتها تبعها المرؤوس فى السقوط ، فلما تدلت الخلافة فى الانحلال صارت الوزارة أيضاً فى درجات الهوان . فإن المستعين الذى ذكرناه قال بعد أن جلس على عرش الخلافة للناس أجمعين . ارتعوا كيف شئتم ، وارتسموا بما أحببتم من الخطط ، فتسمى بالوزارة مفردة ومثناة أراذل الدائرة ، وأخابث النظار ، فضلا عن زعانف الكتاب والخدمة (عن ابن بسام)

وصارت هذه الرتبة تنحط مع انحطاط الدول ، حتى نزلت فى أواسط القرن الثامن للهجرة إلى الدرجة التى وصفها لنا ابن فضل الله العمرى حيث قال :

« سألت الشيخ العلامة ركن الدين أبا عبد الله بن القويع رتبة الوزير بالمغرب ، فقال : ليست بطائل ، ولا لصاحبها شىء من الأمر . بل هو كالجاويش يخرج من قدام السلطان يوم الجمعة : حقيقة دون السمعة »

وقد استبدّ هؤلاء الرؤساء بتدبير ما تغلبوا عليه من الجهات ، وانقطعت الدعوة للخلافة ، فلم يبق لخليفة

هاشمى أو أموى ذكر على منابر الأندلس خلا أيام يسيرة دعي فيها بإشبيلية لهشام المؤيد بن الحكم (أو لشخص شبه له) حسبما اقتضته الحيلة، واضطر إليه التدبير. ثم انقطع ذلك، فأشبهت حال ملوك الأندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا. وحال قواد الاسكندر بعد وفاته. ولم يزل هؤلاء الرؤساء فى اقتتال وتخاذل، يستعينون بعدوّهم جميعاً فيميل تارة إلى هذا وطورا إلى ذلك حتى اختلت الأحوال إلى أن تولاهم الضعف فاستنصروا بالمرابطين فانتظم الشمل، وعادت المياه لمجاريها. ولكن إلى أجل معين. ثم عاد الانشقاق والانقسام، فانمحت كلمة الاسلام، وانطفأ ذلك النور، وباد القوم عن آخرهم فى سنة ٨٩٧ هجرية. بعد أن أقاموا فيها ثمانية قرون. لأن دخولهم كان فى سنة ٩٢ للهجرة على يد طارق بن زياد.

***

رفعت الستار عن هذا المنظر المحزن ليكون لكم ولأمم المشرق تذكرة وعبرة. خصوصاً فى الأوقات الحاضرة، والآن أقول لكم إنه على الرغم من توالى الفتن. واضطراب الأحوال كانت سوق الأدب رائجة وبضاعته نافقة. فلكل أمير، وكل وزير، وكل كاتب، وكل وجيه كان له من الأدب نصيب وافر.

عرفنا من تقسيم الأندلس بين ملوك الطوائف أن بنى جهور استبدوا بقرطبة وأن بنى عباد استأثروا بإشبيلية، فى المملكة الأولى درج ذو الوزارتين ابن زيدون وترقى وظهر فضله. وفى الثانية قضى بقية أيامه فى العزّ والكرامة. وكانت بها وفاته فى محرم سنة ٤٦٣ على التحقيق الدقيق كما نص عليه معاصره ابن بسام ولا عبرة بالأقوال الأخرى عن وفاته، لأن الذين قالوا بوفاته فى سنة ٤٠٥ خلطوا بينه وبين أبيه غالب ابن زيدون.

اشتغل ابن زيدون بالأدب، وفحص عن نكته، ونقب عن دقائقه. إلى أن برع وبلغ من صناعتى النثر والنظم المبلغ الطائل. حتى قال فيه ابن بسام:

« كان أبو الوليد غاية منثور ومنظوم وخاتمة شعراء بنى مخزوم... الخ. »

وما هتم أن أصبح فى الأندلس « متيم ذلك الحى، وعاشق ولادة لامى، زاد على مجنون ليلى، وقيس لبنى، وابن أبى ربيعة صاحب الثريا، تركه هواه أخف من قلم، وأشهر من نار على علم. وله مع ولاده أخبار ما حكى مثلها ابن أبى عتيق، ولا الاصفهانى عن سكان وادى العقيق، ولا الأصمعى عن أهل ذلك الفريق، أندى من نسيم الصباح، وأرق من ريق الموادى فى ثغور الأقاح »

وإذا تصفحنا دواوين الأدب عند الأمم الأخرى لا نجد له شبيهاً سوى تيبولس شاعر الرومان.

وتنقسم حياة ابن زيدون إلى قسمين مهمين (١) فى قرطبة، (٢) فى إشبيلية.

***

أوّلا — فى قرطبة: برع ابن زيدون فى الأدب، حتى كان أبو الوليد فى الأندلس شبيهاً ومثيلا لأبى الوليد فى دولة المتوكل العباسى، وقد سماه الناس بحترى الأندلس، ولقد صدقوا.

فمن جملة المحفوظ عنه فى صباه قوله:

أخذت ثلث الهوى غصباً ولى ثلث.. الخ.

ثم هام بعد ذلك بحب ولاده بنت المستكفى الخليفة الأمويّ بالأندلس، وكانت أديبة، شاعرة، جزلة القول حسنة الشعر، تناضل الشعراء، وتساجل الأدباء. وعمرت عمراً طويلاً ولم تتزوّج قط. جاءت على خلاف

أبيها فى كلّ أوصافها . فكانت مصداقاً لقوله تعالى « يخرج الحىّ من الميت » وقد ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله ، فصارت تجلس للشعراء والكتاب وتعاشرهم ، وتحاضرهم ، ويتعشقها الكبراء منهم ، وكانت على حلق جميل ، وأدب غصن .

وكان لابن زيدون معها أخبار تطرف القلوب ، وتشنف المسامع ، لأنه خلع فى هواها العذرى عذاره ، وقد شهد المؤرخون كلهم لها بالعفة والصيانة . ولكن الشعراء فى كل واد يهيمون ، فكيف لايهيم بولاده أبو الوليد بن زيدون .

والمقام لايتسع لاشعاره فيها وإشعارها إليه . ولكنى آتيكم براموز ومثال ، واترك الباقى لغير هذا المجال.

ودعها ذات يوم فأنشدها مرتحلا :

« ودع الصبر محب ودعك . . . الخ »

ثم قال :

« يانازحا وضمير القلب مثواه . . . الخ »

ولما كان مجلس ولادة بقرطبة منتدى لاحرار المصر . ورأوها ملعباً لجياد النظم والنثر . يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهافت أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة مسامرتها ، وهى مع ذلك محافظة على علوّ النصاب ، وكرم الأنساب ، وطهارة الأثواب ، ولقدطمع بعضهم فى الاستئثار بها دون ابن زيدون فنازعه على حبها وزاحمه فى ودها رجل من رجالات عصره ، وهو أبو عبد الله البطليوسى ، فكتب إليه ابن زيدون يزجره بهذا الزجر :

« أبا عبد الإله اسمع . . . الخ . »

ومنهم الوزير أبو عامر ابن عبدوس الملقب بالفار . وكان من أكابر رجالات قرطبة ، فاغتاظ ابن زيدون وبعث إليه بهذه الأبيات :

« أثرت هزبر الشرى إذ ربض . . . الخ »

ثم كتب له رسالته المشهورة على لسان ولادة ، وقد عبث فيها به كما عبث الجاحظ فى رسالته « التربيع والتدوير » بأحمد بن عبد الوهاب الكاتب فى بغداد ، فاشتهرت رسالة ابن زيدون فى المشارق والمغارب وهى التى شرحها كثير من أدباء المشارقة ، كابن نباتة والصفدى .

وشرح ابن نباتة قد طبع فى مصر مراراً . وهو فى غاية الحسن ونهاية الفائدة . وأما شرح الصفدى لهذه الرسالة فلم يصلنا . على أن ابن عبدوس لم ينثن عن محاولته . حتى تمكن من إيقاع الجفوة بين ابن زيدون وولادة ، واستأثر بها دونه ، فاغتاظ ابن زيدون والتجأ إلى قريضه القارص ، فلسع الرجل بقوله :

« أكرم بولادة ذخرا لمدخر | لو فرقت بين بيطار وعطار
قالوا أبو عامر أضحى يلم بها | قلت الفراشة قد تدنو من النار
عيرتمونا بأن قد صار يخلفنا | فيمن نحبّ وما فى ذاك من عار
أكل شهى أصبنا من أطايبه | بعضاً وبعضاً صفحنا عنه للفار.»

ولقد فاز ابن زيدون بمناه . من إقصاء الفار عن حماه . بل أن ولادة أخذت تعبث بذلك الوزير. حتى إنها مرت به ذات يوم فى تربها وسربها ، وكان الوزير ابن عبدوس جالساً على داره يستنشق الهواء العليل ، وكانت أمام داره بركة تجمعت فيها مياه المطر ، وانساق إليها شىء من أقدار الدار ، وكان الوزير

جالسا فى أبهته وعظمته وقد شمركية ، ونظر فى عطفيه ، وحصر أعوانه إليه . فلما قربت منه ولادة نادته باسمه ، فهش إليها وبش ، واقترب من البدر فقالت له وهى تشير إلى البركة : يا ابن عبدوس :

« أنت الخصيب وهـذه مصر فتـدفقا فكلاكما بحر . »

ثم نفرت كالظبي الشارد وتركته حائراً نائراً . باهتاً صامتاً ، لا يحير جواباً ، ولا يعى خطأ ولا صـوابا ، وهذا البيت لأبى نواس تمثلت به ولادة وقلته هذا النقل الحسن من المدح إلى الهجاء .

غير أن هـذا الوزير صبر حتى خلا جو قرطبة من ابن زيدون فاسـتأثر بولاده وعاش وعاشت حتى بلغا الثمانين وهما يتراسلان ويرتعان فى بساتين الأدب ورياض العفاف .

***

لم يبلغ ابن زيدون الخامسة والعشرين من عمره حتى نبه ذكره ، وعم صيته . اصطنعه أبو الحزم بن جهور المتغلب على قرطبة ونواحيها وضواحيها ونوه به لأنه رآه فتى الآداب ، وعمدة الظرف . والشاعر البـديع الوصف . ولما له بقرطبـة من الأبوة السنية ، والوسامة والدراية ، وحلاوة المنظوم ، وقوة العارضة ، والافتنان فى المعرفة ، وكانت الكتب تنفذ من إنشائه إلى شرق الأندلس فيقال : تأتى اشبيلية كتب هى بالنظم الخطير ، أشبه منها بالمنثور . ثم ترقى فى وظائف الدولة القرطبية حتى صار إليه النظر على أهل الذمة . ثم رآه ابن جهور أهلا للوزارة فرقاه إليها . بل جعله ذا الوزارتين ، فكان منه بمنزلة السـمير والوزير والمشـير والسـمير . فكم أنفذه إلى ملوك الطوائف لأمور سياسـية • ولمخابرات تقتضيها المعاملات والمجاملات التى التى يوجبها ، أو تدعو إليها علاقاته معهم أو مع ملوك الاسبانيين الذين كانوا يتربصون به وبهم دوائر السوء . فأحسن ابن زيدون التصرف فى ذلك . وغلب على قلوب الملوك . حتى كان كل ملك يخطب وده . ويتمنى أن يقيم عنده . ولـكنه بعـد انقضاء مهمته يرجع إلى صاحبه بقرطبة وإلى مجالس أنسـه بها . ولهوه بأهلها فى ذلك الوقت المضطرب بالفتن الداخلية والخطوب الخارجية . كانت الجاسوسـية لها أثر فى مصالح الدولة ، وفى أحوال الأفراد .

نترك أمور الدولة وسـياستها جانباً . ونقتصر على الدائرة التى ارتضينا لأنفسنا الجولان فيها وهى ميدان الأدب .

ونذكر حكاية تدل على الجاسوسية الفردية فى تلك الأيام .

كانت بقرطبة جارية تتعشق فتى من القرشـيين . وكانت لوجدها كاتمة . ولـكن الخبر وصـل إلى الوزير ابن زيدون ، فلم يعبأ به لأن القوم كلهم كانوا متغلغلين فى هذه السبيل .

وكانت الجارية تقول الشعر فجاشت نفسها ببيت فذ وامتنع عليها ما تريد . وهذا البيت هو :

« يا معطشى عن وصال كنت وارده هل منك لى غلة إن صحت : واعطشى . »

فجاءت إلى كبير الوزراء . وأمير الشـعراء . وسألته أن يزيد عليه شيئاً وهى تظن أنه لا يعلم بما هى فيه من الغرام . فأمسك القرطاس واغتنم فرصة الروى ، وما يعلمه من السر المطوى ، فكتب :

« كسـوتنى من ثياب السقم أسبغها ظلماً وصيرت من لحف الضنى فرشى . »

. . . .

« جفنى إذا اللذت الأجفان طيب كرى جفا المنام وصاح الليلَ يا قرشى . »

ومن تأمل أحوال الأندلسيين رأى أنهم كانوا يبالغون فى التشبه بالشرقيين فى كل ما اشتهروا به أو اشتهر

من أحوالهم ، فدائنهم وعمائرهم وقصورهم ومنازههم سموها بما اختاره الشرقيون فى بلادهم كذلك حاكوهم فى مجالس أنسهم . وأنا أقتصر على مايتعلق بابن زيدون وصحبه ، وأمهد لذلك بما كان فى بغداد .

كان فى دار السلام الوزير المهلبي المشهور ، والقاضي التنوخي ، وقد بلغا من الكبر سناً عالياً . ولهما ذقون بيضاء تنهال على صدورهما ، وكانا يتعاطيان فى النهار أمور الدولة بغاية الحشمة والوقار . حتى إذا جنّ الليل اجتمعا فى مجلس العقار ، فكانا يغمسان فى أوانى من البلور والنضار ، ولا يكتفيان بلذة الشراب ، بل يغمسان أدقانهما فى الأوانى ، ثم يرش كل منها الشراب بتلك الرشاشات الغريبة على صاحبه لتتم لهما لذة السكر حسا ومعنى . باطناً وظاهراً ، ويستمران على ذلك طرفا من الليل . حتى إذا جاء الصباح عادا إلى أشغالهما ، الوزير فى تدبير الدولة ، وقاضى القضاة فى النظر فى الخصومات ، والحكم على مقتضى الشرع ، واستمرا على هذه الحال فى معاقرة المدام ، حتى وافاهما الحمام .

فاسمعوا نظير ذلك فى قرطبة . كان القاضى أبو بكر بن ذكوان ، من الجلالة بأسمى مكان ، أدركته حرفة الأدب ، وله فى العلم باع طويل ، وكان يتشبه فى خلوته مع ابن زيدون ، بالقاضى التنوخى مع الوزير المهلبى ، وهنالك ما شئت من دعابات ورقاعات ، وما تخيلت من فكاهات ومجانات ، حتى إذا أصبحا ، ذهب ذو الوزارتين إلى شأنه فى ديوانه ، وبكر أبو بكر إلى مجلس الحكم بمقتضى الحق ، ومتى اقترب المساء عادا إلى التصف ، وتجاوزا فى ميدانها كل وصف ، إلى أن سطا الدهر على أبى بكر .

واتفق أن مرّ ابن زيدون يوماً بقبر ابن ذكوان فى لمة من إخوانه ، وجماعة من عمار ميدانه ، فعطفوا عليه مسلمين ، فقال أبو الوليد بن زيدون مرتجلا :

« انظر لحال السرو كيف تحال . . . . الخ »

***

فتى أديب حر يصل إلى هذه المكانة قبل أن يصل إلى الثلاثين من العمر ، فكيف لا يكون كما كان المتنبى حرب الزمان والدهر . ثم قد دبت عقارب الغيرة بينه وبين حاسدى نعمته وسعادته ، والمناظرين والأنداد فتألبوا عليه وتآمروا حتى اتهموا بإيداعه فى شراكهم ، ونححوا لدى الأمير ابن جهور فحبسه حبساً طالت مدته ، فكانت تلك السجون مثارا لشجونه ، بعد أن صاغ لبنى جهور ولاسيما لأبى الحزم قلائد وخرائد ، كتب إليه من السجن أشعاراً ورسائل مختاره ، فاضت بها نفسه فى التنصل والاعتذار والاستشفاع والاستعطاف ، ولكن المراحين له على مركزه فى الدولة ، وعلى حب ولادة كانوا دائما يفورون ، فبقى فى السجن مدة تنيف على الخمسمائة يوم .

كتب لابن جهور تلك الرسالة البديعة التى طبعها أحد المستشرقين فى سنة ١٨٨٩ . وهى التى شرحها العلامة صلاح الدين الصفدى .

ولقد زارته أمه فى سجنه . فخانتها دمعتها ، فقال يخاطبها من قصيدته اللامية التى وجهها إلى ابن جهور مستعطفاً :

«ألم يأن أن يبكى الغمام على مثلى . . . . الخ »

وما ألطف وصفه لنفسه ولوشاته فى إحدى قصائده الطنانة :

« كأن الوشاة — وقد منيت بإفكهم — أسباط يعقوب وكنت الذيبا . »

هذه الأحوال مضافة إلى نفس كبيرة تتعب فى مرادها الأبدان ، شيبت رأس ابن زيدون وجعلته هرما قبل

الأوان ، فقد رأى الشيب فى رأسه وعارضيه . فبكى على نفسه وقال من قصيدة أخرى يستعطف بها ابن جهور أيضا :

« لم تطو برد شبابى كبرة وأرى برق المشيب اعتلى فى عارض الشعر
قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كثب وللشبيبة غصن غير مهتصر . »

وفيها يقول بما يعرفنا بأنه عارف قدر نفسه :

« أحين رف على الآفاق من أدبى غرس له من جناه يانع الثمر ؟
وسيلة سببا إن لا تكن نسبا فهو الوداد صفا من غير ما كدر . »

فدلنا بذلك على أن الشيب ألم برأسه وبلحيته ، قبل أن يصل إلى الثلاثين من عمره . وذلك مصداق لما ذكرناه من أنه بلغ مراتب العلا وهو فى سن الفتوة وريعان الصبا ، وذكر الصفدى أنه كان يخضب بالسواد .

ثم أنه تحيل فى الهرب ونجح . فلما خرج من السجن اختفى بقرطبة وأقام فيها متوارياً ، ثم نظم قصيدة طويلة يخاطب فيها ولادة ويستنهض الأديب أبا بكر بن مسلم للشفاعة ويستنزل أبا الحزم بن جهور وفيها يعرفنا أن مدة حبسه بلغت خمس سنين . قال :

« سقون من الأيام خمس قطعتها أسيراً ، وإن لم يبد شد ولاربط . »

والقصيدة طويلة جميلة جليلة ، ثم إنه مازال بأبى الوليد بن جهور يستشفع به إلى أبيه أبى الحزم ، حتى شفع له وانتشله من نكبته وصيره فى صنائعه ، ولما ولى الأمر بعد والده نوه به وقدمه فى الدين اصطنع لدولته وجلله كرامة لم تقنعه ، زعموا . فلا غرابة إذا بكى واستبكى حينما مات أبو الوليد بن جهور الذى أذاقه من الحبس والعذاب ألواناً . فقد وجد ابن بسام بخط ابن حيان هذه المرثية البديعة لابن زيدون فى أبى الحزم :

«ألم تر أن الشمس قد ضمها القبر . . . . الخ »

ولكننا نعود إلى ولادة ونتساءل هل نسى أبو الوليد ولادة ؟ كلا . بل عاد إلى التودد إليها والتقرب منها ، وكان يذكرها فى قرطبة ويراسلها بأشعاره الرائعة الفائقة .

ذهب مرة إلى الزهراء يتأمل فى محاسنها فوصفها بقوله :

« إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقاً . . . . الخ »

ثم أرسله أبو الوليد بن جهور سفيراً إلى حضرة إدريس الحسنى بمالقة .

فأطال الثواء هنالك واقترب من إدريس وخف على نفسه ، وأحضره مجالس أنسه ، فعتب عليه ابن جهور وصرفه عن السفارة بينه وبين أمراء الأندلس فيما يجرى بينهم من التراسل والمداخلة .

إلى هنا انقضت أيامه فى قرطبة ، فلقد خشى أبو الوليد أن يلاقى من الوليد ما لاقاه من الوالد . وحينئذ صحت عزيمته على الهجرة من قرطبة والذهاب إلى المعتضد بن عباد بإشبيلية .

فلامه بعض أخصائه على ما اعتزمه من التحول عن وطنه وهجر أهله وخلانه ، فكتب إليه رسالة صافية يعتذر فيها لنفسه ويقول من جملتها ما نصه :

«وكنت أول حبسى قد وضعت من السجن فى موضع قد جرت العادة بوضع مستورى الناس . . . الخ.»

ولكن ابن زيدون كان قد ذاق من الدهر حلوه ومره فلم يرض لنفسه بالذهاب إلى إشبيلية دون أن يكون على ثقة من أمره . فلذلك كتب رسائل بديعة إلى بعض المقربين من المعتضد ، ثم إلى المعتضد نفسه ، ليمهد السبيل إلى الهجرة . حتى إذا تحقق أنه سينزل فى إشبيلية على الرحب والسعة أزمع الرحيل إليها ، وكان ذلك فى سنة ٤٤١ للهجرة .

واتفق فى وقت فراره من قرطبة إلى اشبيلية أن صادفه عيد الأضحى ، فرأى الناس مبتهجين بالعيد ، وهم يتزاورون ويتبادلون التهانى ، وهو شريد طريد ، ففاضت نفسه بوصف حاله :

« خليلى لا فطر يسر ولا أضحى . . . . الخ »

فلما وصل إشبيلية . نزل على كنف المعتضد ، وأصبح من خواصه وصحابته يجالسه فى خلواته ، ويرسله فى مهم رسائله ، وولاه الوزارة وحفظ له لقبه « ذا الوزارتين » .

كان المعتضد جعل مجلسه منحطا عن مجلس ابنه وولى عهده المعتمد بن عباد فكتب المعتمد لابن زيدون :

« أيها المنحط عنى مجلسا وله فى النفس أعلى مجلس
بفؤادى لك حب يقتضى أن ترى تحمل فوق الأرؤس .»

فأجابه ابن زيدون يشكره :

« أسقيط الطل فوق النرجس أم نسيم الروض تحت الحندس ؟ »

ولكن هل أنساه ذلك ولادة ومحاسنها . أم قرطبة ومساكنها ؟ كلا فلم يزل صاحبا مشغوفا بهذه وبتلك وأشعاره أكبر دليل على ذلك . وكلما حانت له فرصة ، أو هزته نشوة ، قال فيهما أقوالا تذيب الفؤاد .

فلقد تشوق إلى قرطبة وساكنيها بقصيدة تدل على حنينه لها وللى فيها ، فقال :

« على الثغب الشهدى منى تحية . . . . الخ »

وكان يبلغه عن بنى جهور ما يسوءه فى نفسه وقرابته فى قرطبة ، فقال يخاطبهم :

« بنى جهور أحرقتمو بجفائكم فؤادى ! فما بال المدائح تعبق
تعدوننى كالعنبر الورد إنما تفوح لكم أنفاسه حين يحرق .»

وأما أمداحه فى المعتضد بن عباد فشىء كثير جليل .

وقد كتب عنه إلى صهره الموفق أبى الجيش بن مجاهد العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية المعروفة الآن بجزائر البليار :

«عرفت عرف الصبا إذ هب عاطره . . . . الخ .»

قلت فيما تقدم إن ملوك الطوائف كانوا منقسمين على أنفسهم ، وإن الحرب كانت دائرة بينهم فإليكم مثالا واحداً مما يتعلق بابن زيدون ، وذلك أن الحرب وقعت بين المعتضد صاحب إشبيلية ، وبين ابن الأفطس صاحب بطليوس ، فانهزم ابن الأفطس هزيمة فظيعة ، وخسر خسارة جسيمة ، فقال ابن زيدون يهنئ المعتضد :

« ليهن الهدى إنجاح سعيك فى العدا . . . . الخ .

هذا مع أن ابن زيدون سبق له مدح ابن الأفطس بمدحة غراء فى قصيدته التى يقول فيها

« لبيض الطلى ولسود اللمم . . . . . . الخ .»

ولا غرابة فى ذلك ، فالملك عقيم ، وتصاريف السياسة تقضى بالتغيير من حال إلى حال . خصوصا إذا انقسمت أمة من الأمم على نفسها وخاضت فى غمار الخطوب والفتن ، وفوق ذلك ، أفليس التقلب من مدح إلى هجاء ومن ملام إلى سلام ، هو سجية من سجايا الشعراء الكرام وغير الكرام .

فلما مات المعتضد بن عباد وتولى الملك إبنه المعتمد بن عباد كان لابن زيدون عنده تلك الكرامة وهذه الحفاوة ، تدلنا على ذلك شهادة التاريخ ويؤيدها قول ابن زيدون نفسه فى رثاء المعتضد ومخاطبته روحه بعد دفنه :

«أعباد ! ياأوى الملوك لقد عدا ، عليك زمان من سجيته الغدر.» الخ

ومن المعلوم أن ابن زيدون هو الذى دبر دولة المعتضد وأظهر صولتـه وأغراه بأعدائه ، وزين له الايقاع بعماله ووزرائه . فغدا شـجا فى صدورهم ، وبكدا فى سرورهم . فلما آل الأمر إلى المعتمد ، قام حساده وخصومه وسعوا لديه فى النكاية به ، ثم رموا إليه برقعة فيها قصيدة طويلة أولها :

« يا أيها الملك العلى الأعظم اقطع وريدى كل باغ يظلم !

واحسم بسيفك داء كل منافق يبدى الجميل . وضد ذلك يكتم ! »

وهى قصيدة طويلة تتألف من ٢٧ بيتاً كلها اغراء بابن زيدون على سبيل التصريح المفهوم . ولـكن المعتمد كان أعقل من ابن جهور. فلم يصغ لتلك النميمة ، ولم تنجع لديه تلك السعاية فقال فى صدهم وردكيدهم فى نحرهم :

« كذبت مناكم : صرحوا أو جمجموا . . . . الخ . »

فلما بلغ ابن زيدون ما راجعهم به ، وتحقق حسن مذهبه ، وعلم أن حيلتهم قد أخفقت ، وسعايتهم ما نفقت ، وسهامهم تهرعت ، ومكائدهم تبددت وتورعت ، قال يمدح المعتمد ويعرض بأعاديه بقصيدة طويلة مطلعها :

« الدهر إن أملى فصيح أعجم . . . . . . الخ . »

واسـتقرّ المعتمد به فى وزارته ، فكان أحد وزرائه الثلاثة الأكابر المشاة وزارتهم (أى أحد الثلاثة الذين يلقب كل واحد منهم بذى الوزارتين) والآخران هما ذو الوزارتين ابن عمار ، وذو الوزارتين ابن خلدون (جد صاحب التاريخ المشهور) .

خرج الثلاثة فى أحـد الأيام من إشبيلية الى منظرة (قصر خلوى) لبنى عباد بموضـع يقال له الفنت (تقريبا لفظ اسبانى) وهو منتزه تحف به مروج مشرقة الأنوار ، متنسمة الأنجاد والأغوار ، متبسمة عن ثغور النوار . . . فى زمان ربيع سـقت الأرض السحب فيه بوسميها ووليها ، وحملتها فى زاهر ملبسها وباهر حليها ، وأرداف الربى قد تأزرت بالازر الخضر من نباتها ، وأجياد الجداول قد نظم النوار قلائده حول لباتها، ومجامر الزهر تعطر أرديه النسائم عند هبانها ، وهناك من البهار ، مايربى على مداهن النضار، ومن النرجس الريان، مايزرأ بنواعس الأجفان ، وقد نووا الانفراد للهو والطرب ، والتنزه فى روضى النبات والأدب ، وبعثوا صاحباً لهم يسمى «حليمة» هو قوام لذتهم،ونظام مسرتهم، ليأتيهم بنبيذ يذهبون الهم بذهبه فى لجين رحاحه،ويرمونه بما يقضى بتحريكه للهرب عن القلوب وإزعاجه ، فجلسوا لانتظاره ، وترقب عوده على آثاره ، فلما بصروا به متمـلا من أول الفج بادروا إلى لقائه وسارعوا نحوه . واتفق أن فارساً من الجند ركب فرسه فصدمه ، ووطئ عليه فهشم أعظمه ، وأجرى دمه ، وكسر قصال (١) النبيذ الذى كان معه ، وفرق من شـملهم ما كان الدهر جمعه ، ومضى على غلوائه راكضاً حتى خفى عن العين ، خائفاً من متعلق به يحين بتعلقه الحين ، وحين وصل الوزراء إليه تأسفوا عليه وأفاضوا فى ذكر الزمان وعدوانه والخطب وألوانه ، ودخوله بطوام المضرّات ، على تمام المسرّات ، وتكديره الأوقات المنعمات ، بالآفات المؤلمات ، فقال ابن زيدون :

« أنلهو والحتوف بنا مطيفة وتأمن والمنون لنا مخيفه »

فقال ابن خلدون :

« وفى يوم وما أدراك يوم مضى قصفا لنا ومضى خليفه »

---

(١) القصال كلمة يستعملها المغاربة والأندلسيون بمعنى جرة النبيذ ، وهو إناء من الفخار .

فقال ابن عمار :

« هما نجارنا راح وروح تكسر تافأشقاف وجيفه »

ولابن زيدون مدائح فى المعتمد بن عباد كلها درر وغرر ، وآيات بينات ، وله معه مداعبات ومطارحات ومساحلات ، فتارة يشوقه إلى تعاطى الحميا فى قصوره البديعة ، وتارة يرسل له التفاح ويكتب عليه الأشعار ، يدعوه إلى تناول العقار ، وتارة يهنيه ، وأخرى يمدحه ، وله بيتان قد بلغا حدّ الابداع فى هذا الباب . قال يخاطبه :

« مهما امتدحت سواك قبل فانما مدحى إلى مدحى لك استطراد
يغشى الميادين الفوارس حقبة كيما يعلمها النزال طراد »

فما أحسن هذا التنصل بالتمرن على المديح ، حتى إذا أجاد وبلغ المراد أهدى ثمرته إلى ابن عباد .

هذه قطرة من بحر من بحور شعر ذلك الفرد ، وأما نثره فشىء بعيد حصره ، ومما يجهله كثيرون أنه ألف كتابا فى التاريخ وجعله ابن حزم من مفاخر الأندلس ، وقال إن أبا الوليد بن زيدون ألف كتاب التعيين فى خلفاء بنى أمية بالأندلس على منزع كتاب التعيين فى خلفاء المشرق للمسعودى ، وقد نقل صاحب نفح الطيب سطرا أو سطرين عن هذا الكتاب الذى لم يبق له أثر ولا عين .

وما زال ابن زيدون يتشوق لقرطبة ولمن فيها ويعمل لدى المعتمد بن عباد حتى جعل قرطبة منتهى أمله . فسعى فى مداخلة أهلها . ومواصلة ذوى الكلم فيها لأنه رأى عدم الفائدة والمكايده لاستمساك أهلها بدعوة الخلافة وأنفتهم من زوالها عنهم وانطماس رسومها فى بلدهم ، فلما فاز بالمرام وانتظمت تلك العاصمة الصحمة فى ملكه ، ذهب إليها مسرعا واهتم بتدبير شؤونها ، هنالك جاشت نفسه بالفخر على سائر ملوك الطوائف فقال

« من للملوك بشأو الأصيد البطل . . . . . . الخ . »

أما ابن زيدون ، فقد عاد قرير العين إلى وطنه وأهله ، وكانت له شـيعة كبيرة فى قرطبة ، فارتفع جده ، وزاد إقبال الدنيا عليه وبلغت حظوته عند المعتمد درجة لا يطمع فيها .

فحينئذ سعى فى هلاكه صاحباه ، ابن مرتين وابن عمار ، وتلطفا فى إبعاده وإبعاد ابنه من بعده ليحلو لهما الجوّ ، وليفردا بالاستئثار بابن عباد ، ولقد ساعدتهما الظروف .

فقد وقعت فتنـة فى إشبيلية واضطرّ ابن عباد للتعجيل بارسال جيش كثيف إليها تحت قيادة ابنه سراج الدولة بن عباد ، فسـول ابن مرتين وابن عمار لابن عباد أن يرسل ابن زيدون مع سراج الدولة وتلطفا فى تفهيم السلطان أن ذهاب ذى الوزارتين فيه حقن للدماء ، وحفظ للنظام ، لما له من المكانة العاليـة والجاه الرفيع ، ولأنه محبوب لدى جميع القلوب ، ثم وسـوسا له بأن المصلحة كل المصلحة هى فى وجود ابن زيدون الوزير العاقل المدرب المحنك المحبوب بجانب سراج الدولة الذى هو قرة عين الملك ، ومطمح الأنظار لبقاء البيت العبادى ، وما زال الرجلان ينسجان على هـذا المنوال حتى ألحا خصـوصاً لعياب ابن زيدون فى مرض ألزمه البيت .

صـدر إليه الأمر بالذهاب ولم يعذره السلطان فى التوقف لما به من الآلام ، فخرج منها مع الحاجب سراج الدولة بن عباد والجيش متوجهين إلى إشبيلية ، وكان ذلك يوم ١٣ ذى الحجة سنة ٤٦٢ ، وخلف فى قرطبة ابنه الوزير الكاتب أبا بكر بن زيدون ، ولـكن صاحبينا (ابن مرتين وابن عمار) مازالا يعملان لدى ابن عباد حتى صدر الأمر إلى أبى بكر ابن زيدون أيضا بان يلحق بابيه فى اشبيلية .

حينئذ خلا لهما الجو فاستأثرا بالأمور كلها وانفردا بتدبير الدولة بلا مشارك لهما فى أمرهما ولا معارض

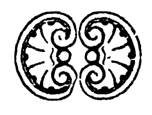
لهما فى اغراضهما ، وكأن زوال دولة ابن عباد كان مقدارا على يد هــذين الرجلين فابن مرتين ، يكفى فى التعريف بمراميه أنه ابن مرتين أى أنه من أصل غير عربى ، فان جده رجل إســبانى ، وأما ابن عمار فقد أنكر فضل ابن عباد ، وشق عصا طاعته ، وسعى فى الفساد والخراب ، وحرق العهود ، وخان وأتعب ابن عباد حتى أوهى دولته ، على ماهو معروف مشهور .

أما ابن زيدون وهو فى إشبيلية ، فلم يطل الأمد به بعد خاق ابنه به ، فكأنه جاء ليكفنه ويدفنه بها فى صدر رجب سنة ٤٦٣ ، حينئذ تولى منه كهل لن يخلف الدهر مثله جمالا وبياناً وروعة وظرفاً .

وهو عند أولى التحقيق فى النظم أمد طلقا ، وأحث عنقاً ، فلا يلحقه تقصــير ، ولا يخشى وهناً ، ولما وصل خبره إلى قرطبة ، وله فيها عشرة كبيرة وأشياع كثار ، تنازعوه وحزنوا عليه لأنه كان منهم ، هاوياً إليهم ، حدباً عليهم ، وليجة خير بينهم وبين سلطانهم الحديث الولاية .

فأراد السلطان أن يترضاهم فأرسل لابنه (أى أبى بكر ابن زيدون) وقربه إليه ، ورقاه فى مراتب والده حتى أعطاه بالوزارة وقد اغتنم هذا فرصة ماوقع من ذى الوزارتين ابن عمار من الخروج على ابن عباد فأوغر صدر ابن عباد عليه ، ومازال يعمل لديه حتى كان سبباً فى هلاك ابن عمار على ماهو معروف مشهور .

انتهى الكتاب



تم طبعه « بشركة مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده » فى يوم الخميس ٢ ربيع الثانى سنة ١٣٥١ (٤ اغسطس سنة ١٩٣٢) م

مدير المطبعة

رستم مصطفى الحلبى

فهرس

القوافى من ديوان ابن زيدون [1]

حرف الألف

حرف الباء

(١) كل ما وضعناه بين قوسين هو لغير ابن زيدون

حرف الراء

حرف السين

حرف الميم

حرف الواو

حرف الياء

